

سلسلة رسائل لعالمية لموصى بطبعها  
" ٢ "



المملكة العربية السعودية  
وزارة التعليم العالي  
جامعة أم القرى  
معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي  
مكة المكرمة

## الدولة العثمانية والخزوه الفكري

حتى عام ١٣٢٧ هـ / ١٩٠٩ م

دكتور

خلف بن دبلان بن خضر الوديناني  
الأستاذ المساعد في التاريخ الحديث والمعاصر

بجامعة أم القرى

مكة المكرمة

١٤١٧ هـ / ١٩٩٦ م

ذخیرہ پروفیسر محمد اقبال مجددی

جو 2014ء میں پنجاب یونیورسٹی لائبریری کو

ہدیہ کیا گیا۔



سلسلة رسائل لعالمية لموصى بطبعها  
" ٢ "



المملكة العربية السعودية  
وزارة التعليم العالي  
جامعة أم القرى  
معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي  
مكة المكرمة

# الدولة العثمانية والخزوه الفكري

حتى عام ١٣٢٧ هـ / ١٩٠٩ م



دكتور

خلف بن دبلان بن خضر الودينياني

الأستاذ المساعد في التاريخ الحديث والمعاصر

بجامعة أم القرى

مكة المكرمة

١٤١٧ هـ / ١٩٩٦ م





هذا العمل هو رسالة دكتوراة في « الدولة العثمانية والغزو  
الفكري حتى عام ١٣٢٧ هـ / ١٩٠٩ م » .  
من جامعة أم القرى بمكة المكرمة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية  
قسم : التاريخ . أوصت لجنة المناقشة بطبعها ..

وبالله التوفيق



بسم الله الرحمن الرحيم

### تقديم الموضوع

الحمد لله الذي هدانا الى الاسلام ، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ،  
وأكمل لنا الدين، وأتم علينا النعمة ، ورضي لنا الإسلام دينا ، وأرسل محمدا  
بالهدى ودين الحق ، فبلغ الرسالة ، وأدى الأمانة وجاهد في الله حق جهاده ،  
حتى تركنا على المحجة البيضاء ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها الا هالك ، فصل  
اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين ،  
وبعد:

فإنه بعد حصولي على درجة الماجستير في التاريخ الاسلامي في (العصر  
الحديث ) ، أخذت أستعرض أحداث التاريخ الاسلامي وتطوراته وذلك لاختيار  
موضوع منها يكون مناسباً لدراسته في مرحلة الدكتوراه ، ومن خلال تلك  
الدراسة رأيت أن تاريخ العالم العربي والاسلامي في العصر الحديث يعتبر الجزء  
الأكبر منه داخل في تاريخ الدولة العثمانية ، ومن ثم أصبح اختيار موضوع من  
تاريخنا العربي والاسلامي في العصر الحديث مرتبطاً أساساً بتاريخ الدولة العثمانية .  
ومن هذا المنطلق وقع اختياري لموضوع جوهرى يمس حياتنا وواقعنا المعاصر ، لأن  
جذوره ظهرت ونشأت خلال فترة تاريخ العصر الحديث، للعالم الاسلامي والعربي  
وذلك لمعرفة أسبابه ونشأته وتطوره ونتائجه . هذا الموضوع يحمل عنوان ( الدولة  
العثمانية والغزو الفكري ) حتى عام ١٣٢٧هـ / ١٩٠٩م . وقد جاء اختياري لهذا  
الموضوع لأمر منها :

أولاً: لاحظ كثير من الباحثين الذين تناولوا الغزو الفكري أن العالم الاسلامي  
كان عرضة للغزو الفكري في كل عصوره التاريخية ، وخاصة في العصر الحديث .  
ولكن فاتهم أن يلاحظوا أن العالم الاسلامي كان غازياً في عصور قوة الدولة  
الاسلامية . فالدولة العثمانية كانت متقدمة فكرياً وسياسياً في عصرها الأول ، ذلك



العصر الذي طبقت فيه النظم الاسلامية تطبيقا شاملا ، ولكنها كانت غير ذلك في عصرها الثاني .

ثانيا : أهمية تناول الغزو الفكري من الجانب التاريخي وبالأسلوب التاريخي التطبيقي في العصر الحديث تناولا ينفرد به قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية وقسم التاريخ الاسلامي بكلية الشريعة والدراسات الاسلامية بجامعة أم القرى لاعداد تخصصات مباشرة ودقيقة للموضوعات التي استحدثت عند تطوير مناهج قسم التاريخ ، ومنها الغزو الفكري .

فموضوع الدولة العثمانية والغزو الفكري من الموضوعات المهمة والجديدة التي لم يتعرض لها أي باحث على المستوى العلمي الدقيق ، ونتيجة لذلك استعنت بالله وسألته التوفيق ، وعزمت على دراسة هذا الموضوع وجمع شتات مادته من الموارد العلمية ذات الصلة بالموضوع .

أما الصعوبات التي واجهتني ، فلاشك أن أي باحث - مهما بلغت درجته العلمية - لا بد أن تقابله بعض الصعوبات والمتاهات التي تظهر له أثناء جمع المادة ، ولكن بالعزيمة والاصرار يستطيع الباحث بتوفيق من الله تعالى أن يجتاز كل الصعوبات ، الا أن الباحث لا يخلو من الخوف والقلق وهذا ما حدث لي ، وخاصة لصعوبة هذا الموضوع ، حيث بدأت رحلتي العلمية الشاقة للبحث عن مادة هذا الموضوع ، بدراسة تاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتها حتى خلع السلطان عبدالحميد الثاني دراسة مستفيضة وقفت من خلالها على أحوال الدولة في عصر قوتها حتى دانت لها أوربا ، وجثت أمامها على ركبتيها ، بل وهددت روما حتى كادت تفتحها وتنشر الاسلام فيها ، فاهتزت لهذا الحدث أركان أوربا ، وخافت روما من السقوط . ونتيجة لذلك انكشيت الحركة الصليبية خوفا من المسلمين ، خاصة بعد أن فتح العثمانيون القسطنطينية التي كانت مركزها ومعبرها الوحيد الى داخل الأراضي الاسلامية ، فوقفت الصليبية تدافع عن نفسها مذهولة ، بعد أن

كانت تهدد العالم الاسلامي وتقيم الأحلاف عقب الأحلاف ، لتنتقل بحروبها الصليبية من جديد الى البلاد الاسلامية ولكن الله خذها ورد كيدها .  
لهذا لابد أن أبرز هذه الأحداث التاريخية المشرقة ، التي قام بها العثمانيون فاتحين نحو الغرب للجهاد في سبيل الله ونشر الاسلام في أوروبا حتى حققوا تلك الانتصارات ، وبناء دولتهم على الأسس الاسلامية ، فتمكنت بفضل الله من قهر أعدائها نصارى أوروبا ، وأوقفت خطر الحملات الصليبية التي كانت تهدد العالم الاسلامي ، وحولت مركزهم ومنطلق حملاتهم الى عاصمة اسلامية ومنطلق للدعوة الاسلامية في أوروبا . لذلك تقدمت الجيوش الاسلامية في فتوحاتها في عصر سليمان الأول ( القانوني ) حتى بلغت أقصى اتساعها فشملت مناطق عظمى في القارات الثلاث آسيا وأوروبا ثم افريقيا ، وبالتالي غدت الدولة العثمانية دولة اسلامية عظمى امتدت أراضيها في قارات ثلاث فانتشرت مع ذلك الدعوة الاسلامية وزاد عدد شعوبها ، إلا أن هذا التحرك الإسلامي العظيم أزعج الدول الأوروبية والشعوب النصرانية فأخذت تخطط للنيل من هذه الدولة ومحاربة الإسلام والحد من انتشاره وكان منفذها الوحيد لتحقيق أهدافها وغاياتها هو عن طريق الغزو الفكري وإيهام قادة الدولة بأنها في حاجة الى تطوير نظمها ، وقد تحقق لها ذلك بعد موت السلطان سليمان الأول ، فحل بالدولة الخلل الذي لم يستطع للأسف سلاطينها وعلمائها وقادة جيشها التغلب عليه خاصة بعد أن سرت بين قادتها حياة الترف والانغماس في الملذات وعدم الالتفات الى ادارة الدولة وتطويرها ، فقد كانت الثروة التي جمعها سلاطين آل عثمان في عصرها الأول من الفتوحات العديدة والغنائم الكثيرة ، وما تلا ذلك من الاستقرار الداخلي وزيادة موارد الدولة هي التي أفسدت نظام الدولة وسلاطينها وجيشها ، ونظرا لضعف السلاطين خلال العصر العثماني الثاني للدولة العثمانية وتساهلهم في الحفاظ على ممتلكات وحدود الدولة ووحدتها التي حصلت عليها في عصرها الأول مما هيا الجو للعناصر

المعادية لأن تعمل في السر والعلانية لغزو الدولة العثمانية فكربا وعسكريا ،  
فكثرت الإرساليات الأجنبية والبعثات التنصيرية وخاصة إلى بلاد الشام ،  
وتداخلت الأحزاب السرية من صهيونية وماسونية حتى أغرقت البلاد من شرقها  
إلى غربها ومن شمالها إلى جنوبها محاولة تغيير المفاهيم الإسلامية . ومما يؤسف له أن  
قادة الدولة أهملوا الداء حتى عم واستشري شره ، وما علموا أن الإسلام صالح  
لكل زمان مكان ، فلم يبحثوا في إيجاد نظم تتماشى مع الشريعة الإسلامية ، بل  
استبدلوا بالشريعة القوانين الوضعية التي وضعها لهم أعداء الإسلام ، فاضاعوا  
الإسلام فضاعوا ، وتدخلت الدول الأجنبية في شئون الدولة الداخلية والخارجية ،  
وحصلت على الامتيازات والحقوق التي رسخت أقدامها في البلاد الإسلامية ،  
وظهر أعداء الإسلام بمظهر دعاة الإصلاح ، فكانت الفرصة سانحة لهم لعمل  
ما يريدون عمله بتوجيه عالمي من زعماء الصهيونية والماسونية والعلمانية العالمية ،  
وجاءت جمعية الاتحاد والترقي التي يقودها أذبال الماسونية والعلمانية وتسلطوا على  
السلطة حتى استطاعوا خلع السلطان عبد الحميد الثاني عام ١٣٢٧هـ / ١٩٠٩م  
فأنهوا بذلك الدولة التي أصبحت لقمة سانعة للاستعمار .

وخلال تلك الفترة ظهر في شبه الجزيرة العربية الزعيم القائد الإمام محمد بن  
سعود ، فأيد الدعوة الإصلاحية التي قام بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب ،  
وظهرت في شبه الجزيرة العربية دولة التوحيد ، الدولة السعودية ، فكان الأعداء  
لها بالمرصاد ، فقاموا بتفتيت تلك الدولة الإسلامية الرائدة أكثر من مرة ونعتوها  
بالألقاب حتى يظهروها بالمظهر الخارج عن الإسلام ، ولكن الله ينصر من ينصره ،  
فقد هيا هذه الدولة قائداً حكيماً لم تنطل عليه الحيل والأقاويل هو الملك عبدالعزيز  
الذي خشي أن تطأ أقدام الكفرة الأراضي المقدسة في الحرمين الشريفين ، فسار في  
عملية فدائية حتى وحد شبه الجزيرة العربية ، وأبعد عنها شبح الاستعمار ، وعمل

على توحيد الأمة العربية والإسلامية وأعاد للعالم الإسلامي مكانته وشخصيته البارزة ، كما طبق الشريعة الإسلامية كأساس للحكم والادارة .

ولجمع مادة هذا البحث كان لزاما علي أن أقوم برحلة علمية أقف من خلالها على مادة هذا الموضوع من مظانها الأصلية في المكتبات العامة والخاصة ومراكز البحوث والوثائق في داخل المملكة وخارجها.

لهذا قررت السفر أولا الى اسطنبول عاصمة الدولة العثمانية لوجود الوثائق والمخطوطات هناك. وبعد عناء وجدت في الأرشيف العثماني التابع لرئاسة مجلس الوزراء في اسطنبول Baskbkanlik Osmanli Arsiv بعض الوثائق والمعاهدات العثمانية الهامة منها مايتعلق بالأمور التالية:

١- وثائق المشروطة الأولى التي صدرت في عهد السلطان عبد الحميد الثاني سنة ١٢٩٤هـ.

٢- معاهدة سان ستيفانو سنة ١٩٧٨م.

٣- معاهدة برلين سنة ١٨٧٨م.

٤- وثائق المشروطة الثانية التي صدرت في نهاية عهد السلطان عبد الحميد الثاني سنة ١٣٢٦هـ.

إضافة الى بعض المخطوطات والكتب النادرة التي أشرت اليها في معظم

أبوابه .

ثم عرجت في طريق عودتي على سوريا ثم الأردن حيث كانت المحطة الثانية للرحلة . فالقاهرة حيث حصلت منها على مجموعة مهمة من الكتب والمذكرات التي أعانتني في الدراسة وبددت الخوف والقلق الذي كان ينتابني من عدم الحصول على المادة العلمية ، ولكن ما أسعدني حقا هو حصولي - عندما واصلت السير الى لندن ، وعثوري على بعض الوثائق المهمة في أرشيف السجلات البريطانية العام Public Record Office - هذه الوثائق أشرت موضوع الغزو

الفكري وغطت مادته العلمية في كثير من الجوانب المهمة فأغنتني عن بعض المراجع لولا الاستئناس بها ، لأن بريطانيا تتجسس على فرنسا وروسيا، فنقلت نشاط ونفوذ هذه الدول وما كانت تجنده لغرض بسط نفوذها على بلاد الشام وما يملئ عليها لتنفيذه ، وهو ما تعرضنا له في متن الرسالة .

فكل تلك الوثائق والمعاهدات والمصادر والمراجع التي سنذكرها في قائمة ثبت المراجع في آخر هذا البحث حصلت عليها من تلك البلاد ، وقد فتحت هذه المادة العلمية أمامي مجال البحث والاستقصاء ودراسة ما توافر لي من مادة علمية ، فوقفت أمامها ساعات طويلة أقرأها وأحللها وأستنبط الحقائق منها بكل تجرد وبكل حذر واضعاً أمامي أن تلك الأمور إحدى مهام المؤرخ الفاحص الباحث عن الحقيقة المجردة ، وأخذت بعد جمع المادة الكتابة في الموضوع حسب الخطة الموضوعية له .

وتحتوي خطة الرسالة على مقدمة ، وخمسة فصول تعالج نقاط البحث .

فالمقدمة : تتحدث عن طبيعة الدولة الإسلامية العثمانية وفتوحاتها في آسيا الصغرى وشرق وجنوب أوروبا تدفعها إلى ذلك روح الجهاد الإسلامي لفتح المدن البيزنطية ونشر الإسلام، لذلك كان استمرار الجهاد أحد أهداف قادة الدولة ، وهذا ما تحقق في الفصل الأول حيث بلغت الدولة العثمانية أوج قوتها وتماسكها بفضل من الله وتوفيقه ثم باعتمادها على تطبيق النظم الإسلامية . وقد عرف المؤرخون هذه الفترة بعصر عظمة الدولة ، أو عصر السلاطين العشرة الأوائل . وكان من ركائز هذه القوة هو صلاح العناصر الثلاثة السلطان والشيخ والجندي واعتمادهم على الإسلام قلباً وقالباً مما جعل الدولة قوية ، وهذا مما جعل السلطان محمد الفاتح يتطلع بنظره لفتح القسطنطينية مركز ومعبود الصليبية إلى الأراضي الإسلامية لمحاربة الإسلام . وقد استطاع محمد الفاتح فتح القسطنطينية فثار

غضب الصليبية ، ولم تهدأ إلا عندما دبرت إغتياله بواسطة طبيبه اليهودي الذي اعتنق الإسلام لأجل هدف القضاء على هذا السلطان المجاهد.

أما الفصل الثاني فقد جاء الحديث فيه عن الوسائل التي أدت إلى تسرب الخلل إلى السلاطين وهينة العلماء وإلى الجيش المحارب ( الإنكشارية ) في عصر الدولة العثمانية الثاني، مما أدى إلى التوقف والركود بعد أن بلغت الدولة شأوا رفيعا من النصر والانتساع ، وبسطة نفوذها في ثلاث قارات ، كما أدى إلى انكماش الدولة وتدهورها منذ نهاية السلطان سليمان الأول حيث تعاقبت الهزائم على جيش الدولة في ميادين حربية عديدة مما أعقبه عقد المعاهدات الواحدة تلو الأخرى والتي عجلت في ضعف الدولة ، ففقدت الدولة بعض ممتلكاتها في جنوب أوروبا ، وذلك لضعف السلاطين وانغماسهم في حياة الترف ولتعسف الولاة ، وحمالة القادة ، وعدم استطاعتهم حل المشكلات بحكمة ودراية من أجل اخراج الدولة إلى بر الأمان وتخليصها من هذه الأزمات ، ولعدم دراسة وضع البلاد وايجاد طرق العلاج لها في الحال . ولكن استمرار الدولة على هذا الوضع جعلها حقلًا للغزو الفكري الأوربي بسبب عوامل تناولها الفصل الثالث ، وهي تطورات أو عوامل الغزو الفكري في التاريخ الأوربي الحديث والمتمثلة في العلمانية والقومية والحركة الدستورية ، فقد تسربت هذه الأفكار والأطماع عن طريق الثورة الفرنسية إلى ممالك الدولة العثمانية في أوروبا ، مما أفقدها بلاد اليونان ، ثم تلتها الحركة الدستورية التي اضطرت بأفكارها دول البلقان : الصرب والافلاق والبغدان والجبل الأسود ، طلبا للاستقلال ، فأخذت في الثورة رغبة في الاستقلال عن الدولة العثمانية ، وكانت تساندها روسيا حتى نالت استقلالها في معاهدة برلين سنة ١٢٩٥هـ / ١٨٧٨م.

وفي الفصل الرابع تعرضت الخطة لمظاهر الغزو الفكري ، الذي أخذ يتفاقم

منذ الحرب الروسية التركية المسماة بحرب القرم ( ١٢٦٩ - ١٢٧٢ هـ /

١٨٥٣ - ١٨٥٥ م) وما انتهت اليه وهو عقد معاهدة باريس سنة ١٢٧٣هـ /  
١٨٥٦ م ، تحت اشراف فرنسا وبريطانيا وهي دول معادية للاسلام ، ونتيجة  
لابرام هذه المعاهدة وقعت الدولة العثمانية في منزلق الاصلاح ، ثم ألحقت خط  
كلخانة سنة ١٢٥٥هـ / ١٨٣٩ م بالخط الهمايوني سنة ١٢٧٣هـ / ١٨٥٦ م ،  
وتبعه إنشاء المحاكم المختلطة والمحاكم التجارية ، هذا الحدث هو بداية انهيار العمل  
بالتشريع الإسلامي ، حيث أخذ الغزو يتفاقم حتى خلع السلطان عبدالحميد الثاني  
بواسطة حزب الاتحاد والترقي وبالتعاون مع الصهيونية والماسونية ، وتم نفيه الى  
سلانيك في سنة ١٣٢٧هـ / ١٩٠٩ م بعد أن أعيت أوروبا الحلول العسكرية بسبب  
القوة والتماسك اللذين أكسبهما الإسلام للدولة العثمانية.

أما الفصل الخامس والأخير فقد جاء بتقييم جديدة لدعوة التوحيد  
والاصلاح بعد أن هيا الله لها دعاة صدق ، قاموا بصد الموجات والتيارات الملحدة  
الوافدة الى شبه الجزيرة العربية وقاوموها بقوة ايمانهم واسلامهم وعقيدتهم بمحاربة  
أعداء الإسلام ، فجاهدوا في سبيل الله لنشرها في البلاد المفتوحة . وبالرغم  
من الأزمات التي تعرضوا لها فانها لم تزدهم الا ثباتا على دعوتهم السلفية التي  
استمرت على مر عصور الدولة السعودية وسوف تظل كذلك الى أن يرث الله  
الأرض ومن عليها .

وأخيرا اختتمت الفصول بالخاتمة والنتائج التي توصلت اليها خلال هذا  
البحث

أرجو من الله العلي القدير أن أكون قد وفقت بتقديم اضافة جديدة للعلم  
وظلابه اسهاما مني في دراسة جزء من عالمنا الاسلامي ، اسهام المتواضع لخدمة  
وطنه الوفي الغالي .

وفي هذه المناسبة لايفوتني أن أنوه بجهود المشرف السابق الأستاذ الدكتور  
محمد عبداللطيف البحر اوي ، الذي أشرف على هذه الرسالة مايقارب السنة ،

وقد أعطاني من وقته الكثير في سبيل مناقشة كثير من المواضيع حتى استقر الرأي الأخير على اختيار هذا الموضوع . ولايسعني في هذا المقام الا أن أدعو له بطول العمر والبقاء وأن يجزيه الله عنا خير الجزاء . ولاستقالته حول الإشراف الى سعادة الأستاذ الدكتور ابراهيم صغيرون الذي لم يأل جهدا في متابعة الإشراف وتقديم النصح حتى استقال . ومن ثم حول الأشراف الى أستاذنا الأستاذ الدكتور عبداللطيف عبدا لله بن دهيش .

وختاما أرى من واجبي في هذه المناسبة أن أتقدم بالشكر الجزيل الى كل من قام بمساعدتي في اجتياز هذه المراحل لإخراج هذا البحث الى حيز الوجود . فأخص بالذكر جامعة أم القرى ، وكلية الشريعة والدراسات الاسلامية ، وقسم التاريخ الإسلامي ، وقسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية ، ومكتبة الجامعة المركزية . وكذلك القائمين على الأرشيف العثماني في اسطنبول والقائمين على أرشيف السجلات البريطانية العامة Public Record Office والى كل من مد لي يد المساعدة .

وأخص أستاذي المشرف سعادة الأستاذ الدكتور عبداللطيف عبدا لله بن دهيش الذي قدم لي كل دعم وخصني بعلمه الغزير وتوجيهاته السديدة . فقد أعطاني من وقته وجهده الكثير غير مقتصر على المكان والزمان ، ولم يبخل علي ، فقد فتح لي داره رغم مشاغله الكثيرة ، وعلى حساب راحته الشخصية . وكانت ملاحظاته القيمة خير معين لاجراج هذه الرسالة . فاليه أقدم شكري وتقديري بالجميل والعرفان ، جزاه الله عنا خير الجزاء .

كما أقدم شكري الى الأستاذين الفاضلين عضوي لجنة الفحص والمناقشة . راجيا من الله عز وجل أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم ، وأسأله أن يوفقنا لخدمة هذا الوطن الغالي الذي نكن له كل حب وتقدير .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين . وهو الهادي الى سواء السبيل .





## المقدمة : طبيعة الدولة العثمانية

- أ - نشأة الدولة .
- ب - الجهاد والفتح ونشر الاسلام .



تؤكد المصادر التاريخية أن أول من فكر في فتح الأناضول هم السلاجقة .  
ففي سنة ٤٠٦ هـ الموافق ١٠١٥ م جرد سلجوق أوغلو أول حملة على الأناضول ،  
تعرف فيها على مدى قوة الامبراطورية البيزنطية ، وفي هذه الحملة هزم سلجوق  
الجيش البيزنطي في باسينلر ( Pasinler ) قرب مدينة أرض الروم ، وأسر القائد  
العام لباريد ( Liparit ) ، فأرسل الامبراطور البيزنطي فدية الى الخاقان الأكبر  
أرطغرل بك السلجوقي من أجل اطلاق سراح القائد البيزنطي المذكور ، الا أن  
أرطغرل أعاد الفدية وواعد باطلاق سراح لباريد مقابل إعادة فتح الجامع الذي  
أغلق في القسطنطينية لإقامة الشعائر الإسلامية للمسلمين المقيمين هناك . وقد  
استجاب الامبراطور البيزنطي لمطالب أرطغرل بك ، وأمر بإعادة فتح الجامع  
المذكور ، وأصبحت تقام فيه الصلوات ويذكر فيه اسم أرطغرل بك بعد اسم  
الخليفة العباسي في الخطبة <sup>(١)</sup> .

وتلا ذلك قيام ملوك السلاجقة وأمراء الأتراك بترتيب الغزوات على  
الأناضول سنويا على وجه التقريب للتقدم في فتوحاتهم نحو الغرب <sup>(٢)</sup> للدفاع عن  
الحدود الإسلامية ضد الامبراطورية البيزنطية ، حتى كانت المعركة الحاسمة التي  
انتصر فيها المسلمون عام ٤٦٤ هـ الموافق ١٠٧١ م . على جموع البيزنطيين  
المحتشدين قرب بحيرة وان ( Van ) شرقي تركيا والتي عرفت في التاريخ

(١) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية . ترجمة عدنان محمود سلمان ( تركيا . استانبول .

منشورات مؤسسة فيصل للتمويل : ١٩٨٨ ) . ج ١ . ص ٥٦-٦٦ .

(٢) يلماز أوزتونا : المصدر السابق . ص ٦٦ .

باسم معركة ( ملاز كرد )<sup>(١)</sup> حيث هزم فيها جيش بيزنطة وأمبراطورها رومانوس الرابع ( Romanos Diogenes ) ، واكتسب الزعيم التركي المسلم ألب أرسلان في هذه المعركة شهرة واسعة عمت كافة أرجاء العالم الاسلامي.

وعلى إثر ذلك استطاعت القبائل التركمانية المسلمة تثبيت أقدامها في بلاد آسيا الصغرى ، فنزلت في شرق ووسط منطقة الأناضول ، وكان من ضمن تلك القبائل التي دخلت الأناضول وسكنته قبيلة ( قابي ) وهم أسلاف العثمانيين<sup>(٢)</sup> .

وعندما ظهر المغول من الأقصى الشرقي لآسيا بزعامة جنكيزخان ومعه نحو خمسين ألف مقاتل في حوالي عام ٦٢٤هـ/١٢٢٦م أخذوا يتقدمون نحو الغرب ، فاحتلوا في طريقهم عددا من الممالك الاسلامية ، وأذاقوا أهلها ويلات الدمار

ع

(١) ملاز كرد : احدى المعارك الحاسمة في التاريخ الاسلامي التي أسفر عنها تحول منطقة الأناضول الى أراضي اسلامية يعيش عليها شعب مسلم . كما تعد هذه الواقعة أيضا المنطلق الأول لتأسيس الدولة الاسلامية في آسيا الصغرى وبلاد الروم الصليبية . كما يمكن النظر اليها كذلك على أنها كانت الحادثة التي هيأت الأسباب لولادة الدولة العثمانية .  
- يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٦٧ .

- زبيدة عطا : بلاد الترك في العصور الوسطى ، ( الناشر دار الفكر العربي ) ، ص ٥١ .

(٢) على حسون : العثمانيون والروس ، ( الطبعة الأولى ، بيروت ، المكتب الاسلامي ، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م ) ، ص ١٧ .

نبيل رضوان : جهود العثمانيون لانقاذ الأندلس واستردادها . ( رسالة دكتوراه مقدمة جامعة أم القرى ، تحت الطبع ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م ) . ص ٨ .

والقتل والنهب ، فقتلوا الأبرياء ، ونهبوا ودمروا المدن والمزارع <sup>(١)</sup> .  
لهذه الأسباب هاجر سليمان شاه أحد ملوك تركستان وجد آل عثمان  
من وطنه ماهان تحت ضغط المغول ، فاتجه غربا نحو آسيا الصغرى بقبيلته العظيمة  
( القايي ) البالغ عدد محاربيها ألفي فارس ، الى الأناضول في أوائل القرن السابع  
الهجري ، الموافق للقرن الثالث عشر الميلادي ، فأقام بمدينة أخلاط <sup>(٢)</sup> ، فلما  
انتشر التتر واقتربوا من المدينة هاجروا منها الى أذربيجان <sup>(٣)</sup> ، فهناك تقابل مع  
المغول ، فانتصر عليهم وغنم منهم غنائم كثيرة <sup>(٤)</sup> . ثم عاد سليمان شاه راجعا الى  
وطنه الأصلي عن طريق حلب ولما وصل في طريقه الى نهر الفرات ، وأمام قلعة  
جعبر حاول مع أولاده عبور النهر فغلب عليهم الماء فسقط سليمان بالنهر وغرق  
في الحال وكان ذلك في سنة ٦٢٩هـ / ١٢٣١م ، فأخرج الذين معه

- 
- (١) - ابراهيم بك حليم : التحفة الخليمية في تاريخ الدولة العلية . ( الطبعة الأولى . مطبعة عمود  
الأوقاف : ١٣٢٣هـ / ١٩٠٥م ) . ص ٣٤ .
- اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، ( الطبعة الأولى ، مصر ، طبع بالمطبعة  
الأميرية ، بيولاقي : ١٣١٢هـ ) ، ج ١ ، ص ٤٨٣ .
- (٢) أخلاط : بلدة في شرق تركيا الحالية بالقرب من بحيرة وأن في هضبة أرمينيا .
- أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ( الطبعة الأولى ، بيروت ، دار  
الشروق : ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م ) ، ص ١٧-١٨ .
- (٣) أحمد جودت باشا : تاريخ جودت ، ترجمة : عبدالقادر أفندي الدنا ، ( بيروت ، طبع في مطبعة  
جريدة بيروت ، ١٣٠٨هـ ) ج ١ ، ص ٣٢ .
- ابراهيم بك حليم : التحفة الخليمية في تاريخ الدولة العلية ، ص ٣٤ .
- (٤) السيد أحمد بن زيني دحلان : الفتوحات الاسلامية ( القاهرة ، الناشر : مؤسسة الحلبي وشركاه  
للنشر والتوزيع ، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٨م ) ج ٢ ، ص ١١٠ .

ودفنوه حول قلعة جعبر<sup>(١)</sup> ، وكان لسليمان أربعة أولاد وهم سنقورزنگي ، وكون طوغدي ، وأرطغرل ، وكوندوز اختلفوا بعد وفاة والدهم ، فمنهم من اختار متابعة السير الى بلاده<sup>(٢)</sup> ، ومنهم من فضل البقاء مع أرطغرل بن سليمان شاه الذي اختار السير الى الأناضول مع أربع مائة أسرة من قومه يقدرون بحوالي أربع مائة وأربعين فارسا ، ونزلوا في طريقهم ( بسرمة لو وباسين ) وضربوا بها خيامهم<sup>(٣)</sup> .

ولما لم تكن تلك المناطق أو الجهات غير صالحة وموافقة لسكناهم أرسل أرطغرل ولده صاروباتي بك<sup>(٤)</sup> ، الى سلطان قونية علاء الدين السلجوقي يطلب منه الحماية ، ويستسمحه أن يقطعه أو يمنحه هو وعشيرته بعض الأراضي الخصبة ، فأقطعه السلطان أراضي كان بها ما يلزمهم من الدفء شتاء والمراعي

٤

(١) اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار . ج ١ . ص ٤٨٣ .

أحمد جودت باشا : المصدر السابق . ج ١ . ص ٣٢ .

ابراهيم بك حليم : المصدر السابق . ص ٣٤ .

أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني . ص ١٨ .

أحمد ابراهيم خليل أحمد : تاريخ الوطن العربي في العهد العثماني . ( الموصل ، طبع بمطابع جامعة

الموصل . مطبعة الجامعة ) . ص ١١ .

(٢) ابراهيم بك حليم : المصدر السابق . ص ٣٤ .

(٣) اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار . ج ١ . ص ٤٨٣ .

أحمد عبدالرحيم مصطفى : المرجع السابق . ص ١٨ .

(٤) أو ساوجي . وقد توفي وهو عائد في الطريق الى أبيه .

- ابراهيم بك حليم : التحفة الخليمية في تاريخ الدولة العلية . ص ٣٤ .

- أحمد زبي دحلان : الفتوحات الاسلامية . ج ٢ . ص ١١٠ .

135475

لواشيهم صيفا في منطقة قريبة من أنقرة (١) .  
 وبينما هم يسيرون في الأناضول نحو جيشين مشتبكين يقتتلان قتالا عنيفا  
 دون أن يعلموا شيئا عن هويتهما ، وكان أحد الجيشين قليل العدد وغير  
 متكافئ مع الآخر ، فما لبثوا أن تدافعوا إلى نجدة الجيش الضعيف بدافع  
 النخوة ونصرة الضعيف الملهوف (٢) ، وتبين فيما بعد أنه جيش الأمير علاء  
 الدين سلطان قونية إحدى الإمارات السلجوقية التي تأسست  
 عقب انحلال دولة آل سلجوق الروم سنة ٤٨٥هـ / ١٠٩٢م فعهد إليه بفتح  
 الأجزاء الغربية من آسيا الصغرى (٣) ، على حين كان الجيش الآخر مغوليا ،  
 وتذهب بعض الروايات إلى أنه كان بيزنطيا (٤) .

كما يذكر صاحب كتاب التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية أنه في  
 أواخر القرن السابع الهجري الموافق للقرن الثالث عشر الميلادي ، تصادف  
 وجود فرقة من المغول كانت تحارب عساكر السلطان علاء الدين في أثناء مرور  
 أرطغرل في تحركاته نحو غرب آسيا الصغرى فهجم بفرسانه على الجيش المغولي  
 فهزمهم شر هزيمة ، وربما يعني ذلك أنه كان على معرفة تامة بعلاء الدين .

- 
- (١) اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار . ج ١ ، ص ٤٨٣ . ص ٤٨٣ .  
 (٢) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ١٨ .  
 اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ص ٤٨٣ .  
 - محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، تحقيق احسان حقي : ( الطبعة الثانية ، بيروت -  
 دار النفائس ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م ) ، ص ١١٥ .  
 - ابراهيم خليل أحمد : تاريخ الوطن العربي في العهد العثماني ، ص ١١ - ١٢ .  
 (٣) لما سقطت دولة السلجوقيين تجزأت أملاكهم في بلاد الأناضول إلى عشر إمارات ( قبرة سي -  
 صاروخان - ايدين - تكة - الحميد - القرمان - وكرميان - وقسطموني - ومنتشا - وقويسه ) ،  
 ضمت فيما بعد إلى الدولة العثمانية .  
 محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، حاشية رقم (٢) ص ١١٥ .  
 (٤) أحمد عبدالرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص ١٨ .



ولذلك نراه ينقض لنجدته ضد المغول (١) .

ومما يؤكد ذلك ، الرواية التي أوردها يلماز أوزتونا والتي نوردها هنا باختصار حيث أشار الى هذه الحادثة بقوله " ان أرطغرل من مواليده سنة ٥٨٨ هـ / ١١٩٢ م وبذلك يكون عمره بحلول سنة ٦٢٨ هـ / ١٢٣٠ م ، ٤٠ سنة وهي سن النضج . وقد كانت منطقة أذربيجان في تلك الفترة ميدانا فسيحا لإحدى أكبر الحروب في القرون الوسطى ، حيث تقابل جيشان لأخوين سنيين على المذهب الحنفي ، عندها اجتاز السلطان جلال الدين سلطان الترك الشرقيين ، والآخر سلطان خرم - شاهي ، الذي طرده المغول من أراضي أجداده في تركستان التي هي حدود سلطنة تركيا ، ودخل الأناضول التابعة للسلطان علاء الدين ، وأخذ يتقدم فيها غير مبال بنصيحة السلطان علاء الدين ، والتقى بجيش علاء الدين الأول قرب أذربيجان حيث انكسر وترك أراضي الدولة التركية وابتعد عنها " (٢)

ومن هنا تبدأ قصة كيفية اتصال أرطغرل بن سليمان شاه بخدمة علاء الدين .

ويظهر أن علاء الدين الأول كان في حاجة الى عدد كبير من المحاربين للانضمام الى الجيش الأناضولي ، ولذلك انضم اليه عدد كبير منهم ، وكان من بين هؤلاء الملبيين لهذه الدعوة أرطغرل بن سليمان شاه وعشيرته قايي ، حيث

(١) ابراهيم بك حليم : التحفة الخليمية في تاريخ الدولة العلية . ص ٣٤ .

(٢) تاريخ الدولة العثمانية . ج ١ . ص ٨٦

شاركوه في حرب ياصي جمن Yassi Chamen وهي حرب مهمة في التاريخ التركي<sup>(١)</sup>.

وعلى الرغم من أن هؤلاء المؤرخين استقوا معلوماتهم من الحوليات العثمانية القديمة إلا أنهم لا يزالون في خلاف عميق حول قيمة هذه الروايات التاريخية ففريق منهم اعتبر هذه الحوليات حقائق ثابتة دوت بمعرفة رواة معاصرين لأحداثها ، أما الفريق الآخر فقد ألقى عليها ظلالا كثيفة من التشكك فيها<sup>(٢)</sup> .  
وعلى أي حال فقد اتفق المؤرخون جميعا على أن أرطغرل قد أسدى خدمات جليلة للسلطان علاء الدين ، تلبية لدعوته أو الانضمام الى جانبه مصادفة لنصرة الضعيف في حربه مع المغول أو البيزنطيين .

فقد استحق بعدها أن يكافئه علاء الدين على نجده ومساعدته له بعمله البطولي ، فأقطعه عدة أقاليم<sup>(٣)</sup> تقع بجهتي طومانجج Toumandji واسكشهر<sup>(٤)</sup> ذلك سنة ٦٦٣هـ / ١٢٦٤م<sup>(٥)</sup> . في محاذة بلاد الروم غربي بلاد

(١) يلمازا اوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٨٦ .

(٢) عبدالعزيز محمد الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، ( القاهرة ، مطبعة جامعة القاهرة : ١٩٨٠ ) ، ج ١ ، ص ٣٣ .

(٣) محمد فريد بك : الدولة العلية العثمانية ، ص ١١٥ .

زاد عبدالعزيز الشناوي : أن البقعة تشمل المحدرات الشرقية من جبال طومانجج وأرميني Ermeni يقضي فيها أفراد القبيلة فصل الصيف وسهول سكود Soegud يقصون فيها فترة الشتاء . الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، ج ١ ، ص ٣٤ . حاشية رقم (١) .

(٤) أسكى شهر : أي المدينة القديمة ، وهي مدينة تقع في جهة الغرب لأقرة .

أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ١٨ .

(٥) اسماعيل سرهنك : حائق الأخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٤٨٤ .

السلاجقة<sup>(١)</sup> أو بمعنى آخر على الحدود البيزنطية ليتمكن من صيانة الحدود وتوسيعها نحو الغرب، فمنح السلطان السلجوقي أرطغرل غازي لقب أمير بني جوبان أي الأمير الأكبر للقطاع الشمالي من الحدود البيزنطية، وهكذا استوطن أرطغرل بك وعشيرة قابي في القسم الشمالي - الغربي من الأناضول وذلك في حدود عام ٦٢٩هـ / ١٢٣١م. على أرجح الأقوال.

وتقدر مساحة هذه الاقطاعية بحوالي ١٠٠٠ الى ٢٠٠٠ كم ٢ . وهكذا تم وضع حجر أساس الدولة العثمانية في سنة ٦٢٩هـ / ١٢٣١م<sup>(٢)</sup>. وصار السلطان السلجوقي لا يعتمد في حروبه مع جيرانه الا عليه وعلى رجاله، وكان عقب كل انتصار يقطعه أراضي جديدة ويمنحه أموالا جزيلة، ثم لقب هو وقبيلته بمقدمة السلطان لوجودها دائما في مقدمة الجيوش، ولتمام النصر على يديه<sup>(٣)</sup>. وفي الوقت نفسه ظهر لقب "أوج بكي" أي محافظ الحدود، وكان منح هذا اللقب يتمشى مع التقاليد التي درجت عليها دول السلاجقة وهو منح أي رئيس من رؤساء العشائر يعظم أمر، ويلحق به عدد من العشائر الصغيرة لقب محافظ الحدود<sup>(٤)</sup>، وهذا مما أتاح لأرطغرل فترة سلام طويلة استطاع خلالها أن

(١) على حسون: تاريخ الدولة العثمانية (الطبعة الثالثة، بيروت، المكتب الاسلامي، ١٤٠٣هـ). ص ١٥.

أحمد عبدالرحيم مصطفى: المرجع السابق، ص ١٨.

(٢) يلماز اوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية، ص ٨٦-٨٧.

(٣) محمد فريد بك: الدولة العلية العثمانية، ص ١١٥.

(٤) عبدالعزيز الشناوي: الدولة العثمانية دولة مفترى عليها، ج ١، ص ٣٤.

أحمد عبدالرحيم مصطفى: في أصول التاريخ العثماني، ص ٣٦.

ابراهيم خليل أحمد، تاريخ الوطن العربي في العهد العثماني، ص ١٢.

يوطد حكم العشيرة على الأراضي التي أوكل اليه أن يحكمها<sup>(١)</sup> .  
 غير أن أرطغرل بن سليمان شاه كان ذا طموحات واسعة ، فهو لم يقنع بالمنطقة التي أقطعها له السلطان علاء الدين الأول ، ولم يقتنع أيضا باللقب الذي منح له ، ولا ولن يقنع بمهمة المحافظ على الحدود فقط ، بل شرع في تحقيق طموحاته وهي القيام بالفتح الإسلامي ، ومواصلة نشر الاسلام في الأجزاء الغربية من آسيا الصغرى والتابعة للامبراطورية البيزنطية وذلك لأن تلك المناطق كانت تعاني الأمرين من الهجمات الصليبية المعادية للاسلام من جانب الإمارات المسيحية هناك . وبتوفيق من الله ونصره نجح أرطغرل في تحركاته فضم للمنطقة التي كان يحكمها أسكي شهر<sup>(٢)</sup> مناطق جديدة هي المناطق المسماة آنذاك سلطانية أوصبراجق من ولاية قونية .

وقد تعددت فيما بعد الحروب بين السلطان علاء الدين والمغول الذين استولوا على قلعة كوتاهية ، فقام السلطان بتفويض أمر محافظة هذه القلعة المذكورة الى أرطغرل ، فاستردها بعد حروب شديدة وقاتل عنيف مع المغول ، وبعد هذه المعركة علا وسما نجم أرطغرل عند السلطان علاء الدين ، ولم ينزل في خدمة السلطان وطاعته مما جعل السلطان يزداد به اعجابا حتى توفي أرطغرل سنة ٦٨٠هـ / ١٢٨١م بمنطقة سكود<sup>(٣)</sup> التي اتخذها مقرا له فدفن فيها<sup>(٤)</sup> .

(١) أحمد عبدالرحيم مصطفى ، في أصول التاريخ العثماني ، ص ٣٦ .

(٢) عبدالعزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ، ص ٣٤ .

، أحمد عبدالرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص ٣٦ .

(٣) اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٤٨٤ .

(٤) عبدالعزيز الشناوي : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٣٤ .

ولما بلغ السلطان علاء الدين خبر وفاته حزن حزنا شديدا ، وعين مكانه في الحال أكبر أولاده وهو عثمان بن أرطغرل بن سليمان شاه<sup>(١)</sup> ، مؤسس الدولة العثمانية<sup>(٢)</sup> ، والذي اليه تنسب الدولة والأمة فسميتا باسمه<sup>(٣)</sup> ، ولكي يصبح قائدا مستقلا على منطقة الحدود السلجوقية فقد اقتضت التقاليد الحدودية أن يحرز عثمان نصرا كبيرا على المسيحيين يؤهله لأن يتلقى لقب البكوية من السلطان السلجوقي ، وفي سبيل ذلك سارع عثمان وسار بقواته غربا وحقق انتصارات كبيرة على البيزنطيين فاستولى على قلعة قره فيون<sup>(٤)</sup> وحينما رآه علاء الدين في حزمه وجهاده مقتنيا سيرة والده في الفتح والجهاد مده بالأموال والإمدادات وحفه بالرعاية السلطانية حيث أرسل إليه تعظيما لشأنه وكفاءته الحربية شارحات السلاجقة وهي الراية البيضاء والخلعة والطلب<sup>(٥)</sup> ، وكتابتا تركي العبارة معلنا فيه استقلال عثمان ، ثم أقطعه كل ما فتحه من الأراضي وكل ما سيفتحه من أراض جديدة وكان ذلك عام ٦٨٨هـ / ١٢٨٩م . ولما ضرب الطلب بين يدي الأمير عثمان بك نهض قائما على قدميه تعظيما للسلطان علاء الدين .

- 
- (١) شاه : معناها ملك . ولكن اذا جاءت بعد الاسم يصبح معناها السيد .  
محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية . ص ١١٥ . حاشية رقم (١) .  
(٢) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٤٨٤ .  
(٣) عبدالعزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها . ج ١ ، ص ٤٠ .  
(٤) Halil Inalcik : The Otoman Empire , p. 55.  
(٥) اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤٨٤ .  
Halil Inalcik : op.cit., p. 55.

وقد جرت هذه العادة بأن يقوم السلطان عند سماعه الطبلية تعظيماً وتذكيراً حتى أمر السلطان محمود الثاني في سلطنته بإبطال هذه العادة<sup>(١)</sup>، ولقبه السلطان علاء الدين بلقب بك، وسمح له بأن يضرب السكة باسمه ويذكر اسمه على المنابر بعد اسم السلطان<sup>(٢)</sup> في خطبة الجمعة. وهذا العمل من علاء الدين يعتبر بمثابة اظهار شرعية امارة عثمان علي الحدود الإسلامية المسيحية<sup>(٣)</sup>.

فصار عثمان بهذه الامتيازات يملك صلاحية السلطان ولا ينقصه منه الا اللقب<sup>(٤)</sup>، ونظراً لانتصاراته العسكرية الباهرة على البيزنطيين فيما بعد فقد منحه السلطان علاء الدين لقب "عثمان الغازي حضرتكمرزبان عاليجاه عثمان باشا" أي "حضرة عثمان الغازي، حارس الحدود، العالي الجاه، عثمان باشا"<sup>(٥)</sup>. ولاشك أن هذه الانتصارات كان لها في الواقع أعظم الأثر الذي جعل عثمان يظهر على مسرح الأضواء التاريخية<sup>(٦)</sup>.

وبينما كان شأن العثمانيين يسير في الصعود والارتقاء، اذ أغار غازان التتار سنة ٦٩٩هـ / ١٢٩٩م بمجموعه على سلطنة قونية، وفي هذه الغارة قتل

---

(١) اسماعيل سرهك : حقائق الاخبار عن دول البحار، ج ١، ص ٤٨٤ . .

Halil Inalcik : op.cit. ,p.55.

(٢) اسماعيل سرهك : المصدر السابق، ج ١، ص ٤٨٤ .

(٣) Halil Inalcik :op.cit. , p. 55.

(٤) محمد فريد بك : الدولة العلية العثمانية، ص ١١٨ .

(٥) عبدالعزيز الشاوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، ج ١، ص ٣٩-٤٠ .

(٦) Halil Inalcik : op. cit. p.55.

سلطانها الأمير علاء الدين آخر ملوك السلجوقيين<sup>(١)</sup> فانقرضت السلطنة السلجوقية ولم يكن للسلطان ذرية فاجتمع وزراء الدولة وأعيانها وقرروا بالاجماع انه لا يليق للسلطنة سوى عثمان الغازي ليحفظ للاسلام عزته<sup>(٢)</sup>. فعرضوا عليه هذا الأمر فأجاب طلبهم<sup>(٣)</sup>. ويذكر أحمد جودت باشا في تاريخه أن الدولة السلجوقية انقرضت عام ٦٩٩ هـ حيث قَامَ أمراؤها وولاياتها بالاستقلال، إلا أن عثمان استطاع أن يؤلف قلوبهم عليه، فخطب له باسمه في يكي شهر التابعة له<sup>(٤)</sup>.

فانفتح المجال أمام عثمان بن أرطغرل بن سليمان شاه، فقام بالاستئثار بمعظم المقاطعات والأراضي التي كانت تحت حكم السلطان علاء الدين<sup>(٥)</sup>، فأعلن قيام إمارته<sup>(٦)</sup> ولقب نفسه (بادشاه آل عثمان)، معلنا بذلك ولادة امارة بني

(١) عبدالعزيز الشناوي: الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها، ج ١، ص ٣٩ - ٤٠.

(٢) اسماعيل سرهنك: حقائق الاخبار عن دول البحار، ج ١، ص ٤٨٤-٤٨٥.

محمد فريد بك: الدولة العلية العثمانية، ص ١١٨.

عبدالعزيز الشناوي: المصدر السابق، ج ١، ص ٣٩-٤٠.

(٣) ابراهيم بك حلیم: التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية، ص ٣٤.

(٤) أحمد جودت باشا: تاريخ جودت، ج ١، ص ٣٧.

(٥) محمد فريد بك: المصدر السابق، ص ١١٨.

زيداد أبوغنيمة: جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك (الطبعة الثانية، عمان، دار الفرقان

للنشر والتوزيع: ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م)، ص ١٩.

(٦) اسماعيل سرهنك: المصدر السابق، ص ٤٨٥.

اورخان محمد علي: السلطان عبدالحميد الثاني حياته واحداث عهده، (الطبعة الأولى، الكويت،

دار الوثائق، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م)، ص ١٦.

عثمان ، وجعل مقر حكمه يكي شهر<sup>(١)</sup> ، فقام بتحسينها وتحصينها<sup>(٢)</sup> ، ثم اتخذ الراية البيضاء ( راية السلاجقة ) واضعا عليها الشارات التي لاتزال حتى اليوم تشكل العلم التركي المؤلف من الهلال والنجمة<sup>(٣)</sup> . ولهذا اعتبر استقلال الدولة أو نشوءها من نهاية انقراض الدولة السلجوقية سنة ٦٩٩ هـ / ٢٨ / ٩ / ١٢٩٩ م<sup>(٤)</sup> . وهكذا يعتبر عثمان بن أرطغرل بن سليمان شاه المؤسس الأول للدولة العثمانية<sup>(٥)</sup> .

وعندما أعلن السلطان عثمان استقلال دولته في سنة ٦٩٩ هـ أتاه علماء وأعيان وأمراء الدولة السلجوقية التي انهارت فانضموا اليه بدافع الجهاد تحت لوائه<sup>(٦)</sup> ، لتصبح هذه الدولة المتنافس الوحيد للحماس الديني للاسلام، فجاء كل راغب في الجهاد في سبيل الله لنشر الاسلام ، فاجتذبت هذه الإمارة أعدادا من المتحمسين لنصرة الدين الإسلامي ضد المسيحية .

- 
- (١) يكي شهر : تلفظ الكاف هنا نونا فهي اذن : يني شهر ومعناها البلد الحديث ويكتبها الأتراك هكذا Yenisenir وتقع الى الشمال الشرقي من بروسه .
- محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١١٨ ، حاشية رقم (٤) .
- (٢) محمد فريد بك : المصدر السابق نفسه ، ص ١١٨ .
- (٣) علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٥ .
- (٤) اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٤٨٥ .
- أورخان محمد علي : السلطان عبدالحميد الثاني حياته وأحداث عهده ، ص ١٦ .
- (٥) زياد أبوغنيمة : جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك ، ص ١٨-١٩ .
- (٦) اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤٨٦ .



وهذا ما يؤكد أن الدولة العثمانية كانت إسلامية المنطلق والهدف (١) ،  
فكان الغزو والجهاد عاملين مهمين في تأسيس وتطوير هذه الدولة العثمانية  
الفتية.

فالمجتمع في امارات الحدود قد صاغه اطار فكري خاص أشبعه بفكرة  
الجهاد المستمر والفتح الدائم في سبيل إعلاء كلمة الله حتى تشمل العالم  
بأسره (٢) . فقد كان التركمان الرحل القادمون الى الأناضول القلب النابض في  
المقاطعات الحدودية العثمانية. هؤلاء التركمان جاهدوا بتلهف في سبيل النصر أو  
الشهادة . وقد تربوا تربية إسلامية مليئة بالقيم الروحية المبنية على حب الجهاد  
والعمل على نشر الإسلام في البلاد المسيحية وصد الغارات الصليبية المعادية  
للإسلام والأمة الإسلامية (٣) .

ويتجلى هذا الاتجاه الديني في سياسة العثمانيين وتشجيعهم الجهاد لنشر  
الإسلام .

ولقد كان السلطان عثمان بعيد النظر ، حيث وجه فتوحاته نحو الغرب  
الى بيزنطة المتهالكة باعتبار أن كل فتح يناله منهم سيزيد من قوته ، وفي الوقت  
نفسه تحاشى التصادم مع جيرانه أمراء الأناضول المحيطين به ، وخصوصا

---

(١) زياد أبو عيمة : جواب مصينة في تاريخ العثمانيين الأتراك ، ص ١٩-٢١ .

(٢) ابراهيم شحاته حسن : أطوار العلاقات المغربية العثمانية . ( الاسكندرية ، الناشر منشأة المعارف  
بالاسكندرية : ١٩٨١ ) ، ص ٧٨-٧٩ .

(٣) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٨٨ .

امارة القرمان القوية (١) ، نظرا لأن تلك البلاد وصل اليها الإسلام ، وقد بدأت فتوحاته الفعلية في القرن الثامن الهجري الموافق للقرن الرابع عشر الميلادي ، حين حل الانهيار النهائي بدولة السلاجقة مما أدى الى استيلاء عثمان بك على قلعتي اسكيشهر وقرجه حصار . وفي اسكيشهر بنى مسجدا وعين الموظفين لاقامة شعائر الإسلام وتطبيق الشريعة (٢) ، ثم أخذ يفتح مناطق جديدة ، فزحف على أزميد ثم أزيك ، فلما لم يتمكن من فتحها عاد الى عاصمته (٣) ، وشرع في توطيد سلطته على أساس العدالة ، ثم مالبت أن سير الجيوش للفتوح حتى أصبحت على مرمى البصر من بروسه ونيقيه وهما أهم المدن البيزنطية في غرب الأناضول . ومن يكي شهر التي أصبحت عاصمة لبلاده، فقد توفرت له فيها قاعدة الانطلاق نحو بروسه ثم الى القسطنطينية ، فمن موقعه الحصين في يكي شهر أرسل عثمان حملاته ضد المدن البيزنطية المجاورة لاستكمال الفتح ، فاستولى على كثير من الحصون قبل أن تتحرك جيوش الدولة البيزنطية للدفاع عنها . وبعد أن دحر الجيش البيزنطي لم يجرف البيزنطيون على الخروج من أسوار نيقية ( أزيك ) (٤) ، وذلك لأن الأراضي التي يسيطر عليها عثمان من اسكي شهر الى السهول المجاورة لنيقية وبروسه أصبحت بها إمارته والتي تعتبر من أقوى الامارات في المنطقة .

ونتيجة لذلك شعرت بيزنطة بتهديد تلك القوة النامية ، فقرر الامبراطور البيزنطي تركيز اهتمامه وقوته في الجانب البحري ليمنع وصول العثمانيين الى أراضيه الأوربية . في حين أن عثمان كان يخشى أن يتوقف الفتح العثماني بسبب

(١) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني . ص ٣٧ .

(٢) أحمد عبدالرحيم مصطفى : المرجع السابق . ص ٣٦-٣٧ .

(٣) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العثمانية . ص ١١٨ .

(٤) أحمد عبدالرحيم مصطفى . المرجع السابق . ص ٣٧ .

اغلاق البيزنطيين طريق البحر ، وخاصة لتفوق بيزنطة البحري ، في الوقت الذي لا تملك فيه الدولة العثمانية أسطولاً بحرياً ، أو بمعنى آخر انحصار عثمان في منطقة محدودة ، وربما سيؤدي هذا الانحصار الى ترك أتباعه له للبحث عن أراض جديدة ، فبدأ عثمان بالفتح في المناطق البيزنطية المجاورة ، فهاجم نيقية وهزم الجيش البيزنطي في بافيون (١) .

وقبيل أن يعزم السلطان على فتح بروسه ، أقام قلعتين بجوارها وعلى مسافة ربع ساعة ، وعين على هاتين القلعتين ابنه الغازي أورخان (٢) ليتمكن من حصار المدينة (٣) ، فأرسل الى جميع أمراء الروم ببلاد آسيا الصغرى يخبرهم بين ثلاثة أمور : الإسلام ، أو الجزية ، أو الحرب . فأسلم بعضهم وانضم اليه ، وقبل البعض دفع الجزية ، أما بعضهم الآخر فقد استعان على السلطان بالتار (٤) ، وطلبوا منهم النجدة ، فلبوا لهم ذلك واجتمعوا لحرب السلطان عثمان ، لكن السلطان لم يعبأ بهم ، فأرسل لهم جيشاً جراراً بقيادة ابنه أورخان ، وبعد صدام عنيف بين القوتين استطاع الأخير تشتيت شمل التار ومن استنجد بهم ، ثم عاد مسرعاً لمحاصرة مدينة بروسه سنة ٧١٧هـ / ١٣١٧م (٥) .

(١) زبيدي عطا : بلاد الترك في العصور الوسطى ، ص ٥٤ - ٥٥ .

(٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٩٩ .

(٣) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٣٧ .

(٤) يبدو أن هذه الواقعة تمخض عنها اتفاق بين أوربا الصليبية والمغول ظهرت نتائجه في موقعة أنقره بين تيمورلنك والسلطان بايزيد الأول كما سيأتي .

(٥) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٩٩ .

ومما ساعد أيضا في فتح بروسه بسهولة هجوم أورخان على حصن اودنوس الواقع على قمة جبل أولب<sup>(١)</sup> ، فدخله عنوة ، وبعد ذلك دخل مدينة بروسه بعد فتح كافة ماحولها من الحصون والقلاع ونشر الاسلام بها ، وقد دام هذا الحصار مدة من الزمن ، حتى أرسل امبراطور القسطنطينية أوامره لعامله على هذه المدينة بالانسحاب ، فانسحب منها ودخلها أورخان دخول الفاتحين من غير حرب ولا قتال ، وأسلم حاكمها ( افرينوس ) وأعطى لقب بك ، وصار افرينوس بك من مشاهير وقاد المسلمين فأسندت اليه قيادة المعارك فيما بعد<sup>(٢)</sup> .

لقد توج السلطان عثمان فتوحاته بفتح مدينة بروسه سنة ٧٢٦هـ / ١٣٢٦م<sup>(٣)</sup> .

وعقب ذلك الفتح بلغ أورخان مرض والده فهول مسرعا اليه ، ولم يلبث السلطان عثمان أن توفي في سنة ٧٢٦هـ / ١٣٢٦م<sup>(٤)</sup> ، فدفن في مدينة بروسه العاصمة الجديدة للدولة العثمانية بعد أن أوصى بنقل جثمانه الى

- 
- (١) أولب : اسمه بالتركية ( اناطولي طاغ ) أو ( كشيش طاغ ) وطاق بالتركية معناه الجبل . وقد كتب داغ لأن الأتراك يلفظون الطاء بين ( الطاء والضاد والذال ) وكشيش : لفظ فارسي معناه القسيس ويسمى هذا الجبل اليوم أولوطاغ ( Uludag ) أي الجبل الكبير .
- محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٢٠ حاشية رقم (١) .
- (٢) محمد فريد بك : المصدر السابق نفسه ، ص ١١٩-١٢٠ .
- عبداللطيف عبدالله بن دهيش : قيام الدولة العثمانية ( الطبعة الأولى ، مكة المكرمة ، مكتبة ومطبعة النهضة الحديثة : ١٤٠٩هـ ) ، ص ٢٨ .
- (٣) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٣٧ .
- عبداللطيف عبدالله بن دهيش : قيام الدولة العثمانية ، ص ٢٨ .
- (٤) اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٤٨٧ .

هناك<sup>(١)</sup> ويعتبر السلطان عثمان من الرواد الذين أرسوا قواعد دولة اسلامية مترامية الأطراف ، وبدأ السير في طريق النصر ، حتى قبض الله لأبنائه وأحفاده أن ينتهجوا خطواته<sup>(٢)</sup> .

وهكذا حاولنا أن نورد القرائن في كيفية نشأة الدولة العثمانية منذ هجرتها الأولى حتى استقرارها في الأناضول ، كما تبين أن تأسيس امارة آل عثمان إنما تم بعد موت ملك قونية السلطان علاء الدين آخر ملوك السلاجقة شهيدا وذلك في عام ٦٩٩هـ / ٢٨/٩/١٢٩٩م على يد التتار .

ولاحظنا ما صاحب نشأة الدولة في صراعها مع الروم وقوتها التي تحركها روح الجهاد الإسلامي لنشر الاسلام ، وسحق من يقف أمامهم من الروم حتى تم فتح أهم المدن البيزنطية في آسيا الصغرى ونشر الاسلام بها .

وبما أن عثمان كان شخصية محبوبة وجذابة فقد اتصف بالتسامح ، فعندما أرسل الى الروم يخبرهم بين الاسلام والجزية والحرب اختار قسم منهم الدخول في الاسلام طوعا ، والقسم الثاني اختار دفع الجزية دليلا على أنه دخل طاعة السلطان الاسمية . أما القسم الثالث فقد امتنع ورفع راية العصيان والرغبة في القتال فرأيناهم ينهزم بسهولة . وقد حسن اسلام من دخل فيه من رجال الروم كما أسندت الى بعضهم قيادة الجيش كما مر معنا وكما سيأتي .

(١) عبدالعزيز الشاوي : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ، ج ١ ، ص ٤٣ .

(٢) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٣٨ .

## ب - الجهاد والفتح ونشر الإسلام :

عقب وفاة السلطان عثمان بن أرطغرل اوصى بالملك من بعده لابنه أورخان ثاني أولاده ، لشجاعته واقدامه في الحرب ، ولم يوص به لابنه الكبير علاء الدين ، لئله الى الورع والعزلة ، ومن حسن حظ هذه الدولة عدم معارضة علاء الدين في هذه الوصية ، بل أقدم على قبولها وتنفيذها مقداً الصالح العام على الخاص ، واكتفى بوزارة الملكة ( الصدارة العظمى ) التي قلدها له أخوه أورخان (١) ، بالرغم من الحاح أورخان عليه بأن يقاسمه السلطة فيما بينهما ، فلم يقبل علاء الدين احتراماً لمشينة ورغبة والده (٢) ، فأصبح علاء الدين مختصاً بتدبير الأمور الداخلية ، واشتغل في اعداد وتأسيس الأنظمة والقوانين وبناء الجيش للدولة ، كما تفرغ أورخان للفتوحات ونشر راية الجهاد على كل البلدان المجاورة اليه (٣) . فالدولة العثمانية منذ تأسيسها دولة اسلامية في المنطلق والراية والهدف (٤) .

ويتضح هذا جلياً من وصية عثمان لابنه أورخان عند وفاته والتي جاء فيها : " اعلم يا بني أن نشر الإسلام ، وهداية الناس اليه ، وحماية أعراض

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٢٢ .

(٢) حسين ليب : تاريخ الأتراك العثمانيين ، ( القاهرة ، مطبعة الواعظ ، بمصر : ١٣٣٥ ١٩١٧ م )

ج ١ ، ص ٩ .

(٣) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٢٢ .

أحمد جودت باشا : تاريخ جودت ، ج ١ ، ص ٣٨ .

(٤) زياد أبوغيممة : جواب مصينة في تاريخ العثمانيين الأتراك ، ص ٢١ .

المسلمين وأموالهم أمانة في عنقك سيسألك الله عز وجل عنه" (١) . ثم قال : " يا بني اني أنتقل الى جوار ربي وأنا فخور بأنك ستكون عادلا في الرعية مجاهدا في سبيل الله لنشر دين الاسلام " . وقال أيضا : " أوصيك بعلماء الأمة ، أدم رعايتهم وأكثر تبجيلهم وانزل على مشورتهم فبانهم لا يأمرؤن الا بخير .. يا بني اياك أن تفعل ما لا يرضي الله عز وجل . وإذا صعب أمر فاسأل علماء الشريعة فبانهم سيدلونك على الخير ، واعلم يا بني أن طريقنا الوحيد في هذه الدنيا هو طريق الله ، وأن مقصدنا الوحيد هو نشر دين الله ، وأنا لسنا طلاب جاه ولا دنيا " .

وفي هذه الوصية حث عثمان الأبناء والمسئولين على الجهاد في سبيل الله حيث قال : " وصيتي الأولى لأبنائي ، ولجميع الأعراء على أن لا يتركوا الجهاد في سبيل اعلاء كلمة الله ، ونشر دين الاسلام الجليل ورفع راية الإسلام عاليا في ربوع العالمين ، واني أقول لكم : اني أدعو الله عز وجل أن يحرم من شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم يوم القيامة ، كل واحد فيكم يتعد عن طريق الاسلام، ويظلم الناس ، ويترك الجهاد" (٣) .

بعد هذه الوصايا التي صاحبت تكوين هذه الدولة والتي تدل على الحث على الجهاد في سبيل الله والعدل بين الرعية ، استلم السلطان أورخان عن والده دولة ليس لها قوانين ولا عملة أو حدود واضحة يحيط بها جيران أقوى منها (٤) .

(١) زياد أبوغنمية : جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك ، ص ٢١ .

- كامل باشا : تاريخ سياسي دولت عليه عثمانية ، ( مطبعة أحمد حسان : ١٣٢٧ هـ ) ج ١ ، ص ١٠ .

(٣) زياد أبوغنمية : المصدر السابق ، ص ٢١-٢٣ .

(٤) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٣٨ .

الا أن التزامه بوصية والده بمواصلة الجهاد بعد فتح بروسه جعله يفكر في نقل تحت السلطنة اليها ، فأصبحت عاصمة الدولة الجديدة للعثمانيين ، والتي صارت من ضمن العواصم التي انتقل العثمانيون اليها عبر تاريخهم<sup>(١)</sup> ، بعد أن كانت عاصمتهم ولمدة خمس وثلاثين سنة في مدينة يني شهر<sup>(٢)</sup> . ومن بروسه انطلقت الجيوش العثمانية لفتح مناطق جديدة ونشر الإسلام بها وتحويلها الى مناطق اسلامية<sup>(٣)</sup> . ذلك لأن الدولة العثمانية دولة قامت على الجهاد في سبيل الله ، فبدأت ثغراً ، ثم تحولت الى سلطنة بدأت تكتلاً عشائرياً ، ثم تطورت بسرعة لتتحول الى دولة اسلامية شعارها الجهاد في سبيل الله ، وقد أصبح هذا واضحاً منذ بدء قيامها دولة متفرغة لتأييد سلطة الإسلام وعقيدته ، متاهبة للدفاع عنه ، لتأكيد الشعور العثماني بأنهم أمة نذروا أنفسهم لنشر الدعوة الإسلامية ، وأن نشر الإسلام هو الهدف الأساسي لسلاطين بني عثمان<sup>(٤)</sup> .

وما ان استقرت قواعد الدولة ببناء النظم الجديدة المستمدة من النظم الإسلامية حتى التفت أورخان الى الفتوحات<sup>(٥)</sup> ، فزحفت جيوشه لفتح ما بقي

- 
- (١) عبدالعزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ، ج ١ ، ص ٤٣ .  
(٢) اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٤٨٨ .  
(٣) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٣٨ .  
(٤) عبدالكريم مشهداني : العلمانية وآثارها على الأوضاع الإسلامية في تركيا ، ( الطبعة الأولى ، منشورات المكتبة الدولية ، الرياض ، ومكتبة الخافقين ، دمشق : ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م ) ، ص ٣٤ .  
(٥) اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤٨٩ .



من بلاد آسيا الصغرى وبلاد الروم ، ففي سنة ٧٢٧هـ/١٣٢٦م انطلقت الجيوش العثمانية بقيادة الغازي عبدالرحمن واتجهت الى أزميد التي آل الحكم فيها الى ابنه حاكمها ، وكانت هذه المدينة تتلقى الامدادات المالية والعسكرية من القسطنطينية ، ولما حاصر الغازي عبدالرحمن قلعة ايدوس كاتبته البنت سرا<sup>(١)</sup> وقامت بارشاده الى الطرق السهلة لفتح القلعة المسماة ايدوس ، وتم فتح القلعة بسببها<sup>(٢)</sup> ، وقام الغازي عبدالرحمن بجمع الغنائم وارسل البنت مع الغنائم الى السلطان أورخان الذي عقد نكاحها على الغازي عبدالرحمن لكونها خدمت وأعانت الدولة .

ومازال السلطان يتقدم في فتوحاته حتى حضر بنفسه في سنة ٧٢٨هـ/١٣٢٧م وحاصر مدينة نيقوميديا ( أزميد الحالية ) وأرسل قرة على والغازي عبدالرحمن وقورا الب لفتح قيون حصار ، وفي أثناء الحرب أصيب قلايون حاكم قيون حصار برصاصة سقط على اثرها ميتا من سور القلعة ، فاستولت الجنود العثمانية على القلعة المذكورة ، وخلال ذلك أيضا سلمت بلاقونية حاكمة أزميد المدينة الى السلطان أورخان ، فأركبها مع جنودها ومن يريد من أهل المدينة السفن ، وأرسل الكل الى القسطنطينية وذلك بناء على رغبتها<sup>(٣)</sup> .

وبهذا العمل جذب اليه قلوب الأهالي لمعاملته هم باللين والرفق ولم يعارض الأهالي الذين رغبوا في اقامة شعائرهم الدينية وأذن كذلك لمن أراد أن يهاجر

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٢٤ .

(٢) ابراهيم بك حليم : التحفة الخليمية في تاريخ الدولة العلية ، ص ٣٨ .

(٣) اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤٨٩ .

ابراهيم بك حليم : المصدر السابق ، ص ١٢٤ .

بأخذ كافة منقولاته وبيع عقاراته مع تمام الحرية في اجراءاته<sup>(١)</sup> . وبهذا الفتح صارت حدود الدولة قريبة من خليج القسطنطينية<sup>(٢)</sup> ، ولم يبق من مدن الروم المهمة في آسيا سوى مدينة نيقية ( أزيك الحالية ) فحاصرها السلطان وضيق الحصار عليها وعلى أهلها حتى تم فتحها فدخلها بعد سنتين من الحصار وذلك في سنة ١٣٢٩هـ / ١٣٢٩م فسقط بسقوطها نفوذ الروم<sup>(٣)</sup> .

وخلال هذه المعارك غنم العثمانيون غنائم كثيرة ، وكان امبراطور القسطنطينية قد اجتهد من أجل خلاصها<sup>(٤)</sup> حيث سار بجيشه لاسترجاعها فالتقى بالجيش العثماني في بلكانون<sup>(٥)</sup> ، وكانت النتيجة انتصار الأتراك الذين طاردوا الجيش البيزنطي حتى اسكدار<sup>(٦)</sup> الواقعة في آسيا<sup>(٧)</sup> على الشاطئ الآسيوي لمضيق القسطنطينية ، وقد كانت هذه المدينة من المدن المقدسة لدى المسيحيين ، ومن أهم مدان تلك الجهات ولذلك اتخذها السلطان أورخان مركزا لتجمع قواته<sup>(٨)</sup> .

ونتيجة للانتصارات الكبيرة للقوات العثمانية فقد تخلت بيزنطة عن بذل الجهود الخاصة بتنظيم المقاومة العسكرية في الأناضول ، أو تزويد حاميات ماتبقى

- 
- (١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٢٤ .
  - (٢) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٤٨٩ .
  - (٣) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٢٤ .
  - (٤) اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ص ٤٨٩ .
  - (٥) بلكانون : هذا المكان يدعى الآن " مالتبه " .
  - انظر : أورخان محمد علي : السلطان عبد الحميد الثاني ، حياته وأحداثه ، ص ١٦ .
  - (٦) اسكدار : هي احدى المناطق الآسيوية لمدينة القسطنطينية .
  - انظر : أورخان محمد علي : المصدر السابق ، ص ١٦-١٧ .
  - (٧) أورخان محمد علي : المصدر السابق نفسه ، ص ١٦-١٧ .
  - (٨) اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤٨٩ .

لها من المدن هناك ضد الدولة العثمانية ، وهذا ما جعل دولة السلطان أورخان من أقوى الإمارات التركمانية حتى تم اعتبارها زعيمة الجهاد الإسلامي ضد المسيحيين<sup>(١)</sup> .

وفي سنة ٧٣٢هـ / ١٣٣٠م توفي الوزير علاء الدين بن أورخان ، وحل مكانه الأمير سليمان بن أورخان وزيراً للدولة ، وفتح مدينة أزنك المقدسة<sup>(٢)</sup> ، وتلى ذلك بأن استولى أورخان على ماتبقى من البلاد البيزنطية الواقعة شمال غربي الأناضول دون صعوبة<sup>(٣)</sup> ، ومنها بلاد مدرني وكمليك .

وخلال تلك المعارك أرسل قيصر الروم جملة من الهدايا للسلطان أورخان طالبا منه عقد الصلح بين الطرفين ، وإيقاف المعارك ، وبعد المفاوضات عقدت هدنة بين الطرفين ولمدة عشرين سنة في عام ٧٣٢هـ / ١٢٣٠م<sup>(٤)</sup> .

وعلى الرغم من تلك الهدنة فإن السلطان أورخان كان يطمح لنشر الإسلام في مناطق أوسع ، ولذلك قام في عام ٧٣٦هـ / ١٢٣٦م بفتح إمارة قره سي<sup>(٥)</sup> ، وضمها إلى دولته وذلك لوقوع الخلاف بين ولدي أميرها<sup>(٦)</sup> ، عجلان بك بعد موته .

- 
- (١) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٤٥ - ٤٦ .
  - (٢) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٤٨٩ .
  - (٣) أحمد عبدالرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص ٤٥ .
  - (٤) اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ص ٤٨٩ .
  - (٥) قره سي : إمارة صغيرة تقع غرب الأناضول جنوب بحر مرمره وإلى الشرق من بحر إيجه .
  - محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٢٤ ، حاشية رقم (١) .
  - (٦) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٢٤ .
  - اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤٨٩ .
  - علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٦ .

وهي أول مملكة اسلامية من الأناضول<sup>(١)</sup> ، تعزز بها مركزه وحركة الفتح الاسلامي على شواطئ بحر مرمره كما سهل فتحها للعثمانيين الوصول الى قلعة الدردنيل في شبه جزيرة غاليبولي فأصبح العبور الى شرق أوروبا ميسورا حين تسنح أول فرصة له<sup>(٢)</sup> .

وما ينبغي ملاحظته أن سلاطين بني عثمان الأول لم يشنوا الحرب تلو الحرب من أجل الانتصارات المتوالية والتوسع المستمر ، بل كانت حروبهم من أجل الفتح ونشر الاسلام وبناء حضارة اسلامية عالية ، فما ان ينتهوا من فتح مدينة أو منطقة حتى يسارعوا الى تنظيمها ونشر الاسلام والعدل والأمن والمساواة بها ، بحيث تكون الأراضي الجديدة جزءا لا يتجزأ من الدولة بكل مقوماتها الاقتصادية والسياسية والعسكرية وغيرها من الجوانب الحضارية .

وعلى هذا المنوال جعلوا من آسيا الصغرى قوة فريدة في نظامها ووحدتها بعد أن كانت مناطق تعيش فيها طوائف متفرقة . وبهذا العمل ضمنت استمرارها في آسيا الصغرى وشرق أوروبا فترة طويلة من الزمن<sup>(٣)</sup> وكان اعتمادها بالدرجة الأولى على صهر عناصر السكان في وحدة واحدة ، وذلك من أجل تماسك الدولة وجعل السكان يعملون يدا واحدة من أجل البناء والتطور على حسب أسس اسلامية قيمة<sup>(٤)</sup> .

وتلت فتح قره سي فترة عشرين سنة انقضت من غير حرب وفتوح<sup>(٥)</sup> .

(١) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٤٨٩ .

(٢) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٤٦ .

(٣) حسين لبيب : الأتراك العثمانيون ، ج ١ ، ص ١٤ .

(٤) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٤٧ .

(٥) حسين لبيب : الأتراك العثمانيون ، ج ١ ، ص ١٤ .

وقد استفاد أورخان من فترة الهدنة ، فعمل على الاصلاح الداخلي ،  
وذلك بسن الأنظمة ونشر الاسلام والسلام في ربوع البلاد<sup>(١)</sup> عن طريق بناء  
المساجد والمدارس وتخصيص الأوقاف للصرف على المنشآت والمرافق العامة وهذا  
ماشهد به عظمة عصر السلطان أورخان وحبه للخير والاحسان والنظام<sup>(٢)</sup> .

وفي سنة ٧٤٦هـ / ١٣٤٥م جددت الدولة المعاهدة السلمية مع قيصر  
الروم ، فزاد ذلك من جو الصفاء والمودة بين الدولتين<sup>(٣)</sup> ، وارتبط السلطان  
أورخان برباط الصداقة والود مع الامبراطور اندرونيكوس ومن أتى بعده<sup>(٤)</sup> ، ولم  
يدرك السلطان أورخان أن وراء تلك الهدنة مخططا من جانب قيصر الروم ، وأن  
عقده لتلك الهدنة هو من أجل تدعيم موقفه وتقوية صفوفه ، وهذا ماحدث فعلا .  
فماكاد قيصر الروم يعقد تلك الهدنة حتى أخذ يعمل في الخفاء من أجل تدعيم  
مركزه وبناء قوته . وكان يبطن العداء الشديد للدولة العثمانية وسلطانها ويتحين  
الفرص للايقاع بالدولة العثمانية ، لكن لم يجرء على إعلان ذلك إلا بعد عشر  
سنوات من عقد تلك المعاهدة ، وذلك بعد أن اتحد القيصر مع البنادقة الذين  
كانوا يهاجمون أطراف الدولة العثمانية من الجهة البحرية<sup>(٥)</sup> ، فلقد كانت الحروب  
التي نشبت بين الجمهوريتين البحريتين البندقية والجنوية وشهدتها البحر الأبيض

(١) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٤٨٩ .

- محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٢٤ .

(٢) حسين ليب : المصدر السابق ، ص ١٤ .

(٣) اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ص ٤٩٠ .

(٤) حسين ليب : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٤-١٥ .

(٥) اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤٨٩ .

محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٢٤ .

المتوسط سببا مباشرا لتجديد العداوة بين قوى أورخان وصهره كانتكوزين، والتي أدت الى استقرار العثمانيين في شرق أوربا ، لأن الجنويين كانوا يملكون الضاحية الأوربية للقسطنطينية وهي المعروفة بغلطة ، فكان البوسفور إحدى الجهات التي شهدت اشتباكهم مع أعدائهم البنادقة في القتال ، وكان أورخان يكره البنادقة لأن أساطيلهم عبثت بأملأكه الواقعة على البحار ، كما احتقروا المفاوضات معه كأمر ولكنهم كانوا حلفاء لصهره المذكور ، فأرسل أورخان جنودا مساعدة الى غلطة لتعزيد الجنويين ونصرتهم على البنادقة العدو المشترك.. وفي الوقت نفسه مد أورخان يد المساعدة الى يوحنا بولوجوز في الحرب الأهلية التي نشبت بينه وبين صهره الامبراطور (١) للمطالبة بأحقية عرش القسطنطينية .

ففي وسط هذه الاضطرابات ، تمكن السلطان أورخان من اصدار أمره الى ابنه سليمان بالاستعداد والعبور لبلاد الروملي ، فتقدم سليمان بالجيش في سنة ١٣٥٦هـ/١٣٥٦م حتى وصل الى مدينة جناق قلعة بالساحل الغربي لآسيا على مضيق الدردنيل ، ثم عقد هناك مجلسا مع أشهر قواده ، فاتفقوا على عمل عبارات ( اكلارك ) للعبور بها ، وبعد انشائها عبروا بها الى الدردنيل ليلاً الى ساحل روم ايلي . واستولى سليمان بن أورخان على قلعة جمنك ( Tzype ) وذلك في سنة ١٣٥٨هـ/١٣٥٧م (٢) وتسمى أيضا حصن ( Zampe ) زمبه في الوقت الذي كان فيه كونتاكوزينوس مشغولا بصراعه مع صهره يوحنا بولوجوز . ولهذا السبب لم يستطع التصدي للقوات العثمانية وحماية هذا الموقع المهم (٣) . ويعتبر هذا العبور بداية للتاريخ البحري للدولة العثمانية .

(١) حسين ليب : تاريخ الأتراك العثمانيين ، ج ١ ، ص ١٥ .

(٢) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٤٩٠ .

(٣) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٤٧ .

ففي تلك الأثناء ظهرت بعض الاضطرابات والمنازعات بين أعضاء العائلة الامبراطورية في القسطنطينية ، بعد وفاة اندرونيكوس الثالث امبراطور دولة الروم في سنة ٧٤١هـ / ١٣٤٠م . فكان الوارث لعرش الدولة هو يوانيس يوحنا باليولوجوس<sup>(١)</sup> وكان حديث السن عند ذلك قام ناظر قصر الامبراطور المدعو كانتاكوزينوس<sup>(٢)</sup> وآخرون يطلبون الاستنثار بالملك ، فطلب انتاكوزينوس من السلطان أورخان المساعدة وزوجه بابنته تيودورا لتقوية أواصر المساعدة ، وعلى ذلك أرسل السلطان أورخان قوة من جيوشه عدة مرات لمساعدته ونجدته حتى مكنه من السيطرة على منافسيه والفوز بعرش القسطنطينية<sup>(٣)</sup> متحديا في ذلك قوى الغرب<sup>(٤)</sup> .

(١) يوحنا بولوجوز : هو يوحنا الخامس امبراطور بيزنطة من سنة ١٣٤١ - ١٣٩٠ م . وكان ابن تسع سنين حينما توفى والده الامبراطور اندرونيكوس الثالث . فحصل صراع على السلطة ففاز من جراء ذلك رئيس وزراء والده يوحنا كانتاكوزين وبالرغم من زواج بولوجوز من ابنة رئيس وزراء والده كانتاكوزين المذكور ، الا أنه كان يعمل ضده لاجباره على التنازل عن وصاية العرش . فطلب مساعدة الغرب بعد فتح غاليلي من قبل العثمانيين . واعترف بروما وتعهد بانتهاء الخلاف بين البيزنطيين واللاتين . مقابل وعود البابوية بحملة صليبية لدعمه ، ولكن بقي ذلك حبرا على ورق . وحينما حاول تحصين القسطنطينية . معه العثمانيون وهددوه . وتوفى سنة ١٣٩١م .

- على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٩ . حاشية رقم (٢) .

(٢) كانتاكوزينوس : هو يوحنا كانتاكوزينوس من السلالات الاستقرائية البيزنطية . كان له دور بارز في قيادة الامبراطورية . فاز من بين المتنافسين على وصاية العرش الامبراطوري البيزنطي . وذلك بمساعدة العثمانيين بعد وفاة الامبراطور اندرونيكوس الثالث .

- على حسون : المصدر السابق ، ص ١٩ . حاشية رقم (١) .

(٣) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٤٩٠ .

ابراهيم بك حليم : التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية ، ص ٣٩ .

(٤) على حسون : المصدر السابق ، ص ٩١ .

من أجل ذلك قام الروم بعقد حلف صليبي مع المجر والصرب والبلغار والافلاق والبلغدان في سنة ٧٥٨هـ/١٣٥٧م لقتال سليمان لفتوحاته في أوروبا أولا وتدخله في أحوال الدولة الرومية ثانيا ، فاستعد سليمان لهذا الحلف الصليبي المتحد وانقض عليهم بجنوده من جبال البلقان وأوقع بجمعهم الهزيمة . ثم قصد جهة بلاد البلغار لتسكين ثورتها واضطرابها (١) .

وفي خلال ذلك حصلت أيضا منافسات كبيرة بين ملوك الصرب والمجر والبلغار والافلاق والبلغدان أدت الى منازعات عديدة (٢) ، ذلك لأن ملك الصرب ( دوشان ) جمع قبائل الصقالبة تحت سلطانه ، وسار بهم الى بلاد البلغار فاستولى عليها وزحف على مدينة القسطنطينية ، فأرسل امبراطور الروم بالقسطنطينية (٣) وفدا الى السلطان أورخان يطلب منه الاغاثة والاعانة مرة ثانية

---

(١) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ص ٤٩٠ .

ابراهيم بك حليم : التحفة الخليمية في تاريخ الدولة العلية ، ص ٣٩ .

(٢) اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ص ٤٩٠ .

(٣) كانت مدينة رومه وما استولت عليه من الأقاليم التسعة مشكلة بهينة جمهورية من ابتداء وجودها الى

سنة ٢٩ قبل المسيح فجعلها القائد الشهير ( اكتافيوس Octavius ) حكومة امبراطورية وأطلق

على نفسه لقب ( أوغسطس ) أي السامي القدر . واستمرت هذه المملكة الى سنة ٣٩٥ حيث

قسمها الامبراطور ( طيودوس ) بين ولديه الى مملكة رومانية شرقية وجعل مقرها بيزنطة التي سُميت

فيما بعد بالقسطنطينية وأقام عليها ابنه أركاديوس Arcadius ومملكة رومانية غربية جعل

عاصمتها مدينة رومه وأقام عليها ابنه الثاني ( انوريوس Honorius ) ثم سقطت الدولة الغربية

سنة ٤٧٦ م بسبب اغارة المتبربرين عليها ، واستمرت الشرقية الى أن فتحها العثمانيون عام

١٤٥٣هـ/١٤٥٣م .

- محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٢٥ حاشية رقم (١) .



فأمدده السلطان وأرسل له جيشا عظيما بقيادة ابنه سليمان باشا لصد غارة ملك الصرب<sup>(١)</sup> فسار حتى عسكر تحت أسوار القسطنطينية وسكن ذلك الاضطراب<sup>(٢)</sup> بموت ملك الصرب قبل وصوله الى القسطنطينية وبذلك تخلصت القسطنطينية من شره<sup>(٣)</sup>.

ولما نزل العثمانيون بساحل أوروبا تأكدوا من ضعف مملكة الروم وما آلت اليه من الانحلال ، فأخذ السلطان أورخان سرا تجهيز واعداد الكتائب لاجتياز البحر واحتلال بعض نقاطه المهمة على شاطئه الأوربي لتكون مركزا لانطلاق أعمال العثمانيين نحو أوروبا ، حتى اذا حانت الفرصة انقضوا حصار القسطنطينية برا وبحرا ودخلوها فاتحين غانمين<sup>(٤)</sup>.

يظهر من هذا خطة أورخان في اتباع سياسة دقيقة مع بيزنطة تسندها القوة العسكرية ، ولا تميل الى البدء بالاعتداء ، والمعروفة بسياسة النفاذ الى البحار المفتوحة والوصول الى المضائق<sup>(٥)</sup>.

ففي سنة ٧٥٩هـ / ١٣٥٧م سنحت الفرصة فاجتاز سليمان باشا أكبر اولاد السلطان أورخان وولي عهده وصدر مملكته مضيق الدردنيل ومعه أربعون من أشجع جنوده تحت أستار الظلام حتى وصلوا الى الضفة الأخرى ، فقضوا على ما كان بها من القوارب ، وعادوا بها الى معسكرهم ، فانتقل الجيش العثماني الى الضفة أوروبا وكان عدده ثلاثين ألفا ، واحتل ميناء ( ترنب ) وساعدهم الله بأن

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٢٥ .

(٢) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ص ٤٩٠ .

(٣) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٢٥ .

(٤) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٢٦ .

(٥) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ٩٤ .

أصاب مدن تراقيا زلزال شديد أسقط جزءاً من أسوار غاليبولي<sup>(١)</sup> فدخلها العثمانيون بدون قتال<sup>(٢)</sup>. وكان ذلك في سنة ٧٦٠هـ/١٣٥٨م فاحتج الامبراطور البيزنطي على ذلك دون جدوى، فكان رد السلطان أورخان أن العناية الالهية قد فتحت أبواب المدينة أمام قواته<sup>(٣)</sup>. وما لبثت غاليبولي أن أصبحت أول قاعدة عثمانية في أوربا.

وحين انفرد باليولوس ( حنا الخامس ) بحكم بيزنطه قام باقرار فتوح أورخان في أوربا، وذلك مقابل تسهيل وصول المون الغذائية وغيرها الى القسطنطينية<sup>(٤)</sup>. وفي هذا العام ٧٦٠هـ/١٣٥٨م تم فتح عدة مدن منها ايسالا<sup>(٥)</sup> و ( رودستو )<sup>(٦)</sup> وغيرها من المدن وأصبحت الدولة العثمانية ذات مكانة عالية تهابها وتحسب لها ألف حساب جميع الدول الأوربية رغم عهدها الحديث. وبينما كان الروم يطلبون من العثمانيين أن يعيدوا لهم هذه المناطق في مقابل ما يريدون من المال، كانت عساكر السلطان مهتمة بالفتوحات المتواصلة في

- 
- (١) كليبولي : مما يكسب هذه المدينة أهمية عظمى وقوعها على ضفة بوغاز ( مضيق ) الدردليل الذي هو الممر الوحيد بين بخار اوربا و بحر مرمره . وهي تبعد عن مدينة أدرسة ثمانه وأربعين كيلو متراً تقريبا . وتقع في آخر مضيق الدردليل في الجانب الأوربي .
- محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية . ص ١٢٦ .
- (٢) محمد فريد بك : المصدر السابق . ص ١٢٦ .
- (٣) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني . ص ٤٧ .
- (٤) أحمد عبدالرحيم مصطفى : المرجع السابق . ص ٤٧ .
- (٥) ايسالا : تقع في شمال مضيق الدردليل في الجانب الأوربي .
- (٦) رودستو : Rodosto ويسميتها الأتراك تكرر طاغ أو تكفور طاغ وتقع على بحر مرمره من الجانب الغربي .
- محمد فريد بك : المصدر السابق . ص ١٢٧ . حاشية رقم (١) و (٢) .

أراضي الروم التي كانت منشغلة بالمنازعات الداخلية<sup>(١)</sup> ، فكانت هذه المنازعات فرصة لتقوية مركز السلطان أورخان في أوربا لأن كل فريق من المتحاربين كان يطلب ود المسلمين ليستعين بهم على الفريق الآخر<sup>(٢)</sup> .

ثم أرسل أورخان أعدادا كبيرة من التركمان الى تراقيا لتدعيم مركز الدولة العثمانية هناك<sup>(٣)</sup> . وبينما كان سليمان يقود الجيوش لتحقيق النصر على أعداء الاسلام وافاه الأجل المحتوم فعين لقيادة الجيش أخوه مراد الأول مكانه<sup>(٤)</sup> . ولما بلغ هذا الخبر والده أسف عليه أسفا شديدا ولم يلبث الا قليلا حتى توفي من كدره<sup>(٥)</sup> .

وهكذا توفي السلطان أورخان بعد أن أتم خلال حكمه إقامة أهم النظم المدنية والعسكرية ، وخفق الهلال راية الدولة على القارة الأوربية ، فمنذ أول يوم ثبت فيه العثمانيون أقدامهم على الأرض الأوربية وأعداؤهم يحاولون عبثا زحزحتهم عنها دون جدوى<sup>(٦)</sup> . فانطلقت من غاليبولي قاعدتهم في أوربا الحملات الأولى التي كان من نتائجها فتح كامل لشبه جزيرة البلقان على يد خلفائه<sup>(٧)</sup> .

(١) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٤٩٠-٤٩١ .

ابراهيم بك حليم : التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية ، ص ٣٩ .

(٢) حسين ليب : تاريخ الأتراك اعثمانيين ، ج ١ ، ص ١٧ .

(٣) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٤٧ .

(٤) أحمد جودت باشا : تاريخ جودت ، ج ١ ، ص ٣٨ .

(٥) اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤٩١ .

- ابراهيم بك حليم : المصدر السابق ، ص ٣٩ .

(٦) حسن ليب : المصدر السابق ، ص ١٧ .

(٧) أحمد عبدالرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص ٤٧-٤٨ .

وإذا كان السلطان عثمان هو مؤسس دولة آل عثمان ، فإن السلطان أورخان يعتبر المؤسس الحقيقي لأركان هذه الدولة على أساس مقومات الدولة الحقيقية ، فقد حمل لقب سلطان وقام بسك أول عملة عثمانية<sup>(١)</sup> .

وعندما تربع السلطان مراد الأول على كرسي الحكم اتبع خطوات والده في الجهاد والفتوحات الإسلامية<sup>(٢)</sup> ، وبينما هو مهتم ببناء أمور دولته الداخلية إذ بأولاد القرمان<sup>(٣)</sup> المتآخمين لدولته يتحدون مع الحكام المسيحيين ضد السلطان مراد الأول<sup>(٤)</sup> . ذلك لأن سلطان هذا الاقليم علاء الدين أراد انتهاز فرصة انتقال الملك الى السلطان مراد الأول بعد وفاة والده فأثار حمية هؤلاء الأمراء المستقلين وحرصهم على قتال العثمانيين ليذك صرح مجدهم وليوقف عجلة تقدمهم<sup>(٥)</sup> ، فهجم هذا الحلف على بروسه عاصمة الدولة العثمانية ثم ازنيق ، فاستعد السلطان لقتالهم وهزمهم ، ثم استولى على قلعة أنقرة في سنة ٧٦٢هـ / ١٣٦٠م<sup>(٦)</sup> أهم مدنها ومقر سلطنة القرمان . فلما رأى القرمان انهزامهم أمام القوات العثمانية سارعوا الى ابرام الصلح مع السلطان ليحفظ ما بقي لهم من الأملاك<sup>(٧)</sup> . وفي تلك اللحظة سار البنادقة فارتدوا بأسطول بحر مؤلف من ستين

(١) Halil Inalcik , The Ottoman Empire , p.56 .

(٢) اسماعيل سرهنك : حقائق أخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٤٩١ .

(٣) أمراء شبه ملوك الطوائف بالأناضول الذين استقلوا باماراتهم عقب سقوط دولة السلاجقة في بلاد قونية .

Halil Inalcik , Op.cit., p. 56 . -

(٤) ابراهيم بك حليم : التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية ، ص ٤١ .

(٥) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٢٩ .

(٦) ابراهيم بك حليم : المصدر السابق ، ص ٤١ .

(٧) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٢٩ .

سفينة انقسمت الى فرقتين ، تقدمت احدهما الى غاليبولي ، والثانية دخلت جون المعارض كل منهما تحمل مائة ألف جندي والتحق بهذا العدد بعض من أهالي الصرب قوة اضافية لطرده العثمانيين من أوربا ، ثم تقدمت هذه القوات وهجمت على العثمانيين الموجودين في الروملي ، فتصدى لهم الجيش العثماني بكل ثبات فأجلاهم عند الهجمة الأولى فارتدوا على أعقابهم يجرون أذيال الهزيمة والعار .

ولم يكن للعثمانيين في ذلك الحين قوة بحرية ماعدا بعض الزوارق التي يستعملونها داخل بحر مرمرة ، ولكن السلطان رأى في سنة ٧٦٣هـ / ١٣٦١م زيادة عدد تلك الزوارق لتساعد الجيش في نقل مهامه البحرية . وعلى أثر ذلك عبر بجيشه الى روملي <sup>(١)</sup> ، وفتح جملة من البلاد والقلاع <sup>(٢)</sup> .

وفي سنة ٧٦٣هـ / ١٣٦١م فتحت مدينة أدرنة <sup>(٣)</sup> . وعين عليها شاهين بك لاله <sup>(٤)</sup> ، سلمها قائدها الرومي لما داخله اليأس في استخلاصها .

وقد نقل السلطان مراد الأول عاصمته من بروسه الى أدرنة لأهمية موقعها الاستراتيجي لوقوعها على ملتقى ثلاثة أنهار ، فأصبحت عاصمة للدولة حتى تم فتح القسطنطينية على يد السلطان محمد الفاتح الثاني سنة ٨٥٧هـ / ١٤٥٣م <sup>(٥)</sup>

(١) الروملي : بالمصطلح الجديد ( مقدونيا ، وتراقيا ) .

- أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٤٨ .

(٢) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٤٩١ .

(٣) أدرنة : اسمها بالرومية ( أدرينا بوليس ) نسبة للامبراطور أدرينان الرومي الذي أجرى فيها عدة تحسينات أوجبت طلاق اسمه عليها وتوفي الامبراطور سنة ١٣٨ م .

- محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٢٩ ، حاشية رقم (١) .

(٤) لاله شاهين : (أي مربي السلطان ، وهو مربي السلطان في صغره) .

- ابراهيم بك حليم : التحفة الخليمية في تاريخ الدولة العلية ، ص ٤٨ .

(٥) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٢٩-١٣٠ .

اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ص ٤٩٢ .

وأصبحت أدرنة مركز الروملي وعاصمة للدولة بعد بروسه وتحولت من مدينة  
 بيزنطية الى مدينة اسلامية <sup>(١)</sup> .  
 وفي سنة ٧٦٣هـ / ١٣٦١م عين السلطان مراد الأول القائد أورنوس بك  
 على سواحل الروملي الجنوبية <sup>(٢)</sup> وأناط به مهمة فتح كوملجنة <sup>(٣)</sup> وواردار  
 وماجاورها من البلاد <sup>(٤)</sup> .  
 وفي سنة ٧٦٥هـ / ١٣٦٣م فتح القائد العثماني شاهين باشا فيلبه <sup>(٥)</sup> ،  
 عاصمة الروملي الشرقية ، وما حولها ، وفتح القائد العثماني أورنوس بك جهات  
 سيروز ومناستر وبهشتنه وموشنه وماحولها أيضا <sup>(٦)</sup> ، وصارت أعمال هذه  
 الجهات الأربع وتوابعها ولاية واحدة عين عليها أورنوس بك حاكما لها <sup>(٧)</sup> .  
 وبذلك صارت مدينة القسطنطينية محاطة من الجهة الأوربية بأماك  
 آل عثمان ، وأصبحت الدولة العثمانية بهذا الفتح مجاورة لامارات الصرب

- 
- (١) يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية . ج ١ . ص ٩٨ .  
 (٢) ابراهيم بك حليم : التحفة الخليمية في تاريخ الدولة العلية . ص ٤١ .  
 (٣) كوملجنة : وتسمى ( Komotini ) وتقع في الجنوب الغربي من أدرنه وعلى بعد نحو ٢٥ كم شمال  
 بحر ايجه .. وتقع واردار Vardar الى غرب كوملجنة وعلى نهر يعرف بهذا الاسم .  
 - محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية . ص ١٣٠ حاشية رقم (٢) .  
 (٤) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار . ص ٤٩١ .  
 (٥) فيلبه : اسمها بالروميه فيلبو بولس أي مدينة فيليب نسبة لمؤسسها فيليب والد الاسكندر الأكبر  
 وتقع Philippolis الى الجنوب الشرقي من صوفيا وأدرنه .  
 - محمد فريد بك : المصدر السابق . ص ١٣٠ . حاشية رقم (١) .  
 (٦) اسماعيل سرهنك : المصدر السابق . ص ٤٩٢ . ٤٩١ .  
 أورخان محمد علي : السلطان عبد الحميد الثاني حياته وأحداث عهده . ص ١٧ .  
 (٧) ابراهيم بك حليم : المرجع السابق . ص ٤١ .  
 اسماعيل سرهنك : المصدر السابق . ص ٤٩٢ .

والبلغار وألبانيا المستقلة (١) .

ونتيجة لذلك اضطرب المسيحيون الصليبيون المتآخون للدولة العلية العثمانية وطلبوا من البابا ( أوربانوس ) (٢) الخامس أن يدعو ملوك أوروبا الغربيين ليساعدوهم على حرب العثمانيين المسلمين واخراجهم من أوروبا خوفاً من امتداد الفتوح الإسلامية ونشر الإسلام الى ما وراء جبال البلقان ، اذ لو اجتازوها بدون معارضة أو مقاومة فلن يقوى أحد بعد ذلك على إيقاف وصد تيار فتوحاتهم ، ويخشى بعدها على ممالك أوروبا من العثمانيين (٣) الذين سيتقدمون للاستيلاء عليها ونشر الإسلام فيها ، وهذا ما كان يزعجهم ويقلق بالهم . وقد استجاب البابا فدعا المسيحيين الأوربيين الى حملة صليبية ضد الأتراك العثمانيين (٤) وحرص القوى الصليبية على مجاربتهم محاربة دينية حفظاً للدين المسيحي من الفتوحات الإسلامية (٥) .

وفي سنة ٧٦٦هـ / ١٣٦٤م تم اتفاق الدول المسيحية على اخراج العثمانيين من الأقاليم الأوربية بناء على دعوة البابا التي استجاب اليها كل من

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٣٠ .

(٢) أوربانوس : يلفظ بالفرنسية Urbain واسمه الأصلي قبل أن يكون بابا هو كيوم ده كريموار

Guillaume de Grimoare وهو فرنسي المولد ولد في سنة ١٣١٠م ومات في سنة ١٣٧٠م

انتخب بابا في سنة ١٣٦٢م .

- محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٣٠ حاشية رقم (٣) .

(٣) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٣٠ .

عبد اللطيف عبدالله بن دهيش : قيام الدولة العثمانية ، ص ٣١ .

(٤) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ٩٨ .

(٥) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٣٠ .

ملوك المجر وبوسنه والصر ب مع أمير الفلاخ ( الافلاق )<sup>(١)</sup> .  
ولكن ( أوروك ) الخامس ، الذي عين ملكا على الصرب لم ينتظر وصول  
المدد اليه من أوربا واكتفى بما قدمه له أمراء البوسنة والأفلاخ<sup>(٢)</sup> من مساعدات  
وبعدد كبير من فرسان المجر ، وسار بهم لمهاجمة مدينة ( أدرنة ) عاصمة الدولة  
العثمانية ، منتهزا فرصة انشغال السلطان مراد بمحاصرة مدينة ( بيجا )<sup>(٣)</sup> بيغا  
بالقرب من مدينة بورسه بأسيا الصغرى . ولما علم السلطان بأمرهم استعد لهم  
وقابلهم على شاطئ نهر ( ماريتزا )<sup>(٤)</sup> فجأة في ليلة مظلمة وكان معه قوة  
عظيمة ، فاندesh العدو وداخله الفرع ودار قتال عنيف بين القوتين انتهى باندحار  
القوات الصليبية الذين ولوا على أدبارهم وملا الرعب قلوبهم (٥) .  
وتمكن العثمانيون بذلك النصر من ضم جنوب جبال البلقان الى بلادهم .  
وتعد هذه المعركة من المعارك المهمة في تاريخ المسلمين العثمانيين ، اذ لو كتب لهذه

- 
- (١) ابراهيم بك حليم : التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية ، ص ٤١ .  
يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ٩٨ .
- (٢) البوسنة : احدى جمهوريات الاتحاد اليوكسلافي الآن وعاصمتها سراجيفوا واكثرية أهلها من  
المسلمين .
- أما الافلاخ : فكان يسميها الأتراك ( افلاق ) فهي امارة من امارات الدانوب أصبحت تابعة للدولة  
العثمانية من سنة ١٣٩٥ م واستقلت سنة ١٨٥٦ م واتحدت مع مولدافيا سنة ١٨٥٨ م وكونتا  
مع الدولة الرومانية الحاضرة .
- محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٣٠ ، ١٣١ ، حاشية رقم (٤) .
- (٣) بيجا ( Bija ) : تقع الى الجنوب من بحر مرمره وبالقرب من مضيق الدردنيل .
- محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٣١ حاشية رقم (١) .
- (٤) نهر ماريتسا : Maritza , Marica ينبع من غرب بلغاريد وبحر اليونان ويصب في بحر ايجه .
- محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٣١ ، حاشية رقم (٣) .
- (٥) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٣٠-١٣١ .
- ، على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٢٢ .



الحملة الصليبية النجاح في اخراج المسلمين من أوروبا لواصلوا زحفهم باتجاه المشرق الى آسيا الصغرى ولتكررت مأساة الحملة الصليبية الأولى<sup>(١)</sup> ، اذ ان فكرة احتلال بيت المقدس كانت ولا تزال قائمة باستمرار في أذهان زعماء أوروبا<sup>(٢)</sup> ، ولأن هذه الحملة الصليبية تعد الأولى التي نفذت ضد الدولة العثمانية<sup>(٣)</sup> ، بعد الحملة الثامنة التي أسر فيها لويس التاسع في المنصورة وانتهت بالفشل والهزيمة للصليبيين ، وقد بذل لويس وهو ملك فرنسا فدية كبيرة للمسلمين حتى فك من الأسر<sup>(٤)</sup> .

بعد ذلك عاد السلطان مراد الى مقر سلطته لتنظيم مافتحه من الأقاليم متبعاً في ذلك سياسة أسلافه ليستريح من عناء الفتح ، وليعيد ترتيب جيوشه ويوطد أركان بلاده<sup>(٥)</sup> .

فعظم شأن الدولة العثمانية وخافها خصومها خصوصاً الضعفاء منهم ، فأرسلت جمهورية ( راجوزه )<sup>(٦)</sup> في عام ١٣٦٥هـ / ١٣٦٥م رسلاً عقدوا مع

٤

- 
- (١) احتلت أنطاكية والرها وبيت المقدس حتى تم تخليصه على يد صلاح الدين الأيوبي عام ٥٨٣م .  
(٢) على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٢٢ .  
(٣) يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ٩٨ .  
أورخان محمد علي : السلطان عبدالحميد الثاني حياته وأحداث عهده ، ص ١٧ .  
(٤) على محمد جريشه وآخرون : أساليب الغزو الفكري للعالم الاسلامي ، ص ١٩ .  
(٥) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٣١ .  
(٦) راجوز : Raguse هي الآن بلدة يوكوسلافية وتسمى اليوم دوبرفنيك Dubrounik وتقع على شاطئ البحر الادرياتيكي . وكانت هذه المدينة من سنة ١٤٠٣م - ١٨٠٩م عاصمة لجمهورية ارستقراطية وقد أثرت تراءاً كبيراً من تجارتها مع الدولة العثمانية ، وهي شبه جزيرة مبنية على شاطئ البحر .  
محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٣١ ، حاشية رقم (٣) .

السلطان مراد الأول معاهدة تجارية تعهدوا فيها بدفع جزية سنوية مقدارها خمسمائة دوكا من ذهب ، وهذه المعاهدة هي أولى المعاهدات التي عقدت بين العثمانيين والدول المسيحية<sup>(١)</sup> .

وفي سنة ٧٧٥ هـ / ١٣٧٣ م عين خير الدين باشا الصدر الأعظم لحفظ الجهات الغربية للروملي وأخذ بلاد من يتعدى أو يتحرش بالحدود العثمانية ، ففتح قواله وما حولها ثم عاد بجيشه .

وفي سنة ٧٧٦ هـ / ١٣٧٤ م ذهب السلطان والصدر الأعظم خير الدين باشا الى بروسه لإقامة بعض الاصلاحات الداخلية وتفقد أحوالها ، واذ بملك الصرب لازار الذي خلف ملك الصرب اودوك بعد وفاته يتحرش بقوات الدولة العثمانية<sup>(٢)</sup> ، فقد اتحد مع سيسمات أمير البلغار على حرب الدولة العثمانية<sup>(٣)</sup> نحو ما لحق بهم من العار في الحملة الصليبية الأولى وطرد الدولة من أملاكها . وعندما بلغ السلطان هذا الأمر غضب منه ، وذهب بنفسه في سنة ٧٧٧ هـ / ١٣٧٥ م اليه ، فهرب لازار الى الجبال ، فدعاه الى الحرب والافانه سوف يستولى على بلاده تأديبا له ، فلم يستطع مقابلته ، فاستولى على قلعة نيش<sup>(٤)</sup> ، فطلب منه لازار الأمان وعاهده بأن لايتعرض لممالك الدولة مرة أخرى ، فقبل السلطان منه عهده ، وسحب جيشه عائدا الى بروسه مع العلم بأن الجيش العثماني كان غير راغب في الانسحاب ، بل كان قادرا على الاستيلاء على

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٣١-١٣٢ .

(٢) ابراهيم بك حليم : التحفة الخليمية في تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٤٢ .

(٣) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٣٢ .

(٤) نيش : مدينة في شرقي يوغسلافيا قرب الحدود البلغارية .

على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٢٢ ، حاشية رقم (٤) .

بلاد الصرب بسهولة<sup>(١)</sup> . وقيل احتل صوفيا<sup>(٢)</sup> وسلانيك<sup>(٣)</sup> لهذه الأمور أبرم الصلح بين الطرفين على أن يتزوج السلطان بنت أمير البلغار ، وعلى أن يدفع ملكا الصرب والبلغار الجزية سنويا<sup>(٤)</sup> ، فدفعها صاغرین خوفا من تصفية أملاكهما .

وفي سنة ٧٧٨هـ/١٣٧٦م سلم حاكم سلستره المدينة الى السلطان مراد ، ومن ذلك التاريخ حتى سنة ٧٨٣هـ/١٣٨١م كان السلطان مهتما بسن التنظيمات والإصلاحات الداخلية في المناطق المفتوحة ليكمل بذلك بناء دولته<sup>(٥)</sup> فبدأ يفكر في توثيق العلاقات مع جيرانه حتى يكون له حلفاء من بين من بقى مستقلا بامارتهم من أمراء آسيا الصغرى ، فقام بزواج ولده "بايزيد" من بنت أمير كرمان<sup>(٦)</sup> ، وجعلها للسلطان بمدينة کوتاهية<sup>(٧)</sup> ، مهرا لابنته كما هي عادة الأفرنج<sup>(٨)</sup> ، وذلك لتقوية عرى الصداقة بهذه الروابط الأسرية وكسب

(١) ابراهيم بك حليم : التحفة الخليمية في تاريخ الدولة العلية ، ص ٤٢-٤٣ .

(٢) صوفيا : عاصمة بلغاريا اليوم .

(٣) سلانيك : مدينة في اليونان تقع اليوم على الخليج المسمى باسمها ، كانت بؤرة الحركات المعادية للدولة العثمانية .

- على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٢٢ حاشي رقم (١-٢) .

(٤) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٣٢ .

وابراهيم بك حليم : المصدر السابق ، ص ٤٣ .

(٥) ابراهيم بك حليم : المصدر السابق ، ص ٤٣ .

(٦) كرمان : تقع هذه البلاد في غرب الأناضول ما بين اسكي شهر شمالا وأفيون قره حصارى جنوبا .

- محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٣٢ حاشية رقم (١) .

(٧) کوتاهية : تقع الى الشرق من اليقيصر وغرب اسكي شهر .

- محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٣٣ حاشية رقم (٢) .

(٨) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٣٣ .

- أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٤٨-٤٩ .

هذه المناطق بجانبها ، وتبادل المحبة والمودة بين الدولة العثمانية وهذه المناطق  
الإسلامية المستقلة .

إلا أن أولاد كرمان كانوا لا يزالون يتحرشون بالحدود العثمانية من جهة  
قونية ، فأرسل السلطان إلى حسين بن حميد سفيرا من عنده للمفاوضة معه في  
بيع<sup>(١)</sup> إمارة حميد<sup>(٢)</sup> ، من حاكمها المذكور ، وبذلك أدمج في أملاكه أربعة من  
دول التركمان ، سلطانوني ، قره سي ، كرميان ، حميد .

وما لبث ابنه بايزيد أن اكتسح ماتبقى من الإمارات التركمانية فضم إلى  
دولته أراضي سلاجقة قونية المسلمة<sup>(٣)</sup> .

أما الصليبيون فمئذ فشل حملتهم الأولى وهم ينظرون إلى الدولة ويخططون  
للخلاص منها ، ففي عام ٧٨٩هـ / ١٣٨٧ م قرر أسلاف تكوين حملة لطردهم  
العثمانيين من أوروبا ، فتزعمت الصرب والبوسنة وبلغاريا هذه الحملة الصليبية  
لتنفيذ هذه المؤامرة ، وانضمت إليها ألبانيا وولاشيا والمجر وبولندا ، على حين  
انشغلت أوروبا الغربية بشئونها الخاصة ، ولم تشارك في هذه الحملة الصليبية الثانية ،  
فحينئذ قام الحلفاء بحشد قواتهم التي هاجموا بها قوات الدولة العثمانية في البوسنة  
فأبادوا ثلاثة أرباعها<sup>(٤)</sup> ، إلا أن السلطان مراد الأول أرسل قوات  
أرغمت ملك بلغاريا سيسمان ، الذي كان يتأهب للانضمام إلى لازار ملك

(١) إبراهيم بك حليم : التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية ، ص ٤٣ .

(٢) الحميد : إقليم يقع جنوب الأناضول غرب كرمان وشرق منتشا وشمال تكن .

- محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٣٣ . حاشية رقم (٣) .

(٣) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٤٩ .

(٤) أحمد عبدالرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص ٤٩ - ٥٠ .

الصر ب ، فاحتلت الجيوش العثمانية ترنوه <sup>(١)</sup> وشومله <sup>(٢)</sup> ، واضطر سيسمان الى الفرار والاحتماء في مدينة نيكوبلي <sup>(٣)</sup> ، وأعاد شمل وشتات مابقي من عسكره لحرب الدولة العثمانية ، وخرج من نيكوبلي (نيكوبوليس) وهاجم الجيوش العثمانية الاسلامية هجوماً اليانس ، فانهزم هزيمة نكراء ووقع أسيراً بعد حصاره في نيكوبلي ، فضم السلطان مراد نصف بلاده الى الدولة ، وعفى عنه ولم يقتله بل عينه حاكماً مستقلاً على النصف الباقي من بلاده ، مراعيًا مقامه السابق وتم ذلك في سنة ٧٩٢هـ / ١٣٨٩م <sup>(٤)</sup> . وبذلك أصبح نهر الدانوب حد الدولة العثمانية الشمالي <sup>(٥)</sup> .

لقد كان للانتشار السريع للمسلمين في أوروبا المثل في الدولة العثمانية أثره البالغ في بث الفرع والرعب في قلوب الحكام الصليبيين الذين قرروا أن يجمعوا قواتهم وينسيروا بها في حملة صليبية ثالثة ، وكان منعقداً على هذه الحملة آمال المسيحيين في طرد المسلمين من أوروبا <sup>(٦)</sup> .

فتزعم هذا الحلف ملك الصرب لازار أيضاً الذي لم يعتبر بانسحاب حليفه ملك بلغاريا وما جرى له ، بل نراه يجمع قواته ويتحدى السلطان مراد الأول ،

---

(١) ترنوه : هي تورنوفو Turnovo وتقع في الجانب الشرقي من بلغاريا .

- محمد فريد بك : المصدر السابق ص ١٣٤ حاشية (٤) .

(٢) شومله : Shumen وتقع شمال تورنوفو .

- محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٣٤ ، حاشية رقم (٥) .

(٣) نيكوبلي : اسمها بالرومية نيكوبوليس ، ومعناها مدينة النصر . أسسها الامبراطور الروماني

تراجانوس المتوفى سنة ١١٧ بعد المسيح عقب انتصاره على أعدائه .

- محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٣٥ . حاشية رقم (١) .

(٤) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٣٤-١٣٥ .

(٥) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٤٩ .

(٦) أورخان محمد علي : السلطان عبدالحميد الثاني حياته وأحداث عهده ، ص ١٨ .

ويسعى لهذا الأمر في سنة ٧٩٢هـ/١٣٨٩م لدى حكام المجر وبولونيه والبوسنه وألبانيا وغيرها من سائر الحكومات المسيحية المجاورة لتكوين الحملة الصليبية الثالثة ضد العثمانيين المسلمين وطردهم من أوربا فجمعوا جيشا من تلك الأقوام بلغ نحو المائتي ألف (١) ، فلم يمكنه السلطان مراد من ذلك بل جد السير في طلبه حتى لحق به في سهل ( قوصوه ) (٢) سنة ٧٩٢هـ/١٣٨٩م ، فأحرز نصرا باهرا على هذا الحلف الصليبي بعد قتال شديد شاب من هولاء الولدان ، ودافع خلاله الصربيون وأحزابهم دفاعا جعل الحرب بين الفريقين سجالا تناثرت فيها الرؤوس وزهقت فيها النفوس (٣) وقد استبسل العثمانيون حتى وقعت الهزيمة فيه على الأعداء وأسر من جيش العدو كثيرون ، وقتل ملك الصرب زعيم العصاة (٤) ، بعد أن جرح وأسر . وبهذه الواقعة فقدت الصرب استقلالها كما فقدت البلغار والروملي والأناضول ( آسيا الصغرى ) استقلالها من قبل (٥) .

ولكن أعقب هذا النصر أسف شديد ، وذلك أنه حينما كان السلطان مراد الأول يمر بين القتلى والجرحى ليتعرف على رجاله منهم اذ قام جندي

- 
- (١) ابراهيم بك حليم : التحفة الخليمية في تاريخ الدولة العلية . ص ٤٥ .
- (٢) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار . ج ١ ، ص ٤٩٢ .
- (٣) قوص : معناها كبير أو واسع . أود : معناها السهل ويسمى هذا السهل باليوكسلافي ( KOSOVO ) ( Polje ) ومركزه بلدة ترستينا . وتقع في جنوب يوكوسلافيا بين بلغاريا وألبانيا واليونان .
- محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية . ص ١٣٥ حاشي رقم (٢) .
- (٤) محمد فريد بك : المصدر السابق . ص ١٣٥ .
- (٥) ابراهيم بك حليم : المرجع السابق . ص ٤٥ .
- اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ج ١ ، ص ٤٩٢ .
- اسماعيل سرهنك : المصدر السابق . ص ٤٩٢ .
- محمد فريد بك : المصدر السابق . ص ١٣٥ .
- على حمون : تاريخ الدولة العثمانية . ص ١٩ .

صربي جريح من بين القتلى اسمه ( ميلون بلوفتش ) وأظهر حركة يري منها أن مراده تقبيل قدمي السلطان بعد أن أعلن اسلامه واذا به قد أسرع باخراج خنجر كان معه، وطعن به السلطان مراد الأول طعنة كانت القاضية على السلطان في الحال<sup>(١)</sup> فسقط القاتل قتيلاً تحت السيوف الانكشارية، وكانت وفاته سنة ٧٩٢هـ/١٣٨٩م ودفن في بروسه<sup>(٢)</sup>.

والحقيقة أن عثمان أوجد جنسا، وأورخان بنى دولة، الا أن مراد الأول هو الذي أرسى قواعد الدولة العثمانية<sup>(٣)</sup>.

وبوفاة السلطان مراد الأول بويغ ابنه السلطان بايزيد الأول في ميدان حرب قوصوه، يوم وفاة والده ٧٩٢هـ/١٣٨٩م فخطى خطى والده وسيرته في الفتح والجهاد<sup>(٤)</sup> كما هو ديدن سلاطين الدولة منذ تكوينها.

وقد استهل بايزيد حكمه بالقضاء على الارستقراطية الصربية، وحل القضية القومية الصربية، ثم تقدم بالجيش العثمانية، داخل بلاد الصرب، فعرض عليه ستيفن بن لازار ملك الصرب الصلح، فقبل ذلك ووافق عليه<sup>(٥)</sup>.

(١) اسماعيل سرهك : حقائق الأخبار عن دول البحار . ج ١ . ص ٤٩٣ .

ابراهيم بك حليم : التحفة الخليمية في تاريخ الدولة العلية . ص ٤٥ .

محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية . ص ١٣٥ .

عبد اللطيف عبدالله بن دهيش : قيام الدولة العثمانية . ص ٣٦ .

(٢) محمد فريد بك : المصدر السابق . ص ١٣٥-١٣٦ .

على حسون : تاريخ الدولة العثمانية . ص ١٩ .

عبد اللطيف عبدالله بن دهيش . المرجع السابق . ص ٣٦ .

(٣) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني . ص ٥٠ .

(٤) أحمد عبدالرحيم مصطفى : المرجع السابق . ص ٥٠-٥١ .

(٥) محمد فريد بك : المصدر السابق . ص ١٣٧ .

وعين حاكما على الصرب وتزوج السلطان من أخته<sup>(١)</sup> ، المسماة مليحة<sup>(٢)</sup> ، وترك له استقلال حكم بلاده على أنظمتهم وقوانينهم بشرط دفع الجزية للدولة ، وتقديم عدد معين من الجنود ينضمون الى الجيوش العثمانية وقت الحاجة<sup>(٣)</sup> ، وأن يقوم بنفسه بقيادة هؤلاء الجنود<sup>(٤)</sup> ، وقد اتبع السلطان بايزيد هذه السياسة وهي الاكتفاء بدخول منطقة الصرب تحت طاعته<sup>(٥)</sup> وذلك ليهدىء بال الصربين، لأن الصربيين قوم يحبون الاستقلال<sup>(٦)</sup> ، وخاصة أنهم قبلوا دفع الجزية فتم معاملتهم معاملة أهل الذمة .

ومن منطقة الصرب سار بايزيد الأول الى ولاشيا فدخلها سنة ٧٩٥هـ/١٣٩٢م وقد وافق أميرها على دفع الجزية والولاء للسلطان العثماني<sup>(٧)</sup> .

ولما ساد الأمن في اوربا في منتصف سنة ٧٩٥هـ/١٣٩٢م انتهى بايزيد الأول هذه الفرصة وسار بنفسه الى قلعة الأشهر بأسيا الصغرى المسماة عند الافرنج ( فيلادلفيا )<sup>(٨)</sup> ففتحها فكانت آخر مدينة مهمة بقيت للقسطنطينية

- 
- (١) ابراهيم بك حليم : التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية ، ص ٤٧ .
  - (٢) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ١٣٧ .
  - (٣) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٣٧ .
  - على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٢٠ .
  - اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ص ٤٩٥ .
  - (٤) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٥١ .
  - (٥) اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤٩٥ .
  - (٦) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٣٧ .
  - (٧) أحمد عبدالرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص ٥١ .
  - (٨) فيلادلفيا : تقع غرب الأناضول الى الشرق من مدينة أزمير .
- محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٣٧ . حاشية رقم (١)



بآسيا الصغرى (١) .

عند ذلك هابه أمير ( آيدين ) (٢) ، فترك له أملاكه وغادرها ليعيش في إحدى المدن الخارجة عن النفوذ العثماني ، ثم تلا ذلك قيام كل من أميري منتشا (٣) و صاروخان (٤) بترك ولايتهما واحتمانهما بأمير ( قسطنوني ) (٥) كما قام حالكم بلاد القرممان الأمير علاء الدين بالتنازل للسلطان عن جزء عظيم من أملاكه ليؤمن له ماتبقى من أملاكه (٦) .

وبعد هذه الفتوحات العثمانية بآسيا الصغرى عاود السلطان بايزيد الأول حرب أوروبا فبدأ بحصار القسطنطينية ، وبعد أن ضيق عليها الخناق وترك حولها جيشا ليتولى مهمة حصارها ، انتقل لغزو أمير الفلاخ ( الفلاق ) دوك مانيس ،

٤

- 
- (١) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ص ٤٩٥ .  
محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٣٧ - حاشية رقم (٢) .  
على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٢٠ .  
(٢) آيدين : تقع في جنوب غرب تركيا جنوب فيلادلفيا .  
- محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٣٧ . حاشية رقم (٢) .  
(٣) منتشا : جنوب آيدين على بحر إيجه .  
- محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٣٨ . حاشية رقم (١) .  
(٤) صاروخان : شمال أزمبر على بحر إيجه .  
- محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٣٨ ، حاشية رقم (٢) .  
(٥) قسطنوني : في شمال الأناضول على بعد نحو مائة كم عن البحر الأسود .  
- محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٣٨ ، حاشية رقم (٣) .  
(٦) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٣٧-١٣٨ .

فقهر أميرها وأخذ منه الجزية<sup>(١)</sup> ، شريطة الاعتراف بالسيادة العثمانية مع بقاء بلاده يحكمها بما ألفوه من قوانين وكان ذلك في سنة ٧٩٦هـ/١٣٩٣م<sup>(٢)</sup> .

واستغل علاء الدين أمير القرمان انشغال السلطان بحرب أمير الفلاخ وقام باسترداد ماتنازل عنه للدولة سابقا ، فهاجم مدينة أنقرة ، واستطاع أن يهزم أميرها تيمور طاش وأن يأسره<sup>(٣)</sup> .

فلما علم السلطان بالخبر قاد بنفسه الجيش الى بلاد الأناضول مسرعا في طلب علاء الدين فتقابل الجيشان في مكان يسمى ( آق جاي ) فانهمز علاء الدين أمام السلطان بايزيد وأسره مع ابنه محمد على ، وضم بلاده الى دولته ، وكل ما تبقى له من أملاك<sup>(٤)</sup> ، فتعجب الناس من سرعة وصوله لبعده المسافة فلقبوه (يلدرم) أي الصاعقة<sup>(٥)</sup> ، بسبب سرعة حركته .

ثم واصل السلطان بايزيد فتوحاته ففتح امارات سيواس ، وتوقات<sup>(٦)</sup> ، وكان آخر أمرانها برهان الدين<sup>(٧)</sup> . ولم يبق في الأناضول من بقايا أطلال دولة السلاجقة إلا إمارة قسطنطيني<sup>(٨)</sup> ، وكانت خارجة عن أملاك

- 
- (١) علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية . ص ٢٠ .
- (٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية . ص ١٣٩ .
- (٣) محمد فريد بك : المصدر السابق . ص ١٣٩ .
- علي حسون : المرجع السابق . ص ٢٠ .
- (٤) محمد فريد بك : المصدر السابق . ص ١٣٩ .
- (٥) ابراهيم بك حليم : التحفة الخليمية في تاريخ الدولة العلية . ص ٤٧ .
- (٦) سيواس وتوقات : مدينتان تقعان في شمال شرق تركيا .
- محمد فريد بك : المصدر السابق . ص ١٣٩ حاشية رقم (٤) .
- (٧) محمد فريد بك : المصدر السابق . ص ١٣٩ .
- (٨) علي حسون : المرجع السابق . ص ٢٠ .

الدولة العثمانية وحاكمها اسمه بايزيد أيضا ، وقد احتفى ببلاده كثير من أولاد  
الأمراء الذين ضم السلطان بلادهم ، فأرسل السلطان اليه يطلب منه تسليم أولاد  
أمير آيدين وصاروخان ، فامتنع عن ذلك ، فسار اليه السلطان بنفسه وتم ضم  
مدن سامسون<sup>(١)</sup> وقيصريه<sup>(٢)</sup> وجنابك وعثمانجق<sup>(٣)</sup> فلجأ بايزيد صاحب  
قسطموني الى تيمورلنك سلطان المغول<sup>(٤)</sup> ، وبذلك انقضت جميع الامارات  
السلجوقية القائمة بالأناضول وصار العلم العثماني يخفق فوق صروحها<sup>(٥)</sup> .  
وقد أخطأ بايزيد الأول حين أدخل سياسة جديدة لفرض سيطرته المباشرة  
على هذه المناطق التي قام بضمها في آسيا الصغرى ، وذلك عندما طرد أسرها

---

(١) مدينة صغيرة شمال تركيا على ساحل البحر الأسود.

- علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ص ٢٠ حاشية (٥).

(٢) مدينة في الأناضول وهي عقدة مواصلات برية .

- علي حسون : المرجع السابق ، ص ٢٠ حاشية رقم (٦).

(٣) تقع الى الجنوب الغربي من سامسون .

- محمد فريد بك : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٢٠ حاشية رقم (١).

(٤) أي تيمور الأعرج : ولد سنة ١٣٢٦ ميلادية تقريبا ببلدة بالقرب من سمرقند ويتصل نسبه بجنكيزخان

التتري من جهة النساء وخلف عمه سيف الدين في اماره كيش سنة ١٣٦٠ واخذ في الاستيلاء على

ماحوله من الامارات والقبائل ثم استولى على بلاد خوارزم وكشغر وبلاد ايران ومنها سار الى جنوب

الروسية واحتل اقليم آزاك ثم قصد بلاد الهند فانتصر على صاحب ( دهلي ) وضم معظم بلاد الهند

ومنها عاد الى الغرب ، فاحتل بلاد الشام ومدينة بغداد التي خربها عن آخرها وقبل أن ينظم هذه

التحركات العديدة قصد بلاد الصين في جيش يجلب عن الحصر بعد أن حارب السلطان بايزيد العثماني،

وأخذه أسيرا فعاجلته المنون قبل أن يصل الصين في اقليم خوقند في ١٧ شعبان ٨٠٧ هـ ( ١٨ فبراير

سنة ١٤٠٥م) وبموته تفرقت مملكته بين ولده شامرخ وأحفاده وأولاد أحفاده.

- محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٤٠ ، حاشية رقم (٢) .

(٥) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٣٩-١٤٠ .

الحاكمة وأخضعها لسلطته المباشرة ( ذلك لأن هذه السياسة لقيت مقاومة شديدة في الدولة العثمانية خاصة ، وفي البلدان التي تم الاستيلاء عليها عامة ، وكانت هذه المقاومة موجهة ضد التسرع في ضم البلاد التي تم الاستيلاء عليها حيث اعتبرت هذه السياسة خروجاً على القاعدة العثمانية .

وقد كانت هذه السياسة من أهم العوامل التي أدت إلى نكبة أنقرة وعودة الأسرة الحاكمة في القرماني على أثرها ، مما يدل على أن آل عثمان لم يحكموا قبضتهم على الدولة القرمانية إلا بعد فتح القسطنطينية <sup>(١)</sup> .

وعاد بايزيد بعد ذلك لمتابعة حروبه في أوروبا ، واستكمال فرض الحصار الذي كان قد فرضه على القسطنطينية ، ومع استمرار الحصار قام باستكمال فتح بلاد البلغار وضمها إلى أملاك الدولة ، فأصبحت تلك المناطق ولاية عثمانية خاصة بعد مقتل حاكمها سيسمان ، وإسلام ابنه الذي عين حاكماً لمدينة سمسون <sup>(٢)</sup> في سنة ٧٩٧هـ / ١٣٩٤م <sup>(٣)</sup> .

ولتدعيم مركزه في تلك المناطق قام بايزيد بتزويد سلستريا ونيكوبوليس ودين وقلاع أخرى من قلاع الدانوب بحاميات قوية ، بعد تحصينها . وعلى أثر اعتناق عدد كبير من البلقانيين للإسلام تعززت مكانة السكان المسلمين على طول الحدود الشمالية للدولة ، وزاد نتيجة لذلك هجرة عدد من مسلمي الأناضول إلى البلقان <sup>(٤)</sup> ، مما ساعد على انتشار الإسلام في مناطق البلقان كلها،

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٣٩ - ١٤٠ .

(٢) سمسون : مدينة تركية في شمال شرق البلاد على البحر الأسود .

- محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٤٠ حاشية رقم (٣) .

(٣) محمد فرد بك : المصدر السابق ، ص ١٤٠ .

(٤) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٥٣ .

وهذا يدل على قوة الدولة في نشر الاسلام في أوروبا . وهذا ما حققه العثمانيون على طول جهادهم المستمر داخل القارة الأوروبية .

وقد أعقب ذلك قيام بايزيد الأول بتشديد الحصار على القسطنطينية وطلب من امبراطورها أن يعين قاضيا في القسطنطينية للفصل في شئون المسلمين ، فقبل الامبراطور ذلك الشرط بإيجاد محكمة اسلامية ، وبناء مسجد وتخصيص سبعمائة منزل داخل المدينة للجمالية الاسلامية ، كما تنازل لبايزيد عن نصف غلطة التي وضعت فيها حامية عثمانية قوامها ستمائة جندي ، ثم زيدت الجزية التي كانت الامبراطورية البيزنطية تدفعها للسلطان ، وزيد على ذلك فرض رسوم على الكروم ومزارع الخضروات الواقعة خارج المدينة تدفع لخزينة الدولة العثمانية وأخذت من تلك الساعة المآذن تنقل الأذان من العاصمة البيزنطية (القسطنطينية)<sup>(١)</sup> .

وكان من نتائج هذه الانتصارات العثمانية أن قامت دول أوروبية بتحريض من البابا بونيفاسيوس التاسع واتفقت على شن حرب صليبية رابعة اشتركت فيها حوالي خمسة عشر دولة أوروبية كان من بينها دول انكلترا وفرنسا والمجر<sup>(٢)</sup> . وكان المحرك الأول لتلك الحرب الصليبية الجديدة وزعيمها هو ملك المجر سجمند الذي سمع ما حل ببلاد البلغار ، فداخله الخوف على فقد مملكته اذ صار متاحا في عدة نقاط للدولة العثمانية ، فدعا حكام أوروبا من المسيحيين مستنجدا بهم وساعده في ذلك البابا ، الذي أعلن الحرب الدينية بين أقوام أوروبا الغربية<sup>(٣)</sup>

(١) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٥٣ .

(٢) أورخان محمد علي : السلطان عبدالحميد الثاني ، حياته وأحداث عهده ، ص ١٨ .

كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ، ترجمة : نبيه فارس ومير البعلبكي ( الطبعة السادسة ، بيروت ، دار العلم للملايين : ١٩٧٤م ) ، ص ٤١٩ .

(٣) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٤٠-١٤١ .

فشكلت في مجموعها جيشا صليبيا اشتركت فيه كل دول أوروبا الغربية، وكذلك دول المواجهة التي تواجه مناطق السيطرة العثمانية<sup>(١)</sup> .  
وتفصيل ذلك أن دوك ( بورغونيا )<sup>(٢)</sup> أجاب دعوة البابا، وأرسل ابنه الكونت دي نيفر<sup>(٣)</sup> ، ومعه ستة آلاف محارب أغلبهم من نبلاء فرنسا وكان من بين هؤلاء المحاربين أقارب ملك فرنسا نفسه كما انضم اليهم حين مسيرتهم الى بلاد المجر بافاريا<sup>(٤)</sup> وولاشيا وبلغاريا مجموعة من الخارجين عن طاعة الدولة العثمانية من الذين خلعوا ولاءهم للعثمانيين<sup>(٥)</sup> . كما وفد عليهم أشخاص من النمسا ( استيريا ) وشواليه<sup>(٦)</sup> فرسان القديس حنا الأورشليمي وكثير من

- (١) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني . ص ٥٣ .  
(٢) بورغونيا : كانت ولاية عظيمة في شرق فرنسا شبه مستقلة لم يكن لملوك فرنسا عليها الا السيادة وحق طلب الجنود للحرب عند الضرورة حتى توفي أهم امرائها شارل الجسور في سنة ١٤٧٧ م من غير عقب وضمت الى فرنسا من ذلك التاريخ . واسمها بوركوني Bourgone .  
- محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية . ص ١٤١ حاشية رقم (١) .  
(٣) نيفر Denevers مركز ولاية نيفر وتقع جاب نهر لوار وتبعد ٢٣٢ كم الى الجنوب الشرقي من باريس .  
- محمد فريد بك : المصدر السابق ص ١٤١ حاشية رقم (٢) .  
(٤) مملكة مستقلة بألمانيا يبلغ عدد سكانها خمسة ملايين نسمة وعاصمتها مدينة مونيخ أو ( مونكن ) كما يسميها الألمان وهي داخلية الآن ضمن الدولة الألمانية التي تشكلت سنة ١٨٧١ م . عقب تغلب روسيا على فرنسا مع بقاء استقلالها وحكومتها وملوكها . وهي الآن جزء من جمهورية ألمانيا الاتحادية .  
- محمد فريد بك : المصدر السابق . ص ١٤١ . حاشية رقم (٣) .  
(٥) أحمد عبدالرحيم مصطفى : المرجع السابق . ص ٥٤ .  
(٦) شواليه : هم طائفة الرهبان الذين ذهبوا الى فلسطين في القرن الحادي عشر الميلادي أثناء الحروب الصليبية التي أثارها المسيحيون على المسلمين لامتلاك القدس الشريف لخدمة حجاج النصارى . ولما استولى السلطان صلاح الدين الأيوبي على مدينة أورشليم سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧ م انتقلت (=)

الألمان<sup>(١)</sup> . وتوافد أيضا الصليبيون الى بودا من الانجليز واسكتلنده وبولنده وبوهيميا والنمسا وايطاليا وسويسرا ، وكذلك من بلدان جنوبي شرقي أوربا ، وعبر الحلفاء أراضي الصرب التي حافظ أميرها اسطفن (استيفين) بن لازار على ولائه للعثمانيين، مما دعا هذا الحلف الصليبي الى تخریب أراضيہ<sup>(٢)</sup> ، وأخيرا وصلت قوات الحلفاء الى نيكوبوليس ، عن طريق نهر الدانوب لمحاصرتها<sup>(٣)</sup> ، الا أن الصاعقة او البرق السلطان بايزيد كما يسميه معاصريه ، لقوة بأسه ، عاد مسرعا من آسيا الصغرى<sup>(٤)</sup> وكان محاصرا للقسطنطينية فتخلى عن حصارها وعاد لمواجهة هذا التحالف الصليبي<sup>(٥)</sup> ، وبصحبه مائتا ألف مقاتل ، كان من ضمنهم أهل الصرب تحت قيادة أميرها اسطفن بن لازار المذكور وغيرهم من الأمم المسيحية الخاضعة لولاء السلطان العثماني ، جاءوا جميعا لقتال هؤلاء الصليبيين ، فدارت معركة بين القوتين انتهت بانتصار العثمانيين انتصارا باهرا ألحق بالحلف الصليبي هزيمة نكراء وذلك في ٢٣ من ذي القعدة سنة ٧٩٨ هـ

(=) هذه الطائفة الى عكا ، ثم الى جزيرة رودوس واتخذتها مركزا لمحاربة المسلمين وتعطيل تجارتهم ونهب مراكبهم وأسر من بها. ولما فتح السلطان سليمان القانوني هذه الجزيرة سنة ٩٢٩هـ/١٥٢٢م رحلت هذه الطغمة الى جزيرة مالطة التي أعطاها لهم الامبراطور شارلكان فاحتلوها الى أن احتلها بونابرت سنة ١٧٩٨ أثناء قدومه الى مصر فانقرضت هذه الطائفة تقريبا ولم يبق الا اسمها .

- محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٤١ حاشية رقم (٥).

- (١) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٤١-١٤٢ .
  - (٢) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٥٤ .
  - (٣) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٤٤ .
  - أحمد عبدالرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص ٥٤ .
  - (٤) أحمد عبدالرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص ٥٤ .
  - (٥) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٤٩٥ .
- الموافق ٢٧ من سبتمبر سنة ١٣٩٦م<sup>(١)</sup> .

وكان هدف هذه الحملة الصليبية الرابعة هو هزيمة الدولة العثمانية في أوروبا ومحاولة الوصول الى البقاع المسيحية المقدسة في بيت المقدس بفلسطين<sup>(٢)</sup> . ومعنى ذلك أن الروح او الفكرة الصليبية التي نسيها الناس في الظاهر منذ أمد طويل تعود الى الظهور مرة أخرى<sup>(٣)</sup> .

وبمعنى آخر ان الحملات الصليبية على المسلمين لازالت الشغل الشاغل في ذلك الوقت للصليبيين بهدف الوصول الى بيت المقدس وهذا ما تحقق لهم الابد الحروب العالمية الأولى ، مروراً بالمسألة الشرقية في القرن الثالث عشر الهجري الموافق للتاسع عشر الميلادي .

وفي هذه المعركة الحاسمة أحرز بايزيد الأول قمة مجده ، فأرسل من ميدان المعركة الى قاضي بروسه بأنباء النصر ، وأعلن أنه سيفتح ايطاليا وأن حصانه سيتناول طعامه على مذبح كنيسة القديس بطرس .

كما بعث من أدرنه برسائل الى كبار حكام الشرق الاسلامي يزف اليهم بشرى انتصاره في نيكوبوليس ، واتخذ لنفسه لقب ( سلطان الروم ) كدليل على وراثته لدولة السلاجقة وسيطرته على شبه جزيرة الأناضول كلها<sup>(٤)</sup> .

وأرسل السلطان بايزيد الى الخليفة العباسي المتوكل المقيم في القاهرة طالبا منه أن يخلع عليه أو يمنحه لقب " سلطان الروم " كي يضيف على سلطنته التي يتمتع بها هو وأجداده من قبل الطابع الشرعي الرسمي فتزداد هيئته لدى العالمين الاسلامي والمسيحي .

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٤٤ .

(٢) على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٢٠ .

(٣) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ، ص ١٤٩ .

(٤) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٥٤ .



ولم يكن في استطاعة السلطان برقوق ، حامى الخليفة ، الا أن وافق على طلب السلطان ، اذ كان يرى فيه حليفه الأوحد ضد الخطر المغولي الذي كان يهدد العالم الاسلامي بأكمله <sup>(١)</sup> فخلع عليه الخليفة لقب ( سلطان أقاليم الروم) <sup>(٢)</sup> .

عاد السلطان بايزيد الأول بعد ذلك لمواصلة حصاره للقسطنطينية فشد عليها الحصار ، ولولا غارة المغول على بلاد آسيا الصغرى لتمكن السلطان هذه المرة من فتحها <sup>(٣)</sup> ، لنقض صاحبها العهد حين تعاهد أو تحالف مع ملك الصرب والمجر وفرنسا لحرب الدولة قبيل الحلف الصليبي الرابع <sup>(٤)</sup> .

ولكن استفحال أمر تيمورلنك الأعرج سنة ٨٠٢هـ / ١٤٠٠م جعل السلطان يترك حصار القسطنطينية ويكتفى بالصلح مع ملكها مانويل <sup>(٥)</sup> ، بعد حصار دام ست سنوات أشرفت فيها على السقوط <sup>(٦)</sup> .

وكان تيمورلنك قد سار الى بلاد الاسلام بآسيا الوسطى لسلبها من أيدي ملوكها حتى وصل إلى بغداد والعراق ، فهرب حاكمها السلطان أحمد جلایر خشية من بطشه ، وكذلك هرب حاكم اذربيجان قره يوسف والتجأ بعائلتيهما الى السلطان بايزيد ، فأرسل تيمورلنك سفيرا الى السلطان بايزيد الأول ليطلب

- 
- (١) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ، ص ٤٢٠ .
  - (٢) ابراهيم بك حلیم : التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية ، ص ٤٩ .
  - (٣) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٤٤ .
  - (٤) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٤٩٥ .
  - (٥) ابراهيم بك حلیم : المرجع السابق ، ص ٤٩ .
  - (٦) - محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٤٤ .
  - (٦) احمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٥٥ .

تسليمهما ، ولكن السلطان رفض هذا الطلب واستهجنه ، وعاد السفير الى تيمورلنك (١) .

وكما لجأ أمراء العراق وأذربيجان الى السلطان بايزيد فقد لجأ من قبل الى تيمورلنك بعض أمراء آسيا الصغرى وكان آخرهم بايزيد أمير قسطنطيني كما سبق أن ذكره ، وفي كلا الجانبين كان اللاجنون يحرصون ويحركون كل طرف لشن الحرب ضد الآخر ، وربما لم تجد هذه التحريضات آذانا صاغية من تيمورلنك ، الا أنه خشي من تحركات الدولة العثمانية ضده وضربه من الخلف ، في الوقت الذي كان يفكر فيه بغزو الهند لتوسيع رقعة ملكه ، وقد أدرك بايزيد هو الآخر حتمية الصراع مع تيمورلنك ، ولهذا السبب سعى الى تقوية مركزه الحربي في آسيا الصغرى عن طريق القضاء على الامارات التي قامت على انقاض دولة السلاجقة (٢) كما مر بنا .

وقد أشيع أن الصليبيين عمدوا هذه المرة إلى تخريض المغول على هجوم العالم الإسلامي من جهة الشرق وذلك عن طريق بناتهم اللواتي كن في قصور أمراء وحكام المغول عن طريق السياسة والمفاوضة (٣) . ومعنى آخر أن الصليبيين زوجوا بناتهم وأهدوا بعض الجواري الحسان للعمل في قصور وأمراء وحكام المغول لاستمالة قلوبهم وتحريكهم لغزو الدولة العثمانية واشغالها من الخلف حتى تتوقف حركة جهادهم عن الفتح في أوروبا وهم يواصلون الهجوم على الدولة من الغرب حتى يستطيعوا ابعاد العثمانيين عن أوروبا كلها ، وبالتالي

---

(١) ابراهيم بك حلیم : التحفة الخليمية في تاريخ الدولة العلية . ص ٤٩ .

- محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية . ص ١٤٦ .

(٢) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني . ص ٥٧ .

على حسون : تاريخ الدولة العثمانية . ص ٢٣ .

(٣) على حسون : المرجع السابق . ص ٢١ .

يزحفون الى آسيا للاستيلاء على القدس الشريف في فلسطين ، وقد نميل الى هذا الرأي لأنه من أهم أسباب غارة المغول على الدولة الاسلامية ، اضافة الى ماسبق من أطماع المغول منذ موجاتهم الأولى ، وقد تكون هذه الحملة استمرارا للغارات والهجرات المغولية التي قامت في وسط آسيا السابقة .

ومهما تكن المبررات ، فقد أعد تيمورلنك العدة فأغار بجيوشه على بلاد آسيا الصغرى ، وفتح مدينة سيواس بأرمينا وأسر حاكمها أورخان ابن السلطان بايزيد ، وقطع رأسه . حينئذ اضطرب السلطان بايزيد فجمع الجيش وسار به لمحاربة هذا المغولي ، فتقابل الجيشان في سهل أنقرة ، فاقتتل الجيشان قتالا عنيفا أظهر السلطان خلاله من الشجاعة ما أبهر العقول وأدهش الأذهان من قبيل شروق الشمس حتى المغيب ، ولكن نتيجة لضعف جيشه وفرار فرق آيدين ومنتشا وصاروخان وكرميان وانضمامهم الى جيوش تيمورلنك لوجود أمرانهم الأصليين وأبنائهم وكبار رجائهم في صفوف المغول ، فلم يبق مع السلطان سوى عشرة آلاف جندي انشكاري ، وبعض العساكر الصربية الذين أثبتوا ولاءهم للدولة في الحملة الصليبية الرابعة .

ولم يثنه ذلك النقص فقد استمر في الحرب والقتال حتى سقط آخر النهار أسيرا في أيدي المغول ومعه ابنه موسى<sup>(١)</sup>

لكن على حسن يذكر أن جيوش النصاري التي كانت تحت قيادة بايزيد لم تدخل المعركة الا وهي مكرهة ولعلمهم كانوا يعلمون مدى التحالف القائم بين صليبي أوروبا والمغول والذي أبرم بين الطرفين ، فقد سعى هؤلاء قبل تقدمهم نحو العالم الإسلامي أن يكون هجومهم

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٤٦ .

والتتار معا ، مع العلم أن التتار في ذلك الوقت كانوا قد دخلوا الاسلام ، الا أن الصليبيين استغلوا الخلاف المذهبي بين العثمانيين السنة وما كان عليه تيمورلنك من التشيع ، فأقنعوه بوسائلهم الخاصة - كما سبق - بغزو العثمانيين من المشرق وقدومهم من المغرب في آن واحد <sup>(١)</sup> .

وقد أسر أيضا ابنه مصطفى الذي أرسله تيمورلنك الى سمرقند ، وقد أطلق سراحه بعد عدة سنوات <sup>(٢)</sup> ، وهرب أولاده سليمان ومحمد وعيسى ، وكانت هذه الواقعة في ١٩ من ذي القعدة سنة ٨٠٤هـ / ٢٠ من يوليو سنة ١٤٠٢م <sup>(٣)</sup> .

ولكن تيمورلنك لم يقتل أسيره بايزيد بل أكرم مشواه . وفي رواية أنه أهانه <sup>(٤)</sup> .

بعد أن شرع في الهرب ثلاث مرات <sup>(٥)</sup> ، ولكن السلطان مات بعد سنة من أسره أي سنة ٨٠٥هـ / ١٤٠٣م <sup>(٦)</sup> . وكانت هذه الهزيمة هي سبب موته كمدا وهو في الأسر ، وصرح تيمورلنك لابنه موسى بأن يدفن أباه في مقابر سلاطين آل عثمان في بروسه ، وهذا دليل على احترام تيمورلنك للسلطان بايزيد الثاني <sup>(٧)</sup> .

وقد أخذ تيمورلنك بعد ذلك في الاستيلاء على الأناضول وعمد الى احياء الامارات القديمة من أجل تفتيت وتقسيم الدولة العثمانية <sup>(٨)</sup> ، وألا يقوم لها قائمة بعد اليوم .

- 
- (١) علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٢٣ .
- (٢) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١١٨ .
- (٣) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٤٦ .
- (٤) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ١٩٦ .
- (٥) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٤٦ .
- (٦) أورخان محمد علي : السلطان عبد الحميد الثاني حياته واحداث عهده ، ص ١٨ .
- (٧) اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤٩٦ .
- (٨) أورخان محمد علي : المرجع السابق ، ص ١٨ .

ويذكر المؤرخ أحمد جودت باشا : أنه قد تهيأ لبايزيد الأول ما كان مطمح أنظار العثمانيين منذ زمن الغازي عثمان بن أرطغرل مؤسس الدولة العثمانية ، وهو فتح القسطنطينية ، لكن من سوء طالعها استولت عليه أهواء النفس في أمره فتهافت على ما لا يتفق من الاسراف والتبذير والميل مع هوى النفس والاسترسال في اللهو والخلاعة ، وغير ذلك من دواعي التأخر ، اغتتمها تيمورلنك لصالحه فوقع له ما وقع ، ففرحت دول أوربا بما وقع للسلطان بايزيد ، فأرسل ملك فرنسا تهنئة الى تيمورلنك بهذه المناسبة ، فأجابه تيمورلنك على التهنئة <sup>(١)</sup> .

وعلى أثر موقعة أنقرة اكتسح تيمورلنك آسيا الصغرى ، واستولى على نيقية وبروسه وغيرهما من المدن الساحلية <sup>(٢)</sup> ، وكان تيمورلنك يريد تمزيق وحدة الدولة العثمانية ، وتفريق كلمتهم وألا يقوم لهم بعد تلك المعركة أي قائمة. كما أنه كان يحرض بعضهم على قتال بعض <sup>(٣)</sup> ، لهذا دب الخلاف بين أبناء بايزيد فكل منهم يريد أخذ مكان والده ليحكم الدولة <sup>(٤)</sup> .

وكادت الدولة أن تفلت منهم بسبب هذه الخلافات حول السلطنة وهذا ما سمي بفترة فاصلة في التاريخ العثماني ، " أي منفصلة عن محورها الأصلي " <sup>(٥)</sup> . وقد دام هذا الخلاف حوالي إحدى عشرة سنة من ٨٠٥-٨١٦هـ / ١٤٠٢-١٤١٣م حتى استطاع السلطان محمد الأول ابن السلطان بايزيد الأول أن يتولى زمام السلطنة بعد اسقاط اخوته ، وأن يجمع الكلمة في يده ، وأن يوحد

(١) تاريخ جودت : ج ١ . ص ٤٠ .

(٢) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني . ص ٥٩ .

(٣) اماعيل سرهنگ : حقائق الاخبار عن دول البحار . ج ١ . ص ٤٩٧ .

(٤) أورخان محمد علي : المرجع السابق . ص ١٩ .

(٥) أحمد جودت باشا : تاريخ جودت . ج ١ . ص ٤٠ .

الدولة العثمانية من جديد ، وينفرد بسلطتها<sup>(١)</sup> ولذلك تعتبر معركة أنقرة من أكبر الكوارث التي أخرجت الدولة العثمانية عن فتوحاتها الجهادية في أوروبا حوالي نصف قرن<sup>(٢)</sup> .  
وان كارثة كهذه لو وقعت على أية دولة لمحتها عن آخرها ، إلا أن الأساس الذي قامت عليه الدولة العثمانية كان متينا فاستقر أمرها بتغلب السلطان محمد الأول الملقب بـ ( جلبي ) على اخوته فتهيأت له بذلك أسباب الاستقلال بالملك كما مر بنا ، فرفع شأن الدولة العلية ، وعادت في زمن قليل الى سابق عجزها ومجدها ووحدها ، ثم توفى في سنة ٨٢٤هـ / ١٤٢١م<sup>(٣)</sup> .  
ويعود ذلك الى التوفيق الكبير من الله الذي صادف السلطان محمد جلبي لتوحيد ملكه ، لذلك اعتبر هو المؤسس الثاني للدولة العثمانية بعد كارثة أنقرة<sup>(٤)</sup> .

ثم تقلد الملك من بعده ابنه السلطان مراد الثاني الذي قوى أركان الدولة ووسع نطاق المملكة بما يزيد على ما كانت عليه . ولما توفى رحمه الله في سنة ٨٥٥هـ / ١٤٥١م تولى مكانه ابنه محمد الثاني ( الفاتح )<sup>(٥)</sup> ، كما سيأتي في بابه.

(١) أورخان محمد علي : السلطان عبد الحميد الثاني . حياته وأحداث عهده . ص ١٩ .

(٢) يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية . ص ١١١ .

(٣) احمد جودت باشا : تاريخ جودت . ج ١ . ص ٤٠ .

(٤) يلماز اوزتونا : المصدر السابق . ص ١١٦ .

(٥) احمد جودت باشا : المصدر السابق . ص ٤٠ .



## الفصل الأول : الدولة في عصرها الأول

- (أ) تطبيق النظم الاسلامية ، فضل الإسلام في قوة الدولة وتماسكها والحصانة الفكرية .
- (ب) الانكشارية والتربية الاسلامية .
- (ج) انتشار الإسلام في أوروبا في عصر عظمة الدولة ، فتح القسطنطينية وتهديد روما .





## أ- تطبيق النظم الاسلامية :

ان العصر العثماني الأول هو عصر قوة الدولة ، ذلك العصر الذي طبقت فيه النظم الاسلامية ، وخاصة فيما يتعلق بأهل الذمة <sup>(١)</sup> ، ففي ظرف مائة عام تبلورت شخصية الدولة ومعالم قوتها ، وعظم أمرها وشاع صيتها ، وصارت دولة عظيمة تهابها أوربا ، بعد أن كانت قبل ذلك امارة صغيرة ، وهذا يعود في المقام الأول الى تطبيق احكام الشريعة الاسلامية ونظمها ، والتمسك بوصية الغازي عثمان بك مؤسس الدولة العثمانية ، عند وفاته حيث أوصى ابنه وولي عهده أورخان بوصايا ثلاث أوجزها فيما يلي :

أولاً : تمسك في كل أمورك بالشريعة الغراء وشاور في المهمات أهل الرأي والدهاء .

ثانياً : اعط كل ذي حق حقه من التكريم والإنعام من الخواص والعوام ، لاسيما العلماء الأعلام الذين هم ركانر دين الاسلام لتكون مظهراً لما قيل " خير الناس من ينفع الناس " .

ثالثاً : وبما أنك خليفتي من بعدي فتنبه لما هو أعظم من أركان هذا المقام وهو التعظيم " لأوامر الله ، والشفقة على خلق الله " واطلب الأعمال الخيرية من اعلاء كلمة الله ، والغزو لوجه الله .

وقد عمل أورخان بهذه الوصية وسلك بنوه مسلكه القويم <sup>(٢)</sup> ، وقال لأحدهم : يا بني لا يغرنك المال والجاه من مخافة الله ، واحرص على الدين فإنه سر انتصارنا <sup>(٣)</sup> ، فانتهجوا جادة العدل وتطبيق الشرع من غير افراط ولا تفريط

(١) محمد عبداللطيف البحراري : من خصائص تاريخ العثمانيين وحصارتهم ، مجلة دار الملك

عبدالعزيز ، العدد الرابع ، السنة الثالثة عشر ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م ، ص ٢١١-٢١٢ .

(٢) أحمد جودت باشا : تاريخ جودت باشا ، ج ١ ، ص ٣٨-٣٩ .

(٣) زياد أبوغنيمة : جوانب مضيئة من تاريخ العثمانيين الأتراك ، ص ٣٨ .

فعدلوا بين رعاياهم ، فوصلت دولتهم بهذه السياسة الاسلامية الحكيمة الى قمة مجدها (١) .

و حين جلس السلطان أورخان على سرير الحكم نقل عاصمته الى مدينة بروسة بعد أن كانت في يكي شهر (٢) .

فورث أورخان عن والده عثمان دولة ليس لها قوانين أو عملة وكذلك ليس لها حدود واضحة (٣) ، لهذا التفت السلطان الى التنظيمات الضرورية، وسن القوانين والأنظمة بمساعدة رجال حكومته وعلى رأسهم علاء الدين بن عثمان وقره خليل ، فكان أول شيء بدأه أن ضرب السكة العثمانية (٤) . ولما رأى جيوشه لانظام لها ينعى بالاستقرار قام بانشاء طائفة بني جرى " الانكشارية " التي سنتناول الحديث عنها باسهاب في الفقرة التالية ، كما نظر الى أراضي البلاد المفتوحة فقسمها الى قسمين خاص وتيمار (٥) ، فكانت الايرادات من الأراضي الخاصة للخزينة السلطانية والأمراء والأعيان في الحكومة (٦) .

وقد اكتسب العلماء نفوذا كبيرا بسبب طبيعة مراكزهم الدينية والتعليمية والقضائية ، وكان المفتي هو رأس العلماء والذي سمي مؤخرًا شيخ الاسلام ، ويعتبر في المرتبة الثانية في الدولة بعد السلطان . فالدولة تطبق النظم الاسلامية،

(١) أحمد جودت باشا : تاريخ جودت باشا ، ص ٣٩ .

(٢) اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٤٨٨ .

(٣) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٤٠ .

(٤) اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ص ٤٨٩ .

(٥) تعريف الخاص : ايراداتها للخزينة السلطانية ولأمراء العائلة المالكة ولأعيان الحكومة .

تعريف التيمار : هي الحقول التي يتصرف فيها أربابها بالحرث والزرع ويعطون ما عليها من العشور الشرعية ، وما يخصها من خراج للدولة .

- اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ص ٤٨٩ .

(٦) اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ص ٤٨٩ .

وتستقي تشريعاتها من دستور المسلمين وهو الكتاب الكريم والسنة النبوية المطهرة<sup>(١)</sup> .

وفي ضوء هذه السياسة الإسلامية انطلق العثمانيون في جميع حروبهم الهجومية والدفاعية ، فاعتبروا نشر دين الله وهداية الناس في الأرض من أهم الواجبات المقدسة ، كما حرصوا على القيام بهذا الواجب على حسب ما أقره التشريع الإسلامي<sup>(٢)</sup> .

فعندما قام السلطان عثمان بن أرطغرل مؤسس الدولة بفتح البلاد المسيحية جعل نصب عينيه تطبيق النظم الإسلامية كما كانت تطبق في عصرها الإسلامي الأول ، فأرسل إلى جميع أمراء الروم ببلاد آسيا الصغرى يخبرهم بين ثلاثة أمور :

- الإسلام - أو دفع الجزية - أو الحرب .

متبعاً في ذلك المنهج الإسلامي وسائر أعلى حسب الخطوات التي سار عليها الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه الراشدون رضوان الله عليهم ومن تبعهم من الحكام ، فقبل من أعلن إسلامه ، وأخذ الجزية ممن قبل الانضمام إلى الأمة الإسلامية من المسيحيين ، وحارب من أعلن الحرب على الإسلام أو الخروج عن طاعة المسلمين<sup>(٣)</sup> .

وقد كان الهدف من تلك الحروب الجهادية هو إخضاع عالم الكفر ( دار الحرب ) وليس تدميره ، لهذا أقام العثمانيون دولتهم على أساس توحيد الأناضول الإسلامية والبلقان المسيحية تحت حكمهم ، كما ظهرت في الوقت نفسه حامية

---

(١) محمد عبداللطيف البحرأوي : من خصائص تاريخ العثمانيين وحضارتهم ، ( الدارة : ع : ٤ : س ١٣ . ١٤٠٨ هـ . ص ٢٠٦ ) .

(٢) زياد أبوغنمية : جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك ، ص ٧٦ .

(٣) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١١٨ - ١٢٠ .

للكنيسة الارثوذكسية وملايين المسيحيين الأورثوذكس . فقد ضمن الاسلام حياة وممتلكات المسيحيين واليهود في مقابل استسلامهم ودفع الخراج ، وسمح لهؤلاء بحرية ممارسة شعائرهم الدينية الخاصة بكل فئة منهم .

ومع وجود العثمانيين في مجتمع الحدود واختلاطهم مع غير المسلمين طبقوا مبادئ الاسلام بأقصى درجة من التسامح ، وخاصة خلال السنوات الأولى من تاريخ الدولة العثمانية حيث اتبعوا سياسة استهدفت تحقيق النهج الإسلامي في معاملة أهل الديانات الأخرى لكسب ثقة المسيحيين وغيرهم وذلك قبل اللجوء الى الحرب <sup>(١)</sup> .

هذا التسامح اتضح من التزام السلاطين بالشريعة ، حيال الديانات الأخرى وخاصة فيما يتعلق بأهل الذمة ، حيث عاش الرعايا المسيحيون واليهود في أمن وسلام <sup>(٢)</sup> ، جنبا الى جنب داخل الدولة .

ومن أمثلة ذلك أن ارطغرل عهد الى ابنه عثمان مؤسس الدولة بولاية القضاء في مدينة قره جه حصار بعد أن تم فتحها سنة ٦٨٤هـ الموافق ١٢٨٥م ، فحكم عثمان لبيزنطي نصراني ضد مسلم تركي ، فأبدى هذا البيزنطي استغرابه ، وسأل عثمان . كيف تحكم لصاحي وأنا لست من أهل دينك أو ملتك؟ فأجابه عثمان قائلا : بل كيف لا أحكم لك ، والذي نعبده يقول لنا : " ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل " <sup>(٣)</sup> ، فكان تطبيق الشريعة الاسلامية سببا في اسلام هذا الرجل <sup>(٤)</sup> .

ولقد طبق العثمانيون المبادئ الشرعية في حماية الفلاحة باعتبارها إحدى

(١) ابراهيم شحاته حسن : أطوار العلاقات المغربية العثمانية ، ص ٧٩-٨٠ .

(٢) عبدالكريم مشهداني : العلمانية وآثارها على الأوضاع الإسلامية في تركيا ، ص ٥١ .

(٣) سورة النساء : الآية (٥٨) .

(٤) زياد أبوغنيمه : جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك ، ص ٧٥-٧٦ .

مصادر الدخل الضريبي ، أو الموارد الاقتصادية للدولة ، لذلك اتخذت دولة الكفالة الإسلامية موقف التسامح لتشجيع الفلاحين فشكل الخراج أو الجزية جزءا كبيرا من إيرادات الدولة<sup>(١)</sup> . كما أن الوارد من العشور والرسوم التي كانت تجبي لخزينة الدولة تعتبر مشروعة ومتمشية مع نظام الشريعة ، وهذه العشور هي ما كان يفضله العلماء ويحثون على اقتصار السلاطين عليه<sup>(٢)</sup> .

وكان نظام الملل قد صنف هؤلاء الرعايا تصنيفا لا يقوم على أساس الجنس أو القومية أو اللغة ، بل على أساس المذهب الديني الذي يدينون به . لذلك أصبح لكل ملة رئيس ديني يمارس الحكم الذاتي في المسائل الدينية ويقوم بالفصل في قضايا الأحوال الشخصية الخاصة بأهل ملته كالارث والزواج والطلاق والتبني ، كما سمح هذا النظام لكل ملة باستخدام لغتها في السنة التي فتحت فيها القسطنطينية وممارسة عقيدتها ، وتطور نظمها الثقافية ، وجمع الضرائب ودفع ما يخصها الى بيت مال الدولة .

وكان من بين النظم السائدة في الدولة العثمانية النظم الخاصة بالأجانب من رعايا الدول الأوروبية ، وعلى الخصوص التجار الأجانب المقيمين بالقسطنطينية، فلقد وضعت الدولة نظاما خاصا بهم يعرف بـ " نظام الامتيازات " وعاشت كل مجموعة من هؤلاء طبقا لما نص عليه في المعاهدات الرسمية التي أبرمتها الدولة مع حكام الدول التي تنتمي اليها هذه المجموعة<sup>(٣)</sup> .

- 
- (١) - ابراهيم شحاته حسن : أطوار العلاقات المغربية العثمانية ، ص ٨٠ .  
- نبيل رضوان : جهود العثمانيين لانقاذ الأندلس واستردادها ، ص ١٠ .  
(٢) هاملتون جب : المجتمع الإسلامي والغرب ، ترجمة أحمد عبدالرحيم مصطفى ( القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٩ م ) ج ٣ ، ص ١٣ .  
(٣) عمر عبدالعزيز عمر : تاريخ المشرق العربي ، ( بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م ) ص ٦٠-٦١ .

وراعى العثمانيون العدالة في القضاء بين المسلمين والمسيحيين الى درجة أن صدرت فتوى قيل فيها بأنه اذا قتل ألف من المسلمين مسيحيا واحدا مخلصا للسلطان دون حق يجب قتلهم .

ولكي يسهل السلطان للمسيحيين قبول الحكم الاسلامي الجديد سمح لهم باستمرار كنائسهم الأرثوذكسية والاعريقية<sup>(١)</sup> .

وهذا نموذج من النماذج الأخرى الكثيرة حول تطبيق الدولة للنظم الاسلامية في معاملة الذميين كما عاملهم الدين الحنيف .

رأى السلطان سليم الأول عدد أهل الكتاب من النصارى واليهود في الدولة قد زاد على بضعة ملايين وأن هذا العدد يزداد عاما بعد عام ، ففكر في طريقة للخلاص منهم فخيرهم بين اعتناق الاسلام ، أو الطرد من أراضي الدولة العثمانية ، ولكن عندما وصل هذا الخبر الى مسامع شيخ الاسلام على أفندي انبرى للسلطان معترضا على هذا الاجراء الذي يتنافى وطبيعة الاسلام وما كان عليه السلف الصالح ، فقال للسلطان سليم : ليس لنا على هؤلاء النصارى واليهود الا الجزية فماداموا يؤدونها فقد عصموا من دمائهم وأعراضهم وعبادتهم فيما يعتقدون ، فلا يحق لك أن تزجهم في دينهم ، ولا يحق لك أن تخرجهم من ديارهم ، فأعلن السلطان سليم رضوخه لحكم الاسلام<sup>(٢)</sup> ، وهذا دليل على تمسك العثمانيين بالنظم الاسلامية وتطبيقها ، حتى تمتع أصحاب الديانات الأخرى غير الاسلامية بكامل حريتهم في معتقداتهم وعباداتهم<sup>(٣)</sup> .

ومعنى ذلك أن الدولة العثمانية دولة قامت على الشريعة الاسلامية

(١) محمد مصطفى صفوت : فتح القسطنطينية ، ( الرياض ، منشورات الفاخرية ) ، ص ١٨٢-١٨٣ .

(٢) زياد أبوغنيمة : جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك ، ص ٧٦ .

(٣) لوثرروب ستودارد : حاضر العالم الاسلامي : ترجمة عجاج نويهض وتعليق شكيب ارسلان ( الطبعة

الرابعة ، بيروت ، دار الفكر للطباعة والنشر ، ١٣٩٤هـ / ١٩٧٣م ) . ص ٢٠٨-٢١٠ .

فاتسمت بها تنظيماتها وتشريعاتها ، وأصبحت سمة واضحة في جميع أمور الدولة وتصرفاتها . وكان المفتي أو شيخ الاسلام تخضع لنفوذه الهيئات القضائية أو الهيئات ذات الطابع الديني ، وكان السلاطين حريصين كلما حز بهم أمر أو أقدموا على مشروع خطير <sup>(١)</sup> على الاستعانة بالمفتي حتى يصدر فتواه وبخاصة في الحروب التي تخوضها الدولة دفاعا أو هجوما أو لعقد الصلح .

وكانت الدولة تهتم اهتماما بالغا بشيخ الاسلام والعلماء لنشر التعبئة الروحية بين أفراد القوات المسلحة ، واثارة روح الجهاد وصولا الى تسخين الجنود روحيا ومعنويا لخوض المعارك في سبيل نشر الاسلام <sup>(٢)</sup> .

وقد تجلّى هذا الأمر في حرص الدولة :

أولا : على تطبيق مبادئ الشريعة الاسلامية تطبيقا صادقا وهذا ما كانت

تؤكدده في شتى المناسبات معلنة أنها تلتزم التزاما دقيقا بمبادئ الشرع .

ونذكر هنا نموذجا على سبيل المثال لا الحصر وهو أنها حين أصدرت قانون

نامه الذي أكمله السلطان سليمان القانوني ، توجت هذا القانون بجملة معبرة

وردت في صدره هذه الجملة هي : " قانوننا مي سلطاني كي شريعي شريفي

موافقاني محرر أولوب " أي " القانون نامه السلطاني الذي يتفق مع الشريعة

الشريفة " .

ثانيا : المحافظة على التقاليد الاسلامية ، وعلى سبيل المثال أن السلطات

العثمانية لم تكن تسمح لأحد بانتهاك حرمة شهر رمضان ، ولذلك لم يجزؤ أحد

---

(١) زياد أبوغيممة : جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك ، ص ٧٦ .

محمد جميل بيهم : العرب والترك في الصراع بين الشرق والغرب ، ( بيروت

١٣٧٦هـ / ١٩٥٧م ) ، ص ١٢٤ .

(٢) عبدالعزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفسرى عليها ، ( القاهرة ، الناشر : مكتبة

الانجلو المصرية ، ١٩٨٠م ) ، ج ١ ، ص ٥٤ .



مهما كان مركزه ، مسلما كان أو غير مسلم ، أن يأكل أو يشرب في مكان عام أثناء النهار طوال هذا الشهر المبارك ، وإذا أقدم على ذلك فإنه يعاقب شرعا ويشهر به أمام الناس وفي الشوارع العامة (١) .

من هنا أتى تاريخ العثمانيين في عصرهم الأول تجربة فريدة معتمدا على تطبيق النظم الاسلامية في مطلع العصر الحديث ، وفي دولة مركز الثقل فيها القسطنطينية سيدة البلقان . وقد عرفت أوروبا أن المسلمين قوة ثابتة الدعائم في أوروبا خلافا لمحاولات الحصار العربي للقسطنطينية في العصور السابقة وعلى مختلف العصور .

الا أنه يجب أن نشير الى دور الاسلام كأهم عامل من عوامل المقاومة ضد الاستعمار الأوربي ، وخلال عصور الاستعمار الطويلة كان للاسلام الفضل الأكبر في تحطيم مشروعات الاستعمار بالنسبة للسكان المسلمين في المستقرات وظلت الشخصية الاسلامية سليمة على الرغم من محاولات الاستعمار المتعددة لهدم هذه الشخصية ، والاسلام هو الذي أعطى للدولة القوة الخارقة وذلك التماسك الذي حير الأوربيين على مدى تاريخها الطويل ، وليس أدل على قوة الدولة العثمانية وتماسكها من أن الغزو الفكري الأوربي تأخرت نتائجه حتى بدء عصر السلطان عبدالمجيد بن محمود الثاني ، حيث أصبحت الدولة عارية بعد أن قضى السلطان محمود الثاني على الانكشارية (٢) .

وهذا هو سر عظمة السلاطين الأول الذين وضعوا بناءها على أساس مكن عندما تمسكوا بمبادئ دينهم ومحافظتهم على تعاليم الشريعة السمحاء فكان

(١) كامل باشا : تاريخ سياسي دولت عليه عثمانية ج ١ ، ص ٥١ .

(٢) محمد عبداللطيف البحرأوي : التاريخ المعاصر وعلاقته العضوية بالأزمة ( مجلة الدارة ، العدد الثاني ، السنة الحادية عشرة ، ١٤٠٦هـ ) ص ٨٠-٨٢ .

المسلمون يطيعون السلطان وليس لبعضهم على البعض الآخر فضل  
الابالتقوى<sup>(١)</sup> .

لذلك لم يعرف التاريخ دولة صمدت للزمن ومحنته كدولة آل عثمان في  
القرون الثلاثة ، القرن العاشر ، والحادي عشر ، والثاني عشر الهجري الموافق  
للقرن السادس عشر ، والسابع عشر ، والثامن عشر الميلادي ، فقد فرضت  
وحدة شبه عامة للعالم الاسلامي ، أرهبت أوربا وهزتها ، ثم قامت بتحرير شعوب  
اسلامية كانت قد سقطت في أيدي الصليبيين ، فحررت تونس والجزائر وأجزاء  
من المغرب و ليبيا ، وأنقذت اجزاء من المشرق من اكتساح صليبي بدأ يستولى  
على البحار ويطوف العالم الاسلامي<sup>(٢)</sup> ، فاستطاعت الدولة أن توقف هذا  
الزحف وتصد هذا المد عن المشرق العربي .

---

(١) حسين ليب : تاريخ الأتراك العثمانيين . ج ٢ . ص ٩ .

(٢) هيئة التحرير : مجلة الدعوة السعودية ( العدد ٥٧٠ . ٢٥ شوال ١٣٩٦هـ ) . ص ٤ .

## ب - الانكشارية نموذج فريد للتربية الاسلامية :

كان العثمانيون عند قدومهم الى آسيا الصغرى لا يزالون على البداوة يجاهدون تحت راية أميرهم ، ويقتسمون الغنائم فيما بينهم ، فاذا فرغوا من الحرب عادوا الى شئونهم ، فلم يكونوا جنودا منتظمة بل كانوا يقدمون على الحرب من تلقاء أنفسهم .

فلما وضع عثمان أساس الدولة العثمانية على أنقاض دولة السلاجقة في آسيا الصغرى ، أصبح العثمانيون في حاجة الى من يحارب معهم لبناء دولة اسلامية كبرى تدافع عن الاسلام ، فكان يأتيهم المتطوعون ينضمون اليهم رغبة في الفتح والجهاد ونشر الاسلام ، ولا يحاربون الا على ظهور الخيل ، وكانوا يسمون أولئك المحاربين ( الكينجي ) ، وكانوا يتدربون على الحركات العسكرية تدريباً حسناً ، واشتهروا على الخصوص بانتظامهم في الصفوف ، فاذا مشوا كانت أفراسهم صفا واحداً . وكان عثمان اذا عزم على الحرب بعث المنادين الى القرى والبلاد لاعلان عزمه ودعوة من يريد الإشتراك في الجهاد<sup>(١)</sup> .

وعندما ورث السلطان أورخان السلطنة عن والده كما سبق ذكره كان لزاماً عليه مواصلة الجهاد ضد البيزنطيين ، فقد رأى أن جيوشه المؤلفه من الفرسان التركمان ، والمتطوعين من الرعية للحرب ليس لهم نظام دائم ولا معرفة بقوانين الضبط والربط ، وبذلك فانهم يشعرون بأنهم ليسوا محكومين لأحد<sup>(٢)</sup> . فكان السلطان أورخان يعتمد في حربه التي يشنها ضد البيزنطيين على

(١) هيئة التحرير : تاريخ الجند العثماني ( مجلة الهلال ، القاهرة . الجزء الثاني ، السنة السابعة عشرة

١٣٢٦هـ / ١٩٠٨م ) ص ٤٥٧ .

(٢) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٤٨٨ .

المرابطين في الحدود ( مجاهدي النفير ) والذين كان يطلق عليهم بالتركية ( Akincilar ) أي المندفعون ، ويسمون أيضا أهل النفرة <sup>(١)</sup> وهم الذين يستجيبون لنداء الجهاد تجسيدا لقوله تعالى : ﴿ انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ﴾ <sup>(٢)</sup>

فهو أيضا لم يمتلك جيشا نظاميا وانما كان لديه منات من فرسان عشيرته ومن المجاهدين ومن أمراء الروم وعساكرهم الذين دخلوا الاسلام اثر الفتوحات العثمانية . وحينما كان يريد اعدادا اكثر مما لديه يطلق النفير ( حي على الجهاد ) فتوافد عليه جموع المجاهدين من كل صوب <sup>(٣)</sup> فاذا وضعت الحرب أوزارها عاد المجاهدون من حيث أتوا لانتظار دعوة أخرى للجهاد <sup>(٤)</sup> ، وكانت هذه الطريقة غير مجدية لأنها تضيع كثيرا من فرص الفوز وذلك لأنه عندما يعلن النفير العام كان جمع الأفراد يستغرق فترة طويلة من الزمن مما يمكن العدو من تعزيز مواقعه فتفوت بذلك فرص الفوز على قوات العدو <sup>(٥)</sup> ، كذلك فان هذه الطريقة تجعل أفراد المحاربين أكثر ارتباطا بقبائلهم مما يؤدي الى انفصام عرى الوحدة العثمانية داخل قوات الدولة التي تسعى الدولة جاهدة لتحقيقها ، كما أن بعضهم

(١) كامل باشا : تاريخ سياسي دولت عليه عثمانية ، ج ١ ، ص ١٢ .

زياد أبوغنيمة : جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك ، ص ١٤٤ .

حسين لبيب : تاريخ الأتراك العثمانيين ، ج ١ ، ص ١٠ .

(٢) سورة التوبة : الآية (٤١) .

(٣) زياد أبوغنيمة : المرجع السابق ، ص ١٤٥ .

- حسين لبيب : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٠ .

- أحمد رشيد : خريطة لي ورسملي تاريخي عثماني ، ج ١ ، ص ١٤-١٥ .

(٤) زياد أبوغنيمة : المصدر السابق ، ص ١٤٥ .

- حسين لبيب : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٠ .

- كامل باشا : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٢ .

(٥) كامل باشا : المصدر السابق ، ص ١٢ .

كان حريصا على جمع المال . ولذلك خشى السلطان أن مثل تلك الأمور قد تصرف قواد المحاربين عن الهدف المنشود ألا وهو الجهاد في سبيل الله <sup>(١)</sup> . خاصة وأن حملات البيزنطيين قد زاد تهديدها للدولة العلية ، فوجد أورخان صعوبة في تجميع المحاربين في الوقت المناسب ، ففكر في طريقة جديدة لتجميع قوة لقتال البيزنطيين الذين اخذ خطرهم يتصاعد يوما بعد آخر . ، فاستشار اخاه علاء الدين وزير الدولة وبعض قوادها الآخرين ، فاشاروا عليه وخاصة علاء الدين وقائده قره خليل بفكرة ايجاد جيش نظامي دائم يكون مستعدا استعداداً كاملاً لخوض المعارك ضد أعداء الدولة وأعداء الاسلام ، ويكون موجوداً في حالة الحرب والسلام على حد سواء <sup>(٢)</sup> . على أن يخصص لكل فرد من أفراد ذلك الجيش راتب معين في اليوم وقدره ليرة عثمانية واحدة مقابل هذا التفرغ <sup>(٣)</sup> لأنه ليس من العقل التجاء السلطان الى جيش غير متفرغ ولا منظم ، بعد أن رأى فساد ذلك الاتجاه في الدولة البيزطية وأيضاً ليس من المقبول أن يجاهد العثمانيون بقوات غير منظمة <sup>(٤)</sup> .

وبما أن الغزو والجهاد لازال قائما في بلاد الروم ومتابعا ، فقد أشار على

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٢٢-١٢٣ .

- كامل باشا : المصدر السابق ، ص ١٢ .

(٢) زياد أبوغنيمة : المصدر السابق ، ص ١٤٥-١٤٦ .

- كامل باشا : المصدر السابق ، ص ١٢ .

(٣) كامل باشا : تاريخ سياسي دولت عليه ، ج ١ ، ص ١٢ .

(٤) محمد عبداللطيف البحرأوي : في خصائص تاريخ العثمانيين وحضارتهم ( مجلة الدارة، ع ٤ ، ص

١٣ م، ١٤٠٦هـ) ص ٢٠٤ .

السلطان رجال حكومته بأخذ خمس الأسرى<sup>(١)</sup> ، وفصلهم عن كل ما يذكروهم  
بجنسهم وأصلهم ، فيربون تربية اسلامية ، بحيث لا يعرفون أبا الا السلطان ولا  
عملا الا الجهاد في سبيل الله ، ولعدم وجود أقارب لهم يضمن السلطان عدم  
تحزبهم أو عصيانهم عليه ، فأعجب السلطان بهذه الفكرة والرأي وأمر بانفاذه في  
الحال<sup>(٢)</sup> ، فأسند هذا العمل الى قرّة خليل .

والحقيقة أن العثمانيين يومئذ كانوا يواصلون جهادهم في فتح البلاد  
الواقعة في أملاك الامبراطورية البيزنطية وأكثر أهلها من المسيحيين ، فدخل في  
حوزتهم الألوف من غلمان النصارى الذين قتل آباؤهم نتيجة تلك الحروب  
فأصبحوا لانصير لهم ولا مرجع لآمالهم ، ولذلك ارتأى السلطان أن يربي أولئك  
الغلمان تربية اسلامية<sup>(٣)</sup> .

وعلى اثر ذلك نشأ هؤلاء الأطفال نشأة اسلامية لأنهم تربوا في بيئة  
اسلامية بعيدا عن الوسط المسيحي ، فأثر ذلك في ميولهم وعقليتهم نتيجة لما  
لهذا الدين الجديد من أمور انسانية عظيمة<sup>(٤)</sup> ، فاذا صاروا الى حالة حسنة من  
التربية والانتظام أدخلتهم الدولة في سلك الجيش الجديد<sup>(٥)</sup> فلا يخشى منهم التمرد

---

(١) أحمد زين دحلان : الفتوحات الاسلامية .. ( القاهرة . مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر .  
١٣٨٧هـ ) ، ج ١ ، ص ١١٧ .

كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ، ص ٤١٤ .

(٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٢٢-١٢٣ .

(٣) هيئة التحرير : تاريخ الجند ( مجلة الهلال ، ج ٨ ، ص ١٧ ، ١٩٠٩ ) ، ص ٤٥٨ .

كامل باشا : تاريخ سياسي دولت عليه ، ص ١٣ .

(٤) محمد عبداللطيف البحر اوي : من خصائص تاريخ العثمانيين وحضارتهم . مجلة الدارة ، ج ٤ ، ص

١٣ ، ص ٢٠٥ .

(٥) أحمد زيني دحلان : الفتوحات الاسلامية ، ج ١ ، ص ١١٧ .

- احمد رشيد : خريطة لي ورسملي تاريخي عثماني ، ج ١ ، ص ١٤-١٥ .

لأنهم لا يعرفون عصبية غير الدولة ، ولا عملا غير الجندية ، ولا دينا غير الاسلام<sup>(١)</sup> .

وقد ارتبطت هذه القوة منذ بداية نشأتها بهيئة العلماء في الدولة العثمانية، وذلك حينما عهد السلطان أورخان الى حاجي بكتاشي أشهر علماء عصره وأكثرهم سلطة دينية في الدولة برعاية هؤلاء الجند ، ووضع أصول تربيتهم تربية إسلامية صحيحة ، فقام الشيخ بكتاشي بوضع مناهج لتعليمهم وتدريبهم على أسس إسلامية سليمة<sup>(٢)</sup> .

إذا فهم نخبة موظفين يقيمون في ثكناتهم على الدوام ، وهم في غاية الطاعة والانقياد ، مع ما هم عليه من الشجاعة والثبات في المعارك للجهاد في سبيل الله واعلاء كلمته<sup>(٣)</sup> .

وقد شجع السلطان أورخان تحويل الرعايا المسيحيين الى رعايا عثمانيين مسلمين ، ولم يتبع في ذلك الوقت العنف والاكراه<sup>(٤)</sup> ، بل اتبع الترغيب

---

(١) محمد عبداللطيف البحراري: المرجع السابق ، ص ٢٠٥ .

(٢) محمد عبداللطيف البحراري : المرجع السابق ، ص ٢٠٥ .

أحمد زيني دحلان : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١١٧ .

أحمد رشيد : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٤-١٥ .

(٣) أحمد جودت باشا : تاريخ جودت باشا ، ج ١ ، ص ٣٩ .

Stanford J. Shaw, Ezelkural Shaw: Osmanli Imparatorlugu ve modern, Turkiy, p. 15.

(٤) يذكر كارل بروكلمان : أن الدولة أكرهت النصارى الذين اختيروا لتأليف الجيش الجديد الانكشاري على الدخول في الدين الاسلامي . وهكذا افتتحت الدولة هذه الحملة بأن انتزعت ألف غلام نصراني من بيوت آبائهم وأكرهتهم على رفض معتقدتهم . بيد أن تطلع هؤلاء الى مستقبل باهر جعلتهم يتعلقون بشخص السلطان ويخلصون له . والواقع أن القوة الجديدة الانكشارية نظمت تنظيما دينيا .

والتهذيب ، وكانت الوظائف عامة وخاصة الدينية والعسكرية منها في ذلك الوقت تقتصر على المسلمين<sup>(١)</sup> ، حتى صار النصارى يطلبون من تلقاء أنفسهم ادخال اولادهم ضمن الانكشارية<sup>(٢)</sup> .

وكان أهم مصادر الانكشارية هي : أسرى الحرب نتيجة الجهاد على حدود العالم المسيحي ، ثم ما كانت تقدمه العائلات المسيحية طواعية من أبنائهم وليس صحيحا أن هؤلاء الغلمان كانوا يقدمون كجزية أو ضريبة كما يدعي البعض<sup>(٣)</sup> ، ولا توجد وثيقة واحدة تشير او تؤيد هذا القول ، بل ان هذه الأسر نفسها كانت تتنافس في تقديم أبنائهم لاعجابهم بالانكشارية . ونظام الانكشارية كنوع آخر من الفروسية ، فاق فروسية أوروبا في العصر الوسيط ، وطمعا أن تفتح أبواب وظائف الدولة أمام أبنائهم ، اضافة الى نظام أهل الذمة الذي طبقته الدولة كجزء من نظمها الإسلامية قد أبهرت أوروبا في وقت انعدمت فيه الحرية الدينية في أوروبا ذاتها أو كادت ، بل إن اقبال الأسر المسيحية على ذلك هو الذي دفع الدولة الى أن تشترط أن يكون الغلام هو الابن الخامس أو العاشر في الأسرة

---

(=) وقد نهج على مواله كثير من المؤرخين الأوربيين وأخذ عنهم بعض المؤرخين المسلمين دون تدقيق في الرواية . وهنا نحن بدورنا نطلب الدليل على هذه الفرية . لأننا نخالفهم هذا الرأي لنظام الدولة . وطلب النصارى أنفسهم انضمام الى الانكشارية .

(١) محمد عبداللطيف البحراوي : من خصائص تاريخ العثمانيين وحصارتهم . مجلة الدارة ، ع ٤ ، ص ١٣ . ٢٠٤ .

(٢) اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٤٨٨ .

(٣) هي حسبما ادعاه البعض ضريبة آدمية فرضتها الدولة على رعاياها المسيحيين الذين يعتقدون مذهب الكنيسة الارثوذكسية الشرقية القائمة في اسطنبول . وكانت تجمع أولادهم وهم في سن غصنة ، وتخولهم الى الدين الاسلامي وتنظم لهم دراسات علمية . مديسة وعسكرية لتجعل منهم في النهاية أدوات اسلامية للحرب والحكم في خدمة الاسلام .

- عبدالعزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ، ج ١ ، ص ١٢٠ .



الواحدة<sup>(١)</sup> . وكانت عقيدتهم التنادي الى السلاح نحو الجهاد في سبيل الله تعالى . وكان الانكشاريون كتلة واحدة تشعر بواجبها الإسلامي العظيم وبالمهمة التي أعدوا من أجلها ، السيف سلاحهم متى ما احتاجوا اليه ، ودعوة الحق شعارهم ، والرحمة والشفقة تملأ قلوبهم ، ذلك لأن الاسلام دينهم وعقيدتهم والسلطان أبوهم وقاندهم ، كانوا مثقفين متدينين بدين الإسلام ، وقبل خوض المعركة كانوا يستعدون للشهادة فيتطهرون ويصلون لربهم ويطلبون سجدتهم في صلاتهم خشوعاً لبارئهم بنفوس مفعمة بالإيمان صافية كلها رحمة وعدل<sup>(٢)</sup> .

وعلى العموم كانت أسرة آل عثمان أكبر عائلة عرفها التاريخ الحديث شادت صرح دولتهم ، ودافعت عن الإسلام دفاعاً مشهوراً ، وزادت رقعة ، كما عملت على نشر الإسلام في معظم الأجزاء الأوربية<sup>(٣)</sup> .

ثم إن دخول الأتراك الإسلام على مذهب أهل السنة والجماعة ، وقيامهم بدور المجاهد الأول في سبيل الله أمام الامبراطورية البيزنطية أكسب هذه الدولة العثمانية أصالة وحصانة فكرية في الإسلام ، ومكانة عالية في النفوس ، فكانت هذه الدولة تملك قوة روحية كبيرة أصيلة نابعة من القيم والعقيدة الاسلامية الصافية تستطيع أن تعتمد عليها من وقت لآخر لاعادة تنظيم نفسها والوقوف على أقدامها كلما تعرضت لنكسة شديدة ، ومعنى ذلك أن الاسلام وحضارته الراقية

(١) محمد عبداللطيف البحر اوي : من خصائص تاريخ العثمانيين وحضارتهم . مجلة الدارة . ع ٤ .

س ١٣ . ص ٢٠٤-٢٠٥ .

(٢) عبدالعزيز سليمان نوار : الشعوب الاسلامية ( بيروت ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ،

١٩٧٣ ) ص ٤٨-٤٩ .

(٣) عبدالعزيز سليمان نوار : المرجع السابق . ص ٦٣-٦٤ .

في جميع المجالات طور الفكر التركي العثماني ، ونماه حضاريا ، وهذب أخلاقه ، واقتلع من جذوره البداوة والتعصب ، وغرس فيه روح التنظيم والجهاد ، وعلى هذا الأساس سارت السياسات العليا العثمانية لتكون نبراسا لكل مسنول يعمل بها ويهتدي بنورها حفاظا على تماسك البناء الاسلامي للرعية والأمة الإسلامية ، شعارها الدفاع عن الإسلام<sup>(١)</sup> في أي موقع وعلى أي اتجاه ، وعلى هذا الأساس أقام السلطان أورخان بن عثمان ووزراؤه هذا الجيش الذي رافق تكوين دولتهم فكان أداة في انتصاراتها بتوفيق من الله وعونه إلى جانب الجيوش الأخرى في الدولة ، حتى فشلت مهمته في الدور الثاني من عصر الدولة.

---

(١) عبدالعزيز سليمان نوار : الشعوب الإسلامية ، ص ٦٤ .

## ج - انتشار الإسلام في أوروبا في عصر عظمة الدولة : فتح القسطنطينية وتهديد

روما :

قبل أن ندخل في تفاصيل فتح القسطنطينية فلا بد من أن نستعرض بإيجاز سلطنة السلطان مراد الثاني الذي استلم العرش سنة ٨٢٤هـ الموافق ١٤٢١م ، كمدخل لحكم السلطان محمد الثاني ، وخصوصا أنه أشركه في الحكم وهو لم يبلغ سن الرشد وقد زاده هذا العمل حنكة سياسية وخبرة بالحروب الصليبية كما سيأتي. وقد افتتح السلطان مراد الثاني أعماله باعادة العاصمة الى أدرنه ، وعقد مصالحة مع أمير القرماني ، وهدنة مع ملك المجر لمدة خمس سنوات ، حتى يتفرغ الى إعادة الولايات التي شقت عصا الطاعة بعد وصول تيمورلنك اليها ، فاسترد ولايات قسطنوني ، وآيدين ، وصاروخان ، ومنتشا ، وغيرها من الامارات التي استولى عليها تيمورلنك بعد وقبل موقعة أنقرة من السلطان بايزيد الأول ، كما أن السلطان مراد الثاني استرد بلاد القرماني في سنة ٨٣١هـ الموافقة لسنة ١٤٢٨م ، وذلك بعد وفاة أميرها من غير عقب ، فأوصى بالملك من بعده للسلطان مراد الثاني<sup>(١)</sup> . وتفرغ السلطان بعد ذلك لاستعادة ما استقل من بلاد أوروبا وخاصة دول البلقان<sup>(٢)</sup> . فاتجه نحو أوروبا ، فحارب ملك المجر ، وفتح مدينة كولباز الواقعة على شاطئ نهر الدانوب الأيمن ، حتى يكون هذا النهر فاصلا بين أملاك المجر والدولة العثمانية<sup>(٣)</sup> . وفي سنة ٨٣٢هـ الموافقة لسنة

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية . ص ١٥٣-١٥٤ .

، علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية . ص ٢٥ .

(٢) محمد فريد بك : المصدر السابق . ص ١٥٣-١٥٤ .

، أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني . ص ٦٣ .

(٣) محمد فريد بك : المصدر السابق . ص ٢٥٤ .

، علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية . ص ٢٥ .

١٤٣٠ م ، أعاد السلطان فتح سلانيك وعزم على فتح ما بقي من بلاد الصرب  
والبانيا ( الارنوط ) والفلاخ فأخضع بلاد البانيا ، ثم الفلاخ في سنة ٨٣٥هـ  
الموافقة لسنة ١٤٣٣ م ، التي سلم أميرها بسيادة الدولة هلعاً من الحرب ، ولكنه  
مالبث أن ثار مع أمير الصرب لتحريض ملك المجر لهما لمحاربة الدولة ، فحاربتهما  
الدولة وفتحت سمندرية <sup>(١)</sup> بسبب عصيان أمير الصرب ، وحاصرت مدينة بلغراد  
عاصمة بلاد الصرب ، ولم تتمكن من فتحها <sup>(٢)</sup> .  
ثم واصل السلطان مراد الثاني الغارة على ترنسلفانيا ، فحاصر مدينة  
(هرمان ستاد) <sup>(٣)</sup> التابعة لملك المجر وكان حاكم هذه الأقاليم ( هونياد ) القائد  
المجري الشهير وقائد عموم جيوش المجر ، فأتى هذا القائد مسرعاً ، للدفاع عنها ،  
فاستطاع الانتصار على العثمانيين ، والزمهم الرجوع الى خلف نهر الدانوب ،  
وخلال هذه المعارك قتل قائد القوة العثمانية شهاب الدين باشا ، فحث القائد  
المجري جيشه على السير لتخليص بلاد الصرب ، فتغلب على السلطان مراد  
الثاني الذي تصدى له في مدينة نيش <sup>(٤)</sup> فأصبحت أملاك العثمانيين في خطر ، لهذا  
عرض السلطان مراد الصلح <sup>(٥)</sup> ، وبمقتضاه استرجعت الصرب استقلالها بعودة

(١) معناها القديس اندريا مدينة واقعة على نهر الدانوب ( الطونة ) تبعد ٤٥ كيلو متراً عن بلغراد  
عاصمة الصرب .

- على حسون : تاريخ الدولة العثمانية . ص ٢٥ . حاشية رقم (١) .

(٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية . ص ١٥٥-١٥٦ .

(٣) تقع هذه المدينة هرمنستاد ( Harmannstat ) في رومانيا الى الشمال الغربي من العاصمة

بخارست . . - محمد فريد بك : المصدر السابق . ص ١٥٦ . حاشية رقم (٢) .

(٤) ويقال لها نيسا مدينة في جنوب الصرب . واقعة على الطريق الموصل الى اسطنبول . وسلانيك .

وهي بلدة يوغوسلافية .

- محمد فريد بك : المصدر السابق . ص ١٥٧ . حاشية رقم (٢) .

(٥) محمد فريد بك : المصدر السابق . ص ١٥٦-١٥٧ .

اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار . ج ١ . ص ٥٠٢-٥٠٣ .

سمندريه ، وضمت المجر ولاشيا ، كما تنازل السلطان لهم عن الأفلاق فاتفق الفريقان على ايقاف الحرب لمدة عشر سنوات ، وتم التوقيع على هذه المعاهدة في سنة ٨٤٨هـ الموافقة لسنة ١٤٤٤م<sup>(١)</sup> .

عقب ذلك توفي علاء الدين ابن السلطان مراد الثاني ، فحزن عليه السلطان وسنم الحياة ، فتنازل لابنه محمد الثاني البالغ من العمر آنذاك أربع عشرة سنة ، وذهب الى مغيسيا بايدين في آسيا الصغرى ليتفرغ للعبادة والخلوة هناك<sup>(٢)</sup> .

وحيثما تنازل مراد الثاني عن الحكم لابنه محمد الثاني ، قام المسيحيون بنقض الصلح<sup>(٣)</sup> ، ونظموا حملة صليبية خامسة للقضاء على الدولة العثمانية ، اشتركت فيها عدة دول أوربية<sup>(٤)</sup> .

---

(١) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٥٠٣-٥٠٤ .

محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ، ص ١٥٧ .

أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٦٤ .

علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٢٦ .

(٢) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٥٧ .

اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ص ٥٠٤ .

علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٢٤ .

أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٦٥ .

يوسف اصاف : تاريخ سلاطين آل عثمان ، ج ٢ ، (الطبعة الثالثة ، دمشق ، البصائر ،

١٤٠٥هـ) ، ص ٥٤ .

(٣) يوسف اصاف : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٥٤ .

أحمد عبدالرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص ٦٥ .

اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ص ٥٠٤ .

(٤) أورخان محمد علي : السلطان عبدالحميد الثاني ، حياته وأحداث عهده (الطبعة الأولى ، الكويت ،

دار الوثائق ، ١٤٠٧هـ) ، ص ١٩ .

ذلك أن ملوك النصارى تنادوا لاعداد هذه الحملة وفعلا تم اعدادها في سنة ٨٤٨هـ / ١٤٤٤م ، وتوجهت تلك الجموع بعد ذلك نحو أراضي البلغار فاجتازوها ، وهجموا على الحاميات العثمانية ، وهناك أنزلوا بها صنوفا من العذاب ، ثم واصلوا تقدمهم الى البحر الأسود واستولوا على وارنه <sup>(١)</sup> ، فعاد السلطان من عزلته لصد الحملة فأحرز انتصارا حاسما على جيوش التحالف الصليبي ، واسترد مدينة وارنه <sup>(٢)</sup> ، ثم واصل تقدمه حتى تمكن من اخضاع البوسنة والصرب اللتين اعترفتا من جديد بالسيادة العثمانية خوفا من التحول القسري إلى الكاثوليكية فيما لو انتصر هونياد زعيم الحلف الصليبي <sup>(٣)</sup> والعدو التقليدي للدولة العثمانية .

ثم عاد السلطان مراد الثاني بعد ذلك الى خلوته من جديد ، ولم يستمر بها طويلا ، بل انه عندما شاهد تمرد الجيش الانكشاري وثورتهم على السلطان محمد الثاني لصغر سنه شن هجوما كبيرا عليهم حتى استطاع اخماد ثورتهم وذلك سنة ٩٥٢هـ الموافق ١٤٤٥م .

وخوفا من رجوعهم الى الثورات مرة أخرى أشغلهم بحرب الموره حتى استسلم أهلها وقبلوا دفع الجزية <sup>(٤)</sup> . وخشية من تكرار الثورات والحروب ضد

(١) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٦٤ .

يوسف آصاف : تاريخ سلاطين آل عثمان ، ص ٥٤ .

على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٢٦ .

(٢) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٤٠٥ .

محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ، ص ٥٨ .

على حسون : المصدر السابق ، ص ٢٦ .

أحمد عبدالرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص ٦٤ .

(٣) أحمد عبدالرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص ٦٤ .

(٤) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٥٨ .

الدولة العثمانية فانه استمر في ادارة شئون دولته لمدة ست سنوات ، تمكن خلالها من ايقاع هزيمة بهونيات (١) ، عندما اراد هونيات الغارة على بلاد الصرب ليثار لنفسه ويعيد ما فقدته من الشرق الأدنى اصطدم بالجيش العثماني في وادي قوصوه في معركة حاسمة انتصر فيها السلطان مراد الثاني نصرا عظيما وذلك في سنة ٨٥٢هـ الموافق ١٤٤٨م ، وكأنه أعاد بذلك انتصارات سلفه مراد الأول من قبل على ملك الصرب سنة ٧٩٢هـ الموافق ١٣٨٩م ، وفي هذا الموقع بالذات .

بعد هذه المعركة بثلاث سنوات وبالتحديد في ٥ من محرم سنة ٨٥٥هـ الموافق ٧ من فبراير سنة ١٤٥١م توفي السلطان مراد الثاني في أدرنه ، ونقل جثمانه الى بروسه . حيث دفن هناك فتولى من بعده ابنه السلطان محمد الثاني (٢) وما ان تولى السلطان محمد الثاني مقاليد السلطة في الدولة العثمانية حتى سارع الى تأمين حدود دولته من ناحية نهر الدانوب ، كما ألزم الامبراطور البيزنطي قسطنطين دفع الجزية ، ولم يبق آنذاك من ممتلكات الدولة البيزنطية الا القسطنطينية وضواحيها (٣) .

ومن أجل ذلك شرع السلطان محمد الثاني البالغ من العمر عند توليه السلطة تسعة عشر عاما في الاستعداد لإتمام فتح ما بقي من بلاد البلقان والقسطنطينية ن حتى يحقق بذلك الحلم الكبير والأمنية العظيمة التي طالما تمنها

- 
- (١) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في اصول التاريخ العثماني ، ص ٦٥ .  
(٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ، ص ١٥٩ .  
اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٥٠٥ .  
(٣) محمد مصطفى صفوت : فتح القسطنطينية ، ص ١٣ .

أسلافه<sup>(١)</sup> خاصة وأن والده قد شرع من قبل في حصار القسطنطينية ، لكنه لم يتمكن من فتحها ، لتحالف أوروبا والثورات في آسيا الصغرى كما مر بنا<sup>(٢)</sup> ، فأخذ السلطان محمد الفاتح ينفذ وصية والده مراد الثاني في التحضير لفتح القسطنطينية<sup>(٣)</sup> ، حيث سبق لأسلافه العثمانيين عدة محاولات لفتحها لشعورهم أنها العاصمة الطبيعية لدولتهم<sup>(٤)</sup> ، والقاعدة التي يجب أن تنطلق منها الفتوحات الإسلامية لتشمل كامل القارة الأوروبية .

وقد أدرك السلطان محمد الثاني أن نجاحه في فتح هذه المدينة يتطلب منه أن يتفرغ تفرغاً كاملاً لهذه المهمة ، فعمد إلى توثيق علاقاته بالقوى المجاورة، وتجميد الخلافات معهم ، حتى لا تشغله عن هدفه العظيم ، كما كانت القوى المسيحية المجاورة للدولة العثمانية ترغب في عقد اتفاقيات المصالحة ، لهذا انتهز يوانيس كومنيوس الرابع امبراطور طرابزون الكاثوليكي والموالي لبابا روما وملك الصرب جورج برانكوفيش ، وأمراء وحكام الافلاق ، وروودس ، وغلطة ، وغيرها من الامارات الأوربية الأخرى مناسبة تسلم السلطان مقاليد الحكم ، فتسابقوا إلى إرسال الوفود إليه للتهنئة وتقديم الهدايا إليه ، وعلى أثر ذلك تم عقد معاهدات جديدة ، كما سارع بعضهم إلى تجديد المعاهدات القديمة التي كانت بينهم وبين السلطان مراد الثاني .

وقد أظهر محمد الثاني في هذه المناسبة مرونة فائقة ليضمن بذلك تحييدهم

- 
- (١) يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ١٣ .  
محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٦١ .  
(٢) عبدالسلام عبدالعزيز فهمي : فتح القسطنطينية ، ( دار الكاتب العربي ، الهيئة العامة للتأليف والنشر ، ١٩٦٩م ) ، ص ٣٦ .  
(٣) علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٢٥ .  
محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٦١ .  
(٤) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٦٥ .



وتوقفهم عن تقديم أي مساعدة عندما يقرر توجيه ضربته الفاصلة نحو القسطنطينية ، إلا أنه فوجيء في هذا الوقت بعصيان أمير سلطنة القرممان السلجوقية ، فسارع السلطان محمد الثاني إلى اتخاذ هذه الفتنة بعقد الصلح معه . وبينما كان السلطان في طريقه إلى بروسه تواترت إليه الأخبار بإعلان عصيان أمراء منتشيا ، وكرميان ، ضد الدولة العثمانية فأرسل قواته إلى تلك المناطق وتم اتخاذ هذه الثورة المسلحة (١) .

إن مثل هذه الثورات قد أغرت الإمبراطور قسطنطين الحادي عشر ، فانتهاز هذه الفرصة لإبعاد الخطر عن القسطنطينية ، فبعث إلى السلطان محمد الثاني يهدده بأنه سيمد يد العون إلى الأمير أورخان (٢) لمنازعتة على عرش السلطنة (٣) إذا لم يخصص له بعض المخصصات المالية ، فغضب السلطان غضبا شديدا ، وكان هذا أحد الأسباب القوية حول دفع السلطان لاتخاذ القرار اللازم لفتح القسطنطينية (٤) ، إضافة إلى ذلك أهمية موقع القسطنطينية لدولته ، نظرا لموقعها الجغرافي عند نقطة اتصال آسيا بأوروبا عن طريق مضيق البوسفور والدردينيل اللذين يصلان البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأسود بواسطة بحر

---

(١) زياد أبوغيممة : السلطان المجاهد محمد الفاتح . فاتح القسطنطينية ( الطبعة الثانية ، عمان ، دار

الفرقان للنشر والتوزيع . ١٤٠٤ هـ ) . ص ٢٩-٣٢ .

(٢) أورخان هذا هو حفيد سليمان بن السلطان بايزيد الأول الذي لجأ إلى القسطنطينية أثناء الصراع على السلطة عقب موقعة أنقرة .

- إبراهيم بك حليم : التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية . ص ٦٤ .

(٣) زياد أبوغيممة : المرجع السابق . ص ٣٢ .

- أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني . ص ٦٥/٦٦ .

(٤) إبراهيم بك حليم : المصدر السابق . ص ٦٤ .

مرمره ، ولا يزيد عرض ذلك الممر المائي عن كيلو متر (١) ، فهو مركز الاتصال البحري والبري بين القارتين أوربا وآسيا وطريق هام للملاحة العالمية (٢) .

ولكن الدوافع الحقيقية والكامنة وراء محاولة هذا الفتح لاشك في أنها دوافع إسلامية بجته حافزها بشارة الرسول صلى الله عليه وسلم (٣) .

لذلك كان سلاطين الدولة العثمانية موجهين أنظارهم إلى هذا الأمر المهم ، وقد ورد في الحديث الشريف ، عن عبد الله بن أحمد بن حنبل عن أبيه أحمد بن حنبل حدثنا عبد الله بن محمد بن أبي شيبه ، وسمعه أناس عن عبد الله بن محمد بن أبي شيبه قال : حدثنا زيد بن الحباب قال حدثني الوليد بن المغيرة المعافري قال : حدثني عبد الله بن بشر الخثعمي عن أبيه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول : لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ، ولنعم الجيش ذلك الجيش " قال فدعاني مسلمة بن عبد الملك فسألني فحدثته فغزا القسطنطينية (٤) . وهذا الحديث أورده السيوطي في الجامع الصغير وعزاه إلى الامام أحمد بن حنبل في المسند والحاكم في المستدرک ، ورمز له بالصحة بشر الفنوي (٥) ، إلا أنه لم يرد في الكتب الستة ، ولما كانت أحوال القسطنطينية الداخلية في ذلك الوقت مختلفة وسينة من الناحية الاقتصادية والدينية للاختلاف المذهبي حول توحيد الكنيسة في روما (٦) ، ثم ان بقاء القسطنطينية في أيدي غيرهم من غير المسلمين سوف يكون

(١) أضيق نقطة في هذا الممر المائي عند اسطنبول حيث يضيق العرض ليصبح ستمائة وستين متراً

- يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ١٣١ .

(٢) علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٣١ .

(٣) علي حسون : المرجع السابق ، ص ٣٢ .

(٤) أحمد بن حنبل : مسند الامام أحمد ، بيروت ، المكتب الاسلامي ، ج ٤ ، ص ٣٣٥ .

(٥) محمد المدعو بعبدالرؤوف المناوي : فيض القدير شرح الجامع الصغير ( الطبعة الثانية ، لبنان ، دار

المعرفة للطباعة ، ١٣٩١هـ / ١٩٧٢م ) ج ٥ ، ص ٢٦٢ .

(٦) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٥٠٦ .

من شأنه تهديد المواصلات ما بين أملاكهم الأوربية والآسيوية ، ففتحها وضمها  
للدولة العثمانية كفيل بتشديد قبضة العثمانيين على الأراضي التي يحكمونها ،  
ويخلع عليهم المهابة من الدول المسيحية<sup>(١)</sup> ، ولينال السلطان محمد الثاني وجيشه  
الشرف النبوي ليكونوا هم المعنيين بهذا الحديث .

وقبل الشروع في هذا الفتح فكر السلطان في تحصين بوغاز مضيق  
اسطنبول حتى يضمن قطع مدد أهل طرابزون وغيرهم من المسيحيين من مد يد  
المساعدة الى أهل القسطنطينية<sup>(٢)</sup> . ومن أجل ذلك شيد السلطان محمد الفاتح  
على الشاطئ الأوربي من البوسفور قلعة روملي حصار أو " بوغاز كسن  
حصاري"<sup>(٣)</sup> ، وتقع على بعد سبعة كيلومترات من أسوار القسطنطينية ، مقابل  
القلعة التي بناها السلطان بايزيد الأول ، وفي أضيق نقطة منه حتى يتيسر له اغلاق  
هذا المضيق عند اللزوم<sup>(٤)</sup> .

ولما علم قسطنطين بذلك وهو البادئ بالتحرش والتهديد بإطلاق أورخان  
المذكور أرسل الرسل يتضرع ليصرف السلطان عن بناء هذه القلعة التي أزعجته  
فعرض عليه الوفد دفع الجزية التي يقررها ، لكن السلطان رفض هذا الاغراء  
وقال : " لما كنت صغيرا كنتم تظلمون المسلمين ، وكنتم لاترجمونهم ، ووالدي

---

(١) علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية . ص ٦٥ .

(٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية . ص ١٦١ .

(٣) أي القلعة قاطعة البوغاز .

- يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ١٣١ .

(٤) كامل باشا : تاريخ سياسي دولت عليه عثمانية . ج ١ ، ص ٧٨ .

محمد فريد بك : المصدر السابق . ص ١٦١ .

علي حسون : المرجع السابق / ص ٣٣ .

أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٦٦ .

عبدالسلام عبدالعزيز فهمي : فتح القسطنطينية . ص ٣٨ .

حلف بأن يبني قلعة على ساحل الروم عندما كان في غزوة وارنه ، وأنا الآن أنفذ وصية والدي لفتح القسطنطينية ، كما أنني أبني هذه القلعة في أرضي وخارج أرضكم ، وليس لكم الحق في التدخل ، ارجعوا الى امبراطوركم وقولوا له : السلطان الحاضر ليس كمثل سلفه ، بل مصمم ومقدم على الفتح ، والآن نسمح لكم بالرجوع لإبلاغه ، أما المرة الثانية سأسلخ جلد من أتاني حيا <sup>(١)</sup> .

وبعد ثلاثة أشهر من العمل أكمل السلطان بناء القلعة في شكل مثلث سمك جدارها عشرون قدما ، وفي كل زاوية منها برج ضخيم مغطى بالرصاص سمكه اثنان وثلاثون قدما <sup>(٢)</sup> . ثم قام السلطان بتفقد القلعة التي بناها ، وجعلها بالجيش والمعدات الحربية <sup>(٣)</sup> ، فعين فيروز أغا قائداً للقلعة الجديدة ، وضم اليه أربعمائة جندي من خيرة جنود الانشكارية <sup>(٤)</sup> ، ثم أصدر أوامره بألا يسمح لأية سفينة أجنبية بعبور المضيق الا بعد خضوعها للتفتيش الدقيق ، مع أخذ الرسوم المحددة لذلك ، وان حاولت المرور بالقوة يطلق عليها النار <sup>(٥)</sup> . ويعني ذلك أن العثمانيين استطاعوا إحكام سيطرتهم على مدخل البوسفور ومن شاطئيه الآسيوي والأوربي ، كما ضمنوا منع وصول أية امدادات الى القسطنطينية ، وخاصة من مملكة طرابزون النصرانية <sup>(٦)</sup> ، فأصبح العثمانيون من هاتين القلعتين يسيطرون

(١) كامل باشا : تاريخ سياسي دولت علية عثمانية . ج ١ . ص ٧٨ .

(٢) عبدالسلام عبدالعزيز فهمي : فتح القسطنطينية . ص ٣٨ .

زياد أبو غنيم : السلطان المحامد محمد الفاتح . فتح القسطنطينية . ص ٣٢ .

(٣) كامل باشا : المصدر السابق . ج ١ . ص ٧٩ .

(٤) عبدالسلام عبدالعزيز فهمي : المرجع السابق . ص ٤٠ .

(٥) كامل باشا : المصدر السابق . ص ٧٩ .

عبدالسلام عبدالعزيز فهمي : المرجع السابق . ص ٤٠ .

(٦) زياد أبو غنيم : المرجع السابق . ص ٣٤ .

سيطرة كاملة على الطرق الشمالية التي تؤدي الى مدينة القسطنطينية<sup>(١)</sup>. وبهذه الخطة المحكمة يعد السلطان محمد الثاني بحق مؤسس نظام المضائق والقدرة على التحكم فيها في العصور الحديثة ، وبعد أن اطمأن السلطان محمد الثاني على سلامة خطته الحربية لفتح القسطنطينية عاد الى أدرنه وذلك في أوائل عام ٨٥٦هـ/١٤٥٢م<sup>(٢)</sup>. فحول مدينة أدرنه الى مصانع هائلة للأسلحة ، وجعلها مركزا لتجمع جيوشه القادمة من كل أقطار دولته ، ومخزنا كبيرا للمعدات والذخائر والآلات النارية والمدافع التي تحتاجها تلك الحرب<sup>(٣)</sup>.

وعندما أدرك قسطنطين نوايا السلطان محمد الثاني ، لفتح مدينته ، استعد للدفاع عنها ، فأمر باغلاق أبوابها<sup>(٤)</sup> ، ثم بعث الى جميع ملوك الغرب وأمرانه يستصرخهم ويحثهم على نجده ومساعدته ، كما بعث الى البابا نقولا الخامس يستنصره وفي الوقت نفسه يحذره وينذره اذا سقطت القسطنطينية في يد العثمانيين فإنهم سيهجمون بعدها لآماله على إيطاليا نفسها<sup>(٥)</sup>.

لذلك كثرت البعثات التي أرسلتها القسطنطينية إلى أوروبا تطلب الغوث والنجدة ، ولكن كان هناك بعض المصاعب التي عرقلت نجاح هذه البعثات وأهمها الاختلاف المذهبي ، والتعصب الديني بين الكنيستين الشرقية الأرثوذكسية والغربية الكاثوليكية ، ويعني ذلك أن النزاع كان على أشده بين بيزنطة ورومة .

(١) محمد مصطفى صفوت : فتح القسطنطينية ، ص ٦٠ .

(٢) يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٣١-١٣٢ .

(٣) محمد مصطفى صفوت : المرجع السابق ، ص ٦٠-٦١ .

(٤) كامل باشا : تاريخ سياسي دولت عليه عثمانية ، ج ١ ، ص ٧٩ .

يلماز اوزتونا : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٣٢ .

أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٦٦ .

(٥) عبدالسلام عبدالعزيز فهمي : فتح القسطنطينية ، ص ٣٧ .

أحمد عبدالرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص ٦٦ .

ولقد بذلت مساع دبلوماسية أوربية هائلة للتوفيق بين الشرق البيزنطي والغرب الروماني ، رغبة في اتحاد قوتهم أمام المسلمين العثمانيين <sup>(١)</sup> .

وقد كانت النتيجة الحتمية لبناء قلعة " روملي حصار " هي محاولة القسطنطينية هدمها ومن ثم الاعتداء على عمالها مما جعل السلطان محمد الثاني يعلن الحرب رسميا على الامبراطور قسطنطين ، فأخذت حامية الحصن تغير بانتظام على الجهات المجاورة ، فأدرك الامبراطور البيزنطي أن محاولته للمحافظة على مركزه بأي ثمن لن يفيد شينا ، فلا شئ يرضي العثمانيين غير فتح القسطنطينية ونشر الاسلام فيها والقضاء على ملكه نهائيا <sup>(٢)</sup> ، ولذلك أمر الامبراطور باغلاق ابواب المدينة <sup>(٣)</sup> ، والقبض على كل العثمانيين الأتراك الموجودين داخل الامبراطورية . عندها أعلن السلطان محمد الثاني الحرب لفتح القسطنطينية . وخرج معه جيش عظيم يبلغ نحو خمسين ألفا ونزل بهم بجوار أسوار القسطنطينية ، لكنه عندما وصل الى هناك عاد مسرعا إلى أدرنه وكان غرضه من هذه الزيارة التي استغرقت ثلاثة أيام ترتيب بعض أموره في عاصمة ملكه ، كما أنه قام باستكمال دراساته عن موقع القسطنطينية واستعداداتها ، وعلى هذا الأساس بنى السلطان استعداده ، واكمل تخطيطه لحصار المدينة من كل صوب ، ثم عاد إلى مواقع تجمعات جيشه حول أسوار القسطنطينية <sup>(٤)</sup> .

بدأ السلطان محمد الفاتح تحركه بضرب المواقع القريبة والمجاورة

(١) محمد مصطفى صفوت : فتح القسطنطينية ، ص ٥١-٥٢ .

(٢) عبدالسلام عبدالعزيز فهمي : فتح القسطنطينية ، ص ٤٠ .

محمد مصطفى صفوت : المرجع السابق ، ص ٦٤-٦٥ .

(٣) عبدالسلام عبدالعزيز فهمي : المرجع السابق ، ص ٤٠-٤١ .

، اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٥١٣ .

(٤) محمد مصطفى صفوت : المرجع السابق ، ص ٦٦-٦٨ .

عبدالسلام عبدالعزيز فهمي : المرجع السابق ، ص ٤١ .

للقسطنطينية بقصد اضعافها حتى فقدت المدينة كل اتصال بالبلاد المجاورة لها ، فكانت عليها أن تعتمد فقط على المون والذخائر والرجال الموجودة بداخلها (١) .

وظهر الجيش أمام أسوار القسطنطينية في غرة ربيع الثاني سنة ٨٥٧ هـ الموافق للخامس من شهر ابريل سنة ١٤٥٣ م ، ويرافقه العلماء الذين يدعون له بالنصر منظمين تنظيماً رانعا ، وبدأت الفرق بجانب الفرق في أعلامها وطبورها ومدافعها المكونة من اربع عشرة بطارية واثنين وستين مدفعا ، ونصب السلطان محمد الثاني خيمته على الشاطئ الأيسر ، محيطا بالحنادق ، أمام الباب المشهور بباب القديس رومانوس فسلطت المدافع البعيدة المدى على ذلك الباب (٢) .

لدى ذلك الوقت (٣) ، ثم اتجه السلطان نحو القبلة وصلى ركعتين ، وصلى معه الجيش كله وبدأ من ذلك الوقت الحصار الفعلي للقسطنطينية (٤) .

وقد أعد السلطان في فترة الاستعداد أسطولا عظيما في مدينة غاليبولي التي هي قاعدة العثمانيين البحرية في أوروبا ، وكان مكونا من ثلاثمائة وخمسين سفينة ، فأمر بعبوره الى البوسفور ، حيث ألقى مراسيه هناك في بشكطاش ، وانضمت إليه بعض السفن العثمانية من البحر الأسود ، فأضاف منظره الى منظر الجيوش المحاصرة روعة وقوة بحرية للقوى البرية (٥) .

وهذا أول أسطول عثماني متكامل بالمعنى الصحيح ، وقد كان ظهوره

- 
- (١) عبدالسلام عبدالعزيز فهمي : فتح القسطنطينية ، ص ٤٤ .
- (٢) محمد مصطفى صفوت : فتح القسطنطينية ، ص ٧٤-٧٥ .
- (٣) كامل باشا : تاريخ سياسي دولت عليه عثمانية ، ج ١ ، ص ٨٢ .
- (٤) محمد مصطفى صفوت : المرجع السابق ، ص ٧٥ .
- عبدالسلام عبدالعزيز فهمي : فتح القسطنطينية ، ص ٤٦ .
- (٥) عبدالسلام عبدالعزيز فهمي : المرجع السابق ، ص ٤٧ .

مصدر دعر لسكان المدينة المحاصرة <sup>(١)</sup> حيث كانت مهمته تنحصر في منع وصول التموين الغذائي والحربي عن طريق البحر إلى المدينة ، ومهاجمة السفن التي تحرس السلسلة المعلقة على القرن الذهبي ، ومحاولة الاقتحام على هذا القرن الذهبي ، والقضاء على السفن الراسية فيه ، والتعاون مع الجيش البري في حصار مدينة القسطنطينية <sup>(٢)</sup> ، فحوصرت القسطنطينية من جميع الجهات ماعدا ناحية القرن الذهبي الذي كانت تحميه السلسلة والأسطول البيزنطي الموجود في الميناء من خلفها <sup>(٣)</sup> .

وفي الوقت نفسه قام الأسطول العثماني بمحاولة تخطيم السلسلة الواقعة في مدخل القرن الذهبي لعبوره إلى ميناء القسطنطينية ، ولكن السفن الرومية والإيطالية التي كانت تحرس هذا الموقع صبت قذائفها على السفن العثمانية ، فصدتها عن محاولاتها <sup>(٤)</sup> ، كما لم تنجح المحاولة العثمانية في صد خمس سفن نصرانية كانت تحمل مؤنًا وبضائع وسلاحًا للقوات المحاصرة حيث ظهرت فجأة في بحر مرمرية ، فاستطاعت بذلك الإفلات من قبضة السفن العثمانية ، وهذا يعود إلى أن هذه السفن متقدمة في الصنع أكثر من سفن المسلمين ، ولكن السلطان محمد الثاني لم تكن عزيمته أمام تلك العقبات . وهذه من أبرز الصفات التي يتحلى بها العثمانيون ، إذ أن العقبات و المصاعب لم تردهم إلا تصميمًا جديدًا <sup>(٥)</sup> ففكر

(١) محمد مصطفى صفوت : فتح القسطنطينية ، ص ٧٦ .

(٢) عبدالسلام عبدالعزيز فهمي : فتح القسطنطينية ، ص ٤٨ .

- محمد مصطفى صفوت : المرجع السابق ، ص ٧٧ .

(٣) محمد مصطفى صفوت : المرجع السابق ، ص ٧٨ .

(٤) كامل باشا : تاريخ سياسي دولت عليه عثمانية ، ج ١ / ص ٨٣ .

عبدالسلام عبدالعزيز فهمي : المرجع السابق / ص ٥٧ .

علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٣٦ .

(٥) علي حسون : المرجع السابق ، ص ٣٦ .



في طريقة جديدة لادخال سفنه الى داخل القرن الذهبي لاتمام الحصار برا وبحرا ،  
بعدها فشلت المحاولات في تحطيم السلسلة ، ولاحق في بال السلطان فكرة  
جديدة وبارعة ، تتلخص في نقل السفن عن طريق البر ولمسافة ميلين من بحر  
مرمره ( في بشكطاش ) حتى مياه القرن الذهبي ، ومن خلف مستعمرة غلطة  
الجنوبية ، ولم تكن المنطقة سهلا بل كانت وهادا وتلالا ، فأمر السلطان بتعبيد  
الأرض وتسويتها - ثم أمر بفرشها بألواح الخشب التي دهنت بالزيت والشحم  
لسهولة انزلاق المراكب عليها ، وبهذه الكيفية أمكن نقل نحو سبعين سفينة في  
ليلة واحدة الى داخل الخليج وتغطية لذلك العمل عن أعين العدو ظلت المدفعية  
تطلق قذائفها طوال ذلك اليوم من المرتفعات خلف أسوار غلطة ، فتقع هذه  
القذائف في القرن الذهبي في عملية تمويهية حتى اندفعت هذه السفن بسرعة الى  
أعلى الميناء حيث يتوفر لها الحماية البرية <sup>(١)</sup> ، ومن مظاهر هذا الاعجاز أن هذه  
العملية تمت في ليلة واحدة دون أن يشعر بها العدو <sup>(٢)</sup> .

أحدثت هذه العملية انهيارا معنويا للبيزنطيين ، فقد أصبحوا يوم  
١٥/٦/٨٥٧ هـ الموافق ٢٤/٥/١٤٥٣ م على منظر الخليج وهو يمجج بقطع  
الأسطول العثماني ، وهذا ما عبر عنه المؤرخ البيزنطي الأمير دو كاس حيث قال :  
" مارأينا ولا سمعنا من قبل بمثل هذا الشئ الخارق ، محمد الثاني يحول الأرض الى  
بحار ، وتعب سفنه فوق قمم الجبال بدلا من الأمواج ، لقد فاق محمد الثاني بهذا

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية . ص ٦٣ .

. يوسف اصاف : تاريخ سلاطين ال عثمان . ج ٢ . ص ٥٦ .

. علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية . ص ٣٦ .

. عبدالسلام عبدالعزيز فهمي : فتح القسطنطينية . ص ٦٢ .

(٢) يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية . ج ١ . ص ١٣٥ .

العمل لاسكندر الأكبر " (١) .

فانتشرت بين أهل القسطنطينية مقولة جديدة تقول : " ستسقط

القسطنطينية عندما ترى سفنا تمر على اليابسة " (٢) .

وفي يوم ١٨/٦/٨٥٧هـ الموافق ٢٧ مايو سنة ١٤٥٣م أمر السلطان

الفتاح جنوده بالصيام قبل الهجوم ، تطهيرا لنفوسهم وتقوية لعزيمتهم ، ثم قام

بتفقد الأسطول والسور من بحر مرمرية الى القرن الذهبي ، بعين فاحصة ، وما

أحدثته المدافع من ثغرات ، وماهي المواقع التي لازالت في حاجة الى القصف

والهدم (٣) ، فقام بتنظيم الفرق التي ستقوم بالهجوم العام والأخير على كل المحاور ،

ثم أمر مدفعيته بالامعان في تخطيم الأسوار ، ودكها دكا عند وادي ليكوس لأن

هذه النقطة هي أهم النقط التي يعتبر الاستيلاء عليها بمثابة تأشيرة دخول الى

المدينة .

ثم زار السلطان كل أقسام جيشه ليشجعهم ويحثهم على التضحية .

ويقوى فيهم الثقة بالنفس والنصر ، وأمر كل جندي بالمحافظة على موقعه .

وتوعده كل من تحدثه نفسه بمخالفة الأوامر ، أو الإخلال بالنظام ، أو النكوص

عن المعركة بالقتل ، وحذر الجنويين المقيمين في غلطة ليلتزموا بالحياض وعدم تقديم

أي مساعدة للمدينة المحاصرة (٤) .

عند ذلك أعلن السلطان في جيوشه بالاستعداد للهجوم الأخير في ٢٠ من

جمادى الأولى سنة ٨٥٧هـ الموافق ٢٩ من مايو سنة ١٤٥٣ م ، وخطب فيهم

(١) يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية . ج ١ . ص ١٣٥ .

(٢) عبدالسلام عبدالعزيز فهمي : فتح القسطنطينية . ص ٦٣ .

(٣) على حسون : تاريخ الدولة العثمانية . ص ٣٩ .

(٤) عبدالسلام عبدالعزيز فهمي : المرجع السابق . ص ٧٧ .

باعثا فيهم الحماس ووعدهم في تمام النصر باقطاعهم الأراضي وبذل العطايا والمكافآت، وفي الليلة التي سبقت اليوم المحدد للهجوم ، أشعل الجنود العثمانيون الأنوار أمام خيامهم للاحتفال بالنصر المحقق ، وظلوا طوال هذه الليلة يهتفون ويكبرون حتى لاح الفجر ، فأدى السلطان صلاة الصبح ، وامتطى جواده ، وتقدم إلى الصف الأمامي ، فأصدر أوامره بالهجوم <sup>(١)</sup> فتقدمت الجيوش وحاصرت أسوار المدينة ، ووضعوا عليها السلام ، وأخذوا يتسلقون داخل المدينة، فدخلوا ورفعوا العلم العثماني <sup>(٢)</sup> .

وعندما رأى السلطان محمد الثاني العلم يرفرف فوق أسوار المدينة ترجل عن حصانه وخر ساجدا على الأرض للرحمن ، حامدا وشاكرا لله سبحانه وتعالى على هذا النصر وتحقيق نبوءة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومنذ تلك اللحظة نال محمد الثاني شرف " الفاتح " <sup>(٣)</sup> .

لذلك اندفع المهاجمون المسلمون من كل صوب نحو الأسوار المثلومة للإجهاد على البقية الباقية من المدافعين البيزنطيين <sup>(٤)</sup> ، الذين تخلوا عن قسطنطين وانهزموا يبحثون عن طريق النجاة ، فلما رأى الامبراطور قسطنطين هذه الحالة التي حلت بجنده ترجل عن فرسه وسل سيفه ، وهجم على الجنود العثمانيين

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٦٤ .

كامل باشا : تاريخ سياسي دولت عليه عثمانية ، ج ١ ، ص ٨٥ .

(٢) برنارد لويس : اسطنبول ، ص ٢٢ .

(٣) يلماز أوتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ١٣٩ .

على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٤٠ .

(٤) برنارد لويس : المرجع السابق ، ص ٢٢ .

فقاتل حتى مات في ساحة المعركة<sup>(١)</sup> ، فدخل العثمانيون وفتحت لهم جميع المنافذ والأبواب بعد فرار حاميتها وحماتها<sup>(٢)</sup> .

وهكذا انتهى فتح القسطنطينية ، فوقف الجيش بنظام الصفوف أمام أياصوفيا في انتظار السلطان ، ولم تكن صلاة الظهر قد حانت بعد ، فلم يعتد الجيش على أحد من عشرات ألوف البشر المجتمعين في أياصوفيا ولم يمسهم بأدنى سوء ، ملتزمين بوصاية سلطانهم ، ولكنهم في انتظاره ، ليتلقوا أوامره بشأن هذا الموقف ، فدخل السلطان محمد الفاتح المدينة وقت الظهر ، واتجه الى أياصوفيا فخورا بأنه أصبح الفاتح للقسطنطينية ، فنال بذلك شرف الفتح العظيم ، كما أنه أصبح بذلك سلطان الروم ، وكان الأهالي في القسطنطينية يستقبلونه بالتصفيق ، أما الجيش فاستقبله بالتهليل والتكبير . وعند وصوله الى أياصوفيا أمر الرهبان بإخلائها<sup>(٣)</sup> ، ثم قام بتفقدتها ، وأمر بأن يؤذن فيها بالصلاة إعلانا بجعلها مسجدا جامعاً للمسلمين<sup>(٤)</sup> . ثم صلى هو وجيشه الظهر . وفي الوقت نفسه أمر بالبحث عن جثة الامبراطور ، وأحضرها الى الرهبان وأمر بدفنه<sup>(٥)</sup> .

وبعد تمام الفتح على هذه الصورة ، أعلن في كافة الجهات بأنه لا يعارض في إقامة شعائر المسيحيين ، بل انه يضمن لهم حرية شعائرهم وحفظ أموالهم وأملاكهم ، فلما رأى المسيحيون هذا التسامح عاد من هاجر الى القسطنطينية .

(١) كامل باشا : تاريخ سياسي دولت عليه عثمانية . ج ١ . ص ٨٦ .

. برنارد لويس : استانبول . ص ٢٢ .

(٢) كامل باشا : المصدر السابق . ص ٨٦ .

. عبدالسلام عبدالعزيز فهمي : فتح القسطنطينية . ص ٨٣ .

(٣) يلمازا اوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية . ج ١ . ص ١٤٠ .

(٤) محمد فريدك : تاريخ الدولة العلية العثمانية . ص ١٦٥ .

. برنارد لويس : المرجع السابق . ص ٢٣ .

(٥) يلمازا اوزتونا : المصدر السابق . ص ١٤١ .

فأعطاهم نصف الكنائس ، وجعل النصف الآخر جوامع للمسلمين ، ثم جمع رجالات دينهم ل ينتخبوا بطريقا لهم ، فاختاروا جورج سكولاريوس ، واعتمد السلطان هذا الانتخاب ، ثم جعله رئيسا لطائفة الأرثوذكس ، واحتفل بتشيته كما كان يعمل البطارقة أيام الروم المسيحيين ، وأعطاه حرسا ، ومنحه حق القضاء بالقضايا المدنية والجنائية بكافة أنواعها ، في مقابل دفع الجزية والخراج<sup>(١)</sup> ، ثم قام بزيارة غلطة بعد خمسة أيام ، وأمر بتأمين أهلها على أموالهم وحياتهم على أن تدفع الجزية ، وهكذا تم فتح القسطنطينية<sup>(٢)</sup> ، فسر العالم الإسلامي سرورا لايوصف بهذا الفتح ، وانبرت القاهرة أياما طويلة باقامة الافراح والاحتفالات بهذه المناسبة السعيدة ، فأرسل السلطان المملوكي في مصر وسلطان الهند الجنوبية ، وحكام مسلمون عديدون سفراء خاصين لتهنئة السلطان محمد الفاتح ، واعتبر هذا الفتح أكبر حدث في التاريخ العثماني ، فقد سجل هذا الفتح وبشر العالم الإسلامي بصورة قطعية بأن الدولة العثمانية سائرة في طريق الدولة العظمى .

أما أوربا فقد أصابها نبال سقوط القسطنطينية في يد المسلمين بصدمة كبرى ، فانتاب المسيحيين الشعور بالذعر والفزع ، وتجسم لهم خطر المسلمين وتهديدهم لأوربا المسيحية ، وأخذ بعضهم يستنفر بعضا على ترك الخلافات وعقد الاجتماعات بين الأمراء والملوك ، فانبعثت فيهم النزعة الصليبية ضد الدولة العثمانية<sup>(٣)</sup> وما كانت البابوية زعيمة المسيحية لتتصرف الى اليأس ، او

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٦٥ .

Halil Inlik : The Ottoman Empire, p. 57 .

سيرتوماس . و أرنولد : الدعوة الى الاسلام : ترجمة حسن ابراهيم حسن وآخرون . ( الطبعة

الثالثة ، القاهري . مكتبة النهضة المصرية . ١٩٧٠م ) . ص ١٧٠ .

(٢) علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٤٠ .

(٣) عبدالسلام عبدالعزيز فهمي : فتح القسطنطينية ، ص ٩٢ .

اسماعيل سرهك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٥١١-٥١٢ .

تخلد الى السكون ، مهما كانت كارهة للأرثوذكس ، فهي لاتسمح بقضاء المسلمين على الامبراطورية البيزنطية ، وفي الوقت نفسه تخشى اعتداء العثمانيين على البلاد المجاورة لها والتي تتبع النفوذ البابوي الديني ، ومن هنا تحولت فكرة الصليبية في محاولة انتزاع الأراضي المقدسة من المسلمين الى صراع دفاعي يستهدف منه انقاذ أوروبا الكاثوليكية من يد الدولة العثمانية المسلمة (١) .

فكان البابا " نيقولا الخامس " أشد الناس تأثرا بنبا سقوط القسطنطينية فجدد في توحيد الدويلات الايطالية ، وتأليبها على قتال العثمانيين ، وترأس مؤتمرا عقد في روما ، أعلنت فيه الدول المشتركة عزمها على التعاون ضد الخطر الإسلامي المشترك ، وكاد الحلف الصليبي أن يتم لولا أن البابا اشتد عليه المرض أثر الصدمة التي أصابته عندما علم بنبا سقوط القسطنطينية في يد العثمانيين ، فمات كمدا في سنة ٨٥٩هـ الموافقة لسنة ١٤٥٥م (٢) .

لذا حاول البابا " بيوس الثاني " الذي تولى البابوية بعده أن يقوم بكل ما أوتي من مقدرة خطابية ومهارة سياسية بتأييد الفكرة الصليبية الجديدة ، وحاول توحيد أوروبا ضد العثمانيين ، فتركزت مجهوداته في خطتين مهمتين (٣) أولاهما : أنه حاول أن يقنع العثمانيين باعترافهم بالدين المسيحي ولم يتم بارسال بعثات تنصيرية ، بل اكتفى بارسال خطاب الى السلطان محمد الفاتح يطلب منه أن يعرض المسيحية كما عرضها من قبله قسطنطين وكلوفس ، وأن يكفر عن خطاياهم باعترافهم بالمسيحية مخلصا ، ولم يكن معقولا نجاح هذه المهمة ، ففشل في خطته الأولى ، عند ذلك لجأ الى خطته الثانية : وهي التهديد والوعيد واستعمال القسوة

(١) محمد مصطفى صفوت : فتح القسطنطينية ، ص ١٣٨-١٣٩ .

(٢) عبدالسلام عبدالعزيز فهمي : فتح القسطنطينية ، ص ٩٢ .

(٣) زياد أبوغيممة : السلطان المجاهد محمد الفاتح ، فتح القسطنطينية ، ص ١٠٨-١٠٩ .

القوة عن طريق اقناع الدول المسيحية بتكوين حملة صليبية جديدة ضد الدولة العثمانية لنصرة المسيحية (١) .

لكن الدول الأوروبية والجمهوريات الايطالية ، ماكانت لتقوم بتنفيذ مثل هذا المشروع ، على الرغم من الخطر الذي يهدد معظم أقطارها ، مع أن فكرة القيام بحملة صليبية مازالت حية ، فقد وعدت الدول الأوروبية بالاستعداد لتحقيق فكرة البابا ، وعندما جاء وقت الجد اعتذرت لمتاعبها الداخلية (٢) . وماكانت أوروبا التي ذهبت وحدثها تستطيع الوقوف أمام الدولة العثمانية ، ففي القسطنطينية والبوسفور والدرديل وضع العثمانيون أقدامهم في موقع استراتيجي مهم من العالم ، جعل تقدم روسيا أو نمو النمسا من ناحية الشرق أمرا مستحيلا ، كما سيطروا أيضا بذلك على معظم الطرق البرية والبحرية المهمة بين الشرق والغرب (٣) .

لهذا اعتبرت أوروبا هذا الفتح العثماني فاصلا في مصير الدولة البيزنطية ، وفي مصير عاصمتها القسطنطينية ، وتثبيت أقدام الدولة العثمانية كارثة لا يضاهاها كارثة ، في ذلك الجزء من العالم . فولدت في تلك اللحظة المسألة الشرقية التي شغلت أوروبا في ذلك الوقت ، ولا تزال تشغلها . كيف تستطيع أوروبا وقف تقدم الاسلام ونشره في الأقطار الأوروبية ؟ .

وماكانت أوروبا ستجد لهذا السؤال جوابا نهائيا (٤) ، لقوة المسلمين الجهادية الضاربة المتمثلة في الدولة العثمانية التي أجبرت أوروبا عندما وقفت عاجزة عن انقاذ القسطنطينية على أن تجثو على ركبتيها ، فازدادت حيرتها عندما

(١) محمد مصطفى صفوت : فتح القسطنطينية ، ص ١٣٩ .

(٢) عبدالسلام عبدالعزيز فهمي : فتح القسطنطينية ، ص ١٣٩ .

(٣) محمد مصطفى صفوت : المرجع السابق ، ص ٩٤-٩٥ .

(٤) محمد مصطفى صفوت : المرجع السابق ، ص ١٤٢ .

شهر الفاتح سيفه لمواصلة الجهاد نحوها ، على الرغم من استيائها وثورتها العارمة ، ومؤامرات باباواتها وأمرانها وقيامهم بتشكيل حلف صليبي جديد ، لصد الدولة عن استمرار الفتح في أوروبا ونشر الإسلام بها ، والذي كان هدف الدولة منذ تكوينها (١) .

وفي سنة ٨٥٩ هـ الموافق ١٤٥٤ م أعاد السلطان الكرة لفتح بلاد الصرب ومر من جنوبها الى شمالها دون أن يلقى أي معارضة ، حتى وصل الى مدينة بلغراد عاصمة بلاد الصرب ، الواقعة على نهر الدانوب ، فحاصرها من جهة البر والنهر ، وكان هونياد القائد المجري قد دخلها قبل الحصار ودافع عنها دفاعا شديدا حتى ينس السلطان من فتحها ، فرفع الحصار عنها في سنة ٨٥٩ هـ الموافقة لسنة ١٤٥٥ م ، الا ان العثمانيين استطاعوا اصابة هونياد بجراح بالغة مات بسببها وارتاح المسلمون من شره لقوته وشدة بأسه .

ولما علم السلطان بموته أرسل محمود باشا الصدر الأعظم لاتمام فتح بلاد الصرب ، فاتم فتحها في سنة ٨٦٥ هـ / ١٤٦٠ م .

وفي هذه الأثناء تم فتح بلاد المورة في سنة ٨٦٥ هـ الموافقة لسنة ١٤٦٠ م ، ثم بلاد اليونان ، فحول السلطان أنظاره الى آسيا الصغرى لفتح ماتبقى منها (٢) ، فسار بجيشه وهاجم ميناء أما ستريس ، وكان مركزا مهما لتجارة أهل جنوه ، ولكون سكانها تجارا فانه لا يهتمهم الا المحافظة على أموالهم ، فقد فتحوا أبواب المدينة ودخلها العثمانيون بدون حرب ، ثم قصد محمد الفاتح مدينة طرابزون ودخلها بدون مقاومة ، وقبض على ملكها وأولاده ، وأرسلهم الى القسطنطينية

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٦٥ .

يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ١٤١ .

Halil Inalick : The Ottoman Empire, p. 56. .

(٢) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٦٦-١٦٨ .



ثم ضم بلاد الفلاخ الى الدولة .

وفي سنة ٨٦٦هـ الموافقة لسنة ١٤٦٢م حارب السلطان بلاد البوسنة<sup>(١)</sup> لامتناعها عن دفع الخراج ، فتدخل ملك المجر لانقاذ البوسنة من العثمانيين ، وكان هذا التدخل من أسباب ضم البوسنة الى الدولة كباقي ولايات الدولة ، وقد دخل أكثر شبابها تطوعا في الجيش الانشكاري ، واسلم أغلب سكانها<sup>(٢)</sup> .

وعندما أراد السلطان فتح بلاد البغدان في سنة ٨٧٩هـ الموافقة لسنة ١٤٧٥م ، أرسل جيشا الى هناك ، وبعد حرب عنيفة قتل فيها الكثير من الجيشين المتحاربين ، عادت الجيوش العثمانية بدون فتح هذا الاقليم<sup>(٣)</sup> ، حينئذ عزم السلطان على فتح بلاد القرم حتى يستعين بفرسانها المشهورين في القتال لمحاربة بلاد البغدان ، فأرسل اليها عمارة بحرية ، فاستطاعت جيوش الدولة فتحها ، ثم واصلت العمارة البحرية سيرها ففتحت أق كرمان ، ثم واصلت طريقها لفتح بلاد البغدان ، وبينما كان السلطان يسير بالجيش مجتازا به نهر الدانوب ، اذ تفهقر أمامه جيش البغدان لعدم استطاعته الحرب في البر ، فتبعه الجيش العثماني حتى توغل خلفه في غابة كثيفة يجهل مفاوزها ، عندئذ انقض عليه الجيش البغداني، وهزم الجيش العثماني<sup>(٤)</sup> .

اتجه السلطان بعد ذلك الى فتح بلاد البنادقة في سنة ٨٨١هـ الموافقة

(١) البوسنة : تشكل البوسنة والمهرسك اليوم احدى مقاطعات يوغسلافيا التي يتركز فيها المسلمون .

- على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٤١ . حاشية رقم (٢) .

(٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ، ص ١٦٩-١٧٠ .

(٣) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٧٣ .

، على حسون : المرجع السابق ، ص ٤١ .

(٤) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٧٣-١٧٤ .

لسنة ١٤٧٧م ، فخاف البنادقة على مدينتهم ، وأبرموا الصلح معه تاركين له مدينة كرويا<sup>(١)</sup> ثم مدينة أشقودره<sup>(٢)</sup> ، وبعض القلاع الأخرى في المنطقة .  
وفي سنة ٨٨٤هـ الموافقة لسنة ١٤٨٠م ، استطاعت الدولة فتح بعض الجزر اليونانية ، ثم واصل الجيش العثماني مسيره لفتح اوترانت<sup>(٣)</sup> بايطاليا التي عزم السلطان على فتحها مهما تكن الظروف ، وأقسم بأن يربط فرسه في كنيسة القديس بطرس بمدينة روما مقر البابا ففتحت مدينة اوترانت عنوة في ٤/٦/٨٨٥هـ الموافق أغسطس / ١٤٨٠م . فاهتزت ايطاليا في الوقت الذي أرسل فيه السلطان عمارة بحرية أخرى لفتح جزيرة رودس<sup>(٤)</sup> التي كانت مركزا لرهينة القديس حنا الارشليمي ، وكان رئيسها بيير الفرنساوي الأصل ، وكانت هذه الجزيرة محصنة تحصينا منيعا ، فحاصرها العثمانيون واستمر حصارها ثلاثة أشهر ، حاول خلالها العثمانيون الاستيلاء عليها ، ولكنهم تفهقروا لبسالة أهلها ودفاعهم عنها<sup>(٥)</sup> .

وفي يوم ٤ من ربيع الأول سنة ٨٨٦هـ الموافق ٣ من مايو سنة ١٤٨١م

- 
- (١) كرويا : الى الجنوب من مدينة اشقودره . وتكتب هكذا ( Kruja ) .  
- محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص ١٧٤ حاشية رقم (١) .  
(٢) اشقودره : مدينة قديمة ، كانت تابعة للصرب ثم انتقلت الى البنادقة ويقال ان مؤسسها امكندر المقدوني . ثم انتقلت من ذلك اليوم الى العثمانيين .  
- محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٧٥ ، حاشية رقم (١) .  
(٣) تقع على ساحل ايطاليا في أقرب نقطة الى ساحل البانيا ، وهذه المنطقة الضيقة من بحر الادرياتيك التي تصله بالبحر المتوسط " تعرف باسم مضيق اترانت .  
- علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٤١ ، حاشية رقم (٢) .  
(٤) رودس : جزيرة قريبة من شاطئ آسيا الصغرى طيبة الهواء ، فتحها السلطان سليمان القانوني في سنة ١٥٢٢م .  
- محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٧٦ ، حاشية رقم (٢) .  
(٥) محمد فريد بك : المصدر السابق . ص ١٧٤ - ١٧٦ .

توفي السلطان محمد الفاتح بعد أن أكمل مقاصد أجداده بفتح القسطنطينية ، ثم مملكة طرابزون الرومية ، والصرب والبوسنة وألبانيا ، وجميع أقاليم آسيا الصغرى ، ولم يبق في بلاد البلقان إلا مدينة بلغراد التابعة للمجر وبعض الجزر التابعة للبنادقة ، وقد دفن محمد الفاتح في اسطنبول<sup>(١)</sup> ، وبموته انقذت إيطاليا خاصة وأوروبا بصفة عامة من الخطر العثماني ، غير أن محمد الفاتح اعتبر أول من ثبت أركان الدولة في أوروبا<sup>(٢)</sup> .

ويروي يلماز أن الفاتح مات من أثر السم الذي دسه له بصورة تدريجية العميل اليهودي البندقي أحد أطبائه الخاصين المسمى ( Master Lacopo ) الذي ادعى أنه اهتدى إلى الإسلام وسمى يعقوب باشا ، وكان مدسوسا لقتله ، فمزق الأتراك العثمانيون هذا البندقي اليهودي شر ممزق قبل أن يتسلم مكافأته من أسياده ، فعلمت البندقية خبر موت الفاتح بعد ستة عشر يوما من وفاته ، وكانت الرسالة التي أوصلها حامل البريد السياسي لسفارة البندقية في اسطنبول تحتوي هذه الجملة " مات النسر الكبير " فجرت المراسيم لمدة ثلاثة أيام بلياليها بأمر البابا دقت معها أجراس كافة الكنائس الأوروبية<sup>(٣)</sup> .

لقد أشاد السلطان محمد الفاتح دولة عظيمة كانت من أقوى الدول في القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي ، واتخذ عاصمة بلاده سيدة البلقان

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ، ص ١٧٦-١٧٧ .

، علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٤٠-٤١ .

(٢) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٧٢ .

، محمد مصطفى صفوت : فتح القسطنطينية ، ص ١٧٠ .

(٣) تاريخ الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ١٧٧ .

اسطنبول ، التي كانت تشرف على ممتلكاتهم الآسيوية والأوربية : على البر والبحر فمهدت فتوحات السلطان الطريق لفتوح العثمانيين من بعده في المجر وأواسط أوروبا ، وفي الشام والعراق <sup>(١)</sup> والحجاز ، فأرسى بذلك قواعد الدولة العثمانية المتينة <sup>(٢)</sup> .

...

- 
- (١) محمد مصطفى صفوت : فتح القسطنطينية ، ص ١٧٣ .  
(٢) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ١٧٧ .



## الفصل الثاني : الدولة العثمانية في عصرها الثاني

- أ - اتساع الدولة وكثرة مشكلاتها .
- ب - الخلل - السلاطين - العلماء - الانكشارية -  
التوقف والركود .
- ج - الخطة الجديدة للعالم النصراني نحو الدولة ،  
فشل الحلول العسكرية - الغزو الفكري -  
سياسة الرجل المريض .

6

## أ- اتساع الدولة وكثرة مشكلاتها :

هكذا بعد أن بينا قوة الدولة وعظمتها وقهرها لأوروبا ، وتراجع أوروبا للدفاع عن نفسها ، خوفا على سقوط روما ، مقر البابوية الكاثوليكية أمام جهاد العثمانيين ، فلا بد أن نجمال الأحداث التي أعقبت سقوط القسطنطينية وبعض المدن اليونانية والايطالية ، التي قادت الدولة الى العالمية ، على محاور القارات الثلاث ، آسيا وأفريقيا وأوروبا ، في عهدي السلطان سليم الأول بن بايزيد الثاني ، والسلطان سليمان الأول بن سليم الأول ، لنصل مع القارئ الى اتساع رقعة الدولة مما نتج عنه تعدد مشكلاتها ، مروراً بالسلطان بايزيد الثاني ابن السلطان محمد الفاتح وهو كما يلي :

تسلم بايزيد الثاني ابن السلطان محمد الفاتح مقاليد السلطة في الدولة بعد وفاة والده في سنة ٨٦٦هـ الموافقة لسنة ١٤٨١ م ، وكان هذا السلطان ميالاً للسلم ، الا أنه اضطر لخوض بعض المعارك الداخلية والخارجية ، ولكن بالرغم من ذلك فإنه لم تكن فيه هممة الفاتح أو طموحاته<sup>(١)</sup> .

وفي عهده بدأت العلاقات السياسية مع بعض دول أوروبا ، ومنها قيام الاتصالات الودية مع مملكة بولونيا بعقد معاهدة في سنة ٨٩٦هـ الموافقة لسنة ١٤٩٠ م ، ولكنها لم تلبث مدة حتى تكدر الصفو بين الدولتين ، بسبب ادعاء كل منهما حق السيادة على بلاد البغدان<sup>(٢)</sup> ، فأغار ملك بولونيا عليها ، وقام العثمانيون بطرد المجر منها ، والغارة على حدود بولونيا بمساعدة أمير البغدان

(١) على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٤٢ .

أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٧٣ .

(٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٨٣-١٨٤ .

على حسون : المرجع السابق ، ص ٤٢ .



الذي قبل حماية الباب العالي<sup>(١)</sup> . كما وصل الى اسطنبول أول سفير روسي ومعه جملة من الهدايا وذلك في سنى ١٤٩٢هـ/١٨٩٢م . وفي الوقت نفسه بدأت بعثات الدول الأوروبية تتزاحم في العاصمة العثمانية الكل منهم يجتهد في مخالفة الدولة العثمانية للاستعانة بها على أعدائها ، وقطع العلاقات مع من خالفها<sup>(٢)</sup> .

لهذا تميز عهد السلطان بايزيد الثاني ببدء العلاقات الدبلوماسية مع أوروبا ، لكن جنوح السلطان الى السلم كان مرتبطا بالتزام الأطراف الأخرى لهذا لم تمنعه الاتفاقات من قيامه بقمع أي تحرك ضده<sup>(٣)</sup> ، وذلك حينما استطاع الايطاليون ايقاع الفتنة والنفرة بين الدولة العثمانية والبنادقة عندئذ أرسل السلطان جيوشه برا وبحرا لقمع تحركات البنادقة على ساحل البلقان ، فاستولى على مدينة ليبانتو أو " ليبانت " وثغور مودون ، وقورون ، ونافارين من بلاد اليونان ، وكانت كلها تتبع جمهورية البندقية ، فخافت البندقية من تقدم العثمانيين وإسقاط حكومتهم ، فاستغاثت بالدول النصرانية في أوروبا ، فأجدها البابا ، والدول الأخرى بالقوة اللازمة ، وبالرغم من ذلك استطاع العثمانيون الاستيلاء على ميناء رودستو الواقع على بحر الادرياتيك<sup>(٤)</sup> .

وقد كانت المواقع التي احتلها العثمانيون من البنادقة تشكل مراكز استراتيجية مهمة أمكنها أن تساعدهم على التقدم والتوغل في شرق البحر المتوسط ، بل أيضا في حوضه الغربي ، وهذا جعل البنادقة يطلبون عقد الصلح بين

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية . ص ١٨٤ .

(٢) محمد فريد بك : المصدر السابق . ص ١٨٤-١٨٥ .

على حسون : تاريخ الدولة العثمانية . ص ٤٢ .

(٣) محمد عبداللطيف الهريدي : الحروب العثمانية الفارسية . ص ٤١ .

(٤) محمد فريد بك : المصدر السابق . ص ١٨٥ .

الطرفين<sup>(١)</sup> ، وكان بإمكان السلطان بايزيد عدم قبول الصلح وضم بلاد البنادقة اليه لولا عصيان أولاده عليه<sup>(٢)</sup> واضطراب الأحوال الداخلية مما أجبره على إبرام الصلح مع البنادقة في سنة ٩٠٧ هـ الموافقة لسنة ١٥٠٢ م وفي السنة التي تلتها تم الصلح مع ملك المجر<sup>(٣)</sup> .

لكن مشاكل بايزيد الثاني ازدادت هي الأخرى من الشرق لحربه مع دولة المماليك حول دولة بني ذي القدر ، ومع الدولة الصفوية في إيران ، التي بدأت تثير القلاقل في الأناضول ، إضافة الى الخلافات الأسرية داخل البيت العثماني خاصة مع أخيه جم الذي كان يطالب بعرش الدولة ، وقد حدثت بينهما عدة حروب حالت دون تقديم المساعدة لآخوانه المسلمين في غرناطة<sup>(٤)</sup> .

أعقب ذلك عصيان أولاده وتنافسهم على العرش المرتقب ، مما أدى الى الاختلال في أمن البلاد ، وازدياد نشاط الدعاة الذين أثاروا الفتن والقلاقل في

- 
- (١) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٧٣ .
- (٢) تكدر صفاء حياة السلطان بايزيد الثاني في السنوات الأخيرة من حكمه بعصيان أولاده الثلاثة : كركود ، وأحمد ، وسليم ، لاختلافهم في المشارب السياسية ، فعين كركود على إحدى الولايات ، وأرسل أحمد الى أماسيا ، وعين سليم على طرابزون ، ففرق بينهم ، وعين سليمان بن سليم على بلاد القرم ، فلم يرض سليم الذي كان محبوب الانكشارية ، فانتقل الى ولده سليمان ، وخاطب والده من هناك بتعيينه في إحدى الولايات الأوربية ، فلم يقبل السلطان فعصى الابن ، وقام بحرب الدولة ، فجرد والده عليه جيشا فاستطاع قمعه ، ولكن الأمر انتهى بعفو الوالد عن ولده فأتى بالانكشارية في اسطنبول لوالده ، واستطاعوا اقناع السلطان بالتنازل لابنه عن الملك ، ولمزيد من المعلومات ارجع الى :

- محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ، ص ١٨٦-١٨٧ .

(٣) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ١٨٥ .

(٤) أحمد عبدالرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص ٧٤-٧٥ .

الأناضول . ونتيجة لذلك استمرت هذه الحالة حوالي عامين من (١٥٠٩-١٥١١م) استنزفت قوى الدولة بالسلب والنهب واراقة دماء المسلمين، وهذا ماجعل الأمير سليم الأول حاكم طرابزون في أقصى الأناضول يحسم الموقف لضبط البلاد ، ويطالب والده بالتنازل عن العرش ، وذلك بعدما رأى عن كثب ماخطط له الصفويون وتغلغل خطر الشيعة بين رعايا الدولة في الأناضول (١) .

وقد أدى ذلك الى تنازل بايزيد الثاني لابنه سليم الأول في سنة ٩١٨هـ الموافق لسنة ١٥١٢م عن الحكم وذلك بمساعدة الانكشارية (٢) كما سبق ذكره.

فالسلطان سليم الأول الذي تسلم دفعة الحكم كان من قبل حاكما لطرابزون ، وبذلك كان على علم بشنون حدوده الشرقية التي كانت تواجه خطر الصفويين (٣) الذين تولوا الحكم في ايران (٤) .

ونتيجة لذلك وصلت الى السلطان سليم تقارير تقول " ان المبتدعين من الصوفية والشيعة قد استفحل خطرهم، وزاد معددهم ، وباتوا يعشون في القرى بالسلب والنهب ، حتى انهم لم يتورعوا عن قتل الرجال ، وسبي النساء وأتوا

---

(١) محمد عبداللطيف هريدى : الخروب العثمانية الفارسية ( الطبعة الاولى ، القاهرة ، دار الصحوة للنشر والتوزيع . ١٤٠٨هـ ) ص ٤٧-٤٨ .

(٢) علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٤٢ .

(٣) تنسب الى صفى الدين وهو من اردبيل وكان من المتصوفة الزاهدين ومنذ القرن التاسع الهجرى انتقلت الصوفية من التامل الصوفي الى العقيدة الشيعية . وكانت هذه الأسرة زعيمة لحركة تركمانية صوفية .

- أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٧٦-٧٧ .

(٤) أحمد عبدالرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص ٧٦-٧٧ .

على الأخضر واليابس " (١) .

وكانت الدولة العثمانية في ذلك الوقت تتربع على عرش الأناضول وشبه جزيرة البلقان ، فأصبحت بذلك على مفترق الطرق ، وبين خيارين مهمين هما : هل تستمر فتوحاتها نحو أوروبا ؟ أو أنها تتجه نحو الشرق وتصطدم بدولة فارس ثم الممالك ؟ ، وبعد دراسة مستفيضة للموقف على الجبهتين قرر السلطان اختيار الخيار الثاني ، والتوقف المؤقت عن الفتوحات في أوروبا للاتجاه نحو بلاد فارس لخطورة الموقف هناك ، ولايقاف التحرك الفارسي الشيعي الذي استهدف الأناضول والعراق ، وبدأ يحرز أقلية الشيعة في تلك البلاد على الثورات ضد الحكم السني (٢) .

عند ذلك نهض السلطان سليم الأول في وجه هذا التحدي الصفوي ، وسل سيفه ، ورفع راية أهل السنة ، وغزا بلاد فارس ليضع حدا لترهات الشاه ، فهزم الشاه اسماعيل في موقعة جالديران في سنة ٩٢٠ هـ الموافقة لسنة ١٥١٤ م ، ودخل السلطان مدينة تبريز قاعدة ملك الدولة الصفوية . ولكنه اضطر فيما بعد الى العودة الى بلاده لتنظيم صفوف جيشه ، مما مكن الشاه من العودة الى عرشه من جديد ومحاولة مد نفوذه الديني الى الدولة . والواقع أن السلطان لم يقض على استقلال فارس بل بقيت الدولة العثمانية وفارس على عدااء مستمر ، وبذلك فان الدولة العثمانية استطاعت إضعاف نفوذ الدولة الصفوية في العراق وتركستان ، مما مهد للدولة العثمانية امتلاك العراق في عصر السلطان سليمان الأول كما

---

(١) محمد عبداللطيف هريدي: الحروب العثمانية الفارسية . ص ٤٢ . ٤٨ . نقلا عن (وثيقة رقم

٦٥٢٢ بطوب قايي) .

(٢) محمد كمال الدسوقي : أهمية الحجاز في مطلع العصور الحديثة . نقلا عن وثيقة رقم ٦٥٢٢ بطوب

قايي ( مجلة كلية الشريعة والدراسات الاسلامية . العدد الثاني . السنة الثانية ) ص ٤١٦ - ٤١٧ .

سيأتي (١) .

و حين عاد السلطان سليم الأول الى مواقع جيشه ، علم أن دولة المماليك كانت تميل لنصرة الدولة الصفوية أثناء حربها معها (٢) . فقد أرسل الشاه وفدا الى سلطان مصر يطلب منه التحالف ضد الدولة العثمانية في حربه معها مينا انهما اذا لم يتفقا معا ، حاربت الدولة كلا منهم على حدة للاستيلاء على أملاكه (٣) .

ومن تلك الأمور التي ظهرت واضحة للسلطان سليم الأول تدخل السلطنة المملوكية أثناء حربه مع الشاه ، فعلى الرغم من اعلان المماليك حيادهم التام حين دعاهم السلطان سليم الأول للاتفاق معه لحرب الشاه اسماعيل فانهم بعثوا بجنودهم ليقطعوا خطوط المواصلات المتجهة لامداد الجيش العثماني في شمال حلب عبر الأراضي المملوكية (٤) مما أغضب السلطان سليم الأول ، وأدرك أن المماليك يعملون ضده ، وعليه أن يتخذ الاجراء السليم الذي يكفيه شرهم ، أو انتزاع الأقطار السورية منهم .

لذلك سعت الدولة في التحالف والتفاهم بين الدول الثلاث لتكون هجمتها نحو الغرب موحدة ، ولكن الخلاف المذهبي بين الدولة العثمانية والدولة الصفوية في ايران جعل الدولة تجرد حملة جالديران سنة ٩٢٠هـ / ١٥١٤م كما سبق . كما أن حرص المماليك في مصر والشام على زعامة العالم الإسلامي بالرغم من ضعفهم وعدم قدرتهم على مواجهة البرتغاليين وصد حملاتهم ، جعل السلطان سليم الأول يتحرك نحو الشام ، فاستعد له سلطان المماليك قانصوه

١- محمد منور حريري ، مباح مفصل مرزوق في معاصر تاريخية ، ص ١٢٤

٢- محمد منور حريري ، تاريخ حوث ، ج ١ ، ص ٤٣

٣- محمد منور حريري ، تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٨٩

٤- محمد منور حريري ، حروب العثمانية العثمانية ، ص ٥٤

الغوري عند حلب على الحدود الشمالية ، فالتقى الجمعان في معركة مرج دابق سنة ٩٢٢هـ/١٥١٦م وبعد قتال شديد انهزم الغوري وقتل في ساحة المعركة ، فدخل سليم حلب وجميع المدن السورية<sup>(١)</sup> .

حينئذ سارع قادة المماليك في مصر الى تعيين طومان باي نائب الغيبة حاكما على مصر ، ولما علم السلطان سليم بذلك أرسل اليه يعرض عليه الصلح بشرط اعترافه بالسيادة العثمانية ، فرفض ذلك ، فغزا سليم الأول مصر ، وانتهت المعركة بالقضاء على دولة المماليك في موقعة الريدانية سنة ٩٢٢هـ/١٥١٧م<sup>(٢)</sup> .

وبعد ضم مصر للدولة العثمانية أراد سليم الأول ضم الحجاز ، ففي تلك الفترة<sup>(٣)</sup> حضر أبو نغمي ابن الشريف بركات شريف مكة الى مصر ، فقدم الطاعة للسلطان سليم الأول وأطلق عليه لقب حامي الحرمين الشريفين<sup>(٤)</sup> ، وخليفة الاسلام ، زيادة على لقب السلطان ، فجمع للسلطان سليم الأول بين الخلافة والسلطنة وحماية الحرمين الشريفين ، فوصلت الدولة في عهده الى أعلى المراتب ، واتحدت كلمة المسلمين على يده ، فأصبحت بذلك الزعامة الاسلامية للعثمانيين<sup>(٥)</sup> .

وقد ظل السلاطين العثمانيون دائما سلاطين غزاة أو مجاهدين في سبيل الله لحماية العالم الاسلامي ، ولكنهم استثمروا موقف الخلافة بمعنى جديد ومفهومه

(١) محمد شفيق غربال : منهاج مفصل لدروس في العوامل التاريخية . ص ١٢٥ .

(٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية . ص ١٩٢-١٩٣ .

. أحمد جودت باشا : تاريخ جودت . ج ١ . ص ٤٣ .

(٣) محمد فريد بك : المصدر السابق . ص ١٩٤ .

(٤) على حسون : تاريخ الدولة العثمانية . ص ٥٨ .

(٥) أحمد جودت باشا : المرجع السابق . ج ١ . ص ٤٣ .

الخاص على أنهم حماة العالم الاسلامي في جهادهم ضد الصليبيين<sup>(١)</sup> . وهذا اعلان وجه الى اوربا المسيحية وطلّاع الاستعمار الأوربي على الحدود الجنوبية للعالم الاسلامي<sup>(٢)</sup> .

وبعد ضم مصر والحجاز للدولة العثمانية عاد السلطان سليم الى اسطنبول فوصلها في بداية عام ٩٢٤هـ الموافق لسنة ١٥١٨م بعد أن مكث في دمشق خمسة أشهر ، ثم غادر اسطنبول الى أدرنه بقصد الراحة وهو يفكر في بدء القتال ضد الأعداء في أوربا بعد أن تم له توحيد الجبهة الاسلامية كما أراد وبعد أن سير حملة الى اليمن لاختضاعها للحكم العثماني<sup>(٣)</sup> .

ثم أخذ السلطان سليم الأول يعد هذا الأسطول لحصار جزيرة رودس لقتال فرسان القديس يوحنا ، ولكن وافته المنية قبل اتمام مشروعه في ٩ من شوال سنة ٩٢٦هـ الموافقة لسنة ١٥٢٠م (٤) ، وعندما وصلت اخبار وفاته الى العالم المسيحي شعروا بالفرحة ، وأن الخطر الذي كان يهددهم قد انزاح لأنهم كانوا يتوقعون في ابنه السلطان سليمان الأول أنه رجل سلام هادئ الطبع ميال للسلم، وأنه لايميل الى الحرب الا فيما ندر<sup>(٥)</sup> ، فظنوا أن الخطر قد زال، وبحق فقد جانب توقعهم الصواب . ذلك لأنه عندما تولى السلطان سليمان الأول (القانوني أو المنظم) كان العلم العثماني يرفرف فوق مناطق عظيمة من القارات الثلاث آسيا وأفريقيا وأوربا .

(١) Halil Inalcik: The Ottoman Empire , p. 57.

(٢) محمد عبداللطيف البحر اوي : من خصائص تاريخ العثمانيين وحضارتهم ، مجلة الدارة ، ع ٤ ، ص ١٣ ، ص ٢٠٣ .

(٣) علي حمون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٥٨

(٤) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٩٧ .

(٥) V.J. Parry : A History of the Ottoman Empire to 1730, p. 95 .

الا أنه في سنة ٩٢٧هـ الموافق ١٥٢١م تغير الموقف وذلك عندما أرسل السلطان سليم الأول ، بهرام سفيرا لجمع الجزية من أهل المجر لكنهم امتنعوا وتمردوا وثاروا عليه ، فقتلوا بهرام رسول السلطان ، فغضب السلطان ، وبعث بحملة لمحاصرة مدينة سابتس القريبة من بلغراد بقيادة أحمد باشا ، ففتحها عنوة في سنة ٩٢٧هـ الموافقة لسنة ١٥٢١م ودخلها السلطان في اليوم الثاني ثم انطلق منها الى بلغراد عاصمة الصرب ، ففتحها عنوة بعد حصار شديد وذلك في ٢٥ من رمضان من هذه السنة ، وكانت قد امتنعت على أسلافه من قبل لقوة تحصينها<sup>(١)</sup> ، فدخلها السلطان وصلى صلاة الجمعة في أكبر كنائسها ، فحولت الى مسجد للمسلمين<sup>(٢)</sup> ، وكانت هذه المدينة الحصينة معقلا من معاقل المجريين يحتمون وراءها كلما أغاروا على الدولة العثمانية ، ففتحها يعني حرمان المجريين من هذا الدرع الواقى من هجمات الدولة لتوسطها في القارة الأوربية<sup>(٣)</sup> . ولأهمية موقعها أصبحت بلغراد قاعدة الدولة العثمانية للزحف الى ماوراء نهر الدانوب<sup>(٤)</sup> ، أو لوسط أوروبا ، وقد استغرق حصارها شهرا كاملا وكان ماميز هذا الحصار هو انضمام طلبة المعاهد الدينية التي شيدها العثمانيون في البلقان الى صفوف المقاتلين العثمانيين طلبا للجهاد في سبيل الله ، وهذا

- 
- (١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٩٩-٢٠٢ .  
 ، هيئة التحرير : سليمان الكبير ( مجلة الهلال ، الجزء الأول ، السنة الأولى ١٣١٠هـ / ١٨٩٢م ) ص ٣٥ .  
 ، على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٦٥-٦٦ .  
 (٢) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٢٠٢ .  
 (٣) محمد عبداللطيف هريدي : الحروب العثمانية الفارسية ، ص ٦٠ .  
 (٤) على حسون : المرجع السابق ، ص ٦٦ .



مايدل على أن الدولة العثمانية بدأت تجني ثمرة جهودها في سبيل نشر الاسلام في أوروبا<sup>(١)</sup> . فعاد السلطان بعد هذا النصر العظيم الى اسطنبول عاصمة البلاد ، فأرسل اليه قيصر الروسي سفيرا يهنئه ، وكذلك رؤساء جمهوريتي البندقية وراجوزة<sup>(٢)</sup> أصبحوا يتقربون اليه خوفا من غاراته وهجماته على بلادهم<sup>(٣)</sup> .

ولكن عند أوائل سنة ٩٢٨هـ / ١٥٢٢م منحت الدولة العثمانية أولى الامتيازات التجارية في الدولة لجمهورية البندقية ، فوقت معاهدة تجارية معها ، خولت فيها قنصلها في اسطنبول حق حضور المرافعات أمام المحاكم حين الفصل في قضاياها ، اذ كانت الدول الأوروبية تعتبر النصارى كلهم رعاياها بالاضافة الى بعض البنود الأخرى ، أما الأسباب المباشرة لهذه المعاهدة التجارية ، فقد كانت اقتصادية الهدف ، منها محاولة الدولة العثمانية إعادة النشاط التجاري الى البحر المتوسط ، بعد الدوران حول رأس الرجاء الصالح بواسطة البرتغاليين ، ومنها أن السلطان سليمان كان في اعتقاده أنه مادام قويا فانه باستطاعته أن يلغيها متى شاء وفي أي لحظة عندما يحس بخطورها<sup>(٤)</sup> .

ثم ولي سليمان وجهته لفتح جزيرة رودوس التي ظلت فترة طويلة حصنا منيعا أمام الدولة<sup>(٥)</sup> . وقد اتخذها فرسان القديس يوحنا مملكة لهم بعد

- 
- (١) محمد عبداللطيف هريدي : الحرب العثمانية الفارسية ، ص ٦٠ .
- (٢) راجوزة : ميناء تجاري ببلاد لماسيا على الساحل الشرقي من بحر الادرياتيكي .
- محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٢٠٢ ، حاشية رقم (١) .
- (٣) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٢٠٢ .
- ، هيئة التحرير : السلطان سليمان الكبير ، مجلة الهلال ، ج ٢ ، س ١ ، ص ٣٥ .
- (٤) علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ن ص ٦٦ .
- (٥) كمال الدسوقي : العثمانيون وقرصنة رودس ( مجلة البحث العلمي ، كلية الشريعة والدراسات الاسلامية ، العدد الثاني ، ١٣٩٩هـ ) ص ١٧٠ .

أن طردهم المسلمون من فلسطين ابان الحروب الصليبية فشنوا منها على المسلمين<sup>(١)</sup> حروبا متواصلة ، وكانت رودس تناصب الدولة العثمانية المترامية الأطراف العداء السافر ، وتقف منها موقف المتحدى لمناعة حصونها ، فلم يجرف أحد من سلاطين آل عثمان على حربها قبل السلطان محمد الفاتح الذي حاول حصارها ثلاث مرات ولم يوفق في فتحها<sup>(٢)</sup> . لذلك أخذ السلطان سليمان الأول يستعد لفتح الجزيرة برا وبحرا ، لأنها نقطة الاتصال بين اسطنبول ومصر<sup>(٣)</sup> وسوريا والحرمين الشريفين<sup>(٤)</sup> ، وذلك لكسر شوكة النصارى المتمركزين وسط البلاد العثمانية<sup>(٥)</sup> باعتبار أن هذه الجزيرة تعد من أقوى المراكز الدفاعية في أوروبا ، وكان قراصنتها يأسرون أعدادا كبيرة من السفن الاسلامية التي كانت تجلب الحنطة والذهب من الولايات العربية والتي تنقل معها الحجاج الى الأماكن المقدسة عبر البحر الأبيض المتوسط<sup>(٦)</sup> ، لهذا أراد السلطان الاسراع في اتمام هذا العمل الذي عجز عنه أسلافه<sup>(٧)</sup> ، فأمر السلطان في الحال بغزوهـا برا وبحرا ، وبعد أربعة أشهر من حصارها استسلمت الجزيرة على شروط

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية. ص ١٤١ ، ص ٢٠٣ ، ٢٠٤ .

(٢) يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ٢٦٢ .

(٣) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٢٠٣ .

مجلة الهلال ، ج ٢ ، س ١ ، ص ٣٠٥ .

(٤) مجلة الهلال : المرجع السابق ، ص ٣٥ .

(٥) على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٦٦ .

(٦) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٨٩ .

V.J. Parry : A History of the Ottoman Empire to 1730. p. 79 .

كمال الدسوقي : العثمانيون وقراصنة رودس ، ( مجلة البحث العلمي ، كلية الشريعة والدراسات

الاسلامية ، ع ٢ ، ١٣٩٩ هـ ) ص ١٦٩ .

(٧) يوسف آصاف : تاريخ سلاطين آل عثمان ، ج ٢ ، ص ٧٢ .

محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٢٠٣ .

معينة وهي كالتالي :

- ١ - أن تصان الكنائس النصرانية .
  - ٢ - أن تقام الشعائر الدينية .
  - ٣ - أن لا يفرض على الأهالي ضرائب لمدة خمس سنوات .
- وكان رئيس الجزيرة فيليب دي ليل آدم قد طلب مقابلة السلطان وقد وافق السلطان على تلك الشروط ، وبعد مدة أبحر ليل آدم ومعه أربعة آلاف من أتباعه وذهبوا الى ايطاليا ، ومنها الى مالطة <sup>(١)</sup> .

الا أن فتح السلطان سليمان الأول لجزيرة رودس أمن أملاكه ، وتحركاته في شرق البحر المتوسط <sup>(٢)</sup> .

حينئذ توافدت الى السلطان الوفود من ملوك وأمراء لتهنئته بذلك النصر ، فلقد كان فتح جزيرة رودس ترسيخا لهيبة الدولة وارتقاء بعظمتها <sup>(٣)</sup> ، فسعى فرنسوا الأول ملك فرنسا بارسال الرسل للتحالف مع الدولة العثمانية ضد خصمه شارل الخامس ملك النمسا الذي كان يحيط بأملاكه كالسوار بالمعصم عدا البحر <sup>(٤)</sup> ، فقد كان ملكا لأسبانيا وهولندا وألمانيا وجزء عظيم من المدن الإيطالية <sup>(٥)</sup> ، وحين تعزز نفوذ الدولة العثمانية ، ووطدت سيطرتها القوية على البحر الأبيض المتوسط وجد فرنسوا في العثمانيين حليفاً قويا مهاب الجانب، له كلمة عليا في السياسة ، فأرسل سفيره الى اسطنبول طالبا منه وبكل خضوع

---

(١) يوسف آصاف : تاريخ سلاطين آل عثمان ، ج ٢ ، ص ٧٤ .

V.J. Parry : A History of the Ottoman Empire , p. 80 .

(٢) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٨٩ .

(٣) هيئة التحرير : السلطان سليمان الكبير ( مجلة الهلال ، ج ٢ ، ١٨٩٢ ، س ١ ) ، ص ٣٦ .

(٤) علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٦٧ .

(٥) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٢٠٨-٢٠٩ .

مهاجمة ملك المجر أحد حلفاء شارل الخامس<sup>(١)</sup> ، في محاولة من فرنسوا لاشعال الحرب بين العثمانيين والنمساويين ، وهو يأمل من ذلك تخفيف الضغط الهابسبرجي الذي كان واقفا على أبواب مملكته نفسها ، بعد هزيمته في سنة ٩٣٢هـ / ١٥٢٥م في بافيا ( pavia ) ، وكان السلطان سليمان واعيا لذلك ومتفهما حالة العداء بين المسيحيين الفرنسيين وبين الامبراطور شارل الخامس (ملك الامبراطورية المقدسة) وفرديناد ملك النمسا ، لهذا رحب السلطان سليمان بمطلبه لتحقيق هدفه ورغبته في السيطرة على مملكة المجر<sup>(٢)</sup> ، فأرسل رسالة الى فرنسوا بالموافقة على تنفيذ طلبه والاستعداد لحرب خصمه<sup>(٣)</sup> والعدو التقليدي للعثمانيين منذ أن وطنت أقدامهم شبه جزيرة البلقان ، فاجر ظلت خصمه المباشر أو حليفا لخصمه<sup>(٤)</sup> .

سار السلطان سليمان الأول مليا طلب صديقه فرنسوا يقود الجيش بنفسه الذي كان قوامه مائة ألف جندي ، وثلاثمائة مدفع ، وثلاثمائة سفينة ، فشق طريقه عن طريق صربستان الى بلاد المجر حتى وصل قلعة بلغراد حيث أخذها قاعدة جيشه ثم واصل سيره حتى وصل وادي موهاكس<sup>(٥)</sup> فاصطدمت القوتان فقتل ملك المجر في ساحة القتال وكثير من نبلائه وكهنته في موقعة موهاكس فسقطت بودا عاصمة المجر في يد العثمانيين ودخلها السلطان وجنوده دخول

- 
- (١) على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٦٧ .  
(٢) V.J. Parry : A History of the Ottoman Empire to 1730, p. 81 .  
(٣) على حسون : المرجع السابق ، ص ٦٧ .  
(٤) محمد عبداللطيف هريدي : الحروب العثمانية الفارسية ، ص ٦١ .  
(٥) موهاكس : Mohucs تقع اليوم في جنوب بلاد المجر بالقرب من الحدود اليوغوسلافية .  
- محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ، ص ٢١١ ، حاشية رقم (٢) .

الفاحين (١) .

وبدخول العثمانيين المجر خلق احتكاك مباشر بالنمسا نتج عنه ادعاء ملك النمسا فرديناند الأحقية في ملك بلاد المجر بسبب قرابته لملكها لويس الذي قتل في معركة موهاكس في أواخر سنة ٩٣٤هـ الموافق لسنة ١٥٢٧م (٢) . ولكن عليه أولا أن يقضي على منافسه في بودا (Buda) زعيم ترانسلفانيا جون زابولي الذي طالب به النبلاء ليعتلي عرش المجر بناء على موافقة السلطان (٣) .

فسار بجيشه لحرب زابولي ملك المجر ، واستطاع ازاحته عن حكم المجر ، فأرسل زابولي الى السلطان يستنجد به . فقاد السلطان بنفسه الجيش في سنة ٩٣٦هـ الموافقة لسنة ١٥٢٩م ، وتوجه الى بودا عاصمة المجر ، وما ان وصلها السلطان حتى فر منها فرديناند ، وتوجه الى فينا عاصمة النمسا ، ودخل السلطان البلاد ثم أعاد زابولي الى عرش المجر (٤) .

ولم يتوقف السلطان سليمان الأول عن تعقب ملك النمسا الفار فلقد توجه معه زابولي ملك المجر صوب فينا وأخذ يضرب حولها الحصار ، كما سلط مدافعه على أسوارها ، وهدم جزءا منها ، فأمر الجنود بالهجوم ، فاندفعوا لدخول المدينة عدة مرات خلال أربعة أيام ، فصمد أهل فينا أمامهم فلم يستطع الجنود العثمانيون دخول المدينة ، فأصدر السلطان أوامره بالرجوع بحلول فصل الشتاء

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية . ص ٢١٠-٢١١ .

على حسون : تاريخ الدولة العثمانية . ص ٦٧ .

أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني . ص ٩٠ .

V. J. Parry : A History of the Ottoman Empire to 1730, p.81 . .

(٢) محمد فريد بك : المصدر السابق . ص ٢١٠ - ٢١١ . ٢١٤ .

(٣) V.J. Parry : A History of the Ottoman Empire to 1730, p. 82.

(٤) محمد فريد بك : المصدر السابق . ص ٢١٥-٢١٦ .

القارس على أن يعاود الكرة عندما تحين الفرصة <sup>(١)</sup> .  
وفي سنة ٩٣٨ هـ الموافقة لسنة ١٥٣١ م قام ملك النمسا مرة أخرى  
بارسال جيش لمحاصرة بودا عاصمة المجر ، لانتزاعها من زابولي ، ولكن الحامية  
الاسلامية التي وضعها السلطان لحماية هذه المدينة استطاعت صد هذا الهجوم  
النمساوي <sup>(٢)</sup> .

وكعقاب لملك النمسا على تكرار هجومه على عاصمة المجر كرر السلطان  
غزو فينا في هذه السنة ٩٣٨ هـ / ١٥٣١ م للمرة الثانية وكان في هذه المرة  
مصمما على فتحها ، ولكنه لما اقترب من فينا ، بلغه استعداد أهلها للدفاع عن  
المدينة ، وقد جمعوا لهذه الحرب الى جانب الجيوش النمساوية جيوشا المانية  
واسبانية الى غير ذلك ، فعاد السلطان الى عاصمته وكانت هذه اول مرة لا يحرز  
فيها السلطان سليمان نصرا <sup>(٣)</sup> ، والواقع أن اقتراب فصل الشتاء وفشل  
العثمانيين في نقل مدافعهم الثقيلة عبر الدانوب كل ذلك كان من أهم أسباب رفع  
الحصار والعودة من سهول فينا <sup>(٤)</sup> .

وقد انتهزت القوى الصليبية في أوروبا انشغال السلطان العثماني بالحروب  
البرية داخل أوروبا فهاجموا البلدان العثمانية بحرا بقيادة الأميرال اندري دوريا

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٢١٦-٢١٧ .

علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٦٨ .

(٢) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٢١٨ .

(٣) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٢١٨ .

أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٩٠ .

علي حسون : المصدر السابق ، ص ٦٨ .

محمد عبداللطيف البحراري : فتح العثمانيين عدن ، ط ١ ، القاهرة ، دار التراث ، ١٣٩٩ .

٩٠ ص (١٩٧٩ م) هـ .

(٤) محمد عبداللطيف البحراري : المرجع السابق ، ص ٩١ .

الجنوي ، الذي التحق بخدمة شارلكان ، واحتلوا كورون وباتراس Patras التابعة لبلاد المورة ، ولكن ملك النمسا توقع رد الفعل العثماني ، فأرسل سفيرا الى السلطان سليمان ليطلب الصلح ، فلم يقبل الا بشروط معينة <sup>(١)</sup> أهمها تسليم مدينة ( جران Gran ) ، فقبل ملك النمسا وتحررت بين الطرفين معاهدة الصلح في سنة ٩٣٩هـ / ١٥٣٣م ، وأهم ما في المعاهدة هو رد مدينة كورون للدولة ، وان ماتتفق عليه النمسا مع زابولي ملك المجر لاينفذ ما لم يعتمده السلطان ، وهذه أول معاهدة صلح بين النمسا والدولة العثمانية وقع الطرفان عليها <sup>(٢)</sup> . وقد تكون هذه المعاهدة التي تضمنت صلحا مع المسيحيين علامة واضحة على ما أصاب الدولة من أعياء واجهاد اضطر سليمان الأول الى قبول الصلح مع النمسا ، وأن الخوف الذي سيطر على نفوس الأوربيين بدأ يقل من نفوسهم ، وعرفوا ايضا ان الجيش العثماني من الممكن صده والوقوف في طريقه <sup>(٣)</sup> .

وقد أعقب هذه المعاهدة عدة معاهدات وامتيازات منها أنه في عام ٩٤٢هـ الموافق لسنة ١٥٣٦م قامت الدولة العثمانية بعقد اتفاقا مع ملك فرنسا ، وقد خول هذا الاتفاق اعطاء بعض الامتيازات للفرنسيين بالأراضي العثمانية <sup>(٤)</sup> ، وهي تشبه المعاهدة التي منحت للبنادقة ، وهذه الاتفاقية كانت بمثابة الرمز المرني للصدقة بين الدولتين <sup>(٥)</sup> .

وقد خول هذا الاتفاق الطرفين حق التجول والاتجار والملاحة البحرية ، كما أجاز التبادل الاقتصادي دون ضرائب ، وأصبح للقنصل الفرنسي في

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٢١٩ .

، على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٦٨ .

(٢) محمد فريد بك : المصدر السابق . ص ٢١٩ .

(٣) محمد عبداللطيف البحرأوي : فتح العثمانيين عدن ، ص ٩١ .

(٤) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٢٢٣ .

(٥) V.J. Parry : A History of the Ottoman Empire to 1730.,p.86.

إسطنبول والاسكندرية حق التقاضي بموجب القوانين الفرنسية لرعاياهم دون تدخل الدولة ، ولا يحق للقضاة المسلمين الحكم على تجار ورعايا فرنسا الا في حضور الصدر الأعظم أو من يمثله ، كما أعفى من تبع الرعية الفرنسية من دفع الخراج والضرائب <sup>(١)</sup> ، واشترط ملك فرنسا بأن يكون للبابا وملك إنجلترا أخيه وحليفه الحق في الاستفادة أو الانتفاع من المعاهدة ، واجابه العثمانيون بالقبول <sup>(٢)</sup> مما أثار المشكلات فيما بعد ، وكانت هذه المعاهدة أول مسمار دق في نعش الدولة العثمانية <sup>(٣)</sup> . وهذا الاتفاق من أسباب تدخل فرنسا نفسها وباقي دول أوروبا في شئون الدولة العثمانية وخصوصا في عصرها الثاني <sup>(٤)</sup> تحت حماية الامتيازات للدفاع عن نصارى الدولة ، وخاصة في بلاد الشام <sup>(٥)</sup> .

والحقيقة كان هدف السلطان في ذلك الوقت من هذه الامتيازات هو دعم دولة فرنسا ثم الانجليز خلال نضالهما ضد بابا روما وهابسبورج النمسا . ويتجلى ذلك في عقد الحلف الذي تم بين ملك فرنسا والسلطان في مواجهة أسرة الهابسبورج على أن تبقى هذه المعاهدة سرية بين الطرفين حتى لا يتعرضا لسخط شعبيهما في وقت كان يسوده التعصب الديني . هذا الاتفاق جعل الدولة تتجه بفتحها نحو صقلية وأسبانيا بدل النمسا بالتعاون مع ملك فرنسا حسب المعاهدة السرية ، ولكنها لم تنفذ هجومها مع الدولة على ايطاليا حسب اتفاقهما

(١) على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٦٨-٦٩ .

، أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٩٥ .

(٢) محمد عبداللطيف البحر اوي : فتح العثمانيون عدن ، ص ٩٢ .

(٣) على حسون : المرجع السابق ، ص ٦٩ .

، محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٢٣٠ .

(٤) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٢٣٠ .

(٥) على حسون : المرجع السابق ، ص ٦٩ .



على الهجوم نظرا لسخط الرأي العام النصراني على ملك فرنسا لتحالفه مع المسلمين.

أما السلطان فإنه عاود الهجوم لفتح إيطاليا في سنة ٩٤٤هـ/١٥٣٨م بالاتفاق مع ملك فرنسا على أن يكون هجوم السلطان من الشرق وملك فرنسا من الغرب الذي تخلى عن مهمته ، وقد نجم عن ذلك فشل الدولة في فتح إيطاليا كما تحالف ملك فرنسا مع شارل كان على الدولة . وهكذا أخذ موقف ملك فرنسا يتذبذب ، وهذا ما جلب عليه الأعداء ، ثم نراه يعود فيطلب العفو من السلطان ويجدد المعاهدة فاستجاب السلطان لطلبه ، وبقي على هذا الموقف حتى توفى (١) . وهكذا اعتاد الفرنسيون التنصل من تعهداتهم وموآثيقهم والتزاماتهم كلما خفت حدة التوتر بينهم وبين الهابسبرج ، أو كلما توصلوا الى أهدافهم وأغراضهم المادية والسياسية (٢) . أما النمسا العدو التقليدي للدولة العثمانية في هذا الوقت فقد كثرت غاراتها على أملاك الدولة وخاصة على حلفائها المجر وفرنسا ، مما أثار العداء ونقض العهد ، حتى استؤنف القتال من جديد بسبب غارتهم على أملاك المجر التابعين للدولة (٣) . فاشتعلت نيران العثمانيين ، فمازالت تهدم قلاع النمسا وتسقطها حتى اضطر ملك النمسا والامبراطور شارل الخامس والبابا وملك فرنسا وحاكم جمهورية البندقية الى الدخول في مفاوضات مع السلطان لعقد هدنة لمدة خمس سنوات (٤) فعقدت هذه الهدنة في سنة ٩٥٤هـ الموافقة لسنة ١٥٤٧م على شرط أن يدفع ملك النمسا جزية قدرها ثلاثون ألف دوكة نظير ما بقي تحت

(١) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٩٤ ، ٦٩ .

(٢) محمد عبداللطيف البحرأوي : فتح العثمانيين عدن ، ص ٩٢ .

(٣) محمد فرد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٢٣٨ .

(٤) محمد عبداللطيف البحرأوي : المرجع السابق . ص ٩٣-٩٤ .

يده من بلاد المجر<sup>(١)</sup> . وأن تبقى بلاد المجر التي توفى واليها زابولي لابنه وتحت وصاية أمه ورعاية الدولة العثمانية<sup>(٢)</sup> ، وهذه هي أول معاهدة قضت على دولة النمسا بأداء الجزية السنوية لسلاطين آل عثمان<sup>(٣)</sup> . في الوقت الذي جاء فيه سفراء الهند يستغيثون بالسلطان سليمان الأول ضد البرتغال<sup>(٤)</sup> .

وبعد أن عقد السلطان الصلح مع دولة النمسا ، تفرغ لمواجهة الغزو البرتغالي والفرسي ، فكان الصفويون في ذلك العصر تحت قيادة طهماسب ابن اسماعيل الصفوي يثرون القلاقل في أوساط التركمان في الأناضول في الوقت الذي شهد فيه العراق الأوسط والجنوبي - بما في ذلك بغداد والبصرة محاولة لفرض المذهب الشيعي ، والتضييق فيه على أهل السنة ، وقد أثارت هذه الأعمال غضب السلطان سليمان الأول باعتباره زعيم العالم السني ، إضافة إلى استيلاء الدولة الصفوية على فارس والعراق . مما عرقل مرور التجارة بين الشرق الأقصى وأوروبا حين تحولت سيطرة البرتغاليين على البحار الشرقية إلى حصار عام لكل الطرق القديمة بين الشرق والغرب (٥) . وحولت التجارة عبر رأس الرجاء الصالح في محاولة من البرتغاليين لقتل الملاحه العربية في البحار العربية ، وحين سقطت دولة المماليك في يد الدولة العثمانية ، ورثت الدولة العثمانية عنها

(١) قد استمرت النمسا على دفع الجزية للدولة العلية حتى أبطلت في معاهدة كارلوفتس .

- محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص ٢٣٨ .

(٢) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٢٣٨-٢٣٩ .

. هيئة التحرير : سليمان الكبير ( مجلة الهلال ، ج ٢ ، س ١ ، ١٩٨٢ م ) . ص ٣٩ .

. V.J. Parry A History of the Ottoman Empire to 1730, p. 84 . .

(٣) مجلة الهلال : المرجع السابق ، ص ٣٩ .

(٤) محمد عبداللطيف البحراني : فتح العثمانيين عدن ، ص ٩٤ .

(٥) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٩١ .

V.J. Parry : Op.cit., p. 85. .

نفوذها في الحرمين ورعايتهما ، كما ورثت عنها سيادة النفوذ في البحر الأحمر وسواحله اضافة إلى مسئوليتها في محاربة البرتغاليين<sup>(١)</sup> في عصر الاستعمار الأوربي الحديث عندما وصل التهديد الصليبي ولأول مرة في التاريخ إلى جنوب العالم الإسلامي أو البحار الإسلامية<sup>(٢)</sup> ، وقد حاول القائد البرتغالي " البوكرك " دخول البحر الأحمر في سنة ٩١٩هـ / ١٥١٣م للاستيلاء على مكة المكرمة والمدينة المنورة كاجراء مقابل لوجود الأماكن المقدسة المسيحية في أيدي المسلمين في فلسطين ، وللقضاء على تجارة البحر الأحمر التي تركزت في جدة ، وقد فشلت هذه الحملة لجهل قائدها بالملاحة في البحر الأحمر<sup>(٣)</sup> ، لذلك اضطر العثمانيون إلى فتح الميدان الجنوبي لمواجهة الغزو البرتغالي المسيحي الذي بدأ يهدد البحار العربية وذلك لاقامة حزام أمن لحماية الأراضي المقدسة الإسلامية<sup>(٤)</sup> مكة والمدينة من التهديد البرتغالي .

ونتيجة لذلك وضعت الدولة لنفسها خطة لحماية الأماكن المقدسة فأرسل السلطان سليمان أسطولاً من السويس قد صنع لهذا الغرض بقيادة سليمان باشا لفتح عدن واليمن ، فعبر به البحر الأحمر واستطاع اغلاق وتأمين منافذه أمام التحدي البرتغالي ، ثم احتل عدن واتخذها قاعدة بحرية لمواجهة البرتغاليين في المحيط الهندي ، لكن البرتغاليين نجحوا في أخذ مضيق هرمز أهم قاعدة في الخليج العربي ، ومنه هددوا الخليج العربي وما حوله ، ولكن الدولة العثمانية استطاعت

(١) محمد شفيق غربال : منهاج مفصل لدروس في العوامل التاريخية ، ص ١٢٥ .

(٢) محمد عبداللطيف البحراني : فتح العثمانيين عدن ، ص ٩٢ .

(٣) عمر الفاروق السيدرجب : دراسات في جغرافية المملكة العربية السعودية . الطبعة الأولى ، جدة .

دار الشروق . ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م ) ص ٢١٥ حاشية (١) .

(٤) خلف دبلان الودينياني : الاحساء في القرن الثاني عشر الهجري . رسالة ماجستير مقدمة لجامعة أم

القرى ، ١٤٠٥هـ لم تنشر ، ص ١٤٩-١٥٠ .

محمد سعيد المسلم : ساحل الذهب الأسود ، ص ١٧١-١٧٢ .

صدهم عن التقدم الى الأمام نحو المقدسات الاسلامية عبر الخليج العربي اذ لا بد أن تؤمن الدولة ظهرها أثناء حروبها في أوروبا بعد أن لمحت التحالف الصفوي<sup>(١)</sup> البرتغالي لحرب الدولة العثمانية ، ولضمان حماية الأماكن المقدسة من التهديد البرتغالي<sup>(٢)</sup> ، وعلى أثر ذلك سار السلطان سليمان الأول في سنة ١٥٣٣م / ٩٤٠هـ من عاصمته نحو الشرق ، فاستطاع الاستيلاء في طريقه على المنطقة الواقعة بين أرض روم وبحيرة وان بهدف الاستيلاء على أذربيجان ، ثم زحف بقوة كبيرة على أواسط فارس<sup>(٣)</sup> .

أما الشاه طهماسب فقد تجنب المصادمة في بداية الأمر مع الدولة العثمانية ، لأن معركة جالديران التي خاضها والده لازالت عالقة في ذهنه وكانت أكبر درس له ، لهذا انسحب الى تبريز الواقعة في قلب أذربيجان وهي منطقة جبلية بعيدة جدا عن أقرب قاعدة عثمانية ، وان أي محاولة للحاق به هناك تكون ضربا من ضروب المخاطرة أو الجنون ، لهذا أصدر السلطان أمره بالتقهقر حتى يحين الوقت المناسب .

وقبل ذلك ركز السلطان سليمان في الاستيلاء على العراق . فسقطت في يده بغداد وباقي العراق دون مقاومة ، ثم ضم البصرة في عام ١٥٣٨م / ٩٤٥هـ وما لبث الحكم العثماني أن امتد الى الأحساء في سنة ١٥٥٥م / ٩٦٣هـ وهكذا استطاع سليمان الأول انقاذ المذهب السني من الخطر الشيعي وحفظ للعراق

---

(١) فقد سعت الدولة الصفوية في التحالف مع الدول الأوروبية وقد اتصلت تلك المحر والمالي . لاجل عقد حلف دفاعي هجومي ضد الدولة العثمانية .

- محمد عبداللطيف البحراري : فتح العثمانيون عدن . ص ١١٥ .

(٢) محمد عبداللطيف هريدي : الحروب العثمانية الفارسية . ص ١٣ .

(٣) V.J. Parry : History of the Ottoman Empire to 1730 , p. 85-86.

هويته الاسلامية السنية وتأكدت بذلك زعامة الدولة العثمانية على العالم الاسلامي<sup>(١)</sup> .

في الوقت الذي أحرزت فيه الحملة نتائج طيبة<sup>(٢)</sup> في مد نفوذها على العراق والبصرة كما مر بنا وانحسار نفوذ الدولة الصفوية من العراق ، وصد البرتغاليين من الشرق لحماية الأراضي المقدسة من أعداء الإسلام.

ورغم استيلاء السلطان سليمان على كردستان ومعظم أجزاء العراق ، إلا انه لم يوقع الهزيمة بالصفويين الذين احتفظوا بأذربيجان وبعض أجزاء من شرق العراق وجنوب القوقاز<sup>(٣)</sup> .

وبعد ذلك عاد السلطان سليمان الأول الى اسطنبول لتنظيم شئون دولته الداخلية والخارجية وللاحتياط للطوارئ المتمثلة في التحركات الأوربية على الدولة الاسلامية العثمانية . الا أن السلام مع النمسا لم يضع حدا للعداوات المحلية على حدود الدانوب والمناطق المجاورة ، ذلك أن المحاربين على حدود البوسنة وسمندريا كانوا من المجاهدين المسلمين يغزون دار الحرب لبعض المخالفات الحدودية الواقعة على المسلمين هناك من قبل الأعداء المجريين الذين يقطنون الحدود النمساوية المجرية والذين كانوا مندفعين للدفاع عن المسيحية فكانوا يتحرشون بالمسلمين ، ولم تستطع اسطنبول ولا النمسا ايقاف هذه الحرب للتعصب الديني بين الطرفين<sup>(٤)</sup> ، وان كنت أرجح بأن النمسا قد دفعت أتباعها لفعل هذه الأعمال وزودتهم بكل ما يحتاجون اليه لاضعاف شوكة الإسلام

(١) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٩١ .

(٢) V.J. Parry : History of the Ottoman Empire to 1730, p. 86 .

(٣) أحمد عبدالرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص ٩١ .

(٤) V.J. Parry : Op.cit ., p. 86 .

في تلك الديار .

وعندما توفي ملك النمسا فرديناند سنة ٩٧٢هـ / ١٥٦٤م خلف ابنه مكسمليان على عرش ملكه فاحتل مدينة توكاي من أعمال المجر ، وكان السلطان سليمان في هذا الوقت مريضا ، وكانت المجر تحت السيادة العثمانية منذ ملكها زابولي ، فوعد السلطان اسطفن بن زابولي ملكها آنذاك باعادة ما سلب منه ، فقصد قلعة أرلو من أعمال النمسا وبينما هو في الطريق اذ بلغه أن أمير اسكدوار أغار على فرقة من جيشه ، فوجه السلطان الغزو الى تلك المدينة وقام بحصارها ، فاحتلها بعد أسبوعين من الحصار ، وبالرغم من أن السلطان سليمان الأول توفي أثناء الحصار إلا أن قائد الجيش أخفى خبر وفاته وأرسل الى ابنه سليم الثاني في مدينة كوتاهية يخبره بما حدث ويستعجله الحضور لاستلام زمام الأمور خوفا من الفتن والقلاقل .

وبهذه المعركة كانت نهاية عصر السلطان سليمان الأول ، الذي كان يعتبر للدولة العثمانية عصر المجد وأقصى المد (١) .

وفي شمال أفريقية استطاع السلطان سليمان القانوني طرد الأسبان من طرابلس الغرب وصدّهم عن تعقب العرب بعد سقوط غرناطة كما هزم البابا وامبراطور المانيا ودوقيه البندقية في سنة ٩٤٥هـ الموافقة لسنة ١٥٣٨م في معركة بحرية بعد أن روعهم قبضانه ببروسا في سواحل البحر الأبيض (٢) ، كما نقل الجهاد الإسلامي إلى الغرب بدلا من البحر المتوسط وأواسطه مما مهد للدولة

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ، ص ٢٥١ .

(٢) محمد عبداللطيف البحر اوي : من خصائص تاريخ العثمانيين وحضارتهم ، ع ٤ ، ص ٣ ، ص

السيطرة على شمال أفريقيا باستثناء مراکش<sup>(١)</sup> ، أما تونس فإنها أصبحت قصب  
السبق بين الأسبان والعثمانيين حتى استقرت أخيرا في يد العثمانيين الذين قضوا  
على الأسبان والحفصيين معا . وأنقذ المغرب العربي من خطر الأسبان وأصبحت  
تونس ولاية عثمانية ، كما أصبحت من قبل بلاد الجزائر وطرابلس الغرب . وقد  
كان النزاع بين الأسبان والعثمانيين لا يتمثل في السواحل الأفريقية فقط بل كان  
يجري أيضا حول السيادة على البحر الأبيض المتوسط .

وقد تمكن الأسطول العثماني فرض السيادة على هذا البحر مما جعل  
الأساطيل النصرانية تتلافى ملاقاته الا مجتمعة ومتحدة ومتحالفة لاسيما بعد أن  
أصبح خير الدين بربرسا متوليا لقيادة الأسطول العام " قبودان باشا " <sup>(٢)</sup> ، وقد  
أصبحت أملاك السلطان سليمان الأول تمتد من بودابست على نهر الطونة الى  
أسوان بالقرب من شلالات النيل ومن نهر الفرات الى مسافة قريبة من مضيق  
جبل طارق <sup>(٣)</sup> .

وقد رفض السلطان سليمان الاعتراف بحق شارل الخامس بلقب امبراطور  
وانما أقر به ملكا فقط على أسبانيا ، وكان يشجع علنا أية قوى تقف في سبيل  
مطامع شارل الخامس في الحصول على الزعامة في أوروبا .  
صحيح أن انتصارات سليمان القانوني قد أعطت للعثمانيين أبعاد ما يمكن  
من الحدود الصالحة والفتح العظيم . فالحرب بين العثمانيين والفرس سعى بها

---

(١) أحمد السعيد سليمان : تاريخ الدول الاسلامية ومعجم الأسر الحاكمة . ( القاهرة : الناشر دار  
المعارف ، ١٩٧٢ م ) ص ٤٤٣-٤٤٤ .

أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٩٢ .

(٢) محمد العروسي المطوي : الحروب الصليبية في المشرق والمغرب ، ص ٢٧١-٢٧٤ .

(٣) أحمد السعيد سليمان : المرجع السابق . ص ٤٤٤ .

العثمانيون لضم جورجيا وأرمينيا الفارسية وأذربيجان<sup>(١)</sup> لتقليص النفوذ الشيعي في المنطقة والذي أصبح خطرا كبيرا يهدد الدولة العثمانية السنية كما أن حروب الدولة العثمانية مع الفرس قد كبدها نفقات كبيرة وكان من نتائج ذلك توقف حركة الفتح الاسلامي نحو الغرب ، كما أنه في الوقت نفسه كان من العوامل الأساسية في ضعف الدولة أمام فينا لأن الدولة كانت تقاتل في جبهتين احدهما في أوروبا والأخرى في فارس اضافة الى مقاومة البرتغاليين في البحر الأحمر والمحيط الهندي والخليج العربي لتحركات الأساطيل العثمانية هناك .

---

(١) V.J. Parry : A History of the Ottoman Empire to 1730, p. 94 .



ب - الخلل في : السلاطين والعلماء والانكشارية ، والتوقف والركود :

من تتبع الأحداث السابقة يشاهد أن العثمانيين شيّدوا دولتهم على أسس إسلامية اتصفت بالقوة والتعاون والنظم الراقية ، فتمكنت بتوفيق من الله من قهر أعدائها ، فكان ظهور الدولة على مسرح التاريخ أشبه بمعجزة حيث نمت بسرعة فائقة ، فضمت إليها بلدان واسعة في ثلاث قارات هي آسيا وأوروبا وأفريقيا (١) .  
وبما أن الأحكام الأساسية لكل دولة يمكن أن تنقسم إلى قسمين رئيسيين هما : احقاق الحق للعباد باجراء العدل في داخل البلاد ، وحماية الحدود من تعرض الأجنبي ، فإن رفعة شأن كل دولة وبلوغها إلى أقصى درجات المنعة والعظمة وحصولها على أرفع مراتب القوة والاجلال إنما يكون على قدر سعيها وإقدامها في هذين القسمين . وقد كانت الدولة العثمانية في الأصل مهمة غاية الاهتمام بايفاء هذين القسمين المذكورين .

فكان سلاطين آل عثمان يعتنون كل الاعتناء ، ويهتمون بالمصالح المتعلقة بأمور الدين والدولة ، ويحضرون بأنفسهم في الديوان . وكان أمراء الولايات لا يتم تعيينهم في الولايات إلا بعد تعيينهم مدة من الزمن في إمارة السناجق حتى يكون الواحد منهم عارفا مدربا على أمور الإدارة وكذلك أمراء السناجق لا يتم تعيينهم إلا بعد التأكد من ولائهم للدولة ومعرفتهم بأمور الدين وانحسار أنظارهم فيما فيه عمران البلاد ورفاهية العباد أيام السلم ، فاذا وقعت الحرب ساروا إليها بجنود منظمة وأسلحة تامة (٢) .

فتقدمت الفتوحات في عصر السلطان سليمان الأول ( القانوني ) ، وبلغت

(١) محمد عبداللطيف البحراري : فتح العثمانيين عدن ، ص ٨٤ .

(٢) أحمد جودت باشا : تاريخ جودت ، ج ١ ، ص ٩٧ .

أوج مجدها ، وأخذت بعده في التوقف تارة والتقهقر تارة أخرى<sup>(١)</sup> ، ولعل السر في ذلك أن الدولة لم تجد فسحة زمنية لدراسة هذه الفرعيات من هذه الأصول وتفهمها<sup>(٢)</sup> .

قيل في المثل " الورد يلزمه الشوك ، والدفينة تأوى إليها الأفاعي " ، فقد كانت الثروة التي جمعت بسبب الفتوحات العديدة والغنائم الكثيرة داعية إلى الشهوات والوقوع في الأخطاء التي أفسدت نظام الدولة ، وتساهل السلاطين بالحفاظ عليها<sup>(٣)</sup> ، وكل أمة سادت فيها المفاخرة في المصرف والتعالي في الزهو والترف ، لا بد لها من التأخر<sup>(٤)</sup> .

لهذا مرت الدولة العثمانية بعصرين متميزين : أولهما مانسميه بعصر عظمة الدولة ، أو بمعنى آخر عصر السلاطين العشرة الأوائل والأقوياء ، أو عصر قوة الدولة وعصر استقرار النظام فيها ، وقد تشكل هذا وترتب على صلاح العناصر الثلاثة التي ارتكزت عليها الدولة في عصرها الأول وهي السلطان والشيخ ، والجندي . فالدولة قوية ما لم يتسرب الخلل إلى السلاطين أو إلى هيئة كبار العلماء ، أو إلى القوى المحاربة في الدولة وهم الانكشارية<sup>(٥)</sup> .

وكان العثمانيون قد استلهموا أن الفتح يستلزم عناصر أربعة أيضا هي الرجال والمال والممتلكات ثم القوانين فنقص أحداها يسبب ضياعها جميعا ويؤدي

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٢٥٢ .

(٢) محمد عبداللطيف البحراوي : فتح العثمانيين عدن ، ص ٨٤ .

(٣) أحمد جودت باشا : تاريخ جودت ، ج ١ ، ص ٤٧ .

(٤) محمد فرد بك : المصدر السابق ، ص ٢٥٢ .

(٥) خلف دبلان الوديناني : الاحساء في القرن الثاني عشر الهجري ، ( رسالة ماجستير ، نوقشت

بجامعة أم القرى عام ١٤٠٥ هـ ، لم تطبع ) ، ص ٦١ .

الى انهيار الدولة بأسرها (١) .

وثانيهما : فقد كان الأمراء من أبناء السلاطين في العصر الأول يقودون الجيوش فيصبحون الانكشارية في ميدان القتال ، أو لادارة حكم احدى الولايات فاذا وصلوا الى عرش السلطنة كان باستطاعتهم قيادة الجيوش وادارة الحكومة ادارة حازمة فيقومون بتطبيق ماتعلموه من علوم على حياتهم العملية (٢) ، وكان الانكشاريون لا يخرجون الى الحرب الا اذا كان السلطان أو أحد أبنائه معهم. ولذا كانت أهم الحروب والغزوات تحت أمره السلطان وقيادته أو قيادة أحد أبنائه ، لأنه ان لم يخرج بنفسه أو ينيب عنه ابنه فان الانكشارية التي هي الدعامة الأولى في الحرب لا تتحرك من ثكناتها للحرب (٣) .

ولذلك نلاحظ أن الخلل تسرب الى الدولة من خلال عناصرها الأساسية وذلك عندما أتى بعد السلاطين الأقوياء سلاطين ضعفاء كانت أوضاع صفاتهم الخجل وعدم الكفاءة ، فأسندوا السلطة الى الصدور العظام والوزراء (٤) . وقد ظهر ذلك جليا عندما غير السلطان سليمان الأول هذه السنة الحميدة وأجاز للانكشارية القتال تحت إمرة قائدهم الأكبر ولو لم يكن السلطان موجودا فكان هذا التغيير سببا في تقاعس أغلب من جاء خلفه من السلاطين عن الخروج من قصورهم وتفضيلهم البقاء بين غلمانهم وجواريتهم على مختلف الأجناس على الخروج للقتال وتكبد المشاق (٥) .

(١) محمد عبداللطيف البحراري : فتح العثمانيين عدن ، ص ٨٤ .

(٢) محمد عبداللطيف البحراري : حركة الاصلاح العثماني ، ص ٤٠ .

(٣) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٢٥٢ .

(٤) محمد عبداللطيف البحراري : المرجع السابق ، ص ٤٠ .

(٥) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٢٥٢ .

اضافة الى ذلك عندما بلغت قوة الدولة درجة الكمال في عصر السلطان سليمان ، احتجب السلاطين عن الناس وتركوا الحضور الى الديوان مع أنه قبل ذلك كان السلطان يحضر الى الديوان ، ويلقى السمع الى الأمور من وراء حجاب ، وكان منصب الصدارة لا يوجه الا لمن تثبت لياقته وأهليته بين الوزراء ، واستعمل في السنجق ، ثم في امارة الولايات ثم في امارة أمراء الأناضول ثم في امارة أمراء الروم ايلي ، وجرب أحوال العالم ، لا يأخذ هدية ولا رشوة على توجيه المناصب ، بل كان الاستحقاق ساندا والأهلية معمولا بها (١) .

لكن السلطان سليمان الأول خالف أسلافه حينما عين لمقام الصدارة رأسا ابراهيم أغا بعد أن أصبح الوكلاء بمثابة آلات في يده والا لم يكن نصب ابراهيم أغا الذي تربى تحت أنظاره مضرا بالدولة في زمانه ، إلا أن هذا العمل كان مثالا سيئا احتذى من بعده ، حيث أخذ خلفاؤه سلاطين عصر الدولة الثاني هذا العمل سنة وساروا عليه ، حيث أخذوا يعينون في مناصب الوزراء من يرغبون فيه بالرغم من أن بعضهم كان من الشباب غير المجرب لأموار الحياة ، ولعدم معرفتهم بادارة هذه المناصب السلطانية فانهم كانوا يصدرن أحكامهم عن عدم خبرة أو معرفة بل حسبما يرونه ومن غير أن يقوموا باستشارة أهل العلم والمعرفة ، وغير مراعين في ذلك للأحكام القانونية . فاختلفت أنظمة الدولة وتبدلت قوتها ضعفا .

ومعروف أن اسناد الأمور لمثل هؤلاء مخالف للقاعدة الكلية المبنية على منطق الآية الكريمة ﴿ ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها ، واذا حكمتكم بين الناس أن تحكموا بالعدل ﴾ (٢) .

(١) أحمد جودت باشا : تاريخ جودت ، ج ٢ ، ص ١٠٣ .

(٢) سورة النساء آية (٥٨) .

ومن جملة ما لوحظ أيضا على سلاطين هذه الفترة أن السلطان سليم الثاني الذي خلف والده السلطان سليمان الأول ما كاد يجلس على كرسي السلطنة حتى ولي أحد أغوات الانكشارية قائدا للبحرية ، وحيث أن هذا الرجل كان يجهل أمر البحر فقد كان سببا في حرق الأسطول الهمايوني في مرسى ( ليبانتو )<sup>(١)</sup> .

وبما أن الموضوع هو خلل السلاطين ، اذ لايهمنا استعراض أعمالهم السياسية ، بقدر ما يهمنا استعراض أسباب ذلك الخلل ، فانه اضافة الى ما سبق ، فقد كانت الفترة الواقعة بين وفاة السلطان سليمان الأول ( القانوني ) في سنة ٩٧٤هـ / ١٥٦٦م حتى تولية السلطان سليم الثالث في سنة ١٢٠٤هـ / ١٧٨٧م وهي ما يقارب مائتين وثلاثون سنة حكم الدولة خلالها سبعة عشر سلطانا كان منهم ثلاثة سلاطين<sup>(٢)</sup> على درجة عالية من الكفاءة أما السلاطين الآخرون فقد كانوا يتصفون بالضعف . كما أنهم كانوا لا يمارسون الحكم الا بواسطة وزراء كانوا مثالا للفساد والانهيار .

وكان بعضهم قد وصل الى الحكم وهم صبية صغار مثل السلطان أحمد الأول ، والسلطان عثمان الثاني ، فانهما وصلا الى السلطة في سن الرابعة عشرة فكان مصير السلطان عثمان الثاني القتل ، كما تولى محمد الرابع بعد وفاة والده في السنة السادسة من عمره<sup>(٣)</sup> . ومن السلاطين من كان معتوها ، مثل مصطفى

---

(١) أحمد جودت باشا : تاريخ جودت ، ج ٣ ، ص ١٠٣ .

(٢) محمد الثالث (١٥٩١-١٦٠٣) ، و محمد الرابع (١٦٢٣-١٦٤٠) مصطفى الثالث

(١٧٥٦-١٧٧٣) .

عبدالعزیز نوار : تاريخ الشعوب الاسلامية ، ص ١٥٣ .

(٣) عبدالعزیز نوار : المرجع السابق ، ص ١٥٣ .

خلف دبلان الودينياني : الاحساء في القرن الثاني عشر الهجري ، ص ٦٢ .

الأول ، وكم سلطان عزل عن منصبه بمهانة وتحقير ، كما كان عدد من السلاطين قبل أن يتولوا العرش مجرد سجناء في ظلمات سوداء انعكست هذه الفترة المظلمة على سلوكهم خلال حكمهم للدولة ، فمنهم من كان شديد الإسراف في المظاهر و المظالم والقتل ، ومنهم من شغل بالقنص والنساء والشراب وسطى على مالية الدولة وأخذ الرشوة وباع المناصب <sup>(١)</sup> ، والحق انه قد ظهر في نهاية عصر السلطان سليمان الأول (القانوني) إبقاء الأمراء بجانب الحريم بدلا من قيامهم بإدارة حكم الأقاليم وقيادة الجيوش وتمرينهم على الحروب <sup>(٢)</sup> ، وبالرغم من أن السلطان سليم الثاني كان يتدخل من وقت لآخر في إدارة شئون الدولة ومحاوله ضبط الأمور ، إلا أنه قضى جل سنوات عمره بجانب نساء القصر ، تاركاً حكم البلاد في يد الصدر الأعظم محمد صوقللي <sup>(٣)</sup> . وكانت النتيجة هي أنه " بدأت سلطة الحريم " ، كما ذكرت من قبل ، والتي برزت بشكل واضح في هذا العصر ، عصر الخلل في الدولة العثمانية وضعف السلاطين ، وذلك بعد أن تخلى السلطان عن تدريب أبنائه على الحروب وإدارة الولايات ، فركز الأمراء الى حياة الترف والنعيم وقضاء حياتهم بين حريم القصر دون أن يكتسبوا علماً أو خبرة تفيدهم عند توليهم سلطنة البلاد <sup>(٤)</sup> .

وهذا يعني أن الأمراء من أبناء السلاطين قد ركنوا الى الدعة حتى اذا وصلوا الى عرش السلطنة فانهم ليسوا على مستوى عرش الخلافة <sup>(٥)</sup> وكان لنساء

(١) عبدالعزيز بوار : تاريخ الشعوب الاسلامية . ص ١٥٣-١٥٤ .

(٢) محمد عبداللطيف البحراري : فتح العثمانيين عدن . ص ٩٤-٩٥ .

(٣) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني . ص ١٤٨ .

(٤) أحمد عبدالرحيم مصطفى : المرجع السابق . ص ١٤٨ .

(٥) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية . ص ٢٧٠ .

محمد عبداللطيف البحراري : حركة الإصلاح العثماني . ص ٨٠ .

البلاط تأثير قوي على السلاطين وخاصة السلطانة الوالدة<sup>(١)</sup> وهؤلاء الحريم كن في عهد السلاطين الأول في شبه عزلة عن بقية الخاصة السلطانية ، وكن قليلات التأثير على تسيير أمور الدولة<sup>(٢)</sup> .

ولكن منذ عهد السلطان سليمان الأول بدأ تأثير الحريم على السلطان وسياسته اذ وقع تحت تأثير زوجته خرم سلطان المعروفة باسم ( روكسلانا ) التي تدخلت للتآمر ضد ابنه الأكبر الأمير مصطفى من زوجة أخرى ، وعلى أثر هذا التآمر قتل الأمير لتضمن لابنها سليم الثاني العرش بعد وفاة والده<sup>(٣)</sup> .

ولكن عندما بدأ الضعف يدب في جسم الدولة أصبح تدخلهن واضحاً ، وكان ذلك يعد من أهم الأسباب في فساد نظام الدولة وانحلالها . فالسلطان مراد الثالث ( ٩٨٢-١٠٠٤ هـ / ١٥٧٤-١٥٩٥ م ) وقع تحت تأثير حاشيته وندمائه وخضع لسيطرة والدته وزوجاته وكبيرة وصيفات القصر ، وأخذ هؤلاء النسوة في التدخل في شئون الدولة العامة لتحقيق مصالحهن الخاصة ، وعملن على اجبار رجال الدولة بما فيهم الصدر الأعظم على تنفيذ رغباتهن ، وكن يدبرن المؤامرات ضد من يرفض تنفيذ رغباتهن<sup>(٤)</sup> .

وهذا على سبيل المثال لا الحصر ، بل أكثر النماذج أو الأمثلة الواردة أصبحت أحداثاً متكررة تحدث طوال فترة ضعف الدولة العثمانية سواء ماسبق منها أو مالحق على شاكلة ذلك ، وخاصةً حينما تولى المناصب العليا وزراء جهلة

(١) عبدالعزيز نوار : تاريخ الشعوب الاسلامية ، ص ١٥٤ .

(٢) أميرة المداح : العثمانيون والامام القاسم بن محمد بن علي في اليمن . (الطبعة الأولى ، جدة ، مطبوعات تهامة ، ١٤٠٢ هـ) ص ١٥٠ .

(٣) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ١٠٢ .

(٤) أميرة المداح : المرجع السابق ، ص ١٥٠ .

لا يعرفون شيئا عن أحوال سياسة الدولة ، وليست لهم تجربة سابقة بأمور الإدارة في الدولة ولا يهتمون بشيء من الإصلاح ، وكان بعضهم ينتمون أصلا الى عناصر أجنبية لا يهتمهم مصلحة الدولة .

كما كانت قصور السلاطين والوزراء وكبار رجال الدولة مملوءة بالأجنيبات من الجوارى والسبايا الحسان ، وكان بعضهن عيوننا لدولهن لكشف مواقع الضعف في الدولة العثمانية لدولهن<sup>(١)</sup> ، وأهمل بعض السلاطين عقد الديوان الذي اقتصر على المراسيم والأعمال المظهرية ، وفسد القضاء وأصبحت الأمور تسير فيه بالرشوة لا كما كان بالعدل في عصر سلاطين الدولة العثمانية الأول<sup>(٢)</sup> .

ونتيجة لذلك تسرب الخلل والفساد الى طبقة العلماء الذين كانوا يأتون في المرتبة الثانية في الدولة بعد السلطان ، فقد كانت السلطة القضائية في يدهم . فالكتاب والسنة هما مصدر التشريع ، فاذا قال العلماء في قضية هذا أمر الله قال الكل السمع والطاعة فلا يخالفه أحد<sup>(٣)</sup> .

لهذا كان من حق كل عثماني الانتظام في هيئة العلماء والقيام بتدريس الطلاب في مدارس ملحقة بمساجد المدن الهامة معروفة باسم ( صوفت ) حيث يدرس فيها الطلاب اللغة العربية والفلسفة والفلك وعلوم الدين ، ثم يعقد لهم امتحان يختار فيه المتقدمون للاستمرار في الدراسة لاعدادهم لمناصب القضاء ، أما البقية الباقية فيلحقون أنمة للمساجد . فيخضع المختارون لبرنامج دراسي مطول ، ويخضعون كذلك لامتحانات متتالية حتى يصل كل منهم الى درجة ملازم ، وهي

(١) محمد كمال جمعة : انتشار دعوة الشيخ محمد عبد الوهاب ( الربيع ) مطبوعات دار الملك

عبد العزيز . ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م ) ص ١٢ .

(٢) عبدالعزيز نوار : تاريخ الشعوب الاسلامية . ص ١٥٤ .

(٣) أحمد جودت باشا : تاريخ جودت . ج ١ . ص ١٢٤ .



أول رتبة في سلك القضاء ، ومن هؤلاء الملازمين يختار القضاة ونوابهم ، أما من يريد رتبة مدرس فعليه أن يواصل دراسته التي تصل مدتها الى سبع سنوات فوق دراسته العادية ، ومن شروطها أن يجتاز الدارس امتحانا صعبا باشراف مفتي الدولة نفسه ، ومن هؤلاء يتم اختيار من يشغلون مراكز القضاء العليا بعد التأكد من اتقانهم لعلوم الشريعة الاسلامية (١) .

و حين اختل نظام العلماء اختلت معه الطرق العلمية للتدريس وبالتالي اختل النظام الأساسي لاختيار الملازمين والقضاة ، فدخل في هذه المهنة أشخاص غير مؤهلين لوظائف الملازمة والقضاء (٢) بعد أن كان العلماء الحقيقيون يصلون الى مراكزهم بعد اجتياز عدة مراحل من التعليم والامتحانات فتسرب الخلل الى هذه الهيئة لأن هذا العصر عصر الخلل ، فكان أولاد العلماء يعفون من الدراسة المنتظمة ، ويمنحون الاجازات العلمية دون أن يعقد لهم الامتحان وهم في بيوت آبائهم ، اضافة الى بعض المناصب العلمية التي كانت تمنح لهم كإنعام ، فقد وصل كثير من ذلك الصنف الى قمة هيئة العلماء دون مشقة أو عناء (٣) .

ومن مظاهر ذلك الاختلال في طبقة العلماء أنه أصبح القضاة يبيعون أوراق الملازمة لمن يريدون فيصبحون ملازمين بواسطة الدراهم والدنانير ، وفي مدة قصيرة يصل هؤلاء الى وظائف القضاة والمدرسين ، ونتيجة لذلك امتلأت المدارس بالجهلة (٤) .

(١) أحمد جودت باشا : تاريخ جودت ، ج ١ ، ص ١٢٨-١٢٩ .

محمد عبداللطيف البحرأوي : حركة الاصلاح العثماني ، ص ٤١ .

(٢) أحمد جودت باشا : المصدر السابق ، ص ١٢٥ .

(٣) محمد عبداللطيف البحرأوي : المرجع السابق ، ص ٨٠ .

أحمد جودت باشا : المصدر السابق ، ص ١٢٥ .

(٤) أحمد جودت باشا : المصدر السابق .

ولعل هذا هو السر في وجود مجموعة ضمن هيئة العلماء في ذلك العصر تتصف بالجهل للاسلام وأحكامه<sup>(١)</sup> وذلك بعد أن أهمل أمر التقدم والامتياز في العلم والاستحقاق والأهلية في العمل ، واعتبر أمر الأقدم فالأقدم قاعدة استثنائية تعرف باصطلاح المدرسين ( بالظفرة ) ، وهي أن المتسبين الى ذوي الشرف والمتدربين بواسطة ذوي الشفاعة من المقربين كانوا يتقدمون على كثير من القدامى ، وهذه القاعدة أيضا أخذ بها في تعيين رتبة الصدور والموالي<sup>(٢)</sup> .

وهنا نورد للقارئ تقريراً لبيان ما آلت اليه هذه الهيئة من فساد . وقد كتب هذا التقرير عبداً لله أفندي الحائز على رتبة قاض روم ايلي في نظام الدولة حيث قال مانصه : " ان كثيرا من الذين أدخلوا في سلك التدريس نالوا المولوية ، ثم ترقوا الى رتبة قاضي عسكر الرفيعة من دون استحقاق ولا قابلية ولا أهلية ولا فائدة تحصل منهم للدولة ، ومع ذلك فانهم يرون ذلك قليلا عما يستحقونه ، ثم انهم يتفاخرون ببلوغهم الى رتبة قاضي عسكر فيظهرون الجبروتية ويتكبرون ويصرفون أوقاتهم في ذكر مساوي بعضهم والقييل والقلالات في حق بعضهم الآخر ، فلاشغل لهم الا هذا ، حيث أن هؤلاء بلغوا الى هذه الرتب السنية ، فأصبحت المحافظة على مقامها واعتبارها من واجبات السلطنة السنية ، ولاشك أن ادارة هؤلاء حمل ثقل على الدولة بلا فائدة ... " <sup>(٣)</sup> . ومن هنا النص يتضح لنا مدى ذلك الجهل المطبق المنتشر بين هذه الفئة التي فرضت على المجتمع العثماني وما ينشأ عنها من قرارات وأحكام وفتاوى .

هذه الأمور أدت الى فساد وخلل كلي للبلاد والملة<sup>(٤)</sup> .

(١) محمد عبداللطيف البحراري : حركة الاصلاح العثماني ، ص ٨٠ .

(٢) أحمد جودت باشا : تاريخ جودت ، ج ١ ، ص ١٢٥ .

(٣) أحمد جودت باشا : المصدر السابق ، ص ١٢٦-١٢٧ .

(٤) أحمد جودت باشا : المصدر السابق ، ص ١٢٧ .

أما الانكشارية ، فكما تسرب الخلل الى السلاطين ثم العلماء ، فقد لحق هذا الخلل أيضا بالانكشارية ، الذين أقاموا مجد الدولة ، فكان يقيم هؤلاء في الثكنات منذ عهد السلطان أورخان ابن عثمان ، يواظبون على تعلم الفنون الحربية ومتى سار السلطان ساروا معه ، فتسير كل فرقة بلوازمها في مزيد من الرغبة والطاعة والانقياد لضباطهم فكانوا أثناء اقامتهم في الثكن لا تجول أفكارهم الا في كيفية الهجوم وانتظارهم نداء الجهاد في سبيل الله اما النصر واما الشهادة ، لانهم تربوا منذ الصغر على بذل النفوس متعطشين الى الجهاد غير مبالين بالوقوع في المهالك والمخاطر ، بل كانوا يتلقون العدو بصدورهم وقوة ثباتهم ، فكان الظفر والغلبة متلازمين لهم . فاذا عجزوا عن الحرب ، تعطف عليهم الدولة وتمنحهم معاش المتقاعدين وحينئذ يتزوج هؤلاء المتقاعدون (١) .

ويعني ذلك أن هذا العجز إما لكبر سن الانكشاري أو اصابته اصابة بالغة في الحروب ، وبالتالي لا يكون لانقا للخدمة العسكرية ، الا انهم كانوا يغذون الانكشارية بابنائهم أيضا ، فكانت الممالك في ذلك الوقت محفوظة ومحروسة من الظلم والاعتداء ، والثغور الاسلامية وحدودها منيعة لا يتجاوزها الأعداء ، فكان الشعب العثماني في ذلك راتعا في بجوحة الراحة والأمن في الحرب والسلام ، فأخذت الممالك في العمران يوما بعد يوم ، فأتسع نطاق الدولة وزادت قواها ، وخاصة في عصر السلطان سليمان الأول ( القانوني ) .

وكما أخذ الكمال يتدرج في أيام السلطان سليمان المشار اليه ، كذلك أخذ الانحطاط يتكون في الوقت نفسه ، غير أنه لم يشعر بهذا الانحطاط أحد ، لأن الدولة كانت آنذاك في أزهى قوتها ، فأخذت الدولة في تطبيق القوانين على ما استحسنته عقول رجالهم ، وبهذه الأسباب ظهر الاختلال في نظام القوانين شيئا

(١) أحمد جودت باشا : تاريخ جودت . ج ١ . ص ٩٧ .

فشيئا ، وبعد فترة ظهرت آثاره السيئة <sup>(١)</sup> .

هذه القوانين التي أصدرها سليمان القانوني وطبقها وهي اجازة السلطان للانكشارية القتال تحت إمرة قائدهم الأكبر ولو لم يكن السلطان موجودا . ولقد أعطى هذا النظام تقاعس أغلب من خلف السلطان سليمان من الخروج من قصورهم ، حيث فضلوا البقاء مع الغلمان والجواري <sup>(٢)</sup> .

ومعنى ذلك أن الانكشارية هي أساس قوة الدولة كما ينطق به تاريخ الدولة نفسه ، وسبب عظمتها ، ثم صار سبب توقفها ونكستها وضعفها قعود السلاطين في السراي عن الجهاد كما أشرنا الى ذلك سابقا ، مما أدى الى ضعف الروح العسكرية والقتالية والنظام في الجيش الانكشاري الذي كان رمز قوة الدولة <sup>(٣)</sup> .

لذلك كان هؤلاء الانكشاريون أخطر العناصر التي تسرب اليها الخلل حينما قاموا بحركات عصيانية ، وتوالت هزائمهم في كافة ميادين الدولة ، وأصبحوا مصدر اضطراب وفوضى في العاصمة <sup>(٤)</sup> .

والحقيقة أن نظام الانكشارية تعرض نتيجة لذلك للتصدع منذ عهد السلطان مراد الثالث حين سمح في سنة ١٥٨٢/٩٩٠م بدخول عدد كبير من المجندين غير المدربين في صفوفهم بالرغم من معارضة أغا الانكشارية ، ويعتقد أن مراد كان راغبا في افساد تنظيم الانكشارية بعد أن لاحظ مدى خطرهم على الدولة لقوة نفوذهم <sup>(٥)</sup> .

(١) أحمد جودت باشا : تاريخ جودت ، ج ١ ، ص ١٠٢ .

(٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٢٥٢ .

(٣) محمد عبداللطيف البحر اوي : حركة الاصلاح العثماني ، ص ٨٢ .

(٤) علاء موسى ، كاظم نورس : مسنولية الانكشارية في تدهور الدولة العثمانية ، ( المحلة التاريخية

المغربية ، السنة التاسعة ، العدد ٢٥-٢٦ ) ١٩٨٢ ، ص ١٠٤ .

(٥) خلف دبلان الودينياني : الاحساء في القرن الثاني عشر الهجري ، ص ٨٣ .

وهناك رواية أخرى فحواها أن السلطان مراد الثالث عندما احتفل بختان ابنه محمد ، تراحت الاقدام لحضور هذا الختان حتى مات منهم خلق كثيرون دهسا تحت الأرجل بسبب كثرة الحضور ، فأسهم بعض الأجلاف في حفظ النظام ، فألح عليه أقرباؤه وندماؤه بادخال هؤلاء الأجلاف ضمن صفوف الانكشارية كنوع من رد الجميل أو التشريف أو مكافأة لهم لهذا العمل<sup>(١)</sup> ، بعد أن كانت الانكشارية منذ نشأتهم سنة ٧٣٠هـ/١٣٢٩م الى زمن السلطان مراد الثالث ٩٨٢-١٠٠٥هـ/١٥٧٤-١٥٩٠م لايسمح بالانتظام في سلكها الا للغلمان الأعاجم فصار بعد ذلك عادة جارية يقبلون الاخلاط ، ولو كان طالب الانضمام الى الانكشارية تاجرا او صانعا أو غيرهما ، مما اعتبر نوعا من المفاخرة ، فال ذلك الى فساد هذا النظام خاصة بعد أن انتظم فيه الكثير بالهدايا والرشوة<sup>(٢)</sup> مما زودها بعناصر فاسدة ، وذلك عندما سمح للانكشارية بالزواج والاقامة خارج ثكناتهم فأصبحوا لا يهتمون بتدريباتهم وواجباتهم العسكرية ، وبهذا فقدوا قدرتهم وفتياتهم العسكرية وقدراتهم القتالية ، فانشغلوا بحركات العصيان والعنف كبديل لهذه الخدمة الشريفة التي حل محلها الشقاق والنفاق والمجاملات والمنفعة وهي الأهم ، فأصبح لا يأتي الانكشاري الى ثكنته الا لأخذ مرتبه أو الاشتراك في حركة عصيان ضد الدولة<sup>(٣)</sup> .

وقد نتج عن زيادة الانكشارية زيادة في العبء المالي والاجهاد على خزانة

(١) أحمد جودت باشا : تاريخ جودت . ج ١ . ص ١٠٤-١٠٥ .

- هيئة التحرير : تاريخ الجند العثماني ( مجلة الهلال ج ٨ . ١٩٠٨ ) . ص ٤٦١ .

(٢) هيئة التحرير : تاريخ الجند العثماني . المرجع السابق . ص ٤٦١ .

(٣) محمد عبداللطيف البحر اوي : حركة الاصلاح العثماني . ص ٨٣ .

اربولدتويي : تاريخ البشرية . نقله الى العربية نقولا زيادة ( بيروت ، الأهلية للنشر والتوزيع .

١٩٨٢ م . ج ٢ ) . ص ١٣٥ .

أو صندوق الدولة كثيرا ، مما أوجد بالتالي العجز المالي أو الاقتصادي لرواتب الجنود الانكشاري (١) حيث لجأت الدولة الى خفض العملة عدة مرات لكي تواجه تلافيا هذه الأزمة المالية من أجل دفع رواتب الجيش التي زادت أعداده بشكل ملفت للنظر للأسباب المشار إليها أعلاه .

وهذه الأزمة أدت الى نشوب ثورات في العاصمة قام بها الانكشارية أولا ، ثم تلى ذلك بسنوات قليلة أن انتقلت الثورات الى فرق الخيالة (٢) وزاد هذا العجز أيضا فوضى واضطرابات الانكشارية ، ففي عصر السلطان مصطفى الثاني (١١٠٧-١١١٥هـ/١٦٩٥-١٧٠٣م) تعددت ثوراتهم من أجل مرتباتهم (٣) . عندها أصبح نظام الانكشارية نظاما للارتزاق ، حتى صار لكل ضابط أو جندي تذكرة يحصل بمقتضاها على رواتب (علوفة) نقدية أو عينية ، ولما ضعفت الدولة وقصرت في دفع رواتبهم تولى هؤلاء تحصيل حقوقهم بالقوة ، أو بيع تذاكرهم لمن يدفع قيمتها ، والشاري يصبح صاحب التذكرة وبالتالي يصبح انكشاريا ، حتى وجد في قوائم أسماء الانكشارية آلاف من أصحاب الحرف والسيدات بسبب ذلك (٤) .

وهكذا بُدِرت بذور الفساد ، ودخل الانكشارية عناصر لا يعرف أصلهم

- 
- (١) عبدالعزيز الشناوي : في مطلع العصور الحديثة . ج ١ . ص ٧٥٥ .  
اميرة المداح : العثمانيون والامام القاسم . ص ١٤٤ .  
(٢) علاء موسى كاظم نورس : مسنولية الانكشارية في تدهور الدولة العثمانية . ( المحلة التاريخية المغربية . السنة التاسعة . العدد ٢٥ ، ٢٦ . ١٩٨٢ م ) . ص ١٠٤ .  
(٣) محمد عبداللطيف البحر اوي : حركة الاصلاح العثماني . ص ٨٤ .  
(٤) عبدالعزيز نوار : تاريخ الشعوب الاسلامية . ص ١٥٦ .  
علاء كاظم نورس . مسنولية الانكشارية في تدهور الدولة العثمانية . المرجع السابق . ص

ولا منشأهم ، فكانوا بذلك علة خراب ، فتزايدت أسماء الانكشارية يوما بعد يوم، ولكن الأشخاص الذين يعول عليهم في الحرب تناقصوا وحل محلهم هؤلاء الصعاليك<sup>(١)</sup> ، فكان هؤلاء الرجال حين يطلبون التسجيل رسميا يجدون الاجراء مغريا ، فقد يخلفون يمين الانضمام ، ثم بعد ذلك يلبسون شعار كتيبتهم (أورطتهم) الموشوم على أذرعتهم وسيقانهم ، وحينما يتم ذلك فانهم يتمتعون بمركز ممتاز، فمثلا كانوا يشبهون الانكشارية الأصليين في اعفانهم من عقاب السلطات المدنية ، وكانوا يستطيعون أن يسخروا نفوذ الفرقة لمصالحهم كما أن الانكشاريين الأصليين قد حصلوا بهذه الأعداد على قوة جديدة أو اضافية تعينهم على التمرد أكثر<sup>(٢)</sup> .

فدب الفساد في الانكشارية في أول القرن الحادي عشر الهجري ، الموافق للقرن السابع عشر الميلادي بشكل ملفت للنظر ، وأخذ هذا الفساد يتزايد ويستشري وكان علة العلل هو فساد الحكم واضطراب المجتمع واختلال الجند ونظامها .

وهنا يمكن القول بأن حركات الانكشارية من ثورات وتمرد وشغب وعصيان منذ ثورتهم على السلطان عثمان الثاني (١٠٢٧-١٠٣٢هـ / ١٦١٨ - ١٦٢٢م) حتى ثورتهم على السلطان سليم الثالث (١٢٠٤-١٢٢٢هـ / ١٧٨٩//١٨٠٧م) كانت تمثل صورة واحدة ومتكررة ، من حيث الأسباب والنتائج . فقد قاد عثمان الثاني جيشا منهم وعبر بهم نهر بروث ، فهزم البولونيين المجتمعين على نهر دينستر ، تلك المعركة التي أعادت للمسيحية الخوف والقلق

(١) أحمد جودت باشا : تاريخ جودت ، ج ١ ، ص ١٠٥ .

(٢) علاء كاظم نورس : مسئولية الانكشارية في تدهور الدولة العثمانية ( المجلة التاريخية المغربية ، السنة

التاسعة ، العدد ٢٥ ، ٢٦ ، ١٩٨٢ ) ، ص ١٠٨-١٠٩ .

ولكن تمرد الانكشارية وعدم انقيادهم قلب ميزان الانتصار الى نصر غير حاسم فعقد السلطان صلحا استفاد به البولونيون ، فاشتد الضيق بعثمان الثاني وقرر أن يستخدم جندا غير هؤلاء <sup>(١)</sup> ، فعزم على استبدالهم وأمر بتجنيد جيوش جديدة من ولايات آسيا ، وتنظيمها وتدريبها على القتال ، لكن جنود الانكشارية أحسوا بذلك التنظيم ، فهاجوا وماجوا وتدمروا وعقدوا الأمر على عزل السلطان عثمان الثاني ، وكان ذلك في سنة ١٠٣١هـ / ١٦٢٢م فتم لهم ذلك ، وعينوا مكانه السلطان مصطفى الأول ، ولكنهم لم يكتفوا بعزل عثمان الثاني بل اقتحموا قصره وقادوه قهرا الى ثكناتهم ، ثم نقلوه من ثكناتهم الى القلعة المعروفة بذات السبع قل ( يدي قلة ) ، حيث كان بانتظاره داود باشا وأعوانه ، فسأعدموا السلطان غير مبالين بهذا الجرم العظيم <sup>(٢)</sup> . وكان هذا أول سلطان عثماني يقتل على أيدي رعاياه ، وكانت الخمس عشرة سنة التالية عصرا غريبا ، وذلك لأن الانكشارية والسباهية ( الفرسان ) قاموا بالتمرد والعصيان وعاثوا في البلاد طولا وعرضا <sup>(٣)</sup> ، وبعد هذه الأحداث الدموية أصبح للانكشارية شأن سياسي أعين من خلاله في اغتصاب سلطات السلطان كما أصبح أمر تصريف شئون الدولة تحت قبضتهم ، فأرهبوا الحكام وأخذوا ينصبون الوزراء ويعزلونهم على حسب أهوانهم ، فعزلوا داود باشا قاتل السلطان بعد بضعة أيام من منصبه ، وصاروا

(١) محمد عبداللطيف البحراري : حركة الاصلاح العثماني ، ص ٨٢ .

، محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٢٧٨ .

، عبدالعزيز نوار : تاريخ الشعوب الاسلامية ، ص ١٥٥-١٥٦ .

، ارنولد تونبي : تاريخ البشرية ، ج ٢ ، ص ١٣٥ .

(٢) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٢٧٨ .

(٣) محمد عبداللطيف البحراري : المرجع السابق ، ص ٨٣ .



يمنحون المناصب لمن يجزل العطايا ، فكانت الوظائف تباع علنا<sup>(١)</sup> فأنكرت المدن كل طاعة للدولة ، وصارت العاصمة ميدانا مخيفا للمذابح البشرية<sup>(٢)</sup> . ومنذ ذلك الوقت سرى انحلال الانكشارية في الولايات ، وفشل الباشوات في مواجهة أعمال العدوان التي كانوا يقومون بها<sup>(٣)</sup> .

فتطورت هذه الأحداث واضطربت الولايات بسبب تمرد الانكشارية وأعوانهم فأشهر والي طرابلس الشام استقلاله وطرده الانكشارية من ولايته فانتهج أثره والي أرضروم المدعو أباطة باشا مدعيا أنه يريد الانتقام للمرحوم السلطان عثمان الثاني شهيد الانكشارية ، فسار بمن تبعه الى أن وصل أنقره فاستولى عليها ، وصادر كل ما آل الى الانكشارية من التزامات واقطاعات ملكا للسلطان ، كما أنه قام بالقبض على كل من وقع عليه بصره من الانكشارية .

فاستمرت هذه الاضطرابات والفتن الداخلية مدة ثمانية عشر شهرا متوالية شعر بعدها المفكرون بما ورثته هذه الفوضى من انحلال الدولة وخرابها والتي شبع من جرائها بالمال المتمردون عن طريق النهب والسلب طوال هذه المدة حتى ارتبك النظام ، وصار عدم النظام هو الصفة السائدة في البلاد ، عندها أسند أمر الدولة الى علي باشا صدرا أعظم ، فأشير عليه بعزل مصطفى الأول مرة ثانية، لضعف عزيمته ، ووهن قواه العقلية ، فعزلوه وعينوا مكانه السلطان مراد الرابع سنة ١٠٣٢ هـ / ١٦٢٣ م .

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٢٧٨-٧٩ .

، علاء كاظم نورس : مدى مسئولية الانكشارية في تدهور الدولة العثمانية ، ( المجلة التاريخية المغربية

، السنة التاسعة ، العدد ٢٥-٢٦ ، ١٩٨٢ ) ، ص ١٠٤ .

(٢) محمد عبداللطيف البحراوي : حركة الاصلاح العثماني ، ص ٨٣ .

(٣) علاء موسى كاظم نورس : المرجع السابق ، ص ١٠٤ .

وحيثما تسلم مراد الرابع سلطنة البلاد كانت الدولة تواجه اخطارا وكوارث اذ كان يصل من كل اجزاء الدولة رسائل وتقارير جامعة ابناء غير سارة، فهؤلاء الفرس يرابطون على الحدود، أما الثائر اباظة باشا<sup>(١)</sup> صاحب الامر والنهي في آسيا الصغرى فقد استولى عليها، وهناك بعض القبائل الخارجة عن طاعة الدولة علنا، كما أن حكام مصر والولايات الأخرى آنذاك أصبح ولاؤهم يتأرجح، وليس هذا فقط، بل ان الأساطيل القوقازية المغيرة لم تكتف بما كانت تسلبه باستمرار على طول البحر الأسود، فأخذت تنتقل الى البوسفور، وراحت تنهب الأماكن القريبة جدا من العاصمة.

أما في اسطنبول نفسها فان الخزينة كانت خاوية، ودار الصناعة معطلة والنقود قليلة القيمة لانخفاض قيمة الذهب والفضة فيها لتلافي النقص الحاصل أثناء سكها، كما أن مخازن الذخيرة كانت تفتقر الى الذخائر والمعدات العسكرية، وسكانها في حاجة للغذاء، أما الجند فانه بلغ بهم الفجور أقصى مراحلهم<sup>(٢)</sup>، فكان السلاطين يخشون الدخول في ذكر مسألة الاصلاح لهذه المسألة الخطيرة خوفا من الانكشارية حتى قال يوما الصدر الأعظم للسلطان مصطفى الثالث: " أفندم ان هذا الجيش لا ينفع العصر، وضروري من ايجاد النظام الجديد ". فاندعش السلطان ونظر يمينا وشمالا هل موجود في محضره من يفشي هذا القول للانكشاريين، ثم قال: " ان جيشنا عظيم " يريد بذلك اخفاء هذا الخبر، وغمز الى الصدر الأعظم بالسكوت، وبعد هذا المجلس طلب الصدر الأعظم بمفرده وقال له: " انك قلت قولا عظيما يخشى منه الخطر، أما أنا ففي حيرة من قبل توليتي السلطنة

(١) محمد فريد بك: تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص ٢٧٩.

(٢) علاء موسى نورس: مدى مسئولية الانكشارية في تدهور الدولة العثمانية (المجلة المغربية السنة

التاسعة، ١٩٨٢، ع ٢٥-٢٦، ص ١٠٦).

بسنين عديدة في مسألة اختلال الجيش ، ولكن خوفا من الخطرات العظيمة أخفي هذا الداء في جوفي كالقروح " . ثم سأل يوما أحد رجال الدولة جنديا انكشاريا ماذا تقول في النظام الجديد ؟ فكان جوابه : اننا ما كفرننا ولن نكفر ، يريد القول أن اتخاذ النظام الجديد ضرب من ضروب الكفر<sup>(١)</sup> .

والحق لانريد أن نسهب في ذكر ضروب الفساد الذي حل بالانكشارية ، الذين تحولوا من أداة فعالة لبناء الدولة الى معول هدم وهزيمة وتخريب وفساد استمرت تمرداتهم خلال القرن الثاني عشر الهجري الموافق للقرن الثامن عشر الميلادي ، وقد أوردنا بعض النماذج منها ، ولكن أخطرها تلك التي حدثت في عهد السلطان أحمد الثالث ، إذ تمكن الانكشارية من فرض سيطرتهم التامة على العاصمة في سنة ١١٤٣هـ / ١٧٣٠م<sup>(٢)</sup> . وظلوا لمدة ثلاثة أيام متتالية يطالبون برأس الصدر الأعظم ، وعدد من كبار رجال الدولة على مختلف القطاعات ، وذلك لأسباب الانتصارات التي أحرزها الصفويون ضد القوات العثمانية في أراضيهم مما سبب اضطرابا وهياجا في العاصمة العثمانية<sup>(٣)</sup> .

وقد اضطر السلطان أحمد الى أن يستجيب لمطلبهم خوفا من أن يطيح تمردهم بعرشه ، ولكن الشيء الذي خاف منه وقع ، حيث أعدم الصدر الأعظم واثنان من أعيان الدولة ، وبالرغم من انصياع السلطان أحمد لهم وتسليمه بما

(١) محمد عبداللطيف البحراري : حركة الاصلاح العثماني . ص ٨٤ .

(٢) كامل باشا : تاريخ سياسي دولت عليه عثمانية . ١٩٨٢ . ج ٢ . ص ١٤١-١٤٢ .

علاء موسى كاظم : مدى مسئولية الانكشارية في تدهور السلطة العثمانية ( المحلة التاريخية

المغربية . السنة التاسعة . ١٩٨٢م . ع ٢٥-٢٦ ) . ص ١٠٦ .

(٣) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية . ص ٣١٨-٣١٩ .

علاء موسى كاظم : المصدر السابق . ص ١٠٦ .

طلبوه لم يمنعهم من التمرد والعصيان ، فأعلنوا اسقاطه عن العرش <sup>(١)</sup> .  
وهكذا توالى تمرد الانكشارية حتى أصبحوا ثقلا كبيرا على كاهل الدولة  
وصار كل سلطان يحاول التخلص منهم أو استبدالهم <sup>(٢)</sup> ، وعندئذ يثورون عليه  
في عزلونه أو يقتلونه ، حتى أصبح هذا ديدنهم أو شعارهم ضد كل اصلاح ،  
رؤوس تريد المنفعة والسلطة ، وأفكارها محدودة لاتهمها مصلحة الدولة بل كانت  
الدولة ضحيتها <sup>(٣)</sup> . حتى عزم السلطان سليم الثالث على استبدالهم لاستبدالهم  
في أمور الدولة ، حيث يعزلون ويولون كما يريدون <sup>(٤)</sup> . ونتيجة لذلك لحق  
بالدولة العثمانية في المجال الخارجي طوال القرن الثاني عشر الهجري الموافق القرن  
الثامن عشر الميلادي هزات خطيرة من الدول الأوروبية <sup>(٥)</sup> .

فكان التوقف والركود ، بعد أن بلغت الدولة العثمانية شأوا رفيعا فساد  
عهد السلطان سليمان الأول من النصر والاتساع سببا أدى الى انكماش الدولة  
وتدهورها ، وكثرت هزائنها التي أصابت الجيوش العثمانية ، وعقدت معاهدات  
تتلوها الأخرى لم تجن منها الدولة غير الذل والعار ، وفقدت اجزاء من ممتلكاتها  
لضعف بعض السلاطين وجهل الحاكمين وحمق السياسيين .  
ولا ننسى كما سبق أن هناك رجالا كانوا يصلحون ويدعمون ، وقسم

- 
- (١) علاء موسى كاظم : مدى مسئولية الانكشارية في تدهور الدولة العثمانية ( اطلال التاريخ العربية .  
السنة التاسعة . ١٩٨٢ . ج ٢٥-٢٦ ) ص ١٠٦ .  
. كامل باشا : تاريخ سياسي دولت عليية عثمانية . ج ٢ . ص ١٤١-١٤٢ .  
(٢) هيئة التحرير : تاريخ الجند العثماني ( مجلة الهلال . ج ٨ . ص ١٧ . ١٩٢٨ ) ص ٤٧٦ .  
(٣) محمد عبداللطيف البحر اوي : حركة الاصلاح العثماني . ص ٨٤ .  
(٤) هيئة التحرير : تاريخ الجند العثماني . المرجع السابق . ص ٤٦٨ .  
(٥) علاء موسى كاظم : المرجع السابق . ص ١٠٦-١٠٧ .

أصابت العساكر بعض الظفر ، ولو أن ذلك كان قليلا في عصر الدولة الثاني<sup>(١)</sup> .  
وكل هذا وقع بعد الانتصارات التي أحرزها الأتراك العثمانيون عندما  
حملوا راية الاسلام ، وساروا بفتوحاتهم صوب الغرب ، ولما داخلهم الفرور جنحوا  
الى الكسل ، وتهاونوا في الأخذ بمبادئ الاسلام الداعية للعمل والجهاد ، ومسايرة  
الزمن وتطوراته ، فانشغلوا بخلافاتهم وشهواتهم ، وأصبحوا في غفلة من الحوادث  
العالمية وعمما يخبئة القدر عندما قنع السلاطين العثمانيون بما حصلوا عليه من نصر  
حربي ، وهذه للأسف من الأسباب التي ساعدت على الركود<sup>(٢)</sup> ، اضافة لما سبق .  
ومنذ ذلك التاريخ بدأت عوامل الضعف تتسرب الى كيان الدولة وبنيتها  
الداخلية بشكل تدريجي وملحوظ ، ولم تظهر آثار هذه العوامل الا في سنة  
١٠٩٥هـ / ١٦٨٣م أثناء حصار فينا الثاني ، وما أعقبه من انسحاب الجيش  
العثماني<sup>(٣)</sup> .

وكان انهيار الجيش العثماني بعد فشله في الاستيلاء على فينا مؤشرا أو  
نديرا بفترة قادمة جديدة في علاقة الدولة مع دول أوروبا التي اتخذت سياسة  
هجومية بعد أن أدركت ضعف الدولة العثمانية<sup>(٤)</sup> .  
وكانت النتيجة انتصار المسيحيين على الجيش العثماني في عهد السلطان  
مصطفى الثاني ، لاختلاف الجيش العثماني وعدم تنظيمه ، كما أن جزءا من  
الجنود الانكشاريين تمرد في ذروة المعركة بالرغم من ثبات البقية الباقية من الجيش ،  
ولكنهم لم يستطيعوا الوقوف أمام التحالف الصليبي ، وبعد هذه الكارثة لم يكن

(١) حسين ليب : تاريخ الأتراك العثمانيين ، ج ٢ ، ص ١١٤-١١٥ .

(٢) محمد عبدالله بن ماضي : النهضات الحديثة في جزيرة العرب ، ( الطبعة الثانية ، القاهرة ، دار

احياء الكتب العربية ، ١٣٧٣هـ / ١٩٧٢م ) ، ص ٢٢-٢٣ .

(٣) أورخان محمد علي : السلطان عبد الحميد ، حياته وأحداث عهده ، ص ٢٧ .

(٤) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ١٥٥ .

أمام الدولة الخيار الا البحث عن السلام بغض النظر عن الهزيمة التي تلقاها الجيش العثماني وقواده ، ولأول مرة في تاريخ الدولة العثمانية يتم التوقيع على معاهدة مثل معاهدة ( كارلوفتز ) التي عقدت في سنة ١١١١هـ / ١٦٩٩م على نهر الدانوب ، والتي خسرت فيها الدولة العثمانية ولاية بأكملها هي المجر ، وتراسلفانيا ، وكانت هذه المعاهدة هي الأولى التي خرجت منها الدولة خاسرة .

وقد كان هذا الاتفاق ايذانا ببدء عصر جديد من تاريخ الشرق ، وانسحب الأتراك الى فينسيا ، ولم يكن الأمر مجرد خسارة العثمانيين لأقاليم واسعة بل كان تحطيماً لآمالهم وتفوقهم العسكري ، فظهر الخلل واضحاً وجلياً في أنظمة الدولة العثمانية وفي التكتيك العسكري أمام تفوق النمسا أو التفوق الأوربي على المستوى الدولي .

يقول كريزي في هذا الشأن " منذ تلك اللحظة وصاعداً لم يكن هنالك أي خوف حقيقي من القدرة العسكرية التركية " .

وقد أصبح التفكك واضحاً ومستمر في الدولة العثمانية ، كما أخذت عوامل ضعفها تزداد يوماً بعد يوم ، بعد أن كانت الجيوش العثمانية متميزة بالشجاعة والقوة والمهابة (١) .

وهكذا كان صلح كارلوفتز الذي أنهى حرب مايسمي " بالعصبة المقدسة " أول سلسلة من الاتفاقات بين العثمانيين والمحالقات الأوربية المشكلة ضد الدولة مما قلب موازين القوى العثمانية من الهجوم الى الدفاع ، وقد وصف هذا الصلح بأنه أول تفكيك لأوصال الدولة العثمانية ، الذي استمر ببطء منذ ذلك الوقت ، وكان اعتراف العثمانيين بالتنازل عن أراض كانت تشكل جزءاً من

---

(١) William Stearns Davis: A Short History of the Near East, pp.271-272.

أملاكهم متزامنا مع بداية الانسحاب الفعلي العثماني من أوروبا<sup>(١)</sup> .  
 وفي ( سنة ١١٨٢-١١٨٨ هـ / ١٧٦٨-١٧٧٤ م ) خسرت الدولة  
 العثمانية حربها مع روسيا لأول مرة في التاريخ<sup>(٢)</sup> . وبغض النظر عن الدخول في  
 تفاصيل المعارك الحربية التي دارت بين الطرفين ، ولكن النتيجة لهذه الخسارة هو  
 عقد معاهدة ( كوجيك كينارجي ) التي حصل بها القرم على استقلاله ، وأمام هذا  
 التوقف والركود بل التراجع بدأت الدولة في محاولات لإصلاح جوانب التدهور  
 المختلفة والتي شملت النواحي الاقتصادية والعسكرية والسياسية والعلمية  
 والنفسية<sup>(٣)</sup> . ففي الوقت الذي كان فيه العثمانيون قد وضعوا أيديهم على مفاتيح  
 الطرق العالمية الكبرى آثروا سياسة العزلة والانكفاء فعملوا على قتل كل فكرة  
 إصلاحية جديدة سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية ، فساعد ذلك على الركود  
 والضعف ، وزاد من طمع الغرب فيهم رويدا رويدا لنشر سيادته ونفوذه  
 واستقطاع ما يريد من أملاك الدولة<sup>(٤)</sup> .

وهذا مما أدى الى ظهور اتجاه جديد في الدولة العثمانية بدعوة الى اصلاح  
 الدولة ونظم الحكم فيها ، وهو الاتجاه المعروف بحركة الاصلاح والتجديد<sup>(٥)</sup>

- 
- (١) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ١٥٨ .  
 (٢) دخلت الدولة العثمانية في أربعة حروب مع روسيا قبل هذه المعركة انتصرت فيها جميعا .  
 -أورخان محمد علي : السلطان عبدالحميد الثاني حياته وأحداث عهده . ص ٢٧ ، حاشية رقم  
 (١) .  
 (٣) أورخان محمد علي : المرجع السابق ، ص ٢٧ .  
 (٤) محمد عبدالله ماضي : الهضات الحديثة في جزيرة العرب ، ص ٢٢-٢٣ .  
 (٥) ساطع الحصري : البلاد العربية والدولة العثمانية ، ص ٦٢ .  
 علاء موسى كاظم بورس : مدى مسئولية الاكشارية في تدهور الدولة العثمانية ( المجلة المغربية ص ٩  
 ، ١٨٩٢ ، ع ٢٥-٢٦ ) ، ص ١٠٨-١٠٩ .

والذي واجه تحقيقه سلسلة طويلة من العراقيل ، لذلك فان الدولة العثمانية باصلاحاتها الجديدة لم تدخل في طور التأثير الا في القرن الثالث عشر الهجري الموافق للقرن التاسع عشر الميلادي كما سيأتي في بابه (١) ، وبالتالي ظهرت المسألة الشرقية في وضعها الأخير حين انشغل القائمون بالأمر حول السلطان بالدسائس والسعي وراء تحقيق الأغراض والأموال ، يضحون في ذلك بمصالح الدولة والصالح العام (٢) . وهذا الضعف الذي أصاب الدولة في عصرها الثاني من جراء الخلل كان امتدادا لما أصاب السلاطين والعلماء والانكشارية من تدهور شامل كما مر بنا .

---

(١) ساطع الحصري : البلاد العربية والدولة العثمانية ، ص ٦٢ .

(٢) محمد عبدا لله ماضي : النهضات الحديثة في جزيرة العرب ، ص ٢٥ .



## ج - الخطة الجديدة للعالم النصراني نحو الدولة :

فشل الحلول العسكرية - الغزو الفكري - سياسة الرجل المريض :

ان الغزو العسكري هو غزو ظاهري ويمكن مواجهته بنفس الأسلوب والقوة ، أما الغزو الفكري فهو غزو خفي يعمل على تخريب المعنويات وتدمير النفوس ، كما أنه يعمل على تعطيل طاقات الأمم <sup>(١)</sup> .

والغزو الفكري يكاد يكون من معطيات العصر الحديث الذي بلي بأنواع عديدة من هذا الغزو أتى بها الاستعمار وعملاؤه مع ما جاوز به الى البلاد الاسلامية ، فالغزو الفكري في التاريخ هو أن يحول العدو بين أمة من الأمم وبين تاريخها وماضيها المجيد وسير الصالحين من أسلافها ، للتشكيك فيهم وفي معتقداتهم الاسلامية <sup>(٢)</sup> . وان مفكري الغرب ومؤرخيه من مستشرقين ومنصرين نتيجة لقوتهم المادية والعلمية التي وصلوا اليها في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين الموافق للقرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين اعتقدوا ان قوتهم المادية هي أصل جميع الحضارات في التاريخ كما اعتقدوا أن العقلية الغربية هي العقلية الدقيقة التأمل والتي تستطيع أن تفكر تفكيراً سليماً ، أما غيرهم من الشعوب وبخاصة الشعوب الاسلامية فان عقليتهم ساذجة بسيطة وذلك على حد تعبير المستشرق جب في كتابه " وجهة الاسلام " ، ويقصد أن العقلية الاسلامية تدرك الأمور بواسطة الجزئيات ولا تدركها ادراكاً كلياً <sup>(٣)</sup> ، ليحل محل ذلك تاريخ العقلية الأوروبية أو الدولة الغازية وسير أعلامها وقادتها ، فيشب المثقف من

(١) محمد جلال كشك : الغزو الفكري ، (الطبعة الرابعة ، القاهرة ، المختار الاسلامي للطباعة والنشر ، ١٣٩٥ هـ) ص ٧ .

(٢) على عبد الخليم محمود : الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام : من البحوث المقدمة لمؤتمر الفقه الاسلامي لجامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية بالرياض سنة ١٣٩٦ هـ ، ص ٨ .

(٣) اسماعيل الكيلاني : فصل الدين عن الدولة ، ص ١٢٩ - ١٣٠ .

أبناء تلك الأمة المقهورة وليس في نفسه مثلاً إلا ما يقرأ عنه في تاريخ الدولة الغازية، وليس في خلدته أبطال إلا أبطالها ولا مفكرون إلا مفكروها، بل يصبح لا يعرف من الحق والباطل إلا ماراته هذه الأمة الغازية التي تشبع بأفكارها ومفكراتها حقاً أو باطلاً، فتشوه رؤيته الحقيقية للناس والأشياء، وبالتالي ينسى تاريخه المجيد التليد وسير الصالحين من أسلافه، فيجنح عن حاضره ومستقبله، ويضل عن معالم الطريق المستقيم<sup>(١)</sup>. ففشل الصليبيين في حروبهم المتوالية على الشرق الإسلامي كان دافعاً للمزيد من الاهتمام بالدراسات الشرقية، وكان القرآن أول ما صبوا إليه سهامهم، وثنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم عرجوا بعد ذلك على خلفائه الراشدين، ثم التاريخ الإسلامي الذي شوهوا حقانته<sup>(٢)</sup>، مما أدى إلى ازدياد التعصب الديني للحقد على الإسلام ومقاومته، فاتجهوا إلى اتجاه فكري جديد هو الاستشراق، فقد اتخذوه الغربيون المسيحيون طريقة لطعن الإسلام والتغلب على المسلمين وقد شرع نفر منهم في تعلم اللغة العربية لاحقاً فيها ولكن لا تأخذها وسيلة إلى قراءة القرآن ومناقشته في محاولة لتشويه معانيه وتفسير الناس منه عن طريق الهدم المعنوي في حركة ظاهرها طلب العلم والبحث وباطنها المكر والخبت<sup>(٣)</sup> والكيد للإسلام والمسلمين عن طريق بتر الآيات القرآنية والمغالطة بها للتدليل على آرائهم الخاطئة من أجل تشكيك المسلمين في دينهم.

وقد ظهرت أول دعوة للاستشراق على لسان البارون "دويتز" سنة ١٠٧٥ هـ الموافق ١٦٦٤ م، أي في أواخر القرن الحادي عشر الهجري السابق

- 
- (١) على عبد الخليم محمود: الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام، ص ٨-٩.
- (٢) محمد عبدالفتاح عليان: أضواء على الاستشراق: (الطبعة الأولى الكويت، الناشر دار النشر للطباعة، ١٤٠٠ هـ) ص ١٠.
- (٣) محمد عبدالفتاح عليان: المرجع السابق، ص ١٠.
- نجيب عفيفي: المستشرقون، (الطبعة الرابعة، القاهرة، دار المعارف) ج ٣، ص ٦١٣.

عشر الميلادي حيث طالب بتأسيس مدرسة أو كلية ، تكون قاعدة لتعليم التنصير ويعلم فيها لغات الشرق للطلاب الذين يناط بهم أمر التنصير ، وقد ارتأى أحد أبحار الكنيسة أن يعهد الى الأروام بمسئولية تنصير الأتراك ، لكن البارون فشل في مشروعه (١) .

وهكذا يكون الغزو الفكري بالوسائل غير العسكرية التي اتخذها الغزو الصليبي لازالة مظاهر الحياة الاسلامية ، وصرف المسلمين عن التمسك بالاسلام بالعتيدة الاسلامية الصافية وما يتصل بها من أفكار وتقاليد وأنماط وسلوك (٢) .

ويتركز الدافع الرئيسي لاستخدام الغزو الفكري أنه بعد فشل الصليبيين في حملاتهم المتوالية على الشرق الإسلامي عملوا على الاهتمام بالثقافة الاسلامية ، وقد ظهر ذلك واضحا من خلال وثيقة خطيرة تلقي الضوء على تحول الصليبيين من الغزو العسكري الى الغزو الفكري ، وهذه الوثيقة تتضمن وصية القديس لويس التاسع ملك فرنسا وقائد الحملة الصليبية الثامنة التي انتهت بالفشل والهزيمة ووقوع (لويس) أسيرا في أيدي المصريين في مدينة المنصورة ، ولم يطلق سراحه الا بعد تقديم فدية عظيمة استطاع بها الخلاص من الأسر ، وبعد أن عاد الى فرنسا أيقن أنه لا سبيل الى النصر والتغلب على المسلمين عن طريق القوة الحربية ، لأن تدينهم بالاسلام دفعهم للمقاومة والجهاد وبذل النفس والنفيس في سبيل الله لحماية دار الاسلام وصورون أرضهم ومقدساتهم وأعراضهم ، والمسلمون قادرين دوما للانطلاق من عقيدتهم الى الجهاد ودحر الغزاة ، وأنه لا بد من سبيل آخر وهو تحويل التفكير الاسلامي وترويض المسلمين عن طريق الغزو الفكري . بأن

(١) أ.ل. شاتليه : الغارة على العالم الاسلامي ، ترجمة محب الخطيب ومساعد اليافي ، (الطبعة الرابعة ، ١٣٩٨هـ) ، ص ١٣ .

(٢) محمد قطب : واقعا المعاصر (الطبعة الرابعة ، جدة ، الناشر مؤسسة المدينة للصحافة والطباعة والنشر ، ١٤٠٧هـ) ص ١٩٥ .

يجند العلماء الأوروبيين بدراسة الحضارة الإسلامية ليأخذوا منها السلاح الجديد ثم يغزون به ( الفكر الإسلامي ) (١) .

ويعتبر لويس التاسع ملك فرنسا هو راند حركة الغزو الفكري لأنه كاد أن يذهب ضحية الحملة الثامنة سنة ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م لولا الفدية الكبيرة التي دفعها لانقاذ نفسه ، لذا نادى بهذا الرأي وكتب به وصيته .

وهكذا تحولت المعركة من ميدان السلاح الى معركة في ميدان العقيدة والفكر بهدف تزييف عقيدة المسلمين الراسخة التي تحمل معنى الجهاد وتدفع المؤمنين الى الاستشهاد .

وقد سار الاوروبيون في طريق تنفيذ هذه الرصية للوصول الى الهدف المرسوم (٢) ، وبخاصة عندما تأكدوا من فشلهم في الحروب الصليبية وعدم تحقيق أهدافهم ، فقد اجتمع رجال الكهنوت والسياسة والفكر لديهم لمناقشة طرد المسلمين من الأراضي المقدسة ، ووضع الخطط التي تكفل لهم تخليص بيت المقدس من المسلمين وإعادة الأراضي الإسلامية الى السيطرة النصرانية ، فتنام القسيس الأسباني ( ريمون لول ) ينادي باستخدام سلاح التنصير ، والغزو الفكري بدلا من الحروب الصليبية (٣) .

هنا أصبحت الأمور واضحة فأسباب الحروب الصليبية أسباب كان ظاهرها ديني وغايتها تخليص بيت المقدس من يد المسلمين ، بينما كانت في حقيقتها سبيلا للسيطرة على الشرق الإسلامي بما فيه من خيرات . فتاريخ التنصير المسيحي يعود الى القرون الوسطى وذلك عندما قام " ريمون لول " الأسباني

(١) على محمد جريشة وآخرون : أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي ، (دار الاعتصام) ص ١٩ .

(٢) على محمد جريشة وآخرون: المرجع السابق ، ص ١٩ .

(٣) مصطفى خالدي وفروخ : التبشير والاستعمار ( الطبعة الخامسة ، ١٩٧٣م ) ص ١١٤-١١٥ .

فتولى الدعوة الى التنصير بعد فشل الحروب الصليبية في مهمتها ، وكان قد أعد نفسه بأن تعلم اللغة العربية بكل مشقة ، وطاف البلاد الاسلامية ، وناقش علماء المسلمين في بلاد كثيرة (١) . قال ارست باكر : " وظهر أمثال ريمون لول الذي كان ينادي بوجوب استبدال الحملة الصليبية ببعثة تنصيرية وأن يقوم التنصير السلمي مقام الحملة الحربية " (٢) .

ومن لطريف أن ريمون لول هو أول من نادى باستخدام التنصير كسلاح للسيطرة على البلاد الاسلامية واطعاف الاسلام ، وهو أول من نادى كذلك بايجاد كرسي للدراسات الشرقية الاسلامية في الجامعات الأوروبية . وهكذا نشأ الاستشراق نظرا للفشل الذي آلت اليه الحروب الصليبية أيضا ، وذلك لدراسة الاسلام ونقده وتشويهه باعداد دراسات غربية عنه وعن تاريخه ، لتقديمها جاهزة حسب التفكير الغربي . وبما يخدم مصالحه ويحقق غايته للموفدين الشرقيين لمتابعة تحصيلهم العلمي في ديار الغرب ، وعودتهم الى بلادهم وجها آخر حسب التشكيل الجديد أو العملة التي يريدونها المستعمرة (٣) .

ومن أهداف الاستشراق والتنصير تدبير المؤامرات والدسائس لاحداث الفتن والانقلابات في الوطن الاسلامي (٤) .  
ولكن لما أرادت معظم دول الغرب عقد الصلات السياسية بدول الشرق والاعتراف من تراثه والانتفاع من علمه والتزاحم على استعمارها أحسنت كل

(١) أ.ل. شاتليه : الغارة على العالم الاسلامي ، ص ١٢-١٣ .

(٢) اسماعيل الكيلاني : فصل الدين عن الدولة ( الطبعة الأولى ، بيروت ، المكتب الاسلامي ، ١٤٠٠هـ ) ص ١٢٦ .

(٣) اسماعيل الكيلاني : المرجع السابق ، ص ١٢٩ .

(٤) عبدالله التل : جذور البلاء ، ( الطبعة الثانية ، بيروت ، المكتب الاسلامي ، ١٣٩٨هـ ) ص

دولة الى مستشرقها ، فضمهم ملوكها الى حاشيتهم أمناء أسرار وترجمة مع انتدابهم للعمل في سلك الجيش والدبلوماسية في بلدان المشرق الاسلامي ، فولوهم كراسي اللغات الشرقية في كبرى الجامعات والمدارس الخاصة والمكتبات العامة والمطابع الوطنية ، ومنحوهم ألقاب الشرف عضوية المجامع العلمية ، كما أجزلوا لهم العطايا والمنح في الحل والترحال (١) .

اذا الاستشراق هو دراسة يقوم بها الغربيون لترات الشرق وبخاصة كل مايتعلق بتاريخه ولغاته وآدابه وفنونه وعلومه وتقاليده وعاداته ، فالمستشرق بهذا الاعتبار هو الغربي الذي يدرس تراث الشرق ، ولا بد لدراسة هذا التراث الضخم من أداة بواسطتها يصل الى بغيته المنشودة وهذه الأداة التي يجب على المستشرق اتقانها هي مفتاح الشرق أو لغة الشرق والتخصص في أبرز علومها كالأثار والتاريخ والفنون والآداب والعلوم وهي اللغة العربية وعلومها بلا ريب ، وأن الهدف من الاستشراق هو التنصير ، وهو محاولة اقناع المسلمين بلغتهم ببطلان الاسلام واجتذابهم الى الدين المسيحي (٢) .

فكانت الحروب الصليبية أحد منابع الاستشراق ، فأطلعت الغربيون على مواطن الضعف في دينهم ، فكانت المقارنة بين الاسلام وبين أديانهم تحتاج الى نظرة شاملة فاحصة أو التعديل ، وهذا ما أسماه الغرب بحركة الاصلاح الديني ، ثم كانت الرغبة أيضا في التبشير بالمسيحية في الشرق ، كل هذه الأمور استلزمست منهم دراسة اللغة العربية على أيدي المستشرقين ، ومن هنا تلاققت وجهته

---

(١) نجيب عفيفي : المستشرقون ، ج ٣ ، ص ٦٠٤ .  
- محمد حسين الصغير : المستشرقون والدراسات القرآنية ( الطبعة الأولى ، بيروت ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، ١٤٠٣ هـ ) ، ص ١٨-١٩ .

(٢) محمد حسين صغير : المرجع السابق ، ص ١١ ، ١٥ .

الاستعمار والتنصير والاستشراق (١) .

وقد بدأت محاولات الغزو الصليبي الحديث في القرن التاسع الهجري الموافق للقرن الخامس عشر الميلادي بعد سقوط مدينة غرناطة آخر المعاقل الإسلامية في الأندلس سنة ٨٩٨هـ الموافق ١٤٩٢م بعد عدة حروب وسلسلة من المعارك ضد المسلمين وقد بارك البابا هذا الانتصار الصليبي وشجع المسيحيين على متابعة طرد وتعذيب المسلمين من بقية بلاد الإسلام في الأندلس (٢) .

ففي القرن العاشر الهجري الموافق للقرن السادس عشر الميلادي الذي ازدهرت فيه النهضة في غرب أوروبا قام الأسبان والبرتغال بأعنف وأقسى ماشهده التاريخ البشري من الإرهاب والتعصب الديني ، وهذا المثال يصور لنا ما قام به الكاردينال " خيمينيث سنيروس ( Ximenez de Cesnero ) وكان ذا مكانة دينية كبيرة في قشتاله ( أسبانيا الحالية ) فدعا إلى إكراه بقايا المسلمين الذين كانوا يعرفون بالموريسكيين على التنصير وترك الإسلام ، ولكي يقطع صلتهم بالعلوم الإسلامية أشار بحرق جميع كتب المسلمين . وقد تم بالفعل حرق ثمانين ألف كتاب من كتب العرب الإسلامية بعد جلائهم عن أسبانيا . ثم أنشئت محاكم التفتيش ليس فقط لحرق كل من لم يرتد عن الإسلام ولكن لحرق كل نصراني لا يدين بالمذهب الكاثوليكي .

أما بالنسبة للأرقوان ( البرتغال الحالية ) فإن الملك فيليب الثاني أصدر قانونا في سنة ١٥٥٦هـ/١٥٧٤م يحرم على بقايا المسلمين فيها أيضا كل شيء يربطهم بالإسلام حتى لغتهم وأساليب معيشتهم ، وبلغ من غلوه أن اعتبر

(١) نجيب عفيفي : المستشرقون ، ج ٣ ، ص ٦١٢-٦١٣ .

(٢) محمد قطب : واقعا المعاصر ، ص ١٨٦ .

الحمامات التي أنشأها المسلمون بقايا نجسة فأصدر قراراً بهدمها<sup>(١)</sup> .  
 وإذا كان الإسلام قد أفل في سماء الأندلس فقد بزغ على أيدي الأتراك  
 العثمانيين في بلد آخر ، وتربعوا على الأناضول سيدة البلقان بعد فتحها ثم توغلوا  
 في جنوب شرقي أوروبا أولاً : لصد الغزو الفكري عن المشرق الإسلامي ، وثانياً :  
 لنشر لواء الإسلام هناك ، حتى دانت لحكمهم كل شبه جزيرة البلقان التي تشمل  
 اليوم كل من أراضي رومانيا ، وبلغاريا ، واليونان ، ويوغوسلافيا ، والمجر ،  
 وألبانيا ، وقد حطمت الدولة العثمانية الأحلاف المسيحية المتعددة التي تحالفت  
 ضدهم حلفاً حلفاً كما مر بنا في فصل سابق . فامتدت انتصارات المسلمين في  
 أوروبا وعلت أصوات المؤذنين في مساجدها ، وقد ترتب على ذلك أن اكتسب  
 الإسلام أنصاراً يقدر عددهم بعشرات الملايين<sup>(٢)</sup> فقامت الدولة العثمانية ضماناً  
 لحماية المشرق الإسلامي بأن أقامت سياجاً على المناطق التي تتبعها ، وذلك ضد  
 كل محاولة للنيل من الإسلام ، إلا أن هذا السياج فيما بعد حرم هذه البلاد من  
 الاستفادة العلمية التي تقدمت آنذاك على أيدي الأوربيين ، فظهرت آثار ذلك  
 على البحث العلمي لدى المسلمين الذي أصيب بالتوقف والركود ، كما أصبحت  
 الدولة بالضعف والخلل وتطرق اليها الوهن في أواخر القرن الثاني عشر الموافق  
 لأواخر القرن الثامن عشر الميلادي ، فتكالت عليها الدول الأوربية الاستعمارية ،  
 وهكذا بضعف الدولة العثمانية ظهرت أطماع الدول الأوربية فيها<sup>(٣)</sup> .  
 ولم يكن عمل المستشرقين منفصلاً عن أعمال المنصرين بل كانت مهمتهما

(١) محمد عبدالفتاح عليان : أضواء على الاستشراق ، ص ١٢ .

(٢) محمد عبدالفتاح عليان : المرجع السابق ، ص ١٢-١٣ .

محمد قطب : واقعنا المعاصر ، ص ١٨٧ .

(٣) محمد عبدالفتاح عليان : المرجع السابق ، ص ١٣ .



كل طائفة متممة للفئة الأخرى ، فالاستشراق تولد منه الاستعمار والتنصير<sup>(١)</sup> .  
 وما هو معروف أن الاستشراق أيضا من أدوات التنصير ثم استغل فيما  
 بعد لتحقيق مطامع الدول الاستعمارية . وقد نزل كثير من الأساقفة الى ميدان  
 الاستشراق بقصد التنصير وتدريب المنصرين على العمل في بلاد الشرق . لهذا  
 كان لابد من تكليف بعضهم بتعلم اللغة العربية ، فانتشر تعليمها في المعاهد الدينية  
 وبعض الجامعات وكان الهدف من دراسة اللغة العربية لرجال الدين من المسيحيين  
 هو تخريج أهل جدل يقارعون فقهاء المسلمين ويردون عليهم ببراهين من الكتب  
 الاسلامية<sup>(٢)</sup> .

لذا يرى المستشرق الألماني المعاصر " البرت ديتريش " أن المستشرق " هو  
 الباحث الذي يحاول دراسة الشرق وتفهمه ، ولن يأتي له الوصول الى نتائج سليمة  
 ما لم يتقن لغات الشرق ، وكانت دوافع الاستشراق بوجه عام من خلال دراساته  
 العربية والاسلامية دوافع متفاوتة شدة وضعفا ، اتسم بعضها بهدف تنصيري ،  
 واتجه البعض الآخر لغرض استعماري ، أما القسم الثالث فقد اتسم باتجاه علمي ،  
 فشكلت بذلك دوافع تنصيرية ، وثانية استعمارية ، وأخرى دوافع علمية<sup>(٣)</sup> .  
 والحملة الفرنسية تؤكد ماسبق من القول ، فقد صاحبها مستشرقون  
 ومنصرون ، اضافة الى أنها صورة من الأطماع الأوروبية في العصر الحديث في  
 الشرق . ففي هذه الحملة استعان الفرنسيون بعدد كبير من المستشرقين لتحقيق  
 الأهداف الاستعمارية ، وقد لجأ نابليون بونابرت الى اللغة العربية في منشوراته  
 ولوانحه ، كذلك طبع كتباً في تعليم اللغة العربية بالمطابع التي جلبها معه مع

(١) على محمد جريشه وآخرون : أساليب الغزو الفكري ، ص ١٩-٢٠ .

(٢) محمد عبدالفتاح عليان : أضواء على الاستشراق ، ص ٢٤-٢٥ .

(٣) محمد حسين الصغير : المستشرقون والدراسات القرآنية ، ص ١١-١٥ .

حملته . وكان هؤلاء المستشرقون الذين أصبحوا في هذه الحملة علماء متخصصين في كثير من فروع المعرفة ، فمنهم الأثريون ومنهم المهندسون والأطباء والمترجمون ، وكان بعضهم شرقيا من مصر ولبنان وسورية . وبعد وصول نابليون الى مصر أمر بتأليف المجمع العلمي المصري ، وتأسيس مطبعة عربية ( مطبعة بولاق حاليا ) وأصدر ثلاث صحف واحدة منها باللغة العربية ، وأنشأ متحفا ومكتبة ومصنعا ومختبرا ، ومسرحا ، وفتح أبوابها أمام المصريين . وقد ظهر نابليون أمام المصريين بصورة المستشرق ، فتظاهر باعتناق الاسلام وشارك المصريين في احتفالاتهم الدينية ، وارتدى العمامة والجمبة ، وزار علماء الأزهر في بيوتهم<sup>(١)</sup> .

والسؤال الذي يفرض نفسه هنا لماذا أتى نابليون من فرنسا الى مصر طالما أنه مسلم كما يدعي؟ هل كان يريد أن ينشر الاسلام في مصر؟ . إذا ما هو هدف هذه الحملة؟

لقد أجاب على ذلك صاحب كتاب واقعنا المعاصر حيث ذكر أن قدوم نابليون الى مصر كان محاولة منه في تنحية الشريعة الاسلامية ، وكانت أولى المخططات التي بدأ تنفيذها بالفعل ، ولكنه لم يستطع الاستمرار في مخططه حتى كشفه أحد علماء الأزهر الذي ضاق منه ومن أكاذيبه ونفاقه ، حيث قال له في وجهه: لو كنت مسلما حقا كما تدعي لطبقت الاسلام وشريعته في بلدك فرنسا ، بدلا من تنحية الشريعة هنا ، ومحاولة وضع القوانين الوضعية بدلا عنها<sup>(٢)</sup> . ولما انكشف أمره امتنع علماء الأزهر عن تنفيذ أوامره ولم يستجب له منهم أحد نظرا لتصرفاته الحاقدة على الاسلام ، فثار وأزبد حينما رأى علماء الأزهر يقودون الشعب ضد هذا المستعمر الدخيل ، عندها قام بتصويب مدافعه المقامة على قلعة

(١) محمد عبدالفتاح عليان : أضواء على الاستشراق ، ص ٢٦-٢٧ .

(٢) محمد قطب : . ص ٢٠١ .

الجيل الى الجامع الأزهر ، فاقترح بجنده الجامع الأزهر وهم يمتطون الخيل ، فدخل الجيش الأزهر وظهرت أطماع استعمارها على حقيقتها ، فانكشفت للشعب المصري حقيقته وان ماتظاهر به وادعاه من حب للاسلام والمسلمين ليس بحقيقة<sup>(١)</sup> ، وأن هذا متناف مع النشرة التي أرسلها من الاسكندرية الى مصر ، كما وردت في كتاب الجبرتي حيث قال : " بسم الله الرحمن الرحيم . لا اله الا الله لا ولد له ولا شريك له في ملكه ، من طرف الفرنساوية<sup>(٢)</sup> المبني على أساس الحرية والتسوية ، السر عسكر<sup>(٣)</sup> الكبير أمير الجيوش الفرنساوية بونا بارتته ، يعرف أهالي مصر جميعهم أن من زمان مديد الصناجق الذين يتسلطون في البلاد المصرية يتعاملون بالذل والاحتقار في حق الملة الفرنساوية .. يا أيها المصريون ، قد قيل لكم اني ما نزلت بهذا الطرف الا بقصد ازالة دينكم فذلك كذب صريح فلا تصدقوه ، وقولوا للمفترين اني ما قدمت إليكم الا لأخلص حقكم من يد الظالمين ، وانني أكثر من الممالك أعبد الله سبحانه وتعالى ، وأحترم نبيه والقرآن العظيم ، وقولوا أيضا لهم أن جميع الناس متساوون عند الله وأن الشئ الذي يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط ... أيها المشايخ والقضاة والأئمة و (الجرجية)<sup>(٤)</sup> وأعيان البلد قولوا لأمتكم ان الفرنساوية هم أيضا مسلمون مخلصون ، واثبات ذلك أنهم قد نزلوا في روما الكبرى وخرّبوا فيها كرسي البابا الذي كان دائما يحث النصارى على محاربة الاسلام ... ومع ذلك فان ... الفرنساوية في كل وقت من الأوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثماني وأعداء أعدائه

(١) محمد عبدالفتاح علي : أضواء على الاستشراق ، ص ٢٧ .

(٢) الفرنساوية : النظام الفرنسي .

(٣) السر عسكر : قائد الجيش .

(٤) الجرجية : ضباط اليكيجرية .

أدام الله ملكه " (١) . فلم يجد بونابرت حرجا في أن يعلن أنه لم يأت لاحتلال مصر بل أتى على أنه حليف الباب العالي ، وأتى لتوطيد سلطته ، ومحاربة المماليك العاصين . وقد قالها الانجليز فيما بعد عند احتلالهم مصر في سنة ١٢٠٠هـ/١٨٨٢م (٢) . كلهم مستعمرين وأهدافهم واحدة .

ومما يؤكد سوء نية نابليون أنه دخل الى مصر بدون علم السلطان العثماني الذي تبجح بحبه وطاعته وولائه ، وهذا أيضا مسلك آخر في المراوغة .

فقد أرسلت فرنسا سنة ١٢١٣هـ/١٧٩٨م بونابرت القائد الشهير الى مصر لاحتلالها بغير إعلان حرب على الدولة العثمانية ، وأوصت فرنسا هذا القائد بكتمان الخبر حتى لا تعلم به إنجلترا ، فتسعى لإحباطه ، وكان الهدف من احتلال مصر هو منع مرور تجارة الانجليز عبر أراضي مصر الى الهند وبالعكس (٣) . وفي أثناء الحملة الفرنسية على مصر أعدت فرنسا خطة الزحف الى الهند عبر مصر والعراق بمحاذاة نهر الفرات لسيط نفوذها على الشرق (٤) . ولكن لم يسلم الاحتلال الفرنسي في مصر سوى ثلاث سنوات ومايزيد على شهرين . وقد تعاون الانجليز مع الدولة العثمانية لاجراج نابليون وجيشه من مصر والشام سنة ١٢١٦هـ/١٨٠١م (٥) .

(١) عبدالرحمن الجبرتي : تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، (بيروت ، دار الجيل) ج ٢ ، ص ١٨٢-١٨٣ .

، وانظر نسخة بتحقيق حسن محمد جوهر وعمر دسوقي والسيد ابراهيم سالم (القاهرة ، لجنة الترميم العربي) ، ج ٤ ص ٢٨٨-٢٩١ .

(٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص ٣٧٣ .

(٣) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٣٧١-٣٧٣ .

(٤) لوتسكي : تاريخ الاقطار العربية الحديث ، ترجمى عفيفه البستاني (موسكو - دارالتقدم) ص ٧٦ .

(٥) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٣٧٣ .

أما الوجه الآخر لسياسة نابليون وما سارت عليه أوروبا منذ تفكيرها في الغزو الفكري ، فهو نبش الأرض الاسلامية لاستخراج حضارات ما قبل التاريخ لذبذبة ولاء المسلمين بين الاسلام وبين تلك الحضارات ، تمهيدا لاقتلاعهم نهائيا من الولاة الاسلامي ، وهذا هو هدف البعثة العلمية التي أتى بها نابليون الى مصر<sup>(١)</sup> ، اضافة الى ذلك أثارت أوروبا الخلافات المذهبية بين المسلمين حتى يتصارعوا من أجلها وينصرفوا عن دينهم وبلادهم حتى يتسللوا بين صفوفهم لزيادة الجفوة فيستغلوا تلك الخلافات لغزو العالم الاسلامي كل على حدة .

وكان طموح نابليون الذي حققه في أوروبا بعد رحيله من مصر أكبر عوض عن فشل تحقيقه في الشرق ، ثم ان الاستعمار نفسه لم يخسر شيئا فقد استطاع فيما بعد أن يحقق أهدافه عن طريق المسلمين أنفسهم<sup>(٢)</sup> .

وقد دخل الغزو الفكري عن طريق بلاد الشام ممثلا في الارساليات المسيحية من نتاج التسامح الديني الذي تميز به حكم ابراهيم باشا بن محمد علي بعد استيلائه على بلاد الشام ، فقد فتح هذا التسامح الباب أمام البعثات التنصيرية الغربية . ويرجع وجود هذه البعثات التنصيرية الأجنبية في بلاد الشام الى منتصف القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي ، ولكن كان مجال نفوذها أو جهودها في أول الأمر محدودا اقتصر على انشاء عدد قليل من المدارس والمعاهد في أماكن متفرقة ، ونشر كتب العبادات وكانت البعثات كلها كاثوليكية ومعظمها من الفرنسيين وتنسب الى اليسوعيين أو الكبوشيين أو الكرمليين . وكان من العسير عليها آنذاك ، بحكم التعصب الشديد الذي كان يسود ذلك العصر أن

---

(١) محمد قطب : واقعا المعاصر . ص ٢٠٢-٢٠٣ .

(٢) السيد أحمد فراج : جذور العلمانية ( الطبعة الثالثة ، المنصورة ، دار الوفاء للطباعة والنشر .

١٤٠٧ هـ) ص ٢٧-٢٨ .

تعمل خارج نطاقها ، ولذلك اضطرت أن تحصر معظم جهودها في رعاية الطوائف المسيحية الموالية لكنيسة روما (١) . ولم يكن الشام حديث عهد بالبعثات التبشيرية، بل كانت البلاد ميدانا لنشاط الارساليات ، وذلك بسبب كثرة المسيحيين ووجود الأماكن المقدسة بها (٢) .

وقد زادت هذه الامتيازات التي منحتها الدولة العثمانية للفرنسيين بعد معاهدة الهدنة التي عقدها الدولة العثمانية مع ملك فرنسا شارل التاسع في سنة ٩٦٦هـ الموافقة لسنة ١٥٦٩م والتي نصت على اقامة التمثيل القنصلي واعفاء كل فرنسي من دفع الخراج الشخصي ، واعطاء القناصل حق البحث عن من يكون لدى العثمانيين في حالة الرق مع اطلاق سراحهم ومجازاة من تعرض لهم ، ورد ماياخذهم قراصنة البحر من المراكب الفرنسية ، وأن تكون البحرية ملزمة بحوادث المراكب الفرنسية التي تكون على شواطئ الدولة ، وحفظ ما بها من مال ورجال وعتاد ، وتكون الامتيازات الفرنسية الممنوحة لها مساوية للامتيازات الممنوحة للبنادقة ، فأصبحت بهذا فرنسا ملكة التجارة في البحر الأبيض المتوسط وجميع البلاد التابعة للدولة العثمانية ، ونتيجة لهذه المعاهدات السابقة أو اللاحقة أو ماتقرر تحت مظلتها قامت فرنسا بارسال ارسالياتها الدينية الكاثوليكية إلى كافة بلاد الدولة العثمانية الموجود بها مسيحيون وخصوصا بلاد الشام لتعليم أبنائهم وتربيتهم على محبة فرنسا وكان من أهم نتائج هذه البعثات حفظ جنسية ولغة كل شعب مسيحي حتى اذا ضعفت الدولة تمكنت هذه الشعوب من الاستقلال

(١) جورج الطويوس : يقظة العرب ، تعريب علي حيدر ، (دمشق ، مطبعة الرقي ،

١٣٦٥هـ/١٩٤٦م) ص ٩٧ .

(٢) محمود صالح مسي : حركة اليقظة العربية ، ص ٩٢ .

بمساعدة الدول المسيحية<sup>(١)</sup> . كما سيأتي .

وبعد ذلك وصلت البعثات التنصيرية الأمريكية الى بلاد الشام ، وأخذت تحول بعض الأفراد من الطوائف الكاثوليكية الى المذهب البروتستانتى وكان اتباع الكنيسة المسيحية أول من وصل من الأمريكان في سنة ١٢٣٦هـ / ١٨٢٠م وكانوا يخضعون لاشرف المجلس الأمريكى لمراقبة البعثات التنصيرية في الخارج وكان هذا المجلس قد أسس مركزا في مالطة ثم أحس أن الواجب يدعوهُ الى مزاولة نشاطه الدينى في المشرق ، فأسس في بيروت أول مركز لهم . وهذا المركز بقى من أهم مراكزهم .

أما الجمعيات الكاثوليكية فكانت جمعية اليسوعيين أنشط هذه الجمعيات ، وتعود صلتهم بالشام الى سنة ١٠٣٥هـ / ١٦٢٥م ، وقد استمروا في نشاطهم في الشام يقاومون الفقر حتى عطلت جمعيتهم في سنة ١١٨٧هـ / ١٧٧٣م فتشتوا ، وأغلقوا أكثر مؤسساتهم ، وسلموا الباقي للبعثات اللغازرية لتديرها ، ولكنهم عادوا في سنة ١٢٤٧هـ / ١٨٣١م ، وكان السبب في عودتهم وصول البعثات الأمريكية التنصيرية الى بلاد الشام والتي أخذت تحول الكاثوليك الى البروتستانت كما سبق . وقد أدى نشاطهم هذا الى اثاره روح العداوة في نفوس علماء الشريعة الاسلامية في بلاد الشام ، غير أن ذلك لم يثن من عزمهم على الرغم من العوائق التي اعترضت طريق هذه البعثات التنصيرية قبل الفتح المصري لبلاد الشام ان لم يكن عطل جهودها تعطيلاً كاملاً ، مما اضطر الأمريكان منذ وصولهم أن يحصروا أنفسهم داخل بيروت<sup>(٢)</sup> . وذلك للحد من نشاطهم ومقاومة أساليبهم والحفاظ

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ، ص ٢٥٤-٢٥٥ .

(٢) جورج انطويوس : يقظة العرب ، ص ٩٨-٩٩ .

، موفق بن المرجه : صورة الرجل المريض أو السلطان عبدالحميد الثاني والخلافة الاسلامية (

الكويت ، مؤسسة صقر الخليج ، ١٩٨٤م) ص ١٦٥-١٦٦ .

على طوائف الكاثوليك للانخراط في المذهب البروتستانتي . فلما جاء ابراهيم وأحدثت سياسته في الحكم كثيرا من التغييرات ، فتح المجال بذلك أمام البعثات التنصيرية ، فتقاطر المنصرون على بيروت ومنها انطلقوا الى جميع أنحاء الشام ، وكانوا جادين في افتتاح المدارس في أنحاء متعددة في بلاد الشام ، وكانت أولى منشآتهم في بيروت والقدس وجبل لبنان (١) .

وقد انطلقت حركتهم تحت ستار تحقيق الغايات الانسانية ، والتخفيف من الآلام البشرية عن طريق اقامة المستوصفات ، أو مدارس التعليم ، أو تقديم المساعدات المادية الى غير ذلك من الأمور التي تهدف الى غاية أساسية وهو استعمار الغرب للشرق بتحويل آسيا الى النصرانية ثم القضاء على الاسلام وهو هدفهم الأسمى ، لأن القوة التي تكمن في الاسلام هي التي تخيف أوروبا (٢) ، فلا بد من العمل على أن يمحو الاسلام من العالم . هذه أمنية المنصر جب (٣) ، وقد قال المنصر وليم بالكراف : انه متى توارى القرآن ومدينة مكة المكرمة عن بلاد العرب أمكن السيطرة على الأمة الاسلامية وتحقيق الأهداف النصرانية فيها (٤) . وهذا لمن يكون الا كما قال لورنس براوان : " اذا اتحد المسلمون أمكن أن يصبحوا قوة على العالم وخطرا . أما اذا بقوا متفرقين فانهم يظلون حينئذ بلا وزن ولا تأثير " .

أما القس سيمون فكان أوضح في التعبير حيث كان يرى أن الوحدة الاسلامية تجمع آمال الشعوب وتساعدهم على التخلص من السيطرة الأوروبية . من أجل ذلك يجب أن يحول بالتنصير مجاري التفكير في الوحدة الاسلامية حتى تستطيع

(١) جورج انطونيوس : بقظة العرب ، ص ٩٩ . ١٠٦ .

(٢) اسماعيل الكيلاني : فصل الدين عن الدولة ، ص ١٢٦ .

مصطفى خالد وعمر فروخ : التبشير والاستعمار ، ص ٢٦ .

(٣) اسماعيل الكيلاني : المرجع السابق ، ص ١٢٦ .

(٤) اسماعيل الكيلاني : المرجع السابق ، ص ١٢٨ .



النصرانية أن تتغلغل في المسلمين<sup>(١)</sup>. فاذا أرادت أوروبا أن تثير على المسلمين حربا صليبية جديدة عن طريق التنصير فلا بد من نشر الكنائس والمدارس والمستشفيات في البلاد الاسلامية وارسال المنصرين إلى مختلف بلاد العالم ، ومن هذا المنطلق تستطيع حركة التنصير تحقيق مآربها السياسية ومطامعها الاقتصادية<sup>(٢)</sup>.

ومن ثم حلت روح التنصير ونشر المسيحية محل الروح الصليبية أي أن أوروبا اخذت تتجه الى غزو عقلي وثقافي فكري تستكمل به غزوها العسكري والسياسي<sup>(٣)</sup> وذلك حينما بدأت الكتاب التنصيرية تتقاطر على العالم الاسلامي - كما سبق - . وكان ذلك على شكل موجات من الرهبان والراهبات الى الجزائر وتونس ومصر والشام ، بدعوى افتتاح المدارس والمستوصفات فكان هؤلاء أوائل الكتاب لجيش وجهته البابوية في غزو فكري يستهدف العالم الاسلامي ، وهذه الإرساليات التبشيرية لم ترسل الا تمهيدا لانقضاء الحملات العسكرية الأجنبية على الدولة الإسلامية بهدف تصفية الحسابات القديمة منذ الحروب الصليبية<sup>(٤)</sup> فانطلقت البعثات التنصيرية ساعية لتحقيق غايتها مستخدمة جميع الوسائل المتاحة لها دون تفریق بين وسيلة فكرية أو عسكرية ، فكانت طليعة الغزو الاستعماري الجديد ، واذا حدث أن احدى هذه الارساليات أشارت بأن يتقدمها الجيش أولا لأن ذلك لم يحدث على التحقيق قبل القرن الثالث عشر الهجري الموافق للقرن التاسع عشر الميلادي ، وذلك حتى يستطيع المنصرون

(١) مصطفى خالد وعمر فروخ : التبشير والاستعمار ، ص ٣٦-٣٧ .

. اسماعيل الكيلاني : فصل الدين عن الدولة ، ص ١٢٦ .

(٢) مصطفى خالد وعمر فروخ : المرجع السابق . ص ١١٥ .

(٣) محمد عبداللطيف البحراري : التاريخ المعاصر وعلاقته العضوية بالأزمة ، مجلة دارة الملك

عبدالعزيز ، ع ٣ ، س ١١ ، ص ٨١ .

(٤) موفق بن المرجه : صحوة الرجل المريض ... ص ١٦٥-١٦٦ .

تمهيد الطريق لتلك الحملات العسكرية . وقد ظهر ذلك جليا في أواخر أيام الدولة العثمانية بعد أن بلغت من الضعف ما يمكن معه اختراق سورها عن طريق القوة العسكرية<sup>(١)</sup> .

وقد عملت هذه الارساليات التنصيرية على احتكار العلم والتعليم فقامت بفتح المدارس لجميع مراحل التعليم بدءا من رياض الأطفال وانتهاء بالدراسات العليا . ووضعت المناهج التي تحقق غايتها في جميع المناطق التي سيطر عليها الاستعمار الغربي لتركز في أيدي النخبة التي تربت على المناهج التي وضعها هؤلاء المنصرون والتي أصبحت ترى أن السير خلف الحضارة الأوروبية هو عنوان كل شيء ومصدر كل رقي وتقدم . لأن التعليم الآن هو السلم الحقيقي للوصول الى الزعامة . وعن طريق هذه الزعامة يمكن تحقيق الأهداف التي تخدم النهاية التي من أجلها خرجت هذه الارساليات<sup>(٢)</sup> .

وحيث تعددت هذه الارساليات التنصيرية وتضارب نشاطها اتفقت فيما بينها بحيث تغطي أنحاء دولة الخلافة الإسلامية<sup>(٣)</sup> .

وكان الأتراك العثمانيون على حق حينما بدأوا يرتابون منذ أمد بعيد من حركة التنصير في الدولة العثمانية . ولا غرو فان المنصر يسبق الجيش الى كل مكان<sup>(٤)</sup> . ويمهد له الطريق . وعلى الرغم من أن الدولة لم تعترف بالكنايس الكاثوليكية حتى القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي . حينما

(١) اسماعيل الكيلاني : فصل الدين عن الدولة . ص ١٢٧ .

(٢) اسماعيل الكيلاني : المرجع السابق . ص ١٢٨-١٢٩ .

(٣) موفق بن المرجه : صحوة الرجل المريض . ص ١٦٦ .

(٤) مصطفى خالد وعمر فروخ : التبشير والاستعمار . ص ١١٦ .

انحصرت رعايتها بالارثوذكس الذين يتمتع بطريقتهم في اسطنبول بنفوذ كبير ،  
وبعد اصطدام الكنائس الكاثوليكية بالارثوذكسية اصبحت هي الأخرى تتمتع  
بالاستقلال (١) .

وكان السبب في ذلك أن الكاثوليك بموجب الامتيازات الممنوحة لهم عام  
١١١٣هـ حصلوا في الدولة العثمانية على حقوق خولتهم امتلاك الكنائس فيها.  
وكان الروس يسعون جاهدين لسلبهم تلك الامتيازات واعطائها للأرثوذكس  
لحمايتهم لهذا المذهب ، ولذلك اصطدمت روسيا بفرنسا ووقفت الدولة العثمانية  
الى جانب فرنسا ، ومنحتها زعامة الكنائس حسب أسبقية الامتيازات فاصطدمت  
الدولة مع الروس بمساعدة إنجلترا وفرنسا والنمسا وانتهى هذا الأمر بمعاهدة  
باريس سنة ١٢٧٣هـ / ١٨٥٦م (٢) .

وبعد ذلك أخذت الارساليات التنصيرية تشد الرحال الى الأناضول  
مستهدفة عاصمة الخلافة وأزمير ، ثم يمت وجهتها نحو بيت المقدس فوجدته مرتعا  
خصبا .

لذلك عملت حركة المستشرقين على إنشاء المدارس والجامعات (٣) ، في  
لبنان بالتعاون مع المنصرين والارساليات التنصيرية والاستعمارية ، في محاولة منهم  
لغرس مبادئ التربية الغربية حتى يشبوا مستغربين في حياتهم وسلوكهم وتفكيرهم

(١) موفق بن المرجه : صحوة الرجل المريض ... ص ١٦٥ .

(٢) على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٥٣ .

(٣) ولزيد من التفصيل والاطلاع على هذه الجمعيات او الجامعات وتأثير المنصرين في تأسيسها انظر :

- أيس النصولي : أسباب النهضة العربية في القرن التاسع عشر ، حققه ووقدم له : عبد الله الطباع

( الطبعة الأولى ، بيروت ، دار ابن زيدون ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م ) من ( ص ٨٥ - ١٠٠ ) .

وتخف لديهم موازين القيم والمبادئ الاسلامية<sup>(١)</sup> . وقد دفع نشاط هذه المدارس التنصيرية المختلفة رجال الدين المسيحيين الوطنيين في الشام على اختلاف مذاهبهم الى مضاعفة نشاطهم التعليمي بفتح المدارس المختلفة من أجل المحافظة على كيانهم<sup>(٢)</sup> .

ولذلك الغرض أنشأوا عدة مؤسسات تعليمية في لبنان أهمها ( الجامعة الأمريكية ) في بيروت سنة ١٢٨٣هـ / ١٨٦٥م ، والتي كانت قبل ذلك تسمى باسم " الكلية السورية الانجيلية " وهي جامعة بروتستانتية ، كان الهدف من انشائها هو تأصيل الأفكار الهدامة بين شباب بلاد الشام المثقفين<sup>(٣)</sup> .

وبعدها بقليل أنشئت في بيروت كلية القديس يوسف ، التي تعرف اليوم ( بالجامعة اليسوعية ) وهي جامعة كاثوليكية ، وتدير أعمالها ارسالية التنصير الكاثوليكية في بيروت ، فكان لها الحظ الأوفر في نشر الأفكار الفرنسية في بلاد الشام<sup>(٤)</sup> ، وكانت هاتان الكليتان تصولان وتجولان في ميدان الثقافة في الوقت الذي لم يكن فيه في الشام كلية اسلامية ، الأمر الذي فتح الباب على مصراعيه للأفكار الهدامة لتحتل عقول طلائع المثقفين الذين سارعوا للانخراط في صفوفهما<sup>(٥)</sup> .

وقد اشتهرت هذه الارساليات بخطتها ووفرة الوسائل التي أعدتها

- 
- (١) مصطفى محمد رمضان : العالم الاسلامي في التاريخ الحديث والمعاصر ( القاهرة ، دار الوفاء للطباعة ١٤٠٣هـ / ١٩٨٢م ، ص ١٤٩ .
- أنيس النصولي : أسباب النهضة العربية في القرن التاسع عشر ، ص ٨٥ .
- (٢) محمود صالح مني : حركة اليقظة العربي ، ص ٦٤ .
- (٣) مصطفى محمد رمضان : المرجع السابق ، ص ١٤٩ .
- (٤) مصطفى محمد رمضان : المرجع السابق ، ص ١٤٩ .
- ، محي الدين الخطيب : الغارة على العالم الاسلامي ، ص ٨ .
- (٥) مصطفى محمد رمضان : المرجع السابق ، ص ١٤٩ .

وتسلحت بها لمقاومة دين الاسلام<sup>(١)</sup> . وكان الطلاب المسلمون في الكلية الأمريكية يجبرون على الدخول يوميا الى الكنيسة التابعة للكلية الأمريكية ليشهدوا بعض الطقوس المسيحية ، حتى احتج بعض الطلاب المسلمين الفيورين على اسلامهم في سنة ١٣٢٦هـ / ١٩٠٩م .

فاصدرت الكلية في بيروت منشورا ردا على احتجاجهم جاء في مادته الرابعة مايلي :

" ان هذه كلية مسيحية أسست بأموال شعب مسيحي هم اشتروا الأرض وأقاموا الأبنية ، وهم أنشأوا المستشفى وجهازه ولا يمكن للمؤسسة أن تستمر اذا لم يسندها هؤلاء وكل هذا قد فعله هؤلاء ليوجدوا تعليمات يكون الانجيل من مواده فتعرض منافع الدين المسيحي على كل تلميذ ... وهكذا نجد أنفسنا ملزمين بأن نفرض الحقيقة المسيحية على كل تلميذ... ، وان كل طالب يدخل مؤسستنا يجب أن يعرف مسبقا ماذا يطلب منه ... " (٢) .

ثم تلى ذلك أن أعلن مجلس أمناء الكلية في هذه المناسبة " ان الكلية لم تؤسس للتعليم العلماني ولا لبث الأخلاق الحميدة ، ولكن من أولى غاياتها أن تعلم الحقائق الكبرى التي في التوراة ، وأن تكون مركزا للنور المسيحي وللتأثير المسيحي ، وأن تخرج بذلك على الناس وتوصيهم به " (٣) .

وهنا يتجلى لنا أهداف هذه المؤسسات الغربية المسيحية واضحة وسافرة ليعلم كل مسلم مدى تأثير هذه الأفكار الغربية التي تتعرض لها البلاد الاسلامية ،

(١) محي الدين الخطيب : الغارة على العالم الاسلامي ، ص ٨ .

(٢) مصطفى خالدي وعمر فروخ : التبشير والاستعمار ، ص ١٠٥ .

، مصطفى محمد رمضان : العالم الاسلامي في التاريخ الحديث والمعاصر ، ص ١٥٠ .

(٣) مصطفى خالدي وعمر فروخ : المرجع السابق ، ص ١٠٥ - ١٠٦ .

، مصطفى محمد رمضان : المرجع السابق ، ص ١٥٠ .

والتي لا تخلو عاصمة اسلامية من بعض المعاهد البروتستانتية ، والكاثوليكية أو مدارس للارساليات الأجنبية المتعصبة <sup>(١)</sup> .

وكانت الارساليات الأمريكية في المقدمة رغم تأخر وصولها عن ارساليات اليهود الانجليز الذين استهدفوا اسطنبول وأزمير وسالونيك <sup>(٢)</sup> ، فتنبهت الدولة العثمانية لهذا التحرك فأخذت تراقب المنصرين مراقبة دقيقة حتى تضيق عليهم الخناق في تلك المناطق ، وكانوا يخشون من المنصرين البروتستانت لأن هؤلاء كانوا يتوارون خلف العلم البريطاني ، ثم أيضا من المنصرين اليسوعيين لأنهم يشتغلون لحساب السياسة الفرنسية، فأخذت تقاوم المنصرين في جميع أرجاء الدولة العثمانية، وتحول بين المنصرين وبين وصولهم الى بلاد العرب ، ثم وقفت الدولة من المنصرين كلهم موقفا حازما حتى أصبح التنصير في الدولة العثمانية مستحيلا للرقابة الشديدة التي فرضتها عليهم . فعندما فتحت الجمعية التنصيرية بضع مدارس في (لبنان ) لأطفال الدروز في عام ١٢٩٢هـ / ١٨٧٥م أجبرتها الحكومة العثمانية على التخلي عنها أمام الحزم العثماني ، على أن الدولة لم تستطع أن تتخذ سياسة علنية تجاه المنصرين لأن هؤلاء في بادئ الأمر كانوا يأتون في الظاهر كرعايا انكليز أو أمريكيين أو دنمركيين أو فرنسيين . فاذا استقروا في الدولة أخذوا يدعون سرا الى النصرانية ما أمكنهم ، لذلك كان هؤلاء اذا وجدوا مضايقات من الدولة لجأوا الى قناصلهم ، وكانت هذه القناصل تدافع عنهم كرعايا أجناب في الظاهر أيضا . ولكن عندما صعب على البروتستانت الوصول الى المسلمين التفوا حول الأرثوذكس والأرمن ، فلجأ بطريق الأرمن الى الباب العالي فحرص الباب العالي على حماية الأرمن من المنصرين البروتستانت ، فتدخل السفير البريطاني فأخذ

(١) مصطفى محمد رمضان : العالم الاسلامي في التاريخ الحديث والمعاصر . ص ١٥٠ .

(٢) موفق بن المرجه : صحوة الرجل المريض ... ص ١٦٦ .

يسعى لدى العثمانيين حتى استطاع سنة ١٢٦٧هـ/ ١٨٥٠ م أن يحصل على مرسوم عثماني يعترف بوجود طائفة بروتستانية وطنية منحت من الحقوق مثلما منحت الكنيسة الكاثوليكية والأرثوذكسية في الدولة العثمانية<sup>(١)</sup>.

ولما أدركت الدول الأوروبية أن المنصرين آلة فعالة في تأييد النفوذ الأجنبي في الدولة العثمانية أخذت الدول تتسابق في استخدام المنصرين فكانت انكلترا لها الدور الريادي في ذلك الأمر، ولكنها كانت لا تخشى من النفوذ الأمريكي كما كانت تخشى النفوذ الفرنسي والاطالي. لكن الدولة العثمانية لما فقدت سياستها الحكيمة تجاه المنصرين ظلت تمنع الأطفال المسلمين من دخول المدارس التنصيرية قبل الانتهاء من التعليم الابتدائي في المدارس الرسمية. ثم كانت تلزم الارساليات بأن يكون التعليم الديني في تلك المدارس مقصورا على المسيحيين وحدهم.

وعندما ظهر ضعف الدولة العثمانية أخذت الدول الأجنبية تزيد في تظاهرها بدعم المنصرين. ولقد كان المنصرون يطلبون من دولهم أن تؤيدهم ولو كان ذلك مخالفا للعرف الدولي فتستجيب الدول لرغبة منصريها تأييدا لنفوذها السياسي والديني معا، فكانت تضغط على الدولة العثمانية بين الحين والآخر حتى تدين أمام رغبات هؤلاء المنصرين<sup>(٢)</sup>. فحرصت بريطانيا على حماية ارسالياتها البروتستانية خاصة سواء أكانت هذه الارساليات انجليزية أم أمريكية أم ألمانية، لنفوذها الفعال في الدولة في ذلك الحين. وحين أرادت الدولة العثمانية منع باعة الأناجيل الدوارين من التجول في المدن والقرى قام قناصل الدول بالتدخل حتى حملوا الدولة العثمانية على السماح لهم بذلك<sup>(٣)</sup>.

تلى ذلك اغلاق الدولة العثمانية مدارس المنصرين الأمريكيين في بيروت

(١) مصطفى خالدي وعمر فروخ: التبشير والاستعمار، ص ١١٦.

(٢) مصطفى خالدي وعمر فروخ: المصدر السابق، ص ١١٦-١١٧.

(٣) موفق بن المرجه: صحوة الرجل المريض...، ص ١١٨.

سنة ١٣٠٦هـ/١٨٨٨م لأن المدارس فتحت أبوابها بلا رخصة أو اذن من الحكومة . ولكن القنصل الأمريكي في بيروت تدخل في الأمر حتى سمح الوالي العثماني في بيروت علي رضا باشا بأن تعود تلك المدارس الى فتح أبوابها على ألا تقبل الا التلاميذ المسيحيين فقط . ولكن القنصل مازال يسعى حتى حمل الوالي علي إلغاء هذا الشرط ، مع أن أمريكا مثلا لا يمكن أن تقبل لمدرسة أن تستقبل الطلاب الأمريكيين بلا رخصة ، ثم تلقنهم بعد ذلك ما يخالف المبادئ الأمريكية (١) فكيف وهذه المدارس تنصر المسلمين ؟ ولكن المنصرين وصلوا الى اسطنبول منذ عام ١٢٦٣هـ/١٨٤٦م حتى أصبحت مركزا لأعمال المنصرين ووكرا آخر بعد الشام أمينا على نشاطاتهم ولاسيما بعد تأسيس الكنيسة البروتستانية في سنة ١٢٦٧هـ/١٨٥٠م ، ولم يكن اختيار المنصرين لاسطنبول كمركز رئيسي لنشاطهم مجرد صدفة بل لأنها كما يقول " بلس " محط أنظار المسلمين ، وعاصمة المسلمين ، وعاصمة أمير المؤمنين ، وفيها راية الاسلام على اتساع رقعة العالم الإسلامي . لذلك فقد سعت الارساليات التنصيرية للتمركز فيها بشكل أو بآخر مما ساعدها على رصد الحركات السياسية ومتابعة التطورات أولا بأول تحت شعار الخدمات الطبية والتعليمية (٢) .

وعلى الرغم من أن خط كلخانة منذ صدوره في سنة ١٢٥٥هـ/١٨٣٩م لم يشر الى التعليم فان السنوات التي تلت اصداره شهدت تغيرا ملحوظا في التفكير الحر في داخل الدولة العثمانية . فقد انشئت المدارس على حساب بعض الأتراك الذين درسوا في أوروبا أو زاورها ، وقد تأثروا وامتثلوا حماسا للمعاهد التي

(١) مصطفى الخالدي وعمر فروخ : التبشير والاستعمار ، ص ١١٩-١٢٠ .

(٢) موفق بن المرجه : صحوة الرجل المريض ... ، ص ١٦٦-١٦٧ .



شاهدوها . ولهذا فانهم بعد عودتهم وضعوا الخطط لبناء المصانع دون ايجاد الرجال المدربين لتشغيلها . كما جرى الحديث عن انشاء جامعة دون وجود أي كوادر اسلامية مؤهلة للتدريس فيها . وقد بدئ في انشاء مدارس ثانوية جديدة وقليلة ، كما قامت كنيسة غلطة سراي بتشجيع من فرنسا بتوفير التعليم الغربي للأولاد من كل الملل والنحل باللغة الفرنسية والعربية كما أنشئت أيضا المدارس الخاصة للبنات ولتدريب المعلمين ، ففي عام ١٢٧٦هـ / ١٨٥٩م أنشئت مدرسة لتدريب الموظفين ليكونوا اداريي المستقبل يدرسون الشئون العامة والدولية . ونتيجة لذلك التحرك من بعض الأتراك انفصلت مدارس الحكومة بصفة رسمية عن أشرف العلماء ، ووضعت تحت اشرف ادارة جديدة ذات صفة علمانية، فتوسع التعليم الحديث بشكل سريع منذ حرب القرم ، واشتمل على فروعها العالية عسكرية ومدنية ، ثم جرى تطوير مدارس الطوائف الدينية بافتتاح المعاهد العليا . فزاد عدد الارساليات الأجنبية الأمريكية والنمساوية والفرنسية والانجليزية والألمانية والايطالية<sup>(١)</sup> .

الا أن الباب العالي في آخر الستينات من القرن التاسع عشر شدد قيوده على المؤسسات التعليمية التنصيرية والتي اعتبرت مراكز لاثارة القومية والثورة لدى الأقليات الدينية . مع أن النظام التعليمي العثماني لم يجتذب الا عددا قليلا من المسيحيين ، ولكن الفترة التي تلت تطبيق قانون التعليم في سوريا من قبل الدولة شهدت سحب تلاميذ المسلمين الذين التحقوا بمدارس المنصرين . ثم تلى ذلك صدورأوامر الدولة العثمانية التي منعت الحاق المسلمين بمدارس الارساليات في حالة وجود مدرسة حكومية أو مدرسة اسلامية خاصة في منطقة الشام . فرد المنصرون

---

(١) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني . ص ٢١٨ .

على ذلك بزيادة عدد مدارسهم خاصة ولأنهم فسروا السياسة التعليمية الجديدة التي اتخذتها الدولة لحماية أبناء المسلمين من الوقوع في حركة التنصير والردة عن الاسلام بأنها تهدف الى شل حركتهم<sup>(١)</sup> . ولم يكن ميدان الغزو الفكري أو التدخل السياسي عن طريق التنصير مقصورا فقط على الأمريكيين أو الانجليز أو الفرنسيين أو الايطاليين وحدهم بل ان روسيا القيصرية أرادت أيضا أن تدلي بدلوها فتنهت أن في الدولة العثمانية طائفة أرثوذكسية ، فأرادت أن تسيطر أولا على البطارقة والأساقفة الارثوذكسيين وتتخذهم وسيلة الى تحقيق أطماعها السياسية في الدولة العثمانية عن طريق التنصير، واتجه الروس الى شراء الأراضي ، فأخذوا يشترون الأراضي في فلسطين خاصة وقيمون عليها الأبنية حتى يتدخلوا بعد ذلك في الأمور الدينية والسياسية<sup>(٢)</sup> ، وقد اقتصر نشاط الارساليات الروسية القيصرية على فلسطين فقط<sup>(٣)</sup> . على أن نزول الروس الى ميدان التنصير قد وقف في وجه المساعي الانجليزية والفرنسية والايطالية<sup>(٤)</sup> .

يتضح لنا هذا الموقف من خلال دراستنا للوثائق البريطانية التي جاء فيها أن روح التنافس الاستعماري التنصيري بين بريطانيا وروسيا وفرنسا من خلال الارساليات والمعاهد الكنسية خدمة للأهداف التنصيرية والتي تكشف عن النفوذ الروسي في فلسطين والشام . ومن أهم عوامل روسيا بلاشك أن جهودها قد توجت

(١) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٢١٩ .

(٢) مصطفى خالدي وعمر فروخ : التبشير والاستعمار ، ص ١٢١ .

(٣) موفق بن المرجه : صحوة الرجل المريض .. ص ١٦٧ .

(٤) مصطفى خالدي وعمر فروخ : المرجع السابق ، ص ١٢١ .

، موفق بن المرجه : المرجع السابق ، ص ١٦٧ .

الآن بالنجاح الذي جعل السيطرة والسياسة في يدها حالياً . على أساس حماية وتدعيم الكنيسة الأرثوذكسية التي يديرها اسماً الأساقفة ورجال الدين اليونانيون . وهناك أيضا عنصر آخر هو بناء المدارس الروسية ، وتشجيع هجرة اليهود الى فلسطين بالرغم من موقف الدولة العثمانية الحازم ضد هجرة وتسرب اليهود إلا أن الروس حاولوا تهجير اليهود الى هذه المنطقة لتوطيد نفوذهم في تلك البلاد . كما كان الروس لا يغفلون أيضا حمايتهم الشاملة على اليهود ليضيفوا لقوسهم السياسي أيضا وترا ثانيا لا يقل عن قوة الأول (١) .

ويتضح من هذه الوثائق ظاهرة أخرى هو أن السياسة البريطانية تتهم دوما السياسة الفرنسية وخاصة في الأماكن المقدسة ، وتلقى باللوم على سياستها التي اتسمت بالتقصير خاصة في مجال التنصير والنشاط الثقافي ، والعتاب البريطاني هو ظن بريطانيا أن فرنسا مقصرة ، فلا بد أن تكون اللغة الفرنسية سائدة في الشام كله مع النفوذ السياسي أيضا لما للروس من سيطرة و نفوذ لا ترغبه بريطانيا إطلاقا ، إلا أنهم أشادوا في تقاريرهم عن ذكاء اليهود ومشاربتهم في الشام ونشاطهم الدراسي في كلية الزراعة في يافا ، لأنهم كانوا يتحدثون الفرنسية بطلاقة إضافة الى لغتهم العبرية .

هذه هي أهم نتائج هجرة اليهود من البلدان الأوروبية المختلفة الى فلسطين والذين كانت لديهم الرغبة في الإقامة الدائمة في فلسطين وعدم العودة الى أهلهم ومواطنهم الأصلية في روسيا وأوربا (٢) .

كما أنه من الواضح أن اتجاه روسيا وفرنسا وبريطانيا من خلال هذه

(١) F.O. : 424/197 Sir N.O'coner to the Marquises of Salisbury . No: 91, 24- 12-1898.

Ibid . (٢)

الوثيقة وما سيأتي هو تشجيع وتمهيد الاستيطان اليهودي في فلسطين .  
كما أن نبرة الاحتقار بالنسبة للعرب المسلمين في المنطقة واتهامهم بالكسل  
ما هو إلا صدى لما كان يدور أو يخطط له في أروقة الخارجية البريطانية والتمهيد له  
لما بعد حول اعلان وعد بلفور .

أما القنصل الروسي عندما يحصي هؤلاء اليهود في فلسطين فإنه سيكسب  
أو سيضيف عنصرا أساسيا لنفوذه في البلاد العربية التابعة للسلطان العثماني  
لاستغلاله يهود السلاف لحل مشاكلهم من أوروبا ولكسب سياسى جديد والعمل  
على خلق مشاكل للسلطان في ميدانه .

وقد تضمنت هذه الوثيقة أيضاً إشارة الى أن الحقائق التي يراها نورمان<sup>(١)</sup>  
من الممكن أن تحقق توقعات ( لورد بيكم فيلد )<sup>(٢)</sup> . كما أنها يمكن أن تكون  
عاملا مهما في وجود حل للمسألة الشرقية ، ويؤكد النفوذ السياسي الروسي في  
البلاد لأنه هو النفوذ السائد في فلسطين والأراضي المقدسة ، ولايستبعد في الرقبت  
نفسه أن تفرض الوصاية على الأماكن المقدسة<sup>(٣)</sup> . ويؤكد أيضا انتشار النفوذ  
التعليمي والديني الروسي في سوريا وفلسطين لأن مسيحي سوريا ليسوا كثيري  
العدد وإنما ينقسمون في اتجاهاتهم العقديّة الى عدد كبير من الكنائس المختلفة التي  
يعتمد بعضها على روما والبعض الآخر منعزلا عنها . فالمجموعة الأولى تشمل

(١) نورمان : عمل سكرتيرا في سفارة بريطانيا لدى اسطنبول . وقد كلف باعداد تقرير عن انتشار

النفوذ التعليمي والديني للروس في سوريا وفلسطين بناء على طلب دولته .  
F.O.:424/198, Sir N.O.Conor to M. Salisbury, No.76,26-4-1899.

(٢) لورد بيكم فيلد: زعيم يهودي ويتوقع أن تنافس الدول الأوروبية على الشرق غرضها الأول السيطرة  
على فلسطين ، فاذا أعطت القدس لليهود ، بطلت مناظرتهم ومنافستهم .  
- حسان على حلاق: موقف الجولة العثمانية من الحركة الصهيونية .

(٣) Ibid ., No. 76, 26-4-1899 .

اللاتين والذين يتبعون الطقوس الرومانية العديدة لكل الكنائس اليونانية والسورية والكاثوليكية الأمريكية والمارونية نتيجة لجهود الارساليات التنصيرية الفرنسية والايطالية والروسية التي دخلت بلاد الشام .

وعموما كان اهتمام هذه الارساليات بسوريا وفلسطين من خلال رحلات الحج التي تنظمها جمعية فلسطين الأرثوذكسية التابعة لروسيا<sup>(١)</sup> وذلك من أجل تركيز نفوذهم في المنطقة العربية والإسلامية .

وتحدث هذه الوثيقة أيضا عن جمعية فلسطين ونشاطها وسيطرتها على أقوى سلاح والمتمثل في هيمنتهم على المدارس الأرثوذكسية التي تمكنت تدريجيا من نشرها على طول البلاد وعرضها . وينقل المحرر عبر الوثيقة تخوفه فمن خلال هذه المدارس سوف يتم بناء جيل جديد ينتمي الى روسيا بالولاء والروح . كما تشير هذه الوثيقة الى الجهود المتواصلة التي تقوم بها الحكومة الروسية من خلال جمعية فلسطين لتحقيق هدف التنصير في ولاية سوريا ولبنان . وتنفق هذه الجمعية بسخاء مالا يقل عن ( ٦٠٠٠ ) ستة آلاف جنيه تركي سنويا ، لدفع ايجار المباني المدرسية المتأخرة المستأجرة في تلك البلاد ومرتبات المدرسين مع ايجاد طبيب روسي في دمشق .

هذا الطبيب اضافة الى عمله طبيا كان يعمل جاسوسا للجمعية ، وكان يقوم برحلات في كافة البلاد يعالج فيها مجانا كل من يقابله ، بل ويقدم المساعدة لمرضاه ، يقدم لهم الكشف والأدوية اللازمة مجانا ، وكان غالبية هؤلاء المدرسين من الروس ، وحرصا على نشر اللغة الروسية في البلاد كان يتم تعليمها مجانا على أن هذه المدارس مدارس عثمانية اسما ، اذ لا يعترف بها أنها مدارس روسية رسمية

(١) F.O.: 424/198-Sir N.O. Conor to M. Salisbury, No, 76, 26-4-1899.

حتى تضمن الاستمرارية (١) .

ومن الأحداث في سوريا ما صرح به مصدر مسنول بقوله : ان بعض القرى المجاورة للقدس والتي كانت كاثوليكية منذ خمسة وعشرين سنة تحولت الآن الى أرثوذكسية تماما بسبب الاغراءات المالية والمساعدات الشخصية من خلال المساعدات الروسية لآباء وأطفال المتحقين بالمدارس الروسية ، وينقل صاحب هذا التقرير مآراه بالاضافة الى ما نقله عن طريق المخبرين ان قرية على الطريق بين القدس وبيت لحم تسمى ( بيت يانا ) ، هذه القرية تحول سكانها جميعا الى أرثوذكسين تماما .

وتشير هذه الوثيقة الى أن جمعية فلسطين التنصيرية الأرثوذكسية قد حصرت أكثر أعمالها في مجال التعليم وأنه من المرجح ما كانت تقابل مقاومة كبيرة من السلطات الكنسية المسنولة عن المجتمع المحلي ، والتي أسعدها أن تتلقى مساعدات مالية من هذه المؤسسة لمدارسها (٢) .

وبسبب هذه الاغراءات والمساعدات الكبيرة التي تغدقها روسيا عليهم فاننا نرى نبرة القنصل ومساعدتهم في الأماكن المقدسة يرفعون خوفهم ويفضلون لدولهم ما يرونه من النشاط البارز لروسيا في بلاد الشام ونفوذها السائد . كما يظهر الخلاف واضحا بين السياستين البريطانية والروسية في الصراع المذهبي الذي أقلق انكلترا من بسط النفوذ التعليمي الروسي في سوريا والشام ، أو الغزو الفكري الذي تتزعمه روسيا لتحويل أهل سوريا ولبنان وفلسطين الى أرثوذكس . كما يظهر هذا القلق من المذكرة التي تلقى اللوم على السلطات الكنسية الإيطالية والفرنسية التي تغري بالمال الروسي ، وما حققته روسيا في القدس لا يمكن للقارئ

(١) F.O. : 424/198 , Sir N. O'Conor to M. Salisbury , no. 76, 26-4-1899.

(٢) Ibid .

العادی أن یغفله .

ففي الأماكن المقدسة تجد أن الكنيسة الأرثوذكسية هي المسيطرة في كل مكان وحتى في المدينة نفسها ، وعلى مايجاورها كلها كانت مكتظة بالمؤسسات الروسية . ويؤكد هذا التقرير ان كل مبنى هام جديد هنالك إما كنيسة روسية أو دير روسي ، أو تكية لاستقبال أفواج المسيحيين الذين يفدون على دفعات مابين ثلاثة آلاف الى أربعة آلاف شخص<sup>(١)</sup> . في جهود مكثفة لاستيعاب سكان هذه المناطق للدخول الى ملتهم الأرثوذكسية دون ملل ودون كلل ، في تقديم المساعدات المادية والعينية من أجل بناء المدارس والكنائس في تلك المناطق .

هذا التقرير المفصل ينقل لنا معلومة أخرى هي أن العملة الروسية هي الساندة اذ أغرقت البلاد وأصبحت كثيرة التداول والاستخدام في المجتمعات المسيحية الأخرى التي لاتتصل بكنيسة روما والتي نلمس منها يوميا الدخول أفواجا الى المذهب الأرثوذكسي الروسي لأسباب اقتصادية بحتة . مع اتهام فرنسا بأنها غير قادرة على مقاومة التنصير الروسي صراحة ، ويبدو أن ممثلي القنصلية الفرنسية في فلسطين وسوريا تبذل جهودها ولكنها جهود سرية لمواصلة تأييد اللاتينيين الكاثوليكين الذين لازالت فرنسا تحميهم في الشرق ولكن الواضح أنها لم تستطع أن تنجح في مسعاها<sup>(٢)</sup> .

وهذه وثيقة أخرى عن بعض المدارس الروسية أيضا في الجليل تبين نتائج جولة السيد انيشيوف عضو مجلس الشيوخ الروسي ورئيس جمعية فلسطين الروسية على تلك المدارس في الناصرة وحيفا للبنين والبنات، هذه المدارس أقيمت على هذا النظام الذي انتهجه الروس ، حيث يدرس في هذه المدارس اللغة الروسية

(١) F.O.: 424/198, Sir N. O'Conor to M. SaLISBURY, No.:76, 26-12-1899.

(٢) Op.Cit., No. 76, 26-4-1899.

والعربية ، كما يدرس بها حصة أوحصتين في الأسبوع في فن النجارة ، والحرف الأخرى للبنين ، كما يوجد بالمدرسة طيبان رجل وامرأة ملحقان بالمدرسة يقدمان الرعاية الصحية مجاناً<sup>(١)</sup> .

وهنا ينقل لنا القنصل الانجليزي ريتشارد من القسطنطينية التقرير السري رقم (١٠) عن انتشار النفوذ التعليمي الروسي في دمشق لإبلاغه لحكومته عن الأرثوذكسيين اليونانيين الذين سلموا مدرستين واحدة للبنين والأخرى للبنات تضم الأولى مائة وخمسين طالبا وتضم الثانية مائة طالبة ، للقنصل الروسي . وقد سبقتها مدرسة يونانية سلمت أيضا للقنصلية المذكورة ، والسبب في ذلك هو النقص المالي الذي تعانيه تلك المدارس حتى تضمن دفع مرتبات المدرسين والكتب للطلبة وغيرها من المصروفات المستقبلية .

إضافة إلى ذلك تحول مدرستين من المدارس اليونانية في لاطاكيا إلى الكنيسة الروسية ، وقال التقرير ان التأثير الروسي في سوريا لازال في تقدم ونمو مستمر<sup>(٢)</sup> .

وهذا التقرير أيضا يسجل ظاهرة أخرى من النفوذ الروسي أو جمعية فلسطين التنصيرية على المدارس اليونانية التي حولتها إلى حظيرتها بالاعتماد المالي لهذا نراها أيضا تسيطر على المدارس وتبناها للصرف عليها لا بل تحولها إلى أرثوذكسية روسية مما زاد قلق بريطانيا في هذا الشأن إلى جانب المذاهب أو الملل الأخرى النصرانية لرعاياها هناك .

إلا أن القنصل ريتشارد مطمئن لأنه من بين جميع المدارس الأرثوذكسية

---

F.O. 424/199, From Consul General Drummond Hay to sir N.o,Conor No. (١)

3/1, 3/2, 15-16-6-1899.

F.O.: 424/200-Consul Richards to Sir N. O'conor No. 23, 19-2-1900. (٢)



اليونانية في دمشق مدرسة البنين لازالت تحتفظ باستقلالها عن النفوذ الروسي ،  
ويعلل ذلك بأن عدم ضم هذه المدرسة هي سياسة مرضية ولا بأس بها .

أما عدد المدارس التنصيرية الروسية في سوريا وفلسطين فقد بلغ نحو  
( ١٠٠ ) مائة مدرسة للبنين والبنات ، تشمل نحو ( ٨٠٠٠ ) ثمانية آلاف تلميذ ،  
تحت الإدارة الروسية ، وأنها تكلف جمعية فلسطين للتنصير حوالي ( ١٠٠٠٠٠ )  
مائة ألف نابليون <sup>(١)</sup> تدفعها روسيا بسخاء <sup>(٢)</sup> .

ويواصل ريتشارد في تقريره التصويري عن المدارس الروسية وأنظمتها  
للمدارسين بها فيشرح ذلك بأن كل مدرسة تعلق صور القيصر على الحائط جنبا الى  
جنب مع صورة مريم العذراء ، أو أحد القديسين حيث ينحني أمامها التلاميذ  
بصحبة مدرسيهم ثلاث مرات في اليوم ويرسمون بيدهم علامة الصليب . ثم ان  
التلاميذ يتعلمون كيف يتحدثون عن الامبراطور بكلمة " ملكنا " وهو تعبير يعني  
لرعايا الدولة العثمانية المتحدثين باللغة العربية السلطان فقط .

ويضيف الكاتب ريتشارد في تقريره قوله : " وربما يعترض البعض بقوله ان  
هذه اشياء تافهة ، بالعكس فإنها ليست عديمة الفائدة اذا نظرنا اليها كقشات تبين  
لنا اتجاه الريح " <sup>(٣)</sup> .

أما شروط الدخول للتلاميذ فان من كانت أعمارهم أقل من خمس سنوات  
لايسمح لهم بدخول هذه المدارس ، ولكن لا يوجد قيد زمني فيما يتعلق بمدارس  
البنات ، وتفسير ذلك أن عقل الطالب ينمو بسرعة أكبر من عقل الفتاة ، وأنه  
كلما بدأ مبكرا في مرحلة التعليم كلما قل احتمال محو ما في عقولهم عند استمرار

(١) النابليون : عملة فرنسية تساوي ٢٠ فرنك . الوثيقة السابقة رقم (٢٣) .

(٢) F.O.: 242/200 , - Consul Richards to Sir N. O'conor No. 23,19-2-1900.

(٣) Ibid .

معرفتهم وتعلمهم حقائق الحياة <sup>(١)</sup> كما يراها هؤلاء المنصرون . أو بمعنى آخر غسل عقول التلاميذ الذين ينضمون الى هذه المدارس .

وقد أساء المنصرون الى العلم لما اتخذوا منه وسيلة الى التنصير ، فالأب يأتمن المدرسة على ابنه عند دخوله هذه المدرسة حيث يقدم أتمن مالمديه وهو يظن أنه وضع ابنه بين يدي أنبل الناس ، بين يدي المعلمين ... ولكن المعلم المنصر انسان خلت من قلبه اجمل معاني الانسانية : فقد الأمانة والاستقامة والصدق <sup>(٢)</sup> ، وهذا ما أشار اليه التقرير السابق عن شروط دخول المدارس التنصيرية بالنسبة للأطفال وبيان الأعمار المطلوبة لدخولهم ، والسبب في ذلك وخاصة البنين <sup>(٣)</sup> .

وفي الحقيقة ان الأمانة والاستقامة والصدق من أهم صفات المعلمين او المدرسين وخاصة في المراحل الأولى من تعليم الطفل الابتدائي ، فاذا فقدها المعلم فقد مقومات الأمانة العلمية .

والمنصر اذا تعرض لرجل ناضج حاول استمالته بشتى الطرق ليقنعه بصواب مذهبه . أما ان يتخذ رجل أشرف مهنة أسبغها الله على الانسانية وسيلة ليخدع بها الأطفال ومن فوقهم فهذا في منتهى الكفران للأمانة العلمية التي علقت في رقاب الناس . فقد قال أحمد شوقي في هذه المهنة الجليلة مايلي :

قم للمعلم وفه التبجيلا

كاد المعلم أن يكون رسولا

أعلمت أشرف أو أجل من الذي

يبني وينشئ أنفسا وعقولا

وهذا الذي ظنه شوقي وظنه الناس لم يتوفر في هؤلاء الذين جاءوا الى بلادنا بعنوان الانسانية بينما تنطوي أنفسهم على أشياء أخرى استغلوها في أشرف مكان

(١) F.O. 242/200, Consul Richards to Sir N.O'cnor, No.23, 19-2-1900.

(٢) مصطفى خالدي وعمر فروخ : التبشير والاستعمار ، ص ٧٦ .

(٣) Ibid .

وهو المدرسة . فاستغل المنصرون العلم ستارا لغايات هي بدورها لغايات أخرى غير شريفة أرادوها هم ومن استخدمهم ليصلوا عن طريق هذا النشاط الى استعباد الشرق واستغلاله سياسيا واقتصاديا.

فقد حصل رامون لل على مقابلة البابا سلسطين الخامس وكان ذلك عام ١٢٩٤هـ / ١٢٩٤م وقدم له كتابين فيهما خطة لنشر النصرانية بين المسلمين : أولهما : احتوى على منهج للكنيسة لتتخذ العلم والمدارس وسيلة للتنصير . ثانيهما : احتوى على منهج لتنصير المسلمين بالقوة اذا لم تنجح فيهم الجهود التعليمية .

ومع أن البابا لم يصغ الى خطط رامون كما قيل ، فان التنصير عن طريق التعليم كان مشروعاً بابويا في أساسه وتطوره<sup>(١)</sup>.

وللتعليم أيضا عند المنصرين غاية واحدة هي تنصير التلاميذ الذين يحضرون الى مدارسهم ، ومعلوم ان في الكلية الانكليزية في القدس طلاب مسلمون ونصارى ويهود ، وكانت سياسة المدرسة أن تنصرهم كلهم ، الا أن المقصود الأول هو تنصير الجموع الاسلامية . لهذا اختار المنصرون ميدان التعليم لأن للتعليم أثرا فعالا ، بل هو أقوى وسائل التنصير ، والمنصرون يرون أن الوسيلة التي تأتي بأحسن الثمار في تنصير المسلمين إنما هي تعليم أولادهم الصغار ، ومن أجل ذلك لانستغرب أن يدعو المنصرون الى بناء مدارس كثيرة في البلاد الاسلامية . وأول مدرسة أنشأها المنصرون في الدولة العثمانية مدرسة البنات في عام ١٢٤٦هـ / ١٨٣٠م .

بهذه الطريقة يخرج التلاميذ المسلمون من عناية المدارس المسلمة ، ولكي يكون التنصير كاملا كان يرى المنصرون أن يتولوا هم التعليم في جميع أنواعه في

(١) مصطفى خالدي عمر فروخ : التبشير والاستعمار ، ص ٧٦-٧٧.

البلاد العثمانية وأقطارها ، فرياض الأطفال مهمة جداً لتحقيق خططهم ، لأن التعليم الديني في هذه المدارس يجعلها باباً مفتوحاً للتنصير ولتأثيره في عقول الأطفال الغضة ، ثم ان الذين يشرفون على مدارس رياض الأطفال يكونون أكثر اتصالاً بأهل الطلاب .

وكذلك التعليم الابتدائي وسيلة ثمينة للتنصير ، لأنه يمكن للمنصرين أن يثبتوا أقدامهم في القرى تحت ستار التعليم الابتدائي الذي تحتاج إليه القرى ، وللمدارس الابتدائية فضل على الكليات بصفة عامة لأنها تمكن المنصر من أن يصل الى العقول وهي لا تزال تتأثر بما يلقي اليها <sup>(١)</sup> .

وهنا نرى أيضاً بعض المنافسة بين الروس والانجليز لاتهام الروس بضعف التعليم لديهم لطول الدراسة للغة الروسية ، وتجاهل بعض الموضوعات الأخرى الأكثر أهمية للأطفال ، مما جعل الأطفال يفضلون التعليم في مدارس الارساليات البريطانية ، حتى أصبحوا من حين لآخر يفضلون العودة الى مدارسهم الأساسية ويتزكون المدارس الروسية على اعتبار أنها أفضل من الارساليات الروسية <sup>(٢)</sup> . هذا النفوذ في مجال التعليم يوضح بجلاء الدور الروسي في عملية الغزو الفكري في منطقة اسلامية مهمة من الدولة العثمانية .

كما يظهر تغلغل التنصير الروسي وغيره في البلاد العربية في دمشق وفلسطين ولبنان . ثم نلمس أن هناك محاولة السيطرة على رنانة الناحية الدينية . وأيضاً أطماع روسيا القيصرية في الدولة العثمانية ، ومظاهر الغزو الفكري في مجال التعليم .

فالتعليم في مدارس الارساليات المسيحية انماهي واسطة الى غاية ، هذه

(١) مصطفى خالدي وعمر فروخ : التبشير والاستعمار ، ص ٧٦-٧٧ .

F.O. 242/200 Consul Richards to sir N. O'conor No.23, 19-2-1900.

F.O. 242/200 : Ibid . (٢)

الغاية هي قيادة الأفراد الى الدين النصراني ، وتعليمهم حتى يصبحوا جموعا وأفرادا نصارى .

فكل التقارير تبين التنافس الاستعماري بين بريطانيا وروسيا وتوظيف الارساليات والمعاهد التعليمية والكنسية خدمة لأهداف الاستشراق والتنصير والاستعمار .

وهنا نرى موقف فرنسا كرد للنفوذ الروسي خلال فقدانها لمركزها عندما قام السيد جيسويت بانشاء مدرسة طبية ، وهذه الخطوة لاشك أنها خطوة مضادة للنشاط الروسي في الشام<sup>(١)</sup> .

ثم ان المجتمع المسيحي قام مؤخرا بشراء قطعة أرض في شارع دمشق في مدخل بيروت لإقامة تلك المدرسة الطبية على أن يلحق بهذه المدرسة مؤسسة علاجية للوقاية من مرض الديفتريا ، الذي يعج في تلك البقاع ، ولما علمت الحكومة الفرنسية ساهمت بحوالي مليون فرنك للمساعدة البريطانية في هذا المشروع ، وقد تم بناء سور حول هذه الأرض<sup>(٢)</sup> ، وهذا كرد فعل للنشاط الروسي في الأماكن المقدسة .

ويتابع القنصل العام البريطاني دارموند حديثه عن نشاط الروس فيذكر بأن طراسوف مفتش المدارس الروسية في طرابلس قد قام بزيارة المدارس المشتركة الروسية في فلسطين ، وقد قرر في هذه المدارس تدريس اللغة الروسية والعربية وتدريس كتاب يشمل العقيدة الأرثوذكسية واللغة الفرنسية والتركية ، وسوف

(١) F.O. 242/200, Sir. N. O'conor to Marguess of Salisbry No: 55, 22-5-1900.

(٢) -F.O. : 424/200 Consul-General Drummond Hay to N. O'conor, N. 55/2,26 4-1900

تواصل روسيا فتح مدارس أخرى في طرابلس بهذا النظام<sup>(١)</sup> .  
ويلاحظ في تلك التقارير رصد قناصل بريطانيا لكل من نفوذ روسيا  
وفرنسا في الدولة العثمانية في مجال التعليم والتنصير . ويأتي هذا انطلاقاً من روح  
التنافس الاستعماري التي سادت بين القوى الأوروبية واطماعها في ممتلكات الدولة  
العثمانية ثم في وسائل التنصير عن طريق الخدمات التعليمية والعلاجية والدعم المالي  
الهائل من الدول الأوروبية ، كما يتضح ذلك من مساعدة الحكومة الفرنسية ،  
فأصبحت بهذا أرض الشام أرض مناورة أو خلية للصراع بين الملل والمذاهب  
المسيحية حول نفوذ كل ملة من هذه الطوائف على أرض سوريا وفلسطين ولبنان  
حتى اسطنبول ، ولم تخل من ذلك التنافس بينها على كسب أكبر أرض من الدولة  
العثمانية على مختلف قاراتها الثلاث ، ومحاولة تنصير الأمم الإسلامية عن طريق  
التعليم المجاني والخدمات الطبية والمساعدات الزراعية.. الي غير ذلك من أساليب  
تحايل دول الغرب عن طريق الغزو الفكري .

وما يهمنا هنا هو تناول الغزو الفكري من الناحية التاريخية وبالأسلوب  
التاريخي في بلاد الشام وعاصمة الدولة العثمانية حسب خطة البحث ، وتأثير ذلك  
على عقيدة ناشئة المسلمين بالطرق والأساليب الملتوية بعد أن تقرر تحويل منهج  
الصليبيين من الغزو العسكري الى الغزو الفكري للمشرق الإسلامي حين فشلت  
حلوهم العسكرية لاستكمال حلقات المؤامرة الصليبية الشرسة لهدم الخلافة  
الإسلامية كما سيأتي في بابه .

(١) F.O. 424/200, Consul-General Drummond Hay to N.O., Conon No.:55/3,

7-5-1900.

أما سياسة الرجل المريض : فهي من حملات التشهير بالدولة العثمانية والتي كان منها اطلاق عدة مسميات او صفات على السلطان العثماني فهو "المريض الذي لايرجى شفاؤه" و "المريض المشرف على الموت" و "رجل أوروبا المريض" (١).

ولقد جاءت هذه التسمية نتيجة لاتساع كيان الدولة العثمانية وعدم استطاعتها تجديد أنظمتها وادارتها ، ولما كانت عظمتها مبنية على أساس قوتها العسكرية لذا عندما سقطت هيبتها العسكرية سقطت بالتالي الدولة بعد الضربات التي سددها الغرب المسيحي اليها في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين الموافق للقرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين ، وذلك بعد أن تغلغلت فيها الامتيازات الأوروبية التي شجعت الغزو الفكري الذي ساعد في تمزيق الأفكار والأوطان . وبعد أن أصبحت بلدان الخلافة العثمانية في يد الاحتكارات الأوروبية الرأسمالية . وظهرت معها الأطماع الاستعمارية لاقتسام أملاك الدولة العثمانية التي أطلقوا عليها "تركة الرجل المريض" وقد حاول سلاطين آل عثمان أن يقوموا بمشروعات اصلاحية اتخذت النظام الغربي نموذجاً لها ، وقد بدأ الاصلاح في المقام الأول بآلة الحرب والنظم العسكرية . وقد فشلت هذه المحاولات الاصلاحية أيام سليم الثالث ( ١٢٤٠ - ١٢٢٢ هـ ) وأيام محمود الثاني ( ١٢٢٣ - ١٢٥٥ هـ ) وغيرهما من السلاطين الذين أتوا بعدهما في القرن الثالث عشر الهجري الموافق للقرن التاسع عشر الميلادي ، نظراً لأن هذه المحاولات لم تأخذ بعين الاعتبار الصيحات المخلصة المنبعثة من الجزيرة العربية التي تنادي بالإصلاح على أساس التوحيد الخالص من كل دخيل وعلى أساس عقائد السلف الصالح ، أي البناء على

(١) عبدالعزير الشدوي : الدولة العنصرية دولة اسلامية مفترى عليها ، ج ٢ ، ص ٨٣٠ .

حسين لبيب : تاريخ الأتراك العثمانيين ، ج ٢ ، ص ١٣٧ .

قواعد الماضي المجيد التي أسسها الجدد ، وبدلاً من أن تتعامل الدولة العثمانية مع هذه الصيحات وتصغى لها التفتت إليها لتضربها كما سنرى فيما بعد <sup>(١)</sup> .

ولقد أطلقت هذه الأوصاف أول ما أطلقت على الدولة العثمانية في بادئ الأمر على المجال الدبلوماسي المغلق ، وعلى أعلى المستويات ، ولكن لم تمض عدة سنوات حتى أعلنت هذه الأوصاف كنعوت لاتنفصل عن الدولة العثمانية وما أحاطت به من ملابسات فوقف على هذه الأوصاف الرأي العام البريطاني . ثم انتقلت إلى سائر الدول الأوروبية ، فتلقفها المؤرخون والباحثون ورجال السياسة الحاقدون أو المتحاملون على الدولة العثمانية وأعداء الإسلام واتخذوا منها مادة للتشهير بالدولة العثمانية <sup>(٢)</sup> .

والحق أن دعاية الرجل المريض دعاية مغرضة ، أطلقت على الخلافة العثمانية في سنواتها الأخيرة فكانت هذه الدعاية دعاية يهودية انطلقت أو خرجت من يهود الدوامة من داخل تركيا نفسها ، فهذا التعبير لم يكن إذا ترجمة حقيقية لوضع الخلافة قبل السقوط <sup>(٣)</sup> إنما هو مجرد دعاية للتشهير بضعف الدولة العثمانية وإيهام الناس بذلك لزعزعة ولاء ولاياتها أو شعبها لاتخاذها حجة للانفصال ، وهذا ما فعله محمد علي حين ثار على الدولة العثمانية فانفصل عن الدولة في سنة ١٢٥٦هـ / ١٨٤٠م وقد سبقه في ذلك اليونان .

وبعد القضاء على ثورة محمد علي ، عادت روسيا إلى سياستها التقليدية في

(١) محمد مصطفى رمضان : العالم الإسلامي الحديث والمعاصر ، ص ١١٢ .

(٢) عبدالعزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، ج ٢ ، ص ٨٣٠ .

(٣) هيئة الأخبار : الرجل المريض ، دعاية يهودية ، مجلة التضامن الإسلامي ، السنة ٤٤ ، الجزء ٥ ، ص



محاولة تدمير الدولة العثمانية عن طريق الضغط العسكري واثارة الاضطرابات في البلقان<sup>(١)</sup>. وسواء كان هذا التوجه للتشهير بالدولة العثمانية أو للحط من قيمتها من بعض حكومات الدول الأوروبية، أو جاءت كتاباتهم بوحى من أفكارهم وحقدهم فقد كان الهدف من ذلك كله هو النيل من الدولة باعداد وتخطيط فكري مسبق، لدى الدول الأوروبية بأن سقوط الدولة العثمانية لا محالة أمر وشيك وأن نهايتها آتية لا يختلف فيه اثنان<sup>(٢)</sup>.

وهذا التخطيط مبني على حقد دفين من هذه الدول للدولة العثمانية التي حملت راية الاسلام لعدة قرون، وقد أجهضت الحروب الصليبية التي قادتها أوروبا نحو الشرق لإخراج الدولة العثمانية من أوروبا واحتلال بيت المقدس، فقد ردت عليهم الدولة وشتت جمعهم الصليبية حلفا بعد حلف وجعلتهم في حالة الدفاع عن النفس بعد استيلائها على القسطنطينية وتهديد روما كما سبق. هذا الحقد وراء الاشهار باطلاق تلك النعوت "كالرجل المريض" وغير ذلك من الأوصاف الأخرى، التي تنم عن الحقد الدفين والقصد منها احباط الدولة في مسيرتها وتحريك كوامن أحقاد الأقليات النصرانية داخل هذا الكيان، واشعال الثورات لتزيد من تفاقم الأزمات في الدولة ويسهل تدخل الدول الأوروبية لحماية أقليتها.

وان أول من أطلق عبارة "رجل أوروبا المريض" (The Sickman of Eurpe)

(هو نيقولا الأول قيصر الروس) سنة ١٢٤١هـ/١٨٢٥م - ١٢٧٢هـ/١٨٥٥) في حديث جرى في سنة ١٢٦٠هـ/١٨٤٤م، بينه وبين ابردين (Aberdeen) رئيس وزراء بريطانيا في وندسور Windsor بانجلترا وكانت تجمع بين الاثنين صداقة حميمة، وهذا التصريح لم يكن جديدا أيضا على القيصر،

(١) أحمد عبدالرحيم مصطفى: في أصول التاريخ العثماني، ص ٢٠٧.

(٢) عبدالعزيز الشناوي: الدولة العثمانية دولة اسلامية مفرى عليها، ج ٢، ص ٨٣٠.

فقد أعلن رأيا من قبل أشد لهجة وأكثر بعدا عن اللباقة الدبلوماسية حيث قال:  
"ليس في استطاعتي أن أبعث الحياة في الموتى، ان الامبراطورية العثمانية دولة ميتة  
وليس لدي ثقة في أن يستمر هذا الجسم العجوز محافظا على الحياة، انه في حالة  
انحلال في جميع النواحي" (١).

هذا التصريح جاء في وقت كان الرأي العام الأوربي يطالب أوربا بطرد  
العثمانيين من القارة بقضهم وقضيتهم، واقتسام أملاكهم بين الدول النصرانية (٢).

ثم أعاد القيصر عبارة الرجل المريض في سنة ١٢٧٠هـ/١٨٥٣م أي قبيل  
نشوب حرب القرم، فقد تحدث القيصر مع سير هاملتون سيمور (Sir Hamilton Seymour)  
السفير البريطاني لدى روسيا ومع غيره من رجال السياسة وكانت  
هذه الأحاديث تدور حول اعتقاد نيقولا الأول أن سلطان الدولة العثمانية رجل  
مريض للغاية وقد يلفظ أنفاسه الأخيرة فجأة، وأن من الخير للسلام العالمي أن  
تفكر الدول الأوربية مليا في توزيع ممتلكاته قبل وفاته. وأعرب عن رأيه بإمكان  
تسوية الأمور بين بريطانيا والروس دون الحاجة الى قيام أي حرب (٣).

فاقترح استيلاء روسيا على اسطنبول، وبريطانيا على مصر وكريت، فلم  
يجبه السفير الانكليزي جوابا شافيا، بل أجاب القيصر بأن الأولى أن نعالج هذا  
الرجل المريض وأن نتعهدده بالعناية حتى تعود اليه قوته كما كان سابقا، لأنه لو  
مات حصلت بعده حروب تهدر فيها الدماء أنهارا في سبيل تقسيم تركته، ولم  
يكن ذلك من الدولة الانجليزية حبا في تقوية الدولة العثمانية أو حبا في بقائها، بل  
كان خوفا من امتداد روسيا في الشرق واحتلالها لاسطنبول فتشارك انكلترا في  
ملك البحار الذي انفردت به.

(١) عبدالعزيز الشناوي: الدولة العثمانية دولة اسلامية مفرى عليها، ج ٢، ص ٨٣٠-٨٣١.

، حسين لبيب: تاريخ الأتراك العثمانيين، ج ٢، ص ٣٧.

(٢) عبدالعزيز الشناوي: المرجع السابق، ج ٢، ص ٨٣١.

ومن جهة أخرى خابر نابليون الثالث حكومة بريطانيا بشأن الاتحاد مع الدولة العثمانية لتحديد مصير الأماكن المقدسة في فلسطين حتى لا ينتشر نفوذ الروس بين رعايا الدول العثمانية الأرثوذكس الذين ربما يبلغ عددهم احد عشر مليوناً، لاسيما وأن حماية روسيا للقدس وما جاورها يجعل انكلترا في خطر على أقرب طرقها لمستعمراتها الهندية وهي طريق مصر، فاقترنت بضرورة مقاومة نفوذ روسيا في هذه الأماكن خصوصا بعد أن اطلعت على مقاصد القيصر عن طريق سفيرها في روسيا<sup>(١)</sup>. وهذا النفوذ الروسي الذي لمناه فيما سبق من خلال الوثائق والتقارير حيث تركز اهتمامها أساسا على حماية وتدعيم الكنيسة الأرثوذكسية التي يديرها الأساقفة ورجال الدين المسحيين، وهذا ما نقله نابليون الى حكومة بريطانيا للتحالف ضد هذا النشاط الروسي في الأماكن المقدسة، وهو بلا شك توجه من روسيا للموقف السياسي في فلسطين، وهو من العوامل التي توجت نجاح روسيا في السيطرة السياسية على المنطقة<sup>(٢)</sup>.

ولكن هذا التعبير الأوربي الذي أطلق على الدولة العثمانية يعني المرض الذي انتاب السلطان العثماني - انما هو تعبير سياسي قصد به الضعف السياسي والعسكري بعد أن بلغ بالدولة حد الاضمحلال والتدهور وذلك في أواخر القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي . في الوقت الذي تتقدم فيه أوربا نحو الأمام، وكانت الدول الأوربية الكبرى مسنولة عن جانب كبير من ذلك الضعف الذي ألم بالدولة<sup>(٣)</sup> لكثرة ثورات واضطراب الأقليات المسيحية داخل الدولة والتدخل من هذه الدول الأوربية بقصد الحماية .

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية . ص ٤٩٣ .

(٢) -F.O. 424/197, Sir. N. O'Concor to the Marguess of Saliabury, No. 91, 24  
12-1899.

(٣) عبدالعزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها . ج ٢ ، ص ٨٣١ .

ولكني أقول : حين تركت الدولة العثمانية التمسك بالكتاب والسنة وحاولت تطبيق القانون الوضعي واقتباس الأنظمة الغربية أتاها الضعف ، لأن هذه القوانين الوضعية لاتوافق بأي حال من الأحوال طبيعة الدولة الاسلامية وهذا الخط هو الذي جرف الدولة عن مسارها القويم . ثم ان معارضة العلماء لكل اصلاح جديد لايتنافى مع الشريعة هو أيضا سبب من أهم أسباب ضعف الدولة ، ولاننسى أن هذا التشهير بالدولة أيضا غزو فكري لخطط سابقة وهي زحزحة الدولة العثمانية الاسلامية عن النظم الاسلامية والصاقها بالنظم الأوروبية ، لأن نظرة الاستشراق الأوربي هو القضاء على الاسلام والمسلمين أو استعبادهم واستغلال ممتلكاتهم . ومن أهداف التشهير بالدولة العثمانية أن تصبح الشعوب الاسلامية بهذه الدعايات مؤمنة بعجزها عن تحقيق أي تقدم في المجالات الاقتصادية والفكرية والاجتماعية والسياسية ، واستحالة تقدمها مادامت مصرة على التمسك بدينها لأن هذا الدين هو السبب الحقيقي لتخلفهم .

يقول هانوتو " الدين الاسلامي يبعث في الانسان الخمول والكسل ولايوقظه منهما... وان تقدم المسلمين مستحيل ونجاحهم بعيد . لأن الاسلام معتقدتهم يحول دون ذلك ، وان كل حكومة انفصلت عن الشرق وسارت على منهاج أوربا علما ومدنية نجحت " (١) .

فعملاء الغزو الفكري قد عملوا منذ نهاية القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي ، وبعبارة أصح منذ أن استقر في أوكار الصهيونية والاستعمار مشروع تدمير الخلافة الاسلامية ، عند ذلك عملوا على تخريب الفكر الاسلامي وتشويه عقل المسلمين ، وهم مازالوا يعملون حتى الآن ، الأسماء تتغير ، والشعارات تتلون ولكن الهدف واحد ، هو تجريد المسلم من أقوى سلاح وهو

(١) السيد أحمد فرج : جذور العلمانية ، ص ٣٦ .

ایمانه بالله وان کتاب الغزو الفکری هي ( الطابور الخامس ) الذي يعمل داخل صفوفنا ليجهز على مقاومتنا (١) .

هكذا نرى أن التعاون بين السياسة والتنصير قد أعطى ثمرته الأولى حين أخذت الأقطار الشرقية تسقط تحت السيطرة أو النفوذ الأجنبي إلا أن هذه الدول لم تقص المنصرين بعد أن نالت حاجتها من جهودهم بل زادت تقربهم لأنهم أصبحوا أعرف الناس للبلاد وأهلها واتجاه الريح فيها . لذلك وقف المنصرون ورجال السياسة وجها لوجه أي الفريقين يجب أن يتقدم على الآخر وكان المنصرون من قبل يدخلون البلاد وبعد ذلك يأتي الجيش على أثرهم ولكن في أواخر القرن الثالث عشر الهجري التاسع عشر الميلادي أخذ المنصرون بتقديم الجيش أولا لأن ذلك سهل مهمتهم (٢) .

معنى هذا أن تغيير هذا النظام يعطينا دلالة واضحة على ضعف الدولة العثمانية وعدم استطاعتها المقاومة كما كانت في سابق عهدها لبعدها هذا الميدان عن الدولة المشغلة في مشاكلها الداخلية وما أكثرها آنذاك .

لهذا فضل المنصر أن يعمل بعد الاحتلال ، فكان حكام هذه المناطق على حق في تخوفهم حينما اعتقدوا أن مجي المنصرين ينتهي دائما بتدخل الدول النصرانية في بلادهم ثم بعد ذلك يفقدون جزءا منها أو يفقدونها (٣) .

...

(١) محمد جلال كشك : الغزو الفکری ، ( الطبعة الرابعة ، القاهرة ، المختار الاسلامي للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٣٩٥هـ ) ص ٧ .

(٢) مصطفى خالدي وعمر فروخ : التبشير والاستعمار ، ص ١٤٤-١٤٥ .

(٣) مصطفى خالدي وعمر فروخ : المرجع السابق ، ص ١٤٥ .

## الفصل الثالث

### عوامل الغزو الفكري الأوربي للدولة

- أ - أثر الموقع الجغرافي .
- ب - تطورات التاريخ الأوربي الحديث ، العلمانية والقومية والحركة الدستورية .
- ج - صدى الثورة الفرنسية .
- د - أطماع الدولة الأوربية في ممتلكات الدولة الإسلامية .
- هـ - أنشطة الماسونية والصهيونية .



## أثر الموقع الجغرافي السياسي :

يأتي أهمية موقع القسطنطينية السياسية على الكرة الأرضية نظرا لموقعها الجغرافي حيث تقع عند نقطة اتصال آسيا بأوروبا عن طريق مضيق اسطنبول "البوسفور" الذي يصل البحر الأبيض بالبحر الأسود بواسطة بحر مرمرة<sup>(١)</sup>. وهذا الموقع يعد من المواقع الاستراتيجية على الكرة الأرضية لتحكم القسطنطينية في هذا المضيق بين البحر الأبيض والأسود، ولهذا أسموها في القديم باسم الفاروق لفرقها بين البرين والبحرين، أي ( بين بر آسيا وأوروبا والبحر الأسود والأبيض )<sup>(٢)</sup>، ويصل عرض هذا المضيق المذكور في أقرب نقطتين بين البرين الى أقل من كيلو متر<sup>(٣)</sup>.

وقد قال نابليون في القسطنطينية " لو كانت الكرة الأرضية في حوزة دولة واحدة لكان يلزمها أن تتخذ القسطنطينية عاصمة لها "<sup>(٤)</sup>.

ولتلك المدينة أهمية خاصة لدى المسلمين، وقد وردت البشارة النبوية بفتحها<sup>(٥)</sup>، فكانت أمنية من أكبر آماني المسلمين، وقد حاولوا عدة محاولات لفتحها، لكنها لم تكمل بالنجاح حتى شاءت ارادة الله أن يقوم السلطان محمد

(١) أحمد جودت باشا : تاريخ جودت ، ج ١ ، ص ٤١-٤٢ .

، علي حسون : تاريخ الدولة العتانية ، ص ٣١ .

(٢) محمد بيرم الخامس التونسي : صفوة الاعتبار بمستودع الاعصار والاقطار ( بيروت ، دار اصدار ،

طبع بالمطبعة الاعلامية بمصر سنة ١٣٠٣هـ ) ج ٥ ، ص ٤٢-٤٣ .

، أبو الحسن علي الندوي : ماذا خسر العالم بأخطا المسلمين ( الطبعة الثالثة ، الكويت ، دار القاد

، ١٤٠٢هـ ) ، ص ١٦٢ .

(٣) علي حسون : المرجع السابق ، ص ٣١ .

(٤) أحمد جودت باشا : المصدر السابق ، ص ٤٢ .

، أبو الحسن علي الندوي : المرجع السابق ، ص ١٦٢ .

(٥) علي حسون : المرجع السابق ، ص ٣١ .



الثاني " الفاتح " بفتحها ، فكان ذلك نصرا عظيما للاسلام والمسلمين وتحقيقا لحلم طالما ترقبوا تحقيقه (١) .

وقد عرفت هذه المدينة التي على ضفاف البوسفور بأسماء عديدة ، فكان اسمها عند السلاف ( زارغراد ) : أي مدينة الامبراطور ، وعند سكان شمال أوربا ( ميكالاغارد ) أو ( ميكل غارث ) ( Myklagaardor . Micklegarth ) أي البرج العظيم (٢) .

الا أن اليونان والرومان عرفاها باسم بيزنطة أو بيزنطية ( Bysanica ) نسبة الى مؤسسها بيزاس ( Basas ) وهو بحار يوناني ترك بلاده سنة ٦٥٢ ق.م مع بعض رفاق له وبعدهما مخرت بهم سفنهم في بحر ايجيه مروا بالدردييل ، ووصلوا الى البوسفور فاحتلوا القرن الذهبي لأنه آوى سفنهم ، ومع توالي الزمن كثر عددهم وعظم شأنهم وسموا موقعهم بيزنطة ( Bysance ) ، وبعد مرور الزمن أصبحت مدينة بيزنطة حاضرة الدولة البيزنطية . لذلك نقل قسطنطين الأول سنة ٣٢٤م مقر ملكه من روما الى بيزنطة وسمي المدينة باسمه ( القسطنطينية ) (٣) . وبهذا الاسم اشتهرت عند المسلمين والمسيحيين وغيرهم .

وفي عهد سلاطين آل عثمان سميت حين فتحها السلطان محمد الفاتح باللغة التركية اسلام بول ، أي مدينة الاسلام (٤) . ومنذ ذلك التاريخ اصبح اسمها اسطنبول بعد أن جرى بعض التعديل على الاسم التركي لها (٥) .

(١) محمد مصطفى صفوت : فتح القسطنطينية ، ص ٤٢ ، ٤٥ .

(٢) برنارد لويس : استنبول ، ص ١١ .

(٣) عزيز خانكي بك : ترك و اتاتورك ، ( القاهرة ، المطبعة العصرية ، الفجالة ) ، ص ١١٨ .

(٤) كامل باشا : تاريخ سياسي دولة عليية عثمانية ، ج ١ ، ص ٨٠ .

(٥) عزيز خانكي بك : المرجع السابق ، ص ١١٨ .

وسميت أيضا استانة (استانبول) وهي كلمة فارسية معناها العتبة، عتبة الدولة أي العاصمة<sup>(١)</sup>، كما سميت "دار السعادة"<sup>(٢)</sup>.

ونظرا لموقعها البري والبحري الفريد فانها كانت ميناء بحريا تمر به تجارة الشرق والغرب، وتحدها المياه من ضلعيها، ففي الشمال الغربي القرن الذهبي، وفي الجنوب الغربي يقع بحر مرمرة، وبين البحرين يجري المضيق (البوسفور)، وتقع هذه المدينة على سبع تلال، فمناخها معتدل ليس بشديد الحرارة صيفا ولا شديد البرودة في فصل الشتاء<sup>(٣)</sup>.

ويجدر بنا الآن القول بأن موقع اسطنبول موقع استراتيجي مهم حيث انها تربط قارتين مهمتين هما آسيا وأوروبا وقد اشتهرت بالصناعة والتجارة (٤)، وكانت التجارة تأتي اليها بحرا عن طريق البحر الأبيض والبحر الأحمر والبحر الأسود، وبرا من القارتين آسيا وأوروبا، وأهم تلك التجارات تجارة بلاد فارس والهند وغيرهما من البلاد الإسلامية، وكذلك تجارة الشرق الأقصى، والتجارة القادمة من شرقي أوروبا وغربها فهي مجمع لتجار العالم المعروف آنذاك، تأوي السفن من كل صوب الى مينائها في القرن الذهبي الذي يعج بحركة دائمة. وقد اهتمت الحكومات التي سبقت الدولة العثمانية وكذلك الدولة العثمانية بهذه المدينة وتسهيل حركة التجارة بها وتأمين سبل الراحة والعيش لهم، فاشتهرت أسواقها بمواد الترف والزينة والمصنوعات والعطور، والمنسوجات الحريرية والكتانية الجميلة ذات الألوان الباهية إلى جانب ذلك كان الصيارفة يزاولون مهنتهم بنجاح منقطع النظير.

(١) (مادة استانه) Ferit Develligla : Osmanli Ca-Turkce, Ansiklopedik Lugat.

(٢) عزيز خانكي : ترك و أتاتورك ، ص ١١٨ .

(٣) عبدالسلام عبدالعزيز فهمي : فتح القسطنطينية ، ص ١٦ .

(٤) كامل باشا : تاريخ سياسي دولت عليية عثمانية ، ج ١ ، ص ٨٠ .

وقد عملت الدولة العثمانية على نشر الإسلام فيها وتحويلها الى حاضرة إسلامية ، كما أنها عملت على سن سياسة خاصة بمرور السفن بمضيق البوسفور والدرديل وذلك لأنهما يمثلان نقطتي اتصال عالمية بين الشرق والغرب ، كما أن هاتين النقطتين تمثلان عنق الزجاجة بالنسبة للبحر الأسود والمخرج الوحيد له للمياه الدافئة حيث يمكن لتجار البحر الأسود الاتصال بالبحار العامة والمحيطات عن طريق تلك المضائق ، وكانت سياسة الدولة العليا هي فرض سيادتها على المضائق<sup>(١)</sup> . فالسلطان محمد الفاتح هو مؤسس نظام المضائق حين شيد القلعتين المتقابلتين في أضيق نقطة في مضيق اسطنبول كما سبق ذكره<sup>(٢)</sup> .

وقد استندت الدولة على ممارسة السيادة على المضائق تمشيا مع القاعدة القانونية التي تقول : اذا كان المضيق واقعا في أرض دولة واحدة وكان اتساعه لا يزيد على ستة أميال فان مياهه تعتبر مياهها اقليمية ، وتتبع هذه الدولة ، واذا زاد اتساعه على ستة أميال فانه لا يدخل تحت سلطة الدولة منه أكثر من ثلاثة أميال من كل ناحية من ناحية هذا المضيق على اعتبار أن المضيق كله تابع للدولة صاحبة شاطئيه اذ جرى العرف بذلك . وعلى أثر ذلك اتبعت الدولة العثمانية سياسة ناجحة في فرض سيادتها على البحر الأسود ، وكانت لها في ذلك الزمان حرية التصرف تفتحه لسفن بعض الدول على حسب اتفاقيات خاصة وللعبء منها استثنائيا ، وتقفله في وجه من تشاء ومتى تشاء<sup>(٣)</sup> وخاصة إذا كانت السفن سفنا حربية أو تحمل معدات حربية فيها خطر على البلاد الإسلامية . فالدولة بحكم موقعها الجغرافي معبر بين أوربا وآسيا أو بمعنى آخر بين بلاد الإسلام وبلاد المسيحية ، فهي المكان التي التصقت فيه القارتان وتقابلت فيه الديانتان وجها لوجه

(١) عبدالعزيز الشاوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، ج ١ ، ص ١٩٠ .

(٢) يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ١٣١ .

(٣) عبدالعزيز الشاوي : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٩٠-١٩١ .

في العصر الحديث ، فقد هاجمت الدولة العثمانية الاسلامية أوربا في عصر قوتها ، من هذا الموقع إلا أنها أصبحت في موقف الدفاع عن النفس في عصرها الثاني الذي استدعي نظرة شاملة في كل أمورها <sup>(١)</sup> . وخاصة في مشكلة المضائق البحرية لموقع الدولة بوجه خاص ، فمشكلة المضائق مشكلة دقيقة ، بل كانت صورة حساسة لمركز الدولة العثمانية من حيث القوة والشموخ أو الاضمحلال والضعف <sup>(٢)</sup> .

لذلك جعلت مسألة المضائق الجغرافية والسياسية شيئا واحدا ، فهي مشكلة ناشئة عن موقع الدولة أو أهمية موقع الدولة ومركز اسطنبول الخطير من حيث تحكمها في المضائق ، وهذا جد خطير للغاية بالنسبة لدولة ضعيفة التسليح ، وعلاقتها العدائية بروسيا التي تريد الخروج من سجنها عبر هذه المضائق الى البحار الدافنة في عصر كان المستقبل فيه للبحر والتوجه اليه ، لهذا ينبغي للحركة الإصلاحية أن تعالج هذه الأوضاع وأن تدفع هذه الأخطار المحدقة بالدولة من كل صوب حين ظهر بوضوح أن قوة الدولة قد اضمحلت في القرن الثاني عشر الهجري ، القرن الثامن عشر الميلادي ، وأصبحت قوة مصطنعة وأن الدولة اذا لم تستيقظ من نومها وتصلح من شأنها فانها سوف تنهار قوتها ومركزها عاجلا أو آجلا <sup>(٣)</sup> . فالدولة العثمانية كانت في عصرها الأول قوية الجانب استطاعت أن تفرض سيادتها على المضائق والبحر الأسود مع احترام الدول لهذه السيادة ، الى حد أن الرعايا الروس اذا أرادوا ممارسة التجارة بين موانئ البحر الأسود كان عليهم أن ينقلوا بضائعهم على سفن عثمانية تحمل العلم العثماني ، أما الدولة في عصرها الثاني فقد اضمحلت وتعرضت لضغوط سياسية وعسكرية أحيانا من الدول الأوروبية التي تسابقت في فرض معاهدات على الدولة حصلت بها على حق

(١) محمد عبداللطيف البحرأوي : حركة الاصلاح العثماني ، ص ٦٤ .

(٢) عبدالعزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ، ج ١ ، ص ١٩١ .

(٣) محمد عبداللطيف البحرأوي : المرجع السابق ، ص ٦٤ .

المرور لسفنها التجارية والحربية في البحر الأسود في وقت الحرب والسلام ، حتى بلغ الهوان والضعف بالدولة انها اعترفت في إحدى المعاهدات بأن الدفاع العسكري عن المضائق إنما هو مسئولية مشتركة بينها وبين الروس . وهذا يعد انتهاكا لسيادة الدولة العثمانية ، وعصفا بسياستها العليا ، نتيجة للهزائم العسكرية التي تعاقبت عليها ، والأخطار التي جثمت عليها لضعف سلاطينها في الفترة الثانية (١) كما سيأتي الحديث عنهم حين تكالبت الدول الأوروبية للضغط على الدولة من كل صوب ، باثارة المشاكل بين الأقليات المسيحية في البلقان والصرب ، لايجاد المبرر للتدخل الأجنبي بحجة حماية الأقليات المسيحية . وهكذا أصبحت الدولة في اضطرابات دائمة ، حتى أصبح التفكير جادا بين بعض دول أوروبا لاقتسام ممتلكات الدولة العثمانية ، إلا أن البعض الآخر كان يرى المحافظة على ممتلكات الدولة ، وأن تبقى الحالة كما هي عليه خوفاً من اندلاع الحرب حول هذه التركة .

٤

---

(١) عبدالعزيز الشاوي : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفرى عليها ، ج ١ . ص ١٩١ .

## ب - تطورات التاريخ الأوربي الحديث :

ان تطورات التاريخ الأوربي الحديث قد أوجد الحركة العلمانية والقومية والحركة الدستورية ، وهي احد عناصر الغزو الفكري الأوربي الذي تسرب للدولة العثمانية بصورة خاصة ، أو للعالم الاسلامي بصورة عامة بقصد تفتيت الوحدة الاسلامية ، وخلق جو من الاضطرابات والصراعات داخل جسم الدولة العثمانية .

فالعلمانية هي من نتاج الصراع الذي حصل بين البابوية والاباطرة أيهما أعلى ، البابا أو الامبراطور ؟ فانهى هذا الصراع بعد قرنين من الزمان بهزيمة البابوية وظهور العلمانية ، لاصدار الدساتير لبيان حدود الحاكم والمحكوم ، ويعني ذلك تحلل أوربا من الاقطاع الذي خيم على أوربا خلال العصور الوسطى ، وايجاد الدول الحديثة المنظمة ، لاستحالة العودة الى نظام أوربا الاقطاعي (١) .

ويؤكد عبدالكريم المشهداني أن معنى " العلمانية في المفهوم الغربي تعني أن شئون الحياة أمر خاص بنشاط الانسان وسعيه بمعزل عن أي نظام ديني أو روحي ، فهي تعني الدنيوية أو العصرية أو الزمنية ، والتفريق فيها واضح بين ثنائيات الله والقيصر والكنيسة والدولة والامبراطور والبابا والقانون الكنسي والقانون الوضعي " . فالدولة الأوربية تقف من الدين موقف المحايد ، لامعه ولا عليه مع كفالة حرية المعتقد وحرية العبادة وحرية التنصير الديني على شرط ألا يخل هذا بالنظام العام وعدم التزام الدولة بأي عقيدة دينية ، وحتى لا تميز أي عقيدة على الأخرى . (٢) .

(١) محمد عبداللطيف البحر اوي : التاريخ المعاصر وعلاقة العضوية بالازمنة الحديثة ، ( العدد ٢ السنة

الحادية عشرى ، ١٤٠٦هـ ) ، ص ٩٢ .

(٢) العلمانية وآثارها على الأوضاع الاسلامية في تركيا ، ص ١٣ .

والتفسير الشائع للعلمانية في الكتب الإسلامية المعاصرة هو " فصل الدين عن الدولة " ، والحقيقة أن هذا التفسير لا يعطى المدلول الكامل لمعنى العلمانية الذي ينطبق على الأفراد وعلى السلوك الذي لا يكون له صلة بالدولة ، ولو قيل إنها فصل الدين عن الحياة لكان أصوب ، ولذلك فإن المدلول الصحيح للعلمانية هو : " إقامة الحياة أو الأفراد في موقفها من الدين بمفهومه الضيق المحدود : فبعضها تسمح به كالمجتمعات الديمقراطية الليبرالية ، وتسمى منهج (العلمانية المعتدلة - Noreligious ) أي أنها مجتمعات لادينية ولكنها غير معادية للدين وذلك مقابل ما يسمى (العلمانية المتطرفة - Anti Religous ) أي المضادة للدين ويعنون بها المجتمعات الشيوعية ومشاكلها .

أما موقف الإسلام من هذا فلا فرق عنده بين المسيحيين فكل ما ليس ديناً في المبادئ والتطبيقات فهو في حقيقته مضاد للدين ، فالإسلام والادينية نقيضان لا يجتمعان ولا واسطة بينهما (١) .

ولقد كان للصراع الدائر بين الكنيسة ورجال الدين المتحررين في أوروبا أثر بعيد في التطرف ، ونقل معنى العلمانية إلى معنى يكاد يقرب من الإلحاد ، فقد كانت الكنيسة تتمتع بسلطان مطلق لا حدود له ، لا في شئون الدين فحسب بل في شئون الدنيا أيضاً . فكان لها وحدها تفسير الكون ووضع النظريات الفلكية والجغرافية دون الدخول في تفاصيل تلك القضايا ، ثم في المبدأ والمصير وقوانين المجتمع بكل تفاصيلها ، ولو خالف ذلك العقل والمنطق ، وزاد شعور الناس بعبء سلطان الكنيسة حين وقفت في طريق التقدم الفكري والعلمي وراحت تلاحق العلماء وتعدمهم حتى جاءت الثورة الفرنسية فحسمت هذا الموقف لصالح

(١) سفر عبدالرحمن الحوالي : العلمانية . ( الطبعة الأولى . مكة . دار مكة للطباعة والنشر . ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م ) . ص ٢٣ - ٢٤ .

اللادينة ( العلمانية ) (١) .

ولكن قبل ذلك كان النظام الاجتماعي الذي كان يسود الحياة في تلك الفترة أو طيلة القرون الوسطى هو نظام " الاقطاع " ، وهذا النظام أشع وأظلم النظم الاجتماعية التي عرفها التاريخ ، فالظلم دافعا سمة من سمات الحكم الجاهلي لأي مجتمع في كل مكان وزمان ، ولكن صورته في المجتمع الأوربي الاقطاعي كان أشد قسوة ، في الوقت الذي كان فيه المشرق الإسلامي ينعم بحياة هادئة في ظل العدالة الإسلامية وفي أفضل نظام اجتماعي على مر العصور عندما كان المسيحي في المقابل يعيش نير نظام الكنيسة البغيض . فليس هناك مقارنة ، وكان الاحتكاك المباشر بالمسلمين هو أولى محاولات الانسان غير المسلم الانفلات من المظالم الاقطاعية، وذلك عن طريق الفتوحات الإسلامية في أوربا ، وبلغ الاحتكاك ذروته إبان الحروب الصليبية ، وليس غريبا أن يكون أرقاء فرنسا هم رواد الثورة الفرنسية لموقعها الجغرافي المحاذي للمسلمين في الأندلس ، وبعد مركز البابوية عنها وهذا من الأسباب التي دفعتها الى روح التحرر والانطلاق (٢) .

اضافة الى ماسبق لانس الفتوحات العثمانية التي توغلت في أوربا لنشر الاسلام بها ، مما جعل هذه الدول تتعرف على الاسلام في عقر دارها ومما أعطاها دفعة قوية أيضا للثورة على افساد نظام الاقطاع والتحرر من القيود الكنسية التي

---

(١) عبدالكريم المشهداني : العلمانية وآثارها على الأوضاع الإسلامية في تركيا ، ص ١٣-١٤ .  
محمد أبوزهرة : محاضرات في النصرانية ، ( الطبعة الرابعة ، الرياض - الرئاسة العامة لإدارات  
البحوث العلمية ، ١٤٠٠هـ ) ، ص ٢٠٧-٢٠٨ .  
سيد قطب : المستقبل لهذا الدين ، ( الطبعة السابعة ، القاهرة ، دار الشروق ، ١٤٠٧هـ ) ، ص  
٤٠-٤١ .

(٢) سفر عبدالرحمن الحوالي : العلمانية ، ص ١٦٥ .



أصبحت لاتجاري طموحاتها كما هو الاسلام الذي يصلح أو يواكب كل زمان  
ومكان .

لذلك انطلقت الثورة الفرنسية في سنة ١٢٠٤هـ / ١٧٨٩م لتكون آخر  
مسمار يدق في نعش السمو الكنسي ، تلك الثورة التي كان واحدا من شعاراتها  
(اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس ) ، وبذلك تم الفصل بين الدين والدولة في  
أوربا <sup>(١)</sup> لتصبح أوربا اللادينية ( علمانية ) والتي فصلت سلطان الدين حين حصرته  
داخل جدران الكنيسة ، فمن أراد فليذهب اليه هناك <sup>(٢)</sup> .

لذلك يقول ويلز " كانت ثورة الشعب على الكنيسة دينية ، فلم يكن  
اعتراضهم على قوة الكنيسة بل على مساونها ونواحي الضعف فيها ، وكانت  
حركات تمردهم على الكنيسة حركات لا يقصد بها الفكك من الرقابة الدينية بل  
طلب رقابة دينية أتم وأوفى .. ولم يعترضوا على البابا لأنه الرأس الديني للعالم  
المسيحي ، انما اعترضوا عليه لأنه لم يكن كذلك ، أي لأنه كان أميرا ثريا دنيويا ،  
بينما يجب أن يكون قائدهم الروحي " <sup>(٣)</sup> . والحقيقة أن المناداة التي سبقت بفصل  
الدين عن الدولة في تاريخ الكنيسة ماهي في الواقع الا العودة بها الى ما كانت عليه  
في وضعها الأول الصحيح وأن انحرافها عن هذا هو الذي جرّها الى البلاء  
والشقاء .

أما الاسلام فان المناداة بفصله عن الدولة انحراف به عن وضعه الصحيح ،  
بل ان وقوع هذا الفصل في بعض مراحل التاريخ قد جر على الاسلام والمسلمين

(١) اسماعيل الكيلاني : فصل الدين عن الدولة ، ص ١١٦-١١٨ .

(٢) عبدالكريم مشهداني : العلمانية وآثارها على الأوضاع الاسلامية في تركيا ، ص ١٤-١٥ .

(٣) معالم تاريخ الانسانية ، ج ٤ ، ص ٩٨٩-٩٩٠ .

، سفر عبدالرحمن الحوالي : العلمانية ، ص ١٦٦-١٦٧ .

البلاء<sup>(١)</sup> ، لأن الاسلام عبادة ونظام شامل صالح لكل زمان ومكان أعطى للانسان حقوقه وأطلق العقول في مجالاتها الصالحة .

ولم تكن الثورة الفرنسية حدثا مهما في تاريخ فرنسا فقط ، انما هي أبرز احداث القارة الأوروبية ، فقد وضعت حدا للنظام القديم القائم على الاستبداد في الحكم ، وفتحت الباب أمام نظم جديدة ، ملكية كانت أم جمهورية<sup>(٢)</sup> ، لادينية تقوم فلسفتها على الحكم باسم الشعب ( وليس باسم الله ) وعلى حرية التدين والحرية الشخصية بدلا من التقيد بالأخلاق الدينية ، وعلى دستور وضعي بدلا من قرارات الكنيسة ، ثم قامت بجل الجمعيات الدينية وسرحت الرهبان ، وصادرت أموال الكنيسة ، وألغت كل امتيازاتها ، وحاربت الثورة العقائد الدينية علنا وبشدة ، وأصبح رجل الدين المسيحي موظفا مدنيا لدى الحكومة<sup>(٣)</sup> .

وقد كانت أوربا تشكو مما كانت تشكو منه فرنسا حيث كان الملوك يمارسون الحكم المطلق على شعوبهم ، والطبقات الممتازة ( الاقطاعيون ) يهيمنون على خيرات البلاد في كل مكان ، والكنيسة تتمتع باسم الدين بامتيازات لاحد لها ، وباعفاءات من الضرائب والواجبات تجاه الدولة ، والحرية العامة لاوجود لها الا في صدور الأحرار ، والشعوب لاسيطرة لهم ولا سلطان لهم<sup>(٤)</sup> . فالثورة الفرنسية جاءت تعالج هذه العلل وتحاول أن تجد لها حلاولا تصلح لفرنسا كما

- 
- (١) اسماعيل الكيلاني : فصل الدين عن الدولة ، ص ١٢٠-١٢١ .
- (٢) عبدالعزيز سليمان نوار وآخرون : التاريخ المعاصر ، ( بيروت ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م ) ص ١٩ .
- (٣) سفر عبدالرحمن الخوالي : العلمانية ، ص ١٦٩ .
- (٤) عبدالعزيز سليمان نوار وآخرون : المرجع السابق ، ص ١٩ .

تصلح لغير فرنسا في حالات كثيرة أبان العصر الحديث<sup>(١)</sup> . فالثورة التي حدثت في القرن الثالث عشر الهجري / الموافق للقرن التاسع عشر الميلادي بالنسبة لشعوب أوروبا المظلومة كانت بمثابة المدرسة الرائدة في مجال التحرر ، تأثرت بها واستنارت بكثير من أفكارها ومبادئها الجديدة ، لمعالجة أوضاعها السياسية والاجتماعية<sup>(٢)</sup> . عندما كانت الحكومات والشعوب الأوروبية في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين الموافق للقرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين تعيش في جو الأزمات الفكرية وأزمات التنظيم الاجتماعي والحروب والثورات الدينية ، فحاولت الثورة الفرنسية أن تجد حلا لجميع المشكلات وفعلا حلت مشكلات وأصبحت هي ذاتها مشكلة<sup>(٣)</sup> وسنتناول ذلك في الفقرة التالية .

٤

- 
- (١) عبدالعزيز نوار وآخرون : التاريخ المعاصر . ص ١٩ .  
محمد عبداللطيف البحراري : التاريخ المعاصر وعلاقته بالأزمة الحديثة ، ( ١ لدارة ، العدد الثاني ، السنة الحادية عشرة ، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٥ م ) ص ٩٣ .
- (٢) عبدالعزيز نوار وآخرون : المرجع السابق ، ص ١٩ - ٢٠ .
- (٣) محمد شفيق غربال : منهاج مفصل لدروس في العوامل التاريخية في بناء الأمة الإسلامية ، ص ٨٢ .

## ج - صدى الثورة الفرنسية في الدولة العثمانية :

لقد كانت الثورة الفرنسية بداية لتغير سياسي على الخريطة الأوروبية بشكل جذري كشفت للعالم عن مطامع نابليون التوسعية ، فنتيجة لذلك اتسعت فرنسا بعد الثورة وبشكل غير معقول ، لم تعهده فرنسا نفسها ، فأصبحت تضم بلاد بلجيكا ، وكل الأراضي الواقعة بين الحدود الفرنسية ونهر الراين ، ثم الساحل الايطالي من الحدود الفرنسية الى روما (١) .

وقد أثارت هذه المطامع أوروبا كلها ، فواجه نابليون العداء الشديد من تلك الدول ، نتيجة للسلطات التي آلت اليه ، حتى أصبح مبعث خوف أوروبا لميوله الاستعمارية التي تجلت في حملاته العسكرية على ايطاليا وألمانيا وهولندا وسويسرا ، حتى دانت له تلك المناطق التي جعلها نابليون من ممتلكاته الشرعية الجديدة (٢) ، فأصبحت هذه المكاسب الثورية مصدر رعب لملوك أوروبا المحافظين خاصة بعد أن اعتنق أبناء هذه الشعوب مبادئ الثورة . وهذا يعني أن هذه هي بداية النهاية لسلطانهم خاصة اذا ما ثارت شعوبهم عليهم طلبا للحرية (٣) .

لذلك رأوا أن الحل هو الصدام العسكري المباشر مع فرنسا ، لوقف انتشار أفكار هذه الثورة في أوروبا . وكان على رأس هؤلاء روسيا وأسبانيا فانتهزوا وفاة الامبراطور ليوبولد وارتقاء ابنه فرنسيس عرش النمسا الذي كان أكثر قوة وأقل حذرا وميلا للمسالمة من والده فشجعوه على اعلان الحرب ضد فرنسا (٤) .

(١) عبدالمجيد نعني : أوروبا في بعض الأزمنة الحديثة والمعاصرة ، ( بيروت : دار النهضة العربية ، ١٩٨٣م ) ، ص ٣١٩ .

(٢) عبدالعزيز نوار وآخرون : التاريخ المعاصر ، ص ١٣٥-١٣٦ .  
(٣) آمال السبكي : أوروبا في القرن التاسع عشر ، ( الطبعة الأولى ، جدة ، عالم المعرفة للنشر والتوزيع ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م ) ، ص ٩٥ .

(٤) آمال السبكي : المرجع السابق ، ص ٩٥-٩٦ .

(٤) عبدالعزيز نوار وآخرون : المرجع السابق ، ص ٥٠-٥١ .

وقد انتهت تلك الحرب بانتصار الحلفاء على فرنسا ، رغم محاولة نابليون  
 وأنصاره كبح جموح الجيوش المتحالفة الأوربية ، وذلك للقضاء على نظام الملكية  
 وانتصارا لمبادئ الثورة الفرنسية التي تدعو الى ( الحرية والعدالة والمساواة )<sup>(١)</sup> .  
 وأمام هذا الخوف من تجدد الثورة وللحد من اتساعها بادرت الدول  
 الكبرى الى اتخاذ بعض الترتيبات الكفيلة لتحقيق تحالف ضد هذه الثورة<sup>(٢)</sup> بين  
 ملوك روسيا والنمسا وبروسيا . ودعوا ملوكا آخرين للانضمام اليهم ظنا منهم  
 أنهم يوم هزموا نابليون قد هزموا الثورة ، وأرجعوا الساعة أدراجها وأعادوا  
 الملكية العظمى للأبد<sup>(٣)</sup> ، وغفلوا عن أن نابليون قام بادخال المبادئ الأساسية  
 للثورة الفرنسية في كل بلد ضم الى الامبراطورية الفرنسية ، وقد أوجد في كل  
 مكان تقريبا أنصارا ومؤيدين لاصلاحياته الدستورية من أبناء الطبقات الثائرة، وقد  
 أعطى كل بلد من هذه البلدان مع الدستور الجديد القانون المدني الذي أفرزته  
 الثورة الفرنسية ( القانون الفرنسي )<sup>(٤)</sup> .

هذا الحلف رسم بتوجيه من البارونة فون كرودنر التي كانت المدبرة  
 الدينية للامبراطور الروسي . وتنص وثيقة هذا الحلف على الزام المشتركين فيه " بأن  
 يضعوا أنفسهم ورعاياهم وجيوشهم في مكان الوالد من العائلة " وأنهم اذ يعد

- 
- (١) عبدالعزيز نوار وآخرون : التاريخ المعاصر . ص ٥١ .  
 ل. ج. شبي : تاريخ العالم الغربي . ترجمة مجالددين حنفي ناصف . ( القاهرة : الناشر دار النهضة  
 العربية ) ص ٣١٠ .  
 (٢) عبدالحيد نعمي : أوروبا في بعض الأزمنة الحديثة والمعاصرة . ص ٣٢٥ .  
 (٣) هـ. ج. ولز : معالم تاريخ الانسانية . ج ٤ . ص ١٢٦٠ .  
 (٤) عبدالعزيز نوار وآخرون : المرجع السابق . ص ١٣٦-١٣٧ .  
 عبدالحيد نعمي : المرجع السابق . ص ٣٢٠-٣٢١ .

أحدهم الآخر مواطننا له " يشد أحدهم أزر الآخر ، ويجمعون الدين المسيحي ،  
ويحتنون رعاياهم على تقوية أنفسهم وتدريبها على القيام بالواجبات المسيحية ،  
حيث ينص أحد بنود الحلف بأن المسيح هو الملك الحق لكل الشعوب المسيحية  
وأن الملوك المتربعين على دولهم بمثابة المحافظين باسم الملك المسيح ويحكمون باسم  
هذا الملك<sup>(١)</sup> .

وقد وقع على هذا الحلف كل من بروسيا وروسيا والنمسا في سنة  
١٢٣١هـ/١٨١٥م ، وانضمت اليهم فرنسا فيما بعد<sup>(٢)</sup> محاولة البقاء في الصف  
الأوروبي بعد اقالة نابليون واعادة الملكية في حكمها ، أو بالأصح عودة ملوكها آل  
بوربون .

وعلى الرغم من الصبغة الدينية لهذا التحالف إلا أنه في الواقع لا يمثل إلا  
رغبة ملوك أوروبا في القضاء على كل محاولة للخروج عن طاعتهم أو قيام جمهورية  
ثورية في أوروبا والعالم على شاكلة الثورة الفرنسية ، والواقع أن فكرة هذا التحالف  
فكرة خيالية تعارض الأمانى الشعبية الأوروبية السائدة في تلك الأيام . وقد صاحب  
هذا التحالف معارضة من الانجليز لعدم التوقيع على هذا الحلف لاعتبار أن مبادئه  
غامضة للجميع وغير عملية ، خاصة وأن المبادرة لهذا الحلف أتت من روسيا  
المعروفة بمطامعها الواسعة في أوروبا مما جعل الشكوك تساور بريطانيا حول غاية  
ومقصد هذا التحالف .

اضافة إلى ذلك فإن ملك بولنده ( بولونيا ) هو الآخر لم يوقع لأنه لم يكن  
له ملك في بولنده ، لأن الاسكندر الروسي قام وألحق بولنده ببلادده ، فأصبح  
حلفهم مخالفة قانونية بين الدول عرف باتحاد أوروبا ثم حلت محله عصبة الأمم

(١) هـ.ج. ولز: معالم تاريخ الانسانية ، ج ٤ ، ص ١٢٦٠-١٢٦١ .

(٢) عبدالحجيد نعني : أوروبا في بعض الأزمنة الحديثة والمعاصرة ، ص ٣٢٥-٣٢٦ .

فيما بعد<sup>(١)</sup> . وسرى دول هذا الاتحاد الأوربي ينقض على الدولة العثمانية يدا واحدة في ثورة اليونان لوقف الحرب التي انتصرت فيها الدولة ثم للسعي في استقلال اليونان وخلصه من الدولة العثمانية مخالفين بهذا المواد التي تضمنها تحالفهم .

فالدولة العثمانية كانت كلما فتحت اقليما أوربيا اكتفت للأسف الشديد من أهله بالخراج أو الجزية غير متدخلة في دينهم أو لغتهم أو عاداتهم الاجتماعية<sup>(٢)</sup> لتطبيق الدولة الشريعة الاسلامية مع أهل الذمة .

ولهذا حين سححت أول فرصة لهذه الدول طالبت باستقلالها<sup>(٣)</sup> . فالصورة التي خلفتها الحملة الفرنسية في مصر ثم تركتها انعكس صداها وامتد أثرها في أجزاء متفرقة من الدولة وفي العاصمة لأن نابليون أرسل وهو في مصر رسالة الى علي باشا والي يانيا ببلاد الأرنفوط يحرضه فيها على التمرد والعصيان فورا في صراع مع السلطان . الا أن السلطان سليم الثالث اكتشف في عام ١٢١٣هـ / ١٧٨٩م أن السفير الفرنسي المقيم في اسطنبول والفرنسيين فيها يرسلون رسالهم الى الروملي والمورة وجزر الأرخيل للحث على ثورة هذه البلدان ضد الدولة العثمانية<sup>(٤)</sup> .

ولما قامت الثورة الفرنسية بدعوى الحرية والمساواة والاخاء انتشرت مبادئها في جميع أنحاء أوربا التي وطنها نابليون بجيوشه كما أسلفنا بل تعدت حتى

(١) هـ.ج. ولز : معالمة تاريخ الانسانية . ج ٤ . ص ١٢٦١ .

(٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية . ص ٤١١ .

(٣) محمد فريد بك : المصدر السابق . ص ٤١١ .

(٤) محمد عبداللطيف البحر اوي : حركة الاصلاح العثماني . ص ٧٠ .

وصلت آثارها وأفكارها الى بلاد اليونان فوجدت ألباب سكانها مغرسا فنمت فيه تحت ظل زعمائها في اليونان (١) فأهاجت أوربا الأهالي في تلك البلاد ضد الدولة العثمانية وافتتن شبابها بمبادئ الثورة الجديدة وخاصة ممن درسوا في أوربا (٢) .

فبلاد اليونان جبلية وأرضها وعرة المسالك اشتهر أهلها في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين الموافق للقرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين بحب العصيان والميل الى شق عصا الطاعة ، ولما أراد أهلها الخروج على طاعة الدولة متأثرين بالثورة الفرنسية اجتمع زعماءهم ووحّدوا رأيهم (٣) فألفوا عدة جمعيات لنشر العلم والمعرفة بين أفراد الأمة ، وبث الوطنية ، وشكلوا جمعيات أخرى سياسية متخصصة وجعلوا مراكزها في روسيا والنمسا ، وأهم هذه الجمعيات الجمعية السرية المسماة ( هيتيري ) (٤) تشكلت بتحريض من اسكندر الأول قيصر روسيا حتى يتسنى له تنفيذ وصية بطرس الأكبر ليجعل مدينة القسطنطينية مفتاح الممالك الروسية (٥) ، وأعظم أهداف الهيتيري المستورة بث روح الفساد والفتنة لتنفيذ المقاصد السياسية ، وكان من أبرز أعضاء هذه الجمعية

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٣٢ .

(٢) علي حسون : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٣٢ .

(٣) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٦٦٧ .

(٤) هيتيري : كلمة يونانية معناها ( أخويه ) أطلقت على جمعيتين أسست احدهما في مدينة فيينا عاصمة

النمسا بدعوى تأسيس المدارس ونشر العلوم بين اليونان . والثانية لقصد سياسي محض وهى السعي

في استخلاص بلاد اليونان من الدولة العثمانية وبقيت سرية الى سنة ١٨٢١م حيث ابتدأت الثورة

جهارا وكان مركزها أولا في مدينة أودسا ثم انتقلت الى مدينة كييف وكلتاها ببلاد روسيا الأمر

الذي يدل على أن لروسيا ضلعا مهما في تأسيسها والصرف عليها .

- محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٤١١ ، حاشية رقم (١) .

(٥) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٤١١ .



الكثيرون من كبار اليونان والقساوسة في بلاد روسيا<sup>(١)</sup> .

وهنا يتضح دور الكنيسة الأرثوذكسية في روسيا ونفوذها في اليونان مما يوضح دور الغزو الفكري لنشر هذه الأفكار واثارة اليونان ضد الدولة العثمانية ، كما نلمس محاولة بث الروح الصليبية لتعود مرة أخرى في هذه الثورة ، لأن الكنيسة ظلت تقف خلفها كما ظهر من أعضاء هذه الجمعية .

فانتشرت جمعية الهيئيري بين اليونان في اقليم المورة حتى بلغ عدد أعضائها عام ١٢٣٧هـ / ١٨٢١م عشرين ألفا وجميعهم من الشباب القادرين على حمل السلاح متأهبين للثورة عند أول شرارة تبدو لهم ، وهذه الشرارة ساعد على اشعالها عصيان علي باشا والي يانيا الذي شق عصا الطاعة وكان ينوى الاستقلال ببلاده<sup>(٢)</sup> . فاعتبرت ثورة علي باشا هي مطلع الثورة اليونانية<sup>(٣)</sup> .

لهذا انتهز الثوار اليونانيون هذه الفتنة ، وأشهروا عصيانهم على الدولة العثمانية ، فأخرجوا الجنود العثمانيين من حصونهم ، وحلوا محلهم ، وأقاموا نظاما يونانيا حاكما حل محل الحكومة العثمانية ، إلا أن السلطان محمود الثاني سير جيشا بقيادة خورشيد باشا الى علي باشا فاستطاع هذا الجيش قمع تلك الثورة وقتل والي يانيا في سنة ١٢٣٨هـ / ١٨٢٢م ومن ثم واصل سيره لقمع ثورة اليونان بأمر من السلطان واخضاعها للدولة ، لكن اليونانيين استطاعوا هزيمة خورشيد في سنة ١٢٣٨هـ / ١٨٢٢م فمات هذا القائد كمدا من هذه الهزيمة<sup>(٤)</sup> .

ولما كانت النمسا تميل الى مساندة السلطان محمود الثاني ضد أي تدخل روسي لمعاونة الثوار فقد أشارت عليه بأن يستعين بواليه في مصر محمد علي ،

(١) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٦٦٧ .

(٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ٤١٢ .

(٣) محمد عبداللطيف البحراري : حركة الاصلاح العثماني ، ص ٧٠ .

(٤) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٤١٢ .

والحقيقة لم تكن النمسا صادقة في موقفها ولكنها أرادت أن تقف في وجه روسيا لتمنعها من التدخل في شئون البلقان<sup>(١)</sup>. لذلك رأى السلطان محمود الثاني أن يحول هذه المهمة فعلا الى واليه في مصر، ليشغله أيضا عما كان يظن أن ينويه وهو طلب الاستقلال ببلاده، فأصدر السلطان مرسوما في سنة ١٢٣٩هـ/١٨٢٤م بتعيين محمد علي واليا على جزيرة كريت وإقليم المورة وهما بؤرتا هذه الثورة<sup>(٢)</sup>. وفي الحال أصدر محمد علي أوامره هو الآخر باستعداد الجيش للسفر لهذه المهمة، وعين ابراهيم باشا قائدا لهذه الحملة التي أبحرت من الاسكندرية على سفن مصرية تكتنفها سفن حربية أيضا من الاسطول البحري الذي أنشأه محمد علي، فسارت السفن حتى وصلت جزيرة رودوس للاجتماع بالبحرية العثمانية، ومنها انطلق ابراهيم باشا الى جزيرة كريت فاحتلها، وتمكن من انزال جيشه في ميناء مودرن بالموره بعد مقاومة شديدة من أهله، وكان الرأي في أوروبا ملتهبا، ولولا مساعدة أوروبا لليونانيين عن طريق المال والرجال لما أمكنهم مقاومة الجيش العثماني<sup>(٣)</sup>.

وقد قاتل اليونانيون من قبل قتال المستينس ست سنوات، على حين وقفت حكومات أوروبا تنظر اليهم متفرجة، فاحتج الرأي العام على هذا الجمود<sup>(٤)</sup> لهذا

---

(١) محمد كمال الدسوقي : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ( القاهرة ، دار الثقافة للطباعة والنشر :

١٩٧٦م ) ، ص ١٤١ .

(٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٤١٢ .

، محمد كمال الدسوقي : المرجع السابق ، ص ١٤٠-١٤١ .

(٣) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٤١٣-٤١٥ .

، اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٦٧٩ .

، محمد كمال الدسوقي : المرجع السابق ، ص ١٤١ .

(٤) هـ.ج. ولز : معالم تاريخ الانسانية ، ج ٤ ، ص ١٢٦٦ .

انضم الى الثوار كل من تطوع من مشاهير أوروبا وأميركا ، وعلى رأس هؤلاء  
وشنطون ابن محرر أميركا ، واللورد بيرن الشاعر الانكليزي ، وغيرهما من الذين  
وقفوا حياتهم للدفاع عن مبادئ الحرية<sup>(١)</sup> ، ولبت أفكار الثورة الفرنسية في  
الأقطار الأوروبية التابعة للدولة العثمانية وفي كل مكان . حتى العناصر المعادية  
لثوار اليونانيين في بعض الدول الأوروبية أظهرت تعاطفا مع الثورة اليونانية لأن  
اليونان يقاتلون المسلمين وقتال المسلمين يتفق مع الروح الصليبية المعادية  
للاسلام<sup>(٢)</sup> .

وكانت قوات ابراهيم باشا قد اكتسحت العديد من المواقع الحربية في  
اليونان ، عندما استولت على مودرن وميسولوجي وأثينا وأصبحت المورة بأكملها  
تحت السيطرة العثمانية بفضل من الله وتوفيقه<sup>(٣)</sup> .

ولما استرد الجنود العثمانيون هذه المدن سكنت الثورة ببلاد اليونان  
لاخضاع معظمها<sup>(٤)</sup> بينما ابراهيم باشا لايزال مستمرا في فتح ماتبقى من البلاد  
وأثناء ذلك تدخلت الدول الأوروبية بين الدولة العثمانية واليونان بحجة وقف القتال  
وحماية اليونانيين في الظاهر ، أما الوجه الآخر فهو فتح المسألة الشرقية وتقسيم  
ممتلكات الدولة الاسلامية بينهم سرا<sup>(٥)</sup> . ففي سنة ١٢٤٢هـ / ١٨٢٧م رأت  
أوروبا أن تمكن اليونانيين من استقلالهم فاتحدت روسيا وانجلترا وفرنسا على التدخل  
السريع لمناصرة بني دينهم حسب الحلف ، أو الاتحاد الأوربي سالف

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية . ص ٤١٤-٤١٥ .

. اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار . ج ١ . ص ٦٧٩ .

(٢) محمد كمال الدسوقي : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية . ص ١٤٥ .

(٣) امال السبكي : أوروبا في القرن التاسع عشر . ص ٢٠٠ .

(٤) اسماعيل سرهنك : المرجع السابق . ص ٦٧٩ .

(٥) محمد فريد بك : المرجع السابق . ص ٤١٦ .

الذكر ، وعقدوا لأجل ذلك مؤتمرا بمدينة لندن في سنة ١٢٤٢هـ/١٨٢٧م قرروا فيه بالاجماع إلزام الباب العالي قبول استقلال اليونان استقلالاً ادارياً بشرط أن يدفع اليونان للباب العالي مبلغاً يتفق على مقداره فيما بعد كما يتفق على حدود البلدين .

وبعد أن صادق عليه المجتمعون قاموا بإبلاغه الى الباب العالي وأعطوه مهلة شهر من تاريخه ليتمكن من وقف أعماله العسكرية برا وبحرا<sup>(١)</sup> . فبادرت الدولة بالرد ، بأنها لاتقبل هذا التدخل اطلاقاً ، من قبل روسيا وفرنسا وبريطانيا ، واعتبرت هذا العمل تدخلاً سافراً في شئونها الخاصة .

فاغتازت الدول من الدولة العثمانية واتفقت فيما بينها على إلزام الدولة بمنح بلاد اليونان استقلالها الاداري بموجب المعاهدة ، ولكنهم انتظروا حتى انقضت المهلة المعطاة للدولة العثمانية ، عندئذ اصدرت هذه الدول الثلاث المتحالفة الأوامر الى أساطيلها بالتوجه الى سواحل اليونان لمواجهة الموقف ، عندئذ طلبوا من ابراهيم الكف عن مواصلة حربه ضد اليونان واجتمعت سفن الحلف الأوربي في ميناء نافارينو لمنع الأسطول التركي المصري<sup>(٢)</sup> . ومالبت هذه الأحلاف أن دمرت الأسطول التركي في عمل مشترك في معركة نافارينو سنة ١٢٤٣هـ/١٨٢٧م<sup>(٣)</sup> . وهكذا انتهت المعركة وانسحبت قوات محمد علي عائداً الى مصر بعد أن اعتذرت اليه انكلترا عن خطأ قصف الأسطول ، ووعده أن هو لزم الحياد وكف عن مساعدة الدولة العثمانية بالاعتراف له مستقبلاً باستقلال مصر ، وقد قبل

(١) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٦٧٩-٦٨٠

(٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٤٢٧ .

(٣) هـ.ج. ولز : معالم تاريخ الانسانية ، ج ٤ ، ص ١٢٦٦-١٢٦٧ .

اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ص ٦٨٠ .

محمد كمال الدسوقي : تاريخ اوربا الحديث ( القاهرة ، مطبعة النهضة الجديدة ) ص ٧١-٧٢ .

محمد على العذر الواهي كما قبل وعود الاعتراف له باستقلال مصر<sup>(١)</sup> .  
فقدت الدول الثلاث في سنة ١٢٤٤هـ / ١٨٢٨م مؤتمرا للنظر في مسألة  
استقلال اليونان وتعيين حدوده حين رفضت الدولة العثمانية ذلك، فأرسلوا الى  
الباب العالي دعوة لحضور هذا المؤتمر فرفض حضوره محتفظا بأرانه ومحتجا  
لانعقاده<sup>(٢)</sup> .

وصدر قرار الدول الثلاث في لندن سنة ١٢٤٤هـ / ١٨٢٨م بوضع  
استقلال بلاد اليونان تحت حمايتها ، وأن ينصب عليها أمير مسيحي تنتخبه الدول  
الثلاث ، ويعوض المسلمون عما فقدوه من أملاك ، وأن تدفع هذه الامارة اليونانية  
للباب العالي جزية مقدارها خمسمائة ألف فرنك ، وهذا القرار لم يرض الجانبين ،  
وبذلك عاد الحرب بين الجنود العثمانية الباقية في بلاد اليونان ، ولم يحسم هذه  
الحروب الا انتصار روسيا على الدولة العثمانية وتدخل الدول الأوروبية وعقد  
معاهدة ادرنة<sup>(٣)</sup> كما سيأتي الحديث عنها في فقرة تالية .

وهكذا تمكنت الحروب الفرنسية من تحضير الشعوب البلقانية لمرحلة  
التمرد والعصيان<sup>(٤)</sup> ، حين شغلت ثورة اليونان الدول الأوروبية جميعا نظرا لموقعها  
الهام ، فأوجدت توترا بين الدول الكبرى والدولة العثمانية ، كاد أن يكون سببا في  
نشوب حرب كبرى<sup>(٥)</sup> تقودها الأطماع في أملاك الدولة .

- 
- (١) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ص ٦٨٢ .  
محمد كمال الدسوقي : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ، ص ١٤٩ .  
(٢) اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ص ٦٨٢ .  
(٣) اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٦٨٢ .  
(٤) على حسون : العثمانيون والبلقان ( الطبعة الثانية ، بيروت ، المكتب الاسلامي ، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦م ) ص ١٧٨ .  
(٥) محمد كمال الدسوقي : المرجع السابق ، ص ١١٩ .

ولم تكن في الواقع ثورة اليونان الا مقدمة للثورات التي نشبت في كل أنحاء أوروبا سنة ١٢٤٦هـ/١٨٣٠م ، و كنتيجة حتمية للسياسة التي سارت عليها النمسا وروسيا وبروسيا بزعامة ميترنج وزير خارجية النمسا في الفترة من (١٢٣١-١٢٤٦هـ/١٨١٥-١٨٣٠م) وهي باسم العودة الى النظم القديمة التي سادت في أوروبا سياسيا قبل حرب نابليون كما مر بنا (١) .

ولكن في سنة ١٢٦٥هـ/١٨٤٨م وهو العام الذي برزت فيه الحركة الدستورية والقومية بشكل قوى اذ طرأت على أوضاع الدول خلال هذه الفترة تغييرات أصبحت واضحة وحتمية ، ولقد أدى ذلك الى حدوث تغييرات جذرية ضد الأوضاع القديمة عن طريق الثورة لرغبة كل شعب في أن يحكم نفسه بنفسه بواسطة أحكام دستورية مقيدة (٢) .

ومهما يكن فقد حدثت في أوروبا سنة ١٢٦٥هـ/١٨٤٨م الحركة الدستورية للحصول على الأنظمة الدستورية ووضع حد لاستبداد الملوك ، فبدأت هذه الثورة من باريس أيضا في سنة ١٨٤٨م باسقاط حكومة لويس فيليب (٣) ملك فرنسا وظهور الجمهورية الثانية .

عند ذلك تسربت هذه الأفكار او صدى هذه الثورة إلى جميع دول العالم :

- 
- (١) محمد كمال الدسوقي : تاريخ أوروبا الحديث ، ص ٧٢-٧٣ .
- (٢) عبدالمجيد نعني : أوروبا في بعض الأزمنة الحديثة والمعاصرة ، ص ٣٣٦ .
- ، موريس دوفرجه : دساتير فرنسا : ترجمة أحمد حبيب عباس ، القاهرة ، الناشر : مكتبة الآداب ، المطبعة النموذجية ، الحمية الجديدة ، ص ٧٨ .
- (٣) انتخب كما مر بنا ملكا على فرنسا بعد عزل شارل العاشر الذي خلف أخاه لويس بعد موته سنة ١٨٢٤م وبقي ملكا حتى أجبره الثوار سنة ١٨٤٨م الى اللجوء الى انكلترا حتى توفي سنة ١٨٥٠م .
- محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ٤٨٩ ، حاشية رقم (١) .

الى برلين وفيينا وبراغ وغيرها من العواصم الأوروبية الأخرى طلبا للحرية (١) .  
 وكان من نتائج هذه الحركة الدستورية في سنة ١٢٦٥هـ / ١٨٤٨م والتي  
 عمت جميع أوروبا قد تسربت أفكارها الغربية الى الممالك الأوروبية التابعة للدولة  
 العثمانية فتاقت ( الأفلاق والبغدان ) الى الاستقلال والانضمام الى ترانسلفانيا  
 لتكوين دولة رومانية جديدة ، فثار الأهالي على أميرى الولايتين المذكورتين  
 فاضطروهما الى الفرار ، فأقاموا حكومة مؤقتة ، حينئذ قامت الدولة العثمانية  
 بارسال جيوشها تحت قيادة القائد الشهير عمر باشا فأعاد الأمور الى ماكانت عليه .  
 إلا أن روسيا أرسلت جيشاً الى بلاد البغدان لطرد الحكومة المؤقتة فاحتلت  
 الأفلاق في سنة ١٢٦٥هـ / ١٨٤٨م مما أدى الى معارضة الدولة العثمانية ضد هذا  
 الاحتلال حتى أصبحت الحرب وشيكة بين الطرفين ، لولا حدوث المحادثات التي  
 انتهت باتفاق الدولتين على احتفاظ السلطان العثماني بحق تعيين الأمراء بالولايتين  
 كما كان ، وأن تبقى البلاد تحت حكم مشترك عثماني روسي لمدة سبع سنوات  
 حتى يستتب الأمن في البلاد . وقد سمي هذا الاتفاق باتفاق ( بلطة ليمان ) (٢) ،  
 نسبة الى المكان الذي تم فيه الاتفاق والتوقيع عليه (٣) . وهكذا استطاعت الثورة  
 الفرنسية أن تخرق الحواجز السياسية والدينية لمجتمعات أوروبا الغربية ، وتعمل على  
 تغير النظم القديمة في أوروبا " فالأمة الفرنسية ستجود بالاخاء وبالمساعدة على

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية . ص ٤٨٩ - ٤٩٠ .

. اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ . ص ٦٩٢ .

. على حسون : تاريخ الدولة العثمانية . ص ٥٢ .

(٢) هي فرضة صغيرة على بوغاز البوسفور ( مضيق اسطنبول الحالي ) من ضواحي اسطنبول الآن .

- اسماعيل سرهنك : المصدر السابق . ص ٦٩٢ .

(٣) محمد فريد بك : المصدر السابق . ص ٤٩٠ .

. اسماعيل سرهنك : المصدر السابق . ص ٦٩٢ .

. على حسون : تاريخ الدولة العثمانية . ص ١٢٥ - ١٢٦ .

جميع الشعوب التي تتحسس عميقا الرغبة في استرجاع حريتها المهيضة" وكان من الطبيعي أن تخرج هذه الأفكار عبر الحدود والمحيطات<sup>(١)</sup>، ومع توسعات نابليون في أوروبا انتشرت التقاليد الفرنسية، وقامت في اسطنبول جمعيات تعلم أفرادها في باريس، وكانوا يضعون شارة مثلثة الألوان على العمامة، ويتغنون بأغاني الحرية التي انبثت في عصر الثورة، وان أهم العوامل التي شجعت اليونانيين على فكرة الاستقلال هي المعاني العلمانية التي نشرتها الثورة الفرنسية<sup>(٢)</sup>، ومن أتى على ساكلتهم فيما بعد طلبا لاستقلال بلاده سواء ضد النظم القديمة الأوروبية أو الانفصال عن الدولة العثمانية بالتحريض والتدخل من الدول الأوروبية والروسية.

إذا فكل هذه الأحداث السابقة سواء أكانت قومية أم خلاف ذلك وما لحق بها إنما هو صدى للثورة الفرنسية، فالمحرك الأول والأخير هو تسرب أفكار مبادئ الثورة الفرنسية التي تدعو للعلمانية بموجب قوانين مقيدة ومشروطة لم تنج منها حتى الدولة العثمانية التي تسربت إليها هذه الأفكار.

ويعزو المؤرخ عمر عبدالعزيز عمر نجاح الأفكار الفرنسية الغربية وتأثيرها على الدولة العثمانية إلى القوة المادية للغرب واقامة اقتصاد أوربي متحكم وتفوق عسكري وسياسي يفوق كثيرا ما كان لدى العثمانيين أو أية أمة إسلامية وخاصة في عصر الدولة الثاني. ويبدو أن أفكار الثورة الفرنسية في عالم الإسلام وفي الدولة العثمانية كان يرجع إلى أنها كانت أول ثورة اجتماعية في أوروبا تدعو إلى العلمانية ولا تتأثر بالعقيدة المسيحية<sup>(٣)</sup>.

ولم تستن الدولة العثمانية نفسها أو الولايات الخاضعة لها من التأثيرات

(١) عمر عبدالعزيز عمر : تاريخ المشرق العربي ، ص ٢٥٨ .

(٢) محمد عبداللطيف البحرأوي : حركة الاصلاح العثماني ، ص ٧٢-٧٣ .

(٣) عمر عبدالعزيز : المرجع السابق ، ص ٢٥٨ .



لهذه الثورة اذ كانت التأثيرات الفرنسية في الدولة العثمانية عسكرية ودبلوماسية أكثر منها فكرية ، إلا أن هذه المؤثرات قد فتحت قنوات تسرب منها الفكر والتنمية الأوروبية لأول مرة الى عالم الاسلام عن طريق المدرسين والخبراء الفرنسيين. حيث وجد العثمانيون انه من الضروري تعلم اللغات ، وهكذا أخذ العثمانيون ينقبون في الآداب الغربية ، فأخذت بهذه الطريقة الأفكار الغربية وأفكار الثورة الفرنسية تتغلب على حواجز الرفض الإسلامي لكل ما هو مسيحي ، وسار تقدم الدولة الحديثة في هذا المجرى المضاد للاسلام في أمور كثيرة .

والواقع أن هذا التأثير قد أصاب المجتمع العثماني بكل طبقاته ولنن كان التأثير في أول الأمر ضعيفا إلا أنه أصاب الفئات المسيحية التي كانت تعيش تحت مظلة الدولة العثمانية .

وقد زادت هذه الأفكار الغربية خلال القرن الثالث عشر الهجري الموافق للقرن التاسع عشر الميلادي حيث استطاعت أن تؤثر في بنية المجتمع العثماني وأن تصيب جميع فئاته بدرجات متفاوتة بكلمات ثلاث براقية ( حرية - اخاء - مساواة )<sup>(١)</sup> كانت تمهيدا للحركة الدستورية وحرب القرم وصدور الخط الهمايوني في سنة ١٢٧٣هـ / ١٨٥٦م كما سيأتي الحديث عنه في بابه .

---

(١) عمر عبدالعزيز عمر : تاريخ المشرق العربي ، ص ٢٥٨-٢٥٩ .

د - أطماع الدول الأوروبية في ممتلكات الدولة الإسلامية :

كانت الدولة العثمانية بحكم موقعها الجغرافي همزة الوصل بين آسيا وأوروبا والمكان الذي التصقت فيه القارتان وتقابلت فيه الديانتان وجها لوجه في العصر الحديث<sup>(١)</sup>.

فعندما استطاع الأتراك العثمانيون منذ سقوط القسطنطينية سنة ٨٥٧هـ / ١٤٥٣ م أن يندفعوا في فتوحاتهم الإسلامية نحو البلقان ، وظلوا مسيطرين على معظم بلاده حتى القرن الثاني عشر الهجري الموافق للقرن الثامن عشر الميلادي ، حيث دب الفساد والخلل في الدولة العثمانية .

إلا ان السياسيين درجوا على تسمية البلقان " برميل البارود " لأن بلاده كانت مثارا للحرب منذ القرن الثالث عشر الهجري الموافق للقرن التاسع عشر الميلادي ، فقد كان يسكنه شعوب مختلفة الأجناس والعادات والتقاليد ، متنافرة الشعور والأهواء والميول ، وقد تقاسم النفوذ في تلك المنطقة دولتان هما الامبراطورية النمساوية والدولة العثمانية كما مر بنا في الفصول السابقة ، لذلك كانت الفرصة سانحة لكل من روسيا والنمسا أن تحققا أطماعهما<sup>(٢)</sup>.

مع العلم بأن الدولة العثمانية شهدت فترة انتعاش ، بعد أن فقدت أسطورتها في سنة ٩٧٩هـ / ١٥٧١ م في معركة لپانتو ( Lepanto ) حين استطاعت أساطيل البنادقة وحلفائهم بقيادة دون جوان النمسوي من إلحاق هزيمة ساحقة به في عصر السلطان سليم الثاني ابن سليمان القانوني، وهذا الانتعاش ظهر عندما تولت

(١) محمد عبداللطيف البحراني : حركة الإصلاح العثماني ( الطبعة الأولى ، القاهرة ، دار التراث ،

١٣٩٨هـ / ١٩٧٨ م ) ، ص ٢٦ .

(٢) عبدالحميد البطريق : التيارات السياسية المعاصرة ، الطبعة الأولى ، بيروت ، النهضة العربية ،

١٩٧٤ م ) ، ص ٤٧ .

الأسرة الألبانية كوبرولو منذ منتصف القرن الحادي عشر الهجري الموافق للقرن السابع عشر الميلادي والتي استحوذت على أعلى مناصب الدولة . غير أن هذا الانتعاش النسبي لم يحل دون تدهور الدولة أو انتكاسها في حروبها الخارجية مرة أخرى . فكان فشلها الذريع في محاولة استيلائها على فينا في سنة ١٠٩٥هـ/١٦٨٣ م ، في حين استمرت النمسا تلحق بالدولة الهزائم المتتالية حتى انتهت هذه الحروب بين الدولتين بمعاهدة كاروفتزر في سنة ١١١١هـ/١٦٩٩م والتي بمقتضاها أجبرت الدولة العثمانية على التنازل عن ترانسلفانيا وغالبية أراضي المجر وأجزاء كبيرة من سلافونيا وكرواتيا وأن ترد أجزاء من أوكرانيا الى بولندا<sup>(١)</sup> .

لهذا تعد معاهدة كارلوفتزر أول محاولة لتقطيع وحدة الدولة العثمانية<sup>(٢)</sup> ، هذا العمل الذي بدأ في كارلوفتزر قد عملت معظم الدول الأوروبية على استكمالها في غالبية المعاهدات التي فرضتها على الدولة العثمانية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين الموافقين للقرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، ومن أبرز هذه المعاهدات التي تلت كارلوفتزر على سبيل المثال لا الحصر معاهدة باساروفتزر ( Passarovitz ) سنة ١١٣١هـ/١٧١٨م ، ومعاهدة كتشك كينارجي ( Kuckkaynarca ) سنة ١١٨٨هـ/١٧٧٤م ثم تلاها فيما بعد معاهدة أدرنة ومعاهدة سان ستيفانوا ومعاهدة برلين التي تم فيها تقسيم أملاك الدولة العثمانية وذلك في سنة ١٢٩٥هـ/١٨٧٨م كما سيأتي .

(١) محمد أيس : الدولة العثمانية والشرق العربي ( القاهرة . مكتبة الأنجلو المصرية . ١٩٨٥م ) ص ١٦٨ .

(٢) يعتبر ارتداد الجيش العثماني من أسوار فينا للمرة الثانية تاريخاً لبداية انحلال الدولة العثمانية . وقد سبق للدولة أن ارتدت عن أسوار فينا في سنة ١٥٢٩م . وكان ذلك في عهد السلطان سليمان الأول ( القانوي ) ونحت قيادته .

- عبدالعزيز الشساوي : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفرى عليها . ج ٢ . ص ١٠٥٩ . حاشية رقم (١) .

وقد تسابقت روسيا والنمسا وفرنسا وبريطانيا وايطاليا فيما بعد على السير على النهج والعمل المعدين لتدمير وحدة الدولة العثمانية فكان على الدولة العثمانية أن تواجه أطماع هذه الدول وتقوم بعد تلك المحاولات العدائية<sup>(١)</sup>.

وإذا كانت معاهدة كارلوفتز قد أنهت الصراع التقليدي النمساوي العثماني فإن صراع الدولة العثمانية مع دولة حديثة وهي روسيا أصبح أمرا واقعا فلقد نمت روسيا في دوقية موسكو في أواخر القرن التاسع الهجري الموافق لأواخر القرن الخامس عشر الميلادي حتى أصبحت دولة فتية صغيرة ، وبدأ الاحتكاك بين الدولتين الدولة العثمانية والدولة الروسية الحديثة على امارات الحدود غير أن الوقت تغير بوصول بطرس الأكبر الى عرش روسيا ، وكانت سياسة هذا القيصر واضحة تنحصر في فتح آفاق جديدة في بحر البلطيق وفي البحر الأسود<sup>(٢)</sup>.

فقد رسم سياسة روسيا التي سارت على نهجها كاترين الثانية ثم اسكندر الأول نحو الدولة العثمانية ، حيث أخذت كاترين الثانية تتطلع الى اليوم الذي تسير فيه الى القسطنطينية ولهذا الهدف أوقفت جهدها وقد ذهبت الى أكثر من ذلك إذ أعدت حفيدها قسطنطين لاعتلاء عرش بيزنطة في مقابلة للامبراطور جوزيف الثاني ملك النمسا في كرسون ( Kherson ) فأقيم احتفال بهذه المناسبة ، وقد مر الإثنان من تحت قوس كتب عليه " هذا الطريق الى بيزنتيوم " وفي هذه المقابلة تم تقسيمه أملاك الدولة العثمانية في أوربا بحيث يتكون من موريا وتساليا ومقدونيا وتراقيا والقسطنطينية امبراطورية يونانية .

أما كيف الوصول الى الهدف فقد اتبعت كاترين ما أسماه بعض المؤرخين بالميكافيلية المسكوفية وهي اثاره الحروب الأهلية والاضطرابات في أملاك الدولة،

(١) عبدالعزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها . ص ١٠٥٨-١٠٥٩ .

(٢) محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق الأدنى . ص ١٦٨ .

وخلق فرص للتدخل ، ثم مقاومة أي حركة اصلاحية عثمانية قد تؤدي الى القضاء على هدفها ، أو الابطاء به ، ولذلك كان الاشتباك بين الدولتين يكاد يكون متصلا في القرن الثاني عشر الهجري ومطلع القرن الذي يليه الميلاديين ، وكان القصد من ذلك هو نشر الخلل الاداري وابعاد البلاد بقدر الامكان عن الاصلاح الممكن<sup>(١)</sup> حتى لاتستعيد الدولة سابق قوتها .

وكانت النتيجة أن اتجهت مطامع هذه الدول نحوها ، فلم تملك الدولة العثمانية سوى الوقوف أمام هذه المطامع موقف الدفاع ، بعد أن كانت في السابق في موقف الهجوم ، لذلك بدأت الدول الأوروبية في تقدم مستمر ودائب ، والضعف والانحلال صار ينخر في جسم الدولة ، فتكالت دول الاستعمار لالتهام الدولة العثمانية الضعيفة، ولكن هذه الدول الأوروبية وروسيا أثناء سباقها لالتهام الدولة العثمانية كانت تجد نفسها وجها لوجه في كثير من الأحيان ، وقد تساعد احدي هذه الدول الدولة العثمانية وتعقد معها المعاهدات لا لتأمين سلامتها بل خشية وقوعها في أحضان المنافسين دون أن تأخذ حصة مناسبة ، وهذا هو ماسمي في التاريخ " بالمسألة الشرقية " <sup>(٢)</sup> .

والحقيقة أن المسألة الشرقية لها معنيان : الأول : عصر قوة الدولة وخوف أوروبا من تقدم العثمانيين في أوروبا ، أما المعنى الثاني : فهو العصر الأخير للدولة والخوف من سقوطها ونشأة صراع أوربي حول تقسيم ممتلكاتها .

يؤكد ذلك التشابك المتقلب الوعر بين مصالح متضاربة ، وشعوب متنافسة وأديان متنازعة نقتنحها بقناع شفاف ، ونطلق عليها اسم يسير : المسألة الشرقية ، غير أن المسألة الشرقية كما يعرفها كل باحث حق المعرفة ، هي وجود

(١) محمد عبداللطيف البحرأوي : حركة الاصلاح العثماني ، ص ٦١-٦٣ .

(٢) أورخان محمد علي : السلطان عبدالحميد الثاني حياته وأحداث عهده ، ص ٣٠ .

الأتراك العثمانيين في أوروبا وفتحهم لمدينة القسطنطينية - ذلك الموقع الفريد - وسيطرتهم الاسلامية على شعوب مسيحية " (١) .

غير أن المسألة الشرقية بوجه عام مسألة تناول المصالح المتضاربة أو التنافس العنيف الذي وقع بين الدول الأوروبية والشرق الأدنى ، في المجالات الدينية والسياسية والاقتصادية ، وعلى وجه التحديد في القرن الثالث عشر الهجري الموافق للقرن التاسع عشر الميلادي .

فقد كتب البرت سورل ( Sorrel ) يقول : " منذ أن ظهر الأتراك في أوروبا نشأت مسألة شرقية ي الوقت الذي كانت فيه الدولة العثمانية دولة قوية مابين القرن الثامن ، وأواخر القرن الحادي عشر الهجريين أي مابين القرن الرابع عشر وأواخر السابع عشر الميلاديين ، في هذه الفترة كانت الدولة العثمانية " الرجل الأوربي المعافى السليم الجسم " وكانت دوافع المسألة تعني كراهية الأتراك وبغضهم دينيا وعسكريا ولكن عندما أخذت الدولة تتقهقر أصبحت " المسألة الشرقية تعني بالمشكلات الدولية المترتبة على انحلال الامبراطورية التركية وتجزئها الوشيك " .

وعند التحليل لهذه المشكلات في النهاية نجد انها تدور حول سؤال واحد هو : اية دولة أو دول ستكون وارثة هذه الدولة الشاسعة المساحة ؟ (٢) .

إذا في المرحلة الأولى من مراحل المسألة الشرقية ، كان الأتراك العثمانيون يشكلون تهديدا حقيقيا للنظام السياسي والاجتماعي في أوروبا ، أما

(١) زين نور الدين زين : الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان ( الطبعة الثانية ) بيروت ، دار النهار للنشر : ١٩٧٧ م ) ، ص ٢٢ .

John Morely : The life of Willem Ewart Gold stone , Vol. 1. (1809-1859) . London , p. 476 .

(٢) زين نور الدين زين : الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان ، ص ٢٢ -

المرحلة الثانية فكانت الدول المسيحية خلالها تشكل خطرا على الأتراك العثمانيين  
ينذر بزوالهم من أوروبا .

وفي هذا المقام ينبغي علينا أن لا ننسى أو نتناسى العصر العلماني أو عصر  
الغزو الفكري وهو أن العامل الديني كان من أهم عوامل المسألة الشرقية . فقد  
أنشأ الأتراك في أوروبا أكبر وأقوى دولة اسلامية تعرف بالدولة العثمانية ، ولذا فإن  
المسألة الشرقية كما عرفها ادوارد دريو ( Driault ) هي " مشكلة القضاء على قوة  
الاسلام وسياسته " (١) . وهذا ما قاله الأوربيون أنفسهم ، ليكون حجة على من  
سواهم ، والحق ماشهد به الأعداء .

ويعزز ذلك الرأي قول فارلي ( Farley ) : " ان السلطان الحاكم في  
القسطنطينية هو خليفة المسلمين ، واسطنبول عاصمة للدولة العثمانية ولكنها في  
الوقت نفسه مركز للخلافة الاسلامية ، كما أن روما عاصمة للديانة المسيحية ،  
وعلى هذا فإن المسألة الشرقية مسألة دينية كذلك " (٢) .

لذلك ارتبطت الأقليات المسيحية في الدولة العثمانية بأوروبا ارتباطا دينيا  
ومذهبيا بوجه عام ، ففرنسا اعتبرت نفسها حامية للمذهب الكاثوليكي في لبنان لما  
كان للمارونية من جهود خاص في الحروب الصليبية ، ولهذا فإنهم اكتسبوا منذ  
ذلك الحين نوعا من الحماية الفرنسية ، وكانوا يخصصون مكانا في كنائسهم  
للقنصل الفرنسي .

أما روسيا فقد جعلت نفسها حامية للمذهب الأرثوذكسي في ممتلكات  
الدولة العثمانية ، ومن خططها جذب الأرثوذكس نحوها وتحريضهم ضد الدولة  
العثمانية ، الا أنها تركت للنمسا الأرثوذكس السلاف في الصرب مقابل مساعدة

(١) زين نور الدين زين : الصراع الدولي في الشرق الاوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان ، ص ٢٣ .

(٢) محمد عبداللطيف البحراري : حركة الاصلاح العثماني ، ص ٢٧ .

النمسا لروسيا في إعادة الامبراطورية البيزنطية كما سبق .  
أما إنجلترا فقد كانت المصالح الاقتصادية هي شغلها الشاغل في توجيه سياستها لذلك كانت الدولة العثمانية في مطلع القرن الثالث عشر الهجري الموافق لمطلع القرن التاسع عشر الميلادي أمام مصاعب عاتية نتيجة للارتباط المذهبي بين جماعات من رعاياها داخل الدولة وبين الدول الأوروبية التي أشرنا إليها<sup>(١)</sup> .  
ولاشك في أن هذا النشاط الديني كان حجر الأساس في بعث القوميات في البلقان الذي مر بمراحل الاثارة ثم النضال ثم التدخل الأوربي المستمر ثم المرحلة الأخيرة وهي الاستقلال<sup>(٢)</sup> .  
يتضح من ذلك تدخل عوامل الغزو الفكري والعسكري في شئون الدولة العثمانية جنبا الى جنب لحماية الأقليات ظاهريا ، أما الوجه الآخر فهو القضاء على الاسلام ، وطرد الدولة العثمانية من أوروبا مع التذرع باسم الامتيازات الممنوحة لهم منذ عهد السلطان سليمان القانوني .  
لذلك كان الأوربيون يؤلمهم بصفة خاصة خضوع شعوب مسيحية حكومة اسلامية فهي اذا لم تكن تكره سقوط الدولة العثمانية واختفاء رايته تماما وكانت كل دولة من الدول الأوروبية الكبرى تحب أن يناها شيء من ولاياتها<sup>(٣)</sup> . وقد حرصت هذه الدول على توطيد علاقتها المباشرة مع جميع طوائفها غير الاسلامية في داخل كيان الدولة العثمانية ، فاهتزت الدولة لهذا الأمر وأصبحت في موقف يستدعي نظرة شاملة في شئونها الخارجية والداخلية ، وذلك في أواخر القرن الثاني عشر الهجري وما يليه الموافق للقرن الثامن عشر الميلادي<sup>(٤)</sup> .

- 
- (١) محمد عبداللطيف البحرأوي : حركة الاصلاح العثماني ، ص ٢٧-٢٨ .  
(٢) محمد عبداللطيف البحرأوي : المرجع السابق ، ص ٢٧-٢٨ .  
(٣) محمد شفقيق غربال : العوامل التاريخية في بناء الأمة العربية على ماهي عليه اليوم ، ص ٨٢ .  
(٤) محمد شفقيق غربال : المرجع السابق ، ص ٨٥ .



هذا كانت المسألة الشرنية ايضا ذات تقين هما : الدولة بنظمها في جانب، وثورات مستمرة من شعوب هي رعايا للدولة وهذه الشعوب تحاول التخلص من سيادتها في جانب آخر ، وبين هذين العنصرين عنصر ثالث هو تدخل الدول الأوربية الكبرى في شئونها. وقد أدى ذلك الى ضعف الدولة ، واختلال النظم فيها ، وخلق ميدان فسيح للصراع والتنافس الأوربي<sup>(١)</sup> من أجل اقتسام أملاك الدولة العثمانية فيما بينها طوال القرن التاسع عشر الميلادي .

لكن الدول الكبرى أصبحت سياستها ترتبط بمصالحها الخاصة مما جعل كل دولة تضحي بكل شئ عدا مصالحها ، فكانت كل دولة تنظر بمنظارها الخاص وتعمل من أجله ، فكانت بعض الدول ترى من مصلحتها التعجيل بتقسيم الدولة وتخطيمها لتحصل على الأجزاء التي ترغب فيها ، بينما البعض الآخر كان يريد المحافظة عليها على أن يكون له النفوذ الراجح ، فنشأ ما سمي باسم سياسة التدخل ، وتقابلها ما أسميت باسم سياسة التكامل<sup>(٢)</sup> .

وتعني سياسة التدخل : العمل على طرد المسلمين العثمانيين من أوربا أو تحرير الأجناس الأوربية الخاضعة لهم. أما فكرة التكافل فهي تعني تكافل الدولة العثمانية وتحقيق سيادة السلطان على رعاياه . وتسرى بين الفكرتين روح صليبية فكانت السياسة الأولى ( التدخل ) تعني خلق ثورة بين رعايا السلطان ثم تتدخل الدول الكبرى أثناءها بحجة المحافظة على تكامل الدولة<sup>(٣)</sup> .

فروسيا كانت تطمع في الخروج من سجنها بالقارة الآسيوية ، وانجلترا

(١) محمد عبداللطيف البحرأوي : حركة الاصلاح العثماني ، ص ٦١ .

(٢) محمد عبداللطيف البحرأوي : المرجع السابق ، ص ٦٣ .

، عايض خزام الروقي : حروب محمد علي في الشام وأثرها في الجزيرة العربية ( رسالة ماجستير من جامعة أم القرى ، لم تنشر ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٥م ) ص ٤٦ .

(٣) محمد عبداللطيف البحرأوي : المرجع السابق ، ص ٦٣ .

كانت تريد إبعاد روسيا عن طريق الهند ، والنمسا كانت ترى في القسطنطينية وسالونيك مركزا هاما لها ، فكان هناك وفاق بين السياسة الروسية والنمساوية ، والعكس بين سياسة إنجلترا وروسيا ، لذلك نرى أن روسيا تثير المشاكل للدولة وبريطانيا تبحث عن الحل لها ، ففي تغاير السياستين الروسية والبريطانية أعطى الدولة فرصة للبقاء أكثر في أوروبا<sup>(١)</sup> .

إلا أن قيام الثورة الفرنسية كان لها الأثر الواضح في انصراف الدول الأوروبية وفي مقدمتها روسيا والنمسا عن الاعتداء على أراضي الدولة العثمانية<sup>(٢)</sup> . فانشغال أوروبا بالسيحية بالصراع مع فرنسا والثورة ، كان مفيدا للدولة العثمانية من الناحية السياسية ، ففي ١٢٠٧هـ / ١٧٩٢م قال أحمد أفندي ، السكرتير الخاص للسلطان سليم الثالث " ليجعل الله الثورة في فرنسا تنتشر كالزهري في أعداء الدولة العثمانية ، ويقذفهم في صراع طويل مع بعضهم البعض بحيث تكون النتيجة بما ينفع الدولة العثمانية " .

لذلك كانت الدولة العثمانية ترى أن توسع الثورة الفرنسية في أوروبا سوف يبعد عنها أطماع النمسا وروسيا في أراضيها . فقد كانت الدولة العثمانية تشحن المؤن الى فرنسا من موانئها ، كما استعانت الدولة نفسها من فرنسا بالخبراء العسكريين والبحريين ، ولم يكن تأخر اعتراف الدولة العثمانية بالجمهورية الفرنسية إلا بسبب التحذيرات والاحتجاجات من جانب النمسا وروسيا<sup>(٣)</sup> .

ولكن هذه الهدنة كانت قصيرة اذ سرعان ما أصبحت الدولة العثمانية مرة أخرى مجال توسع لفرنسا<sup>(٤)</sup> .

(١) محمد عبداللطيف البحراوي : حركة الاصلاح العثماني . ص ٦٣-٦٤ .

(٢) محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربي . ص ١٦٩ .

(٣) عمر عبدالعزيز : تاريخ المشرق العربي . ص ٢٦٠ .

(٤) محمد أنيس : المرجع السابق ، ص ١٧٠ .

ولقد كانت وجهات نظر الحلفاء صحيحة حينما أشاروا على الدولة العثمانية بأن الثورة الفرنسية تهدد الدولة العثمانية كما تهدد الدول المسيحية . جاء ذلك في التقرير الذي رفعه أحمد عاطف للسلطان بصدد طلب الحلفاء اشتراك الدولة العثمانية في عمل موحد ضد فرنسا (١) . فجاءت الأحداث تبرهن صدق هذا القول ، عندما اختار نابليون مصر كنقطة انطلاق خارج أوروبا . وقد أقلق هذا العمل بريطانيا بصورة جعلتها تقيم علاقات سياسية ودفاعية دائمة مع الدولة العثمانية لتقف بذلك في وجه الأطماع الفرنسية حتى لا تقترب من حدود الهند والمداخل البحرية للخليج العربي والبحر الأحمر ، لأن هذين الشريانين المائين هما الطريقان المؤديان الى درة التاج البريطاني في الهند (٢) .

ومع أن فرنسا اضطرت الى الجلاء في سنة ١٢١٦هـ / ١٠٨١ م عن مصر الا أن هذا الجلاء لم يكن في الحقيقة نتيجة انتصار عسكري للدولة العثمانية بل جاء نتيجة للمقاومة الشعبية المصرية وللتدخل الإنجليزي البري والبحري ، لكن الحملة الفرنسية نظرا لفشلها فقد فتحت الباب على مصراعيه للتطاحن والتنافس بين فرنسا وبريطانيا حول مصر وغيرها من ممتلكات الدولة العثمانية الأخرى (٣) . وقد اتضح من تلك الانطلاقة أن دور فرنسا لم يعد ينحصر في حماية الكاثوليك كما كان سائدا قبل ذلك بل بدأت تفكر في مصالحها السياسية والتجارية لتأخذ طابعا مميزا وتشترك مع الدول العظمى كبريطانيا والنمسا وروسيا (٤) .

ويؤكد ذلك أنه عندما انسحبت الحملة الفرنسية من مصر أعاد السلطان

(١) عمر عبدالعزيز : تاريخ المشرق العربي ، ص ٢٦٠-٢٦١ .

(٢) عايض خزام الروقي : حروب محمد علي في الشام ... ، ص ٤٦ .

(٣) محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربي ، ص ١٧٠ .

(٤) زين نور الدين زين : الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان ، ص ٣٤ .

لفرنسا امتيازاتها القديمة وعادت السياسة الفرنسية تسعى للحصول على صداقة الدولة العثمانية حتى عاد صوت فرنسا من جديد في اسطنبول (١) .

وفي الوقت الذي حاولت فيه كاترين الثانية امبراطورية روسيا اغراء النمسا للموافقة على اقتسام ولايات الدولة العثمانية أخذت تثير القلاقل والاضطرابات حتى تنازل لها السلطان عن شبه جزيرة القرم (٢) . بموجب معاهدة قينارجة سنة ١١٨٨هـ / ١٧٧٤م وبمقتضاها اكتسبت روسيا حقوقا تجارية وبحرية ، فأصبح من حقها انشاء قنصليات في ممتلكات الدولة العثمانية ، وأصبح لرعاياها حق التجارة في أملاك الدولة العثمانية ، كما فتحت لسفنها حرية الملاحة في أوقات السلم في البحر الأسود عبر المضائق التركية ، ومن أهم المكاسب التي حصلت عليها روسيا نتيجة هذه المعاهدة هو اعطاؤها الحق في اقامة كنيسة أرثوذكسية في اسطنبول ، كما أصبح من حق رعايا روسيا الحج الى الأماكن المسيحية التي تقع في ممتلكات الدولة العثمانية ، لهذا فقدت الدولة العثمانية انفرادها بالسيطرة على البحر الأسود ، كما أصبح في امكان روسيا التدخل في شئون الدولة العثمانية بحجة حماية رعاياها المسيحيين الأرثوذكس ، والواقع انه منذ ذلك الوقت تحدد الطريق للتدخل الروسي في شئون الدولة العثمانية فأضحى في امكان روسيا ان تزحف على الدولة العثمانية خاصة بعد أن أنشأت ماعرف برابطة الشعوب السلافية للعمل على اثاره المتاعب للدولة العثمانية في البلقان كما مر بنا .

إلا أن انجلترا قلبت ظهر المجن للدولة العثمانية فحاولت غزو مصر في سنة ١٢٢٢هـ / ١٨٠٧م لكنها تلقت من المقاومة المصرية ضربة قاضية أرغمتها على الانسحاب مهينة الجناح ، وكانت هذه المحاولة في الحقيقة نابعا من داخل الموقف

(١) عمر عبدالعزيز عمر : تاريخ المشرق العربي ، ص ٢٦١ .

(٢) عايض خزام الروقي : حروب محمد علي في الشام ... ، ص ٤٧-٤٨ .

الأوروبي ابان الحروب النابوليونية حتى استقرت هذه الحروب بعد معاهدة فينا في سنة ١٢٣٠هـ/١٨١٥م<sup>(١)</sup> ، لأن غزو إنجلترا لمصر كان ناتجا من خوفها من الدول الأوروبية وخاصة فرنسا التي تريد عن طريق مصر الوصول الى الهند .

وفي الوقت نفسه الذي كان فيه نابليون حريصا على اقتسام أملاك الدولة العثمانية لاعتقاده بأن ذلك فرصة لتوجيه ضربة قوية ضد بريطانيا في الهند<sup>(٢)</sup> حاولت روسيا اقناعه باقتسام أملاك الدولة العثمانية في سنة ١٢٣٣هـ/١٨٠٨م على أن ترضي النمسا بطعم من تلك الغنيمة<sup>(٣)</sup> .

الا أن الدول الأوروبية طيلة القرن الثالث عشر الهجري الموافق للقرن التاسع عشر الميلادي كانت تخاف من الشبح الروسي اضافة الى الغموض الذي كان يكتنف سياسة روسيا<sup>(٤)</sup> ، هذا الخوف سيطر على نابليون وحال دون قبول ذلك التقسيم .

أما بريطانيا فعلى الرغم من وجود بعض الفتور في علاقاتها مع الدولة العثمانية خلال الفترة من ( ١٢٢٣ - ١٢٢٤ هـ ) - ( ١٨٠٨ - ١٨٠٩ م ) فانها لم تغفل عن الخليج العربي وطرق الهند ، فقد أرسلت البعثات للدولة العثمانية وعقدت معاهدة للوقوف معها يدا واحدة ضد النفوذ الفرنسي والروسي وكان ذلك في سنة ١٢٢٩هـ/١٨١٤م ، وكان إنجلترا تترجم بذلك الواقع سياستها تجاه الدولة العثمانية مع اعتبارها مع فارس منطقة عازلة للهند البريطانية آنذاك ، لأن وقوع أي جزء من تلك الدولتين وبالذات الدولة العثمانية في أيدي الدول الأوروبية

(١) محمد أيس : الدولة العثمانية والشرق العربي . ص ١٦٩ .

(٢) عايض خزام الروقي : حروب محمد علي في الشام... ص ٤٨ .

(٣) محمد كمال الدسوقي : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية . ص ١٠٤ .

(٤) عبد الحميد البطريق : التيارات السياسية المعاصرة . ص ١١٨ .

حري به تعريض الهند للخطر الأوربي<sup>(١)</sup>.

ولكن بعد توقيع معاهدة فينا في سنة ١٢٣٠هـ / ١٨١٥م أصبحت هذه المعاهدة حجر الزاوية في سياسة كل من فرنسا وإنجلترا والذي ترتب عليها قيامها بحماية أملاك الدولة العثمانية والحفاظة على تكاملها السياسي ضد الغزو من جانب روسيا بل ضد الانهيار من الحركات الداخلية المنبعثة من داخل الدولة العثمانية كحركة محمد علي كما سيأتي<sup>(٢)</sup>.

فالحفاظة على كيان الدولة العثمانية وتماسك ممتلكاتها أصبح هو نهج

السياسة الإنجليزية منذ مؤتمر فينا سنة ١٢٣٠هـ / ١٨١٥م<sup>(٣)</sup>.

أما الامبراطورية النمساوية فقد نجحت في طرد العثمانيين من بلاد المجر . وكان يرضيها أن يسود نفوذها السياسي والاقتصادي في البلقان . وخاصة في نهر الطونة الذي يخرج من المجر إلى البلقان ليصب في البحر الأسود . فهو منفذ من منافذ الامبراطورية النمساوية الاقتصادية لأن نهر فرديار أيضا يلتقي به وينتهي في الأرخييل وهو المخرج الثاني للامبراطورية النمساوية .

أما الخط السياسي للنمسا فقد كانت تضم سلالات صقلية ( الكروات مثلا ) ويهمها أن يسود نفوذ اخوانهم الصقالبة البلقانيين ( الصرب<sup>(٤)</sup> وأهل الجبل الأسود ) . فهي تعمل على ابعاد الروس عن البلقان ما استطاعت ذلك .

(١) عيسى حزام الروقي حروب محمد علي في الهند... ص ٤٨

(٢) سليمان بن محمد العمد : قراءة جديدة لمبسة محمد علي التوسعية . ( النبعة الأولى : حدة

سنة تهامة . ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م ) ص ٤٧ .

(٣) محمد أبيس : الدولة العثمانية والشرق العربي . ص ١٧٠ .

(٤) ان التدفيس القومي بين النمسا وروسيا في البلقان على صربيات كان العمل المباشر في منعزل

الحرب العالمية الأولى .

- محمد شفيق عربال : مباح مفصل لدروس في العوامل التاريخية في بناء الأمة على ماضي عليه

اليوم . ص ٨٣ .

وقد دخل ذلك التنافس طوره الأخير عندما احتلت النمسا عسكريا المقاطعتين الصربيتين ( البوسنة والهرسك في سنة ١٢٩٥هـ / ١٨٧٨م ) ثم ضمتها نهائيا عقب صدور المشروطة الثانية ، اضافة الى ذلك فقد كانت النمسا تميل الى تأييد الدولة العثمانية لأن الدولتين لاتشجعان مبدأ القومية العصبية<sup>(١)</sup> .

وقد تزعم هذه الفكرة مترنيخ وزير خارجية النمسا ، ودعا الى تحطيم أي ثورة تقوم ضد الحاكم الشرعي او الحكومة الشرعية في أي مكان في اوربا ولو أدى ذلك الأمر الى التدخل العسكري<sup>(٢)</sup> .

كما جعل مبدأ الحقوق الشرعية أساسا لأية تسوية للمشكلات الطارئة<sup>(٣)</sup> وكان من المفروض أن تؤدي سياسة المحافظة على تكامل الدولة الى الحيلولة دون تفكك الدولة العثمانية لولا أن هذا التفكك كان يتخذ طريقه من داخل الدولة نفسها من الحركات الثورية في أملاكها الأوربية . غير أنه من المهم أن نذكر أنه منذ حرب الاستقلال الصربية من سنة ( ١٢٢٠-١٢٢٩هـ ) ( ١٨٠٥-١٨١٣م ) اخذت بلدان البلقان طريقها الى الاستقلال الواحدة تلو الأخرى<sup>(٤)</sup> .

فكانت ثورة المورة أو استقلال اليونان التي أشرنا اليها في الفقرة السابقة يقال عنها انها الناقوس الذي دق للتنبه عن أهمية مناقشة احوال الدولة العثمانية أمام الدول الأوربية<sup>(٥)</sup> المتحالفة ضد الدولة العثمانية والتي أخذتها العزة بالاثم عندما تكالبت وتدخلت في الحرب الدائرة بين الدولة العثمانية وأتباعها في اليونان وحولت نصر الدولة الى خسارة منفةة في ذلك حلف فينا ( ١٢٣٠هـ / ١٨١٥م ) .

(١) محمد شفيق غربال: مهاج مفصل لدوروس في العوامل التاريخية... ص ٨٣ .

(٢) عبد الحميد البطريق : التيارات السياسية المعاصرة . ص ٢٤ .

(٣) عايض حزام الروقي : حروب محمد علي في الشام ... ص ٤٩ .

(٤) محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربي . ص ١٧٠ .

(٥) أمال السبكي : أوربا في القرن التاسع عشر . ص ٢٠٢ .

لذلك بدأت الدول الأوروبية تثير مناقشة هذه المسألة وتساءلت فيما بينها هل تسرع بتقسيم الدولة؟ أو تحاول بقدر المستطاع حماية تلك الدولة وعدم تفتيتها؟<sup>(١)</sup>.

في تلك اللحظة مات كاننج ( Canning ) وزير خارجية بريطانيا فخلفه دوق ولنجتون الذي اتبع سياسة مخالفة لسياسة كاننج ، فاعتذر عن حدوث الكارثة التي لحقت بالأسطول العثماني في نفارينو ، وأظهر رأيا مؤيدا لتركيا ضد أي تدخل روسي هادفاً بذلك الى منع أي استغلال لهذه الأزمة من شأنه أن يهدد وجود الدولة العثمانية . إلا أن السلطان محموداً لم يقتنع بتلك الاعذار الواهية التي أبدتها الدول لتحطيم أسطوله مثلما اقتنع بها محمد علي<sup>(٢)</sup> . الذي أمر ولده بالانسحاب بما تبقى له من الأسطول الى مصر . لأن روسيا وفرنسا وبريطانيا لم تباشر معه استعمال القوة المسلحة لغرض الهدنة لأن بريطانيا تدرك أن قوة الجيش العثماني الحقيقية هي قوات محمد علي للخلل الذي أصاب الانكشارية في ذلك الوقت وقد استطاعت بريطانيا اقناعه بالانسحاب ببعض الوعود<sup>(٣)</sup> .

أما السلطان محمود الثاني فقد واصل استعداداته لمواصلة الحرب في بلاد اليونان وضد روسيا التي أعلنت عليه الحرب<sup>(٤)</sup> . ولكن لما وصله خبر حادثة نفارينو أرسل بلاغاً الى سفراء هذه الدول الثلاث يقيم الحجة ويشجب هذا العمل المخالف للقوانين الدولية ، ويطلب من هذه الدول عدم التدخل في شئون بلاده، وأن تدفع له تعويضاً عن الخسائر التي

- 
- (١) آمال المبكي : أوروبا في القرن التاسع عشر . ص ٢٠٢ .
  - (٢) محمد كمال الدسوقي : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية . ص ٤٩ - ٥٠ .
  - (٣) سليمان محمد الغنام : قراءة جديدة لسياسة محمد علي التوسعية . ص ٧٠ .
  - (٤) محمد كمال الدسوقي : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية . ص ١٤٩ - ١٥٠ .



لحقت بأسطوله فلم يجبه أحد بل غادروا بلاده . فعهد السلطان الى عمل بيان أو منشور وزعه على جميع الولايات بين فيه مقاصد الدول الثلاث المذكورة وخاصة روسيا نحو الدولة العثمانية الدولة الاسلامية الوحيدة مينا فيه للأمة أن الدافع الحقيقي لهذا العدوان إنما هو الدافع الديني لا السياسي ، وختم هذا المنشور بحث المسلمين على القتال دفاعا عن الإسلام ودياره ، فاغتازت روسيا لذلك وأعلنت الحرب على الدولة العثمانية سنة ١٢٤٣هـ / ١٢٢٨م<sup>(١)</sup> . محاولة بذلك تحقيق الخطوة التي حاول كانج طوال السنوات السابقة منعها من تحقيقها وهكذا أعلنت روسيا بمفردها الحرب ضد الدولة العثمانية دون النظر الى سياسة إنجلترا وفرنسا اللتين كانتا في غاية التخوف من التدخل الروسي اذ قد تبتلع روسيا بتدخلها أملاك الدولة العثمانية وهذا يسبب للدولتين العديد من المشاكل ويخل بالتوازن الدولي<sup>(٢)</sup> . فسارت روسيا بجيوشها التي كانت مستعدة ومتهابة على الحدود ، فاجتازت نهر بروت الفاصل بين أملاك الدولتين واحتلت مدينة ( ياش ) عاصمة البغدان ، ثم بعد ذلك اجتازت نهر الطونة ، فاخترقت جبال البلقان بعد تغلبها على الجيوش العثمانية ، وأخيرا وصلت الى مدينة أدرنة واحتلتها عنوة . ولم يبق أمامها عائق يوقفها عن التقدم الى اسطنبول الا عدم رغبة الدول في سقوطها في أيدي الروس ، بل كان الاتفاق ضمنا حول اضعافها الى حد لا يمكن معه التقدم والارتقاء ، ولتبق عقبة أوحاجزا بين روسيا وبين البحر الأبيض المتوسط<sup>(٣)</sup> الذي ترغب الروس الوصول اليه بشتى الطرق . فأوقفت روسيا الحرب ودارت المحادثات بين الدولتين المتنازعتين بتوسط بروسيا التي أنهت المسألة بالموافقة

(١) اسماعيل مرهنيك : حقائق الأخبار عن دول البحار ... ج ١ ، ص ٦٨٢ .

، محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٨٢٧-٨٢٨ .

(٢) محمد كمال الدسوقي : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ، ص ٤٩ .

(٣) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٤٣١-٤٣٣ .

على الصلح ، وعقدت بناء على هذا معاهدة أدرنة سنة ١٢٤٥هـ / ١٨٢٩م<sup>(١)</sup> .  
استغل بولنيك ( Polignac ) وزير خارجية فرنسا هذه الحادثة بتقديم مشروع تحالف فرنسي روسي على تقسيم أملاك الدولة العثمانية تقسيما كاملا لإعادة تخطيط حدود الدول الأوربية في ضوء هذا التقسيم<sup>(٢)</sup> . ومن الغريب أن روسيا قد خرجت من هذه التجربة بفكرة مغايرة تماما بالنسبة للدولة العثمانية<sup>(٣)</sup> .  
في هذه اللحظة الحاسمة كون القيصر الروسي نقولا لجنة خاصة لدراسة المشاكل الروسية العثمانية التي نتجت عن الحرب القائمة بين روسيا والدولة العثمانية ، وجاء هذا التقرير من اللجنة المكلفة بهذه الدراسة مخالفا لكل ما كان متعارفا عليه في السياسة الروسية<sup>(٤)</sup> التي تقوم دائما على السياسة التوسعية نحو الدولة العثمانية وأملاكها وكانت أطماعها تتركز في السيطرة على البوسفور والدردنيل للخروج الى المياه الدافئة في البحر الأبيض المتوسط ، وترتب على هذه السياسة التوسعية محاولة دائمة لتقسيم أملاك الدولة العثمانية على أن يكون

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٤٣٣ .

محمد كمال الدسوقي : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ، ص ١٥١ .

(٢) فحوى هذا المشروع ان يمتد اليونان حتى القسطنطينية ، ويصبح ملك الأراضي المنخفضة ملكا

عليها ، وتأخذ روسيا الافلاق والبغدان وأجزاء من آسيا الصغرى ، وتحصل النمسا على الصرب

والبوسنة ، وتقسم مملكة الأراضي المنخفضة ، فتأخذ بروسيا هولنده ، وتأخذ فرنسا بلجيكا ،

وتحصل بروسيا على مملكة ساكس ، وتترك أراضيها على الضفة اليسرى للراين لكي تصبح دولة

تحت حكم ملك ساكس السابق . وتحصل بريطانيا على المستعمرات الهولندية .

- محمد كمال الدسوقي : المرجع السابق ، ص ١٥٠ - حاشية رقم (٢) .

(٣) أ.ج. جرانت وآخرون : أوربا في القرنين التاسع عشر والعشرين . ترجمة بهاء فهمي (القاهرة. الناشر

مؤسسة سجل العرب ، ١٩٨٥م) ج ١ ، ص ٣٤٢ .

(٤) محمد كمال الدسوقي : المرجع السابق ، ص ١٥٠-١٥١ .

التقسيم لصالح روسيا أساسا ، وتخليص البلقان من الحكم الاسلامي (١) .  
 أجل جاء تقرير اللجنة التي كونها القيصر نقولا مخالفا لكل تلك  
 السياسات او الاتجاهات ، فلقد قررت تلك اللجنة في وضوح وصراحة تامة أن  
 تقسيم أملاك الدولة العثمانية وتخطيمها ليس في صالح روسيا ولا يمتشى مع  
 مصالحها مستقبلا لأن انهيار الدولة العثمانية سينتج عنه مشاكل سياسية معقدة .  
 كما قررت اللجنة أن تقسيم أملاك الدولة العثمانية سيرتب عليه أن  
 تحصل الدول الأوروبية الكبرى على أجزاء من شبه جزيرة البلقان مما يجلب لروسيا  
 جيرانا أقوى على حدودها الجنوبية بدلا من الدولة العثمانية التي لا تمثل أي خطر  
 على روسيا .

وأن روسيا اعتادت الهجوم على أملاك الدولة العثمانية . أما الدولة فانها  
 ولقرنين من الزمان لم تهاجم الحدود الروسية وظلت روسيا من سنة  
 ١٢٤٥هـ / ١٨٢٩م ولمدة عشر سنوات عكس سياستها الأولى الرامية الى السيطرة  
 على المضائق والقسطنطينية ، ولقد نالت روسيا في تلك السنوات تأييد مترنج  
 مستشار النمسا الذي قاد في أوروبا تيارا معاديا لكل الحركات الثورية ، ومفيدا  
 للمحافظة على الحقوق الشرعية للدول وفي مقدمتها الدولة العثمانية (٢) . واذا  
 رأت روسيا بنظرتها الثاقبة أن دولا بلقانية صغيرة ستنشأ اذا ما استمر انحلال  
 تركيا ، وأن روسيا لن تتمكن من السيطرة على هذه الدول ، فان اللجنة تشير الى

(١) محمد كمال الدسوقي . الدولة العثمانية والمسألة الشرقية . ص ١٥١ .

محمد شفيق غربال : مهاج مفصل لدروس في العوامل التاريخية في بناء الأمة على ماهي عليه  
 اليوم . ص ٨٢ .

أ.ح. حرات واخرون : أوروبا في القرنين التاسع عشر والعشرين . ج ١ . ص ٣٤٢ .

(٢) أ.ح. حرات واخرون : المرجع السابق . ص ٣٤٢-٣٤٣ .

محمد كمال الدسوقي : المرجع السابق . ص ١٥١-١٥٢ .

أنه إذا أرادت روسيا السعي لكسب المزيد من الأراضي فإن عليها أن تتجه صوب أرمينيا أو بغداد لا إلى القسطنطينية ، فقامت سياسة نيقولا على هذا الأساس طوال العشر سنوات على إبقاء الوضع على ما هو عليه للمحافظة على سلامة الدولة العثمانية .

وقد أسر نيقولا بآرائه إلى النمسا فنال تأييد مترنيخ ، ولكن كبرياءه منعه من شرح سياسته لانكلترا ، فاستمر بالمرستون في مناوأة السياسة الروسية على أنها تنوى ضم القسطنطينية والاستيلاء على الدردنيل ولعله كان يوسع بالمرستون أن يخمن الحقيقة إزاء مالمسه من مظاهر الود بين النمسا وروسيا ولكنه لم يفعل <sup>(١)</sup> .

ونعود إلى أهم ماجاء في معاهدة أدرنة التي كسبتها روسيا وهي : أن يكون نهر البروث فاصلا بين الدولتين كما كان سابقا ، وكذلك تتخلى الدولة لروسيا عن مصبات نهر الطونة ، وأن يكون لروسيا حق الملاحة في البحر الأسود إلى البحر الأبيض بدون تفتيش مراكبهم ، وأن يكون تعيين أمراء ولايتي الأفلاق والبغدان لمدة حياتهم وعدم عزلهم إلا بأسباب مقنعة للدولتين <sup>(٢)</sup> .

والواقع أن فرنسا في هذه الفترة هي التي راحت تنتهج في همة ونشاط سياسة تمزيق أوصال الدولة العثمانية في الفترة من ( ١٢٤٦-١٢٥٦ / ١٨٣٠-١٨٤٠ م ) . ففي سنة ١٢٤٦ هـ / ١٨٣٠ م استولت فرنسا على الجزائر وما بين هذين التاريخين أيدت ثورة محمد علي والي مصر ضد الدولة العثمانية <sup>(٣)</sup> ، حيث اعتقدت فرنسا أن مصر من الدول التي يجب أن تحافظ عليها لتأمين البحر الأبيض

(١) أ.ج. جرانت وآخرون : أوروبا في القرنين التاسع عشر والعشرين ، ص ٣٤٣ .

(٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٤٤٤ .

محمد كمال الدسوقي : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ، ص ١٥٢ .

(٣) أ.ج. جرانت وآخرون : المرجع السابق ، ص ٣٤٣ .

المتوسط ولحماية شواطئ أفريقيا<sup>(١)</sup> . وعلى ذلك سعت على هذا الطريق للحصول على العون لتحقيق مشروعاتها الخاصة بالبحر المتوسط<sup>(٢)</sup> .

لهذا نفذت فرنسا هذا الاحتلال ليكون لها مركزا حريا في شمال أفريقيا حتى لا تكون إنجلترا صاحبة السيادة بمفردها على البحر الأبيض المتوسط باحتلالها جبل طارق ، وجزيرة مالطة ، فسيرت جيشها وبعد قتال عنيف بين فرنسا والجزائر استطاعت فرنسا الهيمنة على بلاد الجزائر ، بعد خروج باي حسين ، وأعلنت احتلالها للجزائر في سنة ١٢٤٦هـ / ١٨٣١م<sup>(٣)</sup> . وهذا ما درج أو سمي في التاريخ الحديث باسم ( المسألة الشرقية ) التي اشتركت في حوادثها الدول الكبرى الأوربية ، فأصبحت هذه المسألة مسألة معقدة استحالت على الساسة وحيروهم حلها حلا يرضي جميع الأطراف .

فروسيا غيرت سياستها ، ولكنها تنافس مع فرنسا على حماية رعاياها المسيحيين في أملاك الدولة العثمانية الأرثوذكس ، والأخرى ادعت حماية الكاثوليك مما سيأتي الحديث عنه بالتفصيل في حرب القرم وصدور الخط همايوني . أما النمسا فانها كانت تتطلع نحو البلقان ، وبريطانيا أخذت تعمل ضد الاجهاز على الدولة العثمانية<sup>(٤)</sup> ، وتناوى المشاريع الروسية الفرنسية لتقسيم الدولة العثمانية<sup>(٥)</sup> .

وقد تجددت المسألة الشرقية عندما تعاظمت قوة محمد علي العسكرية في انتصاراته التي أحرزها في حروبه ضد السلطان محمود الثاني سنة

(١) أمال السبكي : أوروبا في القرن التاسع عشر . ص ٢٠٣ .

(٢) أ.ج. جرات وآخرون : أوروبا في القرنين التاسع عشر والعشرين . ج ١ . ص ٣٤٣ .

(٣) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية . ص ٤٤٧-٤٤٨ .

(٤) عبد الحميد البطريق : التيارات السياسية المعاصرة . ص ٤٥-٤٦ .

(٥) أ.ج. جرات وآخرون : المرجع السابق . ص ٣٤٣ .

١٢٥٦هـ/١٨٤٠م ، وقد هزم محمد علي واحتفظ السلطان العثماني بعرشه بعد تدخل دول أوروبا<sup>(١)</sup> كما سيأتي عنه الحديث في الفصل الرابع في أسباب صدور خط كلخانة .

إلا أن المسألة الشرقية عادت مرة أخرى في سنة ١٣٩٢هـ/١٨٧٥م لسبب ثورة الهرسك ضد الدولة العثمانية واختلاف دعوى قسوة الحكام الأتراك في جباية الضرائب في المحاصيل الزراعية ، وانضم إلى هؤلاء الثوار المتطوعون من الصرب والجبل الأسود وبلغاريا وتزعمت هذه الأحلاف صربيا التي أعلنت الحرب على تركيا العثمانية ، عندئذ تنبعت كل من النمسا وروسيا إلى مصالحهما وأطماعهما القديمة في البلقان ، وحاولت كل منهما أن تستفيد من الموقف المرتبك في البلاد<sup>(٢)</sup> .

وهذا مأسوف نوضحه إن شاء الله عند ذكر الحرب الروسية العثمانية التي نتج عنها معاهدة سان ستيفانو سنة ١٢٩٥هـ/١٨٧٨م في عصر السلطان عبدالحميد الثاني ، ثم أعقب ذلك معاهدة برلين في العام نفسه لتقسيم أملاك الدولة العثمانية كما هو معروف .

معنى ذلك أن أطماع الدول الأوروبية في الدولة العثمانية قد استمر على طول تاريخ هذه الدولة في عصرها الثاني حتى سقوط الدولة في الحرب العالمية الأولى . كما أننا لانسى أيضا إيطاليا التي أصبحت هي الأخرى تتطلع إلى الاستيلاء على ليبيا وأنطاليا بعد إعلان المشروطية الثانية<sup>(٤)</sup> .

- 
- (١) زين نور الدين زين : الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان ، ص ٢٤ .  
(٢) عبدالحميد البطريق : التيارات السياسية المعاصرة ، ص ٤٨-٤٩ .  
(٣) مصطفى طوران : أسرار الانقلاب العثماني ( الطبعة الرابعة، القاهرة ، دار السلام ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ) ، ص ٧١ .  
(٤) مصطفى طوران : المرجع السابق ، ص ٧١ .



الباحث وتحيره في أمر نشأتها ومعرفة أول مؤسس لها (١) .  
فدراسة تاريخ نشأة الماسونية موضوع آخر ، وما يعيننا هو دخول الماسونية  
الى الدولة العثمانية .

فتذكر المصادر التي أرخت لهذا الحدث أن دخول الماسونية الى الدولة  
العثمانية كانت في زمن السلطان بايزيد الثاني ، حيث انشأ يهود سلانيك بعد  
انتقالهم من الأندلس في سنة ١٠٩٥هـ / ١٦٨٣م أول محفل ماسوني لهم فيها ،  
أصبح فيما بعد الأب غير الشرعي لجميع المحافل الماسونية التي انتشرت في جسم  
الدولة العثمانية وعلى رأسها محفل اسطنبول (٢) .

وقيل ان النشاط الماسوني قد دخل الى الدولة العثمانية في سنة  
١١٣٠هـ / ١٧١٧م وكان ذلك في عصر السلطان أحمد الثالث حيث أسسوا جمعية  
لهم في عاصمة الدولة اسطنبول ، وارتبطوا في هذه الجمعية بالجمعية الماسونية  
(المشرف الفرنسي) ، وقد بقيت هذه الجمعية عاملة حتى سنة  
١٢١٥هـ / ١٨٠٠م عندما أغلقت بعد قيام الثورة الفرنسية (٣) . هذا الوقت  
كانت الدولة العثمانية فيه منغمسة في مشاكلها الداخلية وتناست ما يحاك ضدها  
من دعوات هدامة ، لهذا نرى أن الماسونيين قد استغلوا هذه الاضطرابات لتقوية  
مراكزهم ، اذا صح دخولهم في ذلك الزمن .

الا أن الماسونية يبدو أنها انتشرت في الأراضي العثمانية منذ وقت بعيد .  
ويقول الأب " لويس شيخو " عن موقف الدولة العثمانية عن الماسونية : " كانت

- 
- (١) شاهين مكاربوس : تاريخ الماسونية العلمية ، ( الطبعة الاولى ، ١٨٩٧م ) ص ١٤ .  
(٢) داود عبدالغفور سنقرط : القوى الخفية لليهود والعالمية الماسونية ( الطبعة الأولى ، عمان ، دار  
الفرقان ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م ) ص ١٢٩ .  
(٣) أحمد نوري النعيمي : أثر الأقلية اليهودية في سياسة الدولة العثمانية تجاه فلسطين ، ص ١١٧ .



الدولة العثمانية أول الدول التي ناهضت الماسونية منذ سنة ١١٦١هـ/١٧٤٨م ،  
وأن بين قوانينها ما يحظر على العثمانيين دخول الجمعيات السرية .

فكان السلاطين العظام ينظرون بعين النفور الى كل ما يتستر تحت حجاب  
الظلمة واذا بلغهم شيء من أمر تلك المجامع أسرعوا الى الغائها وتشتيت شمل  
أصحابها (١) .

غير أن الماسونية الرمزية قد ظهرت في الدولة العثمانية سنة  
١٢٥٤هـ/١٨٣٨م في كورفو ، تحت رعاية المحفل الأعظم الانجليزي ، الا أن  
المعول عليه ، أن أول محفل انكليزي تأسس منها كان في سنة ١٢٥٣هـ/١٨٣٧م ،  
واسمه محفل فيثاغورس ، ثم تأسست بعده محافل أخرى تحت رعاية المحفل الأعظم  
الانكليزي المتحد ، وتأسس غيرها تحت رعاية الشرق الأعظم الفرنسي (٢) .

الا أن الصدر الأعظم ابراهيم باشا ، الذي قرب اليه العلماء والمتقفون ،  
رأى في الماسونية تجديدا في الافكار والآراء ، فانتسبوا اليها وكان رشيد باشا سفير  
الدولة العثمانية في بريطانيا قد انتسب سنة ١٢٦٩هـ/١٨٥٢م الى أحد المحافل  
الماسونية في بريطانيا ، وعندما عاد الى اسطنبول أسس جمعية ماسونية بالتعاون مع  
السفير البريطاني آنذاك في اسطنبول (٣) .

ولكن كان هناك مجلس عال من الأتراك وهو المجمع الوحيد الوطني أسسه  
الأمير حليم باشا، وكان رئيسه طول حياته تحت رعاية المحفل الأعظم الانجليزي (٤) .

(١) حسان على حلاق : موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية ( بيروت ، الناشر جامعة بيروت ،  
١٣٩٨هـ/١٩٧٨م) ص ٢٨٣ .

(٢) جورجى زيدان : تاريخ الماسونية العام ( الطبعة الثانية ، بيروت ، دار الجيل ، ١٩٨٤م) ص ١٤٤ .

(٣) أحمد نوري النعيمي : أثر الاقلية اليهودية في سياسة الدولة العثمانية تجاه فلسطين ، ص ١١٧ .

(٤) جورجى زيدان : تاريخ الماسونية العام ، ص ١٤٤ .

ونظرا للجهود المبذولة من قبل الماسونية فقد تأسس عدد من المحافل في اسطنبول وأزمير ، بعضها تابع للشرق الأعظم الانجليزي وبعضها للمحافل الفرنسية أو الايطالية الى أن أسس أو أنشأ حليم باشا مجمعا وطنيا ، ترأسه بنفسه ، وتعددت محافله حتى أصبح عدد الأتراك الماسونيين نحو عشرة آلاف شخص من بينهم عدد من الوزراء والنواب وقادة كبار الجيش وكبار المسؤولين<sup>(١)</sup> . وفي هذا المجال نشط الماسونيين الانجليز ، وقاموا بتأسيس المحفل " الأورخان " وأدخلوا فيه بعض الأتراك .

وقد اعتبرت هذه الخطوة مرحلة جديدة في تطور الجمعية والنفوذ الماسوني الانجليزي في العاصمة العثمانية ، ولكن لم يلبث أن غيروا اسم محفلهم الى محفل " هومر " الذي عينوا في رئاسته اليهودي ميديانو سلفادور ، وقد استمر في هذا المنصب حتى سنة ١٣٢٧هـ / ١٩٠٩م في حين توسعت هذه الجمعيات حيث ضمت الكثير من الأتراك<sup>(٢)</sup> لاسيما في عهد السلطان عبدالحميد الثاني الذي أثرت حوادث عام ١٢٩٤هـ / ١٨٧٦م في سياسته وسيرته ، منذ أن وجد عمه عبدالعزيز مقتولا في قصر " طولمه باغه " ولما عين مراد سلطانا من بعده خلع ، ولم يبق طويلا في الحكم وعين مكانه أخوه عبدالحميد الثاني ، الذي بدأ أعماله في ظل هذه الظروف وهذا الوضع<sup>(٣)</sup> بالحذر من هذه الحركات .

فالماسونية هي الاسم الجديد للشريعة اليهودية المقنعة كذلك رموزها

- 
- (١) حسان علي حلاق : دور اليهود والقوى الدولية في خلع السلطان عبدالحميد الثاني عن العرش ( بيروت ، الدار الجامعية للطباعة والنشر ، ١٩٨٢م ) ص ٤٠ .
- (٢) أحمد نوري النعيمي : أثر الأقليات اليهودية في سياسة الدولة العثمانية تجاه فلسطين ، ص ١١٧ .
- (٣) حسان علي حلاق : المرجع السابق ، ص ٢٨٣ .

وتقاليدها يهودية كابالا ( Kabbala ) (١) ، وان معالمها رجعية مضحكة ، لأنها التقت بماضي مظلم وتدنرت بضباب قاتم من الأكاذيب والأراجيف الخانقة (٢) .

وان النظم والتعاليم اليهودية كان انتقال أسرارها الى الماسونية على يد الجمعية والفرسان أو الصليب الوردي ، وهي التي اتخذت أساسا لإنشاء المحفل الماسوني الأكبر في سنة ١١٣٠هـ / ١٧١٧م ، ووضع رسومه ورموزه (٣) .

ولاتزال الصهيونية واليهودية العالمية هي القوة المحركة الكامنة وراء الماسونية والأساتذة الكبار الحقيقيون في المحافل الماسونية هم الممثلون للجمعيات الصهيونية السرية ، وان سر التماسك العجيب يرجع الى عدد من الصهاينة اليهود في الصفوف المتقدمة من الماسونية ، ودليل صلة الماسونية واليهودية يقدمه حكماء صهيون (٤) في البروتوكول الخامس عشر من جلساتهم السرية فيما يلي نصه :

"والى أن يأتي الوقت الذي نصل فيه الى السلطة سنحاول أن ننشئ ونضع خلايا الماسونيين الأحرار في جميع أنحاء العالم وسنجذب اليها كل بصير أو يكون معروف بانه ذو روح عامة ( Public Spirit ) وهذه الخلايا ستكون الأماكن الرئيسية التي سنحصل منها على ما نريد من أخبار كما أنها ستكون أفضل مراكز للدعاية .

وسوف نركز كل هذه الخلايا تحت قيادة واحدة معروفة لنا وحدنا

(١) الكابالا : مزيج من الفلسفة والتعاليم الروحية والشعوذة والسحر . متعارف عنها عند اليهود . منذ أقدم العصور . وكان دعاة الكابالا يعلقون أهمية كبرى على السحر والشعوذة وأسرار الطلاسم والرموز والأرقام ... ولزيد من المعلومات انظر :

- محمد عمان : تاريخ الجمعيات السرية والحركات الهدامة في المشرق ( دار البنين للنشر ) ص ٨٩ .

(٢) جواد رفعت أتلخان : أسرار الماسونية ، ترجمة نورالدين رضا الواعظ وآخرون ، ( القاهرة ، الناشر مجلة الأزهر ، ١٤٠٥هـ ) ص ٢٧ .

(٣) محمد عمان : المرجع السابق . ص ٨٩ .

(٤) جواد رفعت أتلخان : المصدر السابق . ص ١١٣ .

وستألف هذه القيادات من علمائنا وسيكون لهذه الخلايا أيضا ممثلوها الخصوصيون ، كما نحب المكان الذي نقيم فيه قيادتنا الحقيقية . وستكون الحبال والمصائد في هذه الخلايا لطبقات المجتمع الثورية ، وان معظم الخطط السياسية السرية معروفة لنا . وسنهددها الى من ينفذها حالما تشكل " (١) . فالماسونية اذا من افرازات الحركة الصهيونية ، والحقيقة أن الماسونية ( البناء الحر ) من أعظم وأقدم الجمعيات السرية التي مازالت قائمة ، ولكن منشأها مازال مجهولا وغايتها الحقيقية مازالت سرا حتى على أعضائها أنفسهم (٢)

يقول كاتب انجليزي " ان الماسوني وان لم يكن يهوديا بالولادة الا أنه رجل متهود " .

وقد عبر عن الرأي نفسه ، هولت زنكر رئيس محاكم فينا بسخرية قائلا :  
 " ان من بين الماسونيين المائة في فينا مائة واثنين من اليهود " (٣) . ويعتبر اليهود والماسونيون أنفسهم معا الأبناء الروحانيين لاعادة بناء هيكل سليمان (٤) .  
 فالماسونية لعبت دورا خطيرا مؤثرا في ميدان السياسة الأوربية وهي التي دبرت الثورة الفرنسية في محافلها لأجل تحقيق أهدافها الخاصة (٥) .

- 
- (١) محمد خليفة التونسي : الخطر اليهودي ، بروتوكولات صهيون ، ص ٢٣٠-٢٣١ .  
 جواد رفعت أتلخان : أسرار الماسونية ، ص ١٣-١٤ .  
 أحمد نوري النعيمي : أثر الأقلية اليهودية في سياسة الدولة العثمانية تجاه فلسطين ، ص ١٢١ .  
 جواد رفعت أتلخان : المصدر السابق ، ص ١١ .  
 جواد رفعت أتلخان : المصدر السابق ، ص ٧٤ .  
 أحمد نوري النعيمي : المرجع السابق ، ص ١٢٢ .  
 أحمد نوري النعيمي : المرجع السابق ، ص ١٢١ .  
 حسان علي حلاق : دور اليهود والقوى الدولية في خلع السلطان عبدالحميد الثاني .. ص ٤١ .  
 جواد رفعت أتلخان : المصدر السابق ، ص ٣٤ .

وان الماركسية واللاقومية هما وليدتا الماسونية أيضا ، لأن مؤسسها كارل ماركس وانجلز هما من ماسونيين الدرجة الحادية والثلاثين ومن منتسبي المحفل الانجليزي ، وانهما كانا من الذين اداروا الماسونية السرية وبسياستهما أصدروا "البيان الشيوعي" المشهور الذي امتدحته المجلة الألمانية الماسونية (لاتونيا) التي أعلنت فرحها واستبشارها بانتشار الاشتراكية في مقال لها سنة ١٣١٢هـ / ١٢ تموز ١٨٩٤م وقالت ان : الماسونية قد وجدت في المبادئ الاشتراكية خير معوان لها فلا بد لنا من معاضدتها " (١) .

معنى ذلك أن القاعدة التي تنطلق منها هذه المذاهب الهدامة ، وان اختلفت في الأسماء والمسميات فهي في الحقيقة مؤسسات سرية يهودية .

لذلك تغفل سلطان اليهود في العالم في أواخر القرن الثالث عشر والرابع عشر الهجريين الموافق لأواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين الميلاديين ، بما أتت هذه الجمعيات من مسببات الانتشار والنجاح : ذلك أن نشاطا تجاريا اجتاح العالم بسبب تطور الثورة الصناعية التي ساعدت على تطور وسائل المواصلات في العالم ، وأتت هذه الجمعيات امكانية الانتشار والانتقال باعضائها من مكان لآخر لنشر ما في تعاليمهم من مبادئ وأهداف تتعلق بأمانهم وأطماعهم عن طريق هذه الجمعيات والمؤسسات التي تسيطر عليها وتوجهها كي ترتبط هذه الجمعيات بالهدف الذي تعبر عنه الخطة الكبرى للحكومة السرية العالمية أو الخفية المنبثة في جميع بلدان العالم ، والتي تقوم بكل عمل ماسوني في خدمة الأطماع اليهودية ، فالأفكار المستقلة التي لاتساير الأفكار الماسونية كانت تتعرض للنقد اللاذع والعداء من قبل الماسونيين (٢) ، ويمكن التصفية الجسدية كما هي عاداتهم لمن

(١) جواد رفعت أتليخان : أسرار الماسونية ، ص ٤٥ .

(٢) جواد رفعت أتليخان : المصدر السابق ، ص ٤٥ .

يقف في طريق مخططاتهم وأهدافهم التلمودية .

أما نشاط هؤلاء اليهود أو الحركة الصهيونية فقد بدأ عداؤها مع الدولة العثمانية منذ عصر السلطان محمد الأول ( ٨٠٦ - ٨٢٥ هـ / ١٤٠٣ - ١٤٢١ م ) الملقب " جلبي " .

ففي عهده استغلت اليهود ضعف الدولة عقب معركة أنقرة الأولى حين أسر بايزيد الأول وتفككت الدولة لموته في الأسر بصراع أبنائه حول كرسي الحكم، فدست اليهود بين صفوف الناس شخصا يدعى ( بدرالدين ) كان يشغل منصبا كبيرا ( القاضي عسكر ) للسلطان محمد جلبي في الدولة متسترا بالاسلام والعلم ، فدعاه الى آراء هدامة من أعمال اليهود المعروفة ، فبات هذا اليهودي يشكل خطرا في كيان الدولة <sup>(١)</sup> ، لمحاولته نشر هذه العقيدة وجمعه حشودا من الناس ، مستغلا بذلك اضطرابات الدولة في تلك الفترة ، فكثر اتباع بدر الدين وأخذوا في نشر مذهبه بالقوة، فكانوا يتعرضون للناس وأموالهم بسبب وبغير سبب، فقد قتلوا آلافا وعلى رأسهم أمير لواء أزمير اسكندر بك ، وقد تنبه له السلطان فقام بالقبض عليه ومحاكمته في الروملي سني ٨٢٣ هـ / ١٤٢٠ م <sup>(٢)</sup> .

ونتيجة لذلك أمر السلطان بقتله وخلص الناس من شره ، وبقتله انتهت دعوته وفتنته التي أثارها بتلك الدعوة <sup>(٣)</sup> .

وقد أشرنا من قبل في فصل سابق الى أن سبب وفاة السلطان محمد الفاتح كان نتيجة للسم الذي دسه له بصورة تدريجية العميل البندقي اليهودي ، وهو أحد أطبائه الخاصين المسمى ميسترو لاکوبو ( Mestro Lacopo ) الذي ادعى أنه اهتدى

(١) على حسون : تاريخ الدولة العثمانية . ص ٢٥ .

يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية . ج ١ . ص ١١٨ .

(٢) يلماز اوزتونا : المصدر السابق . ص ١١٨ .

(٣) على حسون : المرجع السابق . ص ٢٥ .

للاسلام وتسمى باسم يعقوب باشا ، ولكن الاتراك مزقوا هذا اليهودي في الحال<sup>(١)</sup> .

ومنذ سنة ٩٦١هـ/١٥٥٣م والأصابع اليهودية تحاول الدس واثارة الفتن والاضطرابات في الدولة واخراجها عن جادة الطريق القويم عن الاسلام مما جعل ذلك عاملا من عوامل الضعف في الدولة<sup>(٢)</sup> ، كما هي عادة اليهود في ايجاد الفتن والمؤامرات منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم في الخفاء دون المواجهة، ولكنهم على طول هذه المؤامرات نراهم ينجحون في أهدافهم لإبعاد الأمة الاسلامية عن عقيدتها وتوادها وترباطها وتلاحمها ، لأنها تخلت عن مبادئها وهذا من أهم أسباب خذلانها أمام دسائس بني صهيون .

ففي القرن السادس عشر الميلادي أهدى تثار القرم للسلطان سليمان الأول (القانوني) فتاة يهودية روسية اسمها " روكسلانا " كانوا قد سبواها في إحدى غزواتهم ولشدة جماها افتتن بها القانوني فاتخذها زوجة له وسماها ( خرم سلطان)<sup>(٣)</sup> ، وبسبب نفوذها في القصر زوجت ابنتها ( مهرماه ) من اللقيط الكرواني رستم باشا ثم تمكنت من قتل ابراهيم باشا الصدر الأعظم ( رئيس الوزراء ) للدولة ونصبت بدلا عنه صهرها رستم باشا .

ولم تكتف بهذا العمل بل دبرت مؤامرة أخرى استطاعت فيها قتل ولي العهد مصطفى بن سليمان القانوني الابن الأكبر من زوجته الأولى ، بحجة انه يفكر في الاطاحة بحكم والده<sup>(٤)</sup> ، وبهذه الوشاية مهدت الطريق لتولية ابنها سليم

(١) يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية . ج ١ . ص ١١٨ .

(٢) على حسون : تاريخ الدولة العثمانية . ص ٤٧ .

(٣) خرم : أي الباسمة .

(٤) مصطفى طوران : أسرار الانقلاب العثماني . ترجمة كمال خوجه ( الطبعة الرابعة . القاهري . دار

السلام للطباعة والنشر . ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ) ص ١٢ .

الثاني وليا للعهد .

لذلك كانت هناك اشارة لأحد اليهود الذي كانت تربطه صداقة قوية بابنها السلطان سليم الثاني ، هذا اليهودي اسمه جوزيف نانسي وقد قام بدور كبير وبارز في سياسة الدولة العثمانية وانحراف السلطان سليم الثاني ، وقد أسهم هذا بدرجة كبيرة في ضعف وتفكك الدولة العثمانية . فقد زين هذا اليهودي للسلطان فتح جزيرة ناكوس ( Naxo ) وتم استيلاء العثمانيين عليها في سنة ٩٧٥هـ / ١٥٦٧م وزادت خطورة هذا اليهودي لدى السلطان سليم عندما أهداه ناكوس اقطاعا له .

وكان من بين الأسانيد التي ساقها اليهودي للسلطان عن قبرص ان نبذ قبرص لايضاهيه نبذ آخر في العالم . وفي نشوة الخمر قال السلطان سليم الثاني لليهودي : " ستكون ملكا على قبرص " (١) .

فلما جلس السلطان سليم الثاني على العرش ساق عمارة بحرية لفتحها وبعد حرب شديد استطاع جنود الدولة العثمانية فتحها .

ونتيجة لذلك اتحدت البندقية مع البابا وملك أسبانيا وأعلنوا الحرب على الدولة ، وقادوا حلفا صليبيا بقيادة دنجوان الابن غير الشرعي للامبراطور شارل الخامس ملك أسبانيا فاشعل الحرب على الأسطول العثماني ، فاستطاع تدميره في مياه ليبانتو ( Lepanto ) ، وقتل قبطان البحرية العثمانية عثمان باشا (٢) . ومعنى ذلك أن السلطان جلب خسارة كبيرة على الدولة لأجل ارضاء صعلوك من اليهود يريد اغراق الدولة اقتصاديا ليدخل الدولة في متاهات هي في غنى عنها ، وبالتالي

(١) عبدالعزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفرى عليها . ج ٢ ، ص ٩٢٥-٩٢٦ .

حاشية رقم (٢) .

يوسف آصاف : تاريخ سلاطين آل عثمان . ج ٢ ، ص ٨٠ .

(٢) يوسف آصاف : المصدر السابق . ج ٢ ، ص ٨٠-٨٢ .



يجرّها الى الهاوية والتدهور والاستسلام لليهود أنفسهم ليغرقوها في مكاندهم .  
وقد احتفلت أوروبا كلها بهذا النصر لاعتباره أول نصر منذ أوائل القرن  
العاشر الهجري تحرزه البحرية الأوربية لتوقع به الهزيمة بالعثمانيين ، وقد ثبت  
لأوروبا بعد هذه المعركة أنه من الممكن هزيمة العثمانيين ، كما فتحت شهيتهم لمزيد  
من التسلط (١) .

ويشير المؤرخ أحمد عبدالرحيم مصطفى الى أن الصدر الأعظم محمد باشا  
صوقوللي كان يستعين في تنفيذ مشروعاته بالأموال التي كان يوفرها البنكيون  
اليهود في تلك الفترة . وكان يتزعمهم دون جوزيف (٢) ، وكان أمل هذا  
اليهودي أن يجعل من قبرص وطنا قوميا لليهود الفارين من الاضطهاد الأوربي (٣) ،  
او ما يسمى بهجرة اليهود من أسبانيا الى الدولة العثمانية ، وخاصة يهود الدوغة  
(٤) ، والدوغة أطلقها الأتراك على اليهود الذين رحلوا من أسبانيا الى تركيا ، بعد  
طرد العرب واليهود من الأندلس في القرنين التاسع والعاشر الهجريين الموافق  
للقرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين . ولقد تزيا هؤلاء بزي الأتراك  
المسلمين ، وماهم بأتراك ولا مسلمين ، وعمدوا الى عمل ذلك ، حتى يسهل عليهم  
القضاء على الإسلام والدولة العثمانية حامية هذا الإسلام ثم اعلان علمانية

- 
- (١) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ١٤٧ .  
(٢) كان يسمى هذا اليهودي في مطلع حياته دون ميجيه ( Donmiguez ) .  
- عبدالعزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفرى عليها ، ج ٢ ، ص ٩٢٥ حاشية رقم  
(٢) .  
(٣) في أصول التاريخ العثماني ، ص ١٤٦ .  
(٤) الدوغة كلمة تركية تعني باللغة العربية " العائدين " .  
- أحمد نوري النعيمي : أثر الأقلية اليهودية في سياسة الدولة العثمانية تجاه فلسطين ، ص ٢٣ ،  
حاشية رقم (٢١) .

الدولة الجديدة ، ومن ثم مساعدة يهود العالم على المسيرة للاستيطان في فلسطين<sup>(١)</sup> . ومنذ وصولهم من الوهلة الأولى تظاهروا بالاسلام في الدولة العثمانية والتزموا به ، فأخذوا يؤدون الفرائض في الظاهر ، أما في الباطن فانهم يهود قلبا وقالبا ، يمارسون طقوسهم الدينية سرا ، ويحتفظون بأسمانهم اليهودية - الى جانب اسمانهم التركية الاسلامية<sup>(٢)</sup> . وذلك بايعاز من المجلس الأعلى لليهود ليسهل عليهم التفرير بالانتراك وكسب ثقتهم ، ومن ثم التغفل في مراكز السلطة في الدولة العثمانية ، وهذا يساعدهم على المدى البعيد على حماية أبنانهم اليهود وتحقيق الأهداف لهم ومكائدهم العدوانية<sup>(٣)</sup> .

وكان على رأس هؤلاء ، مؤسس جماعة الدونمة اليهود في تركيا ساباتاي . ففي خلال محنة القرن الحادي عشر الهجري الموافق للقرن السابع عشر الميلادي تعرض اليهود في جميع أنحاء " أوربا " وخاصة يهود أسبانيا الذين أصبحوا في وضع سيئ للغاية ، قاسوا فيه أنواع العذاب ، هذا الوضع ساعد ساباتاي على إعلان نفسه المسيح المنتظر الذي بعث لخلاص اليهود في سنة ١٠٥٨هـ / ١٦٤٨م<sup>(٤)</sup> . حيث راجت في تلك الأيام شائعة مفادها أن المسيح سيظهر ، كي يقود اليهود في

(١) داود عبدالعفو سنقرط : القوى الخفية لليهود العالمية الماسوية ، ( الطبعة الاولى . عمان ، دار

الفرقان ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م ) ، ص ١٢٨ .

(٢) داود عبدالعفو سنقرط : المرجع السابق ، ص ١٢٨-١٢٩ .

أحمد نوري النعيمي : أثر الأقلية اليهودية في سياسة الدولة العثمانية تجاه فلسطين ، ص ٢٣ .

(٣) أحمد نوري النعيمي : المرجع السابق ، ص ٢٣ .

(٤) محمد علي قطب : يهود الدونمة ( الطبعة الاولى ، بيروت ، دار القلم ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م ) ، ص

١٦-٢٠ .

داود عبدالعفو : المرجع السابق ، ص ١٢٩-١٣٠ .

أحمد نوري النعيمي : المرجع السابق ، ص ٢٥ .

صورة المسيح ، وأنه سيحكم العالم في فلسطين ، ويجعل القدس عاصمة  
للدولة اليهودية المزعومة (١) .

ذهب ساباتاي الى مصر في سنة ١٠٧٤هـ / ١٦٦٣م فنزل ضيفا على  
صراف يهودي يدعى روفانيل جوزيف فدعمه بالمال ، ومن مصر رحل ساباتاي الى  
فلسطين ، ومنها الى أزمير ، وفي أزمير علا شأنه ، ووفدت اليه الوفود اليهودية من  
كل مكان لشهرته التي طبقت الآفاق ، وقلدته اليهود تاج " ملك الملوك " فقسم  
العالم الى (٣٨) قسما ، وعين لكل قسم ملكا ، وأخذ يوقع باسم " الابن الوحيد  
الأول ليهوه " (٢) ، اعتقادا منه أنه سيحكم العالم كله من فلسطين ، حيث كان  
يقول : " أنا سليل سليمان بن دواد حاكم البشر ، اعتبر القدس قصرا لي " . ثم  
قام بشطب اسم السلطان محمد الرابع من الخطب التي كانت تلقى في كنائس  
اليهود ، وجعل اسمه محل اسم السلطان (٣) .

ومما يؤسف له أن السلطة العثمانية لم تعبا أو تهتم لما يجري وذلك لسببين :  
الأول : التسامح الديني ، وحرية الاعتقاد والإستقلالية الطائفية اليهودية بأمرها  
وشنونها والذي كان وبالا ونقمة على الدولة العثمانية ، أما الأمر الثاني : فهو  
انشغال السلطان محمد الرابع بحرب جزيرة كريت وغيرها (٤) .  
ولما استفحل أمر ساباتاي ألقى السلطان محمد الرابع القبض عليه ، وخيره

(١) أحمد بوري النعيمي : أثر الأقلية اليهودية في سياسة الدولة العثمانية تجاه فلسطين ، ص ٢٤-٢٥ .

محمد علي قطب : يهود الدعوة ، ص ١٧ .

(٢) محمد علي قطب : المرجع السابق ، ص ١٦-٢٠ .

داود عبدالعفو سقرط : القوى الخفية لليهود العالمية الماسونية ، ص ١٣٠ .

أحمد بوري النعيمي : المرجع السابق ، ص ٢٥ .

(٣) أحمد بوري النعيمي : المرجع السابق ، ص ٢٥-٢٦ .

(٤) محمد علي قطب : المرجع السابق ، ص ٢٩ .

بعد محاكمته بين ثلاث : اما اثبات دعواه ، أو الموت ، أو التوبة والاسلام ، ولكنه لم يجد بدامن الاسلام تحت اسم محمد البواب ، فعينه السلطان في الحال ر نيسا لبوابي قصره<sup>(١)</sup> ، وقيل تسمى باسم محمد عزيز أفندي ، وطلب ساباتاي من السلطات العثمانية ، أن تسمح له بدعوة اليهود الى الاسلام فأذنت له ، فانطلق بين اليهود يواصل دعوته الى الايمان به ، ويحثهم في نفس الوقت على ضرورة الاسلام ظاهريا مبطنين لساباتيه<sup>(٢)</sup> .

وقد تركت الدولة لساباتاي حرية التجول والدعوة ، فاستغلها وضمن لنفسه عدم الشبهة ، وانصرف الى تنظيم وتقنين ورسم معالم مذهبه الجديد ، وجمع كل ذلك في وثيقة من ثمانية عشر بنداً ، انكشفت فيما بعد ، وكان أهم تلك المواد وأخطرها المادتان (١٦) و (١٧) وهذا نصهما :

المادة (١٦) : يجب أن تطبق عادات الأتراك المسلمين بدقة بصرف أنظارهم عنكم ، ويجب ألا يشعر أحد من الأتباع بضائقة من صيام ( رمضان ) ومن الأضحية ، ويجب أن ينفذ كل شيء يجب تنفيذه أمام الملا .

المادة (١٧) : ان مناكحتهم - أي المسلمين - ممنوعة قطعاً<sup>(٣)</sup> . وهكذا نشأت على يد محمد البواب ، أو عزيز أفندي جماعة من يهود الدونمة ، في الدولة العثمانية ، والدونمة في الأصل العائد الى الاسلام ، بعد أن كان تائها في اليهودية ، أما في الحقيقة فانهم كانوا يعنون بها المسلم ظاهراً واليهودي باطناً .

(١) داود عبدالغفور سنقرط : القوى الخفية لليهود والعالمية الماسونية . ص ١٣٠ .

اسماعيل الكيلاني : فصل الدين عن الدولة تجاه فلسطين . ص ١٨٧-١٨٨ .

(٢) محمد على قطب : يهود الدونمة ، ص ٣٥ .

احمد نوري النعيمي : أثر الأقلية اليهودية في سياسة الدولة العثمانية . ص ٢٧-٢٨ .

(٣) محمد على قطب : المرجع السابق ، ص ٤٠-٤١ .

و حين تفاقم خطر الدونمة صارت تعني القدر أو الخسيس<sup>(١)</sup> . وقد استطاع ساباتاي أن يقدم الشئ الكثير للحركة الصهيونية أثناء تلك الفترة ، ويقول أفرام غالاتني الكاتب اليهودي " أن ساباتي قد أنقذ اليهود من المصائب والاضطهادات بهذه الطريقة " <sup>(٢)</sup> .

ويبدو ذلك واضحا من توجيهه لليهود الى الدخول في الاسلام ظاهرا حتى يستطيع بناء قاعدة في عاصمة الدولة العثمانية ، باعتبارهم مسلمون ومن خلال اسلامهم يحصلون بلا شك على أهدافهم الاستعمارية .

حين بدأ رجال الدونمة يتغلغلون في جسم الدولة ، كما هي عادة اليهود ، شنوا هجوما غير مباشر على أجهزتها المختلفة ، لشل حركة الدولة عن العمل ، فبدأوا بارتباك الدولة ماديا وإيقاعها تحت طائلة الديون ، فكانواهم وأخوانهم من يهود العالم الذين يتحكمون بذهبه وسياسته<sup>(٣)</sup> أصحاب هذه الديون . وحين عجزت الدولة عن السداد أخذوا يفرضون عليها مايشاؤون تدريجيا حسب خطة

(١) داود عبدالعفو سنقرط : القوى الخفية لليهود العالمية الماسونية . ص ١٣٠-١٣١ .

(٢) احمد نوري النعيمي : أثر الأقلية اليهودية في سياسة الدولة العثمانية تجاه فلسطين . ص ٢٦ .

(٣) هذا الأمر لم تتنبه له الدولة العثمانية التي استقبلت اليهود ، كما تنبته له أسبانيا عندما قامت بطردهم . في حين خيرت العرب بين الرحيل أو البقاء أو اعتناق المسيحية ، لكنهم لم يخبروا اليهود لماذا ؟ والاجابة على ذلك : أن الأسبان يعرفون ويعلمون علم اليقين بانهم سوف يفضلون البقاء مع التظاهر باعتناق المسيحية ، لأن اليهودي لايرضى بغير دينه بديلا . اضافة الى ذلك ان معظم الأراضي الأسبانية بما فيها أراضي الكنيسة كانت مرهونة عند هؤلاء المرابين ، لهذا تخلصوا منهم عندما قاموا بطردهم .

- داود عبدالعفو سنقرط : المصدر السابق . ص ١٢٨ .

مدرسة ففرضوا عليها أول ما فرضوا مستشارين غربيين بحجة حماية ديونهم على الدولة . وكان الغرض الأساسي لذلك هو لتجسس عليها وتوجيه دفعة الدولة حيث يريدون ويرغبون والتحكم في سياستها الداخلية والخارجية .

وهكذا استطاعت هذه المحافل الماسونية بمساعدة يهود العالم والدول الاستعمارية التي تعمل على انقسام الدولة وعلى رأسها إنجلترا وفرنسا أن تدس اليهود الدوامة في جميع المراكز الحساسة في جسم الدولة تمهيدا لاحتوائها وقلبها ، لدرجة أن السلطان في أواخر أيام الدولة ما كان يستطيع أن يعين ميزانية قصره إلا بمشورة هؤلاء المستشارين ، فأصبح منهم الوزراء ، والنواب ، وقادة الجيش ، وكبار الموظفين والمسؤولين لدرجة أن تولى كاميل باشا رئاسة الوزراء ، في آخر عهد السلطان عبدالحميد الثاني ، كما تولى جاويد بك في عهده عدة وزارات منها وزارة المالية (١) .

وهنا يتضح بحق أن الماسونية تضم في محافلها أعضاء كبارا من اليهود الذين ينتمون الى الجمعية السرية . وأن وظيفة هؤلاء هي توحيد المساعي وتنسيقها بين مختلف المحافل ، وتوجيهها لخدمة اليهود . ويتبين من هذا أيضا أن الماسونية هي آلة لخدمة سرية أعلى منها وهي " اليهودية " (٢) .

وهذا ما لعبه المحفل الماسوني الذي أسس هذه الغاية في الدولة بواسطة اليهود ، وهو استخدام رجالات الدولة العثمانية أنفسهم للحصول منهم على المساعدات اللازمة لفتح أبواب فلسطين لهجرة اليهود من أنحاء العالم وإقامة وطن قومي فيها لليهود . وقد ظهرت نتائج هذا المحفل في اشعال نار الثورة في تركيا العثمانية سنة ١٣٢٦هـ / ١٩٠٨م ، للموقف الذي أبداه السلطان عبدالحميد

(١) داود عبدالغفو سنقرط : القوى الخفية لليهود العالمية الماسونية . ص ١٢٨ .

(٢) جواد رفعت أتليخان : أسرار الماسونية . ص ٧٥ .

الثاني تجاه الحركة الصهيونية ، ورفضه لاغراءات وعروض هرتزل المالية لقبول إقامة الوطن اليهودي على أرض فلسطين ، وكان هذا الأمر له الأثر الكبير في دفع أو استخدام الصهيونية للماسونية من أجل الاطاحة بالسلطان عبدالحميد الثاني (١)

لقد استطاعت الحركة الصهيونية استخدام المحافل الماسونية في متابعة النشاط السياسي ، لتحقيق المشروع الصهيوني باستيطان فلسطين ، كما يؤكد يوسف الحاج الحانز على رتبة الأستاذية العظمى في الماسونية ومعتقداتها حيث يقول : " ان مبدأ هذه الفرقة وتعاليمها ودرجاتها وغاياتها ترمي كلها الى تقديس ماورد في التوراة ، واحترام الدين اليهودي ، والعمل على تجديد المملكة اليهودية في فلسطين باسم الوطن القومي اليهودي " (٢) .

وهذا ما أشارت اليه بعض الوثائق البريطانية من تشجيع الهجرة اليهودية الى فلسطين بالرغم من موقف الدولة العثمانية الحازم ضد هجرة وتسرب اليهود ، الذين كانوا يأملون في الإقامة الدائمة في فلسطين والتضحية بأرواحهم ، وما لديهم أي رغبة في العودة الى أهلهم وذويهم . بالرغم من أن مستعمراتهم او مستقراتهم فقيرة ، الا أنها مكيفة لهذا الغرض بحكم طبيعتها للتنافس مع السوريين وأهل فلسطين كما أنها مدعومة بشعور ديني قوي .

وقد أشارت التقارير الى نشاط اليهود الواضح والملموس من ناحية التقدم

(١) ابراهيم فؤاد عباس : الماسونية تحت المهر ( الطبعة الاولى ، جدة ، دار الرشاد ،

١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م ) . ص ٣٨-٣٩ .

(٢) حسان علي حلاق : دور اليهود والقوى الدولية في خلع السلطان عبدالحميد الثاني عن العرش ،

ص ٣٥ .

الدراسي في الكلية الزراعية<sup>(١)</sup> في يافا كما أشارت الى نظرة الاحتقار للعرب المسلمين واتهامهم بالكسل والخمول في الزراعة والتجارة التي برع فيها اليهود . غير أن اتجاه روسيا وبريطانيا وفرنسا اتضح في اصرارهم على تهديد الاستيطان اليهودي في فلسطين .

كما تشير الحقائق الى أنه من الممكن تحقيق مخططات لورد بيكم فيلد، ويمكن ان تكون هذه الهجرات عاملا مهما في حل المسألة الشرقية<sup>(٢)</sup> .

وهذه الفكرة صدى لما كان يدور أو يخطط له في أروقة الخارجية البريطانية كما أسلفنا من قبل ، للتمهيد لما بعد في اعلان وعد بلفور في عام ١٣٢٦هـ/١٩١٧م .

ويوم أن بلغوا في تحكيم الذروة فرضوا على السلطان عبد الحميد الثاني المشروطة الثانية في سنة ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م ، ونفيه الى سلانيك في سنة ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م (٣) لازاحته عن طريقهم بعد تدريب زعماء الثورة في محافلهم ، لتنفيذ مآربهم دون معارضة من الحكومة التي يعتبر حكامها من تلامذتهم كما سنتناوله في الفصل التالي بمشيئة الله تعالى .

---

(١) أمستها السيدة كريمة ويتولي أمرها حاليا اليهود الاسرائيلون الذين يحدرون الى سلالة النبي يعقوب .

F.O.424/197, Sir N.O'Coner to the Marguess of Salisburtn N..91,24-12-1898.

Ibid. (٢)

(٣) داود عبدالعفو سنقرط : القوى الخفية لليهودية العالمية الماسونية ، ص ١٣١-١٣٢ .





## الفصل الرابع

### مظاهر الغزو الفكري في الدولة العثمانية

- أ - الاستغراب ( اتجاه الدولة الى الاصلاح العسكري).
- ب - عصر التنظيمات العثمانية .
- ج - التغريب : مدحت باشا وزملاؤه .
- د - المشروطة الأولى والثانية .



## أ - الاستغراب : ( اتجاه الدولة الى الاصلاح العسكري ) :

أشرنا من قبل الى الخلل الذي لحق بالدولة في المجال الخارجي طوال القرن الثاني عشر الهجري الموافق للقرن الثامن عشر الميلادي وما رافق ذلك من تكتلات قامت بها بعض الدول الأوروبية ضد الدولة العثمانية ، مما أدى الى ظهور اتجاه جديد في الدولة العثمانية يدعو الى اصلاح بعض مؤسسات الدولة ، وخاصة الإصلاح العسكري ، وهو الاتجاه المعروف بحركة الإصلاح على أساس اقتباس وتطبيق النظم العسكرية الأوروبية<sup>(١)</sup> .

وقد بدأ اصلاح الناحية العسكرية منذ أن طفى الإنكشاريون على السلطة وأصبحوا خطرا على الدولة ، وكان السلطان عثمان الثاني ( ١٢٠٨ / ١٠٣٢ هـ ) ( ١٦١٨ / ١٦٦٢ م ) هو أول من فكر في التنكيل بهم عقب امتناعهم عن مواصلة الحرب التي كانت بين الدولة والبولونيين فحولوا نصر الدولة الى خسائر أصابت معظم قطاعاتها . ففكر السلطان في استبدالهم بجيش منظم ، ولكنهم حين علموا بأنه شرع في حشد جيش في آسيا الصغرى ويعني بتدريبه ، انقضوا عليه وخلعوه ثم قتلوه . وفعلا مثل ذلك في السلطان ابراهيم الأول ( ١٠٥٠ - ١٠٥٨ هـ / ١٦٤٠ - ١٦٤٨ م ) حين شعروا أنه يتآمر عليهم ، وألحقوا به السلطان أحمد الثالث ( ١١١٥ - ١١٤٣ هـ / ١٧٠٣ - ١٧٣٠ م ) عندما فكر في تنظيم الجيش فخلعوه ونصبوا مكانه السلطان محمود الأول<sup>(٢)</sup> .

وفي عهد السلطان مصطفى الثالث ( ١١٧١ - ١١٨٨ هـ / ١٧٥٧ - ١٧٧٤ م ) سار اصلاح الجيش سيرا بطيئا وكذلك في عهد السلطان عبدالحميد

(١) ساطع الحصري : البلاد العربية والدولة العثمانية ( مطبعة الرسالة ، ١٩٥٧ م ) ص ٦١ - ٦٥ .

(٢) محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثماني ( صدر ١٣٧٣ هـ / ١٩٥٤ م ) الكتاب الثاني ، ص

الأول (١١٨٨-١٢٠٤هـ/١٧٧٤-١٧٨٩م) إلا أن هذا الإصلاح دخل في طور التنفيذ الفعلي في عهد السلطان سليم الثالث (١٢٠٤-١٢٢٢هـ/١٧٨٩-١٨٠٧م) <sup>(١)</sup> الذي وطد العزم على التجديد والإصلاح ساعده على ذلك قيام الثورة الفرنسية <sup>(٢)</sup>.

وفي تلك الفترة بلغ الوهن والضعف في الدولة العثمانية مبلغا شديدا ، وقد ظهر هذا الضعف مع نهاية السلاطين العشرة الأول العظام ، فتوقفت الفتوحات وأخذ التراجع يصبح الصفة الغالبة على الدولة على محاور قاراتها الثلاث ، مع غرق بعض السلاطين في حياة لاهية، مما صدهم عن القيام بواجباتهم نحو تدبير شئون دولتهم في ميادين الفكر والسياسة ، فاعتدت كل من النمسا وروسيا وغيرهما من الدول الأوروبية على ممتلكات الدولة العثمانية <sup>(٣)</sup> ، وضمتهما إلى أملاكها ولم يقيم السلاطين بواجبهم ، ذلك لأنهم غفلوا عن تربص أوروبا لهم ، ولم يعرفوا أن أوروبا تنتظر الفرصة للإنقضاض عليهم لتقطع أوصال دولتهم .

وأخيرا وجدوا أنفسهم وجها لوجه أمام تلك الأطماع من غير أن يستعدوا لها ويتسلحوا بسلاح عدوهم العلمي والصناعي ، عندما فرطوا في الاهتمام بالعلوم النافعة ، فلم يطوروا صناعاتهم وفنونهم الحربية كما كان يحدث في أوروبا ، ولم يفكروا أيضا في عمل التنظيمات الإدارية المطلوبة . كما أن العلماء كانوا على درجة كبيرة من الضعف ، فأهملوا توجيه الأمة توجيهها علميا وفكريا

(١) ساطع الخصري : البلاد العربية والدولة العثمانية . ص ٦٥ .

(٢) محمد جميل بيهم : التاريخ العثماني . ص ١٥٢ .

(٣) روجي بك الخالدي المقدسي : الانقلاب العثماني . ( مجلة الهلال ، الجزء الثاني ، السنة السابعة

عشر . ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م ) ص ٧٤ .

، عبد الكريم مشهداني : العلمانية وأثارها على الأوضاع الإسلامية في تركيا ، ص ٦٥ .

سليما<sup>(١)</sup> . في الوقت الذي كانت فيه دولتهم تواجه محنة حكم مملكة واسعة ومتزامية الأطراف ، اضافة إلى ذلك لم يكن فيهم حماس عصر سلاطين الدولة الأولى، ولا قوتهم ، لمواجهة حضارة أوروبا المادية الحاملة معها ثورة صناعية واسعة. ولذلك كان على سلاطين الدولة العمل على اخراج دولتهم من هذه الورطة ، فكيف السبيل الى التغلب على هذه المشكلة ؟<sup>(٢)</sup> .

كان الخروج من هذا المأزق الدقيق بنجاح يحتاج الى ذكاء ومعرفة صحيحة بالإسلام وحضارته العظيمة لمواجهة حضارة الغرب المادية . وكان لابد للدولة العثمانية من أن تعمله ، والعالم الإسلامي كله مستعد لاتباعها والسير في ركابها ، لارتباط هذا العمل بمستقبل العالم الإسلامي ، الفكري والحضاري والسياسي الذي لا يقبل أي تأجيل<sup>(٣)</sup> .

ومما يؤسف له أن الدولة العثمانية كانت في تلك الفترة منقسمة على نفسها الى طائفتين : طائفة تريد الاصلاح والطائفة الأخرى متعصبة لا تعرف ولا تقدر خطورة الموقف وضخامته ، هذا الموقف الذي ظهر بتأثير القوة الناهضة في أوروبا لدولتهم<sup>(٤)</sup> .

فظهر ما يشبه الاجماع على الحاجة الظاهرة والملحة الى الاصلاح بأساليب متعددة وذلك بعد الانسحاب الثاني من فينا ، فقام في ذلك الحين المصلحون العثمانيون بالدراسة بصورة مبدئية لنقاط الضعف الداخلي للدولة العثمانية، وقد

- 
- (١) أبو الحسن علي الندوي : الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية . ص ٣٥ .  
عبدالكريم مشهداني : العلمانية وآثارها على الأوضاع الإسلامية في تركيا . ص ٦٥-٦٦ .  
(٢) أبو الحسن علي الندوي : المرجع السابق . ص ٣٧ .  
(٣) أبو الحسن علي الندوي : المرجع السابق . ص ٣٧-٣٨ .  
عبدالكريم مشهداني : المرجع السابق . ص ٦٥ .  
(٤) أبو الحسن علي الندوي : المرجع السابق . ص ٣٨ .

تركز ذلك على معرفة مدى ما وصلت اليه مؤسساتها في جميع المجالات ، ومن ثم التفتت مقترحاتهم الى الرجوع نحو استعادة الدولة الى حالتها الأولى (١) أي الى عصر الدولة الأول ، لتعود الدولة الى ما كانت عليه من قوة في جميع المجالات . وهكذا أخذت محاولات الإصلاح تدخل الى مؤسسات الدولة وذلك ببطء شديد . ولكن بعد معاهدة كارلوفتز ( سنة ١١١١هـ / ١٦٩٩م ) وباساروتيز ( ١١٣١هـ / ١٧١٨م ) اللتين عبرتا عن التفوق العسكري الغربي حان الوقت لسلاطين الدولة العثمانية للنظر الى مقترحات الإصلاح بجدية . وقد تحقق هذا بدخول ابراهيم باشا الى الوزارة برتبة ( صدر أعظم ) في سنة ١١٣١ - ١١٤٣هـ / ١٧١٨ - ١٧٣٠م ) ، والذي كان يفضل الإصلاح ، وفي الوقت نفسه تلقى السلطان أحمد الثالث مذكرة توضح الحاجة الى العمل على التقدم العسكري والاستفادة من تجارب الدول الأوروبية في هذا المجال . وعلى أثر ذلك فإنه كان من المعقول اتخاذ سنة ١١٣١هـ / ١٧١٨م كبداية لنشأة حركة الاستغراب في الدولة العثمانية . ذلك لأن جهود الإصلاح ظهرت بخصائص ثلاث وبدأت منذ أوائل القرن الثالث عشر الهجري الموافق للقرن الثامن عشر الميلادي . وهذه الخصائص الثلاث هي كالتالي :

الخاصة الأولى : كانت تتعلق بحقيقة واضحة ، هي أن معظم الطموحات نحو حركة الاستغراب قد جاء في المصادر والنماذج الفرنسية أو جاء صورة مصغرة عن الحضارة الغربية ، كما كانت فرنسا أيضا الحليف التقليدي للعثمانيين .

أما الخاصة الثانية : فهي أن معظم جهود الإصلاح ركزت في تحسين التدريب والتنظيم للجيش ، وفي استخدام الأسلحة العسكرية الحديثة .

(١) Roderic. H. Davison : Turkey A Short History ( England the Eothern Press (١) Walkington, Beverly 1981 ) p. 68.

والخاصية الثالثة : هي أنه أصبح واضحا أن الإصلاح بإمكانه إحداث  
الصدام بين المؤيدين لهذا الإصلاح والمعارضين له ، الى درجة العنف ، ولذلك يجب  
تبرير أسباب الإصلاح وخطواته للامة وغيرهم <sup>(١)</sup> .

ونتيجة لذلك اهتمت الدولة في عهد السلطان أحمد الثالث بالطباعة  
وسبقت هذا الحادث العظيم بحوث مستفيضة قام بها العلماء حول شرعية الطباعة  
وأخيرا أفتى شيخ الإسلام عبدا لله أفندي في سنة ١١٢٩هـ / ١٧١٦م بإباحة ذلك  
بشرط جودة الطبع والتصحيح ، وبناء على ذلك صدر خط شريف بإنشاء المطبعة  
وأوكل أمرها إلى إبراهيم متفرقة ( Ibrahim Muteferrike ) المجري الذي اعتنق  
الإسلام ، وذلك لإنشاء أول مطبعة في الدولة العثمانية ، وكان خوف العلماء  
مبعثه أن يعمد أصحاب الأغراض السيئة الى الكتب الدينية فيحرفونها ويشوهوها ،  
ولذلك تعهد لهم إبراهيم بعدم طبع كتب التفسير والحديث والفقهاء أو أي كتاب  
ديني <sup>(٢)</sup> .

وقد أصدر إبراهيم متفرقه رئيس المطبعة العثمانية في البداية حوالي سبعة  
عشر كتابا تدور موضوعاتها حول الدراسات العلمية والعسكرية للمدارس  
العسكرية الحديثة التي أنشئت في عهد السلطان عبدالحميد الأول ، كما جاء الى  
اسطنبول وفود عديدة من الغرب خاصة من الفرنسيين لأسباب رسمية وغير رسمية .  
وقد تطور هذا الاتجاه نحو الإصلاح فكان الوزير خليل حامد ( ١١٩٧ -  
١٢٠٠هـ / ١٧٨٢ - ١٧٨٥م ) يميل الى الإصلاحات الغربية ، كما كان له

(١) Roderic H. Davison : Turkey A Short History, p. 68 .

(٢) Roderic H. Davison : Ibid, p. 69-70.

محمد عبداللطيف البحر اوي : حركة الإصلاح العثماني ، ص ٩٣ .



صداقات تربطه بفرنسا ، ولكن المحافظين الذين شعروا بالقلق من تدفق الرجال والأفكار الأوروبية من ديار الكفر خافوا من سيطرة فرنسا على البحر المتوسط والتي كانت من أهم أهداف سياستها الاستعمارية . لهذا قام المحافظون بقتل هذا الوزير ووضعوا على جثته بعد قتله شعار " عدو الشريعة والدول " (١) .

لذلك اقتنع السلطان عبد الحميد الأول أن الدولة إذا لم تصلح جيشها ونظامها العام فإن أيامها لن تطول ، وكان يرى أن الإصلاح الحربي يجب أن يكون في مقدمة الإصلاحات لأن سنة ١١٨٨هـ / ١٧٧٤م تمثل نقط الضعف الخارجي على الدولة ، فكانت معاهدة قينارجة مقياساً حقيقياً لمدى الضعف الذي وصلت إليه الدولة ، والتي تمت نتيجة للحرب التي قامت بين روسيا والدولة العثمانية في عصر السلطان أحمد الثالث . وقد أظهرت تلك الحروب وتوقيع المعاهدة التي أعقبتها مدى تفوق الأسلحة الغربية، لذلك اتجهت عناية السلطان إلى الإصلاح الحربي .

وفي هذه الأثناء نشر أحمد راسم أفندي رسالة شرح فيها أسباب ضعف الدولة العثمانية في الحروب التي خاضتها خلال الفترة (١١٨٣-١١٨٨هـ - ١٧٦٩/١٧٧٤م) وأوضح أن العلاج الناجح هو الإصلاح والتنظيم العاجل للجيش وتطوير أسلحته .

لهذا اهتم السلطان عبد الحميد الأول بهذه الإصلاحات ولكنه لم يستطع تنفيذ برنامجه الإصلاحي في هذا الشأن لمعارضة الانكشارية له (٢) .  
وخلال هذه الفترة تولى السلطان سليم الثالث، وكان يتوق إلى الإصلاح، وقد هزته أفكار الثورة الفرنسية ، فكان عهده بمثابة عهد جديد لإصلاح أجهزة

(١) Roderic H. Davison : Turkey A Short History , p. 70.

(٢) محمد عبداللطيف البحر اوي : حركة الإصلاح العثماني ، ص ٩٨ .

الدولة<sup>(١)</sup> . فقد أتاح له عمه السلطان عبدالحميد الأول حرية التفكير خلال ولايته التي استمرت خمس عشرة سنة ، حياة حرة ، واتصالات واسعة ، اكتسب منها ثقافة وتحصيلا واسعا<sup>(٢)</sup> .

وكان من أقرب المقربين الى السلطان سليم الثالث طيب ايطالي اسمه لورنزو ( Lorenzo ) حصل منه ومن غيره من الأوربيين على معلومات عن دول أوروبا وعن مؤسساتها المدنية والعسكرية وكذلك أسباب تفوقها على العثمانيين . بل إن سليما أجرى مراسلات عن طريق وسيط مخلص له ، اسمه ( اسحق بك ) مع الملك الفرنسي لويس السادس عشر ووزرائه بهدف تزويده بمعلومات ثقافية وسياسية من قادة ما اعتقده سليم الثالث أنها أرقى دول أوروبا .

وظل يرسل لويس السادس عشر الى أن قامت الثورة الفرنسية في سنة ١٧٨٩م / ١٠٢٤هـ . وهو هذا العام الذي تولى فيه السلطان سليم السلطة ، وكل ذلك يلقي الضوء على رغبة السلطان سليم الثالث في الإصلاح ، هذه الرغبة التي أفقدته فيما بعد عرشه ثم حياته في النهاية<sup>(٣)</sup> .

وقيل ان والده السلطان مصطفى الثالث ، ترك له مذكرات مكتوبة شرح فيها أوجه الخلل في الدولة ووسائل الإصلاح ، لذلك جاء سليم الثالث للسلطنة متحفزا للإصلاح<sup>(٤)</sup> .

وعلى ما يظهر أن السلطان سليم الثالث قام بكل ذلك لأنه كان يأمل من لويس السادس عشر الحصول على بعض المساعدات الفرنسية لمواجهة

(١) اسميل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ٢ ، ص ٦٤٤ .

عبدالكريم مشهداني : العلمانية وآثارها على الأوضاع الإسلامية في تركيا ، ص ٦٥ .

يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ٦٤٣ .

(٢) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ١٧٣-١٧٤ .

(٣) محمد عبداللطيف البحراري : حركة الإصلاح العثماني ، ص ٩٩ .

(٤) محمد عبداللطيف البحراري : المرجع السابق ، ص ٩٩ .

روسيا<sup>(١)</sup> . وقد أخطأ سليم في اتجاهه الى فرنسا التي كانت تموج بكل النظريات ، في حين أن لويس السادس عشر ورجاله كانوا يخططون لايقاع الدولة العثمانية في شباكهم ، فكان عليه أن يدرك أن مايفيد الغرب المسيحي لايمكن أن يطبق بأي شكل من الأشكال على العثمانيين<sup>(٢)</sup> .

وفي السنوات التي تلت جلوس سليم الثالث على العرش ، افتتح سفارات دائمة في العواصم الغربية وهي لندن وفيينا وبرلين وباريس<sup>(٣)</sup> ، ومن خلال تلك الاتصالات أخذت حضارة الغرب المادية تتسرب بشكل أو بآخر الى مؤسسات الدولة العثمانية ، ولكن بشكل بطئ وخاصة حينما تم تأسيس المطبعة ، التي اقتصرت على طباعة الكتب غير الدينية<sup>(٤)</sup> .

ولم يقتصر السلطان سليم الثالث في تحرياته عن أسباب التقدم الأوربي على المصادر الفرنسية فقط ، بل أرسل أبابكر راتب أفندي الى فيينا ليدرر الحالة هناك عن كتب ، في أوروبا ، ولما عاد في نفس السنة كتب تقريراً مفصلاً عما شاهدته عن الحكومة والفكر السياسي المعاصر ، مع اقتباس لبعض أقوال الفلاسفة والسياسيين ، فأوضح في تقريره ضرورة الاهتمام بالجيش وتدريبه ، وكذلك الاهتمام بموارد الدولة وتنظيمها على أسس حديثة .

وكان أمام السلطان سليم الثالث مثل واضح فيما فعله بطرس الأكبر في روسيا بواسطة القوة التي دربها له خبراء غربيون على النسق الأوربي ، اذ استطاع

(١) Roderic H. Davison : Turkey A Short History , p. 70.

(٢) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ١٧٤ .

(٣) عبدالكريم مشهداني : العلمانية وآثارها على الأوضاع الاسلامية في تركيا ، ص ٦٦ .

أحمد عبدالرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص ١٧٧ .

(٤) عبدالعزيز نوار : الشعوب الاسلامية ، ص ١٧٥ .

Roderic H. Davison : Op.cit. ,p. 70. ،

عبدالكريم مشهداني : المرجع السابق ، ص ٦٦ .

بها التغلب في حروبه وصد الخطر الداخلي والخارجي على السواء<sup>(١)</sup> . ولم يعلم سليم الثالث أن ذلك القياس خطأ من أساسه ذلك لأن الدولة العثمانية دولة إسلامية لها نظمها وحضارتها الإسلامية ولا يمكن قياسها بروسيا ، ولكنه أصر على الأخذ بآرائه دون دراسة الوضع دراسة تتمشى مع مكانة الدولة الدينية والسياسية ، وأخذ في ادخال بعض التحسينات المهمة التي طورت بها أوربا جيشها ، وكانت فجائية هذا العمل من أشد الأعمال خطرا على الدولة<sup>(٢)</sup> .

كان السلطان سليم الثالث حليما عاقلا وحكيما محبا للإصلاح . وقد رأى بنفسه مبلغ اختلال أحوال الدولة بسبب استبداد الانكشارية في أمور الدولة ، حتى صاروا يعزلون ويولون كما كان يفعل الجند التركي في الدولة العباسية . فعزم على التخلص منهم واستبدالهم بجند منظم<sup>(٣)</sup> ، غذاؤه جيد ، لباسه جيد ، راتبه أيضا جيد ، يفرغ حتى لا يكون له عمل الا الدفاع عن دينه ووطنه . لايتدخل في شئون الدولة والسياسة ولاينهب الشعب ، مطيعا لقادته وقيادته طاعة عمياء ، ملما بالمأما جيدا بالعلوم العسكرية الجديدة ليعود بأمجاد الدولة الى ما كانت عليه في عصرها الأول<sup>(٤)</sup> .

لذلك طلب السلطان سليم الثالث في سنة ١٢٠٦هـ / ١٧٩١م من تسعة عشر تركيا وأجنيبين أن يقدم كل منهم تقريرا عن أسباب فقدان الدولة العلية قدرتها السابقة واقترح الاصلاحات التي يلزم اجراؤها حاليا لاستعادة تلك

- 
- (١) محمد عبداللطيف البحر اوي : حركة الاصلاح العثماني ، ص ١٠٠ .  
(٢) اساعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٦٤٤ .  
(٣) هيئة التحرير : تاريخ الجند العثماني ، مجلة الهلال ، ج ٨ ، ص ١٧ ، ١٣٢٦هـ / ١٩٠٩م ، ص ٤٦٨ .  
(٤) يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ٦٤٦-٦٤٨ .

القدرة<sup>(١)</sup> .

والغريب أن التقارير تركزت كلها حول نقطة واحدة هي أن الإصلاح يجب أن يبدأ في الجيش أولا ، وكان اتفاقا مدهشا بالنسبة الى التشكيلات الانكشارية، ولذلك لم يتردد السلطان سليم الثالث أبدا في أن يبدأ باصلاح الجيش أولا ، وهو يعرف أن هناك من فقد رأسه من أجداده ومن الوزراء دون أن يتمكنوا من اصلاح الانكشارية ، ولذلك أصدر مرسوما بذلك في سنة ١٢٠٨هـ/١٧٩٣م ينص على قيام نظام حركة التجديد والنظام الجديد لتكوين الجيش<sup>(٢)</sup> .

وقد انتهزت الدول الأوروبية وعلى رأسها فرنسا هذه الفرصة لاستقلال اتجاهات السلطان سليم الثالث نحو التجديد ، فأظهرت له المودة وساعدته بادخال المخترعات العسكرية الحديثة في جيشه ، فأرسلت له السفير المسيو أوبر دوبايت ( Aubert du Bayts ) ، ومعه عدد من المهندسين الفرنسيين يرافقهم عدد من الضباط والمعلمين للتدريب على كل الأسلحة وصناعة المدافع ، وقد جلب هؤلاء معهم بعض المدافع الجاهزة المركبة على عجلات هدية للسلطان ، ولتكون نموذجا لصناعة المدافع في الدولة العثمانية .

كما قامت البعثة الفرنسية بتوجيهه وتكوين فيلق من المدفعية (الطوبجية) عدد رجاله ثمانمائة<sup>(٣)</sup> ، كما نظمت فرقة من الخيالة تسير على النظم العسكرية

(١) Roderic. H. Davison : Turkey A Short History , p.70.

، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ٦٤٣ .

(٢) يلماز أوزتونا : المصدر السابق ، ص ٦٤٦-٦٤٧ .

(٣) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٦٤٥ .

، ابراهيم حليم بك : التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٧٩ .

، محمد عبداللطيف البحر اوي : حركة الاصلاح العثماني ، ص ١٠١ .

، أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ١٧٨ .

الأوربية الحديثة ، وقامت بتعليمها على الطراز الأوربي الحديث .  
وفي الوقت نفسه أوجدت هذه البعثة تشكيلات من المشاة ( البيادة )  
فكانت هذه التشكيلات نواة الجيش الجديد ، الذي أسند السلطان قيادته الى  
مصطفى باشا (١) .

وعلى هذا المنوال سار السلطان سليم الثالث وأخذ في ادخال إصلاحاته  
الجديدة في كافة فروع الجيش وادارة الدولة ، ولكن الصدر الأعظم حافظ اسماعيل  
باشا كان يظهر للسلطان أنه ممن يميلون الى هذا الاصلاح أو التنظيمات الجديدة  
قلباً وقالبا ، لكنه في قرارة نفسه كان يكره هذه التنظيمات ، فاكسبت بذلك  
الطائفة المعارضة قوة لمساندة الصدر الأعظم لهم .

اتضح هذا الموقف عندما أراد السلطان بث التنظيمات العسكرية الجديدة  
بجهة الروملي ، فأرسل لهذه المهمة والى قونية عبدالرحمن باشا حيث أمره السلطان  
في الظاهر بتنكيل أشقياء الصرب وفي الباطن القيام باجراء الاصلاحات كما رسمت  
له وذلك في سنة ١٢٢١هـ / ١٨٠٦م .

ولما بلغ ذلك أعيان الروملي اجتمعوا وتحالفوا خفية في ادرنه واتفقوا على  
منعه بالقوة فشاع الخبر ، لذلك أشار رجال الدولة على السلطان بلزوم عودة  
عبدالرحمن باشا الى ولايته ، فتفرق أعضاء ذلك التحالف وعادوا الى بلدانهم ،  
فاشتهرت هذه الواقعة في التاريخ العثماني بوقعة ادرنه الثانية (٢) .

وفي تلك الفترة حدثت في داخل الدولة بعض الاضطرابات بسبب مشروع  
السلطان تعميم او تنظيم الجيوش على النظام الجديد ، قام بها الجيش الانكشاري

(١) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٦٤٥ .

، أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ١٧٨ .

(٢) اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ص ٦٤٥-٦٤٦ .

الذي لم ينظر لهذه الاصلاحات العسكرية بعين الارتياح <sup>(١)</sup> لرفضهم استعمال  
الأسلحة الجديدة والقيام بالتدريب الجديد <sup>(٢)</sup> .

وفي هذه الأثناء هلك الجنرال دوبايث الفرنسي الذي حضر لتدريب  
الجيش على النظام الجديد ، فعاد عدد كثير من ضباطه إلى فرنسا وبموته تشتت  
هذه القوة <sup>(٣)</sup> .

كان السلطان مقابل ذلك كثير التنازل ، كان يتحاشى سفك الدماء ظنا  
منه أنه اذا تسامح وقدم بعض التنازلات فان المعارضين سيلينون ، لكن ذلك زادهم  
تشجيعا في المعارضة والعصيان .

وعلى الرغم من محاولاته فانه لم يتمكن من تصفية تشكيلات الانكشارية.  
أما الانكشارية فانها كانت تعلم علم اليقين أنها تعيش أيامها الأخيرة ،  
سواء كان الانكشاريون من الجنود المخلصين الذين يؤمنون بأن ابتعادهم عن  
تقاليدهم وانضوائهم في تشكيلات جديدة تقلل من شرفهم ، أو من الذين يخشون  
من فقدانهم الكثير من دخلهم الذي سيقصر على الراتب فقط في حالة دخولهم  
النظام الجديد ، لذلك فان الجميع لم يكونوا راغبين في الانفصال عن نظام  
الانكشارية القديم وتسجيل أنفسهم في حركة النظام الجديد.

لكن مما يجدر ذكره أنه كان هناك عدد من قواد الانكشارية المثقفين الذين  
يوقنون عدم امكان الانتصار على أية دولة من الدول الأوروبية بهذه التشكيلات  
القديمة ، ولم يكن هؤلاء يخشون فقدان مناصبهم لكونهم من ذوي الرتب العالية  
لأنهم بطبيعة الحال سوف ينقلون إلى مناصب أخرى ، لكن عدم وجود الشجاعة

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٣٨١ .

(٢) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ١٧٩ .

(٣) محمد فرد بك : المصدر السابق ، ص ٣٨١ .

أحمد عبدالرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص ١٧٩ .

الكافية لدى السلطان لالغاء هذه التشكيلات زاد من شجاعة المعارضين والعصاة<sup>(١)</sup>، مما جعل السلطان سليم الثالث يسعى الى انشاء قوة مشاة جديدة مع الاهتمام بكبح جماح الانكشارية، الذين كانوا عقبة في طريق الاصلاح العسكري<sup>(٢)</sup>. وقد أطلق على هذه الفرقة اسم " النظام الجديد ". وتمويل هذه الفرقة أنشئت خزانة خاصة للصرف منها على هذا النظام الجديد، فاستقدم السلطان الخبراء من فرنسا وانجلترا وبروسيا<sup>(٣)</sup> وذلك بصورة خفية عن الخاصة والعامه<sup>(٤)</sup>. وكان العلماء في البداية مترددين تجاه حركة النظام الجديد، وكان من بينهم من يؤيد الحركة، وعند تعيين اسحق زاده محمد عبدا لله افندي في المشيخة في سنة ١٢٢١هـ/١٨٠٦م بدأ العلماء في المعارضة وذلك عندما حرضهم على العصيان بكل قوة ضد النظام الجديد، وضد مؤسس هذا النظام السلطان سليم الثالث<sup>(٥)</sup>.

وكان العلماء المتعصبون، يدعون أن جيش النظام الجديد كافر، لأنه يرتدي البنطلون ( السروال ) بدلا من الشالوار ( لباس يغطي النصف الأسفل من الجسم عريض وواسع ) ويدعون أن السلطان سيلبسهم القبعات، فكانوا يثيرون

- 
- (١) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية . ج ١ . ص ٦٥٧-٦٥٨ .  
(٢) فقد تمردوا في عهد السلطان عثمان الثاني في سنة ١٦٢٢م . ومصطفى الثالث في سنة ١٦٢٣م و ابراهيم في سنة ١٦٤٨م وأحمد الأول في سنة ١٧٣٠م ومالتوا أن تمردوا عليه أي السلطان سليم الثالث في سنة ١٨٠٧م ومن بعده مصطفى الرابع في سنة ١٨٠٨م .  
وكل هؤلاء السلاطين . اما خلعوا أو قتلوا على أيدي الانكشارية .  
- أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني . ص ١٧٩ .  
(٣) أحمد عبدالرحيم مصطفى : المرجع السابق . ص ١٧٩ .  
(٤) محمد عبداللطيف البحر اوي : حركة الاصلاح العثماني . ص ١٠٢ .  
(٥) يلماز أوزتونا : المرجع السابق . ص ٦٥٧ .



الناس بمثل هذه الأقوال<sup>(١)</sup> حتى حرموا باستعمال البنادق ذات الحراب لأن استعمال أسلحة الكفار عندهم اثم عظيم ، وأساءوا الى سمعة السلطان وبثوا كراهيته في نفوس الجمهور ، بقولهم انه بهذا العمل يسيء الى الاسلام بترويجه أساليب الكفار (٢) .

ولم تؤثر تلك المعارضة في تصميم السلطان سليم الثالث على التجديد بل سار في تعميم هذا النظام الجديد في الولايات العثمانية ، غير أن الانكشاريين مالبثوا أن وقفوا في وجهه وأرغموه على الغاء " النظام الجديد " الذي وصفوه بأنه خدعة مخالفة للشرع ، وأعدموا جميع مؤيديه من رجال الدولة<sup>(٣)</sup> ، وكان شيخ الاسلام عطا الله أفندي والصدر الأعظم يخرضان الثوار سرا<sup>(٤)</sup> .

ولم يكتف الانكشارية بذلك ، بل استصدروا فتوى من شيخ الاسلام بأن السلطان الذي " يعمل بخلاف القرآن " لا يجدر بالبقاء على العرش حتى لا يتركوا له فرصة إحياء النظام الجديد ، وعزلوه بالفعل في سنة ١٢٢٣هـ / ١٨٠٨م<sup>(٥)</sup> .

وفي الواقع أن التغير كان في البداية في مجال التجهيزات للجيش وتنظيمه وتدريبه ، ولم يكن هناك أي تفكير أو تدخل في الأمور الأساسية مثل التعليم

(١) يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ٦٥٨ .

، أبو الأعلى المودودي : نحن والحضارة الغربية ( بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٣هـ ) ، ص ١١١ .

(٢) أبو الأعلى المودودي : المصدر السابق ، ص ١١١ .

، عبدالكريم مشهداني : العلمانية وآثارها على الأوضاع الاسلامية في تركيا ، ص ٦٧ .

(٣) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٦٥٧-٦٥٨ .

، علاء موسى كاظم نورس : مسنولية الانكشارية في تدهور الدولة العثمانية ( المجلة التاريخية المغربية العدد ٢٥ ، ٢٦ ، ١٩٨٣م ) ، ص ١١٠ .

(٤) اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ص ٦٥٨ .

(٥) أبو الأعلى المودودي : المصدر السابق ، ص ١١١ .

، علاء موسى كاظم نورس : المرجع السابق ، ص ١١١ .

أو الصناعة أو الزراعة ، بل ان حركة الاستغراب الحقيقية في عهد السلطان تركزت في المجال العسكري فقط ، لاعادة تنظيم فيالق الجيش المختلفة ، وتزويد بعضها بأسلحة جديدة ، وقد اهتم السلطان كثيرا بالمدارس الفنية العسكرية ، وعمليات الترجمة ( ١ ) لبناء الوحدات العسكرية ، المشاة والمدفعية ، وخصص المهندسين لبناء السفن ، وصناعة المدافع لمواجهة تسلط الانكشارية على مؤسسات الدولة وفشلهم في خوض الحروب أمام القوى الأوروبية . غير أن الانكشارية استطاعت خلع السلطان سليم الثالث وتنصيب ابن عمه مصطفى الرابع مكانه ، وعلى الرغم من أنه وصل الى العرش مستندا الى فكرة مخالفة النظام الجديد إلا أنه قتل المتسبين في الثورة التي قامت ضد السلطان سليم الثالث ونظامه .

وعندما قامت هذه الثورة المناهضة للاصلاح بقتل قسم من مؤيدي النظام الجديد ، تمكن الآخرون من الفرار ، و لجنوا الى مصطفى باشا الملقب بعلمدار ، أحد مؤيدي السلطان سليم الثالث والنظام الجديد في روسجك " أصحاب روسجك " وبتشجيع من رجال الدولة ، وكان أكثرهم من الشباب المتحمسين للنظام الجديد ، لهذا قرر علمدار اعادة سليم الثالث الى عرش الدولة مرة ثانية مهما كان . ولكن السلطان مصطفى لما علم بالأمر ذهب الى سراي داود باشا خارج اسطنبول واستقبل هناك علمدار فعرض " أصحاب روسجك " على علمدار اعتقال السلطان مصطفى الرابع ، فرفض علمدار ذلك وأضاع من يديه الفرصة .

فقام السلطان مصطفى الرابع بناء على رغبة علمدار بعزل شيخ الإسلام ونفي العلماء الذين تدخلوا في هذا الانقلاب ، تهدأةً للنفوس فشكر السلطان

(١) Roderic H. Davison : Turkey A Short History , P. 70-71.

علمدار على خدماته ، وأمر بعودته الى سواحل الطونة وعدم تركها (١) .  
تلكا علمدار مدة أسبوع دون قصد يفكر فيما سيفعله وفي النهاية اقتحم  
علمدار الباب العالي وأخذ الختم الهمايوني من الصدر الأعظم ، وصار علمدار  
مصطفى باشا صدرا أعظم للبلاد ، وان لم يكن بصورة شرعية.

علم السلطان مصطفى الرابع بحادث اقتحام علمدار الباب العالي وعرف  
مايقصده فاتخذ التدابير حيال ذلك ، لكن علمدار لم يسرع في اعتقاله للمرة الثانية  
ولكنه أرسل اليه شيخ الاسلام يعرض عليه التنازل في الحال عن العرش ولكن  
السلطان مصطفى الرابع أمر بقتل السلطان سليم الثالث والسلطان محمود الثاني  
ولي العهد حتى يبقى هو الوحيد من بني عثمان ، فنجح في قتل السلطان سليم ،  
ونجا السلطان محمود الثاني بأعجوبة بعد تهريبه الى فناء المنزل الذي دخله علمدار،  
ولكي يقضي السلطان مصطفى الرابع على آمال علمدار أمر بقذف جثة سليم  
الثالث الى الفناء ، فلما رأى علمدار هذا المنظر انكب على جسد السلطان سليم  
باكيا ، في هذه اللحظة جاء محمود الثاني فبايعه علمدار في الحال ، وقاموا بخلع  
السلطان مصطفى الرابع وأجلسوا محموداً على كرسي العرش (٢) .

هذه الأحداث المحزنة تعكس ضعف الدولة وانهارها بجلاء من الداخل مما  
مهد الطريق لعوامل الغزو الفكري أن تتسرب داخل الدولة العثمانية .  
كانت الاحتياجات العسكرية قد فتحت أمام الأتراك بعض مجالات  
الاقتباس ليس فقط في العلوم العسكرية الجديدة ولكن كذلك في العلوم الطبية وفي  
تعليم اللغات الأوروبية وخاصة الفرنسية (٣) .

(١) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ٦٥٩ ، ٦٦٢ ، ٦٦٣ .

(٢) يلماز أوزتونا : المرجع السابق ، ص ٦٦٣ .

(٣) عبدالعزيز نوار : الشعوب الاسلامية ، ص ١٧٥ .

لم يدرك السلطان سليم الثالث أن الإصلاحات الأوربية جاءت وليدة ثورات اجتماعية واقتصادية وسياسية ، واستمرت منذ عصور النهضة الأوربية ، وأن الحياة العثمانية بأسرها كانت تتطلب الإصلاح العسكري وتستلزم إصلاحات في النواحي الاقتصادية ولكن ليس على الأسلوب الأوربي . وكان هدفه من ذلك هو مواجهة متطلبات الحياة العسكرية ، وإعادة تنظيم الإدارة العامة ، واطفاء الكفاءة عليها ، والأهم من ذلك كله أن الدولة لم تكن لديها ميزانية عامة ، مما أوجد فوضى اقتصادية حول استقلال موظفي الحكومة بالانفاق كما يحلو لهم دون رقابة أو إشراف إداري ومالي .

ولم يواجه سليم هذه المشكلة بوضع ميزانية للدولة ، بل حاول إعادة الكفاءة للنظام القديم بالقضاء على الرشوة ومحاباة الأقارب لاجراء الترقيات حسب الكفاءة<sup>(١)</sup> .

وهكذا تسلم السلطان محمود الثاني السلطنة بعد ثورة دموية أدرك بعدها أنه لن يتمكن من اصلاح الجيش الا بالتخلص من الانكشارية ، ولكنه تريت وراح يخطط لهذه المهمة الصعبة خصوصا وأن الانكشارية يستمدون نفوذهم من البكتاشيه ، وهم من أكبر فرق الطرق الصوفية التي باركت تأسيس الانكشارية في البلاد ، فحاول السلطان محمود الثاني اقناع هؤلاء الانكشارية بقبول التعليم العسكري على النظام الأوربي ولكن دون جدوى ، بل كانوا ينكرون فائدته قائلين: " ان ولي الله الحاج بكتاشي ، كان قد بارك جماعة الانكشارية عند تأسيسها ، ودعا لها بالنصر الدائم وكانوا يزعمون ان بركة ذلك الولي ودعائه يغنيها عن كل تعليم"<sup>(٢)</sup> .

(١) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ١٨٠-١٨١ .  
(٢) علاء موسى كاظم نورس : مدى مسئولية الانكشارية في تدهور الدولة العثمانية ، المجلة التاريخية المغربية ، العدد ٢٦/٢٦ - ص ٥ ، ١٩٨٢ م ، ص ١١١ .

وقد استفاد محمود الثاني الذي كان يكن للسلطان سليم الثالث حبا عميقا، من كافة أخطائه ، وكان يلتقي به في الشهور الأربعة الأولى من تولي السلطان مصطفى الرابع السلطنة ، وكان السلطان محمود الثاني يملك الصفات التي تؤهله لتقييم هذه الأخطاء بعد أن قام سليم الثالث بسردها عليه ، وأوصاه بعدم الوقوع في الأخطاء التي وقع هو فيها .

لذلك استدعى السلطان محمود الثاني عند توليه العرش الأعيان من الأناضول والروملي إلى اسطنبول وأفهمهم أن الدولة في حالة حرب دائمة مع روسيا ، فحرروا ميثاق الاتفاق المسمى " سند اتفاق " وبموجبه وقعوا على أنهم سيمثلون لأوامر الدولة ، وكان توقيع هذا الاتفاق في سنة ١٢٢٣هـ / ١٨٠٨م .  
ولحاجة الدولة إلى جيش محارب تم إحياء النظام الجديد الذي ألغته ثورة الانكشارية على السلطان سليم الثالث ، باسم " سكبان جديد " .

وبتاريخ ١٤ / ١٠ / ١٨٠٨م استدعى عبدالرحمن باشا من قونيه إلى اسطنبول ليتأس هذا الجيش <sup>(١)</sup> كنوع من النظام الجديد احتراسا من تجدد الفتن من الانكشارية <sup>(٢)</sup> .

وكان السلطان محمود الثاني قد علم بما أتته الجنود المصرية المنظمة من انتصارات باهرة في حرب المورة ، فتاقت نفسه إلى هذا التنظيم ، وزاد تعلقا بهذا الاصلاح وصمم على استكماله <sup>(٣)</sup> .

معنى ذلك أن حرب المورة قد أظهرت محاسن التنظيم العسكري الجديد عند الخاصة والعامة ، وأن المعارضة في الاصلاح الحربي لم تعد أمرا مقبولا من

(١) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ٦٦٤-٦٦٥ .

(٢) محمد عبداللطيف البحراري : حركة الاصلاح العثماني ، ص ١٧١ .

(٣) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٤٢٩ .

المعارضين ، وأصبح الرأي بتنظيم الجيش الجديد شيئا طبيعيا ، وفشلت على اثر ذلك مخططات أغا حسين باشا رئيس الانكشارية آنذاك وبقية زعمائهم ومنذ أن جرت تلك الحرب وكثير من العلماء ورجال الدولة يجرون المشاورات ويكتبون المذكرات لاجراء ترتيب جديد ، ولما سنل حسين باشا عن رأيه في صورة مناسبة لتنفيذ الاصلاح الحتمي وهو حاكم قلاع البسفور برتبة وزير وكان من قبل أغا للانكشارية ، فهو عليم بأصوهم وعناصرهم قال : " ان حال الانكشارية معلوم ، وعلى كل حال يمكن أن نلزم الكبار ونسكت الصغار منهم ، اما ما بين هذين الصنفين فهم لا يقبلون حقا ، وربما يثيرون عصيانا ، ولكن تأثيرهم لا يتعدى قشلاقات (١) اسطنبول ، وهؤلاء يجب إعدامهم فورا " . ولكن اعدام عدد كبير منهم مجرد احتمال عدم موافقتهم أمر مناف للعدل ولذلك استقر الرأي على التفاهم معهم أولا بالحسنى ، فاذا لم يقبلوا نفذ هذا الرأي . ثم أمر السلطان بأن كل ما يتعهدون به أو يقولونه يكون مكتوبا دون لبس أو ابهام (٢) ليكون فيما بعد حجة عليهم .

كان السلطان سليم الثالث ، قد لقن السلطان محمود الثاني بشكل جيد أن مستقبل الدولة متعلق بتأسيس جيش جديد ، فقام السلطان الذي لم يغفل لحظة واحدة عن أخطاء السلطان سليم الثالث فأدخل بين جنرالات الانكشارية جنرالات من مؤيديه يؤمنون بفكرة الإصلاح ، لذلك سعى السلطان محمود الثاني ولمدة سبعة عشر عاما إلى التحزم بالصبر والاحتياط لالغاء تشكيلات الانكشارية الذين لم يتمكنوا من الوقوف تجاه عصيان اليونان ، فكيف حالهم في حرب

(١) قيشلان : أصبحت قشلة وأصلها قيشلق ، ومعناها المأوى الخاص بالشتاء ثم أصبحت تطلق على قلاع الجنود أو مراكزهم السكنية عامة .

- محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٣٨٢ ، حاشي رقم (١) .

(٢) محمد عبداللطيف البحراري : حركة الاصلاح العثماني ، ص ١٧٤ .

روسيا التي يحتمل أن تعلن في أي لحظة، لم يكن هذا الأمر يقلق السلطان وحده ، بل أخذ يقلق جميع رجال الدولة . وفي سبيل تحقيق آماله فإنه لجأ الى دس أنصاره بينهم حتى لا يثيرهم بالرقابة الظاهرة ، لأنهم أكثر منه حذرا وقلقا ، وفي النهاية تم بصورة رسمية إعلان تأسيس تشكيل جديد في الجيش باسم " تشكيلات اشكينجي " وذلك في سنة ١٢٤١هـ / ١٨٢٦م . فوجد فوراً سبعة آلاف وستمائة وخمسين شخصا ، وشرع بتدريبهم على الطراز الأوربي ، وقد أتم هؤلاء الأفراد الذين تم تشكيلهم من بين الانكشارية المتطوعين اختيارا دقيقا <sup>(١)</sup> لتعليم فنون الحرب ، وكانهم قد حولوا فعلا للنظام الجديد <sup>(٢)</sup> . اضافة الى تزويدهم بعدد من شباب المسلمين المقيدون في ديوان الجند <sup>(٣)</sup> . فأصدر شيخ الاسلام فتواه المشهورة حول تأسيس هذه التشكيلات الجديدة ، فألبس الجند الجدد اللباس على الطراز الأوربي <sup>(٤)</sup> ، ووافق جلال الدين أغا على اعداد هذا الجيش ، وتدريبه على أحدث النظم <sup>(٥)</sup> ، فكان جلال الدين أغا رئيس الانكشارية وجنرالات الانكشارية الآخرون من رجال السلطان يؤمنون بفكرة تحديث الجيش ، لهذا وضع السلطان كافة التدابير حيال عصيان الانكشارية <sup>(٦)</sup> .

وحينما شرع السلطان محمود الثاني سنة ١٢٤١هـ / ١٨٢٦م بتعليم جنوده على القواعد الأوربية الحديثة قيل عنه أنه أخذ من ذلك اليوم يفكر في تدمير الانكشارية وابدانهم ، وقد أصدر منشورات سلطانية تتضمن القدرح في أعمالهم ،

(١) يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج ١ . ص ٦٧٦ .

(٢) محمد عبداللطيف البحرأوي : حركة الاصلاح العثماني ، ص ١٧٥ .

(٣) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ . ص ٦٦١ .

(٤) يلماز اوزتونا : المصدر السابق ، ص ٦٧٦ .

(٥) اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ص ٦٦١ .

(٦) محمد عبداللطيف البحرأوي : المرجع السابق ، ص ١٧٥ .

(٦) يلماز اوزتونا : المصدر السابق ، ص ٦٧٧ .

عدد فيها ما ارتكبه من الفضائح والغلط التي اقترفوها ضد سلاطينهم ظلما واستبدادا<sup>(١)</sup>.

ومهما يكن من أمر فان الانكشارية لم يستطيعوا الصبر خاصة عندما شاهدوا السلطان يقوم بتطبيق النظام الجديد على وحدات الجيش المختلفة مما حد من سطوتهم ونفوذهم ، فسوا عهودهم ، وأخذوا يتحدثون سرا وينقمون على ذلك النظام ، فحاول الصدر الأعظم قمعهم سرا وجهرا فلم يزدادوا الا عنادا<sup>(٢)</sup>.

هؤلاء الانكشارية الذين صبروا على جنود النظام الجديد " سكيان " أربع عشرة سنة ، عصوا هذه المرة بعد البدء بتدريب تشكيلات " اشكينجي " بثلاث أيام فقط ، وقد نجح جلال الدين أغا من الموت بصعوبة لتمكنه من الفرار<sup>(٣)</sup>. فتمردوا وهاجوا وماجوا ، وهجموا على منزل الصدر الأعظم وبعض الوزراء ، فلم يظفروا بأحد منهم ، فخرجوا الى شوارع المدينة ينادون بجواز قتل العلماء ورجال الدولة وكل من له يد في وضع النظام الجديد ، وأخذوا يقتلون كل من صادفوه ، وينهبون ويحرقون ، وقد تمكن الصدر الأعظم من الوصول الى السلطان محمود الثاني وأخبره بما حدث ، فأمر السلطان العسكر الجديد بصد الانكشارية ، ودعوة الناس للاجتماع أمام السراي فاجتمع خلق كثير من علماء وقواد وضباط وأعيان<sup>(٤)</sup> . فوقف الصدر الأعظم ومن حوله من العلماء ورجال

(١) اسماعيل سرهك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٦٧٨

(٢) هيئة التحرير : تاريخ الجند العثماني ، ( مجلة الهلال ، ج ٨ ، ص ١٧ ، ١٣٢٦ هـ - ١٩٠٩ م ) ص

٤٦٩

(٣) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية العثمانية ، ج ١ ، ص ٦٧٧

(٤) هيئة التحرير : المرجع السابق ، ص ٤٦٩

Roderic H. Davison : Turkey A Short History , p. 74 .

محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ، ص ٤٣٠



الدولة ينتظرون وصول السلطان من سراي بشكطاش ، فلما حضر خطب في الجماهير الحاضرة فاستنهض هممهم ، فأقسموا على الثبات حتى يفوزوا بآبادة الانكشارية أو يقتلوا فداء عن سلطانهم ، فطلبوا منه أن يرفع لهم الراية ، فرفعها ومشى ، ومشى الناس خلفه ، وتوافدوا من أنحاء المدينة للدفاع عن السلطان والدولة . ففرق السلطان عليهم الأسلحة ، ثم سلم العلم الى المفتي قاضي زاده طاهر ، وجلس هو في قصر ( كشك ) فوق باب السراي للاشراف على ساحة القتال (١) .

وقبل بدأ المعركة اجتمع الصدر الأعظم والمفتي والعلماء في جامع السلطان أحمد ، وتلوا بعض سور القرآن الكريم ثم نهضوا لحرب الانكشارية وسار معهم العسكر ، وأهل المدينة، فأدركوا الانكشارية وقد تجمهروا في ساحة آت ميدان " ميدان الحصان " وقد قلبوا قدورهم معلنين بذلك العصيان والتمرد ، فحاولوا ردهم بالحسنى ، فأبوا مصممين على الانقلاب عندئذ أطلقوا عليهم الرصاص من كل صوب ، والتحم الفريقان وكانت مذبحة هائلة دارت الدائرة فيها على جنود الانكشاريين ، ومن لم يقتل منهم قيد أسيرا ، فنجت البلاد منهم وهدأت الأحوال، وأخذ السلطان في تنظيم الجند الجديد (٢) .

لهذا استطاع السلطان محمود الثاني أن يقضي على الانكشارية القضاء التام عندما حصل على فتوى شرعية تجيز له حل هذه الطائفة (٣) مما هيا له جوا مناسباً للإصلاح ، وحقق نجاحاً باهراً في استمالة العلماء الى جانبه ، بعد أن كان هؤلاء

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٤٣٠ .

، هيئة التحرير : تاريخ الجند العثماني ، مجلة الهلال ، ج ٨ ص ١٧ ، ١٣٢٦هـ / ١٩٠٩م ، ص ٤٦٩ .

(٢) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٤٣٠ .

، هيئة التحرير : المرجع السابق ، ص ٤٦٩ .

(٣) ساطع الحصري : البلاد العربية والدولة العثمانية ، ص ٦٩ .

العلماء سندا للانكشارية ، كذلك أوجد انقساماً آخر بين الانكشارية أنفسهم مهذله الطريق للتخلص منهم<sup>(١)</sup> .

وأحدث إلغاء تشكيلات الانكشارية صدى كبيراً في جميع أنحاء العالم وخصصت الصحف الأوربية عناوين كبيرة لذلك الحدث . وهنا السفراء السلطان في اسطنبول باسم حكامهم<sup>(٢)</sup> .

وسمى العثمانيون هذه الموقعة " الوقعة الخيرية " لأنهم تفاءلوا بها خيراً . ومعنى ذلك أن الاستغراب قد زاد في عهد السلطان محمود الثاني وتوسع الاتصال بالغرب ، وخاصة منذ سنة ١٢٤٢هـ / ١٨٢٦م عندما تصدى للانكشارية وقضى عليهم ، لأنهم كانوا العقبة الكأداء في طريق الإصلاح ومن ذلك الحين بدأ تكوين جيش جديد على الطراز الأوربي واستدعى لتدريبه ضباطاً ومهندسين فرنسيين وألمان ، ثم قام بتأسيس الأكاديمية العسكرية في سنة ١٢٥٠هـ / ١٨٣٤م وأرسل بعض خريجيها الى العواصم الأوربية لاستكمال تعليمهم .

وأسس مدرسة للطب جعل التدريس فيها باللغة الفرنسية<sup>(٣)</sup> ، كما أسس ادارة للترجمة ، ومجلساً أعلى للقضاء كلفه بوضع القوانين الجديدة ، التي لم يرد لها نص في القرآن أو السنة ، وعرف باسم " مجلس والي لأحكام عدلية " ، وكان أعضاؤه من مختلف الأديان ، ومن هذا المجلس انبثق مجلس الدولة ( مجلس شورى دولت ) سنة ١٢٨٥هـ / ١٨٦٨م<sup>(٤)</sup> .

(١) محمد عبداللطيف البحر اوي : حركة الاصلاح العثماني ، ص ١٧٦ .

(٢) يلماز اوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، ج ١ ، ص ٦٧٨ .

(٣) عبدالكريم مشهداني : العلمانية وآثارها على الأوضاع الاسلامية في تركيا ، ص ٦٩ .

، عبدالعزيز نوار : الشعوب الاسلامية ، ص ١٧٨ .

Roderic H . Davison : Turkey A Short History , p, 75 .

(٤) عبدالعزيز نوار : المرجع السابق ، ص ١٧٩ .

كما أعاد السلطان محمود الثاني في سنة ١٢٥٠هـ/١٨٣٤م افتتاح سفاراته في العواصم الأوروبية ، وقد كانت أغلقت على إثر خلع السلطان سليم الثالث وفي هذه السفارات جرى تدريب مصلحي القرن الثالث عشر الهجري الموافق للقرن التاسع عشر الميلادي أمثال مصطفى رشيد الذي كان سفيرا في باريس سنة ١٢٥٠هـ/١٨٣٤م ، وعلى باشا الذي كان يعمل في سفارة فيينا سنة ١٢٥٠هـ/١٨٣٤م وفؤاد باشا الذي عمل في سفارة بلاده في لندن سنة ١٢٥٦هـ/١٨٤٠م<sup>(١)</sup> .

إضافة الى ذلك فقد ضمت الكلية الحربية في اسطنبول حوالي أربعمئة كتاب بالفرنسية ، وكان من ضمن هذه الكتب دائرة المعارف الفرنسية وكتب فولتير وجاك روسو أحد رواد الثورة الفرنسية . فكان العسكريون هم الفئة التي تعرضت لأطول احتكاك مع الغرب .

لذلك كانت القوة العسكرية هي أول أدوات التحول الكبرى في ميدان التغييرات الاصلاحية ، ومع استيراد المدربين والفنيين دخلت الأفكار الغربية محطمة للنظام السياسي والاجتماعي في الدولة.

ففي سنة ١٢٤٢هـ/١٨٢٧م أرسل السلطان محمود الثاني بعثة تركية مؤلفة من مائة وخمسن طالبا لعدة دول أوروبية .

وبعد عدة سنوات ارتفع عدد طلاب البعثات كثيرا حتى بلغ الآلاف وكانت أوروبا خلال الفترة (١٣٢٦-١٢٥٦هـ/١٨٢٠-١٨٤٠م) تموج بأشياء كثيرة تعلمها الطلاب المبتعثون من الشرق ، وتأثروا بها ، وكانت من أسباب ظهور طائفة جديدة من أبناء الدولة العثمانية ، لم يستطع أن يتقبلهم المجتمع العثماني، وقد أطلق عليهم اسم " الشبيبة العثمانية " أي ( العثمانيون الشباب )

(١) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ١٩٣-١٩٤ .

تشكلت منهم مجموعة من المتحررين الذين استوطنوا أوربا ليقوموا بدور المعارضة<sup>(١)</sup> فيما بعد.

وبعد استعراض هذه الأحداث يتبين لنا أنه بعد إلغاء الانكشارية والحد من سلطتهم ، صارت الدولة العثمانية تسير في طريق الاصلاحات والتنظيمات العسكرية<sup>(٢)</sup> . فقام السلطان محمود الثاني إضافة الى ماسبق باصدار جريدة رسمية وأدخل اللباس الافرنجي وجعله زي الجند النظامي الى جانب قيامه ببعض المشاريع العمرانية لبناء مؤسسات الدولة ، ولكن الروس بدأت تتحرش به حتى لا تكتمل هذه الاصلاحات خوفا من استعادة الدولة قوتها ، وقد ساعد الروس في موقفهم هذا محمد علي والي مصر في حملته ضد الدولة العثمانية ، ولولاها لاسترسل السلطان في اصلاحاته وخاصة العسكرية<sup>(٣)</sup> .

لكن السلطان محمود الثاني ابتكر في نهاية عهده مدرسة " ثانوية " أخرى لتعليم الموظفين ، كانت تدرس فيها المواد باللغة الفرنسية بالاضافة الى موضوعات علمانية أخرى ، وذلك لتولي المناصب العليا في الدولة ، عن طريق الحصول على تعليم حديث علماني<sup>(٤)</sup> . وهذا التعليم يوضح تغلغل وبداية الغزو الفكري الذي دخل عن طريق التعليم العسكري ، والطبي ، والهندسي وأخيرا نرى السلطان محمودا يفتح مدرسة ثانوية خاصة للموظفين الكبار الذين يهيؤون لتولي مناصب الدولة على أحدث الطرق العلمانية ، التي انتشرت فيما بعد عند اصدار التنظيمات المعروفة في عهد السلطان عبدالمجيد .

(١) عبدالكريم مشهداني : العلمانية وآثارها على الأوضاع الاسلامية في تركيا ، ص ٦٩-٧٠ .

(٢) ساطع الحصري : البلاد العربية والدولة العثمانية ، ص ٦٩ .

(٣) محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثماني ، ص ١٥٩ .

(٤) Roderic H. Davison : Turkey A Short History , p. 76 .

، أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ١٩٣ .

## ب - عصر التنظيمات العثمانية :

عصر التنظيمات في مفهوم التاريخ العثماني الحديث مصدره " قانون تنظيم أتمك " وتعني (عمل وتنظيم قانون ) ويقصد بالتنظيمات هنا الاصلاحات التي ادخلت على أداة الحكم والمؤسسات الادارية في الدولة العثمانية منذ بداية عهد السلطان عبدالمجيد ( ١٢٥٥هـ / ١٨٣٩م )<sup>(١)</sup> .

والتنظيمات تستند الى مرسومين سلطانيين أساسيين : صدر الأول منهما في سنة ١٢٥٥هـ / ١٨٣٩م ، وعرف هذا المرسوم باسم " منشور كلخانة " أو (خط كلخانة ) ، وصدر الآخر في سنة ١٢٧٣هـ / ١٨٥٦م ، وعرف باسم " الخط الهمايوني " <sup>(٢)</sup> .

والتنظيمات ماهي الا امتداد للاصلاحات التي قام بها السلطان سليم الثالث والسلطان محمود الثاني ، وكان الغرض منها هو انقاذ الدولة العثمانية من الضعف الذي تسرب الى مؤسساتها المختلفة . وقد شاهدنا في الفصل السابق كيف استطاع السلطان محمود الثاني بجنكته السياسية القضاء على الانكشارية التي كانت تعارض كل اصلاح أو تجديد في المؤسسات الحربية بصورة خاصة والمؤسسات الأخرى بصورة عامة <sup>(٣)</sup> .

ومن ذلك التاريخ أصبحت محاولات الاصلاح ممكنة ، وبالرغم من أن السلطان محمود الثاني كان يركز في اصلاحاته على الجوانب العسكرية أكثر من

(١) دائرة المعارف الاسلامية : مادة تنظيمات ، ج ٥ ، ص ٤٩٩ .

(٢) ساطع الحصري : البلاد العربية والدولة العثمانية ، ص ٧٥ .

(٣) دائرة المعارف الاسلامية : المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ٤٩٩ .

، عبدالكريم مشهداني : العلمانية وآثارها على الأوضاع الاسلامية في تركيا ، ص ٧١ .

سواها فان عهد السلطان عبدالمجيد (١٢٥٥-١٢٧٧هـ/١٨٣٩-١٨٦١م)<sup>(١)</sup> قد أضفى على حركة تغريب الدولة العثمانية الصبغة الرسمية ، اذ أمر أن تتبنى الدولة هذه الحركة فأصدر المرسومان السابقان وبهما بدأت الدولة العثمانية بما يسمى بعصر التنظيمات .

وبهذين المرسومين بدأت الدولة العثمانية للأسف تستلهم الروح الغربية في الحياة ، وتستلهم الفكر الغربي في التقنين واقامة المؤسسات الادارية والعسكرية وتتنكر لأصولها وحضارتها وشريعتها الاسلامية .

والحق أن السلطان عبدالمجيد كان خاضعا لتأثير وزيره مصطفى رشيد باشا الذي وجد في الغرب مثله الأعلى ، وفي الماسونية فلسفته المثلى وهو الذي أعد الجيل التالي له في الوزارة ورجال الدولة . وبمساعده أسهم هؤلاء من بعده في دفع عجلة التغريب التي بدأها هو أولا والذي صار سقوط السلطان عبدالحميد الثاني بعد ذلك وخروج الدولة عن الخط الاسلامي امتدادا طبيعيا لفكرة التغريب فيها<sup>(٢)</sup> أما أسباب صدور هذين المرسومين فقد تمثل في انتهاز الدول الأوروبية للأزمات الكبرى التي كانت تمر بها الدولة العثمانية والعمل على زحزحتها عن نظمها الاسلامية وهذه الأزمات هي :

١ - أزمة محمد علي مع الدولة العثمانية ، وصادور خط كلخانة في سنة ١٢٥٥هـ/١٨٣٩م .

٢ - حرب القرم بين الدولة العثمانية والروس ، وصادور الخط الهمايوني في سنة ١٢٧٣هـ/١٨٥٦م .

(١) علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٥٠ .

(٢) عبدالكريم مشهداني : العلمانية وآثارها على الأوضاع الاسلامية في تركيا ، ص ٧١ .  
مذكرات السلطان عبدالحميد : ترجمة وتحقيق وتعليق محمد حرب عبدالحميد (الطبعة الأولى ،

الكويت ، دار الوثائق ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م) ص ٣ .

هاتان الأزماتان هما ماسوف نتحدث عنه هنا بايجاز حتى نصل من خلال عرض تلك الأحداث الى سبب اصدار هذين الخطين أو المرسومين وماتلى ذلك من تنظيمات ، فأول هذه الأسباب نلمسه بعد موقعة نفارينو ، عندما اختلفت وجهة نظر السلطان العثماني وواليه في مصر محمد علي ، فالسلطان رغم تدمير أسطول الدولة العثمانية في المعركة قد صمم على رفض مطالب الدول المتحالفة ، بل انه لم يقف عند هذا الحد ، فأخذ يطالب بالتعويض بالمال عما لحق بأسطوله من الدمار .

أما وجهة نظر الوالي العثماني في مصر محمد علي فقد رأى أنه لا فائدة تناها الدولة من مواصلة القتال أمام القوات المتحالفة ، بعد أن فقدت اسطولها في المعركة فقرر عدم تقديم أي مساعدة للقوات العثمانية المنهزمة والانسحاب بكامل قواته الى مصر ، ويظهر أن محمد علي كانت تراوده فكرة مشروع ترمي الى تشكيل دولة عربية يستقطعها لنفسه من بلاد السلطان محمود الثاني ، الا أن هذه الفكرة لم تتحقق لأنه اصطدم بمعارضة اللورد بالمرستون ( Palmerston ) والذي كان أول من تنبه لمشروع محمد علي ، فتحطم حلمه ، ولكنه أوشك أن يحقق هذا الحلم بالاستيلاء على بلاد الشام في ٢٧ رجب سنة ١٢٤٨ هـ الموافق ٢٠ ديسمبر ١٨٣٢ م<sup>(١)</sup> .

علما بأن مصر لم تنل من الحرب اليونانية من الناحية المادية أي شيء الا أن اشتراكها في تلك الحرب برهن على كفاءة جيشها الذي أصبح يضارع أرقى الجيوش الأوروبية في ميادين القتال<sup>(٢)</sup> .

ونتيجة لهذا التصرف الذي قام به محمد علي تجاه السلطان محمود الثاني

(١) جورج أنطونيوس : يقظة العرب ، تعريب على حيدر الركابي ، ( دمشق ، مطبعة الزقي ،

١٣٥٦هـ/١٩٤٦م ) ص ١٢ .

(٢) عبدالرحمن الرافي : عصر محمد علي ، ص ٢١٥ .

والدولة العثمانية بدأ النزاع بين السلطان وواليه علي مصر محمد علي وذلك بعد انسحاب قوات السلطان من بلاد المورة بموجب معاهدة أدرنة سنة ١٢٤٥هـ/١٨٢٩م واعترافه باستقلال اليونان على غير ما كان يرغب وربما يكون سبب ذلك أن محمد علي رأى ضالة المكافأة التي منحها له السلطان ثنا لتدخله في بلاد اليونان ، باعطائه جزيرة كريت ، في الوقت الذي كان محمد علي يطمح في تعيين ابنه واليا على بلاد الشام بدلا من جزيرة كريت ، ولكن السلطان لم يستجب لطلبه (١) .

ذلك أنه لما نشبت حرب اليونان لم يكن محمد علي متحمسا للاشتراك فيها، بجانب قوات السلطان ، ولكن التلويح له باعطائه جزيرة كريت وولاية الشام بعد الحرب من السلطان جعله يدفع بقواته لاجتياح الحرب اليونانية ومساندة الجيش العثماني (٢) .

وبالرغم من أن هزيمة نفارينو سنة ١٢٤٣هـ/١٨٢٧م كانت لها آثارها السلبية على محمد علي ، لكنها في الواقع كانت فرصة له لزيادة مطالبه من السلطان بصورة واضحة والتأكيد على ضم بلاد الشام الى ولايته مكافأة له على المساعدة التي بذلها في حرب اليونان . ولما لم يجبه السلطان على طلبه عمد الى احتلال تلك البلاد معتمدا على قوة السيف والمدفع (٣) . ولم يكتف محمد علي بذلك بل انه أخذ يفكر في الاستقلال والانفصال عن الدولة العثمانية وقد ظهر ذلك واضحا عندما طلب السلطان محمود الثاني ارسال الأسطول المصري لمساعدة

(١) محمد كمال الدسوقي : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية . ص ١٦٤ .

عبدالرحمن الراجحي : عصر محمد علي . ص ٢١٧ .

(٢) عايض حزام الروقي : حروب محمد علي في الشام . ص ٧٢ .

محمد كمال الدسوقي : المرجع السابق . ص ١٤١ .

(٣) جورج أنطونيوس : يقظة العرب . ص ١٣ .



القوات العثمانية في حرب روسيا ، فامتنع عن مد يد المساعدة وتلبية طلب السلطان (١) . وفي الوقت نفسه أخذ يحاول ارضاء السلطان با لمال ، كما أنه شرع في تقوية جيشه وأسطوله (٢) .

ولكن أثناء إعداد هذاالجيش لم تسعفه الموارد المالية التي كان يقدمها بسخاء للسلطان والجيش ، فلجأ الى فرض الضرائب الفادحة على الشعب المصري، كما استخدم بعض العمال بالسخرة ، لهذاالسبب فر من مصر أعداد كبيرة هروبا من سياسته التعسفية التي كان يعامل بها السكان (٣) .

وبعد أن استطاع بناء هذاالجيش والأسطول أصبح في وضع عسكري جيد يجعله ندا للسلطان ، بل أصبح لديه جيش أقوى من جيش السلطان نفسه (٤) ، لذلك ازدادت مطامعه وصار يتحين فرصة الانقضاض على بلاد الشام وانشاء دولة عربية (٥) تشمل معظم الولايات العربية التابعة للدولة العثمانية وتكون مصر رأس هذه الدولة ، خاصة وأنه كان يعرف الكثير من ضعف حكومة اسطنبول ويدرك كل الإدراك نوايا الدول الأوروبية نحو الدولة العثمانية ، لذلك اعتبر نفسه وريثا لقسم من أملاك الدولة ، وذلك بوصفه عثمانيا مسلما (٦) ، فعندما رأى علو قوته، وضعف الدولة العثمانية وارتباك احوالها عقب حرب اليونان وحرب الروس وامضاء معاهدة أدرنة معها ، اضافة الى كثرة الاضطرابات الداخلية بها

- 
- (١) عبدالرحمن الرافي : عصر محمد علي ، ص ٢١٦ .
  - (٢) عايض حزام الروقي : حروب محمد علي في الشام ... ، ص ٣٨ .
  - (٣) محمد كمال الدسوقي : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ، ص ١٦٤ .
  - (٤) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٤٤٨-٤٤٩ .
  - (٥) محمد كمال الدسوقي : المرجع السابق . ص ٢٦٤ .
  - (٦) أمين سعيد : الثورة العربية الكبرى ( بيروت ، دار الكتاب العربي ) ، ص ٢٢ .
  - (٧) نجلاء عز الدين : العالم الغربي : ترجمة محمد عوض ابراهيم وآخرون ( الطبعة الثانية ، القاهرة ، الناشر : دار احياء الكتب العربية ، ١٩٦٢م ) ، ص ١٠٦-١٠٧ .

لمقاومتها بعض رعاياها حول معارضتهم ادخال بعض الاصلاحات في الدولة (١) ،  
ولذلك استغل هذه الظروف مجتمعة وأعلن الحرب على السلطان ، ويظهر أن  
تحركه هذا كان بايعاز من فرنسا التي كانت ترغب في اشعال روح الخلاف بين  
السلطان وواليه في مصر حتى تتمكن من تأسيس الامبراطورية التي عزمتم على  
تأسيسها في شمال أفريقيا ، وهي التي طلبت من محمد علي أن يشترك معها في غزو  
الجزائر ، حتى يزداد الخلاف بين السلطان وواليه على مصر ، وهي تعلم أن  
السلطان العثماني ليس لديه الوقت أو المال الكافي لإنشاء جيش جديد قوي معد  
بالأسلحة الحديثة والعمل على تنظيم موارده المالية ، لتنفيذ اصلاحاته بعد القضاء  
على الانكشارية .

وقد رحب محمد علي بفكرة الاشتراك مع فرنسا في غزو الجزائر وانتزاعها  
من الدولة العثمانية ، وكاد أن يتشارك معها ، لولا أن هددته إنجلترا وحثرتته من  
المغامرة ، لأهدافها السياسية ، فتراجع محمد علي عن الفكرة خوفا من الاصطدام  
بانجلترا (٢) ، لأنه يعرف أطماعها في المنطقة وهي تعرف أطماعه المستقبلية ، كما  
أن فرنسا كانت له السند في حروبه في شبه الجزيرة العربية وغيرها وهو الأداة أو  
العميل الذي تعتمد عليه في تنفيذ أطماعها لمضايقه بريطانيا في الهند لمحاولة الوصول  
الى الخليج وبريطانيا تحاول منعها . وعندما فشلت فرنسا في كسب محمد علي الى  
جانبا أو عزت اليه بالمساعدة والمساندة اذا هو قام بالاستيلاء على بلاد الشام  
مستغلا الخلاف الذي نشب بينه وبين والي عكا عبدا لله الجزائر الذي امتنع عن  
تسليم الفارين اليه من المصريين بدعوى أن الاقليمين تابعين لسلطان واحد ، لذلك

(١) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٦٨٩ .

(٢) محمد ضياء الدين الريس : الشرق الأوسط ، ( الطبعة الثانية ، القاهرة ، مكتبة الشباب ، ١٩٦٥ م )

أمر محمد علي في سنة ١٢٤٧هـ / ١٨٣١م بالتجهيز لحرب بلاد الشام وأسند مهمة قيادة الجيش لابنه ابراهيم باشا الذي سار وحاصر مدينة عكا برا وبحرا<sup>(١)</sup> وذلك بعد أن عقد محمد علي في وقت سابق معاهدة سرية مع بشير الشهابي أمير لبنان وبعض مشايخ الدروز ومشايخ جبل نابلس لمساعدته في الاستيلاء على بلاد الشام<sup>(٢)</sup>.

ولما علم السلطان محمود الثاني بغزو محمد علي الشام أرسل اليه يأمره بالكف عن تلك الحروب واخراج جنوده من الشام ، وله بعد ذلك أن يرفع شكواه الى الباب العالي ليحكم بينه وبين خصمه عبدا لله الجزائر ، ولكن محمد علي لم يعبأ به ولم يعر اهتماما لأوامر السلطان ، عندئذ طلب السلطان عقد مجلس مؤلف من مشاهير العلماء وكبار المدرسين ، وعرض عليهم خروج محمد علي عن الطاعة ، فأفتوه جميعا بخروجه عن طاعة السلطان<sup>(٣)</sup>.

لهذا طلب السلطان من والي حلب السير لحرب جيوش محمد علي واسترجاع مدينة عكا ، ولكن ابراهيم باشا لم ينتظر ملاقاته في عكا ، بل سار لملاقاته بعيدا عن عكا ، فتقابل الجيشان في مدينة حمص ، وانتهت المعركة بانتصار الجيش المصري ، ثم عاد ابراهيم باشا الى مدينة عكا وشدد الحصار عليها حتى استسلمت ودخلها في سنة ١٢٤٧هـ / ١٨٣٢م وأسر عبدا لله الجزائر وأرسله الى مصر ليتولى محمد علي أمره<sup>(٤)</sup>.

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٤٥٠ .

(٢) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٦٨٧ .

(٣) أمين سعيد : الثورة العربية الكبرى ، ص ٢٢ .

(٤) اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ص ٦٨٧ .

(٤) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٤٥٠ .

اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ص ٦٨٧ .

كامل باشا : تاريخ سياست دولت عليه عثمانية ، ج ٣ ، ص ١٣٠-١٣١ .

وبمجرد وصول خبر سقوط عكا للسلطان أمر بجمع ما يمكن جمعه من الجنود المنتظمة ، وكانت تقدر بحوالي ستين ألف جندي ، فعين عليها حسين باشا والى أدرنه قائداعاما ، وسار هذا الجيش الى بلاد الشام ، والتقى مع جيش ابراهيم باشا بمضيق بيلان <sup>(١)</sup> ، فاستطاع ابراهيم باشا الفوز على الجيش العثماني في سنة ١٢٤٨هـ / ١٨٣٣م <sup>(٢)</sup> .

لهذا الأمر استدعى السلطان الصدر الأعظم رشيد محمد باشا وهو من أعظم القواد وأشجعهم في تلك الفترة ، وكان ببلاد الأرناؤوط ينظم أحوالها عقب انفصال اليونان عن الدولة ، فأرسله السلطان بجيش لصد خطر ابراهيم باشا الذي عبر جبال طوروس واحتل اقليم أطنه وهو في طريقه الى مدينة قونية وسط الأناضول ، فالتقى الجيشان في موقع بالقرب من مدينة قونية المذكورة ، وبعد حرب طاحنة أسر الصدر الأعظم رشيد محمد باشا في يوم مطير كثير السحاب والضباب ، بينما كان يعد جيشه للقتال ، وذلك أنه دخل بين صفوف الخيالة المصرية ظنا منه أنهم عساكره ، فأسروه ، وبانتشار خبر أسره اختل جيشه وانهزم أمام قوة الجيش المصري ، في الوقت الذي كاد أن يهزم فيه الجيش المصري .

وبعد هذه المعركة تقدم ابراهيم باشا الى كوتاهية ، حيث تغلب على القوى العثمانية ، وأصبح الطريق ممهدا أمامه الى اسطنبول <sup>(٣)</sup> .

ونتيجة لهذه الهزائم المتلاحقة لجيش السلطان ساد القلق مدينة اسطنبول وخشي السلطان من تقدم ابراهيم باشا بجيشه كما أن تلك الانتصارات أخافت

(١) بيلان : أهم مضائق جبال طوروس الفاصلة بين الشام والأناضول :

- محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٤٥٠ .

(٢) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٤٥٠ .

(٣) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٦٨٧ .

كامل باشا : تاريخ سياست دولت عليية عثمانية ، ج ٣ ، ص ١٣٦ .

الدول الأوروبية ، وخشيت أن يكون قصد محمد علي احتلال اسطنبول ، فيختل التوازن الأوربي ، وكانت روسيا أشد قلقا من غيرها لخوفها من سقوط اسطنبول في يد من يمكنه الذود عنها بقوة أكثر من آل عثمان فلا يمكنها فيما بعد تنفيذ وصية بطرس الأكبر<sup>(١)</sup> .

وقد انتهزت روسيا هذه الفرصة فتقدمت الى السلطان تعرض عليه المساعدة وحمائته من خطر محمد علي ، فرفض السلطان في بادئ الأمر<sup>(٢)</sup> ، الا أنه في هذه اللحظة الحرجة كان يبحث عن حليف له ، يصد عنه هذه القوة الجارفة من قوات محمد علي . فلقد وجد أن فرنسا تؤيد محمد علي وتساعدته كما سبق وبريطانيا لاتستمع الى نداءات السلطان ، ربما بسبب مشاغلها في المشكلة البلجيكية<sup>(٣)</sup> ، ولذلك لم يجد السلطان أمامه سوى القيصر الروسي .

وما كان السلطان ليقبل هذا التحالف مع عدوه اللدود ، ولكن الظروف كانت قاسية ، وبعد المفاوضات عقد السلطان مع القيصر الروسي اتفاقية ( خنكار اسكله سي ) ( الميناء الملكي ) في سنة ١٢٤٨هـ / ١٨٣٣م التي حولت للقيصر الحق في ارسال جيش الى المضائق العثمانية للدفاع عن السلطنة العثمانية حتى لاتقع في أيدي محمد علي وفعلا نفذت المعاهدة ، ونزلت القوات الروسية على مقربة من اسطنبول ، الأمر الذي أزعج الانجليز وجعلها تحتاط للأمر<sup>(٤)</sup> .

فما أن معاهدة خنكار اسكله سي قد أثارت العواصم الأوروبية حيث أنها أخذت شكلا سياسيا آخر ، فانها أيضا كانت سببا في اهتمام اللورد بالمرستون

(١) محمد فريدبك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٤٥٠-٤٥١ .

(٢) نجلاء عز الدين : العالم العربي ، ص ١٠٧ .

(٣) كانت تانرة على هولندا للاستقلال عنها لأنها ضمت اليها في عام ١٨١٥م بموجب مؤتمر فيينا في

أعقاب حرب نابليون وخلعه عن عرش فرنسا .

(٤) عبدالعزيز نوار : الشعوب الاسلامية ، ص ١٨٣ .

رئيس وزراء إنجلترا ، والأمير مترنيخ رئيس وزراء النمسا<sup>(١)</sup> ، اللذين توصلا من خلال تحليلهما للموقف الجديد الى حقيقة مهمة هي أن روسيا بعد معاهدة ( خنكار اسكله سي ) أصبحت القوة المواجهة لمصر ، وأصبحت في الوقت نفسه حامية للدولة العثمانية ، ولهذا عملت حكومة بالمرستون على تدويل القضية<sup>(٢)</sup> ، لأن أبواب الدولة العثمانية وفارس أصبحت مفتوحة أمام الروس ، هذا ما قاله الانجليز ، وهذه مبالغة ، كانت من أساليب الانجليز لاثارة الرأي العام ضد خصمهم اللدود روسيا<sup>(٣)</sup> .

لهذا أخذ اللورد بالمرستون ومترنيخ يتخبران مع فرنسا فاتفقوا جميعا على إلزام ابراهيم باشا بعدم التقدم ، مما اضطر محمد علي الى عقد الصلح معهما والانصياع الى أوامر السلطان (٤) . وفي الوقت نفسه نصحت بريطانيا السلطان بتسوية المسألة ، ووعدته بالتوسط بينهما ، فقبل السلطان بهذا التوسط .

وبعد مخبرات دارت بين الطرفين المتنازعين ، اتفقا على أن يخلى محمد علي منطقة الأناضول من جيوشه ، وترجع الى ما وراء جبال طوروس ، ويعطي السلطان لمحمد علي ولاية مصر مدى حياته ، ويعين والياً على ولايات الشام الأربع ( عكا وطرابلس وحلب ودمشق ) وعلى جزيرة كريت . ويعين ابنه ابراهيم باشا على اقليم أطنه . وقد سمي هذا الاتفاق باسم ( معاهدة كوتاهية ) وتمت في سنة ١٢٤٨هـ / ١٨٣٣م<sup>(٥)</sup> .

(١) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٦٨٧ .

(٢) عبدالعزيز نوار : الشعوب الاسلامية ، ص ١٨٣ .

، نجلاء عز الدين : العالم العربي ، ص ١٠٧ .

(٣) عبدالعزيز نوار : المرجع السابق ، ص ١٨٣ .

(٤) اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ص ٦٨٧ .

(٥) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٤٥١ .

ولاشك في أن هذا التدخل الأوربي في تسوية المشكلة ليس حبا للدولة العثمانية ولا لمصر ، ولكن كل هذا من أجل المحافظة على مصالحهم في المنطقة وزيادة أطماعهم الاستعمارية فيها والرغبة في سد الباب أمام روسيا<sup>(١)</sup> حتى لا تزحف الى المنطقة فتضيع بذلك مصالح بريطانيا وفرنسا في البحار والأقطار التابعة للدولة العثمانية .

وفي الحقيقة ان حرب الشام الأولى ، كانت نهايتها مؤقتة ، اذ لم يقبل السلطان بهذه التسوية الا ليتمكن من ترتيب وبناء جيشه ، ليستطيع بعد ذلك استرجاع ما انتزع منه بالقوة . كذلك محمد علي لم يقبل بهذا الحل الا خوفا من أن تتخذ الدول الأوربية ضده موقفا يفقده من توسعاته الجديدة<sup>(٢)</sup> .

والواقع أن محمد علي تسبب فعلا في زيادة ضعف الدولة وارتباكها أمام دول أوربا ، وأدخلها في متاهات كانت في غنى عنها ، وكان من المفروض أن يكون ساعدها الأيمن حتى تقف أمام أطماع هذه الدول التي أصبحت تملّي شروطها على الطرفين ، خاصة وأن الدولة قد فقدت جيشها الانكشاري وهي في طور البناء حتى تستطيع أن تحرر ممتلكاتها من أطماع أوربا ومحمد علي .

ومنذ دخول قوات محمد علي بلاد الشام والسلطان محمود الثاني يفكر بالدرجة الأولى في استعادة هذه الولاية ، ولم يكن بد من ارجاعها الا باعادة تنظيم الجيش العثماني تنظيما أعمق من ذلك الذي جرى عقب نكبة الانكشارية وقد أخفق السلطان في توفير المدربين الأكفاء بسبب محاولة الدول العظمى عزل الدولة العثمانية ، وعدم تمكينها من تطوير مؤسساتها ، وذلك بخلق المشاكل والحروب المستمرة بينها وبين ولاياتها ورعاياها ، وفرض نظمها عليها حتى تبعد عنها عن شريعتها

(١) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٦٨٧ .

(٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٤٥٢ . ٤٥١ .

واسلامها عن طريق ارسال البعوث عليها .

وفي صيف سنة ١٢٥٢هـ / ١٨٣٦م وفد الى اسطنبول في رحلة خاصة قائدان بروسيا هما ( فون مولتكه ) و ( فون برج ) فقدمهما الى السلطان القائد العام ( سر عسكر ) على أنهما لديهما الخبرة الكافية لتطوير الجيش العثماني ، فأخذ السلطان بكلام قائده ، فطلب من ملك بروسيا ابقاءهما في الدولة العثمانية لتنظيم الجيش العثماني . فقام كل منهما بتنظيم هذا الجيش واعادة بنائه على الأسس الأوروبية ، كما أنهما ساهما في جلب أعداد كبيرة من العتاد والأسلحة من بروسيا وغيرها (١) .

واضافة الى ذلك فان السلطان العثماني عمل على استثارة شعور أهل الشام واستمالة رؤساء العشائر وأصحاب الزعامات والأعيان فيها الى جانبه في سبيل اخراج محمد علي من بلاد الشام حتى أمسى أهل الشام بأسره يترقبون هزيمة نجل محمد علي وحكومته حتى يتخلصوا من سوء حكمه ومعاملته (٢) .

وقد كانت أهم الأمور التي شجعت السلطان علي خوض حرب الشام الثانية قيام القنصل الانجليزي في اسطنبول بتقديم الضمانات للسلطان بوقوف جميع الدول الأوروبية الى جانبه في هذه الحرب ، ماعدا فرنسا التي تقف خلف محمد علي وتدفعه الى التمسك بهذه الولايات ، وأن بريطانيا ستقف الى جانب الدولة العثمانية في حروبها مع محمد علي لاسترداد الشام وصد أي خطر يهددها من جراء هذه الحرب (٣) .

(١) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية . ص ٥٥٧-٥٥٨

(٢) محمد كرد علي : خطط الشام ( الطبعة الثانية . بيروت . الناشر مكتبة النوري . دمشق .

١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م ) ج ٣ ص ٦٣ .

محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية . ص ٤٥٢ .

(٣) حسين مؤنس : الشرق الاسلامي في العصر الحديث ( الطبعة الثانية . القاهرة . شركة الجامعيين

لشرا العلم ) ص ٢٣٢ .



ولعل ذلك ما أراد التلويح به اللورد بالمرستون ( Palmerston ) حيث كتب يقول : " ان مصلحتنا ان يسترد السلطان سوريا بل ومصر " (١) .

ويلاحظ أن محمد علي شعر بالتحركات التي تدور لاشغال حرب الشام مرة أخرى ، ولذلك اجتمع ببعض سفراء الدول الأوروبية في مصر وعرض عليهم بأن تكون مصر والشام وبلاد العرب له ولأولاده من بعده ، فأبلغ هؤلاء السفراء دولهم التي أبلغت السلطان علي كفيات مختلفة ، فساندت فرنسا مطالب محمد علي باشا . بواسطة سفيرها في اسطنبول ، الذي أقنع الباب العالي بمناقشة هذا الاقتراح والتفاوض مع محمد علي ، لهذا أرسل السلطان سارين أفندي ، من موظفي الخارجية العثمانية الى مصر ، للتفاوض في هذا الأمر مع محمد علي ، وبعد مداوات استطاع محمد علي استمالة مندوب الدولة واقناعه ، فاتفقا على أن تكون ولايات مصر وبلاد العرب ارثا له ولأولاده من بعده ، وبلاد الشام الى جبال طوروس مدة حياته ، فلم يقبل السلطان العثماني بهذا الوفاق الذي حملة له سارين ، بل أصر على أن تكون جبال طوروس ومفارزها في الأراضي العثمانية لا المصرية . فصمم محمد علي أن تكون التسوية على هذا الأساس ، لأن المفاوز أبواب الشام بأجمعها ، فلو احتلتها الدولة العثمانية أمكنها الغارة على بر الشام في أي لحظة ومتى تريد (٢)

ونتيجة لاختلاف وجهات النظر بين السلطان ومحمد علي في أمر الشام عاد الخلاف من جديد ، وكل منهما يريد مبررا لاستئناف الحرب ، محمد علي تسانده فرنسا . والسلطان العثماني تدفعه بريطانيا للحرب ، فأضحت الحرب وشيكة الاندلاع بين الطرفين .

(١) عايض خزام الروقي : حروب محمد علي في الشام ، ص ٤٠١ .

(٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٤٥٣ .

ودخلت الأزمة في دورها الحاسم في سنة ١٢٥٥هـ / ١٨٣٩م على الرغم من المحاولات التي بذلت من الدبلوماسيين الأوربيين في البداية لايقاف انفجار الحرب وازالة شبحها<sup>(١)</sup> ، الا أن الجيش العثماني عبر نهر الفرات بسرعة فائقة في أوائل سنة ١٢٥٥هـ الموافقة لسنة ١٨٣٩م وبعد عدة مناوشات ومناورات خفيفة بين الجيشين ، كانت المعركة الحاسمة بالقرب من مدينة نصيبين المشهورة في الكتب الأوربية باسم ( نزيب ) ( Nizip ) في ١١ من ربيع الآخر سنة ١٢٥٥هـ الموافق ٢٤ من يونيو سنة ١٨٣٩م ، انتصرت فيها قوات محمد علي ، وتقهقر الجيش العثماني بعد معركة حامية الوطيس ، وقد عرفت هذه المعركة باسم موقعة نصيبين<sup>(٢)</sup> .

ولم يقدر للسلطان محمود الثاني أن يسمع بانباء هذه الكارثة التي حلت بجيوشه في نصيبين ، لأنه توفي في يوم ١٩ من ربيع الآخر سنة ١٢٥٥هـ الموافق ٢ من يونيو سنة ١٨٣٩م قبل أن تصل اليه أخبار هذه الهزيمة<sup>(٣)</sup> .

وخلفه في السلطنة ابنه عبدالمجيد وكان فتى لم يتجاوز عمره السادسة عشرة لا دراية له بأموار الحرب ولا بالسياسة في وقت توالت فيه النكبات على الدولة ، فقد أبحر الأسطول العثماني الى ثغر الاسكندرية بعد الهزيمة واستسلم محمد

- 
- (١) محمد كمال الدسوقي : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية . ص ١٧٩ .
- (٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية . ص ٤٥٢ .
- ، اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٣٤٧ .
- ، صبحي وحيد : في أصول المسألة المصرية ( القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٥٠م ) ص ١٤٥-١٤٦ .
- (٣) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٤٥٤ .
- ، اسماعيل سرهنك : المدر السابق ، ص ٦٨٨ .
- ، محمد كمال الدسوقي : المرجع السابق ، ص ١٨٠ .

علي. وتذرع قائده بأن الأخبار التي أتت إليه أن اسطنبول قد بيعت للروس . لذلك فقدت الدولة في أقل من أسبوع جيشها وسلطانها وبحريتها وبدا كما لو أن محمد علي قد أصبح سيد الموقف بلا منازع (١) .

لذلك قررت حكومة السلطان عبدالمجيد أن تحسم النزاع مع محمد علي حقنا لدماء المسلمين ، فتناست الخلافات ، وبعث السلطان رسوله عارف افندي برسالة رسمية يطلب فيها تقديم الولاء والطاعة للسلطان منعا للتدخلات الأجنبية ، وتوقيفا للحرب ، واستعدادا للمفاوضات لفض النزاع بين الطرفين ، ولما استلم محمد علي هذه الرسالة من مندوب السلطان بعث برسالة عاجلة الى ابنه ابراهيم باشا لوقف الحرب والمناوشات ضد الجيش العثماني ، وخاصة عندما علم بوفاة السلطان محمود الثاني . ثم صرح محمد علي باشا للقنصل البريطاني في مصر بقوله: " انه واثق بأن كل الاختلافات سوف تحسم بدون تدخل القوى الكبرى، لأنه يعترف باحترام الكبير والخضوع للسلطان " (٢) .

ويبدو من ذلك أن القنصل البريطاني، في مصر نقل الى اللورد بالمرستون خواطر محمد علي وتفانله بالصلح والتسوية دون تدخل أيد أجنبية . وقد برهن ( محمد علي ) على استعدادده لذلك بأن طلب من ابنه ابراهيم باشا وقف الحرب وأن ذلك تم بمجرد تسلم جنود السلطان أوامر الانسحاب من حدود سوريا ، كما صرح محمد علي في مقابلة مع القنصل البريطاني حول مصير

(١) محمد كرد علي : خطط الشام . ج ٣ . ص ٦٤ .

. أ.ج. جرات وآخرون : أوروبا في القرنين التاسع عشر والعشرين ، ج ١ . ص ٣٤٧ .

. محمد كمال الدسوقي : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ، ص ١٨٠ .

(٢) Document : F.O.: 78/347. From Campbell to Palmerston No.:247.12-3-

1883.

الأسطول العثماني أنه سيعيده إلى السلطان حتى لو رغب قائده في التخلي عنه لنا<sup>(١)</sup>.

وبالفعل كاد الجانبان أن يتوصلا إلى اتفاق بينهما دون تدخل أجنبي ، كما توقع محمد علي ، وقد مال السلطان إلى أن يستجيب لمطالبه ويتنازل له عن مصر والشام وراثيتين ، ولكن الدول الأوروبية لم تترك لمحمد علي فرصة لتحقيق مطالبه ، بل تدخلت لتفرض هي الصلح التي تريده ، لا كما يريد غيرها خدمة لأهدافها ومصالحها السياسية والاقتصادية في المنطقة<sup>(٢)</sup>.

وفي الوقت نفسه شعر بالمرستون بخطورة الموقف في توحيد مصر والشام تحت حكم قوي ، خاصة بعد موافقة السلطان العثماني على منح حكمها لمحمد علي وراثيا ، لذا قرر بالمرستون التدخل وبجزم لمنع حدوث ما اعتبره كارثة ستحل وهي تهديد طريق مواصلات إنجلترا إلى الهند والشرق الأقصى ، وكان بالمرستون شديد الحقد على محمد علي ، ويعتبره عميلا لفرنسا في المشرق لتمكن لنفسها في مصر .

ويرى بالمرستون أن أطماع محمد علي وحربه للسلطان هما اللذان أتيا بالروس إلى الدردنيل والبوسفور ، وهو ما حاولت بريطانيا منعه<sup>(٣)</sup> . لذلك ارتبكت الدول الأوروبية ، وافترضت وقوع الدولة في يد شخص قوي ، وهي التي تخطط لتمزيقها واقتسامها ، عند ذلك هالتها قوة جيش محمد علي الذي سيصبح

(١) Document :F.O.: 78/347. From Campbell to Palmerston No.:247,12-3-

1833

(٢) محمد كمال الدسوقي: الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ، ص ١٠٨ .

عابض خزام الروقي : حروب محمد علي في الشام ص ٤١ .

(٣) محمد كمال الدسوقي : المرجع السابق ، ص ١٨١ .

بإمكانه تجديد القوة الإسلامية لو أن الدولة وقعت تحت قبضته<sup>(١)</sup> ، ولانتشار أنباء كثيرة في أوروبا وبخاصة إنجلترا مفادها أن السلطان الصغير ، ربما يقدم لمحمد علي ما يطلبه<sup>(٢)</sup> .

لذلك أرسلت الدول الأوروبية إلى السلطان العثماني مذكرة مشتركة من سفراء كل من إنجلترا وفرنسا وروسيا والنمسا وبروسيا تنص فيها على وجوب عدم اتخاذ قرار فيما بين السلطان العثماني ومحمد علي إلا بموافقتها وتحت علمها<sup>(٣)</sup> .

هذا الاشتراك أو الوفاق رحبت به الدول المشتركة الخمس واعتبرته احلالاً للهيمنة الدولية على الشؤون الشرقية محل الهيمنة الروسية . كما أن هذا العمل يعتبر في نظرها تنويج لما عملته أو بذلته بريطانيا من جهود في السنوات الأخيرة ضد أطماع محمد علي وتوسعاته<sup>(٤)</sup> .

كما عرضت الدول الأوروبية استعدادها أيضا للتوسط بين الفريقين فقبلت بهذا الدولة العثمانية حين استرجاع ما فقدته من جيشها وأسطولها .

ولما علم محمد علي اشتراك الدول في المفاوضات ومن بينها حليفته

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية . ص ١٥٤ .

محمد شفيق غربال : محمد علي الكبير ( القاهرة . دار الهلال ) ص ١٥٤ .

علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية . ص ١٤٤ .

(٢) عايض خزام الروقي : حروب محمد علي في الشام . ص ٤٠٩ .

(٣) محمد فريد بك : المصدر السابق . ص ١٥٤ .

محمد شفيق غربال : المرجع السابق . ص ١٥٤ .

علي حسون : المرجع السابق . ص ١٤٤ .

(٤) محمد شفيق غربال : المرجع السابق . ص ١٥٤ .

فرنسا<sup>(١)</sup> بدأ يستعد لصد هذا العدوان بتدريب الأهالي على استعمال السلاح، ثم استدعى جيشه من نجد والحجاز لمقاومة هذا الحلف، وتخلي عن بلاد العرب، وأصدر أوامره لابنه بضبط الشام الذي بدأ يتحرك ضده وقمع تحركاته.

وبناء على طلب النمسا لحل المسألة المصرية عقد مؤتمر في لندن سنة ١٢٥٦هـ/ ١٨٤٠م حضره مندوب عن الباب العالي وذلك لمحاولة تدعيم الموقف الأوربي في هذه المسألة، ولكن هذا المؤتمر فشل لاختلاف أطماع الدول في الدولة مع اختلاف وجهات النظر بينها<sup>(٢)</sup>.

لهذا عرضت بريطانيا على السلطان العثماني الضغط على محمد علي لارجاع الأسطول مقابل ادخال سفنها الى البوسفور، ولما علم الفرنسيون بنوايا الانجليز، أبدوا عدم التعاون معهم ضد محمد علي، وكانت فرنسا ترغب في احتفاظ محمد علي بولايتي مصر والشام له ولذريته من بعده، بينما لا ترغب بريطانيا في اعطائه الا ولاية مصر، ولكنها وافقت أن يعطي بلاد الشام الجنوبية باستثناء عكا مدى الحياة، الأمر الذي رفضته فرنسا، فانتهزت روسيا فرصة الخلاف بين الانجليز والفرنسيين حول هذا الموضوع فاتجهت لتعميق نفوذها في الشرق وبسط حمايتها على أكبر جزء من الدولة العثمانية، وأبدت استعدادها لترك حرية العمل لبريطانيا في مصر ضد محمد علي مقابل انزالها جيشا في (سينوب) على البحر الاسود بحجة نجدة الدولة العثمانية في حالة تهديدها بالاحتلال من

(١) ان حوادث التاريخ تعطينا أكبر العبر بأن العدو الحاقد على الاسلام والمسلمين لا يمكنه أن يقف مع المسلمين في صف واحد وان تظاهر بذلك فسرعان ما يكشف زيفه ويفضح أمره وتظهر بواياه الغادرة فهو دائما يسعى لضرب المسلمين بعضهم ببعض لاضعاف شوكتهم ويخشى بروز قوة في ديارهم التي تكون مطلقا لاعادة مجد الاسلام.

- على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ص ١٤٥ . حاشية رقم (١) .

(٢) على حسون : المرجع السابق ، ص ١٤٥-١٤٦ .

محمد شفيق غربال : محمد علي الكبير ، ص ١٥٤ .

قبل ابراهيم باشا.

ولكن انجلترا اقترحت عليها اعلان التنازل عن حقوقها في معاهدة ( خنكار اسكله سي ) فرفض الروس ، وأجلت المفاوضات بشأن المسألة المصرية حتى سنة ١٢٥٦هـ / ١٨٤٠م<sup>(١)</sup> .

ولمواجهة خطر روسيا ، طلبت كل من فرنسا وبريطانيا من السلطان العثماني التصريح لمراكبها بالمرور في بوغاز الدردنيل لحمايته عند الضرورة من روسيا ، ومن جيوش محمد علي ، وجاء قائد الأسطول البريطاني بنفسه الى اسطنبول للحصول على هذا التصريح . فأعلن في الحال سفير روسيا بأنه إذا دخلت مراكب الانجليز وفرنسا البوغاز فانه سوف يقطع علاقاته السياسية مع الدولة العثمانية .

لذلك كتبت النمسا الى وزارتي لندن وباريس بأن طلبهما هذا مخجل للسلم في أوروبا ، وأنهما لو أصرا عليه فانها ستخرج من التحالف . فخاف السلطان من تفاقم الأزمة ، ورفض طلب حكومتي فرنسا وبريطانيا على السواء ، وطلب منهما ابعاد مراكبهما عن مدخل البوغاز .

ولأجل تلك الأسباب توقفت المخابرات ، وتوقفت الدول عن مطامعها موقتا في المسألة المصرية لدراسة الوضع الحالي<sup>(٢)</sup> دراسة أوسع ووضع الحلول المناسبة للموقف .

وفي أوائل شهر رجب سنة ١٢٥٥هـ / ١٨٣٩م عادت النمسا مرة أخرى وطلبت من الدول الأوروبية عقد اجتماع في مدينة فينا لتسوية هذه المسألة التي أقلقت الجميع ، فقبلت تلك الدول عقده في لندن ، وطلبت فرنسا أن يكون

(١) على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٤٥ .

(٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٤٥٧-٤٥٨ .

للسلطان العثماني مندوب في هذا المؤتمر مراعاة لما له من السيادة العظمى على البلاد المتنازع عليها<sup>(١)</sup>. على أن لا يكون له أي صفة أو كلمة لأن زمام الأمور والمبادرة في يد هذه الدول الكبرى التي تتصارع حول أملاكه.

فلما اجتمع المؤتمر طلبت فرنسا إبقاء الشام كلها تحت يد محمد علي باشا، فعارضتها إنجلترا وأصررت أن لا يعطى له إلا النصف الجنوبي من الشام، لكنها قبلت أخيراً بناء على موقف فرنسا ادخال عكا ضمن هذا القسم، بشرط أن يكون له مدة حياته ولا ينتقل إلى ورثته بل إلى الدولة العثمانية.

وقد قبلت بذلك روسيا والنمسا والبروسيا، وعارضته فرنسا وطلبت استمراره لورثته من بعده، فشددت إنجلترا وخصوصاً اللورد بالمرستون على موقفها وعدم الرجوع عنه، ونظراً لهذه الأسباب فشل هذا المؤتمر وبقيت الحالة على ما هي عليه.

ولما تولى (تير) رئاسة الوزارة الفرنسية في سنة ١٢٥٦هـ / ١٨٤٠م لم يتبع خطة من سبقه، بل انفرد دون دول أوربا لانتهاء المشكلة المصرية العثمانية بمطالبة السلطان العثماني بترك ولايتي مصر والشام لمحمد علي ولذريته وأرسل في الوقت نفسه إلى محمد علي بأن يقوى مركزه في الشام بالجيش والعتاد دون الالتفات إلى مهاترات إنجلترا، بل علي التآهب والكفاح وإن فرنسا تقف خلفه ومستعدة لخدمته ضد الإنجليز.

ولما عرف اللورد بالمرستون بموقف فرنسا الجديد حنق على الحكومة الفرنسية فخطط ليضرب ضربته، فقام ببذل مساعي جبارة في الاتفاق مع روسيا والنمسا والبروسيا، لارجاع محمد علي إلى حدود مصر والنصف الجنوبي من

(١) محمد فريد بك: تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص ٤٦٠-٤٦٢.



الشام الذي يدخل ضمنه عكا ، والزامه بالقوة اذا لم يلتزم ، ولقد نجح بالمرستون في مسعاه واستطاع أن يعقد مع الدول المذكورة معاهدة في لندن في سنة ١٢٥٦هـ / ١٨٤٠م<sup>(١)</sup> . وتنص هذه المعاهدة على منح محمد علي باشوية مصر وراثية في بيته ومنحه جنوبي الشام مدة حياته<sup>(٢)</sup> وقد صدق على هذا الاتفاق مندوب الحكومة العثمانية<sup>(٣)</sup> .

وكان من ضمن شروط معاهدة لندن ، أنهم اشترطوا على السلطان العثماني أن يكون لسفنهم حق دخول البوسفور لحماية اسطنبول من جيوش محمد علي ، ولا يحق دخول تلك المياه لأحد مادامت العاصمة غير مهددة .

وقد ألغت هذه المعاهدة معاهدة ( خنكار اسكله سي ) الروسية العثمانية ثم صدرت الأوامر للأسطول الانجليزي الذي تولى هذه المهمة ، وقام بحصار سواحل بلاد الشام لتنفيذ المعاهدة ، ولما وصل الاسطول الانجليزي سواحل الشام عرض مندوبه على محمد علي باسم الدول أن تكون له ولاية مصر ولذريته من بعده ، وولاية عكا له مدى الحياة ، وأفهمه بأن فرنسا لا يمكنها مساعدته كما عرفه بقبول الدولة العثمانية بهذا وتصميم الدول على تنفيذ هذه المهمة مهما تكن الظروف والعوائق ، وأعطى له مهلة قدرها عشرة أيام ، غير أن محمد علي رفض هذا الانذار ، وانتهت المهلة<sup>(٤)</sup> فأبلغ بأنه فقد حقه في ولاية عكا بمضي المهلة وأعطى عشرة أيام أخرى ، ولكنه ظل مصرا على الرفض ، وعندئذ بدأت السفن البريطانية تطلق نيرانها على بيروت ، فاستولوا على بيروت وطرابلس وصيدا وصور ، واحتلوا عكا بالقوة ، وكان ابراهيم باشا يعتمد على عكا أكثر من غيرها

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٤٦٠-٤٦٢ .

(٢) محمد شفيق غربال : محمد علي الكبير ، ص ١٥٤ .

(٣) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٤٦٢ .

(٤) علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٤٧ .

لتحصينها القوى ، فانهزمت الجيوش المصرية وتقهقرت ، فاضطر ابراهيم الى العودة الى مصر<sup>(١)</sup> .

ثم توجه جزء من الأسطول الانجليزي الى ثغر الاسكندرية لتنفيذ مهمته حيث ألزم محمد علي قرار الدول بأن تكون له ولاية مصر ولذريته من بعده وكان ذلك في سنة ١٢٥٦هـ / ١٨٤٠م ، فقبل الباشا بذلك ، وأرسل الأسطول العثماني الى اسطنبول ، وتم تسلمه للدولة العثمانية في أوائل ذي الحجة سنة ١٢٥٦هـ الموافق ٢٤ يناير سنة ١٨٤١م ، لذلك أصدر السلطان عبدالمجيد المرسوم السلطاني الذي ينظم الوراثة العائلية لمحمد علي مشتملا على امتياز حكم القطر ، بمصادقة الدول الأوروبية ، ويعد هذا المرسوم توجه محمد علي إلى اسطنبول لعرض طاعته على السلطان<sup>(٢)</sup> .

وهكذا فان فكرة الدولة العربية التي رسمها خيال محمد علي ورعاها ابنه ابراهيم لم تلق في بلاد الشام التأييد اللازم مما عجل في القضاء عليها مناهضة بريطانيا وخاصة بالمرستون<sup>(٣)</sup> .

وهكذا أسدل الستار على أحداث شخصية محمد علي القوية بعد صدور المرسوم السلطاني ، وعاد تحت الطاعة كما كان سابقا . أما السلطان فقد بدأ في مواصلة الاصلاحات التي لقنه مبادئها والده .

وتحت وطأة هذه الأزمة أصدر السلطان عبدالمجيد أول مرسوم من مراسيم التنظيمات ، وعرف هذا المرسوم باسم خط كلخانة<sup>(٤)</sup> ، وتفصيل ذلك هو أنه بعد

(١) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٦٩٠-٦٩١ .

(٢) اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ص ٦٩١ .

(٣) جورج انطونيوس : يقظة العرب ، ص ٢٤ .

(٤) عبدالعزيز نوار : الشعوب الاسلامية ، ص ١٨٤ .

تسلم عبدالمجيد السلطنة بحوالي أربعة أشهر ، استدعى رشيد باشا السفير العثماني فوق العادة في لندن الى اسطنبول ليعين وزيرا للخارجية ، وما ان تسلم مقاليد منصبه حتى حمل معه الدعوة لنظام حكم برلماني دستوري ، مدعيا رفع الدولة الى مصاف الدول المتقدمة عن طريق دستور ينص على حقوق المواطنين والغاء عدم المساواة البارزة بين المواطنين<sup>(١)</sup> .

وكان رشيد باشا هذا قد عمل سفيرا في لندن وباريس ، وبطبيعة عمله السياسي ألم بسياسات الدول العظمى وتأثر بها ، فتحمس لتحديد سلطة السلطان تحمسه للاصلاح ، وذلك بتطوير النظم وجعلها شبيهة بالنمط الأوربي الدستوري ، على أن تكون بداية الانطلاق هي مصلحة الرعايا المسيحيين وتحسين أحوالهم<sup>(٢)</sup> .

وقد استطاع رشيد باشا الوصول الى هذا العمل حينما استغل الأزمة التي سببتها هزيمة القوات العثمانية في نزيب من القوات المصرية للحصول على المساندة الرسمية لترسيخ مفاهيمه الغربية بعد أن وجد أن الدولة في وضع حرج تحتاج فيه الى مساندة الدول الأوربية ضد محمد علي ، فمن شأن اعلان هذا البرنامج التفريبي أن يوضح للدول الأوربية أنه بإمكان الدولة العثمانية أن تحرز التقدم وأنها تستحق الانقاذ<sup>(٣)</sup> وأنها جديرة بأن تعامل معاملة الدول المتحضرة الحديثة<sup>(٤)</sup> . فأجرى رشيد باشا مشاوراته مع بالمرستون وغيره من المسئولين لحسم الأزمة لصالح الدولة العثمانية ، بل للحصول على المساندة الخارجية للإصلاحات التي كان على وشك

---

(١) على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٥٠ .

(٢) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ١٩٩ .

عبدالكريم مشهداني : العلمانية وآثارها على الأوضاع الاسلامية في تركيا ، ص ٧١-٧٢ .

(٣) أحمد عبدالرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص ١٩٩-٢٠٠ .

(٤) عبدالعزيز نوار : الشعوب الاسلامية ، ص ١٨٤ .

القيام بها ، وهدفه منها تقوية مركز الدولة (١) .

وكان السلطان عبد المجيد في تلك الفترة قد أفرغه الخطر الروسي الجاثم بجوار الدولة والذي يترصد حركاتها ويتحين الفرص لالتهامها . إضافة الى الانتفاضات المستمرة في البلقان بتحريض من الروس ، مما جعل السلطان يطمح الى مساندة الدول الأوروبية التي جاءت معظم الخطوات التنظيمية استرضاء لها ، لتظهر الدولة أمام الرأي العام الأوروبي أيضا بمظهر البلد المتقدم (٢) .

ولهذا استغلت أوروبا المسيحية فرصة الأزمة التي مرت بها الدولة العثمانية بسبب حروب محمد علي في بلاد الشام ، وضغطت على السلطان عبد المجيد ، فأصدر الوثيقة المعروفة بخط كلخانة (٣) .

وللاحتفال بهذه المناسبة نصبت خيام كثيرة في حدائق قصر ( طوب قيو ) المعروف باسم كلخانة ( دار الزهور ) حيث اجتمع حشد من كبار موظفي الدولة ، ومثلي الدول الأجنبية ومن بينهم ولي عهد فرنسا ( جوانويل ) ، في حين اصطفت العساكر النظامية في شوارع المدينة وميادينها المجاورة ، وحين وصل السلطان عبد المجيد الى مكان الاحتفال سمح لطيركي الكنيستين اليونانية والأرمنية وكبير حاخامات اليهود والوفود من مختلف الهيئات وأعضاء الحكومة يتبعهم موظفوه لحضور الاحتفال . واتخذ كبار العلماء والضباط أماكنهم المعدة لهم ، ثم بعد ذلك قدم الصدر الأعظم وعود الإصلاح التي تضمنها الخط الشريف الى رشيد باشا وزير الخارجية الذي أعلنها بدوره بصوت مسموع بالانابة عن السلطان

(١) عبد الكريم مشهداني : العلمانية واثارها على الأوضاع الإسلامية في تركيا ، ص ٧٤ .

(٢) محمد عبداللطيف البحرأوي : التاريخ المعاصر وعلاقته العضوية بالأزمة الحديثة ( الدارة ، ع ٢ ،

س ١١ ، و ١٤٠٦ هـ ١٩٨٥ م ) ص ٨٢ .

عبد الكريم مشهداني : المرجع السابق ، ص ٧٢ .

(٣) محمد عبداللطيف البحرأوي : المرجع السابق ، ص ٨٢ .

عبدالمجيد متضمنا أسس تنظيم الدولة (١) .

ومن جملة ما قال : " لا يخفى على عموم الناس ان دولتنا العلية من مبادئها وهي جارية على الأحكام القرآنية الجليلة والقوانين الشرعية المنيفة بتمامها . ولذا كانت قوة ومكانة سلطتنا السنية ورفاهية وعمارية أهلها وصلت حد الغاية . وقد انعكس الأمر منذ مائة وخمسين سنة بسبب عدم الانقياد والامثال للشرع الشريف وللقوانين المنيفة بناء على طروء الكوارث المتعاقبة والأسباب المتنوعة فتبدلت قوتها بالضعف وثروتها بالفقر . وبما أن الممالك التي لاتكون ادارتها بحسب القوانين الشرعية لا يمكن أن تكون ثابتة ، كانت أفكارنا الخيرية الملوكية منحصرة في اعمار الممالك واتحاد ورفاهية الأهالي والفقراء من جلوسنا السعيد وصار التشبث في الأسباب اللازمة بالنظر الى مواقع ممالك دولتنا العلية الجغرافية ولأراضيها الخصبة والاستعداد وقابلية أهاليها لتحصل بمشيئة الله تعالى الفائدة المقصودة في ظروف خمس أو عشر سنين " (٢) .

ثم سلم رشيد باشا الخط الشريف بعد قراءته الى الصدر الأعظم ، الذي قبله ورفع الى جبهته وصدق عليه شيخ الاسلام وأطلقت المدفعية طلقات عديدة تحية من جميع بطاريات اسطنبول ، ثم تقدم أعضاء الوزارة وأقسموا بيمين الولاء

(١) أ. أنكدلارد : تركيا وتنظيمات دولت عثمانية نك تاريخ اصلاحاتي : ترجمة على رشاد ( اسطنبول

قناعت كتب خانه سي ١٣٢٨هـ ) ص ٣٨-٣٩ .

أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني . ص ٢٠٠ .

روحي بك الخالدي المقدسي : الانقلاب العثماني وتركيا الفتاة ، ( مجلة الهلال ، ج ٢ ص ١٧ .

١٣٢٦هـ / ١٩٠٨م ) . ص ٧٦، ٧٥ .

عبدالكريم مشهداني : العلمانية وأثارها على الأوضاع الاسلامية في تركيا . ص ٧٢ .

(٢) أ. أنكدلارد : المصدر السابق . ص ٣٨ .

محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية . ص ٤٨١ .

بتنفيذ هذا الخط . وانتهى الحفل (١) .

من الملاحظ وضوح الرؤية الصحيحة من وجهة النظر الاسلامية نظريا لدى السلطان الشاب . كما يظهر من اضطراره اصدار تلك التنظيمات التي وضعها رجال تربوا ونشئوا على حب الغرب ومبادئه التي استفحل خطرها شيئا فشيئا حتى تحقق لدعاتها وحملتها ما يصبون اليه فيما بعد ، ومن بعدهم اسيادهم وهم المحركون لهم في الخفاء (٢) .

ويعتبر هذا الخط من أهم مظاهر الغزو الفكري في الدولة لأنه أول تنظيم أتاح للنظم الأوربية أن تتسرب الى مؤسسات الدولة المختلفة خاصة وأن الذي قام بصياغته واصداره مصطفى رشيد باشا ، سفير الدولة في باريس ولندن ، ووزير الخارجية في عهد السلطان عبدالمجيد الذي تصفه المراجع الأوربية بالاستنارة ، وقد تأثر الى حد بعيد بالأفكار الأوربية (٣) .

وأخطر ما في خط كلخانة هو اعطاء الذميين أوضاعا كأوضاع المسلمين . فهذا الخط يمثل بدء اصدار أوامر سلطانية لاتستند الى حجة شرعية أو فتوى شيخ الإسلام (٤) . لهذا نص على تساوي رعايا الدولة أمام القانون ، المسلمين منهم وغير المسلمين ، ولكن مع المحافظة على الشريعة الاسلامية أو الاطار الاسلامي . رغم مانص عليه الخط من أن مرجع ضعف الدولة هو عدم تطبيق مبادئ القرآن وتشريعاته السماوية (٥) . ومع ذلك فقد كان هذا الخط خطوة كبيرة نحو الأخذ

(١) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٢٠٠ .

(٢) على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٥٢ ، حاشية رقم (١) .

(٣) محمد عبداللطيف البحرأوي : التاريخ المعاصر وعلاقته بالأزمة الحديثة ، (المدارة ع ٢ ، ص ١١) .

١٤٠٦ هـ / ١٩٨٥ م) ص ٨٢ .

(٤) محمد عبداللطيف البحرأوي : المرجع السابق ، ص ٨٢ .

(٥) أحمد عبدالرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص ٢٠١ .

، أنكلهارد : تركيا وتنظيمات دولت عثمانية نك تاريخ اصلاحاتي ، ص ٣٨ .

بالقوانين الوضعية حين قرر المساواة بين المسلم وغير المسلم<sup>(١)</sup> . وتوفير الاخاء بين كل رعايا الدولة العثمانية بهدف تقوية الدولة عن طريق تعزيز ولاء سكانها المسلمين والمسيحيين لضعاف الروح الاسلامية<sup>(٢)</sup> .

وقد أكد هذا الخط على معالجة بعض الأمور الأمنية والادارية منها ضرورة ايجاد ضمانات لأمن جميع رعايا الدولة على أموالهم وأموالهم وأرواحهم ، وبالتالي وجوب اعلان المحاكمات ومطابقتها للوائح ، والغاء نظام مصادرة الأملاك ، وأن تكون محاكمة المجرمين علنية .

وايجاد نظام ثابت للضرائب يحل محل الالتزام الذي وصفه خط كلخانه بأنه من آلات الخراب في الدولة ومن أسباب تدهورها . ثم تحديد نظام ثابت للجندية بحيث لا تستمر مدى الحياة ، بل تحدد مدتها بفترة تتراوح بين أربع أو خمس سنوات ، وإلغاء القطاعات العسكرية الغاءا عاما<sup>(٣)</sup> .

وقد كلف مجلس الأحكام العدلية الذي أنشئ في عهد محمود الثاني لوضع التشريعات بايضاح تفاصيل اجراءات الإصلاح ، وبهذا بدأ عصر التنظيمات منذ سنة ١٢٥٥هـ / ١٨٣٩م ، واستمر حتى اعلان الدستور في سنة ١٢٩٤هـ / ١٨٧٦م<sup>(٤)</sup> .

(١) عبدالعزيز بوار : الشعوب الاسلامية . ص ١٨٥ .

(٢) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني . ص ٢٠١ .

(٣) أنكدهارد : تركيا وتنظيمات دولة عثمانية نك تاريخ اصلاحاتي . ص ٣٩ .

على حسون : تاريخ الدولة العثمانية . ص ١٥١ .

عبدالعزيز بوار : الشعوب الاسلامية . ص ١٨٥ .

أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني . ص ١٠٢ .

عبدالكريم مشهداني : العلمانية واثارها على الأوضاع الاسلامية في تركيا . ص ٧٢-٧٣ .

(٤) أنكدهارد : المصدر السابق . ص ٣٩ .

أحمد عبدالرحيم مصطفى : المرجع السابق . ص ٢٠١-٢٠٢ .

كما دعا هذا الخط أيضا الى الحرية الشخصية والتملك الشخصي بحرية حتى لورثة الجناة التي تستلزم أعمالهم مصادرة أملاكهم ، فأصبحت لاتصادر ، ثم التفت الى التجنيد ، وقسم الجيش الى ست فيالق ، اثنان في شبه جزيرة البلقان ، وفيلقان في آسيا الصغرى ، وفيلق في سوريا ، وآخر في العراق ، كما وضعت قوات في اليمن ، واستدعى الخبراء الفرنسيون والبروسيون لتدريب الضباط على أحدث النظم واستخدام الآلات الحربية الجديدة<sup>(١)</sup> .

ونتيجة لذلك استتب الأمن ، وتأسست المدارس الطبية والحربية وأنشئت وزارة المعارف ، وأعلن مبدأ التعليم المجاني الاجباري ، وامتدت يد الاصلاح الى الولايات ، واستورد السلاح الجديد المتطور ، فأصبحت القوات العسكرية على يد الخبراء تستكمل تدريبها على أحدث الأساليب العصرية<sup>(٢)</sup> . وأعيد تنظيم الادارة المحلية والمركزية ، فكان الأكثر خطورة هو النظام العلماني الجديد الذي أدخل على السلطة القضائية ، ولم يبق تحت حكم الشريعة الاسلامية الا قانون الأحوال الشخصية كما ذكرنا<sup>(٣)</sup> .

ومن هنا أعرض العثمانيون عن الخط الاسلامي الذي كان يطبقه أسلافهم تطبيقا حير الأوربيين ، لقوة الدولة وتماسكها بتمسكها بكتاب الله وسنة رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم ، وظهرت مظاهر الغزو الفكري في نظمها ، وزعماءها يظنون أنهم سينقذون الدولة من الانحطاط وما دروا أن انحطاط الدولة في ابتعادها عن الشريعة الاسلامية .

(١) علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية . ص ١٥١ .

أ. أنكدهارد : تركيا وتنظيمات دولة عثمانية بك تاريخ اصلاحاتي . ص ٣٩ .

(٢) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار . ج ١ . ص ٦٩١ .

(٣) أ. أنكدهارد : المصدر السابق . ص ٣٩ .

علي حسون : المرجع السابق . ص ١٥١ .



وبهذه الأعمال قطعت الدولة العثمانية شوطا شاسعا في طريق التغريب ، وأرسل الطلاب الى أوروبا لإتمام تحصيلهم العلمي (١) .

وازدادت الاتصالات بالغرب وعين الشبان العثمانيون الذين تعلموا في ديار الغرب في الوظائف الدبلوماسية في الدولة (٢) . وهكذا فتحت التنظيمات العثمانية الجديدة باب الدولة لتدفق الحضارة الأوروبية المادية عليها بأقصى سرعة ممكنة ، في الوقت الذي كانت فيه هذه الحضارة تستغل بشكل بشع الدولة العثمانية اقتصاديا ، وسياسيا ، كما أن ذلك فتح باب الأرساليات التصيرية والمدارس الأجنبية على مصراعيه حتى عمت مختلف مناطق الدولة العثمانية ومدنها (٣) .

ان هذا الخط بالرغم من موافقته لأهداف الدول الأوروبية فإنه لم يمر دون مصاعب ومتاعب فقد رفضه النصارى بدعوى أنه يجردهم من الامتيازات التي كانوا ينعمون بها عدة قرون ، والتي وفرتها لهم الحماية الأجنبية حيث كانوا في شبه استقلال ذاتي ، فالكاثوليك كانوا تحت الحماية الفرنسية والأرثوذكس كانوا تحت الحماية الروسية ، أما البروتستانت فقد كانوا تحت الحماية الانجليزية (٤) . وقد امتدح هذا الخط أيضا ثلة من الأوروبيين حيث اعتبروه بمثابة " العهد الأعظم " بالنسبة للعثمانيين (٥) .

أما موقف المسلمين من صدور خط كلخانة ، فقد تدمروا بشدة حين رأوا

(١) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٦٩١ .

(٢) على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٥١ .

(٣) عبدالعزيز نوار : الشعوب الاسلامية ، ص ١٨٦ .

(٤) خير الدين التونسي : أقوم المسالك في معرفة الممالك ( الطبعة الثانية ، تونس ، الدار التونسية للنشر

١٩٨٦م ) ص ١٤١-١٤٢ .

(٥) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٢٠١ .

أن الدولة تساويهم بالنصارى واليهود ، ورأوا في رشيد باشا الصدر الأعظم آلة في يد الدولة الأوربية ، وأنه كثيرا ما يمالى النصارى على حساب المسلمين ، مما أحدث اضطرابا شديدا ، خاصة بين موظفى الدولة في الولايات المختلفة ، وقد رأوا أن هذا الخط يضر مصالحهم الاقتصادية ويحد من حرياتهم التي ضمنها لهم الاسلام ، لهذا أعلنوا بين الناس أن " هذا شرع جديد مخالف لشريعة الاسلام " مما اضطرت الدولة الى ارسال شيخ الاسلام " عارف حكمت " الى جهات الاضطراب لوعظ الناس وأمرهم بالطاعة والامتثال ، فخطب بذلك على المنابر ، وبين للناس أن تلك التنظيمات ليست خارجة على المنهج الشرعي ، وماهي الا ضبط للجهات الشرعية التي كانت أهملت من قبل ، وأن لجوء الدولة اليها هي تحسين أوضاع المملكة ، وحفظ حقوق الأمة فهدأت الرعية ، وسكنت ، واستمر العمل بالتنظيمات في سائر الجهات يسير بقدر الامكان (١) .

وبعد أن أنهى الاتحاد الأوربي تسوية مشكلة الدولة العثمانية مع محمد علي ، لم تعد الدولة بحاجة ماسة الى الإصلاح باعتباره سلاحا دبلوماسيا ، فلما اشتدت المعارضة للإصلاح نفسه (٢) ، وانشط الرجال البارزون الى قسمين الاصلاحيون ، وعلى رأسهم رشيد باشا ، والمحافظون على النظم الاسلامية ، وعلى رأسهم رضا باشا . وتساعد الفئدة الأولى انكلترا ، وتساعد الفئدة الثانية روسيا . أما السلطان فكان يتردد بين الفريقين ، حتى مال الى المحافظين على النظم الاسلامية ، بعد أن كان مؤيدا للإصلاح ، وعزل رشيد باشا في سنة ١٢٥٧هـ / ١٨٤١م (٣) .

- 
- (١) أ. أنكلهارد : تركيا وتنظيمات دولت عثمانية نك اصلاحاني . ص ٤٦ .  
خير الدين التونسي : أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك . ص ١٤١-١٤٢ .  
(٢) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٢٠٤ .  
(٣) أ. أنكلهارد : المصدر السابق ، ص ٤٧-٤٨ .  
عابدين حماده : تاريخ الشرق والغرب ( الطبعة الثالثة ، دمشق ، المطبعة الجديدة ) ١٩٥٨م ، ص ٢٠ .

ومما يظهر أن التفكير في عزل رشيد باشا وفي الوقت نفسه وقف مفعول خط كلحانه لم تكن أجهزة الدولة المضطربة هي المسئولة وحدها عنه ، بل لقد لعبت روسيا دورا كبيرا في عزل رشيد باشا لأنها كانت ضد سياسة التنظيمات ، لأنها ترى في هذا الخط حائلا دون تحقيق أطماعها ، وبريطانيا ترى فيه معينا لها على تحقيق أطماعها ، وعلى أي حال فقد توقفت الحركة الإصلاحية بعد عزل رشيد باشا مؤقتا ، ثم استعادت قدرتها على المسير مرة أخرى (١) .

ولمالم يكن لدى السلطان جهاز اداري يستطيع أن يدير وينفذ الإصلاحات عندما اتجه الى الإصلاح ، فقد أعاد رشيد باشا الى رئاسة الوزارة في سنة ١٢٦٣هـ / ١٨٤٦م (٢) . وعندما عاد رشيد باشا الى السلطة ، تابع حركته الإصلاحية لتدريب البيروقراطيين اللازمين لمتابعة إصلاحاته في موضع التنفيذ (٣) . سواء الذين كانوا على رأس العمل معه أو الذين سيخلفونهم ليواصلوا هذه الإصلاحات من بعده .

وأوجد رشيد باشا بعد موافقة السلطان تقسيما اداريا يشبه التقسيم الفرنسي ، اذ قسمت البلاد الى عدة ولايات ، فسناجق ، فأقضية ، ووضع ادارة كل ولاية بيد ثلاثة موظفين ، وهم الوالي ، والحاكم العسكري ، والخازن ، ثم أنشأ في كل ولاية مجلسا من الوجهاء لمراقبة ادارة الوالي ، وقد سعى رشيد باشا الى تحقيق الإصلاح المالي فلم يفلح ، ولكنه أنشأ المصرف العثماني ، ثم سعى في إصلاح الجيش فنجح في ذلك بشكل محدود .

(١) عبدالعزيز نوار : الشعوب الاسلامية ، ص ١٨٧ .

(٢) أنكدلنارد : تركيا وتنظيمات دولت عثمانية نك اصلاحي ، ص ٧٧ .

عابدين حمادة : تاريخ الشرق والغرب ، ص ٢٠ .

أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٢٠٤ .

(٣) أحمد عبدالرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص ٢٠٤ .

هذه الاصلاحات تم تنفيذها فقط على العاصمة اسطنبول وما حولها وكان لها تأثيرها هناك ، ولكنها لم تطبق في سائر ولايات الدولة لعدم استعداد الرأي العام لتقبلها (١) .

مع العلم أن الدولة العثمانية قد حظيت منذ القضاء على الخطر المصري في سنة ١٢٥٦هـ / ١٨٤٠م وحتى نشوب حرب القرم في سنة ١٢٧٠هـ / ١٨٥٣م بفترة هدوء مكنتها من دعم الاصلاحات العسكرية التي تريدها مع بعض الاصلاحات الضرورية التي تحتاجها الدولة في نظر رشيد باشا (٢) .

الا أن تلك الاصلاحات بقيت سطحية لأنها لم تمس جوهر المرض ، بل كانت تظاهرا أمام أعين الناس ، وكان جل اهتمام هذا الاصلاح الذي جاء به رشيد باشا ينصب على الاهتمام بأحوال الرعايا من النصارى في البلاد العثمانية ، وليس تقدم المسلمين أو ادخال النظم الحديثة الى بلادهم باستثناء القشور الزائفة التي كانوا ولا يزالون يهتمون بانتشارها ، كما شقت الأزياء الأوربية طريقها الى العاصمة الاسلامية وأعطى السلطان المثل بارتداء اللباس الأوربي ، بمنحه العطايا واقامة المناسبات والحفلات على ذلك الطراز الأوربي ، من لباس وعادات ، ولم تكسب البلاد من وراء هذه الاصلاحات الا الاخلال بتعاليم الاسلام واستباحة محرّماته ، ولذلك طالب أولئك المستغربون بأن يكون قصد الاصلاح أمن وسعادة كافة المواطنين دون اعتبار للدين .

ومع ذلك طالبوا بما ادعوه اصلاح الأفئدة والعقول وثورتها في صفوف من يقودون دفة الحكم في الدولة ، وازداد تدخل الدول الأوربية في شئون الدولة

(١) عابدين حماده : تاريخ الغرب والشرق ، ص ٢٠-٢١ .

(٢) احمد عبدالرحيم مصطفى : في اصول التاريخ الاسلامي ، ص ٢٠٥ .

العثمانية تحت شعار انصاف النصارى والدفاع عنهم<sup>(١)</sup> .

بيد أن حرب القرم تعتبر احدى تلك الحروب العديدة التي تصارعت فيها الدول الكبرى الأوربية حول الشرق العثماني لأطماعها في توزيع ممتلكات الدول الاسلامية<sup>(٢)</sup> .

وكما تمخضت أزمة محمد علي في سنة ١٢٥٥-١٢٥٦هـ / ١٨٣٩-١٨٤٠م عن صدور خط شريف كلخانة ، فقد تمخضت حرب القرم في سنة ١٢٧٠-١٢٧٣هـ / ١٧٥٣-١٨٥٦م ، عن صدور خط اصلاحي جديد هو الخط الهمايوني سنة ١٢٧٣هـ / ١٨٥٦م .

فبعد القضاء على خطر محمد علي ، عادت روسيا الى سياستها العدوانية لتدمير الدولة العثمانية بأي شكل من الأشكال عن طريق الضغط العسكري وأثارت الاضطرابات في البلقان<sup>(٣)</sup> ، وخاصة عندما فقدت بمعاهدة لندن المنعقدة في سنة ١٢٥٦هـ / ١٨٤٠م معاهدة ( خنكار اسكله سي ) المهمة المنعقدة في ١٢٤٩هـ / ١٨٣٣م ، فقامت بتحريض سكان البوسنه واهرسك وبلغاريا ، وغيرها من الولايات التي تتطلع الى الاستقلال ، للمطالبة بالحكم المطلق<sup>(٤)</sup> . وفي مقابل ذلك وجد السلطان عبدالمجيد في شخص القائد عمر باشا قائدا ممتازا تمكن من قمع كل هذه الثورات والفتن التي تثيرها المناطق المذكورة بمساندة روسيا لمعارضة حركة الاصلاح في تلك الجهات والتي مهدت لحرب القرم<sup>(٥)</sup> .

وتمهيدا لحرب القرم فقد حدثت في أوروبا سنة ١٢٦٥هـ / ١٨٤٨م الحركة

(١) على حسون : تاريخ الدولة العثمانية . ص ١٥٢ .

(٢) عبدالعزيز نوار : الشعوب الاسلامية . ص ١٨٩ .

(٣) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني . ص ٢٠٧ .

(٤) داناة المعارف الاسلامية . مادة تنظيمات ج ٥ . ص ٥٠١ .

(٥) أحمد عبدالرحيم مصطفى : المرجع السابق . ص ٢٠٥ .

الدستورية التي بدأت في باريس بظهور الجمهورية الثانية بعد اسقاط حكومة (لويس فيليب) التي أشرنا اليها في الفصل الثالث ، اذ تسربت أفكارها الدستورية الى برلين وفيينا وبراغ ، فاضطرت حكوماتها الى استعمال القوة ، ومن ضمن تلك الدول روسيا التي قامت بارسال قوة لإطفاء حركة بولونيا الدستورية قبل استفحال خطرها ، كما ساعدت النمسا ضد المجر وقد فر بعض المجرين الى الدولة العثمانية<sup>(١)</sup> . ولأن المجرين لجأوا الى الدولة العثمانية ، فقد طلبت روسيا من الدولة وبالبحر تسليم زعماء المجر اللاجئين الى بلادها ، فامتنعت الدولة العثمانية وذلك طبقا للقوانين الدولية التي تنص على عدم تسليم اللاجئين السياسيين<sup>(٢)</sup> .

وكان من نتائج الحركة الدستورية تطلع كل من الأفلاق والبغدان التابعة للدولة العثمانية الى الاستقلال والانضمام الى ترانسلفانيا لتكوين دولة رومانية جديدة ، فثار الأهالي على أميري الولايتين فاضطروا الى الفرار وأقام الثوار حكومة مؤقتة .

وردا على ذلك أرسل السلطان كعادته جيشا بقيادة عمر باشا الذي استطاع إعادة الأمور الى نصابها كما كانت عليه من قبل ، ولكن الروس الذين يتحينون الفرصة - كما ذكرنا - على الدولة العثمانية ، قاموا بالتدخل وأرسلوا الجنود الى البغدان ، لأنهم كانوا يترقبون مثل هذه الأحداث للتحرش بالدولة العثمانية والتدخل في شئونها ، فاحتلوا مدينة الأفلاق سنة ١٢٦٥هـ / ١٨٤٨م مما أدى الى تازم الموقف بين الروس والدولة بسبب هذا التدخل حتى أصبحت الحرب وشيكة الوقوع بين الدولتين لولا حدوث المخابرات بين الدولتين التي انتهت

(١) على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٥٢ .

(٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٤٩٠ .

، اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ص ٦٩٢ .

، على حسون : المرجع السابق ، ص ١٠٦-١٠٧ .

باحفاظ السلطان العثماني بتعيين أمراء الولاياتين كما كان ، على أن تبقى البلاد تحت حكم مشترك عثماني روسي لمدة سبع سنوات حتى يستتب الأمن، وسمي هذا الاتفاق باتفاق ( يلطه لي مان ) وهو موقع تركي على ضفة البوسفور<sup>(١)</sup>. فكانت هذه الحركة الدستورية بداية لحرب القرم وصدور الخط الهمايوني في سنة ١٢٧٣هـ / ١٨٥٦م كما سيأتي .

وسبب ذلك أن روسيا كانت تطمح بأنظارها الى امتلاك اسطنبول في أي وقت كما يعلم الخاص والعام ، فكانت في كل فرصة ولو تافهة تسنح لها في الأراضي العثمانية أو تدنيها من قصدتها تشن الغارة على الدولة العثمانية لتقطع شيئا من ممتلكاتها ولتصل عن طريق ذلك الى تحقيق وصية بطرس الأكبر<sup>(٢)</sup> .

وفي سنة ١٢٧٠هـ / ١٨٥٣م حاول القيصر نيقولا الأول أن يتفق مع بريطانيا على اقتسام أملاك الدولة العثمانية ، التي وصفها الروس " بالرجل المريض " الذي لايرجى شفاؤه ، فاقترح أن تقوم روسيا بالاستيلاء على اسطنبول مقابل استيلاء بريطانيا على جزيرة كريت ومصر ، إلا أن بريطانيا رفضت هذا العرض خاصة وأنها كانت لاتزال متمسكة برأيها القديم وهو المحافظة على كامل أملاك السلطان من أجل حماية طريق الهند وتوفير حاجز في مواجهة التوسع الروسي ، وقد سبق الحديث عن ذلك في الفصل الثالث . ولهذا السبب أصبحت بريطانيا تساند حركة الاصلاح العثمانية التي تعارضها روسيا<sup>(٣)</sup> .

---

(١) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ص ٤٩٠ .

، على حسون : المرجع السابق ، ص ١٠٧ .

(٢) عمر طوسون : الجيش المصري ، ( مصر : مطبعة المستقبل ، الاسكندرية ، ١٣٥٥هـ ) ص ٤٥ .

(٣) اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ص ٦٩٣ .

، أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٢٠٧ .

، محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٤٩٣ .

وبالرغم من أن دولة روسيا كانت على يقين من أن الاصلاحات التي أدخلتها الدولة في حربيتها ، وتنظيم جنودها البرية والبحرية هي تلك الاصلاحات التي أدخلتها هي في جيشها وبها استطاعت تحقيق الانتصارات المتوالية على الدولة العثمانية ، لهذا كانت روسيا تتمنى ألا ترى الدولة العثمانية في مصاف الدول المتقدمة ، لأن ذلك أصبح يتنافى مع سياستها وأمانها التوسعية في الجهات الشرقية . فظلت روسيا تنظر الى الدولة العثمانية بعين الحقد وتود عرقلة مساعيها في اصلاحاتها العسكرية القائمة (١) .

ثم ما لبثت روسيا أن تعللت بسبب آخر عندما تحرشت بالدولة العثمانية مستغلة ما عرف باسم " أزمة البقاع المسيحية " في فلسطين . هذه المسألة تعد في حد ذاتها قليلة الأهمية في نظر السلطان عبدالمجيد ، وترجع أصول هذه الأزمة الى فترة نهاية الحروب الصليبية حين أصبحت الأماكن المسيحية في القدس وما حولها ملكاً مشتركاً للطوائف المسيحية في حين أن الكنيسة الأرثوذكسية كانت أقوى الكنائس المسيحية في داخل الدولة العثمانية ، باعتبارها ممثلة لأكثر من ثلاثة عشر مليوناً من رعايا السلطان الذين ادعت روسيا حمايتهم ، كما ادعت فرنسا حمايتها للكاثوليك (٢) . فروسيا تسعى لتجريد الكاثوليك من امتيازاتها السابقة نحو الكنائس التي في ممالك الدولة العثمانية وإعطائها للأرثوذكس لنشرها بين رعاياها في الدولة .

وبالرغم من أن المعاهدات المعقودة مع الدولة العثمانية لم تنص صراحة

(١) اسماعيل سرهك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٦٩٣ .

(٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٤٩١ .

أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ الاسلامي ، ص ٢٠٨ .

علي حسون : العثمانيون والروس ، ص ١٠٧ .



على مثل هذه الحماية فان الدولتين حاولتا تأكيد نفوذهما بين رعايا السلطان غير المسلمين بتوفير حماية خاصة لكهنة كل من الفنتين ، وبالتالي تكون مقاصد روسيا بمثابة آلة صماء يحركونها كيف يشاءون ضد الدولة العثمانية (١) .

ففي منتصف القرن الثالث عشر الهجري الموافق لمنتصف القرن التاسع عشر الميلادي وقع خلاف بين الكهنوت الكاثوليكي والكهنوت الأرثوذكسي للاستيلاء على مفاتيح الأماكن المقدسة في فلسطين ، واشتد الخلاف ، فتدخلت على اثر ذلك الحكومة الفرنسية للدفاع عن الكاثوليك والحكومة الروسية للدفاع عن الأرثوذكس (٢) ، وهكذا اشتد الاحتكاك بين روسيا وفرنسا بحيث حاولت كل منهما الضغط على السلطان الذي لزم الحياد على الرغم من تهديد روسيا بقطع علاقاتها الدبلوماسية معه اذا استسلم للضغط الفرنسي (٣) ، ثم أخذت كل منهما تطلب من الحكومة العثمانية منح امتيازات الأماكن المقدسة للفئة التي تحت رعايتها ، فوقفت الحكومة العثمانية ازاء ذلك حائرة مترددة (٤) . إلا أن حجة الكاثوليك كانت أقوى بموجب الامتيازات الممنوحة لفرنسا في سنة ١١١٣هـ / ١٧٤٠م من الدولة العثمانية والتي تخولهم الحصول على امتلاك الكنائس فيها ، وكان الروس يسعون جاهدين لسلبهم تلك الامتيازات واعطائها للأرثوذكس بسبب حمايتهم لذلك المذهب ولنشر نفوذهم في الدولة عن طريق تحريك رعاياهم في البلقان وضرب الدولة بهم .

لكن عندما شغلت فرنسا بحروب نابليون والثورة لم تتمكن من المحافظة

(١) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٦٩٣ .

، احمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ الاسلامي ، ص ٢٠٨ .

(٢) عابدين حماده : تاريخ الشرق والغرب ، ص ٢١ .

(٣) احمد عبدالرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص ٢٠٩ .

(٤) عابدين حماده : المرجع السابق ، ص ٢١ .

على مركزها في الأراضي المقدسة فسيطر الأرثوذكس على مراكز النفوذ، فقام نابليون الثالث بمحاولة لاعادة الوضع وذلك لارضاء الرأي العام الفرنسي بالتدخل لدى الباب العالي لفض الخلاف ، وقد أحال السلطان هذه القضية على لجنة لحل هذا الخلاف ، وبعد عدة اجتماعات قرر المجتمعون بأحقية الكاثوليك في امتلاك عدة كنائس وأديرة لهم فيها حق الأولوية فعارض الروس وهددوا السلطان فيما لو نفذت هذه القرارات ولكن الدولة العثمانية كانت حازمة ولم تتردد عن موقفها<sup>(١)</sup>.

فبالرغم من تهديد روسيا فقد قرر السلطان سنة ١٢٦٨هـ/١٨٥٢م منح الكاثوليك بعض الامتيازات التي أقرتها اللجنة وأهمها تسليمهم المفاتيح الثلاثة الخاصة بالأبواب الرئيسية لكنيسة العذراء وباب السراييب القائمة تحت كنيسة المهد في بيت لحم ، لذلك ارتاح السفير الفرنسي في اسطنبول بهذا الاجراء ، فثارت ثائرة الأرثوذكس ، كما استاءت روسيا شعبا وقيصرا من هذا القرار<sup>(٢)</sup> ، فعزم قيصر روسيا على الانتقام من الدولة العثمانية وارضاء الرأي العام الروسي . متخذاً من هذا الخلاف ذريعة لتنفيذ وصية بطرس الأكبر ، ولهذا الغاية أرسل الى اسطنبول سفيرا فوق العادة يدعى منشتكوف ( Mentchikof ) الذي طلب من السلطان منح قيصر روسيا حماية الرعاية الأرثوذكس في الدولة العثمانية فرفض السلطان هذا الطلب الذي يمس كرامة وسيادة الدولة العثمانية<sup>(٣)</sup> .

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية . ص ٤٩١-٤٩٢ .

، علي حسون : تاريخ الدولة العلية العثمانية . ص ١٥٣ .

، اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار . ج ١ . ص ٦٩٣ .

(٢) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني . ص ٢٠٩ .

، محمد فرد بك : المصدر السابق . ص ٤٩١-٤٩٢ . علي حسون : العثمانيون والروس . ص ١٠٨ .

(٣) محمد فريد بك : المصدر السابق . ص ٤٩٢-٤٩٣ .

، أحمد عبدالرحيم مصطفى : المصدر السابق . ص ٢٠٩ .

، علي حسون : المصدر السابق . ص ١٠٨ .

والحقيقة لم يكن يقصد من ارساله الا ايجاد أسباب الشقاق للتوصل في النهاية الى اعلان الحرب بحجة مقبولة لدى الدول . وبالفعل حصل ما كان متوقعا ، اذ وقع صدام شديد بين منشكوف وبين وزير خارجية الدولة العثمانية القوي فؤاد باشا ، وقد نتج عن هذا اللقاء أن صفع فؤاد باشا منشكوف صفعة قوية ألقته على الأرض لإخلاله بأصول القواعد المتبعة أثناء مقابلة السلطان مما زاد الموقف تأزما ، ولتأزم الموقف طلب السفير الروسي تغيير هذا الوزير بآخر يدعي (رفعت باشا ) فلبى طلبه <sup>(١)</sup> وهذا ما كانت تريده روسيا وهو التخلص من هذا الوزير القوي الذي كان يكره روسيا ويميل الى بريطانيا .

وقد خشيت فرنسا من وقوع الحرب بين الدولة والروس ، لتصرفات هذا الوزير الروسي ، لأن الإمبراطور نابليون الثالث يميل الى السلم ، فكلف سفيره في أسطنبول باخبار السلطان باستعداد فرنسا لتنازها عن قسم كبير من الحقوق التي كان قد منحها السلطان الى الكنيسة الكاثوليكية . وعلى أثر ذلك اتفق منشكوف مع رئيس الوزراء التركي الجديد ( علي باشا ) على منح روسيا حق الاشراف على المذهب الأرثوذكسي في الدولة العثمانية ومنح الأرثوذكس الحق في ممارسة دينهم بحرية تامة ، واعتقد الرأي العام زوال شبح الحرب <sup>(٢)</sup> .

لذلك بدأ منشكوف ببذل جهده لدى السلطان لإحياء معاهدة ( خونكار اسكله سي ) القاضية بأن يكون لروسيا حق حماية جميع المسيحيين الموجودين بين رعايا الدولة ، وكان السلطان العثماني يتردد في الاجابة وفي هذه اللحظة أعاد رشيد باشا الى الصدارة ، لأنه سبق عزله ارضاء لروسيا ومنعاً لأسباب الشقاق فظهر من ذلك أن السلطان قد عدل عن سياسة اللين والمسالمة وعزم على رفض

(١) عابدين حمادة : تاريخ الشرق والغرب ، ص ٢٢ .

(٢) عابدين حمادة : المرجع السابق ، ص ٢٢ .

مطالبة روسيا وأيده في ذلك عدوها اللدود رشيد باشا<sup>(١)</sup> .  
ومهما يكن فلا بد أن ندرك الدور الذي لعبه سفير بريطانيا في اسطنبول  
(ستراتفورد كاننج) المشهور باسم ( لورد اتفورد دي ريد كليف كاننج) فهو  
السبب في وقوع حرب القرم ، وكان هذا السفير يدرك حقيقة الكراهية الشديدة  
التي كان يكنها الشعب الانجليزي للروس بسبب تصادم المصالح في أكثر من  
منطقة، وكان هذا الرجل له مكانة كبيرة لدى السلطان عبدالمجيد ، حتى لقد  
وصف بأنه "السلطان العثماني " غير المتوج ، لذلك كان كاننج يدرك أن روسيا  
بلغت من القوة الدرجة التي أصبحت قوة خطيرة تهدد القوة البريطانية ، وأن تقليم  
أظافرها في وقت مبكر خير من تأجيل الحرب التي لا بد من أن تقع في يوما ما ،  
وكانت ظروف بريطانيا مواتية تماما حيث أن نابليون الثالث - امبراطور فرنسا -  
كان قد عقد العزم على أن لا يصطدم ببريطانيا ، وأن تكون أمجاده العسكرية  
بالتعاون مع بريطانيا ضد روسيا أو النمسا<sup>(٢)</sup> .

وعندما عاد السفير البريطاني من رحلته الى بريطانيا استغل هذه الظروف ،  
لما يتمتع به من نفوذ قوي بسبب مساندته للدولة وللبرامج الإصلاحية ، فأقنع  
السلطان برفض المطالب الروسية<sup>(٣)</sup> ، وحثه على ابعاد علي باشا عن رئاسة  
الوزارة، وتعيين رشيد باشا صديق إنجلترا وعدو روسيا التي كانت لها دور في عزله  
من وزارة الخارجية كما سبق<sup>(٤)</sup> .

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٤٩٤-٤٩٥ .

(٢) عبدالعزيز نوار: الشعوب الاسلامية ، ص ١٩٠-١٩١ .

محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٤٩٣-٤٩٤ .

(٣) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٢٠٩ .

(٤) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٤٩٥ .

عابدين حماده : تاريخ الغرب والشرق ، ص ٢٢ .

اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٦٩٣ .

ولما رأى منشكوف عدول السلطان عن إعطائه هذه الامتيازات أرسل اليه بلاغا نهائيا في ٢٦ من رجب ١٢٩٦ هـ الموافق ٥ من مايو سنة ١٨٥٣م بطلبات دولته ، وطلب الاجابة في مدة أقصاها خمسة أيام ، لكن السلطان لم يلتفت الى هذا البلاغ ، ولما انقضت المدة بدون الاجابة على طلبه انتظر ثمانية أيام أخرى على أمل أن يرد عليه السلطان ، فما كان من السلطان الا أن صمم على رفض طلبات الروس ، لذلك قطع السفير الروسي في ١٧ من شعبان ١٢٦٩ هـ الموافق ٢٦ من مايو سنة ١٨٥٣م العلاقة مع الدولة العثمانية مهددا الدولة باحتلال جنوده لامارتي الافلاق والبغدان<sup>(١)</sup> . فتدخل رئيس وزراء النمسا لمنع نشوب الحرب ، وكاد أن يصل الى اتفاق بين الطرفين لمنع الحرب لولا السفير البريطاني المذكور الذي حال دون ذلك بالايغاز الى رشيد باشا بالتصلب في موقفه وعدم التساهل ، وهكذا قضى كاننج على آخر أمل بالسلم<sup>(٢)</sup> .

فتقدمت الجنود الروسية الى الافلاق ، ودفع الانجليز ومن ورائهم الفرنسيون الدولة العثمانية باتجاه الحرب ، ولوحوا لها بالمساعدة ، فأعلن السلطان الحرب على روسيا في سنة ١٢٦٩ هـ / ١٨٥٣م<sup>(٣)</sup> وأنذر الروس باخلاء الافلاق والبغدان خلال خمسة عشر يوما ، وأمر السلطان عمر باشا بعبور الدانوب بعد أن تجاهلت روسيا الانذار العثماني ، فاستطاع القائد العثماني عمر باشا تحقيق النصر على الروس ، فتقهقر الجيش الروسي عن الضفة اليسرى للدانوب<sup>(٤)</sup> .

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٤٩٥ .

اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٦٩٤ .

(٢) عابدين حماده : تاريخ الغرب والشرق ، ص ٢٣ .

(٣) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٤٩٥ .

عابدين حماده : المرجع السابق ، ص ٢٢ .

(٤) علي حسون : العثمانيون والروس ، ص ١١٠-١١١ .

اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٦٩٤ .

لذلك أبحر الأدميرال الروسي ( نشميون ) حالاً باتجاه الجنوب ليهاجم القاعدة البحرية العثمانية في " سينوب " (١) . ففاجأته السفن العثمانية هناك . وأطلقت العديد من السفن الحربية الروسية المجهزة قذائفها السريعة فأصابته هذه القذائف السفن الحربية العثمانية أصابات أدت إلى تدميرها واغراقها ، والجدير بالذكر أن الروس كانوا قد تعهدوا لفرنسا وانكلترا بعدم الاعتداء على البحر الأسود وكان ذلك في سنة ١٢٦٨هـ / ١٨٥٣م (٢) . ولأجل ذلك دخل الأسطولان الإنجليزي والفرنسي البحر الأسود وطلبوا من الأسطول الروسي الانسحاب إلى سيواستوبول ( اسباتوبول ) ، فاستاء القيصر لهذا الطلب الذي من شأنه أن يظهر ضعف روسيا المسيطرة على البحر الأسود منذ عهد بطرس الأكبر ، لكنه لم يعبأ بهذا الإنذار الذي أرسلته فرنسا وانكلترا معاً مما أدى إلى إعلان الحرب من قبلهما على روسيا في سنة ١٢٦٨هـ / ١٨٥٤م ، وتوجهت حملة فرنسية إنجليزية إلى غاليبولي للدفاع عن اسطنبول (٣) ، لاجباً في الدولة ولكن خوفاً من امتداد نفوذ روسيا وبسط سيطرتها على اسطنبول (٤) .

هذا التدخل كان بعد عدة معارك طاحنة دارت بين الروس والدولة العثمانية لاداعي للخوض فيها ، وكانت النتيجة التي تمت بعد المشاورات والمداولات بين الدول الأوروبية والدولة العثمانية أن قررت الدول الأوروبية نقل المعركة إلى بلاد القرم والاستيلاء على المرفأ الروسي سيواستوبول فكان لهم ذلك

(١) سينوب : بلدة تركية على الساحل الجنوبي من البحر الأسود ، تقع على رأس شمالي غرب نشميون

- على حسون : العثمانيون والروس ، ص ١١١ ، حاشية رقم (١) .

(٢) على حسون : المرجع السابق ، ص ١١١ .

، اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ص ٦٩٥ .

، محمد فريد بك تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٤٩٨ .

(٣) عابدين حماده : تاريخ الغرب والشرق ، ص ٢٢-٢٣ .

(٤) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٤٩٨ .

اذ تم حصار سيوستوبول الذي دام حوالي سنة كاملة ودخلت هذه الحرب أيضا (البيمونت) مع الحلفاء ضد روسيا ، وذلك للتقرب من نابليون لمساعدتها على الوحدة الايطالية . فاستولى الحلفاء على سيواستوبول بعد تحطيم الاسطول الروسي وبعد مذابح وأهوال عديدة وتضحيات جسيمة حتى أتت سنة ١٢٧٢هـ الموافقة لسنة ١٨٥٥م فمال الفريقان الى السلم بعد أن توسطت النمسا بينهما<sup>(١)</sup> .

وكانت الأسباب الرئيسية لعقد الصلح ، أن حقق الانجليز والفرنسيون هدفهم ، وهو تحطيم الأسطول الروسي ، وبذلك لن يكون في استطاعة الروس القيام بدور في البحر الأبيض المتوسط بعد أن ثبت للحلفاء السيطرة البحرية الكاملة في البحر الأسود الذي كانت روسيا تسيطر عليه ، فاكفى هؤلاء الحلفاء بهذا النصر ، ورفضوا التقدم الى ماوراء سيواستوبول ، مع أن بريطانيا كانت تريد الاستمرار حتى تذلل روسيا اذلالا كاملا يقضي على دورها في السياسة الأوروبية ، ولكن نابليون اختلف مع بريطانيا في استمرار الحرب وأمر قواته بوقفها ، الأمر الذي أرغم الانجليز على وقفها ايضا<sup>(٢)</sup> .

وبعد مداولات ومخابرات تم الاتفاق بين النمسا وبريطانيا وفرنسا على شروط قدمتها النمسا الى روسيا في سنة ١٢٧٢هـ/١٨٥٥م على شكل انذار بانضمامها الى الحلفاء في حالة رفض روسيا هذه الشروط<sup>(٣)</sup> .

وهذه الشروط التي وضعت لايقاف الحرب بين المتحاربين كانت كمايلي:

أولا: وضع المقاطعتين ( الافلاق والبغدان ) التابعتين الى تركيا العثمانية تحت

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٥٠٨ .

عابدين حمادة : تاريخ الغرب والشرق ، ص ٢٣ .

اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٧٠٠-٧٠١ .

(٢) عبدالعزيز نوار : الشعوب الاسلامية ، ص ١٩٢ .

(٣) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٢١٠ .

حماية الدول الأوروبية ، بدلا من حماية روسيا وحدها .

ثانيا : حرية العبور في نهر الدانوب .

ثالثا : اعادة النظر في اتفاقية المضائق المعقودة في عام ١٢٥٧هـ / ١٨٤١م

لمصلحة التوازن الأوربي .

رابعا : حماية رعايا السلطان المسيحيين على أن لا تمس هذه الحماية بسيادته .

فقبلت روسيا هذه النقاط الأربع ، وتم الاتفاق على عقد معاهدة باريس في

سنة ١٢٧٣هـ / ١٨٥٦م<sup>(٢)</sup> لإنهاء المسألة الشرقية ، أو لإنهاء هذه الحرب بين

روسيا والدولة العثمانية .

وفي باريس تقرر عقد هذا الصلح بين الدولتين للمسلم ، بتاريخ ١٨ من

جمادى الآخرة سنة ١٢٧٣هـ / الموافق ٢٥ من فبراير سنة ١٨٥٦م .

وكان أهم البنود التي جاءت في نصوص هذه المعاهدة هي :

- ١ - تعهد الجميع بحفظ استقلال الدولة العثمانية الإسلامية .
- ٢ - المصالحة بين الفريقين المتحاربين وإخلاء ما احتل من أراضي كل فريق .
- ٣ - اعادة المواقع العثمانية التي احتلتها روسيا الى العثمانيين .
- ٤ - اعلان العفو التام وإعادة الأسرى .
- ٥ - اعتراف الدول الأوروبية باشتراك الباب العالي معهم في الاستفادة من المنافع الأوروبية واحترام استقلاله والمحافظة على ذلك .
- ٦ - تعهد الدول المتعاهدة بالتوسط لمنع الحرب بين الباب العالي العثماني والدول الأخرى .
- ٧ - اصدار منشور عثماني لصالح النصارى القاطنين في المناطق العثمانية<sup>(٣)</sup> .

(١) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٢١٠ .

(٢) عابدين حماده : تاريخ الشرق والغرب ، ص ٢٣ .

(٣) على حسون : العثمانيون والروس ، ص ١١٦-١١٧ .



واتفق لقبول العثمانيين ضمن المجموعة الأوروبية أن تنفذ البند السابع من المعاهدة ، وتصدر خطا جديدا يضع برنامجا واضحا للاصلاح أكثر اتساعا ودقة من خط ( كلخانة ) (١) .

وعلى هذا الأساس صدر خط " همايون " في سنة ١٢٧٣هـ / ١٨٥٦م وهو تأكيد على ما جاء في خط كلخانة سنة ١٢٥٥هـ / ١٨٣٩م مع اضافات جديدة تتعلق بحقوق النصارى والتنظيمات الادارية الجديدة ، فكان أكثر دقة من الخط الأول ، حيث تميز بوضع حد للقوة المتناهية لروسيا ، ولايقاف مطامع الروس المتزايدة في أراضي الدولة العثمانية خاصة بعد أن منى الروس بالهزيمة في سنة ١٢٧٢هـ / ١٨٥٥م وتحطم أسطولهم (٢) .

وبالرغم من أن الخط الهمايوني جاء نتيجة للضغط الخارجي ، ومن ضمن شروط الصلح على عكس خط كلخانه فقد تشابه الخطان في كثير من النقاط . إلا أن صيغة الخط الهمايوني كانت أكثر عصرية وأكثر اقتباسا عن الغرب بصورة لم تعهد من قبل في الوثائق العثمانية ، فهو لم يستشهد بآية قرآنية واحدة أو بقوانين الدولة العثمانية القديمة وأمجادها وكان ذلك أمرا خطيرا من الناحية النفسية ، لأن هذا المرسوم يتطلع الى التغريب أكثر مما يستوجب الرجوع الى الشريعة (٣) وأخذ كل اصلاح يوافق الشريعة ورفض كل اصلاح ينافي الشريعة الاسلامية ، لارفض كل شيء ، ولاقبول كل شيء ، ولكن حسب المعايير المحددة في الدين الاسلامي الحنيف .

(١) عبدالعزيز نوار: الشعوب الاسلامية ص ١٩٣ .

(٢) عبدالكريم مشهداني : العلمانية وآثارها على الأوضاع الاسلامية في تركيا ، ص ٧٥ .

، أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٢١١ .

، محمد عبداللطيف البحر اوي : التاريخ المعاصر وعلاقته العضوية بالأزمة الحديثة، الدارة ، ع ٢ ،

س ١١ ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٥م ص ٨٢ .

(٣) أحمد عبدالرحيم مصطفى: المرجع السابق ، ص ٢١٠-٢١١ .

معنى ذلك كما هو واضح أن هذا الخط قد مس التقاليد العثمانية مسا خطيرا ، وتناول الشريعة بالتحريف ، ومعناه من الناحية التاريخية انحراف الدولة عن قواعدها الأصلية <sup>(١)</sup> .

ويتضح من هذا الخط التركيز على المساواة الدينية ، وفصل حقوق معينة للنصارى ، منها أن المسائل المدنية تكون العهدة في إدارتها على مجلس مختلط بين المدنيين ورجال الدين النصارى ينتخبه الشعب بنفسه ومنها عدم إكراه المسلم الذي يعتنق النصرانية على الرجوع إلى الإسلام بل يسمح له بالردة عن الإسلام واعتناق النصرانية <sup>(٢)</sup> .

لذلك كان صدور هذه التنظيمات التي أصدرتها الدولة العثمانية باسم (التنظيمات الخيرية) ، أو إنشاء المحاكم المختلطة ، وتطبيق القوانين والنظم الأوربية في الدولة وولاياتها كما جاء في هذين الخطين ، كان ينافي الإسلام عقيدة ومنهجها ، ولضعف الدولة والخلل الذي أصاب العلماء والسلطين كان ذلك بداية انهيار التشريع الإسلامي في نظم الدولة العثمانية والتي كانت تنظر إليها أوربا على أنها عاصمة الإسلام ، فقد تغيرت هذه النظرة من الاحساس بالقوة إلى الاحساس بالضعف عندما كفلت الدولة حرية العبادة وبناء المدارس على أن تتفق مع المناهج المقررة في الدولة ، وسمح للأجانب بامتلاك العقارات وفق شروط معينة وأكد الخط ضرورة إنشاء مجالس الولايات ، وكان من قبل مطبقا على نطاق ضيق <sup>(٣)</sup> .

ثم فتحت أبواب معاهد التعليم الرسمية ، وبالتالي وظائف الدولة المدنية أمام المسيحيين الذين فرضت عليهم الخدمة العسكرية رسميا ، ووعدوا بازدياد تمثيلهم

(١) محمد عبداللطيف البحرأوي : التاريخ المعاصر وعلاقته العضوية بالأزمة الحديثة ، الدارة ، ع ٢٤ .

س ١١ ، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٥ م ) ، ص ٨٢ .

(٢) على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٦١ .

(٣) عبدالعزيز نوار : الشعوب الإسلامية ، ص ١٩٣ .

في مجالس الولايات والمجالس المحلية ، ووعده السلطان بإيجاد نظام ضريبي أكثر عدالة كما وعد بتحديد ميزانية سنوية ، وإنشاء البنوك ، والاستعانة برأس المال والخبرات الأوروبية ( اليهودية ) بهدف تطوير اقتصاد الدولة وتبويب القانون الجنائي والتجاري ، وإصلاح نظام السجون ، وإنشاء محاكم مختلطة في القضايا الخاصة بالمسلمين وغير المسلمين ، وقد أعلنت الدول الأوروبية مساندتها التامة لهذا الخط لضمان تنفيذ العثمانيين لوعودهم (١) .

وبعد صدور هذه القوانين الجديدة وافتتاح المحاكم المختلطة ظهر المحامون الذين يرافعون بموجب تلك القوانين العلمانية ، وقد كان المحامون قبل هذا من العلماء ، أما الآن فقد أصبح الصحفيون والمحامون والضباط موظفين مدنيين قاموا بدور كبير في الحياة السياسية وتطبيق الأساليب والأفكار الغربية الجديدة (٢) التي حذر منها السياسي النمساوي ( مترنخ ) العثمانيين ومن خطرها الكامن وراء استعارة أساليب الحضارة الأوروبية المتعارضة مع الحضارة الإسلامية العثمانية (٣) .

وقد فهم هذا الخط من زوايا متعددة، ففسرته كل جماعة حسب مصالحها فالغالبية العظمى من مسيحيي الدول العثمانية كانت ترى في صدور هذا الخط مظهرا من مظاهر ضعفها وتطلع بعض زعمانهم الى الدول الأوروبية وتمسكوا بما جاء في الخط الهمايوني من حقوق لهم ، تاركين مابه من التزامات وواجبات عليهم، بل تمسكوا في نفس الوقت بما كان لديهم من امتيازات سابقة تتعارض مع الخط الهمايوني ، أي تمسكوا بكل الامتيازات الواردة في الخطين التي تخصهم - دون

(١) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٢١١-٢١٣ .

(٢) عبدالستار فتح الله سعيد : الغزو الفكري ( الطبعة الرابعة ، القاهرة ، دار الوفاء ،

١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م ) ص ٥٨ .

(٣) عبدالعزيز نوار : الشعوب الإسلامية ، ص ١٨٥ .

النظر الى التزامهم نحو دولتهم وما عليهم من واجبات وأخذوا يساومون الدولة على ذلك<sup>(١)</sup> .

وعلى الرغم من انتقاد شيخ الاسلام هذا الخط الهمايوني كما انتقده رجل الاصلاح رشيد باشا وقال : " انه سار اشواطا بعيدة الى الأمام ، لأنه جاء كقفزة بدلا من النص على تنفيذ الاصلاح بالتدرج ، وإن الحاقه بصلح باريس يشكل خطراً على السلطان والدولة " .

وتبع هذه الانتقادات انتقادات أخرى من كبار رجال الدولة العثمانية ، مما أدى الى نشوب الاضطرابات في الشام . كما أن ضمانات الدول الكبرى حررت رجال التنظيمات من خوف التدخل الأجنبي مما جعلهم يعقدون العزم على مواصلة الإصلاح ، إلا أنه كان من المعروف أن أوروبا من وراء صدور هذا الخط ، مما جعل مسيحيي الدولة يتطلعون الى مزيد من التدخل الأوربي حول تنفيذ الاصلاحات بدلا من تطلعهم الى السلطات العثمانية .

والحقيقة أن عالي باشا وفؤاد باشا ربما كانا يهدفان باصدار هذا الخط الهمايوني الى الكسر من حدة التدخل الأجنبي وإبقاء المبادرة في أيديهما<sup>(٢)</sup> . لهذا انتشرت الشائعات عن الدول الأوربية بأنها ستقف الى جانب مسيحيي الدولة لو ثاروا ضدها ، وقد ساعد هذا على وقوع الفتن في الشام ولبنان بين الدروز والمسيحيين المارونيين ليسير لبنان في اتجاه الحكم الذاتي وبنظام خاص عرف بالمتصرفية وهذا النظام كان يتعارض مع خطة الدولة العثمانية في توحيد البلاد العثمانية تحت نظام واحد يعتمد على الخط الهمايوني<sup>(٣)</sup> .

(١) عبدالعزيز نوار : الشعوب الاسلامية . ص ١٩٤ .

(٢) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني . ص ٢١٣ .

(٣) عبدالعزيز نوار : المرجع السابق ، ص ١٩٤ .

وهكذا نرى أن الدول الأوروبية أخذت في غزوها الفكري للدولة مسألة الطوائف غير المسلمة ذريعة للتدخل المستمر في شئون الدولة<sup>(١)</sup> .

وقد أعقب صدور خط كلخانه والخط الهمايوني مجموعة من القوانين التنظيمية التي مست المجتمع العثماني ، وقد صدرت هذه القوانين في أوقات متفاوتة ، كان أولها صدورا هو القانون التجاري الذي صدر في سنة ١٢٦٧هـ/١٨٥٠م ، وكان معظمه مأخوذا من القانون الفرنسي ، ثم القانون الجنائي الصادر في سنة ١٢٧٥هـ/١٨٥٨م ، وقانون التجارة البحرية الصادر في سنة ١٢٨٠هـ/١٨٦٣م ، ومجموعة القوانين التجارية الصادرة في سنة ١٢٧٨هـ/١٨٦١م ، وكل هذه القوانين كانت أيضا مقتبسة من القانون الفرنسي.

وكذلك صدرت فرمانات أخرى حول تأسيس بنك الدولة والأوراق النقدية وإنشاء جامعة عثمانية<sup>(٢)</sup> .

كما صدر قانون الأراضي ( الطابو ) في سنة ١٢٧٥هـ/١٨٥٨م ، وقانون الولايات من سنة ١٢٧٧ - ١٢٨٠هـ/١٨٦٠-١٨٦٣م ، وكان الغرض من إصدار قانون الأراضي هو التخلص نهائيا من نظام الالتزام ، والاقطاعات العسكرية وتحسين حال الفلاح بتمليكهم قطعة من الأرض تملكها غير مطلق ليرتزق منها ، وعندما وضع هذا القانون موضع التنفيذ جاءت نتيجته على غير ما كان متوقعا منه ، فقد كان الفلاح فقيرا لا يستطيع دفع قيمة الأرض ، بينما كان لدى الملتزم المال والخبرة ، فسجل الملتزمون باسمهم مساحات واسعة من

(١) محمد عبداللطيف البحراوي : التاريخ المعاصر وعلاقته العضوية بالأزمة الحديثة . (الدارة . ع ٢

. س ١١٠٦٠١٤٠٦/١٩٨٥م) . ص ٨٢ .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية . مادة تنظيمات . ج ٥ . ص ٥٠٣ .

، عبدالكريم مشهداني : العلمانية وآثارها على الأوضاع الإسلامية في تركيا . ص ٧٤-٧٥ .

الأراضي وتحول الفلاح أجيراً لدى هؤلاء الملاك وبذلك لم تحل المشكلة<sup>(١)</sup> .  
أما قانون الولايات ، فيعتبر المحاولة العلمية لاصلاح حال الولايات من  
جميع النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وتأكيد خضوعها للدولة . فقد  
حدد هذا القانون نظام الادارة واختصاص الوالي ، وطريقة انتخاب أعضاء مجلس  
الولاية ، وكان من أهداف هذا القانون اشراك الأهالي في إدارة أمور بلادهم  
حسب الاصلاحات الجديدة التي أدخلت في مختلف المرافق العامة . كما كان من  
أهداف هذا القانون أن يتمشى مع أحوال كل ولاية ، إذ أدرك العثمانيون أن  
الولايات العثمانية تختلف عن بعضها اختلافات جوهرية أحياناً ، وأنه من العسير  
وضع قانون موحد ينظم القوميات المسيحية البلقانية المتعددة المذاهب والأكراد  
الجبليين وعشائر العراق وعصبيات الشام وعرب شمال أفريقية وترك الأناضول  
ومسلمي البوسنة وألبانيا .

هذا القانون وضع السلطة في يد الحكومة المركزية في اسطنبول وقد عملت  
حكومة اسطنبول هذه التنظيمات اعتقاداً منها أن فساد الادارة في الولايات هو  
المسئول عن عدم تحسين أحوالها ، وأنه لهذا السبب يجب أن يكون الوالي مجرد منفذ  
لأوامر رؤسائه في اسطنبول فقط ، يرجع اليهم في أمور الولاية المهمة . وقد ساعد  
على ذلك في تلك الفترة استخدام الخطوط البرقية في الدولة العثمانية على نطاق  
واسع في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري الموافق منتصف القرن  
التاسع عشر الميلادي<sup>(٢)</sup> .

وبدراسة تلك التنظيمات وأسباب فرضها نرى أن الدولة العثمانية  
أصدرت هذه التنظيمات إرضاءً لأوروبا ، ولاسيما إنجلترا ، قبل أن تفهم معنى هذه

(١) عبدالعزيز نوار : الشعوب الاسلامية ، ص ١٩٤-١٩٥ .

(٢) عبدالعزيز نوار : المرجع السابق ، ص ١٩٥ .

التنظيمات ، ولامعنى تأمين الناس على أرواحهم وأموالهم وأعراضهم ، كـأن  
الشريعة الاسلامية دستور الدولة العثمانية منذ تأسيسها تبيح التجاوزات والتعدي  
على المال والأرواح والأعراض ، حاشا لله . وكان كل البلاء ليس سببه الابتعاد  
عن الشريعة الاسلامية حتى يزول باصدار هذه التنظيمات ، وانما السبب في ذلك  
هو الاستبداد المتسلط على كل قانون وشريعة . فالحرية التي منحها التنظيمات لم  
تكن شيئا مذكورا بجوار الحرية التي منحها القرآن للانسان ، لكن الاستبداد الذي  
آل اليه سلاطين عصر الدولة الثاني جعلهم يجهلون تطبيق الشريعة الاسلامية (١) .  
فانغمسوا في الشهوات والملذات الدنيوية ، ونسوا بناء دولتهم حتى آلت الى ماهي  
عليه ، ولم يعتبروا بأسلافهم الأول الذين طبقوا الشريعة الاسلامية في كل أعمالهم  
حتى سمت الدولة ، ووصلت الى أقصى المد الحضاري في عهد السلطان سليمان  
الأول ، فارهبت بتطبيقه أوربا ، ودخل النظام تحت لواء هذه الدولة لما وجدته من  
تسامح في تطبيق هذه النظم الاسلامية على أهل الذمة ، الذين لم يجدوه في أوربا  
نفسها .

وقد جاء هذا التشريع العلماني أو الغزو الفكري الحديث نتيجة لعدد من  
العوامل منها : وقع الفكر الغربي على الدولة العثمانية ، والضغط السياسي الذي  
كانت الدول الغربية تمارسه في علاقتها مع الأتراك العثمانيين لضعفهم ، والمحاولات  
المختلفة التي قام بها الأتراك أنفسهم لادخال الاصلاح الغربي الى مؤسسات الدولة  
العثمانية لاسيما " التنظيمات " عدا الأحوال الشخصية فـقـد بقي  
هذا النظام خاضعاً لأحكام الشريعة الاسلامية (٢) . وما عداه فقد انزل نحو

(١) روجي الخالدي : الانقلاب السياسي العثماني ( ج ١ ، س ١٧ ، مجلة الهلال ، ١٩٠٨م ) ص ٧٦ .

(٢) زين نور الدين زين : نشوء القومية العربية ، ص ٣٥ .

العلمانية ، وخاصة بعد صدور الخط الهمايوني الذي استنبطت قوانينه من القانون الفرنسي .

والحقيقة أننا لانعرف أحدا من سلاطين الدولة العثمانية الذين أصدروا " الخط الهمايوني " كان يفكر جديا في أن يصبح هو نفسه ذات يوم دستوريا ، وكان يرضى بأن يرى الدول الغربية تتدخل في شئونه الداخلية فكيف كان للسلطان أن يوافق على وضع قيود تحد من سلطته ، وهو أمر يتنافى مع مركزه السامي وألقابه العديدة (١) .

ولكننا لو أمعنا النظر في معاهدة باريس سنة ١٢٧٣هـ / ١٨٥٦م لوجدنا معناها دخول الدولة العثمانية تحت مظلة كفالة الدول الأوروبية ، واعترافها بالعجز والحاجة الى حماية الدول الأوروبية ، تحت أهم بند في المعاهدة وهو البند التاسع ، الذي يعد المسيحيين بحرية ليس لها ضوابط ، والغريب في الأمر أن ممثلي روسيا والنمسا هما أول من تنبه الى خطورة هذا البند ، وخشيا عواقبه أكثر من ممثلي الدولة العثمانية في المؤتمر لأنهما خشيا سريان هذه الحرية الفوضوية الى دولتيهما اللتين تضمان عناصر وأديانا ولغات مختلفة ، لذا نرى أن ممثل النمسا يقول عقب توقيع المعاهدة : " بعد بذل كل الأنفس والأموال في هذه الحرب لم ترس المسألة الشرقية على أساس ثابت لقد أشركنا الدولة العثمانية في مجموعة الدول الأوروبية ... حسنا ولكن ماهو الفرق بين أن نقول لها : " نفذي البند التاسع من هذه المعاهدة أو نقول لها انتحري !!؟ " (٢) .

ان قيام القوميات داخل الدولة العثمانية التي تساندها أوربا معناه تفتيت الدولة العثمانية ، والقضاء على وحدتها من الداخل باستغلال الأقليات غير

(١) زين نور الدين زين : نشوء القومية العربية ، ص ٣٥ .

(٢) أورخان محمد علي : حياة السلطان عبد الحميد الثاني ... ص ٣١-٣٢ .



المسلمة داخل الدولة ، وهذا من السياسات الخطيرة التي فرضتها الدول الأوروبية في معاهدة باريس لإثارة هذه الأقليات ضد الدولة ، وهذا ما حدث بالفعل خلال تلك الفترة حين حدثت الفتنة بين الدروز والمارونيين في لبنان ، ولاشك في أن هذا البند كان لعبة سياسية ماهرة ضد الدولة العثمانية الغاية منه جرّها الى أزمة مخيفة حسب تعبير ممثل روسيا الذي صرح هو أيضا عقب توقيع المعاهدة قائلا : " أعتقد أننا لم نعمل هنا الا لتعقيد المسألة الشرقية أكثر من السابق ، فبينما سقنا الدولة العثمانية المتألّفة من اثنين وثلاثين مليوناً الى أزمة مخيفة حرّمتنا روسيا ذات الثمانين مليوناً من امكانية الدفاع عن حدودها الجنوبية .

ان عهد وجود الحرية دون ضوابط سوف يزلزل الدولة العثمانية أمام النظام الجديد للبحر الأسود ، ومن هذه المعاهدة ستندفع روسيا الى البحث الدائم عن فرصة للحرب ، وأحسب أن هذه الحرية السائبة سوف تخلق في الدولة العثمانية أسبابا طيبة لاعلان حرب جديدة عليها ، مثلا بحجة حماية ومعاونة المسيحيين الذين سوف تأخذهم حمى الحرية " (١) .

والحقيقة أن معاهدة باريس هي التي مهدت لتمزيق الدولة العثمانية بقصد الحماية لرعاياها ، وهو ما أشار اليه ممثل روسيا والنمسا دون أن تنتبه الدولة العثمانية نفسها ، ولكن الذي حصل أن الدولة العثمانية أصبحت في حالة الدفاع عن النفس تنتظر مصيرها المحتوم باستقلال كثير من ممتلكاتها في أوروبا ، وتنظر الى توزيع أملاكها في أفريقيا وفي آسيا دون أن تحرك ساكنا لضعفها وعجزها المالي والدفاعي أمام الغزو الأوربي الحربي والفكري ، وذلك لتغلغل الامتيازات الأجنبية فوق أرضها حتى أصبحت الدول الكبرى تتصارع ، وتمارس سيادتها التشريعية والقضائية بكل حرية لرعاياها داخل الدولة الاسلامية العثمانية بعد أن كانت هذه

(١) أورخان محمد علي : حياة السلطان عبدالحميد الثاني ... ، ص ٣٢-٣٣ .

الدول لا تجرؤ على الاقدام على مثل هذه الأعمال في عصر الدولة الأول إلا باذنها  
وفي قضايا محددة .

ولكن عقب حرب الروس والدولة العثمانية سنة ١٢٧٠-  
١٢٧٢هـ/١٨٥٣-١٨٥٥م والتي انتهت بمعاهدة باريس كما مر بنا سنة  
١٢٧٣هـ/١٨٥٦م استطاعت فرنسا وبريطانيا دفع الدولة العثمانية الاسلامية الى  
منزلق الاصلاح والزامها باصدار خط كلخانه والخط الهمايوني اللذين أخرجتا  
الدولة عن أصولها وقواعدها الاسلامية كما كانت تطبقها في عصرها الأول ، حتى  
سقطت في الحرب العالمية الأولى .

ج - التغريب : مدحت باشا وزملاؤه :

في النصف الأول من القرن الثالث عشر الهجري الموافق للنصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي ، انصبت اصلاحات السلطان محمود الثاني في الحصول على المال والقوة وايجاد القوات المسلحة القوية والحديثة ، وكان هذا ديدن من أتى بعده.

ولكن ما ان أصبحت الاصلاحات تسير على النمط الأوربي حتى سحبت خلفها الأفكار ونظم الحكم ، وأساليب الحياة الأوربية . وخاصة بعد صدور التنظيمات التي تطبعت بالمبادئ الأوربية العلمانية الخاصة بحرية العقيدة وسيادة القانون ، وهذا ما رأيناه في نصوص الخط ١ لهمايوني الذي صدر في سنة ١٢٧٣هـ / ١٨٥٦م<sup>(١)</sup> .

وقد قام المهتمون بالحركة الدستورية بترجمة كتب رفاعه الطهطاوي من العربية الى التركية في سنة ١٢٤٧هـ / ١٨٣١م والعمل على رواجها لأن فيها وصف لمشاهداته في فرنسا وحديثه عن النظام البرلماني والدستور والقوانين الأوربية، وغيرها من الأفكار الغربية الضالة التي وافقت هوى نفوس بعض الشباب العثماني المتطلع الى الاصلاح<sup>(٢)</sup> وسن القوانين الوضعية.

وخلال هذه الفترة برز على مسرح الأحداث مدحت باشا المستغرب الذي تنقل الى كل من لندن وباريس ، وبروكسل ، ودرس وشاهد هناك هذه الأنظمة والدساتير الوضعية البعيدة كل البعد عن الشريعة الإسلامية والحضارة الإسلامية<sup>(٣)</sup> ، فصمم على إيجاد دستور وضعي يسير وفق الأحكام الغربية بغية

(١) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٢٢٤ .

(٢) عبدالكريم مشهداني : العلمانية وآثارها على الأوضاع الإسلامية في تركيا ، ص ٧٩ .

(٣) أحمد عبدالرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص ٢٢٥ .

إرضاء الدول الأوروبية ليلقى الدعم والتأييد منها ، ولكن السلطان عبدالمجيد وافاه الأجل في ١٧ من ذي الحجة سنة ١٢٧٧هـ / ١٨٦٠م ، فسنحت الفرصة لمدحت باشا لتحقيق ما يصبو اليه <sup>(١)</sup> .

ومدحت باشا هذا من تلاميذ رشيد باشا زعيم حركة الاصلاح الذي تولى الصدارة العظمى ست مرات ، ووزارة الخارجية ثلاث مرات ، حتى وافاه الأجل في سنة ١٢٧٥هـ / ١٨٥٨م ، فواصل تلاميذه الإصلاحات من بعده ، ومن أشهرهم محمد أمين وعالي باشا ، ومحمود باشا ، وكان مدحت باشا المذكور من أبرزهم ، حين ساند الحركة الدستورية التي أنهت عصر التنظيمات <sup>(٢)</sup> .

والحقيقة أن غالبية السلاطين العثمانيين كانوا مخلصين فيما قطعوه من عهود لرعاياهم ، ولكن بازدياد صعوبات الدولة المالية وحلول السلطان عبدالعزيز محل السلطان عبدالمجيد في سنة ١٢٧٧هـ / ١٨٦٠م انشغلت الأذهان خلال الستينيات بوسائل الحد من سلطة السلطان المطلقة ، وهي المشكلة التي غطت على سابقتها الخاصة بقبول أو رفض الإصلاحات المستوحاة من الغرب <sup>(٣)</sup> .

تلى ذلك في سنة ١٢٧٨هـ / ١٨٦١م إعلان باي تونس محمد الصادق الدستور ، وهو أول دستور في البلاد الإسلامية حيث كانت تونس في تلك الفترة تابعة اسما للدولة العثمانية <sup>(٤)</sup> . إلا أن السلطان عبدالعزيز لم يلتفت الى ذلك ، بل قام في مستهل أعماله بتعيين نامق باشا وزيرا للجهاد بدلا من رضا باشا ، ثم وجه أمره الى الصدر الأعظم آنذاك عالي باشا لمتابعة السير في تنفيذ الإصلاحات

(١) علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية . ص ١٦٢ .

(٢) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني . ص ٢٠٥-٢٠٧ .

(٣) أحمد عبدالرحيم مصطفى . المرجع السابق . ص ٢٢٥ .

(٤) عبدالكريم مشهداني : العلمانية واثارها على الأوضاع الإسلامية في تركيا . ص ٧٩ .

الضرورية مع الالتزام بالأمر الشرعية في النظام والقانون والاستقامة والاخلاص ،  
وحض على اعطاء الرعايا النصارى الدقة في العدالة حسبما جاء في الخط  
الهمايوني<sup>(١)</sup> .

ويفهم من هذا أنه كان يود اعطاء الرعايا النصارى أكثر من حقهم حتى  
يضمن عدم تدخل الدول الأوربية<sup>(٢)</sup> .

وقد تمكن السلطان عبدالعزیز في السنوات الأولى من حكمه تخلص بلاده  
من الضائقة المالية حيث بذل جهوده للإصلاح وأحاط نفسه بوزراء أكفاء ولعل  
صعوبة المشاكل التي كانت تنبها الدولة العثمانية وكثرتها وصعوبة حلها أوقعته  
في اليأس والقنوط ، والسطور التالية من مذكرات جودت باشا تصور الوضع  
الاقتصادي في اسطنبول في السنوات الأولى من حكم السلطان عبدالعزیز والتي  
كانت من أهم العوامل التي ساعدت على تغلغل الغزو الفكري الأوربي حيث  
يقول: " كانت الخزينة في وضع مالي سيء جدا ويزداد سوءا مع مرور الوقت، وفي  
أحد الأيام وقبل أن يصل فواد باشا الى اسطنبول كان الذهب الذي قيمته مائة  
قرش بالنقود الورقية المسماة " القائمة " قد ظفر وأصبح بثلاثمائة قرش ، وفي اليوم  
التالي تجاوزت الثلاثمائة قرش ثم ما ان وصلت القيمة الى أربعمائة قرش حتى  
أصبحت هذه الأوراق المالية لاتساوي شيئا ، وأصبح البقال والحباز والقصاب  
لايقبلها ، بينما لم يكن في أيدي الشعب سوى هذه الأوراق المالية ، لذلك بقي  
الكثيرون جياعا، والذين كانوا يملكون النقد اشتروا الخبز لثلاثة أيام لذا فقد نفذ  
الخبز ولم يجده الآخرون في السوق .

---

(١) على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٦٣ .

، اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٧٠٦ .

(٢) على حسون : المرجع السابق ، ص ١٦٣ .

وقد حاول البعض أخذ الخبز بالقوة من أيدي الذين اشتروه بكمية كبيرة ،  
وظهرت في بعض الإمارات الفوضى بسبب نهب الخبز في الطرقات ، الأمر الذي  
دعا الكثيرين الى حمل السلاح والعتاد ، واستولى على اسطنبول جو من الرهبة  
واستولت الحيرة على الجميع (١) .

فقام السلطان عبدالعزیز بتعديل في الجهاز الحكومي ، حيث عزل عالي  
باشا في سنة ١٢٧٨هـ / ١٨٦١م ، وعين مكانه فؤاد باشا صدرا أعظم ، فقام فؤاد  
باشا أولا باصلاح المالية ، اذ كانت البلاد تن من الافلاس بسبب الديون المتراكمة  
من عهد السلطانين محمود الثاني ، وعبدالمجيد (٢) .

ولبيان ذلك : أنه عندما نشبت حرب استغلال اليونان ودمرت الدول  
الأوربية أسطول الدولة العثمانية ، قامت الدولة باصدار القوائم المالية ، وذلك من  
أجل الحصول على المال لتجديد مراكبها وتقوية جيوشها فأصدرت اولاً في سنة  
١٢٤٦هـ / ١٨٣٠م أوراقاً بمبلغ اثنين وثلاثين ألف ليرة بفائدة ربوية مقدارها ثمانية  
في المائة سنويا ، تسدد في ثمان سنوات ، وبسبب حروب الشام بين مصر والدولة  
العثمانية زاد العبء المالي حيث أصدر السلطان أوراقاً بلا فائدة وامتنعت خزينة  
الدولة عن دفع فوائد القرض الأول ، وتوالى بعد ذلك إصدار الأوراق في كل سنة  
دون رصيد لها .

ولما جلس السلطان عبدالمجيد على السلطنة ، أراد سحب أوراق القوائد  
وابصلاح الناحية المالية ، إلا أن حرب القرم وما جرته على الدولة من المصاريف  
الباهظة منعه عن تميم مشروعه الإصلاحية ، واضطرته الأحوال الى الاستدانة من

(١) أورخان محمد علي: السلطان عبدالمجيد الثاني ... ص ٤٤-٤٥ .

(٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٤٥١ .

، اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٧٠٧ .

أوربا للقيام بأعباء الحرب المذكورة ، ثم استهلكت الحرب كل القرض ، فأصدر أوراق فوائد جديدة ، واستمر الحال أيضا على هذا المنوال ، حتى ولى السلطان عبدالعزيز فؤاد باشا منصب الصدارة كما سبق ، فأقنع السلطان بضرورة إبطال أوراق الفوائد وتسوية جميع الديون ، فأصدر السلطان مرسوما سلطانيا بتاريخ ٢٠ من رجب سنة ١٢٧٨ هـ الموافق ٢١ من يناير سنة ١٨٦٢م لفؤاد باشا باصلاح المالية ، وإبطال أوراق الفوائد ، وتسوية جميع الديون بكيفية منتظمة ، وعمل ميزانية لايرادات ومصروفات الدولة سنويا <sup>(١)</sup> . فاقترضت الدولة ثمانية ملايين جنيهها انكليزيا ، ثم اقترضت ثمانية ملايين أخرى بواسطة البنك العثماني ، ولكثرة الديون وتراكمها صار دفع الفوائد حملا ثقيلًا على عاتق ميزانية الدولة، فأمر السلطان عبدالعزيز بالاقتصاد حتى في أموره الشخصية ، وقد استقرت بعد ذلك أحوال الدولة المالية <sup>(٢)</sup> ، وأصبحت المعاملة بالنقود في كافة الولايات <sup>(٣)</sup> .

وبعد أن استقرت الأحوال المالية أو كادت تحركت الفتن السياسية ضد الدولة العثمانية ، فثارت جزيرة كريت ، وكانت اليونان من ورائها وتسعى لضمها إليها ، ولكن امكانيات الدول البحرية آنذاك لم تسمح لهم في هذه المرة بتأييد مطالب اليونان بل كلها كانت تعارض سلخ هذه الجزيرة عن أملاك الدولة العثمانية، ولذلك منعت الدول مملكة اليونان من مساعدة جزيرة كريت الثائرة <sup>(٤)</sup> في الوقت الذي أرسلت فيه الدولة العثمانية جيشا لقمع ذلك التمرد .

(١) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٧٠٧ .

(٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٤٥١ .

، على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٦٣ .

(٣) اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٧٠٧ .

(٤) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٥٤٢ .

وفي هذه الفترة استقال رشدي باشا من منصب الصدارة<sup>(١)</sup> ، فأعيد عالي باشا، كما أعيد فؤاد باشا الصدر الأسبق ناظرا للخارجية ، وعين محمد رشدي قائدا للجيش ، وعين في ذلك الوقت عمر باشا بطل القرم قائدا عاما للجيش المقاتلة فحارب كل المتمردين .

ولكن الدول لم يرضها ذلك العمل ، فتدخلت وطلبت ارسال لجنة دولية الى الجزيرة لتسوية أزمة القرم ، فرفض السلطان العثماني هذا الطلب واقترح اقتراحات محددة<sup>(٢)</sup> ، وأرسل الصدر الأعظم عالي باشا الى الجزيرة حيث استطاع تسكين كبار الثوار في الجزيرة بمنحهم الرتب والنياشين وعين عوني باشا واليا للجزيرة ، وعاد الى اسطنبول بعد أن اضطرت المخابرات السياسية بشأن تحركات مملكة اليونان لمساعدة الثائرين ورغبتها في ضم الجزيرة بأي طريقة ، ولو أدت الحال الى الحرب ، ولكن الدول لم تساعد في ذلك ، بل أظهرت لها الجفاء وهددتها لو أثارت نار الحرب<sup>(٣)</sup> .

لهذا انعقد في باريس مؤتمر بهذا الخصوص من قبل الدول التي وقعت على معاهدة باريس في سنة ١٢٧٣هـ / ١٨٥٦م كان من نتائجه أن أصدر السلطان قرارا بمنح الجزيرة بعض الامتيازات في عام ١٢٨٦هـ / ١٨٦٩م منها اعفاء أهلها من دفع الأموال والخدمة العسكرية ، وبذلك انتهت الثورة مؤقتا<sup>(٤)</sup> .

(١) عين في الصدارة عقب فؤاد باشا .

(٢) علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية . ص ١٦٣-١٦٤ .

محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية . ص ٤٢ .

اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول الحار . ج ١ ، ص ٧١١ .

(٣) محمد فريد بك : المصدر السابق . ص ٥٤٥ .

اسماعيل سرهنك : المصدر السابق . ص ٧١٢-٧١٣ .

(٤) محمد فريد بك : المصدر السابق . ص ٥٤٧ .

علي حسون : المصدر السابق . ص ١٦٤ . اسماعيل سرهنك : المصدر السابق . ص ٧١٣ .



ولكن بعد وفاة عالي باشا وفؤاد باشا ، مارس السلطان عبدالعزيز حكمه الشخصي وعين في منصب الصدارة العظمى شخصيات محافظة من أبرزها محمود نديم . وعلى أثر وفاة عالي باشا في سنة ١٢٨٨هـ / ١٨٧١م ظهر فريقان سياسيان عثمانيان يتصارعان حول مسألة الإصلاح ونظام الحكومة ، فهناك من كانوا يسعون الى متابعة سياسة عالي وفؤاد كما وجد المحافظون ، وقد مس الخلاف بين هذين الفريقين كثيراً من المسائل ربما أهمها مايلي :

الفريق الأول : كان يسعى جاهدا الى انهاء حكم السلطان المطلق ، ومنح حقوق مدنية وسياسية لغير المسلمين تجعلهم مساوين للأغلبية المسلمة ، على اعتبار أن ذلك ضرورة أساسية لقيام حكومة منظمة ، والحفاظ على تمام الدولة متأثرين بالعلمانية الأوروبية .

الفريق الثاني : اتجه الى الامتناع عن القيام بأي إجراء من شأنه إضعاف سلطة العاهل وسيطرة العناصر الاسلامية ، وهما الشرطان الأساسيان للحفاظ على تماسك الدولة العثمانية <sup>(١)</sup> .

و حين تولى محمود نديم الصدارة العظمى وفر الفرصة لفريق المحافظين لكي يسيطر على شئون الدولة ، ويعزز نظام الحكم المطلق والحكومة المركزية ، وانتهز السلطان عبدالعزيز الفرصة ليعيد الحكم المطلق ويؤكد خلافته كوسيلة لمساندة اتجاهاته لكسب رأي العالم الاسلامي في الدولة . واشتد سخط الفريق الأول على ممارسات السلطان السلطة المطلقة فازدياد السخط أدى الى انتشار أفكار الدستور والبرلمان في الأفكار التي روج لها مدحت باشا وغيره وجرت مناقشتها على صفحات الجرائد <sup>(٢)</sup> .

(١) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٢٢٨ . ٢٢٩ .

(٢) أحمد عبدالرحيم مصطفى : المصدر السابق ، ص ٢٢٩ .

في تلك اللحظة كان مدحت باشا والياً لبغداد ، حيث كان الصدر الأعظم محمود نديم باشا ، وكان كثير العزل والتبديل ، فنقل مدحت باشا من ولاية بغداد الى أدرنه لسوء التفاهم حول التعارض في سياستهما ، فمر بالسلطان في طريقه الى أدرنه وقابله ، وأبدى له في هذه المقابلة سوء الخلل ، وسوء الإدارة ، وعاقبة الأمور اذا تركت على هذه الصفة ، فاستحسن السلطان عبدالعزيز قول مدحت ، وأخذ به ، وعزل السلطان محمود نديم ، وعين مدحت باشا صدرا أعظم بدلا عنه <sup>(١)</sup> .

لذلك استغل مدحت باشا ، صدارة الدولة ، وحاول اقناع السلطان عبدالعزيز بوضع دستور مشتق من النظم الأوروبية ، فكتب له باصلاح الوضع ، فما كان من السلطان عبدالعزيز الا أن غضب غضبا شديدا ، وأصدر أوامره بعزل مدحت باشا من الصدارة فورا وابعاده ، فتم تعيينه واليا لسلانيك <sup>(٢)</sup> .

وبعد أن عزل مدحت باشا كثر تبديل الصدور حتى بلغوا نحو العشرة في خلال سنة ونصف ، ثم أعيد الى الصدارة محمود نديم <sup>(٣)</sup> .

أما السلطان عبدالعزيز فقد قام باصلاحاته الداخلية أهمها : القانون القاضي بجواز انتقال الميرية ( أي الخراجية ) الموقوفة لورثة صاحبها كما وضع مجلة الأحكام الشرعية في سنة ١٢٨٥هـ / ١٨٦٩م للعمل بها في المحاكم النظامية التي أنشئت <sup>(٤)</sup> ، وهي محاولة لجمع قانون الملكية وقانون الضمانات وفق المذهب الحنفي ، وقام بهذا مجلس برئاسة أحمد جودت باشا <sup>(٥)</sup> .

(١) روجي الخالدي المقدسي : الانقلاب العثماني ... ( مجلة الهلال . ج ٣ ، ص ١٧ . ١٣٢٦

هـ / ١٩٠٨م ) ص ١٣١-١٣٢ .

(٢) علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٦٤-١٦٥ .

(٣) روجي الخالدي : المصدر السابق ، ص ١٣٢ .

(٤) علي حسون : المصدر السابق ، ص ١٦٤ .

، محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٥٤٦ .

(٥) دائرة المعارف الاسلامية : مادة تنظيمات ، ج ٥ ، ص ٥٠٣ .

وبعد مدة قصيرة أعيد مدحت باشا الى اسطنبول ، وعين وزير دولة في حكومة السلطان ، فاتفق مع حسين عوني باشا قائد الجيش ( سر عسكر ) الدولة على خلع السلطان عبدالعزیز (١) .

وكان السلطان عبدالعزیز يدرك سوء نوايا الدول الأوربية المتحالفة مع الدولة في حرب القرم وما بعدها وانها لم تفعل ذلك الا لضعافها بالتدخل في شئونها الداخلية ، ومساعدة مناهضة الطوائف الخاضعة للدولة على بث روح الفتن والفساد تحت اسم نشر الحرية والعلوم ، فرأى السلطان أن الأولى به هو الابتعاد عن الدول الأوربية الغربية والتحالف والتقرب من الروس وأيده في ذلك الصدر الأعظم محمود نديم ، وقيل كثرت اجتماعات السلطان العثماني مع سفير روسيا في اسطنبول الجنرال آغنايف ، وقد تواتر هذا القول وشاع ولكن لم يثبت في أوراق رسمية بين الطرفين أية معاهدة هجومية أو دفاعية يكون من أهم بنودها ضم جميع بلاد المشرق التي تتبع الولايات الإسلامية أو التي يغلب فيها العنصر الإسلامي للدولة العلية الإسلامية ، واختصاص جميع الأقاليم المسيحية أو التي يسود فيها العنصر المسيحي لروسيا (٢) .

ولما شاع هذا الخبر ، لجأت الدولة الأوربية خوفا على مصالحها في المشرق وخاصة إنجلترا للدسيسة وتأليب الموقف ضد السلطان عن طريق عمالهم وسفرائهم في اسطنبول السريين وغير السريين متهمين السلطان بالتبذير والاسراف وعدم الأهلية لإدارة مهام الملك . حتى أقنعوا بوسانلهم المتعددة الوزراء بوجوب عزله وان إقالته من الأعمال الواجبة (٣) .

(١) علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٦٥ .

(٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٥٧٥ .

(٣) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٥٧٥-٥٧٦ .

، علي حسون : المصدر السابق ، ص ١٦٥ .

ويبدو أن هذه الدول افتعلت هذه الاشاعة التي لم تدون بمعاهدات مكتوبة، لأن السلطان حينما حاول الرجوع والعمل على استقرار الدولة، أبت عليه أوروبا واتخذت من الأزمة المالية عاملاً جديداً، أو سلاحاً جديداً للتدخل في شئون الدولة العثمانية<sup>(١)</sup>. لا سيما وأنها قامت بتقوية الأسطول والجيش، وكان هذا هو هم السلطان وشغله الشاغل بحيث أصبح أسطوله يأتي بالمرتبة بعد الأسطول الانكليزي، ولم يكن ينافس هذا الجيش سوى الجيش الروسي، وهذا ما أقلق بريطانيا، لذلك رأت بريطانيا انه لا بد من اضعاف هذا الجيش، إما بدفعه إلى الحرب مع روسيا لاستنفاد قوته، أو تدبير انقلاب للاطاحة بالسلطان، ولم يكن دفعه إلى الحرب ممكناً مع روسيا، فقد اتبع السلطان سياسة حيادية وأتى إلى الصدارة بمحمود نديم الذي أشيع عنه انه صديق روسيا<sup>(٢)</sup>.

وعلى كل حال لما تسلم زمام الدولة حزب مدحت باشا وشغل المناصب الهامة في الدولة<sup>(٣)</sup> بدأ رجال هذا الحزب في عقد الاجتماعات لعزل السلطان عبدالعزيز وكانت أركان المؤامرة هم الصدر الأعظم محمد رشدي، وحسين عوني ناظر الحربية وأحمد باشا قيصرلي ناظر البحرية، ومدحت باشا، وشيخ الاسلام حسن خير الله أفندي<sup>(٤)</sup>. وكان حسين عوني هو الرأس المدبر وقائد هذه الحركة قد اشترك في معارك عديدة، وأبدى بطولات فيها، وترقى في المناصب حتى وصل

- 
- (١) محمد عبداللطيف البحر اوي : التاريخ المعاصر وعلاقته العنصرية بالأزمة الحديثة ( الصدارة ) . ج ٢ ص ١١ . ١٤٠٦ هـ ) ص ٨٢ .
- (٢) أورخان محمد علي : السلطان عبدالحميد الثاني . . . ص ٧٠ .
- (٣) روجي الخالدي المقدسي : الانقلاب العثماني ( مجلة الهلال ، ج ٣ ، ص ١٧ ، ١٣٢٦ هـ / ١٩٠٨ م ) ص ١٣٣ .
- (٤) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار . ج ١ ، ص ٧٢٢ .
- محمد فريد بك : المصدر السابق . ص ٥٧٦ .

الى وزير الحربية " سرعسكر " ولكنه تعرض لفضب السلطان بمكيدة من الصدر الأعظم نديم باشا في سنة ١٢٨٨هـ / ١٨٧١م حيث عزل من منصبه ، وجرّد من أوسمته وألقابه ، ونفى إلى بلدة " اسبارطه " (١) ، وتم ابلاغه أمر ذلك النفي في منتصف الليل ، ولكنه غادر العاصمة في الصباح الباكر الى منفاه ، وبقي هناك حوالي أحد عشر شهرا ، ثم عفى السلطان عنه وجعله على ولاية آيدين ، ثم وزيرا للبحرية (٢) . ولكن الباشا لم يعف عن السلطان ، وقد قرر الانتقام منه . وفي سنة ١٢٩٢هـ / ١٨٧٥م طلب اذنا من السلطان للذهاب الى الخارج للعلاج فأذن له السلطان . وفي باريس عقد حسين عوني بعض الاجتماعات السرية ، فاجتمع مع رئيس جمهورية فرنسا المارشال ( كمهون ) على انفراد ، وهذه الزيارة كانت خارج البروتوكول ، وكانت زيارة سرية تحت ستار العلاج . دون أن يعلم بها سفير الدولة العثمانية في باريس .

وكان حسين عوني يحاول جاهداً أن يضمن اعتراف فرنسا بالحكومة الجديدة بعد الانقلاب ، لذلك فقد بدأ حسين عوني يلوح بمسألة " الكوبونات " على الدوام لمعرفة مدى اهتمام فرنسا حول تأمين دفع أقساط الفائدة على قروضها للدولة العثمانية .

وبينما كان حسين عوني باشا يتصل في باريس سرا بالحكومة الفرنسية كان مدحت باشا يتصل سرا بالسفير الانجليزي السير ( هنري اليوت )

(١) يعني بروسة .

مذكرات مدحت باشا : تعريف يوسف كمال بك حتاتة ( الطبعة الأولى ، القاهرة ، مطبعة هندية ، مصر ، ١٣٣١هـ / ١٩١٢م ) ص ١٣ .

(٢) مذكرات السلطان عبدالحميد : ترجمة محمد حرب عبدالحميد ، الطبعة الأولى ، الكويت ، دار الوثائق ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م ) ص ٢٦ .

مذكرات مدحت باشا : المصدر السابق ، ص ١٣ .

للتباحث معه حول خلع السلطان عبدالعزيز<sup>(١)</sup> .

وقد اعترف السفير الانجليزي " هنري اليوت " في المقالة التي كتبها في مجلة " القرن التاسع عشر Nineteenth century " بدوره في التحريض على تنحية السلطان عبدالعزيز اذ قال " لكوني قد قضيت في تركيا سنوات عديدة " <sup>(٢)</sup> فاني كنت أعلم أن الدولة العثمانية في حاجة الى اصلاحات كثيرة ، وكنت أعلم أنه ما لم يتم تشكيل مجلس يراقب السلطان ووزرائه فإنه لا فائدة من أي اصلاح ، وقد فرحت كثيرا عندما بلغتني المحاولات التي يقوم بها مدحت باشا ، وقد بذلت ما في وسعي لحثه وتشجيعه على ذلك " <sup>(٣)</sup> .

وعلى أية حال ، فبعد هذه الاتصالات وجد رجال حزب اللامركزية الصدر الأعظم محمد رشدي باشا ، وحسين عوني ناظر البحرية ، وأحمد باشا قيصري ناظر البحرية ، ومدحت باشا ، وشيخ الاسلام حسن خير الله أفندي <sup>(٤)</sup> التشجيع من قبل فرنسا وانجلترا على تنفيذ مؤامرة خلع السلطان عبدالعزيز ، وقد سبق أن لوحوا بها من قبل واتهموه بالاسراف والتبذير .

ولكن قبل الشروع في تنفيذ خلع السلطان ، أصدر شيخ الاسلام فتوى بوجوب خلعه <sup>(٥)</sup> ، ووضعها في جيبه منتظرا ساعة الصفر . وكان ولي العهد الأمير مراد الخامس على علم بهذا الانقلاب ، فكان يتهيأ للجلوس على العرش <sup>(٦)</sup> .

(١) أورخان محمد علي : السلطان عبدالحميد الثاني ، ص ٦٨-٦٩ .

(٢) كان سير ( هنري اليوت ) قد عين سفيراً لبلاده في اسطنبول في سنة ١٢٨٤هـ / ١٨٦٧م أي كان له

تسع سنوات من سفارته عندما تم عزل السلطان عبدالعزيز .

- أورخان محمد علي : المرجع السابق ، ص ٧١ .

(٣) أورخان محمد علي : المرجع السابق ، ص ٧١ .

(٤) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٥٧٦ .

(٥) محمد فريد بك : المصدر السابق .

(٦) أورخان محمد علي : المرجع السابق ، ص ٦٣-٦٤ .

؛؛ لانتمايه الى هذا الحزب حزب اللامر كزية وليمه الى اصدار الدستور .

ثم اناطوا الى حسين عوني باشا ناظر البحرية بأمر خلع السلطان عبدالعزیز، وشيخ الاسلام وباقي الوزراء بمبايعه السلطان مراد .

ففي يوم الاثنين ٦/٥/١٢٩٣هـ / الموافق ٣٠/٥/١٨٧٦م أخذ ناظر البحرية في تجهيز مراكبه لحصار السرايا السلطانية بجرا ، فاستغرب السلطان حصول هذه المناورات البحرية بالبحر تحت شبابيك قصره ، من دون علمه ، فأرسل يستطلع الخبر ، فأجيب على سؤاله بأن ما يحدث هو من دواعي الحال ومقتضياته أوجبت ذلك <sup>(١)</sup> ، ثم أخبر أحمد باشا قيصر لي الصدر الأعظم ومدحت باشا بسؤال السلطان فعزموا على تنفيذ الأوامر اللازمة لخلع السلطان في مساء ذلك اليوم خوفاً من أن يكون قد شعر بشيء من قصدهم <sup>(٢)</sup> . وبما أن الأحوال تحتم وجوب كتم المسألة عن العامة لذلك اتفق رشدي باشا ومدحت باشا وخير الله أفندي شيخ الاسلام على احضار ولي العهد الى الباب الهمايوني عملاً بالأصول القديمة لإجلاسه على العرش ، وقبل الموعد بيومين أرسل السلطان عبدالعزیز رسولا الى عوني باشا للحضور الى سرايا (القصر) ، فتنصل ببعض الأعداء ، وظن أن السلطان قد وقف على جلية الأمر <sup>(٣)</sup> ، ومهما يكن من المواقف التي دائما ماتصاحب هذه العمليات فقد كلفوا رديف باشا بحصار السرايا براً ، بينما حاصرها أحمد باشا قيصر لي بجرا، واجتمع بعد ذلك المتآمرون بعد غروب الشمس في ذلك اليوم في ديوان قيادة الجيش وتوجه رديف باشا مع آلاف من

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية . ص ٥٧٦-٥٧٧ .

(٢) مذكرات مدحت باشا : تعريب كمال يوسف كمال بك حتاة . ص ١٣ .

محمد فريد بك : المصدر السابق . ص ٥٧٧ .

(٣) مذكرات مدحت باشا : المصدر السابق . ص ١٣-١٤ .

الجند ، وأمر سليمان باشا رئيس المدرسة بحراسة باب السراي مع مائة من تلامذة المدرسة الحربية على ظهور خيولهم مدججين بالسلاح<sup>(١)</sup> . ولما تم لهم حصار سرايا السلطان برا وبحرا ، توجه حسين باشا في عربة الى مقر ولي العهد مراد ، وأركبه معه وعادا معا الى قيادة الجيش حيث كان بانتظارهما شيخ الاسلام ، وجميع أعيان الدولة من عسكريين ومدنيين ، وطوقت السرايا فرقة من الجنود لمنع من فيها من الخروج ، ثم تمت بيعة السلطان مراد الخامس بالسلطنة من الحاضرين<sup>(٢)</sup> .

ودخل أيضا حسين عوني الى مقر السلطان عبدالعزيز ، وأخذه معه الى قيادة الجيش ، وأبلغه هناك أن الأمة عزلته ، وسلمه صورة فتوى الخلع فلم يصدق هذا الخبر ، الا حينما رأى القوة تحاصره ، وتحيط به من كل جانب فنزل مستسلما ، وأحاط به الجند<sup>(٣)</sup> ، ونقل مع عائلته الى سراي طوب قبو ، ومنه الى بيت في " أورطه كوي " في اسطنبول<sup>(٤)</sup> . وأطلقت المدافع من البر والبحر ايدانا بخلع السلطان عبدالعزيز وتتويج السلطان مراد الخامس<sup>(٥)</sup> .

يقول السلطان عبد الحميد في مذكراته : " تولدت فكرة خلع السلطان عبدالعزيز أول ماتولدت عند حسين عوني باشا ، وسبب هذا أن السلطان نفاذ من قبل الى أسبرطه . وكان المرحوم عمي وقورا ، وكان كريم الظن بكل انسان فقد عفا عن رجل حقود مثل عوني ، وبعد فترة قليلة عينه سرعسكر . وهكذا ذهب

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية . ص ٥٧٧ .

. علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية . ص ٢٦٥ .

(٢) مذكرات مدحت باشا : تعريب يوسف كمال بك حتاتة . ص ١٤ .

. محمد فريد بك : المصدر السابق . ص ٥٧٦-٥٧٧ .

(٣) اسماعيل سرهنگ : حقائق الاخبار عن دول البحار . ج ١ . ص ٧٢٢ .

. علي حسون : المرجع السابق . ص ١٦٦ .

(٤) أورخان محمد علي : السلطان عبد الحميد الثاني . ص ٧٢ .

(٥) محمد فريد بك : المصدر السابق . ص ٥٨٠ . اسماعيل سرهنگ : المصدر السابق . ص ٧٢٢ .



عمي ضحية خطئه هذا باشارك مدحت باشا في عملية الخلع ، فانتقل بذلك من مصاف رجال الحكم الى عداد الثوار . " (١) .

وهكذا تم الخلع دون مقاومة من الدول الأوروبية ودونما أي احتجاج على تلك الثورة الداخلية ، بل كانت مشاركة فيها أصابع الدول ، وخاصة إنجلترا وفرنسا كما سبق ، بل كان لدى جميع القناصل علم بهذه المؤامرة ، وكان باتفاقهم ان لم يكن قد اشترك بعضهم فعلا في خلع السلطان (٢) . ويؤكد ذلك أن مدحت باشا قد بعث بمذكرة مفصلة الى دول أوروبا قبل تنفيذ المؤامرة عدا روسيا ، وأعلمهم فيها بأن خلع السلطان يحتمه الشرع الاسلامي الذي يقضي بأن يكون رئيس الدولة مالكا لقواه العقلية . وهكذا باتفاق الدول الأجنبية الكبرى أطاح المتآمرون بالسلطان لرفضه الانصياع لرغباتهم في سن دستور للدولة الإسلامية مستمد من النظم والأفكار الأوروبية (٣) بعيدا عن الشريعة الإسلامية .

يقول مدحت باشا في مذكراته : " لم نقصد بخلع السلطان والدخول في المآزق الحرجة سوى تخليص الدولة من أزماتها واتخاذ مسلك ثابت للإدارة ، والدواء الوحيد لهذا الداء هو اتباع قواعد الشورى بتأسيس حكومة دستورية يعيش فيها أفراد الأمة الأحرار متساوين وكانت هذه المسألة قد ارتسمت في فكري حين كنت واليا في ( الطونه ) فكتبت قانونا موافقا لروح العصر ، وحن وقت العمل به ، ولكن إعلانه كان يقضي موافقة أقراني على محتوياته ، فتباحثنا في مواده في الليالي التي قضيناها في السراي ، فقال حسين عوني باشا : ان القانون الذي سنعمل به سيخالف هذا القانون في بعض مواده الأساسية ، فيجب أن نهمل ذكره في الخط المهمـايوني الذي سنشره ، فاكتفينا بتنزيل مرتبات السراي

(١) علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٦٦ .

(٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٥٨٠ .

(٣) علي حسون : المرجع السابق ، ص ١٦٦ .

السلطانية الى ٦٠ ألف ليرا وألحقنا معدن فحم ( اركلي ) وبقية المعادن والاراضي المسماه بالشفالك الهمايونية بنظارة المالية وباجراء مقدمات الاصلاح ، ولكن الأساس الذي يجب النظر اليه هو اختلال ادارة الحكومة واذا استمر الحال على هذا المنوال فلا يتم البرء من الداء الا بالشورى التي ينتظرها الناس بفروغ صبر ، وقد جلس السلطان على تخت أجداده وهو عازم على تأسيس حكومة شورية<sup>(١)</sup> .

ياللعجب .. هل الشورى بادخال القوانين والدساتير الوضعية ..؟ أم بتطبيق النظم الاسلامية في المعاملات والعبادات . نسي هؤلاء أن أسلافهم وأعجبوا بتطبيق الدستور المستورد ، ان الدولة العثمانية في عصرها الأول بتطبيقها الشريعة السمحاء وصلت الى قلب أوربا وأرهبت ملوكها ، وطبقت النظم الاسلامية في معاملة أهل الذمة الذين عاشوا في الدولة العثمانية والذين شهدوا لهم بحفظ حقوقهم وحرية معتقداتهم ، وقد هرب كثيرون من النصارى من بلدانهم للعيش في الدولة العثمانية والتسامح الإسلامي المفقود في بلدانهم .

ويواصل مدحت باشا حديثه في مذكراته فيقول :

" فزاد انتشار فكرة الشورى بين الأحرار ، وقررنا تشكيل مجلس بعد الانتهاء من حفلات الجلوس ، والعمل بقراراته بعد البت فيما يجب اجراؤه لإعلان الشورى ... وتوجه الموظفون الى مناصبهم ، واشتغل كل بعمله ، فتغلب الكبرياء على عبدالعزيز وانتحر في يوم الأحد وهو اليوم السادس لخلعه وذلك أنه طلب من أحد خازنداراته مقرظا وقطع به شرياني ذراعيه فمات ، وانتشر خبر انتحاره بين الناس ، ولكنه لم يصلني الخبر الا بعد زمن ، لأنني كنت أقيم في مصيفي وهو بعيد عن الآستانة " <sup>(٢)</sup> .

(١) مذكرات مدحت باشا : تعريب يوسف كمال بك حناته ، ص ١٦ .

(٢) مذكرات مدحت باشا : المصدر السابق ، ص ١٦ .

ولكن هيئات فقد اختلفت الأقوال في الوفاة وأسبابها ، فمن قائل انه انتحر لعدم انتظام قواه العقلية بسبب خلعه ، ومن قائل : ان المتآمرين قضا عليه خوفا من رجوعه الى الحكم والتنكيل بهم<sup>(١)</sup> .

لهذا اکتف وفاته شيئا من الغموض إلا أن الأدلة والقرائن تثبت أن الانقلابيين كان لهم دور كبير في ذلك، فعندما خلعوا السلطان عبدالعزيز أبقوا الى جميع وحدات الجيش في أرجاء الدولة يزفون اليهم الأمر ، ولما لم يكن لدى وحدات الجيش خبر هذا الانقلاب فقد انصاعت للأوامر وأرسلت جميعها بقرقيات التأييد، ولكن رغم ورود هذه البرقيات إلا أن بال الانقلابيين لم يكن مرتاحا فقد تأخر قائد جيش " روملي " أحمد مختار باشا في إرسال برقية التأييد ، وكان من أنصار ومحبي السلطان ، وموقعه قريب من اسطنبول ، وجيشه في نفس الوقت من أقوى الجيوش، وليس لدى المتآمرين قوة تستطيع رده لو هجم على العاصمة ، لذلك دام صمته ثلاثة أيام ، فأقض هذا الصمت مضجع حسين عوني باشا وأعوانه ، وقد خشوا أن تتكرر وقفة العلمدار مصطفى باشا<sup>(٢)</sup> ، لذلك تقرر قتل السلطان وإعلان الخبر بأن السلطان انتحر لكي يسدوا الطريق على أي أمل بانقاذ السلطان وإعادة الى العرش ، إضافة الى حقد عوني باشا على السلطان عبدالعزيز<sup>(٣)</sup> .

(١) على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٦٦ .

(٢) عندما تأمر الجيش الانكشاري بخلع السلطان سليم الثالث ونجحوا في تحيته عن العرش عام ١٨٠٨ هـ كان العلمدار مصطفى باشا قائدا في منطقة الدانوب ، وعندما سمع بخلع السلطان سار بجيشه الى اسطنبول لانقاذ السلطان ، ولكن في أثناء دخوله القصر قام الانكشاريون بقتل السلطان وقد قض العلمدار مصطفى باشا على أعداء السلطان سليم الثالث فعزل السلطان مصطفى الرابع وأجلس محمود الثاني على العرش .

- أورخان محمد علي : السلطان عبدالحميد الثاني ، ص ٧٣ حاشية رقم (٧٦) .

(٣) أورخان محمد علي : المرجع السابق ، ص ٧٢-٧٣ .

ومما يوجب الشك في دعوى انتحاره ما كتبه عبدالعزيز للسلطان مراد قبل وفاته بيوم واحد طالبا منه نقله من ( طوب قبو ) وهذا ما ثبت أن قواه العقلية سليمة حيث قال : " بعد اتكالي على الله ، وجهت اتكالي عليك ، فأهنتك بجلوسك على تحت السلطنة ، وأبين لك حالي من الأسف على أنني لم أقدر على أن أخدم الأمة حسب مرادها ، فأمل أنك أنت تبلغ هذا الأرب وأنك لا تنسى أنني تشبث بالوسائل الفعالة لصيانة المملكة ، وحفظ شرفها وأوصيك أن تتذكر أن من صيرني إلى هذه الحالة هم العساكر الذين سلحتهم أنا بيدي ، وحيث كان من دأبي دائما الرفق بالمظلومين وشملتهم بالمعروف الذي تقتضيه الإنسانية أرغب اليك أن تنقذني من هذا المكان المعنى الضيق الذي صرت إليه ، وتعين لي محلا أكثر ملاءمة ، وأهنتك بأن الملك انتقل إلى ذرية أخي عبدالمجيد " (١) .

وهذا دحض قوي لادعاءات خصومه الذين كانوا وراء مقتله (٢) . ولكن زيادة في إيهام الناس بأنه قتل نفسه قام الوزراء باستدعاء أطباء القناصل في اسطنبول أيضا لتأكيد انتحاره معتقدين أن الأمة لاتصدق قولهم فعمدوا إلى تقريرة حجتهم بالكشف الطبي المصدق عليه من أطباء السفارات بما يعتبر اقرارا وتأكيدا لروايتهم (٣) .

ان رواية مدحت باشا التي رواها في مذكراته عن انتحار السلطان عبدالعزيز وروجها حزب الأحرار ، كما سبق تدعو إلى الريبة ، فكيف لمدحت باشا ان لا يعرف عن موت السلطان الا بعد ثلاثة أيام والسلطان مات بعد خلعته

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية . ص ٥٨٠-٥٨١ .

، علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية . ص ١٦٦ .

(٢) علي حسون : المصدر السابق . ص ١٦٦ .

(٣) محمد فريد بك : المصدر السابق . ص ٥٨١ .

بسته أيام فقط ، كما يقول ، وكيف يذهب الى مصيفه البعيد عن اسطنبول ؟ ومتى ذهب الى هذا المصيف ؟ ولماذا ؟ وهو أهم أعضاء رجال الانقلاب ، ومتى غادر اسطنبول ؟ وهل يعقل أنه غادرها بتلك السرعة ، اذا علمنا أنه الرجل الثاني بعد حسين عوني والاثنان غايتهما واحدة خاصة وأنهما تعرضا لطرده السلطان في يوم ما ، والأهم من ذلك أن الدولة لازالت في حاجة الى خدماته ، وكان يخطط مع حسين عوني وغيره لوضع الدستور ، اذا علمنا كل هذا أدركنا التناقضات التي أوردتها مدحت باشا وأنها تضيف دليلاً آخر على ما سبق قوله وهو أنه مات مقتولاً .

والجدير بالذكر أن حادثة الانقلاب التي دبرت للسلطان عبدالعزیز مهمة جدا ليس لأنها أدت الى تغيير سلطان بل لكون ذلك أول انقلاب دبر بمساعدة الدول الأجنبية، بحيث أصبحت الدول لم تعد تكتفي بالتدخل بجواسيسها وأعوانها في تدبير الفتن الداخلية في أنحاء الدولة ، بل زادت في هذه المرة جراتها وشملت محاولة تغيير السلاطين ، والذي يشهد الانتباه أكثر ان هذه المحاولة نجحت بكل البساطة (١) وبهذه الصورة وبمساعدة رجال الدولة أو حزب الأحرار الذين كانوا يتطلعون الى مثل هذا الحدث في الوصول الى أهدافهم لفرض الدستور الذي كانوا يحلمون به منذ أواخر عهد السلطان عبدالحميد . وكان أشد السفراء سرورا هو السير هنري اليوت سفير انكلترا ، وأكثرهم غما الجنرال اغناتيف سفير روسيا الذي كان يعارض سياسة الانجليز ، وكما يقال كان صديقا للصدر محمود نديم الذي كان يعارض سياسة حزب الأحرار (٢) .

(١) أورخان محمد علي : السلطان عبدالحميد .. ص ٦٤-٦٣ .

(٢) روجي الخالدي المقدسي : الانقلاب العثماني .. (مجلة الهلال ج ٣ . ص ١٧ .

١٣٢٦هـ/١٩٠٨م) ص ١٣٣ .

وقد ظهر ذلك بوضوح عندما تمت بيعه السلطان الجديد مراد الخامس بحضور الملايين من الشعب ووردت التلغرافات الى أوروبا والى الولايات لإعلامها بتوليته ، ونادى المنادون في اسطنبول معلنين جلوسه ، فرفعت سفن الدول الأجنبية الرايات وانارت المصابيح ، ولكن السفن الروسية لم ترفع راياتها الا بعد يومين .  
وقد استاء الروس من عزل نديم باشا ، وزادهم خلع السلطان عبدالعزيز غما ، فاجاب امبراطور روسيا على تلغراف تعيين السلطان مراد بتلغراف أرسل الى سفارة الروس في اسطنبول وآخر الى ناظر خارجية الدول العثمانية أظهر فيهما تأسفه من جرأة قائد الجيش حسين عوني على خلع السلطان بقوة السلاح<sup>(١)</sup> .  
وهكذا ذهب السلطان عبدالعزيز ضحية عدم تطبيق الدستور أو المشروطة التي فرضت في عهد السلطان عبدالحميد كما سيأتي في موضعه . وقد كان هذا درسا بليغا للسلطان عبدالحميد الذي تولى السلطنة بعد مراد الخامس ، فعندما تولى السلطنة أنشأ جهازا قويا للاستخبارات استطاع أن يصارع الاستخبارات الأجنبية بكفاءة كبيرة فحفظ بلاده عدة سنوات من التدخل الأجنبي<sup>(٢)</sup> .

مما سبق رأينا التدخل السافر من الدول الأجنبية ولأول مرة في تاريخ الدولة العثمانية بتدبير خلع السلطان عبدالعزيز عن السلطنة وتعيين أخيه مراد الخامس الموافق لهواهم بدلا عنه .  
ومما يسترعي الانتباه ويشد الباحث هو سهولة تنفيذ هذا المخطط دون رقابة من الدولة نفسها وبمساعدة رجال الدولة وعلى رأسهم أخيه ولي العهد مراد

(١) مذكرات مدحت باشا : تعريب كمال بك حتاتة ، ص ١٤ .

(٢) أورخان محمد علي : السلطان عبدالحميد الثاني ، ص ٧٢ .

والذين تأثروا بالأفكار الأوربية، وحاولوا تطبيقها في الدولة، وكان رفض السلطان المتكرر لمطالبهم واصداره مجلة الأحكام العدلية جعلهم يصممون على خلعهم، لازاحته عن طريقهم، ولإدخال الدساتير الوضعية الأوربية، ونبد النظم الاسلامية في المعاملات والعبادات، فنسوا تطبيق أسلافهم لها، وأعجبوا بتطبيق الدستور المستورد، والذي قادهم فيما بعد الى العلمانية عن علم أو بدون علم كما سيأتي الحديث عنه.

## د - المشروطة الأولى والثانية :

أشرنا فيما سبق الى المؤامرة التي أنهت حكم السلطان عبدالعزيز ، وولت السلطان مراد الخامس عرش الدولة العثمانية في سنة ١٢٩٣هـ/١٨٧٦م ، ولكنه لم يدم في الحكم سوى ثلاثة شهور ، لذلك يجب أن نحلل أولا شخصية هذا السلطان قبل وبعد توليه السلطة .

لقد ظهرت ملامح شخصية مراد الخامس وميوله للغرب المسيحي منذ الزيارة التي قام بها عمه السلطان عبدالعزيز عام ١٢٨٤هـ/١٨٦٧م الى إنجلترا حيث كان يرافقه في تلك الرحلة . ففي هذه الزيارة نرى اهتماما خاصا يوجه لولي العهد مراد ، وبخاصة من قبل ولي عهد إنجلترا آنذاك الأمير ( ادوارد ) اذ نرى أن صداقة حميمة تنشأ بسرعة ، وسبب ذلك أن ولي العهد مراد الخامس كان ميالا الى الغرب و حضارته ، وقد قيل انه أصبح ماسونيا في تلك الزيارة بالحاح من ولي عهد انكلترا الماسوني الذي كان مرتبطا بالمحفل الاسكتلندي . ولكن الحقيقة أن مرادا كان ماسونيا قبل مجيئه الى انكلترا بوقت طويل ، كما كان متعلقا بأفكار الثورة الفرنسية<sup>(١)</sup> .

ولما كان المتآمرون على السلطان عبدالعزيز يعرفون أفكاره وميوله فإنهم رأوا فيه خير وسيلة لتحقيق أهدافهم<sup>(٢)</sup> .

وهؤلاء هم جماعة تركيا الفتاة ، هذه الجماعة رأت أن انقاذ الدولة لا يكون الا في نظام برلماني بالمفهوم الأوربي ، فبدأت في أواخر عهد السلطان عبدالحميد حوالي سنة ١٢٧٧هـ/١٨٦٠م في تشكيل أفرادها ، والعمل بسرية وفي الخفاء<sup>(٣)</sup> .

(١) مذكرات السلطان عبدالحميد : محمد حرب عبدالحميد . ص ٥ .

، أورخان محمد علي : السلطان عبدالحميد الثاني . ص ٧٧، ٧١، ٧٠ .

(٢) أورخان محمد علي : المرجع السابق . ص ٧٧ .

(٣) مذكرات السلطان عبدالحميد : المصدر السابق . ص ٤ .



وقد وجد أعضاء هذه الجماعة في مراد أملهم في تحقيق أهدافهم ودفعت عجلة تطور في الدولة على درب أوربا ، ذلك لأن ثقافته وكل انتماءاته فكرا وسلوكا كانت أوربية<sup>(١)</sup> ، فاتجهت تحركاتهم الى افهام مراد بأن هذه الأحوال لايمكن أن تعالج الا باصدار قانون أساسي يفهم السلطان بأن سلطته ليست مطلقة ، بل مشروطة بقيود وحدود يعينها ويقررها هذا القانون أو الدستور . وقد سمي الأتراك العثمانيون هذا الدستور باسم ( القانون الأساسي ) ، كما اصطلاحوا على تسمية ( العهد الدستوري ) بـ ( عهد المشروطة )<sup>(٢)</sup> .

ولهذا بادرت هذه الجماعة في استمالة مراد وضمه الى صفوفهم فأصبح يعقد معهم الاجتماعات السرية على تنفيذ هذه المشروطة ، فكان على صلة قوية بأعضاء جماعة تركيا الفتاة<sup>(٣)</sup> بل اعتبر عضوا رئيسيا بها .

وقيل ان الأمير عبد الحميد الثاني كان على علم بهذه الاجتماعات اذ حاول مدحت باشا وزملاؤه جره الى صفوفهم ، ولكنهم لم ينجحوا في محاولاتهم<sup>(٤)</sup> . الا أنني أشك في هذه الرواية ، وبدوري أتساءل : هل من المعقول أن يكون السلطان عبد الحميد الثاني يعرف شيئا عن هذه المؤامرة التي انتهت بالاطاحة بعمه عن الحكم ويلتزم الصمت ، ويترك هؤلاء الجماعة العمل بحرية تامة حتى تمكنوا من خلع السلطان عبدالعزيز دون حراك ، انني أشك في مثل هذا القول حيث أنه لايمكن أن يعلم عبد الحميد الثاني بهذه المؤامرة ولا يبلغ عمه السلطان ليتخذ

(١) مذكرات السلطان عبد الحميد : محمد حرب عبد الحميد . ص ٥ .

، أورخان محمد علي : السلطان عبد الحميد الثاني ... ص ٧٧ .

(٢) ساطع الحصري : البلاد العربية والدولة العثمانية ، ص ٨٤ .

(٣) مذكرات السلطان عبد الحميد : المصدر السابق ، ص ٥ .

، أورخان محمد علي : المرجع السابق ، ص ٧٧ .

(٤) أورخان محمد علي : المرجع السابق ، ص ٧٧ .

الاجراءات الكفيلة بالتخلص من هذا الحزب الفاسد ، ولكن هذا الاحتمال ضعيف جدا .

لقد كان مراد ميالا للإصلاح حسب النهج الأوربي ، ومجبا للمساواة بين أفراد رعيته ، مقتصدا في مصرفة غير مبال للسرف<sup>(١)</sup> ، صاحب انحرافات ومفاسد لا تؤهله أن يصبح سلطانا<sup>(٢)</sup> .

الا أنه في الوقت نفسه كان على اتصال بالانقلابيين قبل توليه للحكم ، وأنه كان محور اهتماماتهم ، والشخص الذي انعقدت عليه آمالهم في تنفيذ الدستور ، وذلك لأنه الشخص الذي انبهر بحضارة الغرب والثورة الفرنسية . فأراد محاذاتهم وكان على علم بتاريخ الانقلاب ، ولكن المكلفين بتنفيذ المهمة اضطروا الى تقديم موعد الانقلاب على السلطان<sup>(٣)</sup> . تم ذلك عندما أرسل السلطان عبدالعزيز قبل تنفيذ المهمة بيومين رسولا الى عوني باشا وزير الحربية - الذي هو الشخصية البارزة في تنفيذ الانقلاب لصالح جمعية ( تركيا الفتاة ) يدعوه الى السراي فتصل ببعض الأعداء ، وظن أن السلطان قد وقف على حقيقة الأمر ، فأرسل الرسل ليدعوا أركان المؤامرة ، فاجتمعوا سرا ، واتفقوا على سرعة تنفيذ المهمة لخلع السلطان<sup>(٤)</sup> ، دون أن يتم ابلاغ مراد بما استجد من أحداث<sup>(٥)</sup> .

لهذا ذهب حسين عوني باشا ليخبره بنجاح هذا الانقلاب ، وكان الوقت ليلا ، فأيقظ السلطان من نومه ، وطلب منه أن يرتدي ملابس على عجل ، فدعر

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٥٨٤ .

، علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٦٧ .

(٢) هيئة التحرير : عبد الحميد الثاني في أول شبابه قبل توليته الملك ، ( القاهرة ، مجلة الهلال ، ج ٩ ،

س ١٧ ، ١٩٠٩ م ) ص ٥١٨ .

(٣) أورخان محمد علي : السلطان عبد الحميد الثاني ... ، ص ٧٨ .

(٤) مذكرات مدحت باشا : يوسف كمال بك حتاته ، ص ١٣-١٤ .

(٥) أورخان محمد علي : المرجع السابق ، ص ٧٨ .

مراد من هذا ، وخاف أن يكون السلطان قد أنفذ حسين باشا للايقاع به والقبض عليه . فسأله ماذا تريد ؟ قال : انا طوقنا القصر ، ولا يمكن لعمك الفرار وسيعلم بعد قليل عن خلعه ، وان مراد الخامس هو وريثه الشرعي ، فلم يطمئن مراد لهذا الجواب ، فدفع اليه حسين عوني سلاحه وقال : " اذا كنت تخشى خيانة مني فخذ هذا وطير به رأسي " فافتنع مراد الخامس قليلاً ، واستعد للخروج معه حيث استقلا قارباً بانتظارهما ، فتوجهها بالقارب نحو مدرعة بناء على أمر حسين عوني ليبلغه أمراً كان نسيه .

فهناك تعاضم قلق مراد وظن أن هذه المدرعة هي سجنه الأبدي ، ولكن حسين عوني عاد وأمر البحار بالتوجه نحو مقر الجيش حينئذ اطمأن قلبه <sup>(١)</sup> . ولكنه عندما رأى تألب الجموع للبيعة كما سبق أن أشرنا اليه سابقاً حصل له وهم اضطره الى اصدار اراده سنية قاضية بابقاء النظر ، حسين عوني ، ومدحت باشا ، وخير الله افندي ، ورشدي باشا ، ثلاث ليال في السراي امثالاً لارادة السلطان الجديد مراد الخامس <sup>(٢)</sup> .

وزاد ذلك تتابع الحوادث بعد توليه السلطة ، ساعدت على زيادة ارهاق أعصابه ، اذ لم تمض أيام من جلوسه على العرش حتى نعي اليه عمه السلطان عبدالعزيز ، وسواء أكان مشتركاً في قتل عمه أم أن جماعة الانقلاب " تركيا الفتاة " هي التي قامت بذلك دون علمه فان هذه الحادثة قد هزته كثيراً <sup>(٣)</sup> ، خاصة وأن

(١) سليم سر كيس : كتاب سر مملكة ، ( طبع في مصر ، ١٨٩٥م ) ج ١ ، ص ١٣٣-١٣٤ .

اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٧٢٧ .

(٢) مذكرات مدحت باشا : يوسف كمال بك حناتة : ص ١٥ .

هيئة التحرير : السلطان عبدالحميد في أول شبابه .. ( مجلة الهلال ، ج ٩ ، ص ١٧ ، ١٩٠٩م )

ص ٥١٨ .

(٣) أورخان محمد علي : السلطان عبدالحميد الثاني ... ، ص ٧٨ .

السلطان مراد الخامس قد تعهد لعمه السلطان عبدالعزيز أن يحسن معاملته حين تسلم رسالته ، فلما بلغه خبر موته صاح بأعلى صوته " خنتني يا حسين عوني ، وقد البستموني ثوب عار لا يفني الى الأبد ، لأنني تعهدت له أن أحفظ حياته ، فياللعار". وأوقع السلطان التهمة على حسين عوني (١) .

لذلك كان كثيرا مايقول لمن حوله في أسف : " سيظن الناس أنني أنا الذي قتلته " وكانت والدته تقول له : " انظر ماذا سيكون حالنا. انظر فقد قتلوا عمك أيضا".

ويقول السفير الانجليزي ( السير هنري اليوت ) : " كان السلطان مراد رجلا وجلا وغير متزن ... يشرب الخمر كثيرا ... ولكنه في الأيام التي سبقت خلع السلطان عبدالعزيز ترك نفسه تماما للشراب ، لأنه كان في رعب كبير ، وخوف شديد من افتضاح أمر المؤامرة ، مما كان يعني أن رؤوسهم ستقطع لأمحالة . كان منكبا على الشراب ... كمن فقد رشده ، وعندما علم ( بانتحار ) السلطان عبدالعزيز ارتج من أعماقه وفقد عقله تماما " (٢) .

كأنني أرى من هذا النص اتهامها موجهها الى شخص السلطان مراد يؤكد بأنه على علم بقاتله، والحق أنه متواطئ من اللحظة الأولى مع أهل الثورة لقلب نظام الحكم على عمه ، ولكن بعد تنفيذها يبدو أنه ندم ندما شديدا لمسيرة الثوار في عملهم الشنيع الذي أقدم معهم عليه مع العلم أنه هو ولي العهد وستفول اليه السلطنة بعد وفاة عمه ، آجلا أو عاجلا .

وهنا أت القشة التي قصمت ظهر الجمل ، فهزت السلطان المريض هرااد

(١) سليم سر كيس : كتاب سر ملكة ، ص ١٣٧ .

(٢) أورخان محمد علي : السلطان عبد الحميد الثاني ... ، ص ٧٨ .

قتل رجل الانقلاب القوي حسين عوني ووزير الخارجية رشيد باشا ومعهما آخرون برصاصات أطلقها عليهم حسن الشركسي ، شقيق زوجة السلطان عبدالعزيز الثانية ( مهري ) لأخذ ثار السلطان عبدالعزيز منهما ، لذلك اضطر الجيش الى مضاعفة حراسة القصر باستقدام جنود آخرين (١) .

وعلى الرغم من إبلاغه بمضاعفة عدد الحرس ، إلا أنه لما سمع خبر قتل الشركسي المذكور لناظر الخارجية والحربية المذكورين وكان في هذه اللحظة يتناول الطعام فازداد اضطرابا وتغير لون وجهه ، فترك الطعام وقام فأغشى عليه ، وصار بعدها لا يميز بين وزير وآخر ، ومع ذلك فقد كان الصدر الأعظم رشدي باشا يجتهد مع بقية الوزراء ورجال البيت المالكي في إخفاء هذا الأمر في أوله ، وقد استدعوا الأطباء لمعالجته ، واستمر في تسيير شئون الحكم إلا أن امتناع السلطان عن حضور الاحتفالات الرسمية وتقلده السيف حسب عادة سلاطين آل عثمان ، وعدم مقابله للسفراء لتقديم أوراق اعتمادهم الرسمية لديه بقائهم في مراكزهم كالمعتاد لمدة شهرين كان موضع شك من السفراء مع ارتياب الأوضاع ، فذاع خبر مرض السلطان (٢) . في الوقت الذي كان يحاول فيه مدحت باشا إعلان الدستور الوضعي بدلا من الشرع أثناء مرض السلطان مراد ، كما كان يدرس القوانين والنظم الغربية ، ويتصل بأعوانه حتى استطاع إعداد هذا الدستور بشكل جاهر (٣) . إلا أن وطأة المرض لم تخف بل اشتدت على السلطان ، وانتشر

(١) سليم سر كيس : كتاب سر مملك . ج ١ . ص ٥٥ .

أورخان محمد علي : السلطان عبد الحميد الثاني ... ص ٧٩ .

هيئة التحرير : عبد الحميد الثاني في أول شبابه .. ( مجلة الهلال . ج ٩ . ص ١٧ . ١٩٠٩ م ) ص

٥١٩ - ٥٢٠ .

(٢) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار . ج ١ . ص ٧٢٧ .

(٣) علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية . ص ١٦٧ .

خبره في اسطنبول وخاصة حينما كان يمشي مع حرسه في بستان القصر، فرمي نفسه في حوض البستان، فأنقذوه من الغرق<sup>(١)</sup>. ولما تناقلت الصحف الأوربية خبر مرضه حينئذ أبلغ ناظر الخارجية السفراء بالحالة، وأخبرهم بلزوم خلعه، ثم استدعى الوزراء في محاولة أخيرة الدكتور (ليد روزف) النمساوي رئيس مستشفى (فيينا) الشهير في الأمراض النفسية، وطلبوا منه الكشف على السلطان وتأمل حالته الصحية، وعندما وصل هذا الطبيب لازمه عدة أيام ورأى حركاته وسكناته، واستعلم عن كيفية معيشته في أيامه الماضية، فكتب تقريراً ذكر فيه أن مرضه هذا كان مقروناً بالخطر، وقد بذل الجهد في معالجته، فأوصى باستنشاقه نسيم البحر، فصار حراسه يخرجونه في يخته إلى البوغاز يومياً، وكان المرض يزداد حتى ظهرت عليه علامات غريبة حيث كاد في أحد الأيام أن يلقي بنفسه من إحدى نوافذ القصر، فتشاور الوزراء في تنحيته، ثم عرضوا الأمر على أخيه عبدالحميد الثاني، وعليه أن يستلم مقاليد الحكم، فنصحهم بالتأني وعدم التسرع في الأمور، ولما كانت بعض الدول تلح بإحلال سلطان جديد لتابعة إصلاحات الدولة، فقد عينت لجنة من الأطباء للنظر في حالة السلطان مراد الصحية وصلاحيته لحكم البلاد، فقرروا جميعاً إصابته بداء عضال لا يرجى شفاؤه<sup>(٢)</sup>.

وبعد أن ذهبت جميع المحاولات في استشفاء السلطان لم يبق أمام رجال مدحت باشا مناص من خلعه<sup>(٣)</sup>. ولكن مدحت باشا وزملاؤه رأوا أن يأخذوا الموثيق على السلطان الجديد قبل مبايعته فقرروا أن يذهب مدحت باشا إلى

(١) مذكرات مدحت باشا: يوسف كمال بك حناته، ص ١٧.

(٢) اسماعيل سرهنك: حقائق الاخبار عن دول البحار، ج ١، ص ٧٢٧.

محمد فريد بك: تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص ٥٨٥-٥٨٦.

هيئة التحرير: السلطان عبدالحميد الثاني في أول شبابه، (مجلة الهلال، ج ٢٩، ص ١٧).

(١٩٠٩م)، ص ٥٢١.

(٣) أورخان محمد علي: السلطان عبدالحميد الثاني، ص ٨٠.

الأمير عبد الحميد الثاني ، ويستطلع عن رأيه في الاصلاح الذي كاد أن يتم تطبيقه لولا مرض السلطان مراد، من حيث الدستور وغيره حتى اذا خالفهم في ذلك عرضوا السلطنة على أخيه رشاد الذي سبق أخذ موافقته .

أما شروط هؤلاء التي عرضوها على الأمير عبد الحميد الثاني ليلتزم بها اذا تولى السلطة فهي :

- (١) ان يعلن الدستور حالا .
- (٢) أن لا يستشير في أعمال الدولة الا اعضاء الحكومة الرسميين .
- (٣) أن يعين رضا بك وكمال بك سكرتيرين خصوصيين له مع سعدا لله رئيس السكرتارية ( الباشكاتب ) .

فاجاب السلطان مطالبهم بكل رضا ، ووعد بأن يوسع النظام الدستوري أكثر مما يطلبون<sup>(١)</sup> .

فرضا بك وكمال بك كانا من الحريصين على إجراء أحكام القانون الأساسي ومن اشتغلا في تسويده وتنقيحه<sup>(٢)</sup> .

وعاد مدحت باشا بموافقة السلطان على إعلان الدستور ، فاجتمع الوزراء واستقر رأيهم في ١٠/٨/١٢٩٣هـ الموافق ٣/٨/١٨٧٦م ، على مبايعة السلطان عبد الحميد الثاني ، ثم أرسلوا بلاغا الى والده السلطان يبلغونها فيه مع الأسف الشديد ما استقر عليه رأي الوكلاء والوزراء ، فأرسلت الى الصدر الأعظم كتابا أظهرت فيه قبولها ، فاستفتوا في ذلك شيخ الاسلام خير الله أفندي<sup>(٣)</sup>

(١) هيئة التحرير : عبد الحميد الثاني في أول شبابه ( مجلة الهلال ، ج ٩ ، ص ١٧ ، ١٩٠٩م ) ص

(٢) روجي الخالدي المقدسي : الانقلاب العثماني ... ( مجلة الهلال ، ج ٩ ، ص ١٧ ، ١٩٠٩م )

(٣) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٧٢٧-٧٢٨ .

بالسؤال التالي وهو : " اذا جن إمام المسلمين جنونا مطبقا ففات المقصود من الإمامة فهل يصح حل الامامة من عهده ؟ " فافتاهم بقوله " يصح والله أعلم " (كتبه الفقير حسن خير الله) (١) . وعلى ذلك تقرر مبايعة السلطان عبدالحميد الثاني (٢) ، وحضر الى سراي ( طوب قبو ) ، ومنها الى سراي بشكطاش حيث بايعه جميع من حضر من رؤساء وأعيان الشعب ، كان ذلك في يوم ١٨/٨/١٢٩٣ هـ الموافق ١٨٧٦/٩/٧ م وتقلد السيف في مسجد أبي أيوب الأنصاري ، كما كانت تجري مراسيم آل عثمان . وأظهر للوزراء رغبته الأكيدة في الإصلاح (٣) .

وكان عبدالحميد قد قرأ نسخة القانون الأساسي ( الدستور ) وقال : " ان الدولة لا تتخلص من مشاكلها الحاضرة الا اذا عملت حكومتها به " فلما جلس على كرسي العرش جلس وهو مصمم على اعلانه كالسلطان مراد . أما مواد هذا الدستور الأساسية أو المهمة فقد كانت تقضي بمساواة عناصر الدولة واتحادها تحت العلم العثماني ، واعطاء كل فرد حريته التي يبوحها له القانون ، وملاحظة رفع قوة الدولة ، والمقارنة بين دخل الحكومة ونفقاتها . وقد كان المؤيدون لهذا الدستور ينتظرون اعلان القانون بفارغ الصبر ، أما المعارضون فقد استنكروا صدور هذا القانون قائلين : انه يمسح شخصية السلطان ويقلب الحكومة الى جمهورية لا تحكم بكتاب الله وسنة رسوله الكريم ، وكادت هذه الخلافات أن ينتج عنها ثورة في اسطنبول بين الطرفين لولا يقظة رجال الحكومة (٤) .

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية . ص ٥٨٧ .

(٢) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار . ج ١ . ص ٧٢٧-٧٢٨ .

(٣) محمد فريد بك : المصدر السابق . ص ٥٨٧ .

(٤) مذكرات مدحت باشا : يوسف كمال بك حناته . ص ٢٣ .



وعلى الرغم من أن السلطان عبدالحميد قد وعد مدحت باشا قبل جلوسه على العرش باصدار القانون (الدستور) الأساسي<sup>(١)</sup> ، فإنه بادر بتعيين سعيد بك رئيسا للكتاب وليب بك كاتبا للقصر كخطوة أولى لاحاطة نفسه بالرجال المخلصين له ، لأن رجال الانقلاب لايزالون حوله ، ثم لم يلبث أن أقال القائد العام رديف باشا وعين بدلا عنه عبدالكريم باشا<sup>(٢)</sup> .

وهؤلاء كانوا كلهم ضد اصدار القانون الأساسي ، لذلك عينهم في ديوان القصر السلطاني لتقوية مركزه مع سعيه لاستمالة الرأي العام لإبطال الدستور<sup>(٣)</sup> . تمت هذه التعيينات بارادة السلطان الشاب ، والتي أظهرت بأنه لايرضى أن يكون أسيرا أو لعبة رجال الانقلاب ، وقد ثار لهذا الصدر الأعظم رشدي باشا وقدم استقالته ، ولكن السلطان رفض استقالته ودعاه لمقابلته حيث طيب خاطره . وعندما تولى السلطان عبدالحميد السلطة كان هناك تيار قوي يطالب باعلان الدستور ، ويعتقد دعائه بأن شفاء أمراض الدولة العثمانية لا يتم الا عن هذا الطريق ، وأن اعلان هذا الدستور سيكون جوابا حاسما للدول الأجنبية التي كانت تطالب وبالبحاح باصلاح الأوضاع في الدولة العثمانية .

لذلك أصدر السلطان فرمانا بتشكيل لجنة برئاسة مدحت باشا تضم هذه اللجنة ثمانية وعشرين عضوا ، وتتألف من عشرة علماء ، وستة عشر مدنيا ، واثنين من العسكريين ، كما انها تضم أشهر الشخصيات الداعية الى اعلان الدستور مثل نامق كمال وضياء بك وممثلين عن الأقليات غير المسلمة منهم جاميح أوهانيس وأوديان أفندي ، وقد قدمت هذه اللجنة مايقارب عشرين مشروعا حول

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٧٠٣ .

(٢) أورخان محمد علي : السلطان عبدالحميد الثاني .. ص ٩٤ .

(٣) محمد فريد بك : المصدر السابق ، ص ٧٠٣ .

الدستور ، وكان دستور مدحت باشا أحدها (١) .

لهذا قال السلطان عبدالحميد في مذكراته : " ان مدحت باشا لم ير غير فوائد الحكم المشروطي في أوروبا ، ولكنه لم يدرس أسباب هذه المشروطية ولا تأثيراتها الأخرى ... وأظن أن أصول المشروطية لاتصلح لكل شعب ولكل بنية قومية . كنت أظن أنها غير مفيدة ، أما الآن فاني مقتنع بضررها " . لم يكن مدحت باشا قد درس أي قانون أساسي في أية دولة من الدول عندما اقترح على ضرورة اعلان القانون الأساسي ، ولم يكن لهم في هذا الموضوع فكر متأصل . كان أوديان افندي استاذة الفكري . وأوديان افندي هذا لم يكن في ذلك الوقت أفضل مشرع عندنا ، خاصة أنه لم يكن يعرف البلاد . وأظن أن عدم المعرفة هذه ذهبت مع مدحت باشا حتى قلعة الطائف " (٢) .

ويواصل السلطان حديثه فيقول : " في عام ١٢٩٣ هـ أعد كل من ضياء باشا وكمال بك وعابدين لانحة القانون الأساسي ، كما أعد كل من كاتب سري " سعيد باشا " لانحة ، وناظر المدارس الحربية المشير سليمان باشا لانحة أخرى ، وقدموا لي هذه اللوائح ، ولم يكن بين هؤلاء السادة توافق أفكار قط . كان كمال بك معارضا لمدحت باشا ، ومعارضاً مع أصدقائه لسعيد باشا في هذا الموضوع ، وقدم لي مايقارب عشرين عريضة ...

لكن المعارضون للقانون الأساسي من طبقة الخواص كانوا أكثر من المؤيدين كان أدهم باشا وكثير من الوزراء الآخرين وأصحاب النفوذ من رجال الدولة ضد اعطاء حرية كاملة لشعب من الشعوب دون تأن واعداد ، حتى أن وزيراً جريئاً في الحق مثل خير الدين باشا التونسي قال لي ذات مرة عندما كان في

(١) أورخان محمد علي: السلطان عبدالحميد الثاني ، ص ٩٥ .

(٢) مذكرات السلطان عبدالحميد الثاني : محمد حرب عبدالحميد ، ص ٢٩ .

، أورخان محمد علي: المرجع السابق ، ص ٩٦ .

الصدارة العظمى : " ينبغي التفكير كثيرا قبل تسليح الأجلاف بالقانون " . وهو نص تعبير خير الدين باشا (١) .

وقد جاء في التقرير الذي أرسله الماركيز سالسبوري ( Salisbury ) السفير البريطاني الى بلاده قوله : " ان هناك ضغطا شديدا من جانب المبعوثين السياسيين الأتراك ، وكذلك من جانب الصدر الأعظم ( مدحت باشا ) بشأن اصدار الدستور الذي وعد به السلطان عبدالحميد قبل جلوسه على عرش الدولة ، وكان الثوار ينظرون الى اعلانه كضمان كاف لوقف المظالم السابقة ، وأن وعود الاصلاحات التي أهملت من قبل سوف تتحقق فعلا بصدوره " (٢) .

لهذا يقول السلطان عبدالحميد : لم أكن أستطيع الوقوف أمام تيار ذلك العهد وقلت : " مادامت الأمة تريد تجربة مسؤوليتها عن مقدراتها وحكم نفسها فليكن ماتريده الأمة " واخترت من بين لوائح القوانين الأساسية لائحة مدحت باشا .

ويواصل السلطان عبدالحميد حديثه عن الدستور لبيان السبب في اختيار لائحة مدحت باشا فيقول : " كنت مجبرا في البداية على تفضيل لائحة مدحت باشا على لوائح الآخرين ، فقد كان من الضروري أن نقدم لشعب مريض أفصح بأن اسم (مدحت ) يساوي بحساب الجمل " دواء الأمة " أن نقدم له الدواء الذي طلبه ولم أكن أستطيع اسكاته بصورة أخرى " (٣) .

كانت لائحة مدحت باشا مكونة من مائة وأربعين بندا أحالها السلطان

(١) مذكرات السلطان عبدالحميد الثاني : محمد حرب عبدالحميد ، ص ٢٩-٣٠ .

(٢) F.O. : 424/37. The Marquis of Salisbury to the earl of Derby , No.: (210),1877.

(٣) مذكرات السلطان عبدالحميد الثاني : المصدر السابق ، ص ٣٠ .

بدوره الى مجلس الوزراء ( المابين ) لمناقشتها ، ثم أصدر أوامره أيضا بتشكيل مجلس النواب ( مجلس المبعوثان ) وأكد عليه تجنب ما لا يتفق أولا مع عادات وتقاليد الأمة وأن تقدم دراسة حول هذا الموضوع الى السلطان (١) .

وأرسل خطاب الى مدحت باشا يخبره فيه باختيار لانحته الدستورية ووضعها على بساط البحث بين أيدي الوكلاء لتحريرها ، وطلب منه سرية هذا الكلام حتى صدورها (٢) .

أما مجلس الوزراء أو أعضاء الدولة فبعد دراسة مسودة الدستور رأى إدخال بعض التعديلات وأحالها السلطان على ثلاثة من مستشاريه وهم الفريق سعيد باشا وسليمان باشا ، ورئيس الكتاب سعيد بك . مع اقتراحه بإدخال بند جديد على اللائحة يعطي للسلطان صلاحية نفي المشتبه به الى خارج البلاد اذا توفرت فيه دلائل الاشتباه . وقد انقسم مستشاروه الى فريقين : فريق يرى إدخال هذه المادة ، والفريق الآخر يعارضه ، وبعد تردد أصر السلطان عبد الحميد الثاني على إدخال هذه المادة الى الدستور . وقد استغل السلطان هذه المادة لتمكينه من نفي مدحت باشا (٣) .

وكان الثوار لا يرغبون في أن تكون للسلطان مميزات خاصة في هذا الدستور تميزه عن بقية الأعضاء ، لأن هذا فيه مسخ لوظيفة السلطان ، لكن المعارضين كانوا لا يريدون اللامر كزية ، ويؤيدون سلطة السلطان ويصفونها بأنها أفضل من الانسياب وترك النظام بيد الثوار ، وحتى لا ينسون بذلك السلطة الشرعية والقانونية للمسلمين وينساقون خلف العادات والأنظمة الغربية .

(١) أورخان محمد علي : السلطان عبد الحميد ... ص ٩٦ .

(٢) مذكرات مدحت باشا : يوسف كمال بك حتاته ، ص ٩٩ .

(٣) أورخان محمد علي : المرجع السابق ، ص ٩٦-٩٧ .

ولعل أغرب ما حاوله مدحت باشا هو محاولة اشراك الدول الأوروبية في مسألة الدستور ، وجعلها طرفا ضامنا بينه وبين السلطان عبدالحميد ، فقد أرسل لهذه المهمة أستاذه " أوديان أفندي " الذي كان مستشارا في وزارة الشئون الاجتماعية إلى الدول الأوروبية في مهمة خاصة.

ويتحدث أحمد صائب عن هذه المهمة فيقول : " استطاع " أوديان أفندي " لقاء وزير خارجية انكلترا اللورد " دربي " حيث ذكر له بأن القانون الأساسي الموضوع الآن في الدولة العلية سيؤمن ويحقق أمن المسيحيين ويوفر لهم حقوقهم ، وان الإدارة في الدولة العلية لا تمنع في وضع إدارة المشروطة بشكل معاهدة دولية وهي مستعدة لإعطاء جميع الضمانات التي تطلبها هذه الدول ، لذلك فلا داعي لأي قرار يتخذه المؤتمر بشأن " روملي " .

استمع اللورد " دربي " لحديث أوديان أفندي بكل اهتمام ثم ذكر له بأنه لا يستطيع اعطائه جوابا قطعيا ، ولكنه بعد أيام ذكر له بأن مسألة القانون الأساسي مسألة داخلية لا يمكن أن تتدخل فيها الحكومات الأوروبية " (١) .

ومهما يكن فقد أتى السلطان عبدالحميد الثاني إلى الحكم ، والدولة مضطربة في تلك الفترة ، فالأوضاع في البلقان تغلي ، والثورات قائمة في البوسنة والهرسك وفي الجبل الأسود وبلغاريا بتحريض من الدول الأوروبية وروسيا خاصة للمطالبة باستقلالها (٢) .

ونتيجة لذلك أصدر السلطان أوامره بسرعة إرسال الجنود إلى ولايات البلقان والصرب ، والجبل الأسود والبوسنة والهرسك لاصطاد ثوراتهم ، فانتصر العثمانيون في أغلب المواقع ، وشدد القائد العثماني عبدالكريم نادر باشا الحصار

(١) أورخان محمد علي : السلطان عبدالحميد الثاني ، ص ٩٦-٩٧ .

(٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٧٠٣ .

على الصربيين ، وهزم قاندهم الروسي الجنرال جرنایف الذي كان متقلدا قيادة الجيوش الصربية التي تقدمت لحرب الدولة العثمانية وذلك بايعاز من روسيا التي كانت تسعى في اثاره الطوائف المسيحية على الدولة كما هي عاداتها وعادة بعض الدول الأوروبية الأخرى .

وانتصر العثمانيون على جيوش الصرب بقيادة لاشانين ، وفتحت نيشواز ، وتقدمت جنود الدولة الى بلغراد عاصمة الصرب ، فانهمز جموع الصربيين . وقد أظهرت هذه الانتصارات العثمانية خوف الأمير ميلان أمير الصرب فطلب في ١٢٩٣/٨/٢ هـ الموافق ١٨٧٦م من قناصل الدول الأوروبية إيقاف الحرب ، والتوسط في الصلح بين الطرفين الصرب والدولة العثمانية ، وبناء على ذلك تدخلت الدول وطلبت من الدولة هدنة لمدة شهر لوضع شروط الصلح (١) . ووافق السلطان عبدالحميد الثاني على عقد هذه الهدنة بشرط منع ارسال أسلحة أو ذخائر أو قوات عسكرية الى ثوار البونسة والهرسك والصرب والجبل الأسود في أثناء الهدنة ، الا أن الدول رفضت شرط السلطان ، وتدخلت روسيا بمفردها ، وأرسلت في اليوم الخامس من أكتوبر سنة ١٨٧٦م الموافق لسنة ١٢٩٣ هـ انذارا الى السلطان العثماني بضرورة عقد هدنة بدون قيد أو شرط من جانب السلطان ، وأن تمنح الدولة العثمانية استقلالا اداريا لبعض الولايات البلقانية وأن تضمن الدول الأوروبية حقوق سكانها المسيحيين . فوافق السلطان على مضمض أمام تهديد الروس على عقد هدنة لمدة شهرين (٢) .

وكان الباعث على قبول السلطان عبد الحميد لهذين الشرطين هو رغبته في كسب الوقت لاستكمال استعداداته الحربية ، وحتى تصل اليه الامدادات

(١) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٧٢٨-٧٢٩ .

(٢) عبدالعزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ، ج ٢ ، ص ١٠٦٧ .

العسكرية التي طلبها من الولايات .

إلا أن بريطانيا حاولت تخفيف حدة الأزمة خشية قيام حرب بين الدولتين لأن روسيا كانت مصممة على حرب الدولة العثمانية لتحقيق أطماعها التوسعية في الدولة تحت شعار الانتصار للشعوب المسيحية في الولايات البلقانية (١) .

ولخوف بريطانيا من انفراد روسيا بالدولة العثمانية، وتحقيق أطماعها التوسعية وابتلاع الدولة فقد أوعزت إلى سفيرها في روسيا بمقابلة القيصر في روسيا لمعرفة النية الحقيقية تجاه هذه المسألة التي تنوي روسيا السير فيها. وكان جواب القيصر واضحا حيث قال : " ان على الدول الكبرى أن تعقد على الفور مؤتمرا لبحث المسألة الشرقية والقضية البلقانية ، وإذا لم تقدم الدول الكبرى على هذه الخطوة فإن روسيا ستضطر عندئذ إلى انجاز هذه المهمة وحدها " (٢) .

بعد هذه المقابلة أخذت إنجلترا على عاتقها مهمة دعوة الدول الكبرى إلى مؤتمر في اسطنبول ، تشارك فيه الدولة العثمانية لبحث هذه المشكلة .

ووافقت الدول على هذا الاقتراح ، إلا أن روسيا أضافت مطلباً جديداً وهو وجوب عدم اكتفاء الدول بعود الدولة بالاصلاحات ، بل يجب أن يكون هناك ضمان قوي ، ولا يمكن حصول هذا الضمان إلا بوجود وحدات عسكرية من هذه الدول داخل الدولة العثمانية لمراقبة مدى تطبيق هذه الاصلاحات .

ولكن هذا الشرط اعترضت عليه إنكلترا قائلة ليس هناك مبرر لمثل هذا الضمان إذ يكفي أن تعد الدولة باجراء الاصلاحات (٣) .

وتقرر عقد مؤتمر اسطنبول لاتخاذ التدابير اللازمة لتسكين التحركات في

(١) عبدالعزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ، ج ٢ ، ص ١٠٦٧ .

محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٧٠٣-٧٠٤ .

(٢) أورخان محمد علي : السلطان عبدالحميد الثاني... ، ص ١٠٦-١٠٧ .

(٣) أورخان محمد علي : المرجع السابق ، ص ١٠٧ .

البلاد واصلاحها ، وكان المؤتمر يضم أحد عشر مندوبا : اثنين من بريطانيا وهما سفيرها السير هنري اليوت ( Elliot ) واللورد سالسبوري ، واثنين من كل من فرنسا وايطاليا والنمسا وواحد من هنغاريا ، ومن روسيا واحد هو اغناتيف ، وواحد من ألمانيا ، واثنان من جانب الدولة العثمانية وهما صفوت باشا ، وأدهم باشا<sup>(١)</sup> . فعقد المؤتمر جلسته الأولى بتاريخ ٦ من ذي الحجة عام ١٢٩٣ هـ الموافق ٢٣ من ديسمبر سنة ١٨٧٦م للنظر في الاصلاحات الواجب ادخالها لتحسين أحوال المسيحيين في الدولة العثمانية والتي كانت أوربا تطالب بها منذ فترة طويلة<sup>(٢)</sup> . عقدت هذه الجلسة الأولى من المؤتمر في اليوم الذي دوت فيه أصوات المدافع ايذانا باعلان القانون الأساسي . فقام صفوت باشا مندوب الدولة في المؤتمر وقال : " أيها السادة ان أصوات المدافع التي تسمعونها هي دلالة على اعلان القانون الأساسي من جلاله سلطاننا الأعظم وهذا القانون متكفل بالحقوق والحرية المعترف بها لجميع رعايا الدولة العثمانية بلا استثناء ، وبسبب هذه الحادثة فاعمال المؤتمر في ظني تكون لافائدة منها"<sup>(٣)</sup> .

وقد علق الجنرال اغناتيف بقوله لأعضاء المؤتمر : " ان السلطان يصدر الارادات تلو الأخرى ، ولكنها تبقى حبرا على ورق ، وسيكون الدستور غير نافذ المفعول كغيره من اللوائح والقوانين الاصلاحية في الدولة العثمانية"<sup>(٤)</sup> . وقد واصل المؤتمر أعماله باجتماع ممثلي الدول الأوربية في السفارة الروسية دون اشراك ممثلي الدولة العثمانية اللذين انسحبا حين صدور الدستور .

- 
- (١) روجي الخالدي المقدسي : الانقلاب العثماني ( مجلة الهلال . ج ٣ . ص ١٧ . ١٩٠٨ ) ص ١٣٥ .
  - (٢) يوسف آصاف : تاريخ سلاطين آل عثمان . ج ٢ . ص ١٥٩ - ١٦١ .
  - (٣) روجي الخالدي المقدسي : المصدر السابق . ص ٧٣٥ .
  - (٤) روجي الخالدي المقدسي : المصدر السابق . ص ٧٣٥ .
  - (٤) مذكرات مدحت باشا : يوسف كمال بك حتاتة . ص ٢٧ .



واستمر هذا الاجتماع حوالي عشرة أيام<sup>(١)</sup> عقد خلالها تسع جلسات والباب العالي ينتظر بقلق نتائج هذا المؤتمر واخيرا قدمت هذه الدول خلاصة مباحثها<sup>(٢)</sup> حول تسوية لمشكلات الولايات البلقانية على الشكل التالي :

- (١) يحتفظ الصرب بوضعه قبل الحرب .
- (٢) منح الجبل الأسود بعض الأراضي من الهرسك ومن ألبانيا .
- (٣) منح البوسنة والهرسك استقلالاً ادارياً وأن يعين الباب العالي لهما حاكماً مسيحياً لمدة خمس سنوات .
- (٤) منح الاستقلال الداخلي لبلاد البلغار .
- (٥) تشكيل جيش مختلط مسلح من المسلمين والمسيحيين لحفظ أمن هذه البلدان .
- (٦) ان تعدد اللغات الرسمية يعتبر لغة بجانب اللغة التركية .
- (٧) حرية انتخاب مشايخ القرى والقضاة والعسكريين وغير ذلك في اقاليم فلبه ومقدونيا العليا المجاورة للبلاد .

أما الشروط المؤقتة فهي :

- (١) تكوين لجنة مراقبة دولية من ست دول أوروبية تقوم بمراقبة الاصلاحات لمدة سنة كاملة .
- (٢) وأن تكون من ضمن هذه القوات قوات بلجيكية قوامها خمسة آلاف جندي تتحمل مصاريفها الدولة<sup>(٣)</sup> .

---

(١) وقيل عشرين يوماً .

- اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٧٣١ .

، مذكرات مدحت باشا : يوسف كمال بك حتاته ، ص ٢٧ .

(٢) أورخان محمد علي : السلطان عبدالحميد الثاني ... ص ١٠٨ .

(٣) اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ص ٧٣١ .

(٣) تنتهي هذه الشروط المؤقتة بتنفيذ الاصلاحات المعلنة .

وفي أثناء هذه المباحثات حدث ما كان منتظرا اذ قام السلطان عبدالحميد بتقديم ختم الصدارة الى مدحت باشا الذي كثف جهوده منذ عدة أشهر حول اصدار القانون الأساسي ( الدستور أو المشروعية ) وقطع فيه مراحل حتى وصل الى مراحلها الأخيرة اذ تم اعلانه في يوم ٦ من ذي الحجة سنة ١٢٩٣ هـ الموافق ٢٣ من ديسمبر سنة ١٨٧٦ م<sup>(١)</sup> .

ولنتوقف قليلا عن الحديث في الدستور لمناقشة مواد المؤتمر الذي قرر وزراؤه ابلاغ مواده للسلطان عبدالحميد الثاني الذي قال موضحا رؤيته للموقف :  
لقد أرسلوا انذارا الى دولتنا ، فاما ننفذ ما قالوه بالحرف الواحد واما يدخلون الحرب معنا بالتعاون مع روسيا ضدنا " (٢) .

وقد أثارت هذه الطلبات الغريبة الاحساس والحماس الوطني لدى العثمانيين الذين تهيؤوا جميعا لرفضها لأن أوربا لا يمكن أن تحرمهم من ثمرات انتصاراتهم وفتوحاتهم ، وكيف تعاملهم كمغلوبين على أمرهم والأمر خلاف ذلك<sup>(٣)</sup> .

لهذا اعترض الباب العالي على بعض فقرات هذه القرارات المجحفة ولاسيما فقرة الولاية المسيحية ولجنة المراقبة ، وأرسل السلطان عبدالحميد لمناقشة هذا الشأن سعيد باشا سرا الى مندوب انكلترا اللورد سالسبوري قبل مغادرته اسطنبول حيث استطاع حذف اقتراح الجنود البلجيكين ، كما تم الاتفاق على تعديل فقرة الولاية المسيحية ، وجعلت موافقة الدول على اختيارهم مرة واحدة فقط<sup>(٤)</sup> .

(١) أورخان محمد علي : السلطان عبدالحميد الثاني .. ص ١٠٩ .

(٢) مذكرات السلطان عبدالحميد الثاني : محمد حرب عبدالحميد ، ص ٤١ .

(٣) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٧٣١ .

(٤) أورخان محمد علي : المرجع السابق ، ص ١١٢ .

ولكن مدحت باشا قال : ان الانجليز والفرنسيين سيقومون معنا مؤيدون  
حربنا ضد روسيا ودول البلقان .

ويقول السلطان عبد الحميد : واذا بي في نفس الوقت أتلقى عن طريق  
موظف خاص من السفارة الانجليزية رسالة من سالسبوري وزير الخارجية الانجليزية  
يقول لي فيها بصراحة : انه في حالة قبولنا الحرب ضد روسيا فانهم لا يستطيعون  
تقديم أي عون لنا <sup>(١)</sup> .

ولكن مدحت باشا وأنصاره لم يكونوا في مستوى من يدرك الخطر  
الكبير الذي يجابه الدولة العثمانية ، واجو السياسي المتهب الحالي الذي كان يحتم  
التصرف ببعض المرونة <sup>(٢)</sup> وخاصة حين نرى أن انكلترا التي دائما تساند الدولة  
العثمانية نجدها في هذه المرة تتخلى عنها في أحلك الأوقات وأقساها .

لكن جواب مدحت باشا الصدر الأعظم وأنصاره كان الرفض لكل  
الاقتراحات المقدمة من الدول ، دون تقديم البديل ، وكانت حججهم في ذلك أنه  
لايسعهم قبول هذه الشروط لأن ذلك خارج صلاحيتهم ، وأن مجلس الشعب  
الذي سيجتمع ( بعد أن تم انتخابه ) هو الذي يملك صلاحية قبول مثل هذه  
الاقتراحات ذلك لأن الشعب أصبح الآن هو مصدر السلطات <sup>(٣)</sup> .

هذا اعترض السلطان عبد الحميد الثاني على قرار مدحت باشا الصدر  
الأعظم ووزرائه الذي قرر فيه رفض اقتراح الدول الكبرى . وهذا يعني الحرب .  
ولعدم تروى مدحت باشا في هذا القرار ، فقد استدعى السلطان مدحت  
باشا الى القصر السلطاني في عجل لبحث هذه الأمور وطلب منه عقد مجلس عام  
من كبار رجال الدولة قبل اتخاذ أي اجراء بابلاغ الدول الكبرى بقرار موبوء مثل

(١) مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني : محمد حرب عبد الحميد . ص ٤١ .

(٢) أورخان محمد علي : السلطان عبد الحميد الثاني . ص ١١٢-١١٣ .

(٣) أورخان محمد علي : المرجع السابق . ص ١١٣ .

هذا القرار ومن الباب العالي " مجلس الوزراء " (١) " فما كان من مدحت باشا (الصدر الأعظم) إلا الانصياع لأمر السلطان ، وعقد مجلسا عاليا مؤلفا من الوزراء ورجال الدولة والمشيرين وأعيان المسلمين والمسيحيين ، وعرض عليهم لائحة المؤتمر . وتلا عليهم مطاب الدول الأوربية ، وأن ردها يؤدي الى الحرب ، فتشاوروا وأبدى كل منهم رأيه ، فقال رؤوف بك رفعت باشا ناظر خارجية سابق: ان الحرب كداء الحمى يمكن أن نتخلص منه ، ولكن هذه الشروط كداء السل عاقبته القبر لا محالة، فلنلبس الصوف ، ونوقد الشمع ، ونحارب العدو . وقال آخر في خطبة طويلة : نختار الموت على الالهانة . وقال بطريق الأرمن الكاثوليك : يجب رفض اقتراحات المؤتمر ، وأخيرا وافق المقررون برفض مقترحات المؤتمر .

ويظهر من هذا اتفاق وجهة نظر المسلمين والمسيحيين واليهود في المجلس واتحادهم على محبة الوطن والغيرة على منافعهم ، وكان أشدهم حماسا الروم والأرمن من الكاثوليك حتى أن الروم عزموا على تشكيل فرقة متطوعة لمحاربة الصرب مع الجنود العثمانيين لأن استقلال الأمم البلقانية من الصرب والجبل الأسود والبلغار مضر بمصالح الروم لخروجهم عن الكنيسة الأرثوذكسية التي هي تحت رئاسة بطريق الروم في اسطنبول ورفضهم استعمال اللغة والآداب اليونانية (٢) .

ويظهر من اتفاق وجهة نظر المسلمين والمسيحيين قدر خطر التدخل الأجنبي وماتدعيه الأوساط الأوربية من مفتريات في حق الدولة العثمانية المسلمة يدحضها هذا الموقف من رعايا الدولة .

ولكن السلطان عبد الحميد يعلق على هذا الاجتماع بأن مدحت باشا لم يهمل الاستعداد لاتخاذ قرار يريده هو ، فأخذ الكلمة الأولى بعده الصدر الأعظم

(١) مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني : محمد حرب عبد الحميد ، ص ٤١-٤٢ .  
(٢) روجي الخالدي المقدسي : الانقلاب العثماني ... (مجلة الهلال ، ج ٣ ، ص ١٧ ، ١٩٠٨ م) ، ص

السابق محمد رشدي رفيق دربه في عملية خلع السلطان عبدالعزيز حيث قال :  
ليس لأرباب الشرق الا طريق واحد وأنا أؤيد الرفض القطعي لاقتراحات هذا  
المؤتمر " قالها وخرج ، فصدر كما أراده مدحت باشا (١) .

وقد انتهت مناقشاتهم بالصيغة التالية وهي :

" ان القانون الأساسي قد قيد حركتنا ، فاذا لم تجر الانتخابات ويجتمع  
المجلسان (٢) فاننا لانستطيع البحث في هذا الموضوع " .

وبناء على قرار المجلس العالي أجاب السلطان في ٢ كانون سنة ١٨٧٧م  
الموافقة لسنة ١٢٩٤ هـ رفض شروط الدول ، وانفض المؤتمر وغادر مندوبو  
الدول وقناصلها اسطنبول .

ويعتبر هذا الموقف اشارة من الدول الى قطع علاقاتها مع الدولة العثمانية  
الدولية والودية (٣) . كما أن هذا يعني جعل الدولة في عزلة تامة من بقية دول العالم  
مع احتمال حرب ضروس مع روسيا وحليفاتها في البلقان .

وأمام هذا الخطر المحدق دعا السلطان وزراءه الى الاجتماع في مساء اليوم  
نفسه ، وطلب منهم أثناء الاجتماع اعطاءه تقريراً كافياً عن الوضع الحالي  
العسكري والمالي في الدولة، وقد جاءت اجابات الأعضاء متناقضة (٤) فقائد الجيش  
يقول : ان لديه مائتي ألف جندي تحت السلاح جاهزين لأي غزو محتمل يأتي من

(١) مذكرات السلطان عبدالحميد الثاني : محمد حرب عبدالحميد ، ص ٤٢ .

(٢) يعني ذلك مجلس النواب ومجلس الأعيان .

(٣) يوسف أصاف : تاريخ سلاطين آل عثمان ، ج ٢ ، ص ١٦١ .

روحي الخالدي المقدسي : الانقلاب العثماني .. (مجلة الهلال ، ج ٣ ، ص ١٧ ، ص ١٩٠٨م)  
ص ١٣٦ .

(٤) مذكرات السلطان عبدالحميد : المصدر السابق ، ص ٤٢ .

، أورخان محمد علي : السلطان عبدالحميد الثاني ، ص ١١٤ .

جانب العدو ، وفي الوقت نفسه تلقى السلطان برقية من الغازي أحمد مختار باشا قائد جيش "الروملي" يفيدته بأن لديه وتحت يده ثلاثين ألف جندي وأنه لا يستطيع بقوة صغيرة مواجهة قوات العدو التي تبلغ مئات الألوف بناء على طلب السلطان.

لذلك استدعى السلطان الصدر الأعظم مدحت باشا وقائد الجيش على باشا الى مجلسه بالقصر وأطلعهما على البرقية ، فتهرب الصدر الأعظم من الموقف بأنه كان لا يعرف استعدادات الجيش ، وارتج على باشا قائد الجيش ، وعرف السلطان أنه من الجنون والمخاطرة دخول الحرب مجازفة دون تخطيط<sup>(١)</sup>.

ان هذه الحادثة لاشك في أنها تنم عن مفاخرة دبرها مدحت باشا وأعوانه لاقحام الدولة في الحرب دون التأكد من قوتها ، واستعداد جيشها قتاليا وماليا ومعنويا ، مما يدل على أنه عميل للانجليز ماسوني لا يريد للاسلام عزرة ونصرا ، والا تريت في اصدار حكمه وضحي ببعض الشروط لتهدنة الأحوال ، لذلك كان اقدامه على هذا العمل ينافي ميوله للاصلاح كما يدعي .

وعلى أية حال فحين رفضت الدولة شروط الدول الأوروبية جعل الأسير الروسي غورشاكوف يكتب الى سفراء روسيا لدى دول أوروبا وذلك في ٣١ من يناير سنة ١٨٧٧م الموافقة لسنة ١٢٩٤هـ يطلب رأي تلك الدول في رفض الدولة العثمانية لقرارات مؤتمر اسطنبول من أجل الخروج بموقف موحد لهذه الدول ازاء الدولة العثمانية<sup>(٢)</sup> وطلب منهم أيضا التدخل في سرعة اجراء الاصلاحات في ممالك الدولة العثمانية منطقة النزاع ، والا اضطر القيصر وحده الى اتخاذ الاجراءات الكفيلة بذلك<sup>(٣)</sup>.

وقد رد عليه صفوت باشا ناظر خارجية الدولة العثمانية برسالة رسائل

(١) مذكرات السلطان عبدالحميد : محمد حرب عبدالحميد . ص ٤٢ .

(٢) اسماعيل سرهنك : حقائق الاحبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٧٣٢ .

(٣) روجي الخالدي المقدسي : الانقلاب العثماني .. (مجلة الهلال ، ج ٣ ، ص ١٧ ، ١٩٠٨) ص ١٣٧ .

مماثلة الى سفراء الدول الأوروبية ، موضحا فيها موقف الدولة العثمانية من هذه الشروط ، وكذلك عدم مشروعية انعقاد المؤتمر في اسطنبول لعدة جلسات دون حضور مندوب الدولة العثمانية تلك الاجتماعات ، حتى كأنه لم يعقد بطريقة رسمية الا لعرض أمور قد اتفق عليها مسبقا من قبل هذه الدول والتصديق عليها في اسطنبول فقط ، وقال : ان الدولة لايمكنها أن تقبل بمثل هذه الشروط أصلا لأنها تحط من قدرها . فكان موقف الدول الأوروبية هو تجميد جواب الروس والدولة العثمانية على السواء (١) .

أما السلطان عبدالحميد الثاني فقدحاول الوقوف بصلافة أمام جر الدولة العثمانية الى الحرب اذ كان يعلم علم اليقين أن الأوضاع الخارجية والداخلية للدولة لاتسمح لها أبدا بالحرب مع روسيا القيصرية وكان يشاركه في هذاالرأي سعيد باشا ، لكن مدحت باشا خلق حوالية جوا معينا يجعل من يعارض الحرب متقاعسا ويعده خاننا ، وقدوجه تهديدا غير مباشر الى السلطان عبدالحميد ، وذلك عندما اتهم سعيد باشا بالخيانة وسقوط الهمة لمعارضته للحرب ، ولم يكتف مدحت باشا بهذا بل قام بتحريض طلبة المدارس الدينية للقيام بمظاهرات صاخبة لتأييد الحرب باسم الجهاد .

وكانت سياسة مدحت باشا وأنصاره في مثل هذه الظروف القاسية متجاهلة القدرةالمالية والبشرية للبلاد وقدبرروا مواقفهم بقولهم : ان العبرة لاتكون في القوةالعسكرية ولا بالاستعدادات ، فكما جننا الى الأناضول ونحن أربعمانه فارس فاننا مستعدون أن نحارب الى أن يصل عددناالى أربعمانه أيضا. ان هذا الكلام في الواقع يفتقر الى الشعور بالمسئولية أمام هذا الوضع الخطير الذي قد يجر الدولة

(١) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٧٣٢ .

الى الدمار<sup>(١)</sup> .

لكن الشعب متعلق بمدحت وينتظر منه المعجزات ، وابعاده سيكون خطأ من الدولة ، ولا يمكن احراز أي نصر بتجاهل عدد جنوده واستعداداته ، بل يمكن عن طريقه تأكيد الهزيمة<sup>(٢)</sup> .

وخروجا من هذا المأزق فقد صالح السلطان عبدالحميد دولة الصرب لمعالجة الموقف على حساب الدولة العثمانية ، ولضعف موقفه ، بشروط أهمها : خروج الجند العثماني من الصرب ، وأن لاتبني الصرب قلاعاً جديدة ، وان يرفع العلم العثماني الى جانب العلم الصربي ولم تعقد المصالحة مع أهل الجبل الأسود لطلبهم أن تنازل لهم الدولة عن قطعة من أراضيها<sup>(٣)</sup> .

فقرر السلطان عبدالحميد الثاني أن يقطعهم أرضاً من الأراضي الواقعة بجهة ( سوترينه ) ولكن دولة النمسا عارضت اعطاءهم تلك المنطقة الزراعية ، وأخيراً وضعت هذه المسألة على بساط البحث في مجلس الوكلاء<sup>(٤)</sup> .

وقال مدحت باشا في هذا الصدد انه بعث ( اوديان افندي ) مستشاره الى إنجلترا لاستطلاع وجهة نظر رجال السياسة في باريس ولندن ، فالتقى باللورد (بيكونسفيلد) رئيس الوزارة واللورد دربي ( ناظر الخارجية في مقابلة خاصة ، وكتب من هناك برقية قال فيها : " انهم متفقون على تسكين حدة روسيا لإخراج الدولة العثمانية من هذا المأزق بلا خطر ، وأرسل برقية أخرى قال فيها : ان الانجليز والفرنسيين يقولون بوجود مصالحة الصرب والجبل الأسود والموافقة على بعض مطالب البلغارين ويجذبون الأحكام الدستورية ، ولكنهم يشيرون الى

(١) أورخان محمد علي : السلطان عبدالحميد الثاني ، ص ١١٥-١١٦ .

(٢) مذكرات السلطان عبدالحميد : محمد حرب عبدالحميد ، ص ٤٢ .

(٣) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٧٣٢ .

(٤) مذكرات السلطان عبدالحميد : المصدر السابق ، ص ٤٢ .



الاسراع بانفاذها (١) .

معنى ذلك أن مدحت باشا عاد الى سياسة السلطان عبدالحميد الثاني ولكن ذلك تم بعد مشاورة الانجليز للتخلص من غلطاته الجسيمة .

انا نرى هنا أن هذا العميل الانجليزي يلجأ الى أسياده ليلقنوه الحل الذي غاب عنه ، وقد سبق للسلطان أن طلب منه عدم التسرع في دراسة شروط الدول السابقة ، ولكنهم أكدوا عليه سرعة تطبيق الدستور .

ويتضح من ذلك أنه يعمل لحساب أوروبا مما جعله يرفض هذه الشروط ليقود الدولة لحالة الحرب لشيء في نفسه .

وقد أخذ السلطان يفكر جدياً في عزل مدحت باشا بعد هذه الأعمال ، ولكنه كان ينتظر الفرصة لتثبيت سلطته وهيمنته على الدولة لتخليص نفسه من كونه ألعوبة بين مدحت باشا وأعدائه ودعوى عدم صلاحيته (٢) .

وهذا التقرير من اليوت ( Elliot ) يؤكد أن مدحت باشا كان على اتصال بالسفارة البريطانية في اسطنبول فقد أكد لسانديسون ( Sandison ) بتقرير موثق أقر فيه مدحت باشا بأن السلطان عبدالحميد الثاني قد أعطى موافقته على الاصلاحات المختلفة. لذلك أملى عليه سانديسون تعليمات أساسية وعد مدحت بتنفيذها بنفسه . وقد كرر مدحت باشا ما كان ينوي فعله مثلما ذكر لسانديسون ( Sandison ) تماماً . فقد قال لي مدحت باشا بالرغم من أن المسيحيين قد يشغلون مناصب مثل نائب الحكم أو المحافظة في الولايات الا أنه قرر في نفسه أن يشغلوا مناصب أعلى مقاما .

أما عن قانون الولايات الحالي فقد قال بالغائه ليحل محله قانون آخر يعطى

(١) مذكرات مدحت باشا : يوسف كمال بك حتاته ، ص ٢٩ .

(٢) أورخان محمد علي : السلطان عبدالحميد الثاني ، ص ١٢٠ .

لناس فرصة حقيقية للاشتراك في ادارة المقاطعات أكثر مما سبق . وأن يتم انتخاب أعضاء مجالس المقاطعات عن طريق السكان الذين لهم حق الانتخاب ، وبالنسبة لحق الامتلاك فسوف يكون المسيحيون على قدم المساواة مع المسلمين وسوف يلغى النظام القديم .

وعن المحاكم الشرعية فقد قال عنها : ان صفة المحاكم الشرعية سوف تقتصر على القضايا المتعلقة بها .

أما القضايا الأخرى فسوف تعرض على المحاكم المدنية . وهذه النقطة تعتبر في غاية الأهمية بالنسبة للمسلمين لأن المحاكم الشرعية أصبحت لاتقبل أدلة المسيحيين . لذلك فان المسيحيين يأملون في تغيير هذه الأوضاع <sup>(١)</sup> .

واننا لنلمس العلمانية من خلال هذه الوثيقة في تصريحات مدحت باشا التي فتحت المجال للغزو الفكري الأوربي الذي تشرب به مدحت وأنصاره . وأخذوا في تطبيقه من خلال الدستور الذي قدمه الى السلطان عبدالحميد الثاني . بل لقد ذهب مدحت الى ما هو أكثر من ذلك ، فقد وعد الانجليز بتطبيقه ، وأعطاهم فيه بعض البنود التي تضمن لهم الحرية في كثير من التدخل في أمور البلاد ، وأصبح هو نفسه العوبة في يد الانجليز يوجهونه لتدمير الأمة الاسلامية لأنه هو وأنصاره قد وصلوا الى ادارة دفة الدولة ، فظن أنه سيبقى طول الدهر والحق أنه وصل الى ماتريد أوربا عن طريق تطبيق الدستور الذي يستمد أنظمته من الحياة الأوربية .

ولهذا ظل مدحت باشا يعمل على طلب اجتماع مجلس المبعوثين ويجتهد في تأليفه من الأحرار والمابين <sup>(٢)</sup> ، حتى ضاق صدره لمحاولته ، كيف لا يحاول ، وهو قد

(١) F.O.: 424/39.Sir H.Elliot to the Earl at Derby, No.572.20-11-1875.

(٢) رجال القصر السلطاني .

قطع على نفسه تنفيذ أوامر بريطانيا في تطبيق الدستور وأعطاهم حقوقاً تم عن ماسونيته والسلطان يحاول تأخيرها لعزله عن الصدارة . فكتب الى السلطان كتاباً هذا نصه : " لم يكن غرضنا من اعلان القانون الأساسي الا قطع دابر الاستبداد وتأمين جميع الناس على حريتهم وحقوقهم حتى تنهض البلاد الى معارج الارتقاء<sup>(١)</sup> واني لفي غاية الاحترام لشخص جلالكم ، لكن بالنظر لأحكام الشرع يجب على أن لا أطيع أوامركم اذا لم تكن موافقة لمنافع الأمة .. " .. ياللعجب فالسلطان سياسته معروفة وهو حكمه بالشرع ليس له مطلق الحرية ولا مطلق التصرف بأموال الناس وحقوقهم الا حسب ما تمليه الشريعة السمحاء<sup>(٢)</sup> .

فغضب السلطان من هذه الجرأة وعزل مدحت باشا ونفاه الى ايطاليا<sup>(٣)</sup> . وعين أدهم باشا مكانه في الصدارة ، وكانت صدارته أقل من شهرين حيث عزل في ١/١/١٢٩٤ هـ الموافق ٥ فبراير ١٨٧٧ م قبل أن يرى الهيئة البرلمانية التي حاول فرضها في البلاد العثمانية<sup>(٤)</sup> .

وتشير هذه الوثيقة البريطانية الى أن اقالة مدحت باشا الصدر الأعظم من الوزارة كانت ظاهرة جديدة في سياسة السلطان عبدالحميد الثاني لأنه الشخص الوحيد الذي يعتمد عليه ، والذي ينظر اليه عامة الشعب على أنه قادر على حل مشاكل الدولة ، وكذلك فإن أي مشروع للإصلاح يرفضه معناه لن يأخذ ثقة الشعب وسوف ينتج عنه عدم الرضا<sup>(٥)</sup> .

وهنا يقول السلطان عبدالحميد الثاني مانصه : " واني لو ائق أنه لو كان

(١) يوسف آصاف : تاريخ سلاطين آل عثمان ن ج ٢ ، ص ١٦١ .

(٢) روجي الخالدي المقدسي : الانقلاب العثماني ، ( مجلة الهلال ، ج ٣ ، س ١٧ ، ١٩٠٨ ) ص ١٣٧

(٣) يوسف آصاف : المصدر السابق ، ص ١٦١ .

(٤) محمد فريدبك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٥٩٣ .

(٥) F.O.424/39 Sir H. Elliot to the Earl at Derby, No.:572.20-11-1875.

مدحت باشا صدرا أعظم حكيمًا ومحنكا لكان ولاشك قد استمر في الصدارة حتى ختام الحرب الروسية ، وجدته ينصب من نفسه ومنذ اليوم الأول أمرا علي ووصيا ، وكان في معاملته بعيدا عن المشروطة وأقرب الى الاستبداد" (١) .

ومما عجل عزله أنه كان يريد تنفيذ مايريده في الحال ، مع ما كان يعلمه السلطان من أن كمال بك وضياء بك ورشدي بك وآخرين من رفاقهم يجتمعون كل مساء في قصر مدحت باشا يشربون الخمر . وذات مرة قال مدحت باشا : " ليس من الأسرة المالكة العثمانية خير يرجى ، ولم يبق الا الاتجاه نحو الجمهورية ، ترى كيف يمكن هذا ؟ ان عدة أشخاص مثلكم يفهمون المسألة الآتية : يوجد في العالم حتى الآن مايسمى بآل عثمان . ماذا يحدث لو ظهر مايسمى بآل مدحت ؟ " .

ويستمر السلطان في الحديث حول مدحت باشا حيث يقول " ... كانت المجلّزا دابة على تسيير الفتن عن طريق الماسونية . وكان مدحت باشا ماسونيا ، لم يكتف باثارة ما أثار من مشاكل ، فهو من ناحية يريد خلق أزمة في الرأي ، ومن ناحية أخرى يريد الزج بالبلاد في أتون الحرب . وقد حاول سن بعض الأعمال التي لايتصورها العقل مثل تعيين ولاية من الأقلية في ولايات الأغلبية فيها مسلمون ، وقبول طلبة من الأروام في المدرسة الحربية التي هي عماد الجيش . أعمال مثل هذه يمكن أن تؤدي الى تفويض الدولة من أساسها لذلك رفض السلطان التوقيع على مثل هذه القرارات (٢) .

وهذا فعلا ما حدث ، فقد وعد مدحت سانديسون ( Sandison ) بأن المسيحيين سيشغلون مناصب عليا في الدولة ، وسيعين الولاية لبعض المناطق من الأقليات النصرانية ، وهذا ماتنبا به السلطان عبد الحميد وقطع دابره (٣) .

(١) F.O.: 424/39, Sir H. Elliot to The Earl of Derby, No.: 572,20-11-1875.

(٢) مذكرات السلطان عبد الحميد : محمد حرب عبد الحميد ، ص ٤٣ - ٤٤ .

(٣) Op.cit.

وقد تأثرت الدول الأوروبية وحدث فيها رد فعل فقامت الدنيا وقعدت وخاصة في إنجلترا . وكتبت الصحف هناك بأنه لا يمكن توقع شيء من الإصلاح في الدولة العثمانية على الاطلاق لاقالة مدحت باشا . يقول السلطان : " كنت أعرف أن هذا سيحدث و كنت أتوقعه .. "

وقد تعاون مدحت باشا مع الانجليز وأيدها ، وكان الانجليز يعرفون أن الإصلاحات التي يوصون بها من شأنها أن تفرق الدولة العثمانية سريعا ، تماما مثلما أعرف أنا . فهل ياترى كان مدحت باشا يعرف هذه الحقيقة ؟

إذا كانت الإصلاحات هي الأمر الذي ينقذ الدولة العثمانية فقد أحيطت الدول الكبرى علما وكتابة بالإصلاحات المتصور قيامها والمعلنة في الدستور الأساسي وذلك أثناء مباحثات هذه الدول في " الترسنة " على هذا كان يجب على إنجلترا وهي تنظر الى فم السفير الروسي ألا تطالبنا باستقلال بلغاريا واعطاء الأرض للصرب والجبل الأسود لأننا قبلنا كل ما أوصت به وبدأنا تطبيقه " (١) .

أليس هذا كافيا ؟ ولكن أطماع الدول الأوروبية التوسعية هي الغاية والهدف الذي تسعى اليه هذه الدول ، ومن أجله قامت بآثاره الثورات والحروب . ليست المسألة مسألة اصلاح الدولة وانما هي مصالح دول . وهذه بالطبع تتصادم مع أطماع هذه الدول وتكاد أن تشعل الحرب بينهم وحول أطماعهم في الدولة العثمانية .

وعلى أية حال ففي سنة ١٢٩٤هـ / ١٨٧٧م رأت روسيا اعداد الاجابات على المنشور الذي أرسلته الى الدول من قبل ، فأصبح موقف الدول أمامها غامضا فهي لاتدري ماتنوي هذه الدول اجراؤه ، وأنها اذا لم تبادر باشعال نار الحرب فقد تضيع منها الفرصة بعد أن تجشمت الخسائر في المال والرجال لكي تقتطع ولايات عثمانية لحسابها ، غير أن الدولة العثمانية كانت قد أتمت الصلح

(١) مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني : محمد حرب عبد الحميد ص ٤٥ .

مع الصرب ، وربما عقدت قريبا الصلح مع الجبل الأسود فتسود السكينة ولا يعود لروسيا وجه في المداخلة ، ولا سيما عما قليل سيصبح مسيحيو الدولة راضين عنها بسبب مساواتهم مع المسلمين ، بمقتضى القانون الأساسي<sup>(١)</sup> .

لذلك بدأت روسيا في خلق المشاكل والأزمات وتصعيدها مستهدفة الحرب مع الدولة العثمانية . وفي الوقت نفسه كانت روسيا تبذل جهودا دبلوماسية مكثفة لتضمن حياد الدول الأوروبية الكبرى اذا لم تتعاون معها ضد الدولة في حروبها المقبلة<sup>(٢)</sup> .

لذلك حرر الأمير غورشاكوف الى سفيره في لندن في ١١ من مارس ١٨٧٧م / ١٢٩٤هـ اجابة نهائية تتضمن شروطه لاطلاع الحكومة البريطانية عليها فاذا صادقت على تلك الشروط فعليه أن يعرضها على باقي السفراء بلندن<sup>(٣)</sup> .

وأوفد بهذه المهمة أيضا اغناتيف الى العواصم الأوروبية فزارها عاصمة عاصمة ، ولقي فيها كل ترحيب ، وحصل على تأييد حكوماتها بعده معارضة روسيا في تدخلاتها ضد الدولة العثمانية<sup>(٤)</sup> .

وفي لندن توجت جهود اغناتيف بأن صادقت بريطانيا على الشروط الروسية ثم اجتمع بقية سفراء الدول على مؤتمر اسطنبول في ٣١-١١-١٨٧٧هـ

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ٦١٩-٦٢٠ .

، اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٧٣٢ .

(٢) عبدالعزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة اسلامية مشرى عليها ، ج ٢ ، ص ١٠٧١ .

(٣) محمد فرد بك : المصدر السابق ، ص ٦١٩-٦٢٠ .

، اسماعيل سرهنك : المصدر السابق ، ص ٧٣٢ .

(٤) عبدالعزيز الشناوي : المرجع السابق ، ص ١٠٧١-١٠٧٢ .

/ ١٢٩٤ هـ بوزارة خارجية بريطانيا ماعدا سفير الدولة العثمانية بطبيعة الحال ،  
ووقعوا بالموافقة على ماراوه من الشروط <sup>(١)</sup> ، و صدر عن هذا المؤتمر اتفاقيات  
عرفت باسم " بروتوكول لندن " في ٣١ مارس سنة ١٨٧٧ م / ١٢٩٤ هـ وهو  
عبارة عن انذار من الدول الست <sup>(٢)</sup> بريطانيا وفرنسا وروسيا والمانيا وايطاليا  
والنمسا موجه الى الدولة العثمانية <sup>(٣)</sup> .

ومن أهم نصوص هذه الاتفاقية :

- عقد معاهدة الصلح مع الجبل الأسود على أساس منح هذا الاقليم  
اضافات اقليمية كان يطالب بها كما سبق بحجة ان لغتهم سلافية ودينهم  
نصراني.

- انقاص عدد الجيش العثماني ، وتحسين احوال الرعايا المسيحيين في الدولة  
تحت مراقبة السفراء لتأمين وصول تلك الاصلاحات .

وقد ابلغت الدول الباب العالي بهذه الشروط مع تهديد الدولة العثمانية  
بالحرب اذا خالفت ذلك <sup>(٤)</sup> .

ولكن بريطانيا ابلغت سفيرها في اسطنبول سرا بأن يخبر الباب العالي بأن  
تصديقها على هذه الاتفاقية أو البروتوكول هو المحافظة على السلم في أوروبا

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية . ص ٦٢٠ .

. اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار . ج ١ . ص ٧٣٢ .

(٢) عبدالعزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها . ج ٢ . ص ١٠٧٢ .

(٣) اسماعيل سرهنك : المصدر السابق . ص ٧٣٢ .

(٤) اسماعيل سرهنك : المصدر السابق . ص ٧٣٢ .

. محمد فريد بك : المصدر السابق . ص ٦٢٠ .

. عبدالعزيز الشناوي : المرجع السابق . ص ١٠٧١-١٠٧٢ .

. يوسف اصاف : تاريخ سلاطين آل عثمان . ج ٢ . ص ١٦٢-١٦٣ .

. روجي الخالدي المقدسي : الانقلاب العثماني . ( مجلة الهلال . ج ٣ . ص ١٧ . ١٩٠٨ م ) ص

فقط ، ويعني ذلك أن بريطانيا تشجع الدولة في الاستمرار في رفضها (١) .  
وفي هذه الأثناء أصدر السلطان عبدالحميد الثاني المرسوم السلطاني الذي  
يقضي بانتخاب مجلس " المبعوثين " لانفاذ احكام القانون الأساسي عندما رأى  
اصرار الدول الأوروبية على هذا الاصلاح . فافتتح المجلس في ١٢٩٥/٣/٤ هـ  
الموافق ١٨٧٧/١/١٩ م في ( طوله بفجه ) بمحلة بشكطاش ، افتحه السلطان  
عبدالحميد الثاني بالخطاب الآتي : (٢)

" هيئة الأعيان

السادة المبعوثين

لقد سررت باعلان الانضمام للمجلس العمومي المجتمع للمرة الأولى في  
دولتنا العلية ، وليكن في علم الجميع أن العدل أساس الجاه والسلطان ، وهو الذي  
أدى الى نهوض الأمة ، ومرجع عدم وجود خلل في العقيدة والدين أدى الى  
التصريحات التي أصدرها أجدادنا العظماء السلطان محمد خان الفاتح بعد اعتلائه  
العرش لضمان حرية الدين والعقيدة وتأمين الحريات ورعايته للعدل وشتى صنوف  
الحق والمنافع ، وقد سار أسلافنا العظماء على نهجه في الحكومة المشهورة بقوتها  
منذ بداية ظهور دولتنا العلية .

ومنذ مايقارب من ستمائة عام كان الحفاظ على العقيدة واللغة والقومية  
نتيجة طبيعية عادلة غير قابلة للانكار والرفض ، فتبدلت القوة الى ضعف مما أدى  
الى التأخير الحضاري الذي سببه عدم التمسك بالقوانين المطروحة ، وعدم التمسك

(١) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار . ج ١ . ص ٧٣٢ .

عبدالعزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفضى عليها . ص ١٠٧٢ .

(٢) يوسف أصاف : تاريخ سلاطين ال عثمان . ج ٢ . ص ١٦٢ .

روحي الخالدي المقدسي : الانقلاب العثماني . ( مجلة الهلال . ج ٣ . ص ١٧ . ١٩٠٨ م ) .

ص ١٣٨

محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية . ص ٧٠٤ .



بالشرع الشريف الذي كان فيما سبق سببا في رقي وسعادة الدولة وثناء الوطن  
وحماية العدل لكافة القوانين في ذلك الوقت ... " (١) .

هذا الدستور أعلنه السلطان عقب نفي مدحت باشا (٢) ، وعين أحمد وفيق  
رئيسا لمجلس المبعوثين ، وانعقدت الجلسة الأولى تحت رئاسته ، فدارت فيها مناقشة  
وضع المذكرة الواجب تقديمها جوابا على النطق السلطاني فتحررت مسودة  
الجواب وصادق عليها الجميع (٣) .

عند ذلك أحال السلطان الشروط التي وصلت له من الدول الأوروبية الى  
ناظر الخارجية العثمانية الذي قدم هذه الشروط الى مجلس المبعوثين المنعقد هناك ،  
وشرح لهم ما تحتويه هذه المذكرة ، وبين لهم أحوال السياسة الخارجية ، وأفهمهم  
بأن رفض التسليم بما جاء في تلك المذكرة معناه الحرب مع روسيا ، وأظهر لهم  
اضطراب الأحوال المالية والضائقة المالية التي تمر بها الدولة من جراء ذلك لتأمين  
المؤن الحربية والغذائية للجنود .

وقد اعترض أكثر أعضاء مجلس المبعوثين ورفضوا هذه الشروط وأظهروا  
الحماس والغيرة الوطنية سواء في هذا المسلمون والمسيحيون ، وترفع الجميع عن  
قبول مثل هذه الشروط (٤) .

فأصدر السلطان منشورا الى سفراء الدول المشتركة في الاتفاق لتبليغه الى  
دولهم بعبارة صريحة هي عدم قبول هذه الشروط او عدم الالتزام بها اذ من

---

(١) Osmanli Arsivi, Yildiz Esas Evraki, Zarf. No. 313.

(٢) يوسف آصاف : تاريخ سلاطين آل عثمان ، ج ٢ ، ص ١٦٣ .

، روجي الخالدي المقدسي : الانقلاب العثماني ( مجلة الهلال ، ج ٣ ن س ١٧ ، ١٩٠٨ ) ص  
١٤٠ .

(٣) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ٦٣١ .

(٤) يوسف آصاف : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٦٣ .

المستحيل أن توافق عليها أي دولة تغار على شرفها ووجودها بين العالم السياسي<sup>(١)</sup>.

وكمثال لذلك فقد قام ممثل حلب ( مانوك الأرمني ) فخطب قائلًا : " إن روسيا لم تقم في أي وقت من الأوقات بحماية المسيحيين ، فان المسيحيين لم يقولوا بانهم في حاجة الى مثل هذه الحماية ، علما بأن مسيحي تركيا يملكون الآن حكومة تحاول تلبية مطالبهم ، انني مسيحي أرمني وأريد أن أقول باسم شعب ولايتي بأننا غير محتاجين الى حماية روسيا ، اذ أننا مرتاحون وراضون بوضعنا ومستعدون لأن نضحى بأنفسنا وأموالنا في سبيل وطننا وسلطاننا لصد الاعتداء الروسي"<sup>(٢)</sup> . وكان اخوانه من ارمن ومن مسيحيين على مختلف مذاهبهم ، واليهود ومن كان على شاكلتهم من حزب الأحرار والذين تتلمذوا على أيديهم يريدون الحرب مع روسيا لأغراض دفيئة في أنفسهم . وقد أثبتت الأحداث التي تعاقبت صدق ذلك . وأن تأييدهم لاستخدام الأرمن كان من قبيل الخداع والتضليل بالدولة ، وقد ظهر ذلك النفاق عندما نشبت الحرب بين الدولتين روسية والدولة العثمانية بعد حوالي شهرين من رفض هذه الشروط ، اذ قام الأرمن بتقديم معاونة صادقة للروس في حربهم في آسيا ضد الدولة ، ومع ذلك فان روسيا قد ابتلعت شرائح اقليمية من بلاد الأرمن سواء من أرمينية العثمانية أو من أرمينية الروسية دون الالتفات الى مسألة تحريرهم<sup>(٣)</sup> .

وكان القيصر أراد أن يتفادى الحرب مع الدولة العثمانية ، فتنازل عن شروطه الأولى وتقدم بعرض آخر للدولة العثمانية طلب فيه ترك قضاء (نيكشك) فقط من الجبل الأسود ، الا أن هذا العرض المخفف رفض من قبل الصدر الأعظم

(١) يوسف آصاف : تاريخ سلاطين آل عثمان ، ج ٢ ، ص ص ١٦٣ .

(٢) أورخان محمد علي : السلطان عبد الحميد الثاني ، ص ص ١٢٢-١٢٣ .

(٣) عبدالعزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ، ج ٢ ، ص ص ١٠٧٠ .

أدهم باشا بحجة عدم اتفائه مع الدستور ، وانقطع آخر بارقة أمل ، وكان لابد من الحرب ، وهكذا بدأت روسيا باعلان الحرب على الدولة (١) .

ولهذا أمر السلطان عبدالحميد الثاني بانعقاد مجلس المبعوثين بصفة مستمرة حتى انقضاء الحرب مع روسيا (٢) لدراسة المستجدات ورفع التقارير اللازمة والمشاورات في الأوضاع الأمنية والحربية . ودخلت روسيا الحرب والى جانبها الجبل الأسود ، ثم انضمت اليها رومانيا ( البغدان والافلاق ) وقد اتخذت هذه الحرب شكلا دينيا بين الدولة العثمانية الاسلامية والمسيحية السلافية . ولذلك كانت في نظر الفريقين جهادا مقدسا حياة أو موت (٣) .

وقد تمكن العثمانيون في بادئ الأمر من صد هجمات الروس ، ونتيجة لقلّة التجهيزات العسكرية - نظرا لفراغ الخزينة العثمانية من المال - اتيح النصر للروس حتى تجاوزت جيوشهم نهر الطونة وجبال البلقان ، واستولوا على قارس ، وحاصروا ارضروم من جهة الأناضول (٤) فاحتشد الجيش العثماني في مدينة (بلقنة) ، واستحكموا في حصونها لصد الغزو الروسي ، وبدأ الروس حصار هذه المدينة ، وقد كلف الروس هذا الحصار ضحايا جسيمة لاستبسال الجنود العثمانيين وعلى رأسهم القائد العظيم عثمان باشا للدفاع بشجاعة عن تلك المدينة مما جعل الروس يستدعون جنود الاحتياط لديهم لمواجهة هذه الحرب .

وبقيت هذه الحملة العثمانية في الاستحكامات ثلاثة أشهر حتى نفذ الطعام من عندهم ، فاضطر قائدها عثمان باشا الى الخروج والهجوم على الجيش الروسي .

(١) عابدين حمادة : تاريخ الشرق والغرب ، ص ٢٦ .

، أورخان محمد علي : السلطان عبدالحميد الثاني ، ص ١٢٣-١٢٤ .

(٢) مذكرات السلطان عبدالحميد : محمد حرب عبدالحميد ، ص ٥٠ .

(٣) عابدين حمادة : المرجع السابق ، ص ٢٧ .

(٤) عابدين حمادة : المرجع السابق ، ص ٢٧ .

، يوسف آصاف : تاريخ سلاطين آل عثمان ، ج ٢ ، ص ١٦٣ .

غير أن كثرة الجيش الروسي أرغمته على الاستسلام . فأبلى عثمان وجنوده بلاءا حسنا اندهشت له أوروبا تقديرا لشجاعة هذا القائد . وعلى أثر ذلك استولت الجنود الروسية على بلفته ، ثم واصلوا تقدمهم نحو اسطنبول وكانت صربيا قد تمكنت من تنظيم نفسها ، فعادت وأعلنت الحرب ثانية على الدولة العثمانية ونقضت الصلح معها ، ووقفت بجانب الروس <sup>(١)</sup> .

لهذا انعقد مجلس المبعوثين الدائم تحت رئاسة حسن فهمي أفندي ودارت المناقشات حول حرب الروس مع الدولة ، واتخاذ الحلول المناسبة ولكن كثر الجدل بشأن محاكمة المرتكبين ، وقطع دابر المرتشين وتحسين أحوال المحاكم ، حتى قال أحد المبعوثين ان الجنود في الولايات تنهب الأهالي وأن المحاكم ترتشي على ابطال الحق ، وغير ذلك من الفساد المنتشر في ذلك العصر <sup>(٢)</sup> .

فقد كانت هناك نغمة أخرى هي محاسبة المسؤولين عن نتائج هذه الحرب التي انتهت بالهزيمة ، فاتفق أعضاء مجلس المبعوثين على كتابة بيان يتهم فيه المجلس جميع المسؤولين من مدنيين وعسكريين ويحملهم أسباب الهزيمة وقد صيغ البيان بأسلوب يوحي بأن السلطان نفسه يتحمل المسؤولية ، وبدأت الاتهامات تتكرر بين الأعضاء ، فهذا يطالب بارجاع المنفيين السياسيين ، ثم تبين للسلطان أن بعض الأعضاء يريدون عودة مدحت باشا ، وهذا نائب ينتقد الحكومة لأنها لم تكن تأخذ آراء النواب في أمور الحرب <sup>(٣)</sup> ، وقد نسي الجميع أن أسباب الحرب التي قامت بين الدولة وروسيا سببه مجلس المبعوثين وإصراره على الحرب عندما رفض شروط الدول .

(١) عابدين حماده : تاريخ الشرق والغرب . ص ٢٧ .

. يوسف أصاف : تاريخ سلاطين آل عثمان . ج ٢ . ص ١٦٣ .

(٢) يوسف أصاف : المرجع السابق . ص ١٦٤ .

(٣) أورخان محمد علي : السلطان عبد الحميد الثاني . ص ١٣٦ .

لذلك أخذ المجلس يعطي انطبعا فوضويا ، وكمثل على ذلك أنه عندما بدأت الدعوات القومية تظهر وتعلن عن نفسها في وسط المجلس بكل جرأة بدأ لكل عين بصيرة أن كل هذه الحركات تسعى لتفتيت الدولة العثمانية (١) .

وفي تلك الفترة كان الروس يتابعون زحفهم على ممتلكات الدولة حتى استولوا على أدرنه وماجاورها (٢) ، فخشيت بريطانيا أن يستولى الروس على اسطنبول ، لذلك نراها ترسل أسطولا الى مضيق البوسفور لحماية الدولة ، ولكن الجنود الروس تقدموا حتى سان ستيفانو (٣) ، وهناك وقفوا ولم يجرفوا على الدخول الى العاصمة اسطنبول ، خوفا من وقوع الحرب بينهم وبين بريطانيا (٤) .

لذلك استغل السلطان عبدالحميد الثاني وقوع الخلافات في مجلس الأعيان ووقوع الخلاف أيضا بين الدول حول هذه الحرب واستغنى عن مشورة مجلس المبعوثين وشكل بدلا عنه في ١٠/٢/١٢٩٥هـ الموافق ١١ فبراير سنة ١٨٧٨م مجلسا عاليا من وكلاء الدولة وأعيانها، وهذا المجلس استدعى اليه خمسة أشخاص من مجلس المبعوثين وهم الرئيس وو كيلاه وأحد مبعوثي اسطنبول وآخر يهودي للمداولة معهم في الحالة الحاضرة في أحداث الساعة ، وأصدر ارادته السنية في ١٣/٢/١٢٩٥هـ الموافق ١٤ فبراير سنة ١٨٧٨م بتعطيل مجلس المبعوثين لأجل غير مسمى (٥) .

وقد قال بسمارك حول تعطيل السلطان للدستور ، عندما زار المشير علي

(١) أورخان محمد علي : السلطان عبدالحميد الثاني . ص ١٣٦ .

(٢) يوسف أصاف : تاريخ سلاطين آل عثمان . ج ٢ . ص ١٦٤ .

(٣) سان ستيفانو : ضاحية من ضواحي العاصمة اسطنبول في ذلك الوقت .

- عابدين حماده : تاريخ الشرق والغرب . ص ٣٧ .

(٤) عابدين حماده : المرجع السابق . ص ٣٧ .

(٥) يوسف أصاف : المرجع السابق . ص ٣٧ .

باشا ألمانيا : " لقد أحسنتم صنعا بتعطيلكم المجلس ، ذلك لأن أية دولة عندما تكون متكونة من قوميات فان ضرر النظام البرلماني فيها يكون أكثر من فائدته" (١) .  
 واذا كانت الظروف السياسية قد حتمت على السلطان قبول هذا الدستور أو المشروطة ، فان ظروف الحرب مع روسيا أيضا ساعدته على التخلص من هذه المشروطة بعد مرور سنتين من اعلانها ، ونفي وابعاد البارزين من المبعوثين (٢) . ونادى بالجامعة الاسلامية ، وتلك هي الحركة التي تشير اليها بعض الكتب بالانقلاب الحميدي (٣) .

وعندما كان السلطان عبدالحميد الثاني يرى أن الحروب الصليبية ضد الدولة العثمانية دائمة ومستمرة لاتنقطع ، وهذه ماهي الا امتداد للحروب الصليبية السابقة حتى ولو أخذت أشكالا سرية متعددة ، لذلك كان يعمل - بالاسلام - على توحيد العناصر المتعددة في الدولة من ترك وعرب وأكراد وغيرهم في صف واحد لكي يمكنهم الصمود أمام الغرب وتحدياته للشرق كما كان يرى ضرورة امتداد تأثير الوحدة الاسلامية الى كل مسلمي آسيا وكان يرى أيضا ضرورة العمل على تدعيم أواصر الأخوة الاسلامية بين كل المسلمين في العالم في الصين والهند وأواسط آسيا وأفريقيا وغيرها من البلدان والقارات ، وحتى مع ايران . وفي هذا يقول : ( ان عدم وجود تفاهم مع ايران أمر جدير بالتأسف عليه ، واذا أردنا أن نفوت الفرصة على الانجليز وعلى الروس فانا نرى فائدة في وجود تقارب اسلامي في هذا الأمر ) (٤) .

- (١) أورخان محمد علي : السلطان عبدالحميد الثاني ، ص ١٣٧ .  
 (٢) محمد قربان نياز ملا : السلطان عبدالحميد الثاني ، (الطبعة الاولى ، مكة ، مكتبة المنارة ، و١٤٠٨ هـ) ص ٥٥ .  
 (٣) محمد عبداللطيف البحراري : التاريخ المعاصر وعلاقته العضوية بالازمة الحديثة . مجلة الإدارة العدد ٢ ، السنة ١٧ ، ١٤٠٦ هـ ، ص ٨٣ .  
 (٤) مذكرات السلطان عبدالحميد الثاني : محمد حرب عبدالحميد ، ص ٧ .

هذا هو هدف السلطان عبدالحميد من الجامعة الاسلامية التي كان يرى أنها هي السبيل الأفضل لتوحيد صف المسلمين قلبا وقلبا ضد أعداء الاسلام وخاصة السلافية التي ينادي بها الروس، ومحاولة الانجليز استغلال الدول الاسلامية وهدم أركان الاسلام بتصدير الأفكار الهدامة ودون أن يعرف أحد سياسة عبدالحميد وأهدافه السامية من قيام الجامعة الاسلامية، فالغزو الفكري سيطر على عقول الأحرار الذين يريدون دستورا غربيا دون فهم نصوصه بل مستوردا لا ينطبق على المسلمين .

ولهذا رأينا السلطان يتخذ من خط سكة حديد الحجاز وسيلة لتنفيذ فكرة الجامعة الاسلامية، معارضا في ذلك القومية الطورانية وغيرها من الأمور التي تدعو الى الخروج عن التعاليم الاسلامية، فيقول " المهم هو اتمام خط السكة الحديدية بين دمشق ومكة في أسرع وقت ... ففي هذا تقوية للرابطة بين المسلمين، كما أن فيه أيضا اتخاذ هذه الرابطة - بعد تقويتها - صخرة صلبة تتحطم عليها الخيانات والخذع الانجليزية ".

وقد استعان السلطان في مجال الجامعة الاسلامية بجمال الدين الأفغاني الذي كان ينادي بهذه الجامعة وقربه منه لنشر هذه الأفكار بين العالم الاسلامي للتضامن حول هذه الجامعة<sup>(١)</sup>

وهكذا فقد هددت روسيا الدولة العثمانية بعد أن وصلت الى مشارف اسطنبول باحتلال اسطنبول، الا أن بريطانيا دخلت بأسطولها الحربي لمواجهة الروس في بحر مرمره، وورست به، ولوحت باستعدادها للدخول في حرب مع الروس لو حاولت التقدم الى اسطنبول<sup>(٢)</sup>. ولكن روسيا أجبرت الدولة العثمانية

(١) مذكرات السلطان عبدالحميد الثاني : محمد حرب عبدالحميد . ص ٧-٨

(٢) أورخان محمد علي : السلطان عبدالحميد الثاني . ص ١٢٨ .

على توقيع معاهدة سان ستيفانو ( Sanstefano ) في ٢٨ من صفر سنة ١٢٩٥هـ الموافق ٣ من مارس سنة ١٨٧٨م (١) . فقدت بموجبها الدولة العثمانية المناطق التالية :

رومانيا و صربيا والجبل الأسود والتي نالت استقلالها .  
كما قامت دولة بلغارية كبرى تمتد من الدانوب حتى أدرنه ومن سلانيك حتى البحر الأسود ( وهي في الظاهر مستقلة ولكنها تخضع لروسيا ) .  
وأعطت الدولة روسيا مقاطعة بساربيا التي كانت خسرتها على إثر انكسارها في حرب القرم .

ثم اعترف السلطان بالاستقلال الداخلي لمقاطعتي البوسنة والهرسك (٢) .  
وقد أثارت هذه المعاهدة الرأي العام الأوربي والحكومات الأوربية فحاول السلطان عبد الحميد بكل الطرق الدبلوماسية ابطال هذه المعاهدة مستفيدا من هذا التذمر الأوربي ، وأخيرا اتفق مع بريطانيا سرا على اعطائهم جزيرة قبرص مقابل ابطال معاهدة سان ستيفانو ، والدفاع المسلح عن شرق الأناضول ضد الروس اذا دعت الحاجة (٣) .

لهذا أرغمت بريطانيا روسيا على إعادة النظر في معاهدة سان ستيفانو ولهذا الغاية عقد مؤتمر برلين في سنة ١٢٩٥هـ / ١٨٧٨م وفيه ألغيت معاهدة سان ستيفانو حيث أدخل عليها بعض التعديلات ومن أهمها :

(١) محمد عبداللطيف البحر اوي : التاريخ المعاصر وعلاقته العنصرية بالأرمنة الحديثة ( مجلة الدارة ، لعدد

٢ . السنة ١١ . ١٤٠٦هـ ) ص ٨٣ .

(٢) Osmanli Arsivi, Yildiz Tansnifncinsi : Muahede Nama, Namarasi, No.: 19, 1878.

(٣) عابدين حمادة : تاريخ الغرب والشرق . ص ٢٩ .



المادة (١) أصبحت بلغاريا دولة صغيرة تتمتع باستقلال داخلي تابعة للسلطان ولها حكومة مسيحية ، ومليشيا قومية .

المادة (١٣) اقتطعت منها الروملي الشرقية والحقت بالدولة ، على أن تحكم بواسطة حاكم مسيحي ، وتتمتع بإدارة خاصة ، كما اقتطعت منها مقدونيا وألحقت بالدولة بدون قيد أو شرط .

المادة (٢٥) وضعت مقاطعتا البونسة والهرسك تحت الإدارة النمساوية على أن تبقىا تابعتين اسما للسلطان العثماني .

المادة (٥٣) أيد المؤتمر مانصت عليه معاهدة سان ستيفانو من استقلال رومانيا و صربيا والجبل الأسود استقلالاً تاماً<sup>(١)</sup> .

أما النتائج التي ترتبت على هذا المؤتمر فقد قضى على السيطرة الروسية في البلقان ، وأوقفت المطامع السلافية<sup>(٢)</sup> . كما نرى ذلك في البنود التالية :

المادة (٦٢) أوضح الباب العالي تطوعه بحفظ مبدأ الحرية الدينية وسجلت الأطراف المجتمعمة هذا التصريح العفوى : بأن الباب العالي لن يعوق الاختلافات الدينية بين الأشخاص في أي مكان من الدولة العثمانية في الوظائف أو ممارسة المهن والصناعات المختلفة ، والجميع سوف يقبلون للشهادة أمام المحاكم بدون تفرقة دينية ، كما أن حرية العبادات وممارستها الخارجية مكفولة للجميع ... رجال الكنيسة والحجاج والرهبان من كل الجنسيات الذين ينتقلون في مناطق الدول الأوروبية أو الآسيوية يتمتعون بتلك الحقوق والمميزات والحماية الرسمية المعترف بها

(١) Osmanli Arsivi , Yildiz, Tansnifncinsi : Muahede Nama, Numarasi, (١)

No.:171.

(٢) عابدين حمادة : تاريخ الغرب والشرق ، ص ٢٩ .

للدبلوماسيين وقناصل الدول في تركيا العثمانية ، وحفظ مؤسسات رعايا الدول الدينية والجمعيات الخيرية ( الماسونية وغيرها ) مكفولة في البلاد العثمانية ، وخاصة ما كان منها في الأماكن المقدسة ( فلسطين )<sup>(١)</sup> . ولكن الدولة في هذا الوقت طبقت هذه المادة التي نصت على المساواة رسمياً بين المسلمين والنصارى في كافة الحقوق والمزايا حتى الشهادة تقبل من المسيحي على المسلم دون التقييد بنصوص الشريعة الإسلامية في هذا البند ، وقد قبلت الدولة تطوعاً هذه الشروط . وقد أشار البند رقم ( ٦١ ) الى تعهد الباب العالي بدون تأخير تنفيذ الإصلاحات او التحسينات التي تتطلبها المقاطعات التي يقطنها الأرمن ضد الشراكسة والأكراد وسوف تخطر الدول التي ستشرف على التنفيذ بمراقبة هذا الإصلاح<sup>(٢)</sup> .

معنى هذا أن الدولة العثمانية أصبحت تحت سيطرة الدول الأوروبية أو تحت مظلتها توقع على ما يملى عليها .

ونعود الى موضوع الغاء المشروطية الأولى من قبل السلطان عبد الحميد الثاني والتي اعتبرها الأحرار اهانة لهم بعد فرضها ، فأخذوا يسعون في إعادة المشروطية بأقلامهم<sup>(٣)</sup> وفي ندواتهم داخل الدولة وخارجها . اذ يرون فيه أن مرور الدولة بالأزمات المتكررة والمتوالية هي التي جعلت بعض العثمانيين يعتقدون أن الحل هو اقامة حكومة على النسق الأوربي وخلق نوع من التعاون بين المسلمين وغيرهم في الدولة لتجنب تدخل الدول الأوروبية ، وهؤلاء كانوا دستوريين

(١) Osmanli Arsivi Yildiz Tansifncinsi: Muahede Nama, Numarasi, No. 171.

(٢) Ibid .

(٣) روجي الخالدي المقدسي : الانقلاب العثماني .. مجلة الهلال ، ج ١ ، ص ١٧ ، ١٩١٨ م

لاحبا في الدستور في حد ذاته ، ولكنهم رأوا فيه حلا لأزمات الدولة الخارجية.  
وترتبط هذه التطورات التاريخية في هذه الفترة بالطورانية أو القومية  
التركية وتركيا الفتاة<sup>(١)</sup> ، التي أعادت المشروطة الثانية في سنة  
١٣٢٦هـ/١٩٠٨م .

ولهذا الغرض فقد شكلت سنة ١٣٠٧هـ/١٨٨٩م جماعة من طلبة المدرسة  
الطبية العسكرية في اسطنبول جمعية سرية هدفها الواضح عزل السلطان عبدالحميد  
الثاني .

فكان تكوين هذه الجماعة معناه تحديد البداية الحقيقية لحركة تركيا الفتاة،  
وكان المحرك الرئيسي لهذه الحركة طالب الباني ماسوني اسمه ابراهيم تيمو او ادهم  
كما كان يدعي ذلك أحيانا .

لقد قضى تيمو في هذه المدرسة بضع سنوات طالبا ، فتوفرت له فرصة  
كافية للتعرف على عدد من الطلاب الذين يفكرون على شاكلته<sup>(٢)</sup> .

ففي ٢١ من مارس سنة ١٨٨٩م المصادف سنة ١٣٠٧هـ ناقش تيمو  
ثلاثة طلاب من أصدقائه ، وقد تعرف على آرائهم وهم اسحق سكوتي من ديار  
بكر ، وعبدالله جودت من قونية ، ومحمد أمين من قوقاسية<sup>(٣)</sup> ، وطرح عليهم

(١) محمد عبداللطيف البحرأوي: التاريخ المعاصر وعلاقته بالازمنة الحديثة ( مجلة الدارة ، العدد(٢)  
السنة ١٧ . ١٤٠٦هـ) ص ٨٣ .

(٢) أرنست أ. رامزور : تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨م ، ترجمة صالح العلي ، ( بيروت ، نشر فرنكلين  
المساهمة للطباعة والنشر ، ١٩٦٠م) ص ٤٩-٥٠ .

(٣) أرنست أ. رامزور : المصدر السابق . ص ٥٠ .

الا أن يوسف آصاف : يضيف على ذلك طالب رابع اسمه " حكمت أمين من قونيه " .

- تاريخ سلاطين آل عثمان ، ص ١٦٦ .

فكرة تشكيل جمعية وطنية سرية ، وقد أصبح هؤلاء الطلاب الأربعة هم النواة للجمعية الأولى لتركية الفتاة والتي كانت تدعى " الترقى والاتحاد " لا " الاتحاد والترقي " والذي اتخذته اسما لها واشتهرت به فيما بعد <sup>(١)</sup> .

وقد رفعت هذه الجمعية شعاراتها المطالبة بالاصلاحات الدستورية ، ومنها اعادة الدستور ، والعمل بالمشروطة للمساواة بين أجناس الرعية ، والحصول على الحرية في القول والعمل ، وسلامة الأرواح والأموال ، وتقييد سلطة السلطان بالقوانين <sup>(٢)</sup> . فانضم الى هذه الجمعية بعض تلاميذ المدارس وأرباب الأقاليم ، وذلك خلال مدة وجيزة من تأسيسها أمثال شرف الدين مغمومي ، وكريتلي شفيق ، وجودت عثمان ، وكريم سيباطي ، ومكلي صبرى ، وسلانيكلي ناظم <sup>(٣)</sup> ، وأساف درويش ، وعلى رشدي ، ومحمد غيريد ، وحسن زاده علي ، ونجيب ذارغا ، وطلعت بك وشطين كقوصو الي ابراهيم ، وقد كان هؤلاء المؤسسين الأوائل لهذه الجمعية <sup>(٤)</sup> .

وكان تنظيم أو بناء هيكل هذه الجمعية على طراز جمعية الكاربوناري الايطالية التي تشكلت في القسم الأول من القرن الثالث عشر الهجري الموافق للقسم الأول من القرن التاسع عشر الميلادي ، ففي العطلة الصيفية للسنة التي سبقت تشكيل هذه الجمعية توقف تيمو في مدينة برنديزي عندما كان في طريقه الى بلاده البانية ، وزار خلال اقامته في برنديزي ونابولي محفلا ماسونيا برفقة أحد أصدقائه ، وتعلم تعليما كافيا عن دور الكاربوناري في التاريخ الايطالي . وقد

(١) أرنست .أ. رامزور : تركيا الفتاة وتورة ١٩٠٨ م . ص ٥٠ .

(٢) يوسف أصاف : تاريخ سلاطين ال عثمان . ج ٢ ، ص ١٦٦ .

(٣) أرنست .أ. رامزور : المصدر السابق . ص ٥٠ .

(٤) أورخان محمد علي : السلطان عبدالحميد الثاني . ص ٢٧١ .

تأثر بتنظيماتها الماسونية فيما بعد ، حين قرر أن ينشئ في تركيا جمعية سرية تشبهها<sup>(١)</sup> .

ويبدو أن ابراهيم تيمو قد تدرّب جيدا على أيدي الماسون الإيطاليين ولهذا اتبع الطريقة الماسونية هو وزملاؤه عند عقد اجتماعاتهم واجراء مراسيم قبول عضوية هذه الجمعية<sup>(٢)</sup> .

وفي هذا الصدد يقول المؤرخ يوسف آصاف : " اتخذوا في قبول الأعضاء وادخالهم في هذه الجمعية طرقا تشبه الطرق الماسونية وزادوا عليها أسلوبا غريبا بأن يأمن الداخل كشف أمره وحتى بين اخوانه أعضاء الجمعية بحيث أن العضو الواحد لا يعرف من سائر الأعضاء ولو كانوا ألّوفا إلا اثنين العضو الذي أدخله والعضو الذي توسط لإدخاله<sup>(٣)</sup> .

أما صاحب كتاب تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨ فيقول : " كان أثر الكاربوناري فيها واضحا من حيث أن المفروض في اعضائها ان يعرف بعضهم بعضا بأرقام كسرية ، وتتكون هذه الأرقام الكسرية من ترقيم كل خلية جديدة في المنظمة ، ثم باعطاء رقم لكل عضو في تلك الجماعة فكان رقم الخلية أو الفرع هو المقام ورقم العضو البسط . ولتوضيح ذلك نقول أن العضو الخامس في الخلية السابقة كان يدخل في قائمة الجمعية برقم (٧/٥) وكان رقم ابراهيم تيمو منشئ الحركة (١/١) " <sup>(٤)</sup> .

وقد انتشرت أفكار هذه الجمعية وسرت بن طلاب المدارس العسكرية ذلك لأن التعليم العسكري كان على اتصال بالثقافة الأوروبية . ووعندما افتضح سر

(١) أريست أ. رامزور : تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨ م . ص ٥٠ .

(٢) أورخان محمد علي : السلطان عبد الحميد الثاني . ص ٢٧١ .

(٣) تاريخ سلاطين آل عثمان . ج ٢ . ص ١٦٦ .

(٤) أريست أ. المصدر السابق . ص ٥٠-٥١ .

الجمعية عن طريق ثلاثة طلاب ، قدموا الى القصر السلطاني تقريراً يبينون فيه نشاط هذه الجمعية في سنة ١٣١٠هـ/١٨٩٢م غادر بعض أعضائها البلاد الى باريس خوفاً من أن يقبض عليهم السلطان عبد الحميد الثاني لنشاطهم المعادي للدولة ، ولاستكمال دراستهم ، ومنهم خليل غانم العربي المسيحي الذي أصدر في جنيف جريدة " الهلال " ثم جريدة ( تركيا الفتاة ) في باريس وأيضاً سلانيكلي ناظم الذي استطاع أن يكمل تحصيله في الطب بفرنسا في الوقت الذي لازال يعارض أفكار السلطان عبد الحميد الثاني<sup>(١)</sup> . وخلال تلك الفترة ، هرب الى فرنسا أحمد رضا بحجة زيارة معرض باريس حيث أصبح هناك من أشهر رجال الاتحاد والترقي كما سيأتي .

ومن باريس بدأ يرسل الى السلطان عبد الحميد الثاني برسائل ينتقد فيها الأوضاع ، ويبيدي فيها رأيه في كيفية الإصلاح ، وعندما سمع به الاتحاديون في باريس عرضوا عليه أن يمثل الجمعية في باريس ، فلم يتردد أحمد رضا من القبول ، وهناك تبدل اسم الجمعية الى " جمعية الاتحاد والترقي "

وبعد وصول سلانيكلي ناظم الى باريس ، اتصل بأحمد رضا رئيس جمعية الاتحاد والترقي ، واقترح عليه أن يكون مديراً للصحيفة التي أصبحت فيما بعد اللسان الرسمي للجمعية ، وبدأوا بالتعامل مع خليل غانم وعدد من المنفيين بإصدار صحيفة " مشورت " التي كانت تصدر مرتين في الشهر وكانت تطبع باللغة التركية فقط ، لأنها كانت تستهدف القراء داخل الدولة العثمانية ، غير أن أحمد رضا ألحق بها ملحقا بالفرنسية .

(١) أرنت أرامزور : تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨م - ص ٥٠-٥٣ .  
محمود صالح منسي : حركة اليقظة العربية ، ( الطبعة الثانية ، ملتزم الطبع والنشر : دار الفكر

العربي ، ١٩٧٨م ) ص ١١٨-١١٩ .

وكانت " مشورت " الصحيفة الرسمية لجمعية الاتحاد والترقي ويذكر رامزور أنه : " ... في كانون الأول - ديسمبر ١٩٨٥م نشرت " مشورت " مقالا بنت فيه أهداف الجمعية وقدمتها الى قرانها ... وكان عنوان المقال "منهاجنا" وجاء تحته :

ان لجنة الاتحاد والترقي العثمانية أنشأت في باريس صحيفة " مشورت " رغبة منها في اظهار وجودها ، ونظرا لأن الطباعة مقيدة في تركيا كما هو معروف " والملحق الفرنسي سيجعل القراء الاجانب على اتصال دائم بميول حزب تركيا الفتاة ورغباته .. انا نرغب العمل لا لخلع الأسرة الحاكمة التي نعتبرها ضرورية لحفظ النظام السليم . ولكن لنشر فكرة التقدم التي نريد لها نصرا سليما . ولما كان شعارنا هو " النظام والترقي " فاننا نطالب بالاصلاحيات ولانقصرها على هذه الولاية أو تلك ، بل نطلبها للامبراطورية كافة ، لا لمصلحة قومية واحدة ، بل لمصلحة العثمانيين كافة سواء كانوا يهودا او نصارى أو مسلمين . انا نريد أن نتقدم في مضمار المدنية ، ولكننا نعمل بعزم أننا لانريد أن نتقدم الا بالطريق الذي فيه تدعيم العنصر العثماني واحترام ظروف وجوده الخاصة .

انا مصممون على رعاية أصالة حضارتنا الشرقية ، ولهذا السبب لاناخذ من الغرب الا النتائج العامة لتطوره العلمي والأشياء التي يمكن هضمها حقا وهي ضرورية لتوجيه الشعب في سرية نحو الحرية ... " (١) . " انا نعارض احوال التدخل المباشر للدول الغربية محل السلطنة العثمانية وهذا ليس ناجما عن التعصب لأن المسألة الدينية عندنا أمر خاص ، ولكنه منبعث من العاطفة المشروعة للكرامة المدنية والقومية " .

(١) أرست أ. رامزور : تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨ م ، ص ٥٦-٥٧ .

، يوسف أصاف : تاريخ سلاطين آل عثمان ، ج ٢ ، ص ١٦٧ .

ومن الواضح ان هذا المنهاج هو عمل أحمد رضا رئيس جمعية الاتحاد والترقي لاتفاقه مع أنصاره على نقطة واحدة وهي التريك والأخذ عن أوروبا وقد ظلت هذه النعمة هي الأساس الذي تغلغل في منهاج أعضاء تركية الفتاة المتأخرين على الرغم من الآراء المعارضة لها في بعض الأحزاب الاسلامية كما سيأتي الحديث عنه ، ففي هذه اللحظة كانت الجمعية تدبر انقلابا في اسطنبول<sup>(١)</sup> لابرار مهمتها الى حيز العمل عندما أخذت تنتشر بسرعة الأمر الذي كان يثير الدولة وخاصة عندما قررت خلع السلطان عبدالحميد واعادة السلطان مراد أو تنصيب ولي العهد ( محمد رشاد ) مكانه وأسندوا تنفيذ هذه المهمة الى ( علي كاظم باشا ) قائد الفيلق الأول في اسطنبول . وعندما كانوا يتحفزون للعمل لتنفيذ المؤامرة اذ قدم نجيب باشا سفير تركيا في مدريد سابقا واعترض على ذلك لأن القوة التي كانت تحت يد كاظم باشا غير كافية لتنفيذ هذه المهمة ، فأخروا تنفيذ هذا القرار الى وقت لاحق ، هذا التأخير أفسد العمل كله وحدث لأجل ذلك ضجة بين أعضاء الجمعية حتى أن نادر بك سكرتير الجمعية المركزية في اسطنبول اعترض على التأخير بصوت جهوري قائلا : " يا صديقي اني آسف لعنادك لأن التأجيل الى الغد يضرنا وويل للذين لا يكونون معنا " ووقعت كلماته في أذن أحد رجال السلطان ، فوشى به الى المابين فساقوه الى السلطان ، وبعد التحقيق اعترف بأسماء كثيرين من الأعضاء ، فأرسل السلطان قواته للقبض على عدد من أعضاء الجمعية<sup>(٢)</sup> الأصليين ومنهم عبدا لله جودت ، واسحاق سكوتي ، وشرف الدين مغمومي .

(١) أرسنت ارامزور : تركيا الفتاة وتورة ١٩٠٨ م . ص ٥٧-٥٨ .

(٢) روجي الخالدي المقدسي : الانقلاب العثماني .. ( مجلة الهلال ، ج ١ ، ص ١٧ ، ١٩٠٨ م ) ص



و كريم سيباطي ، حيث تم نفيهم . كما تم القبض على وتشروكسولا ، وأحمد بك وهو مدرس في المدرسة الحربية ، فنفي الى رودوس غير أنهما استطاعا أن يصلوا الى باريس . وأما عبدا لله جودت فقد أرسل الى طرابلس الغرب ، فاستطاع أن يعبر الحدود الى تونس ثم انتهى به المطاف الى باريس في صيف سنة ١٣١٥هـ / ١٨٩٧م . أما ابراهيم تيمو فقد خرج من البلاد قبل أن يقبض عليه ، وذهب الى رومانية حيث نظم فرعا للجمعية ، ونشر صحيفة لتركيا الفتاة (١) .

ومن الملاحظ أن السلطان عبد الحميد في كل مرة يقبض على رجال الاتحاد والترقي كان يخفف عنهم الحكم ، اما بالنفي أو بالسجن لفترة ثم يطلق سراحهم . ياللعجب .. يريدون قلب حكومته وهو يعاملهم باللين وفي هذه المرة نراه يكتفي بنفي هؤلاء الذين ارادوا خلعه الى خارج البلاد !

ولقد قال السلطان عبد الحميد الثاني ذات مرة : " انهم يدفعونني لكي أسلك الشدة والعنف ، ولكنني لا أستطيع ذلك لأنني لا أملك نفس المزاج العنيف الذي كان يملكه جدي السلطان محمود الثاني " (٢) .

الا أن مراد بك الداغستاني رفع الى السلطان قائمة بالاصلاحيات التي اعتبرها ضرورية لاصلاح الدولة ، ومراد هذا معلم للتاريخ في الكلية المدنية باسطنبول انضم الى جمعية الاتحاد والترقي ، وخلال الاحداث السابقة تطوع برفع هذه القائمة ، وقد ارتأى ما كان يدعو اليه أحمد رضا رئيس الجمعية في باريس ، فرأى السلطان نفيه فاختر مصر حيث أسس جريدته " الميزان " التي أخذت تتسرب خفية الى أيدي الثوار من الماسونيين في اسطنبول (٣) .

(١) أرنتس أ. رامزور : تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨م ، ص ٥٨ .

(٢) أورخان محمد علي : السلطان عبد الحميد الثاني ، ص ٧٣ .

(٣) أرنتس أ. رامزور : المصدر السابق ، ص ٥٩ .

، محمود منسي : حركة اليقظة العربية ، ص ١١٩ .

وبهذا النفي والهرب زاد عدد الأتراك في المنفى من الخارجين على سلطة الدولة والشريعة الإسلامية ومن تأثروا بالماسونية وتثقفوا بالثقافة الأوروبية وخاصة بعد افتتاح أمر المؤامرة التي دبرت للاطاحة بالسلطان عبدالحميد الثاني في سنة ١٣١٤هـ/١٨٩٦م ، وقد تركز نشاط حزب الاتحاد والترقي أو تركيا الفتاة في تلك الفترة في باريس<sup>(١)</sup> .

أما مراد الداغستاني فقد أشارت عليه جمعية الاتحاد والترقي أن ينتقل الى جنيف ، ووضعت له بعض الشروط والتنظيمات ومن أهمها عدم نشر مقالاته في جريدتي ( ميزان ومشورت ) الا بعد مصادقة شعبة الاتحاد والترقي في جنيف ، وكان مراد بك الداغستاني رئيسها ، ورضا بك عضوا فيها .

اضافة الى ذلك فقد اجتهد مراد بك لاعادة مركز جمعية الاتحاد والترقي الى اسطنبول ، فأنشأ فرعين في مدرسة بانقة العسكرية باسطنبول أحدهما عرف باسم حسين عوني ، والثاني عرف باسم سليمان ، وقد استعان هؤلاء الطلاب بطلاب كلية الطب لاجراء مظاهرة صاحبة حول قصر يلدز ، والمناداة باعادة الدستور أو المشروطة ، فقبض الجيش على زعيم هذه الجمعية الذي أفادهم بأسماء الثائرين معه ، فقبض عليهم وحوكموا في طاش قشله تحت رئاسة رشيد باشا . فحكم عليهم وأعدم بعضهم وحبس بعضهم لخروجهم على طاعة السلطان<sup>(٢)</sup> .

وقد حاول السلطان عبدالحميد الثاني عرقلة نشاط الجمعية في باريس بالتدخل الدبلوماسي ، وباستخدام الوسطاء حتى نجح في اقناع مراد بك الداغستاني بالتخلي عن نشاطه الثوري والعودة الى اسطنبول<sup>(٣)</sup> .

(١) محمود منسي : حركة اليقظة العربية ، ص ١١٦ .

(٢) روجي الخالدي : الانقلاب العثماني ( مجلة الهلال ، ج ١ ، ص ١٧ ، ١٩٠٨م ) ص ٢٢ .

(٣) روجي الخالدي : المصدر السابق ، ص ٢٢ .

(٤) محمود منسي : المرجع السابق ، ص ١١٦ .

وتفصيل ذلك أن السلطان رأى أن اتباع سياسة الشدة لاتفيد في القضاء على جمعية " الاتحاد والترقي " فعمد الى الدبلوماسية في استرضائهم، فأرسل الى مراد بك ، وأحمد جلال الدين باشا ، فأبلغه أن السلطان يوافق الثوار على الاصلاحات المطلوبة ، ولكنه يسأهم هدنة يتمكن خلالها من وضع خطة متكاملة للاصلاح . وقد دعا زعماء الحزب في اسطنبول ، وعرض عليهم استبقاء حياتهم والانعام عليهم اذا أذعنوا، ورجعوا ، واذا أبوا زادهم اضطهادا وقتلا ، فوافق الثوار على الشروط التالية :

١ - يوافقون على الهدنة ولكنهم لاينزعون سلاحهم .

٢ - يرفضون كل انعام أو مكافأة شخصية .

٣ - ان مراد بك مندوب الثوار يصل أولا بمفرده تحت رعاية الدولة فيعرض نفسه لهذا الخطر رغبة في المصلحة العامة .

٤ - يتعهد السلطان بالاصلاحات المطلوبة ، ويعفو عفوا عاما عن جميع أعضاء الثورة .

٥ - أحمد رضا بك يبقى على رئاسة الحزب الى أن تنجز الوعود .

فبعث جلال الدين مندوب السلطان تلغرافا الى السلطان بهذه الشروط ، فجاء الجواب بالايجاب وبالعفو العام عن الثوار العثمانيين سواء كانوا في السجون أو في المنفى ، وبناء على ذلك انحلت جمعية الاتحاد والترقي<sup>(١)</sup> . الا أن هناك بعض المتمسكين الذين لايزالون يطالبون بالاصلاح لم يوافقوا على الهدنة التي وافق عليها السلطان ومراد بك ، بل ظلوا باقين على آرائهم ، وعلى رأسهم رئيس جمعية الاتحاد والترقي أحمد رضا ، ولكنهم استسلموا للهدنة فيما بعد مضطرين .

(١) روجي الخالدي المقدسي : الانقلاب العثماني ، (مجلة الهلال ، ج ١ ، س ١٧ ، ١٩٠٨م) ص ٢٣ .

وفي سنة ١٣١٧هـ/١٨٩٩م ظهرت الجمعية في ثوب جديد وذلك عندما هرب الى باريس الداماد محمود باشا صهر السلطان عبدالحميد الثاني وزوج شقيقته ومعه ولداه صباح الدين ولطف الله ، وكان هروبهم الى باريس خفية ودون علم السلطة بعد أن استطاعوا الافلات من الرقابة ، حيث انضموا الى الثوار الأتراك في باريس<sup>(١)</sup> ، وبعد وصول محمود باشا الى باريس أول ما فكر فيه هو احياء جمعية الاتحاد والترقي التي كان يرجو فيها صلاح الدولة ، وذلك لاختلافه مع السلطان لحكمه الاستبدادي كما يقول . لذلك مال الى الحركة الدستورية لقلب الحكم ، فكتب الداماد محود باشا الى أحمد رضا مدير جريدة ( مشورت ) يدعوه الى الظهور وتأييد أفكاره فأجابه لطلبه وحقق رغبته ، ثم كتب الداماد الى السلطان في ٢١ من يناير سنة ١٩٠٠ الموافقة لسنة ١٣١٨هـ كتابا شديد اللهجة ذكر فيه الأسباب التي حملته على الخروج وضمن هذا الكتاب كثيرا من النقد والتجريح للسلطان ودولته .

فأذن السلطان عبدالحميد لرجال الدولة وسفراء الدول أن يتوسطوا بالصلح بينه وبين صهره في باريس لاسترضائه ، ولكنه أصر على موقفه وهو " الاصلاح والعودة الى الدستور الوضعي والعمل على تحقيق الاهداف التي يريدونها " . غير أنه لم يلبث أن أصيب بمرض مات على اثره في ١٨ من يناير سنة ١٩٠٣م الموافقة لسنة ١٣٢١هـ<sup>(٢)</sup> . فانضم ولداه صباح الدين ولطف الله الى الثوار الأتراك في باريس ، وكان مطلبهما الوحيد هو حرب السلطان عبدالحميد الثاني والقضاء على حكمه ، ولكنهما اختلفا حول طريقة ادارة الدولة بعد ذلك ، حيث كان أحمد رضا وأنصاره يصرون على قيام حكم مركزي في اسطنبول تجتمع في يده

(١) محمود ميسي . حركة اليقظة العربية . ص ١١٦ .

(٢) روجي الخالدي : الانقلاب العثماني (مجلة الهلال ، ج ١ ، ص ١٧ ، ١٩٠٨م) . ص ٢٤-٢٥ .

كل السلطات ، أما صباح الدين وزملاؤه فقد كانوا يريدون تطبيق اللامركزية وتوسيع صلاحيات الولايات ، ويدعون الى تكوين اتحاد عثماني يكون فيه التمثيل لمختلف قوميات الدولة (١) .

لهذا تفرغ الأمير صباح الدين لنصرة الثوار فجمع المشتتين منهم في أوروبا وغيرهم فبلغ عددهم حوالي سبعة وأربعين فردا من أمم شتى فيهم العربي واليوناني والكردي والألباني والشركسي واليهودي والأرمني والتركي اجتمعوا من مصر وبلغاريا وجنيف وباريس ، فتألف منهم جمعية تحت رئاسة صباح الدين فألقى فيهم خطابا شجعهم وأحيا آمالهم ، وحثهم على الثبات ، وجمع كلمتهم المختلفة تحت اسم الثوار الأتراك بلا تمييز في المذهب أو الجنس ، وحث على الوحدة بين الطوائف التركية في الدولة .

ثم طالب الدول الأوروبية بمساعدته ماليا وعسكريا ومعنويا ، ووضع برنامجا مطولا للجمعية وافق عليه الثوار الا أنصار احمد رضا الذين شق عليهم تدخل الدول الأوروبية ، لأن هذا مما ينافي هدفهم المعلن ، وكتب زعيمهم في جريدته " مشورت " فصولا عديدة عن ذلك التحرك (٢) .

وعلى اثر ذلك عادت جمعية الاتحاد والترقي في الظهور من جديد في باريس للعمل ، وتألقت لجننتها من جديد للبحث في تفاصيل الاصلاح اللازمة للدولة من الناحية السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتعليم وغير ذلك من الأمور .

كما أوصى أعضاء الجمعية بنشر الجمعيات والشعب في أنحاء المملكة العثمانية توصلا الى هذه الغاية . فتعددت الجمعيات والشعب في الدولة العثمانية

(١) أرنست أ. رامزور : تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨ م . ص ٩٩ .

محمود مسي : حركة اليقظة العربية . ص ١١٦ .

(٢) روجي الخالدي المقدسي : الانقلاب العثماني .. ( مجلة الهلال . ج ١ . ص ١٧ . ١٩٠٨ م ) . ص

وخاصة في أواسط آسيا الصغرى .

أما صباح الدين فقد أنشأ صحيفة في سنة ١٣٢٤هـ / ١٩٠٦م سماها "ترقي" لمخاطبة مختلف الطوائف داخل تركيا وخارجها ، وسعى الى التقريب بين العناصر المختلفة في الدولة ، وخاطب الأرمن على وجه الخصوص بكتاب مفتوح حضهم فيه على الوفاق ، وقال لهم : " انكم تطلبون توسط أوروبا في انقاذكم فهذا مطلب الأتراك أيضا ، فمصلحتنا في هذا الشأن مشتركة ، فلنسع معا في هذا السبيل وأوروبا ترحب بنا ، وتدعم مسيرتنا لأننا نقاوم الظلم والظالمين " .

وقد أدت خطبة صباح الدين الى جمع كلمة الثوار من الطوائف ، وجعل قاعدة سعيهم الاتحاد بين العناصر والمذاهب والاستعانة والاستغاثة بدول أوروبا . وعلى هذا المنهج والهدف قامت جمعية صباح الدين وأنصاره ، حتى حققت مطلبها وهو إعادة الدستور<sup>(١)</sup> بالتعاون مع جمعية الاتحاد والترقي تحت قيادة أحمد رضا .

وعندما كانت حركة الاتحاد والترقي أو تركيا الفتاة تسير في ثورتها داخل الدولة العثمانية كان أحمد رضا وصباح الدين دابنين في عملهما ، وكانت صفوقيهما تزداد عددا بين فترة وأخرى بالهاربين من اسطنبول الذين يطالبون باعادة المشروطة .

وبينما كان صباح الدين يكسب أنصارا من قوسيات مختلفة كان معظم الأتراك تجذبهم القومية التركية الصريحة التي يدعو اليها حزب أحمد رضا (الاتحاد والترقي) أكثر مما تجلبهم دعوى عصبة صباح الدين ( اللامركزية ) الادارية والمبادرة الخاصة<sup>(٢)</sup> .

(١) روجي الخالدي المقدسي : ( الانقلاب العثماني .. ( مجلة الهلال ، ج ١ ، ص ١٧ ، ١٩٠٨م ) ص

٢٦-٢٧ .

(٢) أرنست أ. رامزور : تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨م . ص ١٣٦ .

وكان قصر يلدز قد كشف في سنة ١٣١٩هـ / ١٩٠١م عن حركات ومؤامرة لاثنين من الأتراك هما سزاني بك والطبيب بهاء الدين شاکر ، فهربا قبل القبض عليهما من اسطنبول الى باريس لماذا؟ لأنهما كانا ينويان احياء جمعية الاتحاد والترقي داخل اسطنبول ، ولذلك اتصلا بأحمد رضا واتفقا معه على أن يعملوا سويا معا ، حيث استمر أحمد رضا في اصدار جريدته " مشورت " بالفرنسية ، فظهرت الى جانبها صحيفة جديدة باسم " شوراي أمت " (شوري الامة ) محررها سزاني بك ، فتوسعت الجمعية ، وازدادت قوتها لدرجة كبيرة فلم يعد الأمر كفاح رجل وعدد قليل ، بل لم يعد أحمد رضا وحده صوت الجمعية الذي يناقش وقد استمرت الصحيفتان تصدران جنبا الى جنب وتصلان الى الدولة والى مراكز الثوار في كل مكان <sup>(١)</sup> . حتى انه في أواخر سنة ١٣٢٥هـ / ١٩٠٧م تم التفاوض بين الجماعتين بعد عقد عدة مؤتمرات لتقارب وجهات النظر بين أحمد رضا رئيس جمعية الاتحاد والترقي والجمعية العثمانية ( اللامركزية ) تحت رئاسة صباح الدين ، وكانت الأخيرة ليس في باها الا الاطاحة بالحكومة القائمة في تركيا بالقوة . الا أن أحمد رضا كان يستنكر دائما استعمال القوة لتحقيق الغايات التي ينشدها ، ويبدو أنه في النهاية اقتنع بالتضحية بمبادئه من أجل الوحدة ، ولمكانة الأمير صباح الدين تم المزج بين الجمعيتين ، ثم أسهم في البرنامج الذي أقره المؤتمر الثاني في عام ١٩٠٧م وهذا البرنامج يدعو الى تبديل الحكومة في الدولة العثمانية بالقوة اذا اقتضت الضرورة .

وتقرر أيضا أن يطلق على الجمعيتين الاسم المشهور وهو " جمعية الاتحاد والترقي العثمانية " عثمانلي ترقى واتحادي جمعيتي " <sup>(٢)</sup> ليتحدوا يدا واحدة ضد

(١) أرنست أ. رامزور : تركيا الفتاة والثورة . ص ١٣٦ .

(٢) روجي الخالدي المقدسي : الانقلاب العثماني (مجلة الهلال ، ج ١، س ١٧، ١٩٠٨) ص ٢٨ .

السلطان عبدالحميد الثاني حول اعادة المشروطة أو تغيير الحكومة لنشر هذا الدستور . اضافة الى ذلك كانت هناك قوة أخرى تساندهم تتمثل في اليهود الذين انتشروا في كافة أقطار الدولة العثمانية ، وتجنسوا بالجنسيات الأجنبية للاستفادة من الامتيازات الممنوحة للأجانب يتحينون الفرص لمساعدة الجمعيات السرية في البلاد العثمانية ، مع أن الدولة سمحت لهم بالدخول الى أراضيها ، وعاملتهم معاملة حسنة ، الا أن هؤلاء اليهود كانوا يتحينون الفرصة للوصول الى فلسطين واحتلالها سواء كان ذلك بالطرق المشروعة أو الملتوية كما سنرى . مع أنهم عاشوا في أرغد عيش في البلاد العربية : في بيروت ، وفي سلانيك ، وفي بلاد الروم ، وفي الأناضول ، وكانوا هم السماسرة والأغنياء ، وعاشوا حياة مترفة ومريحة في الممالك العثمانية واعتبروا الأتراك أكبر أعدائهم وعلى رأسهم السلطان عبدالحميد<sup>(١)</sup> .

وفي هذا الصدد يذكر لنا مصطفى طوران معاصر هذه الأحداث أنه في سنة ١٣١٥هـ / ١٨٩٧م عقد مؤتمر للصهيونية العالمية في مدينة ( بازل ) بسويسرا، واشترك فيه ( ٢٠٤ ) من الأعضاء الصهاينة ، وبعد مناقشات طويلة توصلوا الى قرار حول تأمين وطن لليهود العالم ، وتقرر في هذا المؤتمر أن يكون هذا الوطن في الأرجنتين أو أوغندة . الا أن تيودور هرتزل أصر على أن يكون هذا الوطن في فلسطين ، فوافقته الأغلبية الساحقة ، فاتخذ القرار التالي : ضرورة نجاح هذه القضية ، ولو اقتضت صرف الملايين ، وقد أعطيت الصلاحية المطلقة لتيودور هرتزل لقاء تعهده بالوصول الى هذه الغاية<sup>(٢)</sup> .

وكان يهود روسيا في هذه الفترة يهاجرون الى تركيا ، وقد تمكن بعضهم من

(١) مصطفى طوران : أسرار الانقلاب العثماني ، ص ١٣-١٤ .

(٢) مصطفى طوران : المرجع السابق ، ص ١٥ .



الوصول الى فلسطين هربا من اضطهاد روسيا ومن رومانيا (١) . وفي سنة ١٣١٦هـ/١٨٩٨م علم تيودور هرتزل أن امبراطور ألمانيا ويليم الثاني وصل الى اسطنبول بدعوة من السلطان عبدالحميد الثاني فاستغل تيودور هرتزل هذه الفرصة واتجه مسرعا الى اسطنبول لمحاولة الاتصال بالأحزاب هنا ومعرفة خططهم ، الا أن زيارة الامبراطور ويليم لاسطنبول كانت قد انتهت وبدأ زيارته للقدس ، فلحقه هرتزل هناك وتمكن بعد أن توسط برئيس الوزراء الألماني (فون بولوف) من مقابلة الامبراطور ويليم حيث طلب مساعدته في تسهيل هجرة يهود العالم الى فلسطين ، فرد الامبراطور عليه قائلا : انه يمكنه المساعدة ولكن بشرط عدم المساس بحق حكم السلطان العثماني . فقبل هرتزل ذلك وطلب منه التوسط في مقابلة السلطان . وقد بذل الامبراطور وساطته ، وفعلا عاد هرتزل الى اسطنبول يحدوه الأمل ، ويرافقه قراصو زعيم الأقلية اليهودية التركية والحاخام ليفي موشيه حاخام اليهود بعد أن بذل ويليم امبراطور ألمانيا وساطته ، وتمكن هرتزل من مقابلة السلطان عبدالحميد الثاني في قصره بيلدز بعد أن مهدت سفارة ألمانيا لهذه المقابلة . فقدم هرتزل الى السلطان عبدالحميد الرشوة قائلا : مولانا صاحب الشوكة جلالة السلطان لقد وكلنا عبيدكم اليهود وهم يقبلون التراب الذي تدوسون عليه ويستعطفونكم للهجرة الى فلسطين المقدسة . ولقاء أوامركم العالية الجليلة نرجو التفضل بقبول هديتهم خمسة ملايين ليرة ذهبية " .

وكان السلطان عبدالحميد على علم بقرار مؤتمرهم في سويسرا وعلى علم بوصول المهاجرين اليهود من روسيا الى الدولة لذا كان يعرف ما يقصد هذا اليهودي من هديته (٢) .

(١) F.O.:424/222. Mr.Marling to Sir Eduard Grey.No.(2),3-1-1910.

(٢) مصطفى طوران : أسرار الانقلاب العثماني ، ص ١٦-١٧ .

وبعد أن استمع السلطان الى هذا العرض بكل هـدوء أمر الحرس بطردهم من القصر ، وأصدر على الفور أوامره بمنع هجرة اليهود الى فلسطين ، ووضع كل العقبات في طريقها (١) .

لكن اليهود لم يرتدعوا ، فنراهم يعودون مرة ثانية تدفعهم الى ذلك ضائقة الدولة المالية التي كانت تمر بها لعلها تكون المدخل الذي يستطيعون منه انتزاع موافقة السلطان عبد الحميد الثاني بالسماح لهم بالهجرة الى فلسطين ، فعادوا يحاولون مرة أخرى مقابلة السلطان ، ولما تمت لهم هذه المقابلة عرض هرتزل على السلطان مبلغا ضخما تحت شعار تقديم العون للدولة العثمانية ، مقابل السماح لليهود بالهجرة الى فلسطين . وماكاد هرتزل ينهي كلامه حتى قال له السلطان غاضبا : " لو كنت أعلم أنك جئت اليوم تطلب مني مارفضت اجابتك اليه من قبل لما سمحت لك بالدخول . وأعلم يا هرتزل ان فلسطين جزء من أرض الاسلام وأرض الاسلام لا تباع بالذهب والدراهم ، ولقد حصلنا على كل شبر منها ببذل دماء أجدادنا ، ولن نفرط بشبر منها قبل أن نبذل كل دماننا دفاعا عن هذه الأرض المقدسة مهما كلفنا الأمر " (٢) .

لذلك ناصب هرتزل العداة للسلطان عبد الحميد الثاني ، فقرر اليهود الوصول الى أهدافهم عن طريق خلع السلطان بالوسائل السياسية المتلوية (٣) . وهكذا فشلت المساعي الصهيونية في انتزاع أرض فلسطين . لذلك نراها تستخدم الماسونية، والماسونية كما سبق الحديث عنها في الفصل الثالث ماهي الا واجهة من واجهات الصهيونية . لذلك قررت الماسونية التخلص من السلطان فمدت يدها الى

(١) F.O.:424/222. Mr.Marling to Grey, No.:(2),3-1-1910.

(٢) زياد أبوغيممة : جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك ، ص ٤٥-٤٦ .

(٣) مصطفى طوران : أسرار الانقلاب العثماني ، ص ١٧ .

جمعية الاتحاد والترقي لتبعث فيها الحياة ، وقد أدركت الماسونية أن دور وجهـد  
بضعة أشخاص هاربين من الدولة العثمانية لن يكون مجديا على الاطلاق ، وأن  
الأسلوب المؤثر والفعال هو التسرب بين صفوف الجيش ، واصطياد ضباط من  
الشباب باستخدام كل أنواع المغريات للانخراط في سلك الماسونية . وكان الجيش  
الثالث هو الأنسب لهم فهو بعيد عن مركز الدولة أو في اقليم مضطرب مشحون  
بالمفتن والحركات السرية (١) .

وفي الوقت الذي استمر فيه حزب الاتحاد والترقي يزاول نشاطه في باريس  
واسطنبول بعد اتحاده مع أحزاب أخرى تشكلت منظمة سرية بين ضباط الجيش  
الثالث في مناستر وقوصوه وسلانيك غايتها اسقاط حكم السلطان عبدالحميد  
واعادة الدستور وعهد المشروطية ، والتمسك بالدولة العثمانية ، وعدم التفريق بين  
المواطنين في الدين أو العرق ، وتقوية السلطة وجعل الجيش سندا للثورة .

ففي سنة ١٣١٧هـ / ١٨٩٩م قام طلعت بك موزع البريد مع سبعة ممن  
أصدقائه بتشكيل جمعية للاتحاد والترقي في سلانيك ، وعندما سمع أحمد رضا رئيس  
حزب الاتحاد والترقي في باريس بالخبر أرسل الطبيب ناظم الى سلانيك للاتصال  
بالتنظيم الجديد وتأييده ، فاتصل هذا الطبيب بطلعت بك ، وبعد المشاورات التي  
دارت بينهما تقرر أن يكون للجمعية فرع في باريس أطلق عليه اسم التنظيم  
الخارجي لجمعية الاتحاد والترقي (٢) .

ومن هنا نرى أنه في هذه الأثناء سرت شرارة صغيرة من هذه الحركة الى  
الجيش الثالث في مدينة سلانيك مركز يهود الدوغمة الماسونيين فوجدت مرتعا خصبا  
لها. يقول أحد الاتحاديين : " كان الجيش الثالث يتمتع بنوع من الحرية العسكرية

(١) أورخان محمد علي : السلطان عبدالحميد الثاني .. ، ص ٢٨١ .

(٢) مصطفى طوران : أسرار الانقلاب العثماني ، ص ٤٩ - ٥٠ .

ذلك لأن تدخل الدول العظمى في أحداث الروملي ساعد على اكتساب هذا الجيش نوعا من الاستقلال لم تتمتع بها الجيوش الأخرى ، مما عمل على تهينة تربة جيدة لفكر الحرية لنشاط هؤلاء هناك " (١) . فأحس المحفل الماسوني في سلانيك بأن طلعت سيكون له مستقبل كبير في الدولة العثمانية ، فاتصلوا به ، وسجلوه في قائمة الماسونيين ورفق طلعت الى عدة درجات في المحفل الماسوني ، وأصبح يتقاضى منه راتبا شهريا مقداره عشر ليرات انجليزية .

وقد كان الرأس المدبر في سلانيك هو عمانونل قرا صو اليهودي ، وقد استطاع أن يحتضن طلعت ويقربه منه (٢) .

ولكن السلطان عبدالحميد الثاني بلغه مايجري في أوساط الجيش الثالث في سلانيك عن طريق عيونته التي كان يبتها السلطان في كل مكان خوفا على تفويض أركان دولته ، وفي هذه اللحظة قدم طلعت وقرا صو الى اسطنبول لتوثيق علاقة التنظيم بجمعية الاتحاد والترقي في اسطنبول ، فألقى القبض عليهما واستجوبا أمام لجنة خاصة شكلت بقصر يلدز بصورة مستعجلة ، وقد استطاع قرا صو بدهائه أن ينقذ نفسه وينقذ معه طلعت اذ قال : نحن ماسونيون لانكر ذلك لكننا لسنا أعضاء في جمعية سرية فاقنتت اللجنة بكلامه (٣) .

لهذا نرى أن الجمعيات التي تأسست في داخل اسطنبول لم تستطع تحقيق أهدافها حسبما خطط لها ، وذلك بسبب صرامة المراقبة من السلطان لهذه الجمعيات ، ولكن اختيار رجال جمعيات الاتحاد والترقي سالونيك في مقدونيا مركزا لنشاطهم يعود الى أنها كانت أكثر المناطق اتصالا بالعالم الأوربي ، هذا الى جانب ضعف قبضة السلطان عبدالحميد نسيباً عليها ، اضافة الى أن نشاط

(١) أورخان محمد علي : السلطان عبدالحميد الثاني ، ص ٢٨٠-٢٨١ .

(٢) مصطفى طوران : أسرار الانقلاب العثماني ، ص ٤٩-٥٠ .

(٣) مصطفى طوران : المصدر السابق ، ص ٥٠ .

قوميات البلقان في المنطقة دفع الدولة الى حشد قوات عسكرية بها ، ونظرا  
لاضطراب هذه المنطقة فقد أنشئت ادارة دولية خاصة تحت اشراف خمس دول  
أوربية <sup>(١)</sup> وهي إنجلترا وفرنسا وروسيا والنمسا وإيطاليا <sup>(٢)</sup> ، لهذا وجد الجيش  
العثماني الثالث نفسه في قلب دائرة التدخل الأجنبي <sup>(٣)</sup> .

ففي عام ١٣٢٦هـ / ١٩٠٨م اتسعت جمعية الاتحاد والترقي وتفاقم  
خطرها خاصة بعد دخول اليهود في عضويتها ودخول يهود الدونمة خاصة  
المستترين ( Grrpricjew ) والمقيمين في سلانيك .

وتعتبر هذه المدينة هي المركز الرئيسي لسانسهم وموامراتهم لأن هذه  
المدينة كانت تضم أكبر عدد من اليهود في تركيا ، معظمهم من اليهود الدونمة ،  
ورأى الاتحاديون أن نهاية السلطان باتت وشيكة الوقوع <sup>(٤)</sup> وخاصة عندما علموا  
في سالونيك بأجتماع ( ريفال ) بين نيقولا الثاني قيصر روسيا وادوارد السابع  
ملك بريطانيا في سنة ١٣٢٦هـ / ١٩٠٨م فانتابتهم المخاوف من احتمال فرض  
تضحيات جديدة على الدولة العثمانية ، وصار أعضاء الاتحاد والترقي يخشون أن  
تتنازل بريطانيا عن معارضتها التقليدية للأطماع الروسية ، وذلك معناه زوال  
الحكم التركي العثماني من أوربا <sup>(٥)</sup> .

لهذا قرر أعضاء الجمعية البدء بهذه الثورة والقيام بها يوم ذكرى مقتل

(١) ساطع الحصري : البلاد العربية والدولة العثمانية . ص ٩٣-٩٤ .

. محمود منسي : حركة اليقظة العربية . ص ١١٧-١١٨ .

(٢) ساطع الحصري : المصدر السابق . ص ٩٤ .

(٣) محمود منسي : المرجع السابق . ص ١١٨ .

(٤) حسان علي حلاق : دور اليهود والقوى الدولية في خلع السلطان عبد الحميد الثاني عن العرش .  
ص ٥٠ .

(٥) محمود منسي : المرجع السابق . ص ١١٨ .

السلطان عبدالعزيز ، غير أن الظروف حالت دون تنفيذ ذلك فتأجلت من ٥ يونيو ١٩٠٨م الى ٢٣ من يوليو سنة ١٩٠٨م<sup>(١)</sup> .

ويذكر القائد التركي جواد رفعت اتلخان المعاصر للسلطان عبدالحميد الثاني بعض الدوافع التي عجلت بثورة سنة ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م فيقول : " ان الصهيونية تريد تجريد السلطان عبدالحميد الثاني من سلطنته وثروته وأملاكه انتقاما منه لعدم افساح المجال له للقيام ضدهم ثانية . ويهود الدونمة المرتدون كانوا في سلانيك يريدون ازاحة عبدالحميد من امامهم ليصفي الجو لهم .. وجمعية الاتحاد والترقي كانت بحاجة الى المال .. "

ويضيف قائلا : " اليهود هم الذين نشروا الفوضى في داخل البلاد ، ونظموا القوة المناهضة للحكم العثماني بقصد تحطيم الدولة العثمانية ، وسلحوا أعضاء تركيا الفتاة في الخارج ، ونظموا صفوفهم ، وأمدوهم بالأموال ، كما نظموا عصابات السلافية في البلقان . "

وكان المحفل الماسوني قد شارك في هذه النشاطات قبل فترة طويلة ويبدو أن هذا كان في سنة ١٣٢٤هـ/١٩٠٦م عندما حصل اليهودي قراصو على إذن لعقد اجتماعات جمعية الاتحاد والترقي في محفله ... وبهذه الطريقة أصبح أعضاء هذه الجمعية من الماسونيين<sup>(٢)</sup> .

وعلى أية حال فإنه لما بلغ السلطان العثماني كثرة انتظام الضباط والموظفين في جمعية الاتحاد والترقي في سلانيك أخذ يستدعي المتهمين الى اسطنبول بحجة النقل والترقية ، فخاف سائر الأعضاء من الفشل كما حصل من قبل فعزموا

(١) حسان على حلاق : دور اليهود والقوى الدولية في خلع السلطان عبدالحميد الثاني عن العرش .

ص ٥٠ .

(٢) حسان على حلاق : المرجع السابق ، نقلا عن جواد رفعت اتلخان : الخطر بالاسلام وبسر اسرائيل

ص ١٥١-١٥٢ .

على القيام بالثورة (١) .

فانفجر الموقف بالشرارة الأولى من سلانيك مقر قيادة الجيش الثالث وحدث أن اغتيل قائد الجيش الأول ، وكانت هذه الحادثة سببا في اضطراب الدولة فقام القائد نيازي بك بالسيطرة على مركز البريد في ( رسنة ) ، وأرسل من هناك برقية الى السلطان عبد الحميد يخبره فيها بأنه سيعلم الثورة والدستور ويطلبه بقبول ذلك دون قيد أو شرط والا فالمسئولية الكاملة تقع عليه . وكان نيازي يعتمد على الجيش الثاني والثالث المعسكر في سلانيك ومناسر وعلى الفيلق الرابع في ارضروم (٢) .

فعظم طلب هذا الاصلاح على السلطان عبد الحميد ، فأمر فرقة كانت تتأهب على الحدود للدفاع عن الدولة باخماد هذه الثورة فما كان من هذه الفرقة الا أن انضمت هي الأخرى الى الثوار مطالبة بالدستور (٣) . وكان الألبان يعاضدون هذه الثورة ، فأخذت البرقيات تنهال على السلطان من جميع فرق الجيش مطالبة باعادة الدستور (٤) ، فخشي السلطان من تفاقم الأزمة ورآى أن من الحكمة أن يمنح الجمعية مطالبها حقنا للدماء ، وأعلن قبول الدستور في سنة ١٣١٦هـ / ١٩٠٨م (٥) .

ولما تمرد الجيش الثالث في مقدونيا وخاصة في ولاية سلانيك وأعلن أحمد

(١) مصطفى طوران : أسرار الانقلاب العثماني ، ص ٥٢ .

(٢) روجي الخالدي المقدسي : الانقلاب العثماني ( مجلة الهلال ، ج ١ ، ص ١٧ ، ١٩٠٨م ) ، ص ٢٩ - ٣٠ .

(٣) روجي الخالدي المقدسي : المصدر السابق ، ص ٣٠ .

عابدين حمادة : تاريخ الغرب والشرق ، ص ٢٩ .

(٤) عابدين حمادة : المرجع السابق ، ص ٣٥ .

(٥) روجي الخالدي المقدسي : المصدر السابق ، ص ٣١ .

نيازي الثورة وهدد بالتقدم نحو العاصمة اسطنبول (١) اذا لم يعلن الدستور أمر السلطان عبدالحميد الثاني باستدعاء أنور ونيازي أبرز زعماء هذه الحركة الى اسطنبول ، فلما تجاهل الاثنان هذا الأمر أمر السلطان بارسال الجيوش الآسيوية لاجتاد هذه الثورة ، ولكن جنود الأناضول وهم جنوده الآسيويون - رفضوا اطلاق النار على اخوانهم وزاد في حيرته أن القوات كلها اشتركت في ترديد كلمة " الثورة والمساواة والترقي " بدلا من قتل مردي هذا النداء . فلم يكن أمامه الا أن يعقد مجلس الدولة في ٢٣ من يولييه سنة ١٩٠٨م الموافقة لسنة ١٣٢٦م (٢) فاجتمع بالوزراء ودام هذا الاجتماع من الصباح الباكر حتى منتصف الليل الساعة الثامنة ليلا تماما بالتوقيت الغربي ، وجرى خلال هذا المجلس مناقشات حامية انقسم فيه المجلس الى فرقتين : فرقة تؤيد قبول الدستور وعلى رأسها قائد الجيش رضا باشا ، والأخرى مصممة على رفضه وعلى رأسها اسماعيل حقي باشا الذي طالب بالتنكيل بهؤلاء المتمردين على السلطة والقضاء عليهم ، وكانت كل فرقة تتحفر وتتواكب لضرب الفئدة الأخرى (٣) .

ويقول السلطان في هذا الصدد " لم يبق لنا الا وسيلة واحدة لاحتياط المؤامرات السياسية الانجليزية وهي أن أقوم على رأس هؤلاء الثوار فأعلن الدستور ، واتظاهر باتباع الانجليز ، فهذا هوة الطريق الوحيد لافشال مؤامراتهم ، وغدا سيفهم المعجبون بأفكارهم الثورية الى أي الطرق المهلكة ستؤدي بهم هذه الأفكار .

أمل أن يتحد جميع العثمانيون ولو في آخر لحظة للعمل على بقاء دولتهم والسير على هدي دستورهم المقدس ( القرآن الكريم ) مؤمنين بدمتمثلين لأوامرهم .

(١) لوتسكي : تاريخ الاقطار العربية . ص ٣٩٦-٣٩٧ .

(٢) الماوتلن : عبدالحميد ظل الله على الأرض : ترجمة راسم رشدي ( القاهرة . ١٩٥٠م ) ص ١٨٧ .

(٣) مصطفى طوران : أسرار الانقلاب العثماني . ص ٥٣-٥٤ .



والا فالمصير الأسود ينتظرنا حين تتأهب الدول النصرانية لتمزيق أشلائنا وتقاسم الممالك العثمانية فيما بعد" (١) .

لذلك تأخرت الصحف في موعدها، فبدأ الناس يقلقون ، يريدون أخبار هذا الاجتماع ، ويسألون عن أسباب تأخير الصحف ؟ ومن هو السبب في تأخيرها؟ ولماذا لاتصدر كعادتها ؟ في حين أن الثورة قد أعلنت في مناستر وسلانيك وقوصوه في ولايات مقدونيا ، وأطلقت المدافع في كل مكان لهذا الحدث .

وبعد تأخر الجرائد عدة ساعات عن موعدها الرسمي صدرت معلنة أن الحكم سيكون مقيدا في كافة أقطار وممالك الدولة العثمانية وأن الأمر السلطاني سيصدر بهذا الشأن ، وبعد بضع ساعات سمعت أصوات المدافع حول اسطنبول ، لذلك تعانق القساوسة بالمشايخ واليهود والنصارى بالمسلمين وأعلنت الثورة بشعاراتها الثلاثة : الحرية - العدالة - والمساواة " وزاد عليها "الأخوة" في ١/٧/١٣٢٦هـ الموافق ٢٤ يوليو سنة ١٩٠٨م .

وتلى ذلك ان استقبلت اسطنبول جمعية الاتحاد والترقي (٢) .

وكانت طريقة عبدالحميد في قبول الدستور تكشف عن مواهبه كسياسي فد . فقد أعلن عن استعداده ليرأس جمعية الاتحاد والترقي ، ولكنه أقنع بقبول العضوية العادية عندما أشار عليه أعضاء اللجنة المركزية للحزب بأن الأعضاء كلهم متساوون ، بل ذهب أكبر من ذلك فقد شكر رجال تركيا الفتاة ، لأنهم "فتحوا عينه" على أن الوقت قد نضج ، وتبرع بنصف مليون جنيه من جيبه الخاص لصندوق الجمعية ، ووهب لهم أحد قصوره ليكون مقرا للبرلمان القادم. واستطاع

(١) السلطان عبدالحميد الثاني: مذكراتي السياسية . ص ١٠٧ .

(٢) مصطفى طوران : أسرار الانقلاب العثماني ، ص ٥٤ .

السلطان بخبرته أن يمتص حماس الشباب ويحولها الى أوربا (١) .  
وفي هذا الصدد يقول السلطان عبدالحميد : " ان الأتراك قوم خياليون  
فاعلان الدستور ، وتشكيل حكومة نيابية في بلادنا يعني حدوث الفوضى وانقسام  
الناس الى شيع وأحزاب يقاتل بعضهم بعضا ، ويؤدي بالدولة العثمانية الى الخراب ،  
وتعاطف الانجليز مع الأتراك الشباب يلفت انتباهنا فهم يشجعون هؤلاء المغترين  
على المطالبة باعلان الدستور ، ويرفضونه لأنفسهم في الهند المستعمرة من قبل  
الانكليز ، مع أن أوضاع الهند تشبه أوضاع بلادنا حيث تعيش فيها عناصر  
متجانسة من المسلمين والنصارى والبوذيين والبراهمة ومن الصعب جمعهم في مجلس  
واحد " (٢) .

وفي يوم ٢ من جمادى الثانية سنة ١٣٢٦ هـ الموافق ٢٤ من يوليو سنة  
١٩٠٨ م ، أصدر السلطان مرسوما سلطانيا باعادة مجلس المبعوثين الذي صدر به  
القانون الأساسي في سنة ١٢٩٣ هـ / ١٨٧٦ م ، وعينت وزارة هذا العهد الجديد  
من سعيد باشا للصدارة ، وعمر رشدي للحربية ، أما بقية الوزراء فثبتوا في  
مناصبهم (٣) .

وقد افتتح السلطان مجلس المبعوثين في ٢٣ من ذي القعدة سنة ١٣٢٦ هـ  
الموافق ١٧ من ديسمبر سنة ١٩٠٨ م في سراي طوله بعججه بمحلة بشكطاش ثم  
تفضل السلطان بالنطق الآتي :  
"الأعيان المبعوثين ..

في وقت جلوسي فقد وضعت القانون الأساسي لموقع التطبيق وصادفته  
مشكلات في هذا الزمان ، وبناء على اللزوم الذي ظهر من رجال الدولة

(١) الماوتلن : عبدالحميد ظل الله على الأرض ، ص ١٨٨ .

(٢) السلطان عبدالحميد الثاني : مذكراتي السياسية ، ص ١٠٥ .

(٣) يوسف آصاف : تاريخ سلاطين آل عثمان ، ص ١٦٩ .

فقد أصبح تعطيل مجلس المبعوثين مؤقتا ، وقد أصبح تأخير توجيه وغرض القانون المذكور حتى قابلية الأهالي للدرجة المطلوبة بترقية المعارف في مملكتي السلطانية ، وقد أصبح الاهتمام بترقية المعارف بتأسيس المكاتب في كل طرف في الممالك السلطانية بالتعليم وبالحث على تكرار اجتماع مجلس المبعوثين ، ليكون الشكر . فقد علت الاستعدادات لتسوية صنوف أهاليها في ظل انتشار المعارف للحصول على هذا المقصد .

وقد أردت الدعوة لاجتماع مجلس المبعوثين باجراء انتخابات جديدة وأعلنت على رأسها القانون الأساسي بلا تردد رغما عن الموجودين للمطالبة ومخالفة رأيهم من اطمئنانني لما حدث بموجب سعادة الحال والمستقبل حصول دولتي ومملكتي لهذه الرغبة ... " (١) .

وبعد فترة من اعادة المشروطة الثانية حدثت محاولة ثورة مضادة في اسطنبول للقضاء على ثورة ١٩٠٨م اتهم فيها السلطان عبدالحميد الثاني . ولكن جيش مقدونيا بقيادة شوكت باشا زحف على العاصمة وضرب الحصار على قصر السلطان بيلدز ، بعد أن خلص الدولة من هذه الثورة وعقد المجلسان مجلس النواب ومجلس الأعيان جلسة صوت فيها أعضاؤه على خلع السلطان عبدالحميد الثاني وتسليم العرش الى أخيه محمد رشاد الذي أصبح يلقب بالسلطان محمد الخامس ، وبلغ السلطان عبدالحميد بقرار الخلع عن طريق وفد يضم اليهودي قراصو ، ثم نفي السلطان الى سلانيك ترافقه حاشيته ، وسجنوا

(١)

Osmanli Arsivi Yildiz :Esas ,Evrak Zarf. No.:314.  
، Faik resit Unot:ikinci Mascutiyetin ilani va  
otuzbir Mart Hadisesi, II. Abdu Lhamid in son Mabeyn  
Baskatibi Ali Cevat Bey in Fezlekesi, (Turk Tarih Kurumu,  
Ankara , 1985), 5. 28-29.

جميعاً في فلا الاتينت ( Alatini ) ضاحية من ضواحي سلانيك نفسها (١) وسيأتي  
تفصيل ذلك في الفصل التالي حول مقاومة الحزب الاسلامي للمشروطية الثانية  
داخل الدولة والولايات الأخرى ان شاء الله تعالى .

...

---

(١) زين نور الدين زين : الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان ، ص ٥٥ .



## الفصل الخامس

### مواجهة الغزو الفكري في الدولة العثمانية

- أ - مقاومة المشروطة الثانية في تركيا والولايات العثمانية الأخرى .
- ب - دعوة التوحيد والاصلاح في شبه الجزيرة العربية .
- ١ - أهميتها في مواجهة الغزو .
  - ٢ - استمرارها في أدوار السعودية الثلاث .
  - ٣ - تقديم نموذج للدولة الاسلامية العصرية .
  - ٤ - صد التدهور عن الجزيرة العربية .
- ج - تأثير حركات الاصلاح في العالم الاسلامي بها .

\*\*\*



## أ- مقاومة المشروطية الثانية في تركيا والولايات العثمانية الأخرى :

أشرنا فيما سبق الى كيفية اعادة المشروطية الثانية ، ولكن عندما اجتمع البرلمان الجديد كان فيه حزب الأحرار الذي يدعو الى "اللامركزية" وكان يقود هذا الحزب الأمير صباح الدين بن محمود باشا صهر السلطان عبدالحميد، وكان عدد من زعمائه من المسيحيين الذين سمح لهم بدخول البرلمان . و كرد فعل لكل ذلك قام حزب الاتحاد الاسلامي الذي كان يرى في المشروطية خروجاً على الشريعة الاسلامية<sup>(١)</sup> .

وكان قيام حزب الاتحاد الاسلامي من أخطر الصدمات التي هزت كيان العهد الجديد او رجال المشروطية ، فلقد قام هذا الحزب بالثورة ضد حزب الأحرار ودعاة المشروطية. وفي ٣١ مارس سنة ١٩٠٩م اندلعت الثورة التي قادها زعماء حزب الاتحاد الاسلامي في عاصمة الدولة ، وقبل أن تتم المشروطية شهرها التاسع<sup>(٢)</sup> .

هذه الثورة المضادة ، ظهرت لمقاومة المشروطية الثانية ودعاتيها من المسيحيين ، وتزعم هذه الانتفاضة دعاة الجامعة الاسلامية الذين نادوا بأن الشريعة في خطر ، وطالبوا بعودة أحكامها خاصة ، وقد سرت الاشاعات بأن حزب الأحرار يدعو الى النظام العلماني الجديد الذي يعمل للحط من مكانة الشريعة الاسلامية ، وفي الوقت نفسه قام مجموعة من الجنود بالتمرد على بعض الضباط الذين تلقوا تعليمهم في المدارس العسكرية ذات البرامج الغربية ، وتحول هذا التمرد الى سخط قام به الجنود العاديون في ١٣ من ابريل سنة ١٩٠٩م

(١) محمد عبداللطيف البحر اوي : التاريخ المعاصر وعلاقته العنصرية بالأزمة الحديثة ، ( مجلة الدارة، ع

٢ . س ١١ . ١٤٠٦ هـ ) ص ٨٣ .

(٢) ساطع الحصري : البلاد العربية والدولة العثمانية ، ص ٩٧ .



الموافقة لسنة ١٣٢٧ هـ . ولم يشترك في هذا التمرد سوى عدد قليل من الضباط<sup>(١)</sup>، واهتفوا: نريد الشريعة ، فأرسل السلطان اليهم رئيس كتابه حال سماعه النبأ ليخبرهم بأن الشريعة بخير وأنه لا أحد يستطيع أن يمسه بسوء<sup>(٢)</sup> . ولكن هؤلاء الجنود هاجموا مجلس المبعوثين والباب العالي ، وطالبوا باسقاط الحكومة التي أقامتها لجنة الاتحاد والترقي ، وفض مجلس المبعوثين ، والغاء الدستور ( المشروطة ) واعلان سيادة الشريعة الاسلامية<sup>(٣)</sup> ، وتغيير الصدر الأعظم حسين حلمي باشا ووزير الحربه على رضا باشا ، وقائد الفرقة الأولى محمود مختار باشا ، ورئيس مجلس المبعوثين أحمد رضا ، ونفي الاتحاديين من البلد ، واعادة ضباط (الأيلي)<sup>(٤)</sup> الى الخدمة العسكرية ، والعفو عن جميع المشتركين في هذا التحرك لأنهم لا يقصدون سوءا . الا أنهم في نفس الوقت كانوا يبحثون عن رئيس مجلس المبعوثان احمد رضا بك وعن الصحفي حسين يالجين لشيوع عداوتهما للإسلام . غير أنهم لم يعثروا عليهما ، فقد هربا ، واختفيا عن الأنظار ، ولكن الجنود قتلوا وزير العدل ناظم باشا ظنا منهم أنه هو أحمد رضا ، كما ألحقوا به نائب وفد اللاذقية يحسبونه أنه الصحفي المعادي للإسلام حسين يالجين ، كما قتلوا عددا من الجنود من خريجي

(١) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٢٧٢ .

. ساطع الحصري : البلاد العربية والدولة العثمانية ، ص ٩٧ .

(٢) أورخان محمد علي : السلطان عبدالحميد الثاني ، ص ٣٢٢ .

(٣) أحمد عبدالرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص ٢٧٢ .

. ساطع الحصري : المرجع السابق ، ص ٩٧ .

(٤) كان الضباط في الدولة العثمانية على نوعين : الضباط من خريجي الكلية الحربية ويطلق عليهم

"مكتيلي" أي خريجي المدارس . والضباط الذين تدرجوا في الرتب العسكرية بطول الممارسة أو بالخبرة من رتبة جندي حتى رتبة الضابط ( الأيلي ) . وقد بدأ الاتحاديون باخراج هؤلاء من الجيش واحالتهم الى التقاعد مما ولد تدمرا في الجيش لكثرة عدد هؤلاء الضباط . وكان أحد أسباب هذا التمرد .

- أورخان محمد علي : المرجع السابق ، ص ٣٢٣ لخاشية رقم (٣٧٥) .

الكليات والمعاهد الحربية ، فلقد كان المتمردون يستوقفون الضابط ويسألونه هل أنت ضابط متخرج من المدارس أم ضابط خدمة ( آلايلي ) ؟ فاذا كان الجواب انه من خريجي الكلية قتلوه<sup>(١)</sup> .

وكان زعيم هذه الثورة يسمى درويش وحدتي ، الذي تحمس للاسلام وغار عليه ، ونادى بأن المشروطية مخالفة للشريعة الاسلامية ، وكان السلطان عبد الحميد الثاني معارضا للمشروطية ، وأن اعلانه قد تم تحت الضغط والاكراه فالواجب الديني يقضي بالغاء القانون الأساسي و اعلان الشريعة المحمدية<sup>(٢)</sup> .

ولتهدنة الأحوال فقد قام السلطان بعزل الصدر الأعظم وعين بدلا منه توفيق باشا كما تم تبديل وزير وقائد الفرقة الأولى نزولا عند رغبة الجنود الثوار ورغبة في انهاء حركة التمرد ، الا أنها لم تنته<sup>(٣)</sup> .

ولم تقتصر حركة التمرد على اسطنبول فقط ، بل انتشرت حركات مماثلة في الولايات العثمانية ، وخاصة في الأناضول ، وفي مدينة أضنة حيث قام المسلمون فيها بالاشتباك مع عدد من الأرمن والأتراك الموالين لتأييد المشروطية ، ثم امتدت هذه الحركة أيضا الى شمال الشام<sup>(٤)</sup> .

قام هذا التمرد في الولايات المذكورة بناء على ما أرسله دعاء الجامعة الاسلامية من المنشورات في ١٥ من ابريل سنة ١٩٠٩م الموافق لسنة ١٣٢٧هـ الى المسؤولين العثمانيين يطلبون منهم المحافظة على أصول الشريعة<sup>(٥)</sup> .

(١) ساطع الخصري: البلاد العربية والدولة العثمانية ، ص ٩٧ .

أورحان محمد علي : السلطان عبد الحميد الثاني ، ص ٣٢٣ .

(٢) ساطع الخصري: المرجع السابق ، ص ٩٧ .

(٣) أورحان محمد علي : المرجع السابق ، ص ٣٢٣ .

(٤) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٢٧٢-٢٧٣ .

عبدالعزيز الشدوي: الدولة العثمانية دولة اسلامية مفتوى عليها ، ج ٢ ، ص ١٠٠٦ .

(٥) عبدالعزيز الشدوي : المرجع السابق ، ص ١٠٠٦-١٠٠٧ .

وعلى الرغم من سيطرة دعاة الجامعة الاسلامية على العاصمة فلم يكن لهم برنامج سياسي<sup>(١)</sup> أو هدف واضح إلا إلغاء هذه المشروطية ، ونفي أصحابها ، وعودة السلطان الى ادارة دفة الحكم بصلابة وحكمة دون تدخل من الدستوريين . وما كان من السلطان عبدالحميد الا أن استجاب لرغباتهم معلنا الغاء المشروطية ، وألف حكومة جديدة لتنفيذ ذلك . وبما أنه كانت المدافع قد أطلقت احدى وعشرين طلقة عند إعلان المشروطية فإن معارضي المشروطية طلبوا من السلطان أن يتم الاحتفال بإعلان الشريعة وإلغاء المشروطية باطلاق مائة طلقة ، ثم أخذت أفواج الجيش تطوف بشوارع المدينة الرئيسية والجنود يطلقون رصاص بنادقهم ابتهاجا بالنصر الذي أحرزوه ويهتفون بأصواتهم " باشاسون شريعة محمدية" ويعني ذلك " فلتعش الشريعة الاسلامية " <sup>(٢)</sup> . يتزعم ذلك أنمة المساجد وفريق من علماء الدين الاسلامي والدرراويز وطلبة المعاهد الدينية وضباط الجيش ( الايلي ) - وهم الضباط الذين نشأوا وتقدموا من بين صفوف الجنود - بناء على الأقدمية وخدماتهم العسكرية حتى وصلوا الى رتبة ملازم دون دراسة في المدارس العسكرية <sup>(٣)</sup> .

هذه الثورة ضد أنصار المشروطية والدستور ساندها الجيش المحتشد في العاصمة ، أما الجيوش في الولايات البلقانية في مقدونيا ( مناستر ، وقوصوه ، وسلانيك ) وخاصة سلانيك التي مهدت للمشروطية الثانية فقد كانت على ولانها لما يسمى بالعهد الجديد او الدستور المتأثر بالنظم الأوربية ، ولذلك بادرت هذه الجيوش الموالية للنظام الدستوري بالزحف على العاصمة بقيادة محمود

(١) أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني، ص ٢٧٣ .

(٢) ساطع الحصري : البلاد العربية والدولة العثمانية ، ص ٩٨ .

(٣) عبدالعزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ، ص ١٠٠٦ .

شوكت من سلانيك، وهذا الجيش عرف باسم " جيش الحركة " ( حركة اوردوسو )<sup>(١)</sup>. وذلك لتسكين الهياج وتأييد الدستور وتثبيتته في اسطنبول . فحاصروا الثائرين على المشروطة ، واحتلوا مواقعهم في ٢٣ من ابريل ١٩٠٩م الموافقة ١٣٢٧هـ .

وفي يوم السبت ٢٤ من ابريل سنة ١٩٠٩م الموافقة لسنة ١٣٢٧هـ استيقظ الناس على دوي المدافع من جهة يلدز لأن السلطان كما يزعمون أصر على المقاومة ، فحاصروا السراي ، وبعد ذلك أرسل قائد الاحتلال محمود شوكت الى جواد بك قائد جنود يلدز انذارا بالاستسلام ، فاستسلم جواد بك ، ولكن بعض الجنود بداخل السراي لم يقبلوا بالاستسلام فوقع بينهم وبين أنصار المشروطة معركة حامية الوطيس تمكن بعدها أنصار المشروطة بقوتهم من التغلب عليهم . أما السلطان فقد سلم وطلب لنفسه الأمان فنقل الى ( سراي بغجة ) يستظر المصير المحتوم .

عند ذلك أعلن محمود شوكت المشروطة الثانية ، وفرض الأحكام العرفية في اسطنبول ، وطلب من مجلس النواب الاجتماع ، فاجتمعوا في الحال في سان ستيفانو إحدى ضواحي اسطنبول لتقرير مصير السلطان<sup>(٢)</sup> . وقد اتهم دعاة المشروطة السلطان عبد الحميد الثاني بتدبير هذه الثورة المضادة ، وان كان يحتمل ذلك ، فان دوره لا يتعدى مساندتها بعد بدنها حين تبين له أنها قوية بحيث تمكنه من استعادة سلطته المسلوبة<sup>(٣)</sup> ، وخاصة أن مجلس

(١) ساطع الحصري : البلاد العربية والدولة العثمانية . ص ٩٨ .

، أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني . ص ٢٧٣ .

، عبدالعزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها . ص ١٠٠٧ .

(٢) يوسف آصاف : تاريخ سلاطين آل عثمان . ج ٢ . ص ١٧٠-١٧١ .

(٣) أحمد عبدالرحيم مصطفى : المرجع السابق / ص ٢٧٣ .

المبعوثين اختفي في ٣١ من مارس سنة ١٩٠٩م / ١٣٢٧هـ وقد بقي القليل من أعضائه مختبئين في اسطنبول ، أما معظمهم ففر الى الولايات الثلاث المذكورة للاحتماء بها (١) .

ماذا يريد هؤلاء الأحرار أو الأشرار - ان صح هذا التعبير - من السلطان عبدالحميد أن يعمل والناس تطلب منه الغاء المشروعية والدستور ؟ وهذا مطلب قيم يجب على كل مسلم غيور على الإسلام أن يسانده ، ذلك لأن المشروعية أريد بها هدم الشريعة الاسلامية والاسلام ، ومعروف أن السلطان عبدالحميد الثاني رجل مسلم ، تنازل لجمعية الاتحاد والترقي على مفضض وهو يعرف من كان يساندهم وهم الانجليز ، وقد سبق أن صرح بذلك أكثر من مرة . كما أنه من الواضح أن الانجليز يريدون من خلال هذه المشروعية هدم الشريعة الاسلامية واحلال القانون الوضعي عوضا عنها . وبالتالي هدم الدولة الاسلامية بتمكين حزب الاتحاد والترقي الذي تربى أعضاؤه في أحضان الماسونية في سلانيك ، ونحن نعرف ارتباط الماسونية بالصهيونية لأنهما وجهان لعملة واحدة، وكلاهما يسعى لايجاد وطن قومي لليهود في فلسطين . ومن أجل ذلك خطت هذه الفئة الباغية لخلع السلطان عبدالحميد الذي وقف حجر عثرة أمام آمالهم ورفض جميع عروضهم المالية المغرية . ورأوا أنه في سبيل تحقيق أهدافهم ومخططاتهم لا بد من تسليم زمام السلطة في الدولة للفئة التي قاموا بترتيبها وتدريبها على العمل على معاداة الشريعة الاسلامية ، وقد تحققت ظنون السلطان بذلك عندما استلمت هذه الفئة الباغية الحكم من بعده . وعملوا على تسهيل هجرة اليهود الى فلسطين دون قيد أو شرط .

وهذا ما أثبتتها الوثائق والتقارير البريطانية ، وقد أحدثت هذه التحركات

(١) ساطع الحصري : البلاد العربية والدولة العثمانية ، ص ٩٩ .

في الدولة العثمانية تغييرا ملائما للتوقعات ، فقد كثرت المستوطنات اليهودية في فلسطين أكثر من ذي قبل . وقد كان للدور الذي قام به اليهود وخاصة اليهود الأتراك ( الدونمه ) في سلانيك في الثورة الحديثة أثرٌ مميّزٌ مما أعطاهم الفرصة في الحصول على تأثير خاص في المجالس النيابية التركية .

وقد كان السلطان عبد الحميد معارضا لمثل هذه المشروعات وخاصة ما يتعلق منها في إيجاد وطن قومي لليهود في فلسطين ، وقد أدى موقفه هذا إلى استياء اليهود وخاصة اليهود الأتراك الذين كان معظمهم من دعاة المشروطية ، وأعداء الشريعة الإسلامية ومن يملكون شعورا قويا بالانتماء للشرق ، كما أنهم يعتبرون من أصحاب الاستثمارات الكبيرة في منطقة مقدونيا ، وعندما قامت الثورة ضدهم قاموا بتقليل مساعداتهم المادية لتركيا . وقد حاول هؤلاء البغاة وعلى رأسهم قراصو الاطاحة بحكم السلطان عبد الحميد<sup>(١)</sup> ، وكان قراصو أحد أعضاء الوفد الذي قام بتبليغ السلطان قرار الخلع كما سيأتي .

وهنا نود أن نقول ما هو رأي بعض المؤرخين المسلمين الذين أكدوا أن السلطان عبد الحميد الثاني بعد اعلانه الدستور استعمل كل حيلة ودهاء ليؤكد للدستوريين أنه أصبح دستوريا أكثر منهم ، وأعلن ذلك مرارا ، لكنه سعى سرا في تأليف جمعية باسم " الجمعية الإسلامية " على مبدأ الشريعة الإسلامية فأقبل الناس على الدخول فيها ، وفي مدة وجيزة انتشرت في عموم الولايات العثمانية وقامت بأول أعمالها يوم ١٢ من ربيع الأول سنة ١٣٢٧ هـ الموافقة لسنة ١٩٠٩ م حيث تجمهر عدد كبير من عليّة الناس يطالبون باعادة الشريعة الإسلامية وطرد

(١) F.O.: 242/222, Mr. Marling to Sir Eduard Grey. No.: (2). 3-1-1910.

والآن نعود الى اجتماع المبعوثين مع أعضاء مجلس الأعيان في سان ستيفانو حيث عقدوا جلسة رسمية قرروا فيها خلع السلطان عبدالحميد ، بعد أن استصدروا فتوى الخلع ، في يوم الثلاثاء ٢٧ من ربيع الآخر سنة ١٣٢٧ هـ الموافق ٢٧ من ابريل سنة ١٩٠٩ م واجلاس ولي العهد محمد رشاد على العرش باسم السلطان محمد الخامس . وكان هذا السلطان في الرابعة والستين من عمره يستجيب لما يؤمر به (٢) .

أما كيف تم إبلاغ السلطان عبدالحميد ا لثاني بقرار مجلس النواب ؟ فقد اختار النواب لهذه المهمة وفدا لن ينسأه المسلمون ولن ينسأه التاريخ أبدا ، لأنه وفد يندى لذكره الجبين . لقد ضم الوفد : ارم افندي ، وعمانونيل قرا صو المذكور اليهودي ونائب سلانيك والعدو الأول للاسلام ورفيق درب هرتزل ، ومدير المكاييد للقضاء على الدولة العثمانية ، وأسعد طوبطاني الأرثووطني ، وعارف حكمت باشا ، قدم هذا الوفد الى السلطان فوجدوه واقفا فلما قرأ عارف حكمت الفتوى التي أصدرها شيخ الاسلام ضياءالدين أفندي أجاب السلطان جواب المؤمن : " ذلك تقدير العزيز العليم " . وأعقب ذلك أسعد طوبطاني قانلا : لقد عزلتك الأمة ، فغضب عبدالحميد وقال : تقصد أن الأمة خلعتني ، لا بأس ، ولكن لماذا جنتم بهذا اليهودي الى مقام الخلافة ؟ (٣) ويعنى السلطان بهذا القول قرا صو .

(١) يوسف آصاف : تاريخ سلاطين آل عثمان . ج ٢ . ص ١٦٩ .

ساطع الحصري : البلاد العربية والدولة العثمانية . ص ٩٧ .

عابدين حمادة : تاريخ الغرب والشرق . ص ٣٦٠ .

وغير هؤلاء من المؤرخين كثيرون قد طرقتوا هذا المنهج .

(٢) ساطع الحصري : المرجع السابق . ص ٩٩ . يوسف آصاف : المصدر السابق . ج ١ . ص ١٧١ .

(٣) مصطفى طوران : أسرار الانقلاب العثماني . ص ٩٩-١٠٠ .

ولهذا يذكر المؤرخ التركي أورخان محمد علي قول السلطان عبدالحميد حيث يقول : " ان أشد ما آلني هو تبليغي قرار الخلع من قبل ذلك اليهودي الماسوني ، فانا لا أستطيع نسيان " عمانويل قرا صو " من بين وفد المبعوثين (النواب) الذين جاءوا الى يلدز . لقد كان هذا اهانة لمقام الخلافة ، ونحن جميعا نعلم مدى الحقد الذي يكنه اليهودي للاسلام منذ زمن الرسول صلى الله عليه وسلم<sup>(١)</sup> .

ويضيف السلطان فيقول : " وعندما كنت على عرش السلطنة جاءني في أحد الأيام "تيودور هرتزل" مؤسس المنظمة العالمية مع رئيس الحاخامين وذلك من أجل غاية صهيونية ... فكان طلبهم هو وطن لليهود ، وكانوا يقترحون القدس لذلك ، حتى أن تيودور هرتزل قال بلاخجل : أحب أن أعرض لجلالتكم بأننا مستعدون لتقديم الملايين التي ترونها مناسبة من الذهب حالا من أجل القدس ... صرخت بهم قائلا : اخرجوا من هنا ... ان الوطن لا يباع بالمال ... ومن ذلك الوقت ناصبني اليهود العدا ... وكل ما أقاسيه هنا في سلانيك هو جزاء علم اعطاني وطنا لليهود "<sup>(٢)</sup> .

والى الشئ نفسه يشير السلطان عبدالحميد في رسالته التي وجهها الى شيخه محمود أفندي أبي الشامات في منفاه بسلانيك ، حيث يقول فيها: بعد الحمد والتسليم والتحية لشيخه مايلي :

(... أعرض لرشادتكم والى أمثالكم أصحاب السماحة والعقول السليمة المسألة المهمة الآتية كأمانة في ذمة التاريخ : انني لم أتخل عن الخلافة الاسلامية لسبب ما ، سوى أنني بسبب المضايقة من رؤساء جمعية الاتحاد المعروفة باسم (جون

(١) محمد حرب عبدالحميد : السلطان عبدالحميد الثاني ، ص ٢٨٨-٢٨٩ .

(٢) محمد حرب عبدالحميد : المرجع السابق ، ص ٢٨٨-٢٨٩ .



ترك ) وتهديدهم - اضطررت وأجبرت على ترك الخلافة الاسلامية .

ان هؤلاء الاتحاديين قد أصروا وأصرروا علي بأن أصادق علي تأسيس وطن قومي لليهود في الأرض المقدسة ( فلسطين ) ورغم اصرارهم لم أقبل بصورة قطعية هذا التكليف ، واخيرا وعدوا بتقديم ( ١٥٠ ) مائة وخمسين مليون ليرة انجليزية ذهبا وأجبتهم بالجواب القطعي التالي : ( انكم لو دفعتم ملء الدنيا ذهبا فضلا عن ( ١٥٠ ) مائة وخمسين مليون ليرة انجليزية ذهبا - فلن أقبل بتكليفكم هذا بوجه قطعي . لقد خدمت الملة الاسلامية والأمة المحمدية ما يزيد عن ثلاثين سنة فلم أسود صحائف المسلمين أباني وأجدادي من السلاطين والخلفاء العثمانيين . لهذا لن أقبل تكليفكم بوجه قطعي أيضا . وبعد جوابي القطعي اتفقوا علي خلعي وأبلغوني انهم سيعيدوني الي سلاطنتك فقبلت بهذا التكليف الأخير .

هذا وحمدت المولى وأحمدته أنني لم أقبل بأن أطخ الدولة العثمانية والعالم الاسلامي بهذا العار الأبدى الناشئ عن تكليفهم باقامة دولة يهودية في الأراضي المقدسة " فلسطين " وقد كان بعد ذلك ما كان . ولذا فاني أكرر الحمد والثناء علي الله تعالى ، وأعتقد أن ما عرضته كاف في هذا الموضوع ، المهم وبه اختتم رسالتي هذه . أتم يديكم المباركتين وأرجو وأسترحم أن تتفضلوا بقبول احترامي وسلامي الي جميع الاخوان والأصدقاء .

يا أستاذي المعظم . لقد أطلت عليكم البحث ، ولكن دفعني هذه الاطالة أن نحيط سماحتكم علما ونحيط جماعتكم بذلك أيضا . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

في ٢٢ ايلول ١٣٢٩ هـ

خادم المسلمين : عبد الحميد عبد المجيد (١)

(١) أورهان محمد علي : السلطان عبد الحميد الثاني . ص ٢٨٩ - ٢٩٠ . عبد الكريم مشهداني :

العلمانية واثارها على الأوضاع الاسلامية في تركيا . ص ٣٩٠ - ٣٩١ .

وهكذا بعد أن أزيح السلطان عن سدة الحكم أرسل في ٧/٤/١٣٢٧ هـ ،  
 الموافق ٢٨ ابريل سنة ١٩٠٩ م مع نسائه وأولاده : عبدالرحيم ، ومحمد ، وعابد ،  
 وبناته : شادية ، وعائشة ، ورافعة ، وبعض الخدم الى سلانيك ، ووضع في قصر  
 الاثبتي الصيفي كما سبق ، تحت حراسة فدائيي الاتحاد والترقي ، ولما اندلعت  
 حرب البلقان جرى نقله مع حاشيته الى قصر بكلربكي في اسطنبول بعد توسط  
 صديقه القديم الامبراطور وليم الثاني ، وقد أقام هناك حتى توفي في هذا  
 القصر<sup>(١)</sup> .

ومما هو جدير بالذكر أن السلطان نفي بعد تدبير احداث ٣١ مارس  
 السالف ذكرها . وقد أكد السلطان في مذكراته أنه لايعرف عنها شيئا . وفي هذا  
 الصدد يقول : " أريد أن يكون معلوما جيدا أنه لم يكن لي أدنى علاقة لا من بعيد  
 ولا من قريب بالأحداث التي تفجرت في ٣١ مارس . وعلى امتي أن تبحث عن  
 هؤلاء الذين كانوا سببا في هذه الحوادث وعليها أيضا أن تحاسبهم<sup>(٢)</sup> " .  
 وفعلا لقد ثبتت من التحريات أن أحداث ٣١ مارس بعد أن خمدت فتيتها  
 إنما دبرت بمساعدة يد أجنبية . فقد ضبط في منزل سعيد باشا القبرصي المعروف  
 بولانه للانجليز النسخ الأصلية لكل المقالات والمنشورات الرئيسية التي نشرتها  
 جريدة البركان السرية . وقد سلمت هذه الوثائق الى رئاسة المحكمة  
 العرفية ولكنهم سكتوا عن هذا الموضوع . ولم يستطع أحد أن يتفوه عن هذه  
 المنشورات بكلمة واحدة . فثبت بما لايقبل الشك أن وكالة الاستخبارات

(١) مصطفى طوزان : أسرار الانقلاب العثماني . ص ١٠١ .

(٢) محمد حرب عبد الحميد : مذكرات السلطان عبد الحميد . ص ١٠٢ .

الانجليزية وراء هذه المؤامرة<sup>(١)</sup> .

ونتيجة لذلك فقد خلا الجو لرجال الاتحاد والترقي وحولوا جمعيتهم من منظمة سرية الى حزب سياسي علني في شهر ابريل سنة ١٩٠٩م الموافق سنة ١٣٢٧هـ ، وذلك في بيان اذاعته الجمعية في الصحف ، وانفردوا بالحكم اذ سمح لهم السلطان محمد الخامس أن يحكموا البلاد باسمه<sup>(٢)</sup> .

\*\*\*

درسنا في الفصل الثاني جهود المستشرقين والمنصرين في المدارس والارساليات والمؤسسات العلمية والخيرية للسعي الى زعزعة عقيدة المسلمين الناشئة ، ثم تهينة هؤلاء الناشئة بأساليبهم المختلفة لقبول النفوذ الغربي تمهيدا للاستعمار الأوربي.

وقد توصلنا الى حقيقة حيث إنه مهما تشعبت هذه المؤسسات ومهما اتخذت من أسماء وشعارات فانها تلتقي أهدافها عند غاية واحدة هي السيطرة الثقافية والدينية والسياسية الغربية على المشرق العربي الاسلامي . وقد اتضح لأصحاب هذه المؤسسات أن المسلمين كانوا أصلب عودا في تقبل النفوذ الأجنبي ، فراحوا يوجهون جهودهم للاستعانة بغير المسلمين من المستشرقين في البلاد العربية<sup>(٣)</sup> مع الاهتمام والتركيز الخاص على المسلمين ، فنجحوا في استمالتهم عن طريق المدارس والمستشفيات والمؤسسات الخيرية ، التي مهدت لبسط النفوذ

(١) مصطفى طوران : أسرار الانقلاب العثماني ، ص ٩٦ .

(٢) ساطع الحصري : البلاد العربية والدولة العثمانية ، ص ٩٩ .

، يوسف اصاف : تاريخ سلاطين آل عثماني ، ج ٢ ، ص ١٧١ .

(٣) مصطفى خالد وعمر فروخ : التبشير والاستعمار ، ص ٥-٦ .

الأجنبي باعتبارها من وسائل التنصير. لذا أخذ العثمانيون يقاومون هذا الغزو الفكري في بلاد الشام وفي العاصمة العثمانية نفسها كما مر بنا. فتوالت الكوارث بتضافر القوى اليهودية والصليبية للقضاء على الخلافة العثمانية باعتبارها التجسيد الحي للأمة الإسلامية في ذلك الوقت ، فأخذ الغرب المستعمر يقطع أجزاءها ، وأخذت روسيا تقطع منذ عهد كاترين ( ١١٧٦ - ١٢١١هـ / ١٧٦٢ - ١٧٩٦م ) بعض الأراضي والولايات العثمانية ، كما هاجم نابليون مصر في سنة ١٢٣١هـ / ١٧٩٨م ، ثم حرض الروس وبعض الدول الأوروبية البلقان على الثورة منذ عام ١٢١٩هـ / ١٨٠٤م ، وأمدوهم بالمساعدات حتى انفصلت عن الدولة العثمانية ، كما حرضوا اليونان على الثورة منذ عام ١٢٣٦هـ / ١٨٢٠م حتى استقلت عن تركيا في عام ١٢٤٦هـ / ١٨٣٠م كما سبق .

ثم توالت الحملات العسكرية الاستعمارية، فاحتلت فرنسا الجزائر في سنة ١٨٣٠م ، وتونس في سنة ١٨٨١م ، ومراكش في سنة ١٩١٢م ، كما احتلت إيطاليا ليبيا في سنة ١٩١١م<sup>(١)</sup> .

أما الأطماع الاستعمارية الأخرى فقد كانت الدول الأوروبية متفقة على اقتسام ميراث الدولة العثمانية عند زوالها من الوجود . فكانت بريطانيا تطمع في بتزول الموصل مع ضمان انشاء خط ثان بري للهند يمتد من فلسطين الى الخليج العربي ، لأنها كانت قد استولت على الهند من قبل ، وانتزعت باستعمارها لها سيادة المسلمين للاستيلاء على ثرواتها الاقتصادية ، ثم لم تلبث أن احتلت عدن في سنة ١٨٣٩م ، وبسطت حمايتها على لحج والمحميات من حدود اليمن الجنوبية

(١) مصطفى صبري : الأسرار الخفية وراء الغاء الخلافة العثمانية ، تقديم مصطفى حلسي ، الطبعة الأولى ، الاسكندرية ، دار الدعوة ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م ، ص ٢٦-٢٧ .

الى شرق الجزيرة العربية . ثم استولت على مصر في سنة ١٨٨٢ م ، والسودان في سنة ١٨٩٨ م ، وكانت فرنسا تجاهر بأنها ستصيب استقلالها الاقتصادي بما تجنيه من القطن في حلب ، ومن الحرير في لبنان ، والصوف في سوريا ، وكانت ايطاليا مقتنعة بالاستيلاء على القسم الغربي من الأناضول ، أما روسيا فكانت تطمع في قسم من تراقية واسطنبول وأرمينيا وكرديستان ، واستولت هولندا على جزر الهند الشرقية ، وحوصرت أفغانستان تحت الضغط الانجليزي والروسي ، كما حوصرت ايران<sup>(١)</sup> . واستكمالا لهذا المخطط ، فقد شجع المنصرون والاستعمار العرب على الانفصال عن الدولة العثمانية تحت شعار جديد لا يعرفه الاسلام وهو " القومية العربية " لاجبا في العرب ومصالحتهم ، ولكنه من أجل القضاء على الرابطة الاسلامية بين المجتمع الاسلامي .

اضافة الى ذلك فقد بدأت مهمة السفارات والقنصليات تعمل عملها في الأقطار الاسلامية ، ل حرب الوحدة الاسلامية ، وبث الروح القومية بين المسلمين . وقد برزت أعمالها بشكل واضح في اسطنبول وبيروت والقاهرة ودمشق واتخذت لها مركزين . الأول في اسطنبول لضرب الدولة الاسلامية في عاصمتها ، والثاني في بيروت لضرب الدولة الاسلامية في قلبها العربي<sup>(٢)</sup> .

ويلاحظ ذلك في نشوء الحركة القومية العربية ، فان المسيحيين قد لعبوا دورا كبيرا في اثاره الوعي القومي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي الذي شهد عددا من رواد الأدباء والمفكرين العرب الذين حملوا لواء النهضة الأدبية والفكرية ، وقد برز منهم نصيف اليازجي ، وبطرس البستاني ، فاليازجي

(١) مصطفى صبري : الأسرار الخفية وراء الغاء الخلافة العثمانية ، ص ٢٦ - ٢٧ .

(٢) مصطفى محمد رمضان : العالم الاسلامي في التاريخ الحديث والمعاصر ، ص ١٤٤ - ١٤٦ .

استعان به الأمريكيون في تأليف الكتب التي تدرس بمدارسهم ، وأخذ يدعو العرب المسلمين والمسيحيين الى احياء الأدب العربي القديم . وأما البستاني فقد استعان به الأمريكيون أيضا في تدريس اللغة العربية في كلية المعلمين بعباي ، وفي تأليف الكتب واشترك مع ايلي سميث في ترجمة الانجيل ، ثم وضع سفره ، قاموس محيط المحيط " ، ومختصره " قطر المحيط " ، ثم موسوعته العربية ( دائرة المعارف ) . وقد تردد هذا النشاط الثقافي <sup>(١)</sup> على شكل جمعيات مثل " جمعية الفنون والعلوم " التي أنشأتها البعثة التنصيرية الأمريكية في سنة ١٢٦٤هـ / ١٧٤٧م ، والتي تولى رعايتها العميلان الانجليزيان " بطرس البستاني ، وناصيف اليازجي " واشترك معهما في رعايتهما طائفة من أعضاء البعثة التنصيرية الأمريكية . ولم يدخلها أحد من المسلمين . وان ظهرت هذه الجمعية بمظهر نشر العلوم والفنون وحياء اللغة العربية وآدابها ، الا أن الغرض الصحيح من انشائها هو اثاره النعرات القومية والحركات الانفصالية عن الدولة العثمانية .

ثم بعد ذلك تبدأ مرحلة جديدة انتقل فيها النشاط الى يد الوطنيين العرب من نصارى ومسلمين ، وذلك عندما نشأت سنة ١٢٤٧هـ / ١٨٥٧م ( الجمعية العلمية السورية ) وأدى هذا النشاط المتزايد الصليبي الى مذابح سنة ١٢٧٧هـ / ١٨٦٠م . بين الدروز والموارنة في الشام كما سبق وأن ذكرت ، وأدت هذه الفتنة الى تقسيم الشام الى طوائف متحاربة ، وتسببت في وقف نشاط الجمعيات مؤقتا وهجرة بعض رجالها الى مصر ليقظة الدولة العثمانية ، الا أنها استأنفت نشاطها بقوة ، وأخذت تجند أكثر الشخصيات العربية من المسلمين والمسيحيين على السواء من اسطنبول والقاهرة وبيروت والشام وغيرها <sup>(٢)</sup> .

(١) محمود صالح مسمي : حركة اليقظة العربية . ص ٦٤-٦٥ .

(٢) مصطفى محمد رمضان : العالم الاسلامي في التاريخ الحديث والمعاصر . ص ١٤٦-١٤٧ .

هذه الأحداث دفعت البستاني الى محاولة تهدئة النفوس والقضاء على التعصب ، فأصدر في بيروت عام ١٨٦٠م (نفي سوريا ) أسبوعيا وهي أول صحيفة سياسية نذرت جهودها من أجل الدعوة الى الوحدة ونبذ التعصب .

وبعد ثلاث سنوات أنشأ ( المدرسة الوطنية ) لكي تزود التلاميذ من مختلف الأديان بتعليم قومي ، وفي عام ١٨٧٠م أصدر (الجنان ) وهي مجلة أدبية سياسية نصف شهرية كان هدفها - كنفير سوريا - محاربة التعصب ، والدعوى الى التفاهم والوحدة من أجل خير الوطن ، وكان شعارها : الوطنية من الايمان، ويعني ذلك أن اللغة العربية وآدابها وجدت مجالا حيويا لدى الارساليات التنصيرية المسيحية ، حيث كان التعليم في مدارسها يجرى باللغة العربية ، وهكذا أتيح للمسيحيين فرصة الاطلاع والبحث في تاريخ العرب ولغتهم وآدابهم<sup>(١)</sup> ، عن طريق نصارى العرب في بلاد الشام أمثال هؤلاء البستاني واليازجي .

فكانت أول جمعية أخذت شكل التنظيم السياسي هي : " جمعية بيروت السرية " هذه الجمعية تأسست عام ١٢٩٢هـ / ١٨٧٥م وقامت على أساس فكرة القومية العربية، وكانت في الظاهر تعمل للعرب والعروبة وتثير العداء للدولة العثمانية ، ولكنها في الواقع كانت تعمل على فصل الدين عن الدولة ، وجعل القومية العربية هي الأساس ، وتحويل الولاء عن العقيدة الاسلامية ليكون للأقليات المسيحية واليهودية في البلاد العربية وجود بل دول في المنطقة<sup>(٢)</sup> ، وهكذا بدأت الحركة القومية كحركة أدبية تعمل على احياء اللغة العربية وآدابها، ثم تحولت الى دور العمل السياسي<sup>(٣)</sup> ، وهذا ما كان يخطط له في أروقة بريطانيا

(١) محمود صالح منسي : حركة اليقظة العربية . ص ٦٤-٦٦ .

(٢) مصطفى محمد رمضان : العالم الاسلامي في التاريخ الحديث والمعاصر ، ص ١٤٧ .

(٣) محمود صالح منسي : المرجع السابق . ص ٦٧ .

فعلا وقد نفذ فيما بعد بصدور وعد بلفور سنة ١٩١٧م لاقامة وطن يهودي في فلسطين . ففي تلك الفترة ظهرت دعوة جديدة تقول باقامة خلافة عربية مقام الخلافة العثمانية نادى بها عبدالرحمن الكواكبي (١٨٥٤-١٩٠٢م) في كتابه أم القرى الذي صدر في سنة ١٣١٦هـ . حيث تناول مسألة الخلافة وألقى بذور الشك في صحة اعتبار السلاطين العثمانيين خلفاء للمسلمين ، وأوضح أن الكتب الفقهية الأساسية تذكر بين شروط الخلافة "النسب القرشي" ودعا الى ثورة العرب على الأتراك . وتلا ذلك أن أنشأ نجيب عازوري "عصبة الوطن" في باريس - وهو عربي نصراني - بهدف تحرير الولايات العربية من الحكم العثماني . ونشرت العصبة حوالي خمسين نداء موجهة الى العرب تدعوهم الى الثورة على الأتراك ثم نشر عام ١٩٠٥م كتابا بالفرنسية هو "يقظة الأمة العربية" دعا فيه الى فصل الولايات العربية عن الدولة العثمانية على أن تكون الحجاز مقرا للخلافة ، وأن تكون الشام والعراق دولة عربية موحدة عصرية (١) .

في هذا الوقت كانت جمعية الاتحاد والترقي في اسطنبول تلعب دورا مهما في اسقاط حكومة السلطان عبدالحميد الثاني ، عندما تعاونت هذه الجمعية مع أوكار الصهيونية والماسونية التي انتشرت في البلاد العثمانية ، فعرضت البلاد للمحن والكوارث والثورات داخل البلاد حتى أصلت نار الفرقة بين الشعبين التركي والعربي الشقيقين (٢) .

وبعد اعلان المشروطية الثانية في سنة ١٣٢٦هـ / ١٩٠٨م اتسعت الحركة القومية في الدولة العثمانية ، فالتنصير لم يرض أن يوقظ الروح القومية ولا الخائفين ولكنه أراد أن يحولها الى خدمة أهدافه (٣) . عندما استقبل العرب كغيرهم

(١) على المحافظة : الاتجاهات الفكرية عند العرب . ص ١٣٣-١٣٤ .

(٢) على حسون : تاريخ الدولة العثمانية . ص ١٤٣ .

(٣) مصطفى خالد وعمر فروخ : التبشر والاستعمار . ص ١٧٢ .



من شعوب الدولة العثمانية الدستور العثماني بفرح وسرور وحماسة ، فاندفعوا وراء جمعية الاتحاد والترقي التي تضم عددا كبيرا من كبار الضباط العرب . إلا أنه بعد انقلاب سنة ١٩٠٩م رأى الاتحاديون في العرب خطرا على سيادة العنصر التركي ، فسلكوا فيهم طريق الشدة والعنف في معاملتهم. فأصيب العرب بخيبة أمل ازاء هذا الموقف من الاتحادين ، فلجأ العرب الى انشاء الجمعيات السرية ، وكان من أهدافها أن تحول الدولة العثمانية الى مملكة ثنائية من العرب والترك ، وأن تؤلف الولايات العربية مملكة لها برلمانها وحكومتها ولغتها العربية ، وأن تؤلف مع الدولة العثمانية دولة عربية تركية ، لكن عقب الحرب العالمية الأولى أصبح العرب يسعون الى تحرير البلاد العربية من الحكم التركي واستقلالها التام<sup>(١)</sup> .

لذلك شجع أهل الغرب الحركات الانفصالية داخل الدولة بين الترك والعرب وحرّكوا الثورة العربية بواسطة عملاتها لورنس العرب وجلوب حين أثاروا فتنة القوميات العربية بغرض تقويض أركان الدولة العثمانية<sup>(٢)</sup> .

وفي هذا الصدد يحدد لورنس العرب أهداف إنجلترا ودول أوروبا في تقرير سري رفعه الى المخابرات البريطانية في شهر كانون الثاني ١٩١٦م بعنوان " سياسة مكة " وهي أهداف بريطانيا الرئيسية والغرب نحو المسلمين ، فيقول فيه : " أهدافنا الرئيسية : تفتيت الوحدة الاسلامية ودحر الامبراطورية العثمانية وتدميرها... "<sup>(٣)</sup> . وفي هذا العام قامت الثورة العربية بقيادة الشريف حسين للتخلص من

(١) على المحافظة : الاتجاهات الفكرية عند العرب . ص ١٣٥، ١٣٩، ١٤٢ .

(٢) مصطفى صبري : الأسرار الخفية وراء الغاء الخلافة العثمانية . ص ٢٦-٢٧ .

(٣) زهدى الفاتح: لورنس العرب . (الطبعة الأولى ، بيروت ، دار الفاتح ، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م) .

حكم الأتراك ، واستقلال البلاد العربية، وكانت تدفعها أطماع بريطانيا وحلفاؤها، وكانت هذه الثورة وبالا على العرب والأتراك لصدور وعد بلفور في سنة ١٩١٧م ، حول منح اليهود حق انشاء وطن قومي لهم في فلسطين .

لذلك نجح الاستعمار الشرقي والغربي بالغزو الفكري في تفتيت الجسد الواحد أو التضامن الاسلامي ، وحوله الى دول ودويلات لكل منها حاكم وعلم ونشيد وحدود جغرافية مصطنعة ، وغزاها بالأفكار القومية والوطنية ، فأصبح ولاء الأمة اما للأشخاص الزعماء ، أو القادة ورجال الحكم والسياسة ، أو للأفكار والمذاهب والفلسفات الواردة ، وبذلك حولت الشعوب الاسلامية عن الولاء الوحيد الذي ينبغي أن تخضع له دون سواه ، وهو الولاء لله الواحد القهار ، واتباع سنة نبيه صلى الله عليه وسلم (١) الى الولاء لهؤلاء الأشخاص ، وأصبحوا مطالبين بما أمرهم به سبحانه وتعالى في قوله ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (٢) .

وعلى الرغم من أن الغزو الفكري الذي عم أرجاء الدولة العثمانية إلا أن الدولة السعودية قامت على أسس إسلامية سليمة ، مكنتها من أن تصد التدهور عن شبه الجزيرة العربية ، حيث ظهرت الدعوة السلفية في نجد وشبه الجزيرة العربية بكاملها ، ثم انطلقت خارجها نحو شاماها وجنوبها الى السودان والهند وسومطرة وشمال أفريقيا وخاصة بعد أن ضم الإمام سعود بن عبدالعزيز مكة المكرمة سنة ١٢١٨هـ الى الدولة السعودية ، فانتشرت هذه الدعوة خارج نجد في الدول الاسلامية المجاورة عن طريق الحجاج الذين رأوا في الدعوة السلفية انها ليست دعوة جديدة كما روج ضدها أعداؤها كما سيأتي بيانه .

(١) مصطفى صبري : الأسرار الخفية ... ص ٢٩-٣٠ .

(٢) سورة آل عمران : آية رقم (١١٠) .

## ب - دعوة التوحيد والاصلاح في الجزيرة العربية :

منذ أوائل القرن الثالث عشر الهجري الموافق للقرن التاسع عشر الميلادي بدأ الضعف يدب في كيان الدولة العثمانية ، نتيجة لفساد الكثير من الأنظمة الداخلية ، وبالتالي أحدث هذا خللا في السياسة الخارجية أيضا ، رافق ذلك كثرة الحروب التي شنتها كل من روسيا والنمسا ضدها ، وذلك بغية تصفية ممتلكاتها في أوروبا أولا ، ثم القضاء عليها ثانية ، وقد انعكس هذا الضعف على البلاد العربية الخاضعة للحكم العثماني .

فأمسى الحجاز بصورة عامة ونجد والاحساء بصورة خاصة من جملة تلك المناطق والأقطار التي لم تجد من الدولة العثمانية الحماية والعناية المطلوبة ، حتى كادت أن تقع الاحساء فريسة للاستعمار الأوربي المتربص بها والطامع في موقعها وثروتها<sup>(١)</sup> .

هذا قامت دعوة التوحيد والاصلاح في شبه الجزيرة العربية التي نادى بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، وكان الباعث الأول من قيامها هو ما وصل اليه العالم الاسلامي في عصره من تدهور وفساد على كافة الأصعدة الدينية والسياسية، والاجتماعية والاقتصادية<sup>(٢)</sup> ، وما يهمننا هو الوضع الديني والسياسي .

وعلى أية حال فقد كان هذا امام الضعف الذي سيطر على الدولة العثمانية، وعجزها عن دفع الضرر عن رعاياها وبلادهم<sup>(٣)</sup> ، حيث بدأت تتجه

---

(١) عبداللطيف عبدالله بن دهيش : أحوال شبه الجزيرة قبل قيام الدولة السعودية الأولى ، (مجلة العرب، الرياض . دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، ج ١ ، ٢ ، ١١ ، س ١١ ، رجب وشعبان ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م) . ص ٢٢ .

محمد كمال الدسوقي : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ، ص ٢٨٤ .

(٢) محمد عبدالله السلطان : دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، ( الطبعة الأولى ، القاهرة ، المطبعة السلفية ومكتبتها ، ١٤٠١هـ ) ص ٧ .

(٣) عمر عبدالعزيز عمر : تاريخ المشرق العربي ، ص ٢١١ .

الى أوربا لتستمد منها قوتها ظنا منها أنها تستطيع النهوض بدولتها وشعوبها اذا ماقلدت الغرب في أنظمتها ، صارفة النظر عن الدين وتعاليمه فانقسم الشعب الى فئتين فئنة تنادي بالرجوع الى الشريعة الاسلامية ، والفئنة الأخرى تدعو لاعتناق المبادئ الأوربية ، وفات الفريق الثاني أنهم جهلوا الحقيقة وهي أن الاحوال في الغرب كانت غير الاحوال في البلاد الاسلامية سياسيا ودينيا واجتماعيا ، وأنه ليس كل ما يصلح للغربيين في نهضاتهم يصلح للمسلمين ويساعدهم .

ولهذا نشأت حركات الاصلاح ، هدفها الأساسي احياء تعاليم الشريعة الاسلامية التي أصبحت نسيا منسيا للتخلص من الاستعمار ، وكانت أولى هذه الدعوات كما ذكرنا دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب الاصلاحية السلفية والتي تعتبر أول حركة اصلاحية سلفية في العصر الحديث ، وأولى الحركات الاصلاحية التي ظهرت في الدولة العثمانية <sup>(١)</sup> تدعو الى نقاء العقيدة الاسلامية من كل البدع والخرافات والرجوع الى أصول الاسلام الصحيح <sup>(٢)</sup> .

لذلك عملت دعوة التوحيد والاصلاح نوعا من التوازن لمواجهة الغزو الفكري الذي تسرب الى داخل الدولة العثمانية وعاصمتها . وهذا عندما ركن قاداتها الى سياسة العزلة ، وعملوا على عدم ادخال أي اصلاحات جوهرية تتمشى مع التعاليم الاسلامية سياسية كانت أو دينية ، مما أدى الى قيام عناصر متطرفة تساندها عناصر غير اسلامية من اليهود وأحزابهم تطالب بفرض قوانين وضعية ، واصلاحات بعيدة في معظمها عن الروح الاسلامية ، وقد ساعد ذلك على ضعف مركز السلطان الذي أصبح العوبة في هذه الفئات المتطرفة ، وهذا بدوره أضعف أيضا قبضة الدولة على السلطة في داخل العاصمة والولايات التابعة لها في أوربا

(١) عمر عبدالعزيز عمر : تاريخ المشرق العربي ، ص ٢١١ .

(٢) محمد بن ماضي : النهضات الحديثة في جزيرة العرب ، ص ٣٩ .

والبلاد العربية ، ونتيجة لذلك طمع الغرب المستعمر رويدا رويدا في البلاد والبحار العربية من أجل حماية مصالحه وتجارته القادمة من الشرق ، فاستغل الامتيازات التي حصل عليها في الدولة العثمانية ، وزاد عليها معاهدات أخرى تجارية ودينية واسعة ، كما زادت أيضا في الوقت نفسه البعثات التنصيرية الى البلاد العربية وخاصة في بلاد الشام .

كما استبد الولاة وكثرت البدع والخرافات ، وابتعد الناس عن تحكيم كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

وفي هذه الظروف السياسية والدينية المتدهورة أصبحت شبه الجزيرة العربية في حالة سينة من الناحية الدينية والسياسية <sup>(١)</sup> .

فلقد تنازع الحكام فيما بينهم على السلطة ، فتعددت السلطات وعمت البدع والخرافات ، ولكن شاءت ارادة الله أن ينقذ دينه وينصر من ينصره فظهر في منطقة نجد المصلح الكبير الشيخ محمد بن عبدالوهاب خاصة بعد أن نسي الناس الطريق الصحيح ، وتعاهد مع الامام محمد بن سعود على توحيد الأمة ، والعمل على تحكيم كتاب الله والسنة النبوية المطهرة ومحاربة البدع والخرافات <sup>(٢)</sup> .

فكانت هذه الدعوة فكريا مضادا لحركة الغزو الفكري التي عمّت الدولة العثمانية في تلك الفترة .

أولا : ان قيام قيادة سياسية واعية مؤمنة بهذه الدعوة ومبادئها ومرتبطة بها وحارسة لقيمها ومدافعة عنها بدلا من الفرقة والتمزق الذي كانت تعيشه منطقة نجد وماجاورها في قلب شبه جزيرة العرب واشعارها بمسؤوليتها عن هذه العقيدة ومقتضياتها ، كل هذا الأمر يجعل الدولة العثمانية تخشى من أن تتحول

(١) محمد بن ماضي : الهضات الحديثة في جزيرة العرب ، ص ٣٩-٤٠ .

(٢) حسين بن غنام : تاريخ نجد ، تحقيق ناصر الدين الأسد ، ( الطبعة الثالثة ، الرياض ، مطابع شركة

الصفحات الذهبية ، ١٤٠٣هـ ) ج ١ ، ص ١٠ .

بعض الولايات والأقاليم التابعة لحكمها والمجاورة لهذه الدولة الجديدة الى هذه الدولة ، وخاصة أن الدولة العثمانية بدأت تنحرف من خلال الفساد الذي عمها ، والذي كان من أهم أسبابه الغزو الفكري للدولة العثمانية .

ثانياً : أن الغزو الفكري قد ساعد على انتشار المبادئ الهدامة والعقائد الفاسدة التي تصرف الناس عن جوهر دينهم ، كما ساعد على فساد الأخلاق ، بينما ساعدت الدولة السعودية على ابطال البدع والانحرافات بمختلف مظاهرها في العقيدة والسلوك والأخلاق والآداب والمعاملات واحلال القيم الصحيحة والأصول السليمة والآداب الاسلامية محلها ، وعلى هذا فدولة قائمة على هذه القيم والمبادئ ستمنع من دخول الفساد والانحراف في الدين والأخلاق ، وبالتالي لا يتمكن الغزو الفكري بسمومه ومبادئه الهدامة من التأثير على هذه الدولة ، والذي يخشى منه هو أن يمتد نفوذ هذه الدولة او الدعوة السلفية الى الأرجاء التي تقع تحت حكم الدولة العثمانية والتي أصبحت بواسطة الغزو مرتعا لهذا الفساد والانحراف وبالتالي توجهت الدولة العثمانية لمحاربتها .

ثالثاً : ان انتشار الدعوة السلفية كما أسلفنا في كثير من البلدان التابعة للحكومة العثمانية قد أدى الى شعور هذه الدولة بأن هذه الدعوة قد تؤدي الى تفكيك هذا الحكم فلا بد من محاربتها في موطنها الأصلي ، والشعور بأن هذه الدعوة قد تؤدي الى تفكيك هذا الحكم مرده الى المبادئ الفكرية الوافدة على امتنا الاسلامية .

رابعاً : ان الغزو الفكري بما حمله من ثقافات مختلفة أثر في كثير من المسلمين مع الأسف وخاصة في الذين لم يتمكن الاسلام في قلوبهم ، فانبهروا بها ، وأخذوا بها ، وذهلوا بما فيها ، وخاصة المستغربين من حكام و أمراء الدولة العثمانية مما دفعهم الى محاربة الدولة السعودية التي تحتضن الدولة السلفية لأنها ستكون في نظرهم ضد استمرارهم في النشوة التي يعيشونها مع هذه الثقافات الوافدة.

أما كيف كان ظهور الدعوة السلفية ، فقد كانت الحالة الدينية عند فئة كبيرة من عامة الناس خلال النصف الأول من القرن الثاني عشر الهجري الموافق لأوائل القرن الثامن عشر الميلادي ، قبل دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب قد انصرفت عن طريق الحق ليس رغبة في ذلك وإنما لجهلهم بأمور دينهم ودنياهم ، وقلة الدعوة لإرشادهم إلى الطريق السليم ، والنهج القويم وضعف السلطات الحاكمة في المنطقة من شيوخ القبائل وأمراء المدن ، وتنازعهم مع بعضهم حتى كثرت البدع والخرافات ، وحكمت العادات والتقاليد مكان الشرع الحكيم ، حتى أصبح بعض أولئك العامة يرون في الجمادات كالأحجار والأشجار القدرة على تقديم النفع ودفع الضرر ، وقد زين لهم الشيطان أنهم ينالون بهذا العمل ثوابا يقربهم من الله تعالى . فعظموا أهل القبور ، وصرفوا النذور اليهم والابتغال بالدعاء لهم وجعلوا لغيره عز وجل ما لا يجوز صرفه إلا إليه سبحانه وتعالى .

ولم يكن هذا الأمر مقصوراً على نجد وحدها ، بل إن هذا كان هو حال معظم ديار المسلمين<sup>(١)</sup> معنى ذلك أن الضلالات والبدع والخرافات والأساطير حلت محل القيم الإسلامية الصحيحة ، واضمحلت في نفوس معظم الناس تعاليم الإسلام وتنظيماته الحكيمة ، ولكن ليس بالصورة المبالغ فيها حسب التعميم الصادر من حسين بن غنام ومن بعده عثمان بن بشر عن سوء الحالة الدينية في تلك الفترة ، لأن شبه الجزيرة العربية كانت خلال القرن الثاني عشر الهجري تعج بالعلماء الذين تحلوا بالصفات الحميدة والعلم الوفير ، وكانت لهم مؤلفاتهم في كثير من العلوم ، وبخاصة في علوم القرآن ، والحديث ، والفقه والتوحيد ، وعلم الآله ، والسيرة النبوية ، والتاريخ الإسلامي ، وكانت المساجد تؤدي دورها في التعليم والإرشاد وخاصة المسجد الحرام في مكة المكرمة ، والمسجد النبوي

(١) حسين بن غنام : تاريخ نجد ، ج ١ ، ص ١٠ .

الشريف في المدينة المنورة ، وبعض المساجد في المدن الرئيسية في نجد والقصيم وحائل<sup>(١)</sup> .

أما البيئة التي عاش فيها الشيخ محمد بن عبدالوهاب فقد كانت بيئة علمية محافظة ، تتميز بالجد والاستقامة ، والحرص على الأصول الإسلامية والمحافظة عليها<sup>(٢)</sup> . وقد كانت الحالة السياسية في الجزيرة العربية وبالتحديد خلال النصف الأول من القرن الثاني عشر الهجري - الموافق للقرن الثامن عشر الميلادي ، أي قبيل دعوة الشيخ بقليل مضطربة يسودها الانقسام ، وتعمها الفرقة وعدم الاستقرار لتعدد الامارات والمشيخات.

فاتسمت بالتفكك السياسي والصراع الدائم حول السلطة بين حكام المنطقة من أمراء مدن وشيوخ قبائل ، فلم يكن فيها عند قيام الدولة السعودية وظهور الدعوة الإصلاحية دولة قوية توحيدها وتجمع شملها<sup>(٣)</sup> .

وكانت نجد في تلك الحقبة مقسمة الى عدة امارات ، كل امانة من هذه عن الأخرى يحكمها أمير ، ومن أهم هذه الامارات :

- ١- امانة آل سعود في الدرعية .
- ٢- امانة آل دواس في الرياض .
- ٣- امانة آل معمر في العيينة .
- ٤- امانة آل علي في حائل .
- ٥- امانة آل حجيلان في القصيم .

(١) عبداللطيف عبدالله بن دهيش : أحوال شبه الجزيرة العربية قبل قيام الدولة السعودية الأولى ، مجلة العرب ، الرياض ، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، ج ١ - ٢ ، ص ٢٣ ، رجب وشعبان سنة ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م ، ص ٢٧ .

(٢) عبدالله بن سعد الرويشد : الامام الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، ( القاهرة ، الناشر مكتبة عيسى البابي الحلبي وشركاه ، ١٣٩٢هـ ) ج ١ ، ص ٣ .

(٣) عبداللطيف عبدالله بن دهيش : المرجع السابق ، ص ١٥ .



٦ - امارة آل شبيب في شمال نجد وجنوب العراق .

٧ - امارة آل زامل في الخرج .

بجانب شيوخ القبائل الذين لهم السلطة على قبائلهم المنتشرة في ربوع الجزيرة العربية ، وكثيرا ما كانت الحروب والخصومات والفتن تشتعل بين أمراء المدن وشيوخ القبائل على أتفه الأسباب <sup>(١)</sup> .

وليس هناك قانون ولا شريعة يحكم بها هؤلاء الأمراء ، الا ما قضت به أهواء الأمراء وعماهم وليس على حسب أحكام الشريعة الاسلامية .

أما كيف يصل هذا الحاكم الى سدة الحكم ، فهناك طرق مختلفة منها ما كان سلميا ، ومنها ما كان عن طريق القوة ، وكثيرا ما كانت الامارة وراثية الا اذا حدث خلاف داخل الأسرة ذاتها <sup>(٢)</sup> . فزعيم القبيلة كان يختار حسب مؤهلاته القيادية الذاتية . لاتصافه بالكرم والشجاعة والحلم وسداد الرأي من قبل عشيرته بكامل بطونها <sup>(٣)</sup> .

والجدير بالذكر أن الصراع حول السلطة ، واللجوء الى القوة أحيانا لحل النزاعات ليسا من الأمور الخاصة بنجد خلال تلك الفترة ، وانما هما أمران لم يخل منهما تاريخ أية أمة على مختلف العصور والأزمان <sup>(٤)</sup> .

وكان معظم الناس متفرقين ليس فيهم ملك أو امام ، ولا يسودهم شرع

(١) عبدالله بن سعد الرويشد : الامام الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، ص ٣ .

(٢) عبدالله الصالح العنيمين : الشيخ محمد بن عبدالوهاب حياته وفكره ، ص ١٤ ، ١٥ .

(٣) عبداللطيف بن دهيش : أحوال شبه الجزيرة العربية قبل قيام الدولة السعودية الأولى ( مجلة العرب

الرياض ، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، ج ١ ، ٢ ، ص ٢٢ ، رجب وشعبان ١٤٠٧ هـ ) ص ١٦ .

(٤) عبدالله الصالح العنيمين : المرجع السابق ، ص ١٥ .

يقتل بعضهم بعضا ، ويأكل قلوبهم ضعيفهم ، لا ينهاون عن منكر فعلوه ، ولا فرض تركوه ، ولذلك كان لابد من ظهور عالم يجدد هذه الأمة معالم دينها ويوقظها من أدران البدع والخرافات التي انغمسوا فيها (١) .

لأن البلوى قد أعمت قلوب بعض عامة الناس فاحرفوا عن الطريق المستقيم ، واتبعوا بعض الأمور التي من أعظمها الاشرار بالله بالتوجه الى الموتى وسؤالهم النصر على الأعداء ، وقضاء الحاجات وتفريج الكربات ، التي لا يقدر عليها الا رب السموات والأرض ، وكذلك التقرب اليهم بالندور وذبح قربان والاستغاثة بهم في كشف الشدائد وجلب الفوائد الى غير ذلك من أنواع العبادة التي لاتصح الا لله .

وصرف شيء من أنواع العبادة لغير الله كصرف جميعها لأنه سبحانه أغنى الشركاء عن الشرك ولا يقبل من العمل الا ما كان خالصا كما قال تعالى : ﴿ فاعبد الله مخلصا له الدين الا الله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء مانعدهم الا ليقربونا الى الله زلفى ان الله يحكم بينهم فيما هم فيه مختلفون ان الله لا يهدي من هو كاذب كفار ﴾ (٢) .

فافتتن بعض عامة الناس بهذه الأمور والخرافات وظنوا فيها النفع والضرر والعياذ بالله (٣) ، حتى قيص الله لذلك العالم الجليل المجدد للدين الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، الذي نادى بالتوجه الى الله في كل الأمور الدينية والدينية في المعاملات والعبادات (٤) ونبذ البدع والخرافات .

(١) محمد عبدالله بن عبد المحسن عبدالقادر الاحساني : تاريخ الاحساء ، الطبعة الاولى ، الرياض . مطبعة الرياض ، ١٣٧٩ هـ ، ص ١٢٤-١٢٥ .

(٢) سورة الزمر : آية ٢ . ٣ .

(٣) عبدالعزيز زيد الرومي واخرون : أسبوع الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، القسم الخاص للرسائل الشخصية ، ( طبع جامعة الامام محمد بن سعود ) ص ١١١-١١٢ .

(٤) محمد عبدالله بن عبد المحسن ال عبدالقادر الاحساني : المرجع السابق ، ص ١٢٥ .

ولقد ولد ونشأ صاحب هذه الدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب في العيينة في بلاد نجد شمال الرياض سنة ١١١٥هـ/١٧٠٣م ، فترعرع في كنف والده عبدالوهاب بن سليمان ، الذي كان يعمل قاضيا لامارة العيينة ، فقرأ الشيخ رحمه الله على يد أبيه القرآن الكريم وتعلم الكتابة حتى حفظ القرآن وعمره لم يتجاوز الثانية عشرة ثم أخذ في قراءة كتب الحديث والتفسير وتبع من خلالها كلام العلماء في أصل الاسلام<sup>(١)</sup> .

فشرح الله تعالى صدره لمعرفة التوحيد ومعرفة نواقضه المضله عن الطريق في وقت كانت فيه الضلالات قد فشت وانتشرت في نجد وغيرها من البلدان المجاورة ، حيث كثر الاعتقاد في الأحجار والأشجار والقبور فأخذ الشيخ محمد يعارض وينكر على من نهج هذا المنهج من الضلالة والبدعة من أهل نجد<sup>(٢)</sup> .

فضاق صدره ذرعا من هذه الأفعال ، لذلك استأذن والده وسافر من بلده العيينة الى الحج لبيت الله الحرام ، وكان ذلك في حوالي عام ١١٣٦هـ/١٧٢٣م ، ساعيا كذلك في طلب العلم ، فالتقى مع العلماء في مكة المكرمة أثناء موسم الحج ، وأدى مشاعره وقام بمناسكه ، وأخذ عنهم<sup>(٣)</sup> ، وهذا يعني أنه درس في كل من مكة المكرمة والمدينة المنورة ولكن عدم ذكر المصادر لأي عالم درس عليه الشيخ محمد بن عبدالوهاب في مكة المكرمة يرجح أنه لم يدرس فيها مدة

(١) السيد محمود شكري الألويسي : تاريخ نجد ، تحقيق بهجت الأثري ( القاهرة . المطبعة السلفية بمصر . ١٣٤٣هـ . ) . ص ١٠٦ .

(٢) عثمان بن عبدالله بن بشر : عنوان الحمد في تاريخ نجد ، تحقيق عبدالرحمن عبدالله آل الشيخ ، ( الطبعة الرابعة . الرياض ، من مطبوعات دار الملك عبدالعزيز ، ١٤٠٢هـ ) ج ١ ، ص ٣٣ .

(٣) عبدالله بن سعد الرويشد : الامام الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، ج ١ ، ص ١٨ .

تستحق البحث والعناية<sup>(١)</sup>.

وفي هذا الصدد يذكر صالح بن عبد الله بن عبدالرحمن العبود أنه وجد في بعض المصادر أن الشيخ درس في مكة المكرمة على يد الشيخ عبد الله بن سالم بن محمد بن سالم بن عيسى البصري أصلاً المكي مولداً ومدفناً ، الشافعي مسند الحجاز عمدة المحققين .

ويعتبر هذا الشيخ الثالث للشيخ محمد بن عبدالوهاب بعد شيخه الأول أبيه وشيخه الثاني عمه ابراهيم بن الشيخ سليمان بن علي علامة نجد<sup>(٢)</sup> ، ثم رحل قاصداً المدينة المنورة . فنزل بها وأخذ العلم فيها على يد الشيخ عبد الله بن ابراهيم بن سيف من آل سيف رؤساء بلد الجمعة المعروفة في ناحية سدير من نجد . وكان عالماً في الفقه والحديث الشريف<sup>(٣)</sup> . وأخذ هذا الشيخ إلى الشيخ محمد حياة السندي المدني فناقشه وأخذ من علمه الواسع وبعد أن أقام في المدينة ماشاء الله له ، خرج منها قاصداً نجد ، لأنه كان ينوي السفر إلى الشام ، فتجهز من هناك مواصلاً رحلته العلمية إلى البصرة والشام فلما وصل إلى البصرة نزل فيها ، وقرأ فيها على يد العالم الجليل محمد المجموعي ، فمكث هناك عدة أعوام يقرأ على يد الشيخ المجموعي وينكر على أهل البصرة أشياء من البدع ، فأحدثت المناقشات

(١) عبد الله صالح العثيمين : الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، حياته وفكره ، ( الرياض - النشر دار

العلوم ، مطبعة نهضة مصر ) ص ٣٣ .

(٢) عقيدة الشيخ محمد بن عبدالوهاب السلفية وأثرها في العالم الإسلامي ، ( المدينة المنورة ، الناشر :

الجامعة الإسلامية ، ١٤٠٨ هـ ) ص ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ .

(٣) عبد الله صالح العثيمين : المرجع السابق ، ص ٣٤ .

التي تمت بينه وبين أصحاب البدع والضلالات خصوصا ما كان منها في العقيدة (١)  
بعض الخلاف .

ولما أعلن الشيخ أنكاره الشديد لتلك الضلالات والبدع ضاق به أهل  
البصرة ، فأذوه وأخرجوه في وقت الهجرة من البصرة . فقصده بلدة الزبير ، ولما  
توسط الشيخ الطريق ما بين البصرة والزبير ، سقط في الطريق مغميا عليه وكاد أن  
يهلك من العطش لشدة الحر ، ولأنه قطع تلك المسافة مشيا على الأقدام ، ولكن  
مشيئة الله ، شاءت أن يدركه رجل من أهل الزبير فسقاه وحمله على دابته الى بلد  
الزبير (٢) . وبعد ذلك قرر الشيخ أن يغادر الزبير ويتجه الى نجد ، فاتجه في طريق  
عودته من البصرة الى صوب الاحساء ، ونزل في الاحساء عند الشيخ عبد الله بن  
عبد اللطيف الشافعي الاحساني فاستفاد من علمه الواسع ، ومن الاحساء اتجه الى  
بلدة حريملاء ، التي كان أبوه قد انتقل اليها من العيينة في سنة ١١٣٩هـ / ١٧٢٦م ،  
نتيجة لوفاة أميرها عبد الله بن معمر ، فتولى بعده ابن ابنه محمد بن حمد الملقب  
بخرفاش ، فوقع بينه وبين عبد الوهاب خصومة عزل عن القضاء على اثرها فانتقل  
بعدها الى حريملاء .

ولما وصل الشيخ محمد بن عبد الوهاب الى حريملاء ، حيث والده ، واستقر  
بها ، أخذ يقرأ على والده ، ويدعو الناس الى اخلاص العبادة لله وحده في الأقوال  
والأفعال في عقاندهم وكل أعمالهم حتى حصل بينه وبين عامة الناس في بلد

(١) أمين الريحاني : تاريخ نجد ( الطبعة الأولى ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر .

١٩٨٠م ) ، ج ٥ ، ص ٣٧ .

(٢) الألوسي : تاريخ نجد ، ص ١٠٧ .

، ابن بشر : عنوان المحدث في تاريخ نجد ، ج ١ ، ص ٣٥-٣٦ .

عبد الكريم الخطيب : الدعوة الوهابية ( الطبعة الثانية ، جدة ، دار الشروق ، ١٣٩٤هـ ) ، ص ٦٣ .

حريملاء كلام كثير حول هذه المسائل واستمر هذا النقاش لمدة سنتين<sup>(١)</sup> .  
وقد تدخل والده ينصحه بترك هذه الدعوة والعدول عنها خوفا عليه من  
عامّة الناس ، الذين كانوا يهددون به وبعد أن شكوه مرارا الى والده ، فتردد الشيخ  
محمد احتراماً لوالده حتى توفي في سنة ١١٥٣هـ / ١٧٤٠م<sup>(٢)</sup> ، ولكن عبداً لله  
العتيمين يؤكد أن وصول الشيخ محمد بن عبد الوهاب الى الاحساء كان ما بين  
عامي (١١٤٧-١١٤٨هـ) ولم تطل اقامته بالاحساء حيث غادرها الى والده في  
حريملاء التي وصلها في عام ١١٤٩هـ<sup>(٣)</sup> ، والباحث يرجح هذا القول لأنه من  
غير المعقول أن يمكث الشيخ في حريملاء حوالي (١٤) سنة أي من (١١٣٩-  
١١٥٣هـ) ، لذكر ابن بشر أنه بقي مع والده في حريملاء مدة سنتين<sup>(٤)</sup> .  
و حين توفي أبوه سنة ١١٥٣هـ أعلن الشيخ دعوته المباركة من حريملاء  
التي تدعو في مضمونها الى العودة الى توحيد الله بالعمل والعبادة ، فجدد ما كان  
قد اندرس من أصول الملة ، وقواعد الشريعة الاسلامية عند بعض عامة الناس ،  
ودعا الى التمسك بكتاب الله وسنة رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم وبما ذهب  
السلف الصالح والأنمة الأربعة<sup>(٥)</sup> .

- 
- (١) ابن بشر : عنوان الخد في تاريخ نجد . ج ١ . ص ٣٧ .  
. الألويسي : تاريخ نجد . ص ١٠٧ .  
(٢) أمين سعيد : تاريخ الدولة السعودية ( الرياض - مطبوعات دار الملك عبدالعزيز ) ج ١ . ص ٣٥ .  
(٣) الشيخ محمد بن عبد الوهاب . حياته وفكره . ص ٤٤ .  
(٤) عبداً لله الصالح العتيمين : الشيخ محمد بن عبد الوهاب حياته وفكره . ص ٤٤-٤٥ .  
. عنوان الخد في تاريخ نجد . ج ١ . ص ٣٧ .  
(٥) عبدالرحمن بن عبداللطيف ال الشيخ : مشاهير علماء نجد وغيرهم . ( الطبعة الأولى . الرياض . دار  
اليمامة للبحث والترجمة والنشر . ١٣٩٢هـ ) . ص ١٦ .

فتبعه من حريملاء أناس وعارضه آخرون ، وكان في حريملاء قبيلتان من أصل واحد تتنازعان على الإمارة ، والكل منهما يدعي الإمارة لنفسه وليس لأحد على الآخر من سلطان ، وليس هناك سلطة أو حاكم قوي يوحدهما .

وكان لإحدى القبيلتين عبيد يسمون آل حمين من أهل الفساد والضلال فأراد الشيخ أن ينصحهم ويمنعهم عن هذا الفساد ، فأمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر والفساد ، فأضمرُوا له شراً وعزموا أن يفتكوا به خفية فلما جنح الظلام ، تسوروا عليه جداره ، يريدون قتله ، فشرع بهم بعض المجاورين فصاحوا عليه فهربوا<sup>(١)</sup> .

وبعد هذه الحادثة خاف الشيخ على نفسه فغادر حريملاء إلى العيينة مسقط رأسه ، وكان رئيسها في ذلك الوقت عثمان بن معمر بن حمد بن معمر فتلقيه بالقبول الحسن ؛ لأنه يميل إلى دعوة الشيخ ، وزوجه عمته الجوهرة ابنة عبد الله بن معمر ، وقام الشيخ بشرح دعوته الإصلاحية القائمة على الأسس الإسلامية الصحيحة المستمدة من الكتاب والسنة المطهرة للامير عثمان بن معمر الذي شرح الله صدره لهذه الدعوة وقام في الحال بمساندتها وأعلن الشيخ دعوته إلى الله ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وشدد في التذكير على من خالف كلمة لا اله الا الله ، فأخذ رحمه الله في بلد العيينة ، يعيد إقامة الحدود المعطلة ، وكان الأمير عثمان بن معمر يعاونه في كل الأمور لاعادة هذه الحدود<sup>(٢)</sup> .

وكان في العيينة وماحولها بعض الأشجار والأحجار التي يعظمونها

(١) ابن غنام : تاريخ نجد . ج ١ . ص ٧٧-٧٨ .

ابن بشر : عنوان نجد في تاريخ نجد . ج ١ . ص ٣٧-٣٨ .

الألوسي : تاريخ نجد . ص ١٠٨ .

محمد عبد الله ال عبد القادر الاحساني : تاريخ الاحساء . ص ١٢٦ .

(٢) ابن بشر : عنوان نجد في تاريخ نجد . ج ١ . ص ٣٨-٣٩ .

ويتركون بها كشجرة قريوه ، وكذلك يوجد بها قبة على قبر الصحابي الجليل زيد بن الخطاب رضي الله عنه في بلد الجبيلة ، فخرج الشيخ ومعه عثمان بن معمر ، وكثير من أتباعه الى تلك الأماكن بالمعاول ، فقطعوا الأشجار ، وهدموا القبة المبنية على قبر زيد بن الخطاب وسويت النصب التي وضعت على بعض القبور من العامة عملاً بالسنة المحمدية والتوجيهات الإسلامية .

وهكذا أقام الشيخ الحدود وأزال شكوك الناس بإزالة البدع والخرافات والضلالات أحياء لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتأسيا بسيرة خلفائه الراشدين <sup>(٢)</sup> .

ولم يزل مقيماً في العينه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويعلم الناس أمور دينهم ويزيل البدع ويقوم الحدود ، حتى جاءت امرأة واعترفت عنده بالزنا ، وبعد أن عرف أنها محصنة ، وتكرر منها الاقرار ، وسأل عن عقلها ، فوجدتها صحيحة العقل ، فحاول درء الحد عنها ، عندما قال لها لعلك مفصوبة ، فأقرت واعترفت بما يوجب الرجم ، فأمر برجمها ، فرجمت فعظم أمره من تلك اللحظة وكثر أنصاره ، وفشي التوحيد في المجتمع النجدي ، وتناقلت الركبان أخباره ، لما انتشر أمره وخاصة بعد رجم الزانية ، وانتهى الأمر الى سليمان بن محمد بن عزيز رئيس الأحساء وبني خالد ، حيث شوه الرواة دعوته ، وقيل لسليمان أنه ظهر في بلد العينه وأيده أميرها عثمان بن معمر ، ونادوا بالويل والثبور لسليمان ، شارحين له الأخبار مبدين أن انتصار هذه الدعوة معناه القضاء على ملكه ، وأن الشيخ تعمد إثارة الناس عليه لتبديد ملكه ، وأنه يسعى الى قطع المكوس والعشور التي تدفع اليها من القبائل والتجار ، لأنها من الأمور المنافية للدين <sup>(٢)</sup> وتعليماته التي أمرت بدفع

(١) ابن غنام: تاريخ نجد ، ج ١ ، ص ٧٨-٧٩ .

(٢) حسين خلف الشيخ خزعل : تاريخ الجزيرة العربية في عصر الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، الطبعة الأولى ، بيروت ، مطابع دار الكتاب ، ١٩٦٨ م ، ص ١٤١ .



الزكاة لبيت مال المسلمين وحددت موارد الدولة وطرق الانفاق منها .

لهذا ضاق صدر سليمان بن محمد ، وأرسل كتابا في الحال يهدد فيه عثمان بن معمر أمير العيينة لمناصرته لدعوة التوحيد ويأمره بقتل الشيخ أو على الأقل اخراجه من العيينة . والا اضطر الى الاستيلاء على ريع بساتين ابن معمر التي في الاحساء والاستيلاء على تلك الأملاك كما أنه سوف يمتنع عن تقديم أي مساعدة لعثمان بن معمر .

فعظم على عثمان بن معمر مخالفة سليمان بن محمد رئيس بني خالد والاحساء ، ويظهر أنه فضل الناحية المادية على مناصرة الدين ، وغاب عن ذهنه عظمة رب العالمين وأن الله سوف ينصر من ينصره . ولما يوسف له أن عثمان بن معمر رضخ لتهديدات حاكم الاحساء فاستدعى الشيخ وأخبره بكتاب رئيس بني خالد ، وأمره بالخروج من العيينة ، ولم يفد فيه وعظ الشيخ ونصحه ، بأنه لا بد للداعي والمصلح أن يناله الأذى وفي النهاية تكون العاقبة للمتقين ، ولمن يحمي دينه من التمكين في البلاد والعباد ولكنه أعرض عن ذلك كله <sup>(١)</sup> .

وقال عليك أن تترك العيينة وتختار أي بلد شنت سنة أو سنتين حتى نرى ماذا يفعل الله ثم ان مرجعكم الينا <sup>(٢)</sup> . فقال الشيخ : أريد الدرعية ، فأمر ابن معمر فارسا يقال له الفريد الظفيري وخياله معه لمرافقة الشيخ الى الدرعية فسار ومعه الفرسان حتى وصلا الى الدرعية <sup>(٣)</sup> ، فنزل الشيخ ضيفا عند عبد الله ابن سويلم وكان ذلك في أواخر عام ١١٥٧هـ / ١٧٤٤م ثم انتقل بعد ذلك في اليوم التالي الى تلميذه أحمد بن سويلم ، الذي خاف على نفسه من الأمير محمد بن سعود

(١) أحمد بن حجر ال بوطامي : الشيخ محمد بن عبدالوهاب . ( الطبعة الثالثة ، الرياض ، شركة مطابع

الجزيرة ) . ص ٢٨ .

(٢) حسين حلف خرعل : المرجع السابق . ص ١٤٢ .

(٣) ابن بشر : عنوان المجد في تاريخ نجد . ج ١ . ص ٤١ .

أمير الدرعية ، لأنه كان يعلم حال الناس والمعارضين لهذه الدعوة الذين لا يقبلون على ما أتى به هذا العالم، فخاف خوفا شديدا ، وضائق عليه داره ، ولكن الشيخ هدا من روعه وسكن جاشه ووعظه بأن الله سيجعل لنا ولكم مخرجا . فعلم بالشيخ بعض الخواص من أهل الدرعية فزاروه خفية ، فشرح لهم معنى التوحيد ، ولكن الأمير محمد كان له اخوان ( مشاري وثنيان ) وكانا على صلة بالشيخ وهو في العينة وقد اشتركا معه في هدم بعض القبور والقباب ، اضافة الى أن زوجة الأمير محمد كانت امرأة عاقلة، فبين الأخوين لأخيهما ، وساندتهما على ذلك زوجة الأمير ، على أن الشيخ محمدا نازل ضيفا عند تلميذه أحمد بن سويلم وأن هذا الرجل غنيمة قد ساقه الله اليك ، فاغتنم ما خصك الله به ، ورغبوه في زيارة الشيخ في بيت ابن سويلم (١) .

فسار محمد بن سعود اليه ، فرحب به وقال : ابشر ببلاذ خير من بلادك وبالغز والمنعة قال الشيخ : وأنا أبشرك بالغرز والتمكين والنصر المبين والغلبة على جميع بلاد نجد ، وهذه كلمة لا اله الا الله من تمسك بها وعمل بها ونصرها ملك بها البلاد والعباد ، وهي كلمة التوحيد وأول ما دعت اليه الرسل من أولهم الى آخرهم .

وبتركها ترى نجد كلها وأقطارها أطبقت على الشرك والجهل والفرقة والخلافات الدائمة ، وقتال بعضهم بعضا جورا وعدوانا ، وقال الشيخ : أرجو من الله أن تكون اماما يجتمع عليك المسلمون وعلى ذريتك من بعدك (٢) .

(١) أحمد بن حجر ال بوطامي : الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، ص ٢٩ .

(٢) ابن بشر : عنوان نجد في تاريخ نجد ، ج ١ ، ص ٤٢ .

أحمد عبدالغفور عطار : محمد بن عبدالوهاب ( الطبعة الثانية ، بيروت ، مشورات مكتبة العرفان ،

١٣٩٢هـ ) ، ص ٦١-٦٢ .

الألوسي : تاريخ نجد ، ص ١٠٩-١٠٠ .

ولما تحقق للامام محمد بن سعود صدق قول الشيخ محمد وشرح الله صدره  
لهذا القول قال له : يا أيها الشيخ ان هذا دين الله ورسوله صلى الله عليه وسلم  
الذي لا شك فيه ، فأبشر بالنصرة لما أردت وبجهد من خالف هذا الدين فتمت  
المبايعة على ذلك <sup>(١)</sup> .

ولهذا اعتبر بعض المؤرخين وصول الشيخ محمد بن عبدالوهاب الى الدرعية  
في أواخر عام ١١٥٧هـ / ١٧٤٤م ، وعقد هذا الاتفاق مع أميرها محمد بن سعود  
هو تاريخ نشأة الدولة السعودية الأولى ويوم ظهور ميلادها حتى يومنا الحاضر <sup>(٢)</sup> .

•••

٤

---

(١) ابن بشر: المصدر السابق ، ص ٤٢ .  
(٢) ابن سعيد : تاريخ الدولة السعودية الأولى ، ج ١ ، ص ٤١ .

## ١ - أهميتها في مواجهة الغزو :

ومن هنا بدأ الشيخ والأمير محمد بن سعود يعدان العدة للخروج بالدعوة الى خارج حدود الدرعية الى الامارات النجدية ثم الى بقية أجزاء شبه الجزيرة العربية، سائرين بكل جد لنشر هذه الدعوة السلفية ، على أسسها الصحيحة كما كانت عليه في عهد الرعيل الأول من السلف الصالح ، لايقاظ الأمة والرجوع بها الى أصولها الأولى<sup>(١)</sup> الى الدين الصحيح ، ونبذ الاعتقادات الباطلة في الأحجار والأشجار والقباب والأولياء ، وجعل هذه الأمور كلها لله ولاشريك له ، ومواجهة كل غزو وافد الى شبه الجزيرة العربية ومحاولة صده مهما كان نوعه .

فالحالة الدينية في العالم الإسلامي ، حالة العقيدة الإسلامية في نفوس أتباعها ومدى تمسكهم الصحيح بها ، ولما كان الاسلام عقيدة ومنهج حياة ، فقد كانت دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، تبعا للاسلام وابقاظا لمن غفل عن هذا الدين ، عندما انتشرت الفوضى والجهل والاستهانة بالدين في العالم الإسلامي على طرفي النصف الأول من القرن الثاني عشر الهجري الموافق للقرن الثامن عشر الميلادي ، وخاصة عندما دخلت الدولة العثمانية عصر الانحطاط في ذلك العصر ، ازدادت الحالة الدينية سوءا بين المسلمين وذلك لجهود علماء المسلمين ، وعدم سعيهم للإصلاح السائر على أسس اسلامية وفتح باب الاجتهاد ، ذلك لأن الاسلام صالح لكل عصر فامتنعوا عن ايجاد أي اصلاح سليم ، وقد شجعهم على ذلك بعض أصحاب السلطة في تلك الفترة ، لمعارضة الاصلاح أيا كان نوعه .

وكثيرا ما يعدون صاحبه كافرا ، كما فعلت الدولة العثمانية مع دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، حينما عدوا حركته السلفية خارجة عن

(١) عبدالرحيم عبدالرحمن عبدالرحيم : الدولة السعودية الأولى .. ( الطبعة الرابعة ، القاهرة ، دار الكتاب الجامعي ، ١٤٠٢ هـ ) ، ص ٨ .

الدين (١) . واتهموها بالوهابية ، في الوقت الذي أطلق فيه أصحاب السلطة العثمانية العنان لأهل البدع المتصوفين البلهاء حتى علا شأنهم عند العامة ، واعتقدوا فيهم الولاية ، حتى كان لأصحاب الطرق الصوفية عند الناس منزلة عظيمة فنشروا بدعهم بين الناس ، ومن البدع التي أصابت عقيدة التوحيد وانتشر في البلاد الاسلامية المختلفة الاعتقاد الأعمى في القبور والأولياء والصالحين ، فبنيت عليهم القباب ، وقدمت لهم الهدايا والقرابين فصرفوا أنواعا من العبادات التي لا يجوز صرفها الا لله وحده كالدعاء والاستعانة والذبح والنذر والشفاعة الى غير ذلك من الأمور الباطلة التي انتشرت في كل بقاع العالم الاسلامي .

وهنا نرى كيف ضاعت عناية السلطة العثمانية بدين الاسلام في هذه الأمور من البدع دون اهتمام الدولة بها ، أو النصح في عدم اتباعها (٢) .

وقد بدأ الامام محمد بن سعود والشيخ محمد بن عبدالوهاب بالدعوة لتوحيد الأمة فأرسلوا الرسل من العلماء الى المدن والقرى المجاورة لدعوتهم لتأييد هذه الدعوة الاصلاحية وتحكيم كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وكذلك دعوة شيوخ القبائل الى الانضمام لوحدية الأمة ونظرا لأن أبناء نجد قد سنموا من حالة الفوضى التي كانوا يعيشونها فانهم لم يترددوا في اتباع الدعوة السلفية التي قام بها الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، والامام محمد بن سعود بتأييدها ونصرتها بالمال والسلاح (٣) فزاد عدد أنصار الدعوة وأعلن الكثير من حكام المدن والقرى وشيوخ القبائل انضمامهم للوحدة السياسية التي دعا اليها الامام محمد بن سعود كما أيدوا تطبيق الأحكام الشرعية على الفسقة والجناة ومحاربة البدع والخرافات وأطلق على الأمير محمد بن سعود لقب الامام لاتساع امارته

(١) محمد كمال جمعه : انتشار دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب ص ١٤-١٨ .

(٢) محمد عبدالله السلطان : دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، ص ١٢-١٦ .

(٣) أمين سعيد : تاريخ الدولة السعودية الأولى ، ج ١ ، ص ٤٢ .

حتى أصبحت تضم معظم بلدان نجد خلال أربعين سنة من انطلاق الدعوة المباركة من قاعدتها الأولى الدرعية .

ويمكن القول أن هناك قاعدة تاريخية وهي أن مبادئ الدعوة السلفية كانت تسبق الجيوش السعودية وتمهد لها مما ساعدها على ضم هذه الامارة بمساعدة أنصار الدعوة في تلك الامارات فأصبحوا عوناً للدعوة وأهلها .

وهكذا قامت الدعوة السلفية واتسع نطاقها وأنصارها ، وفي عام ١١٧٩ هـ توفي الامام محمد بن سعود فخلفه ابنه الامام عبدالعزيز الذي ضم نجد بكاملها لدولته ، واخذ يتطلع لضم الاحساء لأنها المنفذ الوحيد لبلاده ، ولأن اقليم الاحساء يشكل اقليماً خصباً يحقق لنجد الاكتفاء الذاتي وعلى ممر مائي هام هو الخليج العربي فضلاً عن أنها نافذة تطل منها نجد على العالم الخارجي ، حيث الحركة الدائبة والمصايد التي تشكل مورداً كبيراً للؤلؤ وللأسماك الجيدة في ذلك الوقت وبهذا يتوفر للدولة مورداً جديداً من موارد الصرف على المرافق المختلفة اضافة الى ذلك فان ضم الاحساء سيجعل من نجد دولة خليجية ، وتكون قاعدة سعودية برية وبحرية تنطلق منها الجيوش السعودية نحو بلدان الخليج لنشر الدعوة السلفية دعوة التوحيد والإصلاح<sup>(١)</sup> .

لهذا شن الامام عبدالعزيز بن محمد هجومه الحاسم ، حتى تمكن من ضم الاحساء للدولة السعودية وذلك منذ عام ١٢٠٤ هـ / ١٧٨٩ م<sup>(٢)</sup> .  
والحقيقة أن الدولة العثمانية وقفت منذ بداية عام ١٢٠١ هـ / ١٧٨٦ م ضد هذه التطورات والأحداث في الدولة السعودية الأولى ، ففتحت جبهة العراق

(١) محمد عرابي نخلة : تاريخ الاحساء السياسي ، ( الكويت ، مشورات ذات السلاسل ، ١٤٠٠ هـ ) ، ص ٣١-٣٢ .

(٢) محمد عبدالله ال عبدالقادر الاحساني : تاريخ الاحساء ، ص ١٣٥ .

مثلة في واليها سليمان باشا ، حين رأت هجوم الدولة السعودية الخاطف على الاحساء تمهيدا لضمه الى نجد ، فساعدت كل تحرك يهدف الى تدمير الدولة السعودية في مهدها ، ومن ذلك مساعدتها لبني خالد في تحركاتهم الهجومية على نجد . كما أن الدولة العثمانية سعت على تحريض المواليين للدولة السعودية على نقض ولائهم لها ، الا أن الدولة العثمانية لم تهتم بادى ذي بدء اهتماما كبيرا بهذه الدولة الناشئة، حينما كانت مجرد امانة داخلية ، ولكن حينما قامت هذه الدولة تتطلع الى ضم الاحساء ، رأت الدولة العثمانية أن هذا يعد تهديدا لها ، ومن تلك اللحظة بدأت تحس بوجود الدرعية (١) .

وعندما كانت السلطة في جنوب العراق في تلك الفترة في أيدي أمراء المنتفق ، كانت الدولة العثمانية تسير هذه القبيلة خوفا من تعدد غاراتهم في وقت كان الخلل قد تسرب الى جسم الدولة العثمانية وكان رئيسهم هو ثويني بن عبدا لله آل شبيب يتخوف أيضا من انتشار الدعوة السلفية في جنوب العراق بين المنتفق ويخشى من خطرهما . فاستمالته الدولة العثمانية وجعلته في جانبها ، وأخفت عنه ماتكنه له من عدااء . وأثارت مخاوفه من توسع الحكم السعودي . عند ذلك أظهرت له الدولة العثمانية استعدادها ومساعدتها في حربه مع أهل الدرعية، وبمده بالمال والسلاح (٢) .

وعندما ضم آل سعود الاحساء أثار هذا العمل الدولة العثمانية وتجسم لديهم خطر قوة آل سعود بشكل مثير (٣) . لأنها أصبحت بضمها هذا الجزء دولة خليجية تطل على الخليج العربي، ولم تكن كما كانت دولة داخلية ، وكذلك تسمية أمرانها بلقب امام المسلمين أثار غضب خلفاء الدولة العثمانية واعتبروه

(١) خلف دبلان الوديعاني : الاحساء في القرن الثاني عشر الهجري . ص ٣٥٠ .

(٢) حسين خلف خزعل : تاريخ الجزيرة العربية في عصر الشيخ محمد بن عبدالوهاب . ص ٣٣٠ .

(٣) محمد سعيد المسلم : ساحل الذهب الأسود . ص ١٧٩-١٨٠ .

تحدياً لسلطتهم لأن السلطان العثماني كان يعتبر نفسه خليفة لبلاد المسلمين عامة .  
وهذا ما أزعج الدولة العثمانية حتى باتوا يخشون من خطرهما وتهديدها  
للسلطة العثمانية ، وزوال حمايتهم للحجاز ، لذلك صمم العثمانيون على مقاومة  
الدولة السعودية الأولى ، ففتحوا جبهة العراق <sup>(١)</sup> ، وكان الأمر مجرد البحث عن  
الألقاب والتفاخر بها دون النظر الى مصلحة الدولة العثمانية فقد أهملت البلدان  
والولايات التابعة لها وخاصة في شبه الجزيرة العربية ولما قامت الدولة السعودية لم  
تسع لوضع يدها معها وتأييدها بالمال والسلاح من أجل خير شعوبها . وإنما  
وضعت أمام عينها البحث عن الألقاب من خليفة أو سلطان وما علمت أن الخليفة  
والسلطان مسؤول أمام الله قبل كل شيء عن شعبه وأمته . وهكذا سعت الدولة  
العثمانية الى تجريد حملة تويني بن عبدا لله ومساعدته لحرب الدولة السعودية من  
أجل تفتيت وحدة تلك الشعوب وجعلها تعيش حياة الفقر والجهل والقتل والحرمان  
أن يستعيد السلطان لقبه . وهكذا جمع تويني العساكر والجنود اللازمة ونحسرت من  
البصرة واتجه صوب الاحساء لمحاربة السعوديين هناك بعد أن التصوى تحت شرايكة  
كل العناصر المناوئة للدولة <sup>(٢)</sup> حتى وصل الشباك ، الماء المعروف في الاحساء ،  
ونزل به ، وكان في جيشه عبد من موالي الجبور من بني خالد ، موال للدخوة  
السلفية يسمى " طعيس " ، فلما جلس تويني في خيمته المعدة لجلوسه وكان خدمته  
وخاصته منشغلين عنه في بناء خيامهم ، فرأى طعيس أن تويني خال من الحرس  
وكان معه حربة يخفيها ، فاستطاع في غفلة الحرس أن ينقض بها على تويني فطعمه  
في صدره ، فلقى تويني مصرعه في تلك الساعة ، وكان ذلك في

(١) محمود شاكر : البحرين ( الطبعة الأولى ، بيروت ، المكتب الاسلامي ، ١٤٠١ هـ ) ، ص ٧٥ .

(٢) خلف دبلان الوديعاني : الاحساء في القرن الثاني عشر ، ص ٣٥٠ .



يوم ٤/١/١٢١٢هـ الموافق ١٧٩٧م . وقتل العبد في الحال <sup>(١)</sup> فاضطربت قوات ثويني بموت قائدها ، وتراجعت عن تحقيق هدفها ، وانهزمت مولية الأدبار الى البصرة <sup>(٢)</sup> ، وذلك لأن القوات السعودية التي أرسلها الامام عبدالعزيز قد وصلت الى الموقع فتبعت فلول قوات ثويني فولت هاربة الى داخل الأراضي العراقية فأصبحت أسلحة ومدافع وذخائر قوات ثويني غنيمة للقوات السعودية <sup>(٣)</sup> ففشلت بذلك حملة ثويني بموته .

وقد كانت نتيجة فشل معركة ثويني وموته صدمة شديدة على سليمان باشا والي العراق دون أن يحقق مايرجوه . وكان أمير مكة الشريف غالب بن مساعد قد فتح هو الآخر جبهة أخرى ضد آل سعود للقضاء على حكومة الدرعية وعلى الدعوة السلفية ، وقد جرد لهذه المهمة عدة حملات ، وكانت أولى هذه الحملات في سنة ١٢٠٥هـ / ١٧٩٠م <sup>(٤)</sup> .

لكن هذه الحملة فشلت . وهكذا لم يتوف الشيخ محمد بن عبدالوهاب الا وقد شهد من علامات قوة الدولة التي قامت على دعوة التوحيد بدء رجحان كفتها على كفة أمراء الحجاز .

(١) ابراهيم بن صالح بن عيسى : تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد ( الرياض . من منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ) ص ١٩ .

. حلف دبلان الوديني : الاحساء في القرن الثاني عشر ، ص ٣٦٠ .

(٢) حلف دبلان الوديني : المرجع السابق . ص ٣٦٠ .

(٣) محمد بن عمر الفاخري : الاخبار النجدية . تحقيق عبدالله يوسف الشبل . ( الرياض . من مطبوعات جامعة الامام محمد بن سعود ) . ص ١٢٨ .

. ابن عيسى : تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد . ص ١٢٩ .

(٤) صلاح الدين المختار : تاريخ المملكة العربية السعودية ماضيها وحاضرها ( بيروت ، منشورات مكتبة الحياة ) . ج ١ . ص ٥٢ .

. حسين خلف خزعل : تاريخ الجزيرة العربية في عصر الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، ص ٣٨٠ .

ومن المعروف أن الدولة السعودية استمرت في توسعها بعد وفاة الشيخ

سنة ١٢٠٦هـ<sup>(١)</sup> .

ومهما يكن فقد توالى حملات الشريف غالب على الدرعية في ١٢١٠ -

١٢١١هـ / ١٧٩٥ - ١٧٩٦م . فكان الامام يتصدى لهذه الحملات ، ويبادل

الاشراف الهجمات حتى دانت لآل سعود معظم المدن والقبائل الحجازية التي

أدركت حقيقة الدعوة الاصلاحية السلفية في محاربة البدع والخرافات وتطبيق

الشريعة الاسلامية على الفسقة والجناة . فدخل في طاعة آل سعود ابن ربيعان

العتيبي وجماعته ، ومن معه من قبائل أهل الحجاز ، ودخلت تربة وأهلها يقوم

ولحقتها رنية وبيشة<sup>(٢)</sup> .

ففي سنة ١٢١٣هـ / ١٧٩٨م . استغل أمير مكة غالب بن مساعد

انشغال الامام عبدالعزيز وابنه الأمير سعود في حروبهم ضد القبائل الخارجة عن

طاعته وظن أنه سيلحق بالدرعية الدمار . فسار بنفسه على رأس قوة أنصاره فقصده

الدرعية حتى نزل الخرمة . فدارت المعركة بين القوات السعودية بقيادة هادي بن

قرملة والشريف غالب بن مساعد . انهزم على أثرها الشريف غالب وجنوده .

وعاد الى بلاده . فجنح بعد هذه المعركة الى الصلح على شرط أن يسمح لأهل نجد

بالوفود الى الحجاز لأداء مناسك الحج والعمرة<sup>(٣)</sup> .

كان سليمان باشا الوالي العثماني في بغداد يتابع هذه الأحداث على ملل .

ولما سمع بالصلح بين الشريف غالب بن مساعد ، والامام عبدالعزيز زعيم

الدولة السعودية لم يرق له بال . وهو مايزال ينن من موت ثويني وفشل حملته فلهذا

(١) عبدالله الصاخ العتيبي : الشيخ محمد بن عبدالوهاب . ص ٧٨ .

(٢) صلاح الدين المختار : تاريخ المملكة العربية السعودية . ماضيها وحاضرها . ج ١ . ص ٥٢ .

حسين خلف خزعل : تاريخ الجزيرة العربية في عصر الشيخ محمد بن عبدالوهاب . ص ٣٨٠ .

(٣) صلاح الدين المختار : المرجع السابق . ص ٥٢ .

باعداد حملة من الجنود النظامية في سنة ١٢١٣هـ/١٧٩٨م لمحاربة واخراج الدولة السعودية من الاحساء ، فأوكل قيادتها الى نائبه علي باشا كخيا ، وسانده في هذه الحملة فرسان بني المنتفق تحت رئاسة حمود بن ثامر الشيب ، فاجتمعت له قوة هائلة تفوق حملة تويني بن عبد الله فسار علي كخيا بهذه الجموع وقصد بها الاحساء ، فأخذ في حرب أهلها حتى انضم اليه أهل المبرز والهفوف ، وأهل القرى الشرقية نتيجة للقوة الكبيرة والاستعداد العظيم الذي كان مع علي كخيا ولكن قصر المبرز ( صاهود ) وحسن الهفوف ، امتنعا عن التسليم للقائد علي كخيا فزحف القائد العثماني الى كوت المبرز لحصاره ، فحاصره ستين يوما ، وقد وجه اليه المدافع ولكنه لم ينل منه شيئا ، لذلك عمد علي كخيا الى كل حيلة للاستيلاء عليه ولكن كل محاولاته باءت بالفشل طوال هذه المدة . ولما طال المقام على علي كخيا وقواته دب الملل والخوف في نفوسهم فارتحلوا من الاحساء الى العراق، ونزلوا الشباك ، الماء المعروف قرب تادج في طريقه الى بلاده .

وعندما علم الامام عبدالعزيز بتقدم القوات العثمانية للاحساء جهز قوة كبيرة وأرسلها بقيادة ابنه الأمير سعود الذي سار بأهل نجد وقصد ناحية الاحساء لنجدة أهلها ، ونزل ماء تاج بين الاحساء والبصرة .

هذا اجتمع الجيشان على غير موعد ، والتقى الفريقان ، ودارت بينهما معارك ومناوشات لعدة أيام مما أربع علي كخيا ، ووجد أنه واقع وقواته لا محالة في قبضة القوات السعودية ، فلجأ الى طلب الصلح على أن ترجع قوات الطرفين الى مواقعها دون قتال ، وألا يتعرض علي كخيا لأحد من رعايا الدولة السعودية، فقبل الأمير سعود بذلك وعاد علي كخيا الى بلاده ، كما عاد الأمير سعود الى الاحساء لضبطها وشكر أصحاب الحصون وقام بترميمها (١) .

(١) خلف بن دبلان الوديني : الاحساء في القرن الثاني عشر الهجري ، ص ٢٦٤-٢٦٦ .

ولما رأت الدولة العثمانية فشل بغداد ، أوكلت المهمة الى والي الشام ،  
الذي لم يكن بأفضل حال من زميله والي العراق (١) .

وفي عام ١٢١٨هـ / ١٨٠٣ م دخل الامام سعود بن عبدالعزيز مكة  
المكرمة بعد أن قام الشريف غالب بنقض العهد الذي قطعه على اثر مقتل الامام  
عبدالعزيز وعندما دخل مكة كتب رسالة الى السلطان سليم الثالث هذانصها :  
من سعود بن عبدالعزيز الى سليم

أما بعد . فقد دخلت مكة المكرمة في اليوم الرابع من محرم سنة ١٢١٨هـ ،  
وأمنت أهلها وأرواحهم وأموالهم بعدما هدمت ما هنالك من أشياء وثنية والغيت  
الضرائب الا ما كان منها حقا ، وأثبت القاضي الذي وليته أنت طبقا للشرع .  
فعليك أن تمنع والي دمشق ووالي القاهرة من المجيء بالمحمل والطبول  
والزموور الى هذا البلد المقدس ، فان ذلك ليس من الدين في شيء ، وعليك بحمد  
الله وبركاته . الواثق بالله المعبود - سعود (٢) .

ويظهر أن السلطان لم يصغ لذلك حيث انه في عام ١٢٢٠هـ / ١٨٠٥ م  
خرج عبدا لله العظم والي الشام بالمحمل الشامي ، فحدث صدام بينه وبين  
السعوديين . وقد قام الامام سعود بن عبدالعزيز في العام التالي بمنع عبدا لله العظم  
والي الشام من ادخال المحمل الى مناطق الحج وذلك لاصطحابه المحمل بالزموور  
والطبول . لتحذيره في السنة السابقة ، ولم يمنع الامام دخول حجاج العراق من  
الحج (٣) .

(١) أحمد عسه : معجزة فوق الرمال ، (الطبعة الثانية ، لبنان ، مطابع الاهلية اللبنانية ، ١٣٨٦هـ) ، ص

(٢) خيرالدين الزركلي : شبه الجزيرة في عهد السلطان عبدالعزيز ، (الطبعة الثانية ، بيروت /

(٣) أمين الريحاني : تاريخ نجد الحديث ، ج ٥ ، ص ٧١ .

وانما منع الامام سعود بن عبدالعزيز أن يغزو أرض الحرمين ما صاحب الحج من البدع التي افتتن فيها العثمانيون بالأفانين فيما تتعلق بالمحمل وجمال المحمل ، وطقوس المحمل ، تسير خلفها قوافل الحجيج القادمة من مصر أو الشام أو العراق . وكل ذلك بدعة في الاسلام ، وكان حكام الولايات العثمانية يحتفلون رسميا ودينيا بوداع المحمل وباستقباله . كما أن الأشخاص الذين لم يحجوا يقومون بلمس بدن " جمال المحمل " ويتبركون به أما القوة العسكرية التي تصاحب الحجيج فهي اعلان عثمانى عن سلطان " حامي الحرمين " في البلد الآمن الذي يجب أن تبتعد الجيوش عنه (١) .

وعلى الرغم من أوامر السلطان وتكرارها لعبدالله العظم أو خلفه يوسف كنج بالقيام بحرب آل سعود ، فإن هذه الأوامر لم تجد أذنا صاغية ، وقد انصرف يوسف كنج لجمع المال ، كعادة الولاة العثمانيين في ذلك العصر ، واكتفى برده على السلطان سليم الثالث ، بارسال الخطط الحربية لكيفية القضاء على الدولة السعودية ثم اقترح تظافر جهود مصر والعراق لتحقيق هذا الهدف ، فأخذ يماطل الدولة العثمانية حوالى أربعة أعوام (٢) . وفي خلال هذه الأعوام قام الامام سعود بن عبدالعزيز في سنة ١٢٢٥هـ / ١٨١٠م بجمع جنوده وقصد بلاد الشام لاختاد تحركات بعض قبائل أهل الشام وعربانته ، الذين كانوا يتحرشون بحدود الدولة السعودية الشامية ، وقد تمكنت القوات السعودية من هزيمتهم ففروا الى داخل الشام ، وطاردهم الامام الى عمق الأراضي الشامية ونتيجة لذلك قام

(١) عبدالحليم الجندي : الامام محمد بن عبدالوهاب ، ص ١٦٧ .

(٢) دار الوثائق القومية ، القاهرة ، اقتراحات يوسف كنج الخاصة بحرب آل سعود ، محفظة (١) بحربا

وثيقة (٨) بتاريخ ١٩ صفر سنة ١٢٢٣هـ - ١٦ ابريل سنة ١٨٠٨م .

نقلا عن (عبدالرحيم عبدالرحمن عبدالرحيم : تاريخ الدولة السعودية الأولى ، ج ١ ، ص ٥٧٤) .

السلطان سليم الثالث بعزل يوسف كنج والي الشام واسناد الولاية الى صاحب  
عكا سليمان باشا (١) .

فكانت هزائم والي العراق وعجز والي الشام مظهرين من مظاهر الشلل  
الذي أصاب الدولة العثمانية منذ فترة طويلة .

ومن هنا وقع الشك في مقدرة السلطان العثماني سليم الثالث على  
الاضطلاع بمهمة حامي الحرمين الشريفين تلك التي كانت تفرض احترام الدولة  
العثمانية بين الشعوب والممالك الاسلامية ، وبهما لقب السلطان العثماني بحامي  
حرمي الحرمين الشريفين (٢) .

ومما زاد في غضب سلطان الدولة العثمانية هو اطلاق اسم الامامة في بيت  
آل سعود منذ عهد الامام محمد بن سعود (٣) .

وما علموا أن الدولة السعودية منذ تقدمت لضم الحجاز كان أولا بسبب  
تحرش الشريف غالب بالدولة السعودية ورعاياها وتسيير عدة حروب ضدها  
وقيامه بعد ذلك بمنع رعايا الدولة السعودية في نجد والاحساء من أداء فريضة الحج  
أحد أركان الاسلام . وهذا العمل أثار غضب حكام الدولة ورعاياها وثانيا أن  
الحجاز في تلك الفترة كاد أن يتعرض للغزو الصليبي الجديد عندما قدم نابليون  
واستولى على مصر في عام ١٢١٢هـ / ١٧٩٨م ، ولم تستطع الدولة العثمانية  
وسلطانها حماية مصر من ذلك الغزو ، كما أنها لم تساعد أحمد باشا الجزائر والي  
عكا ضد حملة نابليون حتى كادت الشام أن تقع أيضا في قبضة الغزو الصليبي  
الفرنسي مما أثار غيرة الامام عبدالعزيز آل سعود تجاه الأماكن الاسلامية في مكة

(١) عبدالرحمن الراجحي : عصر محمد علي ، ص ١١٩ .

صلاح الدين المختار : تاريخ المملكة العربية السعودية ماضيها ، وحاضرها ، ج ١ ، ص ١١٠ .

(٢) محمد عبدالله آل عبدالقادر الاحساني : تاريخ الاحساء ، ص ١٣٩ .

(٣) خير الدين الزركلي : شبه الجزيرة في عهد الملك عبدالعزيز ، ج ١ ، ص ٣٥ .

المكـرمة والمدينة المنورة وخشيته من وقوعها في يد الغزاة الصليبيين ، مع علمه بضعف الشريف غالب وعدم مقدرته على حماية تلك الأماكن من الغزو الصليبي ، ولذلك قام بضم الحجاز للدولة السعودية لكن سلاطين الدولة العثمانية بالرغم من ذلك كانوا قد أصروا على محاربة الدولة السعودية بحثا عن الألقاب وليس لإسعاد أهلها، فأوكلت هذه المهمة الى محمد علي الأرنؤوطني فأصدر الباب العالي أوامره الى محمد علي والي مصر ، بأن يتولى حرب آل سعود ، وكان ذلك في سنة ١٢٢٢هـ / ١٨٠٧م ، فامثل محمد علي والي مصر لأمر سلطانه ، وجهاز حملة عسكرية كبيرة وأسند قيادتها الى ابنه طوسون ، فسار بها في سنة ١٢٢٦هـ / ١٨١١م ، بعد الحاح من السلطان محمود الثاني ، ولكن هذه الحملة باءت بالفشل الذريع أمام قوات الدولة السعودية ، وقد انكسر الجيش العثماني عدة مرات ، وجنح طوسون الى الصلح بعد تعثره أمام القوات السعودية سنة ١٢٣٠هـ / ١٨١٤م ، على الشروط التالية : ان يرفع العثمانيون أيديهم عن نجد ، ويرفع السعوديون أيديهم عن الحرمين وكل منهم يحج آمنا<sup>(١)</sup> .

ولكن لم يلبث محمد علي أن نقض العهد أو الصلح من أجل مطامع شخصية له ، ولتنفيذ أوامر سلطانه بوقف نمو الدولة السعودية السلفية الفتية ، جهاز حملة بربرية ، وأسند مهمتها في هذه المرة الى ابنه ابراهيم للقضاء على الدولة السعودية حسب أوامر السلطان محمود الثاني<sup>(٢)</sup> .

واستطاع بعد عدة معارك قاوم فيها السعوديون مقاومة الأبطال أن يصل الى الدرعية في سنة ١٢٣٣هـ / ١٨١٧م ، فضرب عليها الحصار ، حينها فوجنت

(١) ابن بشر : عنوان المجد في تاريخ نجد ، ج ١ ، ص ٣٧٨ .

، احمد بن حجر آل بوطامي : الشيخ محمد بن عبدلوهاب ، ص ٦٣-٦٤ .

(٢) الفاخري : الاخبار النجدية ، ص ١٤٧ .

، ابن عيسى : تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد ، ص ١٤٢-١٤٣ .

القوات السعودية بالسلاح الحديث المتطور الذي زود به الجيش العثماني ولكنها لم تأبه به فقد رتب الامام عبدا لله بن سعود الدفاع عن الدرعية من كل جهاتها ، واستمرت الدرعية في المقاومة ضد جيوش ابراهيم . وبعد حصار دام ستة شهور ابلى فيه اهل الدرعية وعلى رأسهم امامهم عبدا لله بن سعود بلاء حسنا ، صمم فيه على حرب ابراهيم حتى الموت ، ولكن لما رأى الامام كثرة الضحايا ، وتصميم الغازين استجاب للصلح مع ابراهيم بن محمد علي ، وتم الصلح ، ودخل ابراهيم الدرعية في ذي القعدة سنة ١٢٣٣هـ / ١٨١٨م<sup>(١)</sup> ، ويظهر أن السلطان محمود الثاني أراد حرب الدولة السعودية وذلك لأنه اعتبر قيام الدولة السعودية ، وانتشار الدعوة السلفية بمثابة تهديد خطير ليس لحدود أو نفوذ ، ولكنها الدعوة السلفية التي تدعو الى العودة الصحيحة لكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ونبذ البدع والخرافات التي كانت منتشرة في أنحاء العالم الاسلامي . هذه الدعوة شكلت تهديدا خطيرا للدولة العثمانية حين ضمت الدولة السعودية الحجاز في سنة ١٢١٨هـ ، وخاصة عندما أخذت هذه الدعوة تنتشر في أجزاء أخرى من العالم الاسلامي .

وقد تأثر بالدعوة السلفية كثير من علماء الأقطار ، ونقلوها الى بلادهم ، مماهدد النظام العام للدولة كلها<sup>(٢)</sup> ، وكان هذه الدعوة أيقظت العالم الاسلامي لاعادة النظر في أنظمة الدولة العثمانية ، فظن العثمانيون أن هذه الدعوة تطالب بالخلافة العربية .

اضافة الى ذلك فان هناك عامل سياسي مهم هو أن السلطان محمود الثاني كان يرى أن انتصار الدعوة السلفية بقيادة أئمة آل سعود خروج على طاعة

(١) عبدالرحمن الراجحي : عصر محمد علي ، ص ١٤٩ .

، محمد عبدا لله آل عبدالقادر الاحساني : تاريخ الاحساء ، ص ١٤٤ .

(٢) خلف بن دبلان الوديعاني : الاحساء في القرن الثاني عشر ، ص ٣٨٠-٣٨١ .



الخليفة ، وانفصال عن الدولة العثمانية ، في الوقت الذي كان يرى في محمد علي انفصاليا آخر ، لعله قد يضعف الدولة العثمانية حتى يستقل بمصر ، ثم يغزو الشام والعراق . فوجد السلطان نفسه أمام خصمين : السعوديين ومحمد علي ، فاستطاع السلطان أن يضرب بعضهما ببعض حتى يتخلص من أحدهما أو من كليهما ، وكان يريد هزيمة محمد علي أكثر من هزيمة السعوديين ، لهذا اقتنع محمد علي بالسير للقضاء على الدرعية <sup>(١)</sup> ، ولاننسى مطامع محمد علي وحلمه في بناء دولة مستقلة تشمل معظم البلاد العربية التابعة للدولة العثمانية .

لذلك يجدر بنا أن نقول أن اليقظة الاسلامية دعوة التوحيد والاصلاح واجهت تحديين خطيرين :

التحدي الأول : العسكري الذي وجهته الدولة العثمانية اليها فقضى على نهضتها الأولى كما رأينا .

التحدي الثاني : الغزو الفكري والاستعمار عن طريق المستشرقين وأعدائهم المنصرين ، وكذلك عملاء الغرب من المسلمين الذين شوهوها فوصفوها بأنها حركة رجعية للعودة الى الحياة البدائية ، فقاموا بخلق حركة موازية لها هي حركة التجديد الغربي الذي أخذ رجاله يحملون لواء الخصومة الواضحة للفكر الاسلامي ومقوماته وأسسها . واثارة الشبهات للانتقاص من اللغة العربية والاسلام والتاريخ والتراث الاسلامي ، وكان هذا التحدي هو أخطر ما واجهته الدعوة نظرا لأن الاستعمار والمستشرقين أعطاهم — امكانية الذبوع والانتشار بفضل وسائل اعلامهم لبذر الخلافات المذهبية والعرقية بين المسلمين هدم الخلافة الاسلامية تمهيدا لاستعمارها <sup>(٢)</sup> . وهذا ما كان يخطط له نابليون منذ احتلاله لمصر والشام .

(١) رئيس التحرير : الوثائق تتكلم ( العدد الثاني ، السنة الأولى ، دار الملك عبدالعزيز ، ١٣٩٥ هـ )

ص ١٦٣-١٦٤ .

(٢) مصطفى محمد رمضان : العالم الاسلامي في التاريخ الحديث والمعاصر ، ص ١٦٥-١٦٦ .

## ٢- استمرارها في أدوار السعودية الثلاث :

ولئن كانت الدولة السعودية قد عرض لها ماعرض فقد بقيت الدعوة السلفية شعلة تضيء داخل شبه الجزيرة العربية على الرغم من اشتداد حلقة الظلمات ، بل تجاوزت اشعاع هذه الدعوة فانتشرت في خارج شبه الجزيرة العربية<sup>(١)</sup> . والتي مازالت ماثلة في أذهان الناس داخل شبه الجزيرة العربية وخارجها، وظل المجتمع يكن الولاء للأسرة السعودية<sup>(٢)</sup> .

فبعد أن قضى ابراهيم بن محمد علي على الدولة السعودية الأولى في سنة ١٢٣٣هـ/١٨١٨م ، عاد الى مصر في سنة ١٢٣٤هـ/١٨١٩م ، وترك الحاميات من الجيش المصرى التركى في الرس وشقرا وبريدة وعنيزة تحت أمره بعض قواده، وقد ساءت الأحوال في نجد وغيرها وعاد القتل والنهب فاضطرب الأمن وانتشرت الفوضى ذلك لأن القادة الأتراك لم يقوموا بتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية على الفسقة والجناة ، بل شجعوهم على الجريمة رغبة منهم في نشر الفوضى والدمار . فاستنجد أهل نجد بالامام تركى بن عبد الله بن محمد بن سعود الذي كان موجودا في جنوب نجد فاستجاب الامام تركى لرغبة سكان نجد ، وتقدم الى الرياض ، واستولى عليها ، واتخذها عاصمة للدولة السعودية ، وذلك لتهدم الدرعية وعدم صلاحيتها لأن تكون عاصمة للدولة السعودية ، ومنذ عام ١٢٤٠هـ عادت الدولة السعودية من جديد في دورها الثاني .

(١) عبدالله الحقييل : الدعوة الإصلاحية في مواجهة التحديات ( مقال منشور في كتاب السوي الثالث .

طبع مركز الوثائق التاريخية ، الحلقة السابعة ، المنامة ، ١٤٠٤هـ ) ص ١٢٥ .

(٢) مديحة درويش : تاريخ السعودية حتى الربع الأول من القرن العشرين (الطبعة الثانية ، جدة ، دار

الشروق ، ١٤٠٣هـ) ، ص ٥٧ .

وقد واصل ابنه الامام فيصل بن تركي السير على نهج والده في حكم الدولة السعودية خلالها لفترتين لم تخل كل فترة منهما من المناوشات والحروب مع أعداء الدولة أو الخارجين عن طاعتها (١) .

ولكن بعد وفاة الامام فيصل بن تركي دب الشقاق في البيت السعودي بين الاخوة والأعمام ، وتنازعوا على السلطة ، فثار سعود بن فيصل على أخيه عبد الله بن فيصل ، ودارت بينهما حرب طاحنة كانت سجالا بين الطرفين ، وانتهت تلك المعارك بخروج آل سعود من نجد الى الكويت واستيلاء محمد بن رشيد على السلطة في حائل ونجد .

وفي عام ١٣١٩هـ / ١٩٠١ م استطاع الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود استرداد الرياض مبتدئا بذلك أول خطواته نحو حكم مملكته المترامية الأطراف (٢) ، وإعادة بناء الدولة السعودية في دورها الثالث ، وقد خيل للناس قبل ذلك أن الدور السعودي في حمل رسالة الدعوة السلفية قد انتهى برحيل الامام عبدالرحمن الفيصل واحتلال ابن الرشيد للرياض ، ولكن التاريخ يعيد نفسه من جديد بأن آل سعود لا يزالون يعون دورهم القيادي والريادي التاريخي المهم في احتضان الدعوة السلفية والعمل على نشرها .

وهذا بالفعل ما حدث عندما كرر الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن المحاولات لاسترداد الرياض حتى تمكن في سنة ١٣١٩هـ / ١٩٠١ م من استردادها وانتزاعها

(١) محمد جلال كشك : السعوديون والحل الاسلامي ( الطبعة الثانية ، ١٤٠٢هـ ) ، ص ٢١١ .

(٢) محمد المناع : توحيد المملكة العربية السعودية ، ترجمة عبدالله الصالح العثيمين ( الطبعة الأولى ،

الدمام ، مطبعة شركة مطابع المطوع ، ١٤٠٢هـ ) ص ٣١ ، ٣٥٤ .

من يد آل الرشيد<sup>(١)</sup> ، ومن الرياض انطلق نحو بناء دولة موحدة واضعاً أمامه تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية ومحاربة البدع والخرافات .

وقد استطاع الملك عبدالعزيز ضم القصيم والاحساء والقطيف الى امارته ، ثم تمكن من ضم حائل والمناطق الجنوبية والشمالية وقامت بينه وبين حكام الحجاز حروب طويلة استطاع ضم الحجاز ، وبهذا تمت خريطة المملكة على الصورة التي هي عليها اليوم ، وعرفت باسم المملكة العربية السعودية منذ أن أطلق عليها مؤسسها الملك عبدالعزيز هذا الاسم في عام ١٣٥١هـ / ١٩٣٢م<sup>(٢)</sup> .

وهكذا فاننا نلمس صدق استمرار هذه الدعوة السلفية في أدوار الدولة السعودية الثلاث ، كما أننا رأينا خلال ذلك تصميم آل سعود على تطبيق الشريعة الإسلامية والتعمق في تأصيلها لتكون القاعدة التي تسير وتنطلق منها سياسة الدولة ونظمها ، كما لاحظنا حرص الملك عبدالعزيز على السير في الطريق الذي سار عليه أسلافه من آل سعود بانتصاره وتأييد للدعوة السلفية التي تنادي بالعودة الى التوحيد والالتزام بالعقيدة الصافية وما كان عليه السلف الصالح من تحكيم لكتاب الله وسنة رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم<sup>(٣)</sup> .

(١) ابراهيم جمعه : الأطلس التاريخي للدولة السعودية ، ( من مطبوعات دار الملك عبدالعزيز ،

١٣٩٢هـ ) ، ص ١٢٢-١٢٨ .

(٢) أحمد القطان وآخرون : امام التوحيد محمد بن عبد الوهاب ، ( الطبعة الأولى ، الكويت ، مكتبة

السندس ، ١٤٠٧هـ ) ص ٧٣ .

(٣) محمد المانع : توحيد المملكة العربية السعودية ، ص ١١٠ .

### ٣- تقديم نموذج للدولة الاسلامية العصرية :

بدأ الملك عبدالعزيز منذ استرجاعه لمدينة الرياض يفكر في بناء دولة اسلامية عصرية ، خاصة وهو يعلم بتناحر القبائل وخلافاتها ومطامعها ، فكيف السبيل الى جمع هؤلاء وتضامنهم . لهذا قام الملك عبدالعزيز بغرس وتعميق الشريعة الاسلامية وتطبيقها وبتحكيم كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ومحاربة البدع والخرافات وارشاد الناس الى العودة الى الدين الصحيح وأدرك أنه لن يساعده في تحقيق ذلك وهو قيام الدولة النموذجية الا تكوين مجتمع موحد يؤمن بالله ربا وبالإسلام دينا ، يسوده الأمن والعدل ، وان أهم مايجب عليه عمله هو أن يحول العربي البدوي الذي يهوى الترحال وعدم الاستقرار الى شخص مستقر داخل مستقرات أطلق عليها اسم الهجر ، وهي دليل هجر هؤلاء البادية حياة التنقل والاعتداء على الغير الى حياة الاستقرار مع تعميق الايمان الصحيح في نفوسهم<sup>(١)</sup> .

وطلب منهم أن يتحولوا من رعاة الى مزارعين يقومون بزراعة مايمكن زراعته داخل تلك الهجر ويكون ذلك موردا ثابتا لرزقهم وأولادهم ، كما يعملوا على استصلاح الأرض الى جانب المحافظة على مواشيتهم ، والاعتماد في كسب رزقهم على أنفسهم ، مع العمل على تأصيل العقيدة الصحيحة في نفوسهم .

وقد أدرك الملك أن تلك الهجر حينما يتم تأسيسها بصورة جيدة فانها ستوجد لدى سكانها كل الأسباب التي تجعلهم يؤيدون حكومة قوية ثابتة ، وبهذه الطريقة يمكن للحكومة القضاء على الفوضى التي كانت سائدة في تلك الحقبة ، وكان الملك عبدالعزيز يأمل أن يغرس الدعوة السلفية دعوة التوحيد والاصلاح في تلك الهجر حتى يرتبط سكانها برباط العقيدة الاسلامية الصحيحة .

(١) محمد المانع ، توحيد المملكة العربية السعودية ، ص ١١٠-١١١ .

وكانت لكل قبيلة موارد مياه تعتبرها ملكا خاصا بها . وقد شجع الامام زعماء هذه القبائل بالهبات والمنح لبنوا بيوتا سكنية حول تلك الموارد، مما جعل رجال القبائل يقبلون ببناء تلك الهجر .

وكانت هجرة الأرتاوية أول تلك الهجر والتي تأسست في عام ١٣٣٠هـ/١٩١٢م وبعدها انتشرت الهجر في وسط شبه الجزيرة العربية وخاصة في نجد وتسمى من سكن هذه الهجر باسم الاخوان<sup>(١)</sup> . وكان الهدف من هذه الحركة هو توحيد القبائل وجعلهم في خدمة الدولة ونشر الدعوة السلفية بينهم .

وهكذا وجه الملك الطاقات القتالية عند القبائل العربية في دولته الى خدمة الاسلام والدعوة السلفية ثم خدمة الملك والدولة الاسلامية ومنعوا من اثاره أعمال النهب والسلب ، واتجهوا الى تنفيذ تعاليم الاسلام متحابين في الله . فكانت هذه القبائل العون للملك عبدالعزيز في حروبه<sup>(٢)</sup> في الاحساء والحجاز وعسير والقصيم وحائل .

ولكن هؤلاء الاخوان بعد أن دانت للملك عبدالعزيز نجد والحجاز اعترضوا على استخدام بعض الوسائل المدنية التي أدخلها الملك عبدالعزيز الى حكومته ، فاضطر الملك عبدالعزيز الى عقد المؤتمر العام بالرياض لتوضيح هذه الأمور التي كانوا يظنون أنها حرام وبدعة ، ونجح الملك عبدالعزيز في شرح ما ليس عليهم وتوضيحه لهم ، لأن الأغلبية الساحقة من الاخوان كانوا يؤمنون بصدق ايمان الملك عبدالعزيز . وهم يعلمون أنه لا يأمر بمعصية كما يعرفون اقتداره واخلاصه للعقيدة الاسلامية<sup>(٣)</sup> .

(١) محمد المانع : توحيد المملكة العربية السعودية ، ص ١١٠-١١١ .

(٢) محمد جلال كشك : السعوديون والحل الاسلامي ، ص ٥٥٩-٥٦٠ .

(٣) عبدالله الحقييل : الدعوة الاصلاحية في مواجهة التحديات ( مقال منشور في الكتاب الثالث بمركز

الوثائق التاريخية ، بدولة البحرين ، ١٤٠٤هـ ) ، ص ١٢٧-١٢٨ .

وهكذا نرى المنهج السلفي يقيم الدولة العصرية ، وقد خطب الملك عبدالعزيز في مكة المكرمة عند ضمها الى مملكته خطبة بين فيها ما هو مقبول من مدينة العصر وما هو مرفوض ، نقتطف منها مايلي :

( ان التمدين الذي فيه حفظ ديننا وأعراضنا وشرفنا " مرحبا به وأهلا " وأما التمدين الذي يؤذينا في أدياننا وأعراضنا وشرفنا فوالله لن ندعن له ، ولن نعمل به ولو قطعت منا الرقاب ) .

وفي غرة ذي الحجة سنة ١٣٤٧هـ الموافق ١١/٥/١٩٢٩م خطب الحجيج بمكة ليعلن التزامه بالمنهج السلفي ويحدد ابعاده فقال : ( يسموننا بالوهابيين ويسمون مذهبنا الوهابي باعتبار أنه مذهب خاص .. نحن لسنا اصحاب مذهب جديد او عقيدة جديدة ، ولم يأت محمد بن عبدالوهاب بالجديد فعقيدتنا هي " عقيدة السلف الصالح " التي جاءت في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . ونحن نحترم الأنمة الأربعة ، ولافرق عندنا بين مالك والشافعي وأحمد وأبي حنيفة ، كلهم محترمون في نظرنا ، اننا لانبغي التجديد الذي يفقدنا ديننا وعقيدتنا .. ) .

ومن خطبه أيضا تلك التي ألقاها في حجيج سنة ١٣٥٢هـ / ١٩٣٤م أي بعد توحيد المملكة بسنة تقريبا قوله :

( وقد جعلنا الله مبشرين بالكتاب والسنة وما كان عليه السلف الصالح ، لانتقيد بمذهب دون آخر ، ومتى وجدنا الدليل القوي في أي مذهب من المذاهب الأربعة رجعنا اليه وتمسكنا به ، أما اذا لم نجد دليلا قويا فناخذ بقول الإمام أحمد) .  
وكما صنع هذا الملك العظيم بالعقيدة السلفية - صنع بالمسلك السلفي الذي يهب للمسلم كل القوة ، اذ يدرك معنى الشهادة ومنطق العبادة ان الله

اكبر. وان من كان الله معه فهو منصور (١).

وهكذا أقام الملك عبدالعزيز وخلفاؤه بالمنهج السلفي الدولة العصرية على أسس الشريعة الإسلامية ، مع الأخذ بوسائل المدنية التي لا تتنافى ولا تتعارض مع الدين الإسلامي القويم كما قالها بنفسه .

لذلك رأى العالم المسلم منهم وغير المسلم كيف قامت دولة عصرية حديثة تتوفر فيها كل وسائل الرخاء والأمن وكل متطلبات الحياة الحديثة دون أن ينسى الناس ولو لحظة واحدة انتماءهم للشريعة الإسلامية التي تحرص فيها الدولة قبل الفرد على تنفيذ أوامر الله واجتناب نواهيه في كل أمور الدين والدنيا .

ولاغرو في أن الدعوة السلفية التي تدعو إلى الرجوع إلى الله والتي دعا بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، قد نجحت بحمد الله في تأسيس دولة سلفية منذ اتفاق الدرعية سنة ١١٥٧هـ بين الإمام محمد بن سعود الذي ناصرها بالمال والرجال والنفس والنفيس والشيخ محمد بن عبد الوهاب حتى يومنا الحاضر (٢).

---

(١) عبد الحليم الجندي : الإمام محمد بن عبد الوهاب ، ص ١٨٣ .  
(٢) عبد الله الحيل : الدعوة الإصلاحية في مواجهة التحديات ( مقال منشور في الكتاب الثالث بمركز الوثائق التاريخية بدولة البحرين ، ١٤٠٤هـ ) ص ١٢٧-١٢٨ .



كان تاريخ ارساليات التبشير في شبه جزيرة العرب ، بوجه خاص هو تاريخ ارسالية التبشير العربية التي هي الابنة الممتازة لكنيسة الاصلاح الامريكية ولها فروع اربعة اقدمها عهدا " جمعية تبشير الكنيسة " التي تفرع عنها فرع آخر في فارس في سنة ١٣٠٠هـ / ١٨٨٢ م ، وقد استقلت هذه الجمعية بأعمالها باسم "جمعية التبشير العربية العثمانية " ولها في بغداد اربع ارساليات وفي الموصل واحدة . وفي سنة ١٣٠٣هـ / ١٨٨٥ م ذهب الى عدن " ايون كيث فالكونز " فأسس هناك ارسالية تبشير اسكوتلندية وهي مؤلفة من طبيبين منصرين ، وتبعتها " ارسالية التنصير العربية " التي أسست في سنة ١٣٠٧هـ / ١٨٨٩ م وهي تابعة لكنيسة الاصلاح الأمريكية ، فانتشرت في البصرة والبحرين ولها في البحرين خمسة منصرين اثنان منهم طبيبان واثنان امرأتان ، ولها في البصرة اربعة مبشرين أحدهم طبيب . فكان المرضى يشدون الرحال من أصقاع بعيدة الى مستشفيات المنصرين في الموصل ، وبغداد والبصرة والبحرين وعدن . فعندما يرحل المنصرون الأطباء يجوبون البلاد كانوا يفرسون في النفوس بذورا استطاع المنصرون بعد ذلك جني ثمرها سياسيا وتنمية غرسها ثقافيا ، فعني المنصرون بالتعليم المدرسي والتربية اللذين أسفرا عن نتائج مستهجنة وأثرا ثمرات ضارة في الأطفال والمراهقين على السواء ، فكانت المحاضرات التي يلقيها المنصرون حول ارتقاء الممالك النصرانية وانحطاط ممالك الاسلام ، فكان من نتائج ذلك أن اقتطفوا ثمرات أعمالهم في كل منطقة من مناطق التنصير باظهار التسامح والاهتمام الحقيقي بالتعاليم النصرانية<sup>(١)</sup> .

الا أن دعوة التوحيد والاصلاح قد لعبت دوراً مهماً في تجنيد الدولة

(١) ل . شاتليه : الغارة على العالم الاسلامي . ص ٣٥ ، ٣٦ .

السعودية الآثار المدمرة للغزو الفكري ، والتي اتضحت آثاره في محاولات التنصير للتخوم المجاورة للدولة في الشام ومسقط والبحرين وبغداد والموصل وفارس وعدن عن طريق التعليم والعلاج الطبي لتخفيف الآلام البشرية ، وخاصة عندما ضمت الدولة الاحساء وأصبحت نجد دولة خليجية وقاعدة سعودية برية وبحرية تنطلق منها جيوش الدعوة السلفية الى داخل بلدان الخليج لنشرها هناك .

ازدادت أهمية صد التدهور عندما ضم الامام سعود بن عبدالعزيز مكة المكرمة في سنة ١٣١٨ هـ حين انتشرت هذه الدعوة الى الدول المجاورة خارج نجد ، لذا هزت هذه الدعوة الركود الذي أصاب العالم الاسلامي ومهدت لظهور الدعوات الاصلاحية في البلدان المختلفة والمجاورة كما سيأتي .

مما تقدم يتضح لنا أن الدولة السعودية قد قامت على أسس اسلامية سليمة ، وعملت كل ما في وسعها من أجل رفعة هذا الدين وخدمته دون أن يمنعها ذلك من اللحاق بركب الحضارة في العصر الحديث .

إذا فقيام هذه الدولة الاسلامية على أسس سليمة مكنها من أن تصد التدهور الذي عم أرجاء الدولة العثمانية ، وتمنع أي تسرب للغزو الفكري عن شبه الجزيرة العربية وخارجها لدورها الفعال في نشر النهج الاسلامي السليم في الأقطار المجاورة لشبه الجزيرة العربية ، وبث الصحوة الاسلامية بين ربوعها لتقف سدا منيعا للأفكار الهدامة التي خيمت على بلدان وأقطار اسلامية عديدة تتأخم الدولة ودعوة أهلها الى الرجوع الى الله ونبذ كل بدعة وقول لاينفع والتمسك بتطبيق أحكام كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

فهذه المبادئ الاسلامية لا تحل في مكان وتنتشر فيه الا ويكون من آثارها أن تشعر شعوبها بالأمن والاستقرار والعدل ، فلقد ظهرت الدعوة السلفية في شبه جزيرة العرب بكاملها ، ثم انطلقت الى شمالها وجنوبها الى السودان والهند وسومطرة ، وشمال أفريقيا ، ولقد تصدت هذه الدعوة لدفع التدهور عن أحوال

العالم الاسلامي التي كانت تتشابه في كل هذه الأقطار وقت ظهور الدعوة السلفية في قلب نجد الى حد بعيد من حيث اعتناق أهلها للخرافات والبدع وانصرافهم عن تطبيق أحكام الشريعة الاسلامية وتحديد موارد الدولة على أسس اسلامية .

وعلى كل حال فقد وجدت هذه الدعوة السلفية ميدانا للعمل واستطاع الدعاة المصلحون في كل تلك الأقطار أن يشعروا سكانها بحاجة الاصلاح الديني ، وبضرورة اتباع مبادئ الدعوة السلفية للنهوض ببلدانهم ضد الغزو الفكري ، والتيارات الاستعمارية المعادية للاسلام والمسلمين التي تريد غزو الاسلام في عقر داره لانهصار حدوده بعد أن كانت ممتدة في العمق الأوربي .

وبفضل من الله استطاعت هذه الدعوة ايقاظ العلماء فوقفوا أمام الهجوم الشرس الذي جاء به الغزو الفكري للعالم الاسلامي .

•••

## ج - تأثر حركات الاصلاح في العالم الاسلامي بها :

لم يقتصر أثر الحركة السلفية القائمة على دعوة التوحيد والاصلاح على شبه الجزيرة العربية بل امتد هذا الأثر الى خارج حدودها وذلك عن طريق الحجاج الذين كانوا يفتدون الى بيت الله الحرام لأداء فريضة الحج ، وكان الحجاج القادمون من الخليج والعراق يمرون في طريقهم على الدرعية عاصمة الدعوة السلفية حيث يلقون الضيافة والاكرام من حكام الدرعية وتلقى عليهم أيضا دروس في أصول الدعوة وأسسها لمدة ثلاثة أيام<sup>(١)</sup> .

وكان موسم الحج ميدانا صالحا، وفرصة سانحة لعرض الدعوة على كبار حجاج بيت الله الحرام، واستمالتهم لقبول مبادئها التي تدعو الى الرجوع الى الكتاب والسنة ، فاذا عادوا الى بلادهم دعوا اليها<sup>(٢)</sup> . وخاصة بعد أن ضم السعوديون الحجاز ودخلوا مكة المكرمة سنة ١٢١٨ هـ / ١٨٠٣ م فأعطى الفرصة لسائر الحجاج من مختلف البلاد الاسلامية للتعرف على أصول الدعوة السلفية فالتقوا بالعلماء وناقشواهم فيما يدعون اليه<sup>(٣)</sup> ، ويستمعون الى خطبهم ومواعظهم وارشاداتهم القيمة وتوجيهاتهم السديدة<sup>(٤)</sup> .

وبهذا الانطباع انتشرت الدعوة السلفية خارج نجد الى الدول الاسلامية<sup>(٥)</sup> ، وتأثر بها بعض الحجاج لما رأوا في هذه الدعوة التي دعا اليها الشيخ محمد بن عبدالوهاب أنها ليست دعوة جديدة كما أعلنها خصوم الدعوة ، فهي

(١) أحمد القطان وآخرون : امام التوحيد الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، ص ١٠٣ .

(٢) أحمد أمين : زعماء الاصلاح في العصر الحديث (بيروت ، الناشر دار الكتاب العربي) ص ٢١ .

(٣) محمد عبدالله ماضي : النهضات الحديثة في جزيرة العرب ، ص ٦٢-٦٣ .

(٤) عبدالله بن سعد الرويشد : الامام الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، ص ١٧٦ .

، محمد عبدالله ماضي : المرجع السابق ، ص ٦٣ .

(٥) عبدالله بن سعد الرويشد : المرجع السابق ، ص ١٧٦ .

تعتمد على أسس ثلاثة : الكتاب والسنة وآثار السلف الصالح ، تحارب البدع والخرافات والخزعبلات الشائعة بين الناس من تبريك وتقديس الأحجار والأشجار والقبور والبناء عليها ، وبدعاء العلماء والأولياء والصالحين ، فأخذ كل منهم ينشر في بلاده التوحيد ويحارب هذه الخرافات الموجودة في بلاده (١) .

ومع مرور الزمان انتقلت أصول هذه الدعوة الإصلاحية الى كل من القواسم ، الذين جاهدوا في سبيل هذه الدعوة الانجليز في الخليج العربي ودانوا للدولة السعودية الأولى ، كما انتقلت الى السودان وسومطرة والهند والعراق والشام ومصر والجزائر وجاوه وعمان .

وكان هدف دعائها في كل مكان حلوا به هو محاربة البدع والفساد والقضاء عليها ، وتصحيح العقيدة بما علق فيها من أدران الشرك للرجوع الى ما كان عليه السلف الصالح في القرن الأول للهجرة (٢) .

لذلك قامت هذه الحركات الإصلاحية ، ودعاة الإصلاح ضد الأوضاع السائدة في البلاد (٣) .

ففي اليمن ظهرت مجموعة من العلماء تأثروا بالدعوة السلفية ، ودعوا الناس الى مبادئها ، وكان على رأسهم العالم الجليل محمد الشوكاني ، وصار لهم أتباع ووقعت بينهم وبين خصومهم من العلماء الآخرين مناقشات ومنازعات ولكن ذلك لم يتعد الحرب الكلامية (٤) .

(١) أحمد بن حجر آل بوطامي : الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، ص ١٠٣ .

(٢) عبدالله بن سعد الرويشد : الامام الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، ص ١٧٦ .

، أحمد بن حجر آل بوطامي : المرجع السابق ، ص ١٠٣ .

(٣) أحمد أمين : زعماء الإصلاح في العصر الحديث ، ص ٢١-٢٢ .

، محمد عبدالله السلطان : دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، ص ٨٣ .

(٤) عبدالله بن سعد الرويشد : المرجع السابق ، ص ١٧٧ .

أما في السودان ، فقد قامت هذه الدعوة على يد الداعية الشيخ عثمان ابن فودي ، أحد أفراد قبيلة الفولا ، فانه بعد التقائه بعلماء الدعوة السلفية في موسم الحج ، اقتنع وأيد الدعوة السلفية التي دعا اليها الشيخ محمد عن طريق العلماء في مكة المكرمة ، فعاد عثمان الى بلاده وأخذ يحارب البدع الشائعة بين قومه وعشيرته ، ويعمل على القضاء على بقايا الوثنية وعبادة الأموات التي كانت لاتزال سائدة ويؤمن بها بعض أهل تلك الديار ، فاستطاع بهذه الدعوة أن يجمع حوله قبيلته في وحدة متماسكة مرتبطة برباط الدين ، بعد أن كانت منقسمة الى عدة فرق وشيع ضعيفة متخاذلة (١) .

لذلك بدأت حروب سنة ١٣١٨هـ / ١٨٠٢م ضد قبائل الهوسا الوثنية وقضى على مملكة جبير ، التي كانت تقع على نهر مجرى النيجر . ولم تمض الا سنتان حتى أقام عثمان بن فودي مملكة (سوكوتو) في السودان على أنقاض مملكة جبير ، على أساس دعوة التوحيد والاصلاح ، دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب التي امتدت الى جميع الأقطار الواقعة بين تمبكتو وبحيرة تشاد ، وبقيت هذه المملكة محافظة على استقلالها ووحدتها في تلك الفترة (٢) .

وكما غزت الدعوة السلفية منطقة السودان فقد نشطت في القرن الثالث عشر الهجري الموافق للقرن التاسع عشر الميلادي حركة الدعوة للاسلام في البنغال

(١) محمد كمال جمعه : انتشار دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، ص ١٠٥ .

محمد عدالله ماضي : النهضات الحديثة في جزيرة العرب ، ص ٦٥-٦٦ .

لوتورب ستورارد : حاضر العالم الاسلامي ، ج ٣ ن ص ٢٣ .

(٢) محمد عدالله ماضي : المرجع السابق ، ص ٦٦ .

أحمد بن حجر آل بوطامي : الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، ص ١٠٣-١٠٤ .

عبدالله سعد الرويشد : الامام الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، ص ١٧٧ .

لوتورب ستورارد : المرجع السابق ، ص ٢٣ .

بنشاط ملحوظ . حيث قام دعاة هذه المقاطعة من البنغال ينتقلون في البلدان المجاورة لتطهير البلاد من بقايا العقائد الهندوكية القديمة عن طريق الوعظ ليوقظوا الحماس الديني وينشروا العقيدة الاسلامية بين الناس هناك <sup>(١)</sup> ، كان ذلك بواسطة أحد الحجاج الهنود السيد أحمد ، وكان هذا الرجل من أمراء الهند ذهب الى الحجاز لأداء فريضة الحج بعد أن اعتنق الاسلام في سنة ١٢٣٢هـ / ١٨١٦م .

و حين وفد الى مكة المكرمة التقى بدعاة الدعوة السلفية في مكة المكرمة واقتنع بصحة أصول الدعوة السلفية فأصبح من دعاة التوحيد . ولما عاد الى وطنه في سنة ١٢٣٦هـ / ١٨٢٠م في الهند باقليم البنغال وجد صعيذا صالحا للدعوة بين سكان تلك المنطقة من الهنود المسلمين الذين اختلطت عقيدتهم الدينية بالكثير من عقائد الهندوس هناك . فبدأ بدعوته في مدينة ( بتين ) . ودعا أولا اخوانه المسلمين بترك البدع والعقائد الهندوسية التي كانت شائعة بين الناس ، واتباع مبادئ الاسلام الصحيحة ، وبعد مرحلة من الجهاد استطاع هؤلاء المسلمون أن يقيموا الدولة الاسلامية على أساس دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في البنجاب وما حولها تحت حكم الداعية السيد أحمد <sup>(٢)</sup> ، فامتدت هذه الدولة في نفوذها حتى شملت منطقتي السند وبلوچستان وجزءا من أفغانستان ، ثم أعلن الشيخ السيد أحمد الجهاد الاسلامي على كل من خالف مذهبه السلفي ، لكنه هزم قرب مدينة بشاور ، اذ تعرض لمقاومة عنيفة من الانجليز والمتعاونين معهم في محاولة

(١) ارنولد : الدعوة الى الاسلام . ص ٣١٥ .

(٢) عبدالله بن سعد الرويشد : الامام الشيخ محمد بن عبد الوهاب . ص ١٧٦-١٧٨ .

أحمد بن حجر آل بوطامي : الشيخ محمد بن عبد الوهاب . ص ١٠٤-١٠٥ .

أحمد بن عبدالغفور العطار : الشيخ محمد بن عبد الوهاب . ص ٢٠٨ .

أحمد أمين : زعماء الاصلاح في العصر الحديث . ص ٢١ .

للقضاء على الاسلام ، حتى استشهد في عام ١٢٤٦هـ / ١٨٣١م<sup>(١)</sup> .

هذه الدعوة التي قامت على الأصول السلفية ، لازالت قائمة هناك على يد خلفاء السيد أحمد من بعده، ولم يستطع المستعمرون أن ينالوا منها شيئا ، ولا يزال هناك الكثيرون من سكان هذه المناطق يدينون بالاسلام على المذهب السلفي متبعين في ذلك أصول دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب .

وفي سومطرة ابتدأت الدعوة السلفية في سنة ١٢١٨هـ / ١٨٠٣م على يد أحد الحجاج من أجل اسعاد أهل الجزيرة، والذي عاد من الحج في السنة نفسها بعد أن التقى بالدعاة السلفيين ، واطلع على ما كانوا يدعون اليه ، حيث اقتنع بصحته ، ولما عاد الى وطنه ابتداء بالدعوة ثم تطورت هذه الحركة في بلاده حتى أدت الى حروب طاحنة بين المسلمين السلفيين في سومطرة وبين غير المسلمين من سكانها ، حتى رأت حكومة الاستعمار الهولندية سنة ١٢٤٧هـ / ١٨٢١م أن تناهض هذه الحركة القوية محافظة على كيانها ونفوذها هناك ، واستمرت المناوشات والحروب بين المستعمرين الهولنديين وبين المسلمين السلفيين في سومطرة حوالي ست عشرة سنة انتهت بتغلب قوى الاستعمار على القانمين بالدعوة والحركة السلفية<sup>(٢)</sup> .

أما الحركة السنوسية فقد بدأت في الجزائر في أواسط القرن الثالث عشر الهجري الموافق لأواسط القرن التاسع عشر الميلادي ، ثم غزت طرابلس ، بعد ذلك انتشرت في شمال أفريقيا ، ثم مدت رواقها نحو الجنوب حيث تمكنت في السودان .

(١) محمد عبدالله السلطان : دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، ص ١٨٥-١٨٦ .

(٢) محمد عبدالله ماضي : النهضة الحديثة في جزيرة العرب ، ص ٦٨ .

، أحمد بن حجر آل بوطامي : الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، ص ١٠٦ .

، عبدالله بن سعد الرويشد : الامام الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، ص ١٧٨-١٧٩ .

، أحمد عبدالغفور عطار : الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، ص ٢٠٩-٢١٠ .



فالحركة السنوسية قاومت وناهضت الاستعمار في كل مكان حلت به، والتي كانت ولا زالت مدرسة تربية وتهذيب للشعب السنوسي آنذاك، هذه الدعوة تأثرت بالدعوة السلفية، فالسيد محمد علي السنوسي مؤسس الحركة السنوسية كان في مكة يطلب العلم وقت ضم السعوديين لها، فتلمذ على علماء الدعوة السلفية الذين قدموا الى مكة المكرمة، وتأثر بمذهبهم، ثم عاد الى الجزائر. ونادى بحركته الاصلاحية على ضوء تعاليم الدعوة الاصلاحية الاسلامية السلفية التي أشعل نارها في شبه الجزيرة العربية الشيخ محمد بن عبدالوهاب (١).

وكما انتشرت هذه الدعوة بواسطة الدعاة السلفيين، فقد انتشرت هذه الدعوة المباركة في حضرموت، وجاوة بواسطة السيد رشيد رضا الذي قام بتأليف جمعية الارشاد في تلك البلاد لتطبيق مبادئ الدعوة السلفية دعوة التوحيد والاصلاح التي نادى بها الشيخ محمد بن عبدالوهاب.

وللحقيقة فقد تأثر بهذه الدعوة كثيرون من أهل حضرموت، وعدن، وجاوة وبالجملة لقد كان لهذه الدعوة الأثر العظيم في العالم الاسلامي من نواحي مختلفة، وقد كانت هي الشعلة الأولى لليقظة الحديثة في العالم الاسلامي كله، حيث تأثر بها زعماء الإصلاح في سائر الأقطار الاسلامية.

لهذا تأثرت كل الحركات الاصلاحية بالدعوة السلفية. ويمكن تحديد الصلة بينها وبين كل هذه الحركات، اما عن طريق الاقتباس او المحاكاة أو مجرد التأثير (٢).

(١) محمد عبدالله ماضي: النهضة الحديثة في جزيرة العرب، ص ٦٨.

عبدالله سعد الرويشد: الامام الشيخ محمد بن عبدالوهاب، ص ١٧٩.

أحمد بن حجر آل بوطامي: الشيخ محمد بن عبدالوهاب، ص ١٠٦.

(٢) أحمد بن حجر آل بوطامي: المرجع السابق / ص ١٠٧-١٠٨.

عبدالله سعد الرويشد: المرجع السابق، ص ١٧٩-١٨٠.

كما أن تأثير أي دعوة بالأخرى ، لايعني الاتفاق في جميع مبادئها الأساسية والفرعية . إلا أن هذه الحركات الاصلاحية تأثرت بدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب الدعوة السلفية ، واتفقت معها في أهم المبادئ التي تدعو الى اخلاص التوحيد لله ، والدعوة الى الاجتهاد ، أما المسائل الفرعية فقد كان هناك خلاف معها (١) .

ولكن هدف هذه الدعوات من الاصلاح هو العمل لسيادة مبادئ الاسلام الصحيحة ، ثم بعد ذلك القضاء على البدع والخرافات ومحاولة بناء دولة اسلامية تحكم بتعاليم الاسلام وتطبق أحكامه في المعاملات والعبادات واقامة الحدود الشرعية . وهذا ما كانت تهدف اليه الدعوة السلفية في الدولة السعودية في مراحلها الثلاث باستمرار ، وتحرص على ذلك وتؤكد عليه في كل مناسبة ومحفل ، بالحث على التمسك بالعقيدة السمحاء والعمل بها والحفاظ عليها .

لذلك يتضح لنا الدور المهم الذي حققته دعوة التوحيد والاصلاح والدولة السعودية في صد خطر الغزو الأوربي عن شبه الجزيرة العربية ، وما أعقب ذلك من تأثير حركات الاصلاح في العالم الاسلامي بها ، وهذا يعني امتداد صد خطر الغزو الفكري عن أقطار عديدة من العالم الاسلامي التابع للدولة العثمانية وغيرها من الدول الاسلامية .

فانتقال تأثير دعوة التوحيد والاصلاح في بعض أقطار العالم الاسلامي هي احدى الركائز التي واجهت وصدت الغزو الفكري الأوربي في معظم أقطار الدولة العثمانية والممالك الاسلامية الأخرى ، حيث حارب علماء الاصلاح في تلك المناطق الاستعمار الذي أخذ ينفث سمومه في الأراضي الاسلامية ، في كل ميدان حلت به هذه الدعوة ، ويفرض نظمه الأوربية ، ويشجع حركة التنصير في البلاد

(١) محمد عبدالله السلطان : دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، ص ٨١ .

الاسلامية عن طريق نشر المبادئ والأفكار الهدامة والتي تعتبر من مقومات حركة الغزو الفكري في العصر الحديث .

وهذا العمل كفيل بصد الغزو الفكري بمختلف ألوانه وتياراته لتبقى العقيدة سليمة وصالفة من كل الشوائب والمعتقدات الفاسدة الأخرى في مقابل نشر العقيدة الاسلامية في أنحاء الدول الأخرى تطبيقا عمليا في الأحكام والحدود والمعاملات كما كانت تطبق في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين.

## الخاتمة والنتائج

الدولة العثمانية والغزو الفكري من الموضوعات الكبيرة والهامة التي كان لها تأثيرها السياسي والحضاري على الأمة الاسلامية في العصور الحديثة ، ذلك لأن الحكم العثماني استمر فترة طويلة وشمل حكمه معظم البلاد الاسلامية في ثلاث قارات هي أوروبا وآسيا وشمال أفريقيا وبذلك تأثرت الأمة الاسلامية بالتغيرات السياسية والحضارية التي عاصرت الدولة العثمانية .

ومما يلاحظ على تلك التغيرات السياسية والحضارية أن الدولة العثمانية كانت غازية فكريا وسياسيا في عصرها الأول ، عندما طبقت النظم الاسلامية تطبيقا شاملا ، وهذا ما تعرضنا له في الفصل الأول . فتقدمت في فتوحاتها وأجبرت أعداءها على احترامها في عصر استقرار نظامها الذي ترتب على صلاح عناصرها القيادية التي ارتكزت عليها الدولة في عصرها الأول وهي : السلطان والشيخ والجندي ، وقد وصلت الدولة بهذه العناصر الى قوة ضاربة أرهبت بها أوروبا ، وشقت طريقها داخل أوروبا لنشر الاسلام والحضارة الاسلامية في ربوعها ، فلقد نشأت الدولة العثمانية من امارة صغيرة على أنقاض دولة السلاجقة الروم بعد وفاة آخر ملوكهم السلطان علاء الدين في عام ٦٩٩هـ / ١٢٩٩م والذي هزم على يد المغول .

ولاحظنا ما صاحب نشأة هذه الامارة وجهادها ضد البيزنطيين لايقاف الحركات الصليبية ضد البلاد والأمة الاسلامية وكانت قوتها التي تحركها هي روح الجهاد الاسلامي في الأجزاء الغربية من بيزنطة ، كما كان جند الدولة يسحقون الأحلاف التي تقف ضدهم من النصارى ، حتى تم لهم فتح أهم المدن البيزنطية النصرانية في آسيا الصغرى وشرق وجنوب أوروبا ، وقد اتصف آل عثمان بالتسامح ، فعندما أراد عثمان بن أرطغرل نشر الاسلام بين المسيحيين البيزنطيين في آسيا كان يخيرهم بين الاسلام أو الجزية أو الحرب . وذلك قبل حربه معهم كما كان يفعل الرعييل الأول في الاسلام .

فكان بعضهم يختار الاسلام طوعا ، أما الفئة الثانية فقد اختارت دفع الجزية ، الا أن القسم الآخر قد امتنع ورفع راية العصيان رغبة في القتال ، مما دفع العثمانيين الى خوض هذه الحرب المقدسة واعتبار ذلك العمل كجزء من واجبهم الاسلامي نحو الجهاد في سبيل الله ، لاحبا في القتال ولكن لنشر الدين واعلاء كلمة الحق .

وهكذا تدرجت هذه الامارة في النمو والاتساع ، وبفتح بروسية أصبحت دولة وزاد تعمقها في أوروبا حين فتح السلطان مراد الأول أدرنة ، فأصبحت الدولة بعد ذلك آسيوية أوربية .

وفي مقابل ذلك كانت أوروبا تتكتل في شكل أحلاف صليبية ضد الدولة العثمانية في مراحلها الأولى لضربها وسحقها قبل استفحائها ، ولا ستخلاص الأراضي التي فتحتها الدولة العثمانية في أوروبا ، وقد حاولوا خلال أربع حملات حربية والخامسة كانت في عهد مراد الثاني ، الا أن محاولاتهم باءت جميعا بالفشل لقوة وصلابة ووحدة الدولة العثمانية وتسليح رجالها بالايمان واستبسالهم في طلب الشهادة والجهاد في سبيل الله واخلاصهم في الدفاع عن راية الاسلام ، لأنهم يعلمون أن هذه التجمعات والتكتلات يدفعها الحقد الصليبي الدفين منذ أن استرد صلاح الدين منهم بيت المقدس . فكانت هذه الأحلاف والتجمعات ، أو الغزو الصليبي للدولة العثمانية إنما هو امتداد للحملات الصليبية السابقة في العصور الوسطى .

ولذلك كان الهدف من وراء هذه الحملات هو اخراج العثمانيين من أوروبا كلها . ثم من آسيا ليستمروا في الزحف حتى يصلوا الى بيت المقدس الشريف ، وهو الهدف الذي رسمت من أجله هذه الحملات ، بل انه أهم أهدافها ، يضاف اليه العامل الاقتصادي الذي لا يقل أهمية عن الهدف الأول .

ويظهر لنا من هذه الدراسة حماس الدولة العثمانية في الجهاد ونشر الدعوة الى الله نحو الغرب دار الحرب . وهو العامل الأساسي الذي كان يدفع الدولة منذ بدايتها .

وقد أكدت الدراسات أن العثمانيين أمة حرب وقتال من أجل خدمة الاسلام ونشره ، وقد اعترف ببسالتهم الهجومية والدفاعية الأعداء قبل الأصدقاء . لذلك انطلقت الدولة في جميع حروبها مع أوروبا من منطلق اسلامي بحت ، وتحت راية الجهاد الاسلامي ، وما يدل على ذلك المنطلق وصايا عثمان لابنه أورخان ، وهو على فراش الموت ، حيث أوصاه بنشر الاسلام ، وهداية الناس لهذا الدين مع الالتزام بحماية أعراض المسلمين وأموالهم ، وقد حثه على الجهاد لنشر الاسلام وعدم تركه وتحكيم شريعة الله ، والتقرب من العلماء وتقريبهم واستشارتهم في الأفعال والأعمال التي يقومون بها .

لذلك اعتبر العثمانيون أن نشر الاسلام في الأرض وهداية الناس به هو من أهم أعمالهم وأزكاها عند الله . ومن واجباتهم الأساسية التي نشأت الدولة العثمانية من أجلها ، وبالإضافة الى تلك العوامل والمقومات نرى العثمانيين يفتحون قلوبهم لمن اعتنق الاسلام في أوروبا ، ومن أشهرهم الأمير خوسيه ميخائيل الذي أسلم في زمن عثمان بن أرطغرل ، فأصبح هذا المسلم من خيرة المسلمين وارتقى بهذا الاسلام حتى كان من قادة المسلمين المرموقين في الدولة العثمانية ، ثم القائد افرينوس حاكم بروسه ، وغيرهم من الشخصيات الأوربية الذين أسلموا وحسن اسلامهم ، فأخلصوا والتزموا في اسلامهم ، فخدموا الاسلام والمسلمين ضد أوروبا النصرانية .

فاتضح لنا أمانة التزام السلاطين أنفسهم بهذه النظم الاسلامية التي كانوا يطبقونها في عصر الدولة الأول على أهل الذمة، كما كانت تطبق في عهد الخلافة الراشدة من حسن معاملة صادقة ، وهذا مما أدى الى انتشار الاسلام بين الدول

الأوربية ، اذ أسلم بعضهم ، ودفع بعضهم الجزية مقابل حمايتهم ، وبعض  
المسيحيين أسلموا نتيجة لتسامح المسلمين ، وبإسلامهم سقطت عنهم الجزية .  
الا أننا يجب أن لا ننسى دور الانكشارية في بناء هذه الدولة ، وقد كان  
للحصانة الفكرية التي تربوا عليها الدور الواضح في حروبهم تحت قيادة  
السلطان، وخاصة في عصر الدولة الأول لتشبع الجندي الانكشاري بالروح  
الجهادية واخلاصه لعقيدته أولاً ثم لوطنه ثانياً ، فكانوا يؤمنون بالاسلام عقيدة  
ومنهجاً .

لذلك كان الانكشاريون كتلة واحدة تشعر بواجبها الاسلامي العظيم  
وبالمهمة التي أعدوا من أجلها ، وهي أن السيف سلاحهم في سبيل الحق ونشر  
الاسلام، ودعوة الحق شعارهم ، والرحمة والشفقة تملأ قلوبهم ، ذلك لأن الإسلام  
دينهم والسلطان ولي أمرهم ، قد أصبحت هذه الفئة عوناً للدولة على أعدائها ،  
حتى صار السلطان لا يعول إلا عليها ، ولذا كانت الانكشارية من أهم عوامل بناء  
الدولة وامتدادها حيث رافق هذا الجيش تكوين الدولة وكان سبباً وعوناً في انتشار  
الاسلام وتقدمه في أوربا خلال عصر عظمة الدولة .

ومنذ أن فتحت القوات العثمانية القسطنطينية سنة ٨٥٧هـ / ١٤٥٣م ،  
أصبح اسمها اسطنبول كما أصبحت عاصمة الدولة العثمانية ، وبسقوطها قضى  
محمد الفاتح على آمال ومستقبل أوربا التي كانت تهدد العالم الاسلامي ، ومن هذه  
المدينة انطلق فاتحها لمواصلة الجهاد لنشر الاسلام في الدول الأوربية .

أما موقف أوربا ، فقد انتابها الخوف والقلق حيث تجسم أمامها خطر  
الإسلام ، وما كانت البابوية لتهدأ أو يخلو لها بال بالرغم من كراهيتها وخلافها  
المذهبي للأرثوذكس في القسطنطينية . فهي لا تسمح بقضاء المسلمين على  
الامبراطورية البيزنطية . ولكن قوة المسلمين في ذلك الوقت أوقفت أوربا عاجزة  
لاستطيع أن تقدم يد العون الى القسطنطينية لخوفهم الشديد من العثمانيين لأنهم



لازالوا يتذكرون معركة نيكوبلي ( نيكوبوليس ) الشهيرة التي أذهلت ملوك أوروبا وشعوبها نتيجة للفشل الذريع الذي حل بالجيش المسيحي الأوربي ، فلم يعد من السهل استثارة الأوربيين للدولة العثمانية ، وقد أنهت هذه المعركة الحملات الصليبية كحركات صليبية منظمة ضد الاسلام كما مر بنا في الفصول السابقة .

ومن ذلك الوقت سجلت أوروبا تراجعا عكسيا ، خصوصا عقب سقوط القسطنطينية في يد العثمانيين ، فتوقف نهائيا التهديد الصليبي بغزو المقدسات الاسلامية في البلاد العربية ، وركز الأوربيون الطاقات الدفاعية عن مقر البابوية في روما ، خوفا من سقوطها في يد المسلمين العثمانيين كما سقطت أياصوفيا مقر البابوية الشرقية وأعظم معقل الديانة المسيحية الأرثوذكسية . وزاد السلطان محمد الفاتح أوروبا ارتباكا وحيرة عندما أقسم أن يربط فرسه في كنيسة القديس بطرس في روما ، لذلك أصبحت روما تحت التهديد العثماني، وظن الناس أنها لامحالة ستسقط كما سقط المعقل الشرقي الأرثوذكسي . فhez هذا القول أوروبا وارتعدت خوفا أمام القوة الاسلامية التي تطبق الاسلام بكامل حدوده وشعائره .

و حين عزم السلطان محمد الفاتح على ذلك جهز قواته وسار بها نحو شرق أوروبا طلبا للجهاد في سبيل الله ، فاما النصر أو الشهادة ، ونتيجة لذلك أصبحت الامارات الأوربية البلقانية تسقط في يده الواحدة تلو الأخرى وهو سائر في طريقه الى روما تحف به عناية الله وتوفيقه .

و حين رأت أوروبا تصميمه على ذلك قررت التخلص منه عن طريق طبيبه اليهودي الذي اعتنق الاسلام على مذهب يهود الدونمة ، فدس له السم في الطعام تدريجيا حتى قضى عليه غدرا كما هي عادة اليهود ، وبموته زال الخطر عن أوروبا حيث عبرت عنه باقامة الأفراح في كل مكان، ولكن كان ذلك الفرحة مؤقتا حيث واصل خلفاؤه من بعده السير على خطاه في الجهاد ونشر الاسلام

ولذلك اعتبرت أوروبا أن فتح الدولة العثمانية للقسطنطينية هو مولد المسألة الشرقية التي أشغلت أوروبا منذ ذلك الوقت . ولا تزال قائمة تشغلها واطاعة أمامها الأسئلة التالية : كيف تستطيع أوروبا إيقاف تقدم الاسلام ونشره في الأقطار والممالك الأوروبية ؟ وكيف تعمل أوروبا من أجل تقسيم ممتلكات الدولة العثمانية ؟ ولماذا عاد الاسلام مرة أخرى ينطلق من الديار الشرقية ؟ ولم تستطع أوروبا أن تحقق مآربها أو أن تصل لغاياتها العدوانية ضد الأمة الاسلامية . وذلك لأن الدولة العثمانية كانت قوية ذات مركز عال مهابة الجانب ، والسر في ذلك أنها كانت تطبق شرائع الاسلام قولاً وعملاً كما أن جندها كانوا متشبعين بروح الجهاد في سبيل نشر الاسلام . ومن أجل ذلك تحقق للدولة العثمانية كل أمانها وأيدها الله بنصره لأن الله تعهد بأن ينصر من ينصره .

وهكذا اتسعت رقعة الدولة العثمانية حتى وصلت الى أقصى اتساعها مما جعل ملوك أوروبا يطلبون ود الدولة العثمانية ، ويستنجدون بها على أبناء جلدتهم . ومن ذلك قيام فرانسوا الأول ملك فرنسا بالاستعانة بسليطان الدولة العثمانية السلطان سليمان الأول لمساعدته ضد شارل كان ملك النمسا الذي كان يحيط بأملكه كالسوار بالمعصم ، وقد حالفه السلطان سليمان على ذلك لحمايته وصد الظلم عنه .

ونتيجة للانتصارات العظيمة التي حققتها جيوش الدولة العثمانية فان كثيراً من النصارى دخل في الاسلام تطوعاً ، فانضموا الى الجيش الانكشاري ، فعندما تم ضم البوسنة دخل أكثر شبابها الاسلام ، وقد ساهموا مع الجيش العثماني في فتح المدن الأوروبية الأخرى ، وهذا يعود لسماحة السلاطين وتطبيقهم للاسلام . ومن خلال استعراضنا للأحداث التاريخية خلال العصر العثماني الأول نجد أن الدولة العثمانية كانت غازية فكرياً ودينياً كما أنها كانت ملتزمة بالاسلام قلباً وقالباً ، فطبقت النظم الاسلامية تطبيقاً شاملاً مما لا يختلف فيه اثنان .

و حين انتقلنا الى الفصل الثاني تحدثنا عن الدولة في عصرها الثاني فقد كانت غير ذلك ، فاتساع رقعة البلاد وامتدادها على القارات الثلاث ، أوجد لها مشكلات غير عادية في مجال الدفاع الخارجي والتنظيم والتماسك الداخلي ، أوصلت الدولة الى عوائق ، وكان من الواجب على سلاطين الدولة الذين جاءوا بعد السلطان سليمان الأول العمل على اجتياز تلك المشاكل الداخلية والخارجية. وإيجاد الحلول الكفيلة لها ، ولكنهم تقاعسوا عن ذلك وتقايس معهم العلماء والقادة ، فانصرفوا الى حياة الترف واللهو مما زاد من تفاقم المشاكل الداخلية والخارجية ، وعندما أرادوا ادخال بعض التعديلات و الاصلاحات في النظم الداخلية لجأوا الى محاكاة الغرب المسيحي في تنظيماته، فانصرفوا عن الاسلام، فضلوا الطريق ، وأصبحوا ألعوبة في يد بلدان الغرب يعقدون معهم المعاهدات والاتفاقيات ويمنحونهم الامتيازات داخل أراضي الدولة العثمانية . وقد نتج عن هذا الاهمال من سلاطين الدولة زيادة المشاكل وصعوبة حلها مما أثر على وحدة الدولة وتماسكها، وفتح الطريق أمام تسرب الخلل في جميع أجهزة الدولة ، وقد أدى وجود قوميات وأديان متعددة في الدولة الى اضطراب كيانها فكثرت الثورات الداخلية ، فانتشرت أعمال الفوضى ، واضطرب الأمن ومنيت الجيوش العثمانية بهزائم كبيرة ، فكان هذا مبررا لتدخل الدول الأوروبية في شئون الدولة العثمانية بحجة رعاية القوميات والأقليات الدينية في الدولة . ومن أجل تفاقم ذلك الخطر فان الدول الأوروبية لم تتردد في تقديم المعونات المالية والعسكرية بل والبشرية لاشعال تلك الثورات وتشجيعها على المطالبة بالانفصال حتى ينتهي بها الأمر الى الانفصال عن كيان الدولة الكبير أو حصول الدول الأوروبية على معاهدات وامتيازات لرعاية تلك القوميات والديانات. وهذا كله ناتج عن انغماس أغلب سلاطين الدولة في حياة اللهو والمجون والاسراف وتفشي سوء الادارة وقبول

الرشوة بين حاشية السلطان وعماله حتى أصبح ذلك شريعة سائدة في جميع أرجاء الدولة وأقطارها .

كان ذلك بعد الانتصارات الباهرة التي أحرزها العثمانيون عندما حملوا راية الاسلام وساروا بفتوحاتهم صوب الغرب . ولما داخلهم الغرور جنحوا الى الكسل . وتهاونوا في تطبيق اصول الاسلام الداعية للعمل والجهاد وتطبيق النظم الاسلامية بكل معانيها ، فانشغلهم تبعاً لشهواتهم شغلهم عن الغرب وتخطيطاته لهدم الملة الاسلامية ، فاستغل الغرب هذه الغفلة وأخذ يخطط لما فيه خدمة مصالحه التجارية والسياسية والدينية في المنطقة ، فكان ذلك عن طريق الغزو الفكري منذ حملة نابليون تنفيذاً لوصية لويس التاسع ملك فرنسا ورائد حركة الغزو الفكري والذي كاد أن يذهب ضحية الحملة الثامنة لولا قيامه بدفع مبالغ من المال كغدية لفكه من الأسر ، وهكذا تحولت المعركة من ميدان السلاح الى معركة في ميدان العقيدة والفكر بهدف تشويه عقيدة المسلمين التي تحمل معنى الجهاد . وكان من أهم عوامل الغزو الفكري حركة التنصير . وقد اتضحت معالم هذه الحركة من خلال الهجوم الصليبي على الدولة العثمانية التي قامت بها الدول الأوروبية منذ بداية القرن الثالث عشر الهجري الموافق للقرن التاسع عشر الميلادي بواسطة قناصل وسفراء تلك الدول الأوروبية ، ومن خلال نشاطات الجمعيات والارساليات التنصيرية المدعومة من الدول والجمعيات المسيحية والمتمثل في بناء المؤسسات التعليمية والعلاجية في اسطنبول وبلاد الشام وأصبحت الدول الأوروبية تتصارع على الزعامة لحماية الأماكن المقدسة في فلسطين .

وعن طريق هذه الخدمات استطاعت هذه الدول الأوروبية أن تغزو العالم الاسلامي فكرياً وديناً وسياسياً وتعمل ماتريد لخدمة مصالحهم . كما حاولت أن تشكل المسلمين في دينهم وعلمانهم ، وبالتالي يتبعون الغرب ويصدقونه في كل مايقول . وكان الغزو الفكري من العوامل المهمة التي ساعدت على تفتت الدولة

الاسلامية لأنه غرر بشعبها المسلم عندما شككه في دينه وعلمانه الأفاضل ، وأصبح مغرما بتفاهات الغرب وحضارتهم المادية ، ثم أطلق الغرب على الدولة العثمانية تعبيرا لا يليق بدولة كبرى خدمت الاسلام والمسلمين وهو تسميتها (بالرجل المريض).

وقد لاحظنا في الفصل الثالث نشأة حركة الغزو الفكري الأوربي حيث نشأت معها الأفكار العلمانية والقومية والحركة الدستورية ، وتسربت هذه الأفكار عن طريق الثورة الفرنسية التي استطاعت أن تخترق الحياة السياسية والدينية وأن تؤثر في أوربا ، وتعمل على تغيير النظم القديمة في أوربا . فشجعت تلك الأفكار اليونان على المطالبة بالاستقلال ، كذلك شجعت من ثار بعدهم على طلب الاستقلال لبلادهم سواء ضد النظم القديمة الأوربية أو الانفصال عن الدولة العثمانية ، ويعني ذلك أن هذه الأفكار تسربت الى ممالك الدولة العثمانية الأوربية وكان أثر ذلك أن فقدت الدولة اليونان .

والدولة العثمانية نفسها لم تنج من تسرب هذه الأفكار اليها ، فأصاب هذه الأفكار كثيرا من هيئات المجتمع العثماني ، ولنن كان التأثير في بادئ الأمر ضعيفا إلا أنه أصاب الطبقات المسيحية التي تعيش داخل الدولة أكثر من غيرهم، وكان ذلك تمهيدا للحركة الدستورية التي اضطرت بأفكارها دول البلقان والصرب والافلاق والبغدان والجبل الأسود التابعة للدولة العثمانية طلبا للاستقلال ، فأخذت الدولة العثمانية تتصارع معها ، وأخذت روسيا تساند هذه الثورات وتحدث القلاقل حتى نالت هذه الدول استقلالها في معاهدة برلين سنة ١٨٧٨ م .

وكان لتطورات التاريخ الأوربي الحديث الأثر الكبير على المناطق والشعوب في تغيير فكر المجتمعات الى علمانية وقومية جديدة ، ثم لم تلبث أوربا أن نشرت هذا الفكر في المدن الاسلامية، وكان شعارها المعلن (العدل والاخاء

والمساواة) وهي نفس الشعارات التي تدعو لها الماسونية ورددتها أتباعهم ، ويؤكد ذلك ارتباط العلمانية بالماسونية . كما أن ذلك يعني القاعدة التي تنطلق منها هذه المذاهب الهدامة ، وان اختلفت في الأسماء والمسميات ، فهي في الحقيقة مؤسسات سرية يهودية أريد بها هدم الإسلام وتفتيت الأمة الإسلامية ، وبهذه الشعارات والدعوات والمذاهب الهدامة تغفل سلطان اليهود ، وأخذت سماته تبرز للعيان منذ مطلع القرن الثاني عشر الهجري الموافق للقرن الثامن عشر الميلادي . وساعد في انتشار هذه الأفكار أكثر تطور الثورة الصناعية واتساعها وتطور وسائل المواصلات في العالم ، مما أتاح لهذه الجمعيات والمؤسسات امكانية الانتقال والانتشار بأعضائها من مكان الى آخر لنشر مبادئهم وتعاليمهم التي تتعلق بأهدافهم وأمانهم وأطماعهم ، والعمل على توجيه هذه الجمعيات والمؤسسات الفرعية التي تسيطر عليها لتحقيق الهدف الذي تعبر عنه الخطة الكبرى للجمعيات والمؤسسات السرية العالمية المنتشرة في جميع بلدان العالم والتي تقوم بكل عمل ماسوني في خدمة الأطماع اليهودية ، فالأفكار المستقلة التي تعارض الأفكار الماسونية ، كانت تتعرض دائما للنقد اللاذع والعداء من قبل الماسونيين وأذئابهم . وكثيرا ما استخدم هؤلاء التصفية الجسدية كما هي عاداتهم ضد من يقف في طريق مخططاتهم وأهدافهم العدوانية .

ولقد أدت حياة الركود والتراجع التي كانت تعيشها الدولة العثمانية الى تغير موقفها من الهجوم الى موقف الدفاع عن النفس . ولم تقف الأمور عند هذا الحد بل بدأت الدولة تفقد في كل حرب مع أوروبا أو روسيا ولاياتها الواحدة تلو الأخرى ، لذلك بدأت الدولة في محاولات الإصلاح التي شملت النواحي العسكرية والسياسية والثقافية وحتى النفسية . قي الوقت الذي كانت فيه الدولة العثمانية تسيطر على الطرق العالمية الكبرى ، ولكن عندما أثر السلاطين سياسة العزلة والانصراف عن مواجهة المشاكل والانكفاء خلف شهواتهم اتسعت المشكلة ،

فانتهزت الانكشارية يساندهم في ذلك العلماء هذه الفرصة، وقامت بقتل كل فكرة اصلاحية جديدة حتى ولو لم تتعارض مع الشريعة الاسلامية، مما زاد في طمع الغرب، ففكر في تقسيم ممتلكات الدولة أكثر من مرة، ولكن خوفهم من الخلاف فيما بينهم على تقسيم الدولة واشتعال الحرب فيما بينهم جعلهم يوجلون هذا الأمر، ويرسمون الخطط لنشر الفوضى والاضطرابات داخل ولايات الدولة ومدنها الكبرى.

وحين انتقلنا الى الفصل الرابع بينا فيه الاضطرابات ودعوات الاصلاح في الدولة حتى اتجهت الى الاصلاح العسكري أولا وقد واجه تحقيق ذلك سلسلة طويلة من العراقيل نتيجة للضعف الذي أصاب السلاطين والعلماء والانكشارية والتدهور الشامل في سياسة الدولة الداخلية والخارجية، والتهاون في ادارة الدولة حتى بدأ سلاطين آل عثمان يتطلعون الى معرفة أسباب ضعف دولتهم وايجاد الحلول لذلك الضعف، فقام السلطان سليم الثالث ( ١٢٠٤ - ١٢٢٢هـ / ١٧٨٩ - ١٨٠٧م) وبدأ الاصلاح في الدولة.

ولكن الانكشاريين لم يمهلوه، فقد عارضوه، وكان ضحية هذا الاصلاح بعد أن وضعوا مكانه السلطان مصطفى الرابع الذي كان يميل لهذه الفنة ولكن القائد مصطفى علمدار في روسجك الذي كان يؤيد الاصلاح ومن مؤيدي السلطان سليم الثالث استطاع أن يقضي على السلطان مصطفى الرابع بجيشه وأن يولي محمود الثاني عرش الدولة العثمانية، هذه الأحداث تعكس بجلاء ضعف الدولة وانهارها وسوء ادارتها مما مهد الطريق لعوامل الغزو والفكري أن يتسرب داخل البلاد. وعندما تسلم السلطان محمود الثاني السلطنة بعد ثورة دموية أدرك أنه لا سبيل الى الاصلاح الا بالتخلص من الانكشارية. ولكن كيف يتم ذلك؟ ففكر وراح يخطط للوصول الى كيفية يتخلص بها من هذه الفنة الباغية والخارجة عن طاعة ولي الأمر. وخاصة أنه عقب حرب اليونان اتضح لديه عدم جدوى الجنود

الانكشارية ، وأعجبه تنظيم الجيش المصرى على الطريقة الحديثة وانتصاراتهم الباهرة التي حققها ابراهيم بن محمد على في المورة ، كما كانت محل اعجاب أوروبا نفسها ، لذا زاد من اصراره على القضاء على الانكشارية ، ولكنه في هذه المرة قبل البدء استحصل على فتوى شرعية تنص على وجوب التخلص من هذه القوة . ويظهر لنا من هذه الفتوى أنه استطاع اقناع العلماء وجعلهم الى جانبه بعد أن شرح لهم مشاكل الانكشارية ، وأنها أصبحت من أسباب ضعف الدولة العثمانية ، بعد أن كانت قبل ذلك احدى عوامل بناء الدولة وقوتها . فأعلن ذلك للملأ وسعى الى ايجاد انقسام بين صفوف الانكشارية فأحدث هذا النبأ حول الغاء تشكيلات الانكشارية صدى في جميع أنحاء العالم كما خصت الصحف الأوربية عناوين كبيرة لهذا الحدث ، وسمى الأتراك العثمانيون هذا الحدث باسم " الواقعة الخيرية " .

لهذا اعتبر المؤرخون أن السلطان سليم الثالث رائد حركة الاصلاح ولكنه مات وهي في مهدها ، أما السلطان محمود الثاني فيعتبر بهذا العمل قد وضع حجر الأساس للاصلاح العسكري في الدولة . ولذلك شرع في تكوين جيش جديد على الطراز الأوربي واستدعى لتدريبه ضباطا ومهندسين فرنسيين وألمان ويعني ذلك العمل أن الاستغراب قد زاد في عهد السلطان وتوسع نحو الغرب بعد مذبحة الانكشارية .

ومن استعراضنا للأحداث التي كانت تمر بها حركة الاصلاح نرى أن القوة العسكرية كانت أولى عناصر الاصلاح التي اهتمت بها الدولة ، ومن خلال ذلك دخل الاستغراب الى أنظمة الدولة العسكرية وذلك عن طريق المدربين والفنيين الذين تم استقدامهم من أوروبا ، وكان هدف الدولة من ذلك بناء جيش قوي تستطيع الدفاع به عن نفسها ، ومن ثم تسترجع ما فقدته من ممتلكات .



ومن أجل ذلك سعى السلطان محمود الثاني الى زيادة عدد الطلاب  
المتبعين الى المعاهد والمعسكرات الأوربية للدراسة والتدريب هناك حتى بلغ عددهم  
الآلاف ، وقد تأثر هؤلاء المتبعون من خلال دراستهم بما كان يروج في أوروبا من  
أفكار ثورية ، مما أدى الى ظهور طائفة جديدة من أبناء المسلمين في الدولة العثمانية  
لم يستطع المجتمع العثماني تقبلهم لتأثرهم بالأفكار الهدامة ، وقد أطلق عليهم  
"الشبيبة العثمانية" تشكل منهم عناصر استوطنوا بعض المدن الأوربية ليقوموا  
بدور المعارضة بأفكارهم المخالفة للشريعة الاسلامية .

وهنا تجدر الإشارة الى أنه عندما توفى السلطان محمود الثاني في سنة  
١٢٥٥هـ / ١٨٣٩م كانت الدولة العثمانية على مشارف السقوط عقب الأزمة مع  
محمد علي ، وقد توفى السلطان قبل أن يعرف هزيمة جيشه من قبل قوات محمد  
علي باشا بحوالي ثمانية أيام تقريبا ، ولكن خوف دول أوروبا من محمد علي على  
مصالحها بعد أن عرفت قوته في حرب المورة جعلتهم وخاصة الانجليز وعلى رأسهم  
المرستون يدبرون له المكائد لحماية اسطنبول .

وكان بالمرستون يعرف أطماع محمد علي وأحلامه في اقامة دولة عربية من  
مصر الى الخليج العربي ، وهناك سبب آخر أيضا وهو تحالفه مع فرنسا ، مما يعني  
بالنسبة للانجليز تعرض مصالحها في الهند للأخطار .

وعقب وفاة السلطان محمود الثاني تولى من بعده السلطان عبدالمجيد سنة  
١٢٥٥هـ / ١٨٣٩م ، فقام بعدة تنظيمات مما يعتبر خروجاً عن الأصول الأولى التي  
سارت عليها الدولة خلال عصرها الأول . وأهم ذلك استبعاد العمل بالشريعة  
الاسلامية حيث بدأت الدولة في طور غريب تتبع فيه التنظيمات الغربية في الحياة  
والتقنين . وفي قيام المؤسسات على أنماط غربية . ويبدو لنا أن صغر سن السلطان  
عبدالمجيد جعله يخضع لتأثير وزيره رشيد باشا ، الذي قضى معظم حياته في الغرب  
بين باريس ولندن ، والذي وجد في الغرب مثله الأعلى وفي الماسونية فلسفته المثلى ،

لذلك استطاع جر الدولة الى هذا المنزلق الخطير طول فترة حكم السلطان عبدالمجيد.

مع العلم أن السلطان عبدالمجيد عقب توليه للسلطة أراد تسوية الأزمة مع محمد علي ودياً دون تدخل الدول ، وقد وافق محمد علي ، الا أن روسيا وانجلترا والنمسا وغيرها من الدول لم تترك هذه المسألة دون حلها تحت نظرهم لذلك تدخلت هذه الدول اجبارياً للتسوية بين محمد علي والسلطان عبدالمجيد فقررت بالاجماع دون فرنسا الزام محمد علي بمعاهدة لندن سنة ١٢٥٥هـ / ١٨٤٠م ، والتي كان من أهم شروطها:

- ١ - يمنح لمحمد علي مصر وراثية وولاية عكا طوال حياته .
  - ٢ - ترسل الدول أساطيلها للدفاع عن اسطنبول ان هددتها محمد علي .
  - ٣ - اذا رفض محمد علي هذه الشروط في ظرف عشرة أيام تسحب منه ولاية عكا ، ويبقى له مصر فقط ، واذا رفض ذلك في مدة عشرة أيام أخرى ينظر السلطان في الأمر من جديد مع استشارة الخلفاء .
- وقد كلفت الدول الأوربية الانجليز بتنفيذ هذه المهمة .
- وعندما علم محمد علي بالاتفاقية رفضها واستدعى قواته من شبه الجزيرة العربية لمواجهة هذا الحلف ، ولكن المعركة بينه وبين الانجليز انتهت باعطائه فقط وراثية مصر . لذلك أصدر السلطان عبدالمجيد مرسوماً سلطانياً ينظم امتياز حكم القطر المصري . وينظم وراثية محمد علي بمصادقة الدول الأوربية فتوجه محمد علي الى اسطنبول لعرض طاعته وتقديم خدماته للسلطان .
- وبهذا المرسوم أسدل الستار على أحداث محمد علي ، وعاد الى طاعة السلطان كما كان سابقاً لاحول له ولا قوة ، مرغماً .
- وهنا السؤال الذي يفرض نفسه ماذا كسب محمد علي من هذه الحرب ضد السلطان محمود الثاني ؟ حتى أرهق الدولة العثمانية بشأن مطامعه ؟ وماذا

فعلت له فرنسا؟ التي دفعته لحرب الشام . وها نحن نراها تتخلى عنه في أول أزمة يمر بها ، ولم تعمل على مسانده كما وعدته ، وكما هي عاداتها فقد تحالف فرانسوا ملك فرنسا من قبل مع السلطان سليمان الأول ضد النمسا وعند التنفيذ أخل بوعدده .

ومن خلال هذا البحث يمكن أن نقول انه لا يمكن أن يتحالف نصراني مع مسلم ضد نصراني على دينه ومذهبه مهما ضحى المسلم ونفذ أوامر حليفه ولو كان على حساب دينه كما فعل محمد علي ، نرى هذا الحليف يتخلى عنه، اذا كان هذا العمل ضد مصالحه ومصالح بني جلدته كما فعلت فرنسا مع محمد علي .

أما السلطان فقد أخذ في مواصلة تنظيماته عقب أزمة محمد علي فأصدر أول مرسوم من مراسيم التنظيمات خط كلخانه سنة ١٢٥٥هـ / ١٨٣٩م مستهلا حكمه وعقب هذا الخط أصدر الخط الهمايوني عندما افتعلت الروس الأسباب لحربها ضد الدولة العثمانية في سنة ١٢٧٠-١٢٧٢هـ / ١٨٥٣-١٨٥٥م ، من أجل كسب أراضٍ جديدة وإيقاف حركة الإصلاحات التي بدأت تخشى منها روسيا، والتأكيد على قضية الامتيازات التي حصل عليها قساوسة الكاثوليك بموجب الامتيازات التي منحت لفرنسا في عصر السلطان سليمان الأول (القانوني) وهذه الامتيازات هي التي خولت للفرنسيين امتلاك الكنائس في فلسطين ، وكان الروس يسعون جاهدين لبسط نفوذهم على تلك الكنائس كما هو معروف وسلب فرنسا تلك الامتيازات واعطائها للأرثوذكس الموالين لهم لتتولى الزعامة بسبب حمايتها لهذا المذهب ، ولأجل نشر نفوذها في الدولة العثمانية عن طريق تحريك رعاياهم لهذا المذهب لضرب الدولة بهم . ونتيجة لانشغال فرنسا في حروبها مع نابليون فقد سيطر الروس على مركز النفوذ الذي كان لفرنسا ، وعندما حاول نابليون إعادة هذا النفوذ اختلف مع روسيا ، ولفض هذا الأمر تحاكموا الى الدولة صاحبة الأمر ، فقررت أولوية النفوذ للكاثوليك ، فعارض الروس في هذا القرار ،

وهددوا الدولة العثمانية بالحرب لو صممت على هذا القرار فكانت الحرب الروسية العثمانية التي انتهت بتوقيع معاهدة باريس سنة ١٢٧٣هـ/١٨٥٦م .  
ونتيجة لهذه المعاهدة التي أعقبت الحرب بين الدولتين فقد أوقعت الدول الأوروبية الدولة العثمانية في المنزلق الخطير واجبار الدولة على المزيد من التنظيمات .  
وأصدر الخط الهمايوني سنة ١٢٧٣هـ/١٨٥٦م عقب حرب القرم .  
جاء هذان الخطان خط كلخانة والخط الهمايوني نتيجة لتدخل الدول الأوروبية مما أدى الى انحراف مسيرة الدولة العثمانية عن الطريق الصحيح والخروج عن جادة الشريعة الاسلامية من أجل ارضاء الدول الأوروبية بحجة تحسين أحوال رعاياها في الدولة العثمانية .

والحقيقة أن معاهدة باريس سنة ١٢٧٣هـ/١٨٥٦م كان من بين بنودها مامهد لتمزيق الدولة العثمانية حيث أدخلتها هذه المعاهدة تحت كفالة الدول الأوروبية ، والتدخل في شئونها بقصد حماية رعاياها مستغلين في ذلك الامتيازات الممنوحة لهذه الأقليات غير المسلمة داخل الدولة العثمانية والتي كانت تثيرها روسيا وغيرها من الدول الأخرى ، وأهم بنود هذه المعاهدة هو البند التاسع الذي يعد المسيحيين بحرية ليس لها حدود ولا ضوابط ، والغريب أن ممثلي روسيا والنمسا هما أول من تنبه الى خطورة هذا البند أكثر من مندوبي الدولة العثمانية نفسها ، لأنهم خشوا من سريان هذه الحرية الفوضوية الى بلادهم . وهذا البند أدخل الدولة أيضا تحت كفالة الدول الأوروبية ويمكن للقارئ أن يتساءل : كيف يكون ذلك ؟ فنقول : ان تعدد القوميات داخل الدولة كانت تساندها أوروبا بهدف تفتيت الدولة العثمانية من الداخل مستغلة الأقليات غير المسلمة النصرانية واليهودية . وهذه من السياسات الخطيرة التي فرضتها معاهدة باريس ، دون أن تتنبه لها الدولة العثمانية ، ولكن الذي حدث بعد هذه المعاهدة أن الدولة العثمانية أصبحت في حالة الدفاع عن النفس .

ونتيجة لذلك تم انشاء المحاكم المختلفة والمحاكم التجارية ، وكانت هذه التنظيمات التي أدخلت في نظام أو بنية الدولة هي بداية انهيار التشريع الاسلامي في الدولة فظهرت المدارس والمعاهد والارساليات التنصيرية علنا في الدولة العثمانية.

وكان هذان الخطان أيضا ارهاصات ومقدمات لمحاولة تطبيق الدستور في عهد السلطان عبدالعزیز من قبل مدحت باشا وزملائه من الأشرار والمغرورين الذين رأوا أن الدولة لا يخرجها من أزمتها هذه الا تطبيق الدساتير الوضعية الأوروبية، ونسوا أو غفلوا أن تطبيق الشريعة الاسلامية هو العلاج الناجح لاصلاح الدولة اذا أرادوا اصلاحا . ولذلك حاول السلطان عبدالعزیز رفض ذلك، وصرح بأن هذه الأمور لاتصلح أن تطبق على المجتمع الاسلامي ، فأصدر مجلة الأحكام العدلية المعروفة ، فكان ذلك ردا على مدحت باشا وزملائه الذين لم يرق لهم الرجوع الى تطبيق النظم الاسلامية ، لذلك دبوا المكيدة لخلعه ثم قتله ، بتخطيط وتحريض من الانجليز الذين ساندوا هذه الفنة لاحلال الدستور محل الشريعة الاسلامية ، فكان هذا السلطان ضحية مدحت باشا وزملائه لعدم تطبيق المشروطة . ومما يؤسف له أن السلطان عبدالحميد الثاني قام بتطبيق المشروطة ربما لارضاء مدحت باشا وزملائه حيث أعلن المشروطة .

ومن خلال هذه التطورات عين السلطان مدحت باشا صدرا أعظم للدولة ولكنه لم يلبث الا شهورا حتى عزله السلطان عبدالحميد الثاني لعدم كفاءته لأنه أقحم وأربك الدولة العثمانية في حربها مع الروس سنة ١٢٩٤هـ/١٨٧٨م ، هذه الحرب التي تبلورت فيها مرتكزات الغزو الفكري وأطماع الدول الأوروبية وخاصة روسيا التي اتضح في مسلكها بانها لايهمها اعلان الدستور أو تعطيله بقدر ما يهمها الحصول على أكبر مساحة ممكنة من أراضي الدولة العثمانية المجاورة لها. ويبدو واضحا أن اتجاه روسيا الى هذه الحرب هو عدم تحقيق آمالها ومقاصدها التي لم

تتحقق في حرب القرم الماضية ، لهذا نراها تسعى الى التحرش بالدولة العثمانية لتقودها للحرب معها ولو لانتفه الأسباب .

ولقد انتهت هذه الحرب بهزيمة الدولة العثمانية ووصول الروس الى مشارف العاصمة اسطنبول ، ولولا تدخل الدول الأوروبية لدخلت روسيا اسطنبول فتوقفت الحرب . وفي الوقت نفسه أرغمت الدولة العثمانية على توقيع معاهدة سان ستيفانو في سنة ١٢٩٥هـ/١٨٧٨م بالشروط التي أملتها روسيا منفردة دون تدخل الدول الأوروبية الأخرى . الا أن الدول الأوروبية ثارت ثائرتها ، لأنها لاتقر سياسة روسيا التوسعية ، فأجبرت روسيا على الغاء معاهدة سان ستيفانو في معاهدة برلين سنة ١٢٩٥هـ/١٨٧٨م . وتعديل شروطها حتى تتفق مع مصالحها وانتهت هذه المعاهدة بتفتيت وتقسيم الدولة بين الدول الأوروبية الاستعمارية ، فرنسا وبريطانيا وروسيا والنمسا .

ولما رأى السلطان عبدالحميد الثاني عدم جدوى اعلان الدستور ، وأنه عديم الفائدة لأن تطبيقه لم يمنع من تدخل الدول الأوروبية في شئون الدولة الداخلية والخارجية ولم يمنع مطامعها ، وأن المسألة ليست كما يدعون وهي ايجاد نظام دستوري للشعب ، بل المسألة تعدت ذلك ، وأصبحت مسألة أطماع . لهذه الأسباب قام السلطان عبدالحميد الثاني بالغاء الدستور لعدم اقتناعه من قبل بتطبيق أنظمة غير اسلامية على بلد اسلامي ، وأعلن الجامعة الاسلامية وكان يهدف منها الى توحيد العالم الاسلامي تحت مظلة الشريعة الاسلامية لتوحيد صفوفه ولصد هذه الهجمة الاستعمارية الشرسة التي كان همها ابتلاع العالم الاسلامي ومحو الشريعة الاسلامية ، منذ معاهدة باريس سنة ١٢٧٣هـ/١٨٥٦م كما أسلفنا .

وبعد الغاء الدستور أو المشروطة تشتت الدستوريون الى أمصار الممالك الأوروبية ، فأسسوا جمعية الاتحاد والترقي في باريس ثم في سلانيك وفي آخر المطاف توحدت هاتان الجمعيتان للعمل على اعادة الدستور متحدين . وكانت الأنشطة

الماسونية آنذاك تقوم ببعض التحركات السرية ، حيث بدأوا أنشطتهم في كل الجهات لتقويض أركان الدولة العثمانية ومن تلك النشاطات ما قامت به الصهيونية بقيادة هرتزل الذي حاول استعطف واغراء السلطان عبدالحميد لايجاد وطن قومي لليهود في فلسطين ولكن السلطان عبدالحميد الثاني وقف موقفا مشرفا نبيلًا ازاء نشاط الصهيونية فرفض مطالبهم وأصدر أوامره بايقاف هجرة اليهود الى فلسطين. لذلك ومنذ تلك اللحظة ناصب اليهود السلطان عبدالحميدالعداء ، فقرروا الوصول الى أهدافهم عن طريق خلعه بالوسائل السياسية والمكاند الدولية .

لذلك نرى اليهود يستخدمون الماسونية . والماسونية ماهي الا واجهة من واجهات الصهيونية وجدت لخدمتها وخدمة اليهودية ، وهذه المسميات وجوه لعملة واحدة ، فالصهيونية الاسم الجديد لليهودية ، والماسونية أيضا صارت اسما جديدا للصهيونية ، فقد تتغير الأسماء لكن الهدف لايزال واحدا هو خدمة اليهود في كل مكان ، ولذلك اندس الماسون في صفوف الدستوريين لتوحيد مساعيهم ، وتنظيم حركتهم في سلانيك حيث المركز الرئيسي للماسونية التي يترأسها قراصو اليهودي ، وقد عقدوا هناك عدة مؤتمرات تحت رنانسة قراصو رفيق درب هرتزل، والذي فوضه اليهود للاطاحة بالسلطان عبدالحميد . فاتفق الدستوريون والماسونيون في هدف واحد وهو خلع السلطان عبدالحميد واعادة الدستور ، وقد تم لهم ذلك بالتعاون مع الماسونية والجيش الثالث في سلانيك ، فعادت المشروعية الثانية في سنة ١٣٢٦هـ / ١٩٠٨م التي قبلها وأعلنها السلطان على مضض ، بقصد احباط السياسة الانجليزية التي تساند حزب الاتحاد والترقي منذ نشأته لاحلال الدستور الوضعي محل الشريعة الاسلامية ، لأن بريطانيا احدى الدول المعادية للاسلام ، فالغزو الفكري يعني محاربة الشريعة الاسلامية ومحاولة تنصير أهلها كما هو معروف .

وبهذا نقول نجح الغزو الفكري في تهينة أنصار له من أبناء الدولة العثمانية المسلمة ، سواء كانوا يعلمون أو يجهلون ذلك الغزو ، حتى انتهت الدولة بخلع السلطان في سنة ١٣٢٧هـ / ١٩٠٩م ونفيه الى سلانيك بحجة اشتراكه مع الحزب الاسلامي الذي رأى في المشروطية خروجاً عن الشريعة الاسلامية ، فثار لمقاومتها ، وخصوصاً عندما اجتمع البرلمان الجديد ، وبجانبهم حزب الأحرار أو الاشرار الذي يدعو الى اللامركزية ويترأسه صباح الدين ابن محمود باشا والذي كان أكثر أعضائه من المسيحيين .

وبتأييد من الانجليز دخل اليهود الى هذه الجمعيات واندسوا داخلها فزادوها اشتعالاً ، واتهموا السلطان بتدبيرها للتمهيد لخلعه كما سبق حتى يخلو لهم الجو فيما بعد ، ويتمكنوا من تطبيق النظم والديساتير وتحقيق أهدافهم ومطامعهم في فلسطين ، وجعل الدولة تسير على خطى العلمانية .

وهكذا يمكن أن نجيب على الشق الثاني من السؤال الذي فرضناه وهو أن الدولة العثمانية كانت غازية فكرياً في عصرها الأول ذلك العصر الذي طبقت فيه الدولة النظم الاسلامية تطبيقاً شاملاً ، ولكنها كانت في عصرها الثاني غير ذلك لأنها تهاونت في تطبيق النظم كما رأينا . وهذه نتيجة حتمية لمن سار على هذا الطريق ، وأصبحت حقلاً للغزو الفكري الأوربي حتى انتهى بها المطاف الى العلمانية .

وقد أدرك الكثير من العلماء صعوبة تطبيق حكم نيابي أو حكومة مقيدة السلطة كما هو واضح عبر عصور التاريخ الاسلامية . وهذه الصعوبة تتمثل في استحالة قيام نظام دستوري وضعي في دار الاسلام . وان أخذ نظام سياسي جاهز من حضارة غير اسلامية وفرضه على مجتمع اسلامي أمر خطير ولا يمكن قبوله .

والحقيقة المرة أنه عندما شكل الحكم البرلماني في اسطنبول كانت تديره وتسندة اقلية وهي حزب الاتحاد والترقي الذي لم يتنبه الى انغماسه في اللعبة



اليهودية التي استخدمت الماسونية لتعمل في الخفاء من خلال تدخلها في الأحزاب والبرامج الدبلوماسية لفرض الدستور الوضعي . وكان الشعب المسلم يراقب بخيبة أمل تلك الأحداث والتي كان من نتائجها قيام نظام غريب لاصلة له بماض أو حاضر الاسلام والدولة العثمانية الاسلامية . لهذا كان الغرب صانعا وموردا لهذا النظام الذي نفذته الشباب المغرور من الأشرار الذين لا يعرفون أنهم يتم تحريكهم بواسطة اليهودية العالمية .

ونعود للقول بأن اللجنة التي خلعت السلطان عبدالحميد الثاني كان قراصو اليهودي الماسوني هو رئيسها الذي أبلغ السلطان بخلعه وهو رفيق درب هرتزل في طلب وطن قومي لليهود في فلسطين . وكان لسان حاله يقول : هانحن وصلنا الى مانريد، وهانحن أيضا خالعوك ، ولهذا غضب السلطان لما سمع قرار الخلع من أسعد طوبطاني عندما قال : ان الأمة خلعتك ، وقال تقصد أن الأمة هي التي خلعتني ، لا بأس ولكن لماذا جنتم بهذا اليهودي الى مقام الخلافة . يعني ذلك أن اختيار هذا اليهودي ضمن الوفد اهانة للسلطان كما ذكرنا .

وبهذا الخلع اقتربت الدولة العثمانية من نهايتها وأصبحت العوبة في يد الاتحاديين .

ولقد برهنت الحوادث على أن الاتحاديين لم يفعلوا شيئا سوى اضافة مصائب جديدة على مصائب الدولة . فقد كان مطلعهم شؤما على الاسلام والمسلمين وعلى الدولة اذ أنهم منذ ثورتهم الأولى في مقدونيا سنة ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م فقدت الدولة نهائيا البوسنة والهرسك وبلغاريا .

أما البوسنة والهرسك فقد وضعهما مؤتمر برلين في سنة ١٢٩٥هـ/١٨٧٨م تحت الادارة النمسية ، على أن تبقى هاتان المقاطعتان تابعتين اسما للسلطان العثماني . ولما نشبت ثورة الاتحاديين ضد الدولة رأت النمسا أن الفرصة سانحة لانشغال الدولة عنها ، فقامت بضم المقاطعتين بصورة نهائية في سنة

١٣٢٦هـ / ١٩٠٨م لأن النمسا كانت ترسم سياستها تحقيقا لأطماعها المترامية مع أطماع الدول الأوروبية .

أما بلغاريا فقد جزأها مؤتمر برلين هي الأخرى الى ثلاثة أجزاء بلغاريا الأصلية التي تمتعت بالاستقلال الداخلي ، والروملي الشرقية التي أعيدت الى السلطان على أن يحكمها حاكم نصراني وتمتع بإدارة خاصة ومقدونيا التي ألحقت بالدولة العثمانية في مؤتمر برلين بدون قيد ولا شرط .

ومنذ ذلك الوقت وبلغاريا تسعى لتوحيد المقاطعتين الروملي الشرقية ومقدونيا كما كانت في معاهدة سان ستيفانو، وقد نجحت في عام ١٣٠٤هـ / ١٨٨٦م في ضم الروملي الشرقية ، ولكنهم لازالوا تابعين للسلطان ، فأخذوا يتطلعون الى الاستقلال . وقد أتتهم هذه الفرصة اثر ثورة الاتحاديين حيث أعلن ملكهم ( فرديناند ) استقلالهم ودعا نفسه باسم ( قيصر البلغاريين ) وكان ذلك في سنة ١٣٢٦هـ / ١٩٠٨م أيضا .

وبتفاقم الغزو الفكري سقطت الدولة العثمانية في أعقاب الحرب العالمية الأولى وتحقق وعد بلفور بإيجاد وطن قومي لليهود في فلسطين سنة ١٣٣٦هـ / ١٩١٧م وهذا ما كان يسعون اليه . وبمشيئة الله سينتزع المسلمون قريبا من هذا العدو الغاشم المحتل على يد اخوانهم المجاهدين الفلسطينيين واخوانهم من المسلمين .

لذلك أخذت مظاهر الغزو الفكري تتفاقم حتى سقطت الدولة بسببه بعد أن أعيت أوروبا الحلول العسكرية بسبب القوة والتماسك اللذين أكسبهما الاسلام للدولة العثمانية .

أما الفصل الخامس والآخر فقد استعرضنا فيه دعوة التوحيد والاصلاح ومقاومتها لصد هذا الغزو عن شبه الجزيرة العربية ، والتي قامت وانطلقت من قلب نجد، والتي دعا اليها الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، وهذه الدعوة حثت الناس

على العودة الى الدين الصحيح والى العقيدة الصافية التي أطلقها الشيخ بعد رحلاته العلمية من حريملاء وبعد أن ضيق أهلها عليه غادرها الى العيينة . وفي العيينة أقام الحدود ، وهدم القبور بمساندة أميرها عثمان بن معمر . فشاع ذكره بعد رجم الزانية ، حتى وصلت الأنباء الى سليمان بن محمد حاكم الاحساء آنذاك فهدد أمير العيينة بجس ريع مزارعه عنه والتي كانت في الاحساء اذا لم يقتل هذا الشيخ أو يخرج . فاستقر الرأي على خروج الشيخ لخوف عثمان بن معمر من تهديدات حاكم الاحساء ، فخرج الشيخ وقصد الدرعية ، حيث تم الاتفاق المشهور في سنة ١١٥٧ هـ على نصره هذا لدين مع الامام محمد بن سعود ، وباتفاقهما نشأت الدلة السعودية الأولى ، قامت على أساس الكتاب والسنة المطهرة والدعوة للتوحيد وانطلقت هذه الدعوة حتى وحدت امارات نجد تحت لواء الدرعية ، وكان ينظر اليها الولاة العثمانيون في أول الأمر على أنها حركة داخلية ، وبعد أن ضمت الاحساء أهاج هذا العمل الدولة العثمانية ، وترتب على ذلك نمو الدولة السعودية الأولى ، فأصبحت دولة خليجية تطل على الخليج العربي ، ولكن بعد ضمها للحجاز هاجت الدولة العثمانية ، ورأت أن مركزها في اسطنبول قد اهتز مما جعلها تكلف ولايتها في العراق والشام بصد توسعها ، لكن تلك الجبهتين لم تستطعا فعل شيء أمام الدولة السعودية التي تدعو الى الاصلاح والرجوع الى ما كان عليه السلف الصالح وتحكيم كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم .

لهذا اتجهت الدولة العثمانية إلى واليها على مصر محمد علي ، وأسندت اليه حرب الدولة السعودية الأولى ، فأخذ محمد علي يعد العدة ويستعد استعدادا عظيما ، فأرسل ابنه طوسون بجيش جرار للقضاء على الزحف السعودي ولكن هذه الحملة باءت بالفشل أمام القوات السعودية ، وأرسل له والده حملة أخرى مددا للأولى فاستطاعت القوات السعودية احباط قوات طوسون بعد عدة معارك ،

فجرح طوسون بعدها للصلح مع الإمام عبد الله بن سعود . ولكن هذا الصلح نقض لأسباب دينية وأخرى سياسية . وكانت هذه الحرب التي وجهت للدولة السعودية الدولة الإسلامية كانت في الواقع تنفيذا لأوامر السلطان محمود الثاني آنذاك الذي كان يشك في نوايا محمد علي وولائه للدولة ، لهذا كان هدف السلطان محمود بتلك الحرب ضرب القوتين السعودية وقوات محمد علي بعضهما ببعض لينهك بعضها بعضا ، وكان كما قيل انه يريد انتصار الدولة السعودية لبعدها عن الأراضي التركية ، ولكن العكس حدث ، وكما توقع السلطان محمود حدث ما كان في باله . فقد طالب محمد علي السلطان بعد حرب المورة مباشرة باعطائه الشام ، وحدث ما حدث في حرب الشام الأولى والثانية التي انتهت بوفاة محمود الثاني وحصر محمد علي في ولاية مصر فقط وجعلها وراثية ، وكان المستفيد من ذلك كله دول أوربا التي سيطرت بنفوذها على الدولة العثمانية ، وتدخلت بشأن هدد الحروب في شئونها الداخلية والخارجية .

وقد انتشرت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب بسرعة في أجزاء أخرى من العالم الإسلامي ، وقد تأثر بها بعض علماء الأقطار ونقلوها إلى أقطارهم فأدى هذا إلى يقظة العالم الإسلامي ، لهذا خاف السلطان محمود من تغلب هذه الدولة ودعوتها على أملاكه في آسيا وتآليب العالم الإسلامي ضد الدولة العثمانية خاصة وهناك من كان ينادي بأن الخلافة لا بد أن تكون للعرب ، ولهذا زادت ظنونه وتخوفه من تزعم الدولة السعودية لهذه الفكرة الهادفة إلى تفويض دولته . والآن ماذا سير جيوشه على الرغم من أن الإمام عبد الله قد أرسل خطابا تاريخيا أشار فيه إلى طاعته ؟ ولكن اصرار العثمانيين على إنهاء هذه الدولة أعمى بصائرهم عن الحق . ولهذا فقد سير محمد علي ابنه إبراهيم للقضاء على الدولة اثما وعدوانا فأخذ يهاجم المدن النجدية الواحدة تلو الأخرى حتى تم له حصار الدرعية خلال ستة شهور ، وقد ضرب أهلها أروع الأمثلة في البسالة والبطولة حينما دافعوا عن

الدرعية ، وكان على رأسهم إمامهم الإمام عبد الله بن سعود الذي أبلى بلاء حسنا مع أهلها أمام أسلحة فرنسية متطورة من مدافع وقنابل مع خبراء فرنسيين ومشورة فرنسية يبدو أنها تدفعه الى شبه الجزيرة العربية لتحقيق حلمه في اقامة دولة عربية من مصر الى الخليج العربي .

وبالرغم من هزيمة الدرعية عسكريا فانها قد ظلت قاعدة الدعوة السلفية في العصور الحديثة، وسوف تظل الى أن يرث الله الأرض ومن عليها . وقد أشرت في هذا البحث الى قوة واستمرار هذه الدعوة في أدوار السعودية الثلاثة لحرص آل سعود على استمرارها والحفاظ عليها .

وقد استطاع الامام تركي بن عبد الله أن يعيد بناء الدولة السعودية الثانية ولكن في هذه المرة جعل عاصمتها الرياض حيث استمرت معها الدعوة السلفية التي أخذت تنتشر أيضا في عهد الامام تركي ثم من بعده ابنه الأمير فيصل بن تركي حتى وصلت الى الخليج العربي، ولكن كان هناك فاصلة ، فبعد موت الامام فيصل بن تركي دب الخلاف بين الأسرة السعودية وقد استغل ابن الرشيد هذه الفرصة واستولى على الرياض ، ورحل الامام عبدالرحمن بن فيصل وابنه عبدالعزيز، وظن الناس أن حكم آل سعود قد انتهى ولم يلبث الحق أن عاد الى أصحابه . فقد استعاد عبدالعزيز بن عبدالرحمن في سنة ١٣١٩ هـ حكم الرياض من ابن الرشيد ، وقام بتوحيد شبه الجزيرة العربية باسم المملكة العربية السعودية ، وكون دولته الاسلامية الحديثة على دعائم الدعوة السلفية التي تدعو الى الرجوع الى الكتاب والسنة وآثار علماء السلف الصالح ، وكان منهجه واضحا منذ دخوله مكة المكرمة .

وقد صدت هذه الدعوة الغزو الفكري عن شبه الجزيرة العربية فانتشر الأمن والأمان والاسلام في ربوع مملكة عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود حيث اتبع خلفاؤه الميامين سيرته العطرة متمسكين بهذه الدعوة المباركة التي تدعو الى :

- (١) الكتاب والسنة وآثار السلف الصالح ، وتطبيق أحكام الشريعة الاسلامية .
- (٢) محاربة البدع والخرافات . ومعاقبة الجناة وقطاع الطرق في اقامة الحدود .
- (٣) تحديد موارد الدولة المالية وجعلها تدير حسب الأسس الشرعية كالزكاة والخراج طبقاً للنظم الاسلامية .

وهنا بدورنا نتساءل : ماذا كسب محمد علي وماهي الفائدة التي جناها للسلطان محمود الثاني في حروبه داخل شبه الجزيرة العربية ضد الدولة السعودية الأولى ؟ وماهو المبرر في ذلك؟ وماهي الحاجة التي تدعو الى محاربة ومصارعة جيوش أخرى مسلمة واهدار الطاقات الاسلامية ؟ كان من الأجدر أن تتوحد هذه القوة ضد أعداء الاسلام والمسلمين بدلا من انهاك قواها مما أدى الى انفساح المجال أمام بريطانيا لزيادة أطماعها ونفوذها في منطقة الخليج العربي في الوقت الذي كان فيه المسلمون يتصارعون فيما بينهم لآتفه الأسباب ، والاستعمار يحيط بهم من كل جانب ويتربص بهم للانقضاض عليهم وابتلاع مايمكن ابتلاعه من الممالك الاسلامية . فرنسا تدفع محمد علي والسلطان محمود تدفعه بريطانيا . وكان من الأصح أن يتعاون المسلمون ويصبحوا يداواحدة لصد العزو العسكري الاستعماري والفكري عن ديار الاسلام الذي يهدد المصالح الاسلامية في كل مكان لا للقضاء على الدول الاسلامية كما فعل محمد علي . لأنه ليس هناك سبب مقنع يبرر به هذا الخطأ الجسيم وهو ضرب الدعوة السلفية التي تساندها الدولة السعودية الأولى .

هذا الخطأ ترتب عليه أخطاء أخرى وهو أنه عندما انقض محمد علي على الدولة العثمانية نفسها ساعد بحروبه هذه في القضاء على الدولة وجعلها لقمة سانعة للاستعمار .

وفي النهاية ماذا فعلت معه حليفته فرنسا . لقد تخلت عنه في أحلك الأمور، ورضخ لأوامر أوروبا وخاصة إنجلترا التي تعرف مظامعه . لقد قامت هي

الأخرى بسحب البساط من تحت قدميه في الوقت المناسب وقلبت له ظهر المجن ، وأرغمته كما أسلفنا بحصر وراثته على مصر فقط وسحبت قواته من شبه الجزيرة العربية في سنة ١٢٥٦ هـ / ١٨٤٠ م ، فذهب الى السلطان عبدالمجيد يقدم له فروض الطاعة بعد أن كاد يستولى على عاصمة بلاده ، وظل عبدالمجيد هو الآخر العوبة في يد أوروبا ، وأرغموه على اصدار خط كلخانه لتحسين أحوال المسيحيين من رعاياه ، وبهذا الخط - كما سبق الحديث عنه - انزلت الدولة في التنظيمات التي كانت ضد دينها وتقاليدها حتى سقطت في أحضان أنصار الماسونية التي قادتھا الى النهاية .

أما كان من الأولى أن يوحد محمد علي طاقاته القتالية والتكتيكية مع الدولة العثمانية للحرب في اليونان حينما طلب منه ذلك ضد دول البلقان الثائرة على الدولة العثمانية لطلب استقلالها التي تساعدها في ذلك الروس ، وخاصة أن محمد علي كان يملك قوة هائلة أزعجت أوروبا في ذلك الوقت ، ولكنه للأسف سخرها دون أن يدري في خدمة أوروبا لانهاك الدولة العثمانية بدلا من الوقوف بهذه القوات الى جانب السلطان . ولو حصل ذلك أعتقد أنه كان سيغير مجرى التاريخ لصالح الدولة العثمانية . وفي هذا الوقت نرى السلطان محمود يعد العدة لحرب محمد علي لاجراجه من الشام ، ويوجه قواته الى أرض الاسلام بدلا من توجيهها الى أوروبا كما كان يفعل أسلافه ، ولكنه محق لو أمعنا النظر قليلا لأنه يريد أن يرد أملاكه التي استولى عليها محمد علي بالقوة في حرب الشام الأولى ، فمحمود الثاني هو الذي أثار حرب الشام الثانية ، والتي كادت أن تقضي على عاصمته بموته وهزيمة جيشه لولا لطف الله ثم تدخل الدول الأوروبية .

كما كان موقف محمد علي والسلطان محمود مع الدولة السعودية الأولى موقفا خاطئا كما أسلفنا ، ولو تركاها الى حين تكملة مشوارها في صراعها متحدة مع القواسم السلفية ضد شركة الهند الشرقية الانجليزية وغيرها من الشركات

الآخري لكان للتاريخ شأن آخر ، ولو اتحدت الدولة العثمانية مع الدولة السعودية والقواسم التابعين للدولة السعودية في ذلك الحين لكان أجدر بالمسلمين أن يكونوا يدا واحدة ضد الاستعمار ، بدلا من ضياع جهودهم وهدر طاقتهم دون جدوى ولافائدة تذكر ، فقد أضعفوا بصرايحهم قوتهم المالية والمعنوية حتى صاروا لقمة سائغة لأوربا كلها ، مع العلم بأن الدولة السعودية عادت كما كانت . وحلت الخسارة الفادحة بالدولة العثمانية التي كان الأجدى بها أن توجه هذا الجيش الى أوربا والى الصليبية والماسونية ، وأن تطلب من السعوديين المساعدة ضد العدو المشترك واعتقد أنها لن تتخلى عنها وانها سترسل اليها المدد لجهادها ضد العدو لأن نجد أو شبه الجزيرة العربية لم تشهد غزوا فكريا ، فدعوة التوحيد والاصلاح صدت هذه التيارات المعادية بفضل من الله ، ثم بحكمة أئمة آل سعود التي نشأت دولتهم على أسسها ، فانطلقوا بها حتى عمت أرجاء شبه الجزيرة والمناطق الاسلامية المجاورة ، ولازالت الدولة السعودية حصنا من الحصون المنيعة لصد أي تيار فكري يقصد به هدم هذا الدين القويم بكل جهودها ومساعدتها لتبقى القاعدة المتينة التي تنطلق منها الدعوة السلفية الى أنحاء العالم .

وفي ختام موضوعي هذا أؤكد أن الدولة العثمانية كانت قوية بفضل تطبيق النظم الاسلامية تطبيقا كاملا في عصرها الأول .

ولكنها حين تساهلت في أمر هذا الدين في عصرها الثاني رأينا الغزو الفكري يتغلغل كما لمسناه أثناء دراستنا لموضوع الدولة العثمانية والغزو الفكري ، وهو المعول الذي هدم الدولة العثمانية وفتت ممتلكاتها الاسلامية أمام القوى النصرانية ، وهذا يعود لتنازل الدولة عن الخط القويم الذي قامت عليه وهو دستورها الشرعي المستمدة أحكامه من الشريعة الاسلامية بتحويلها الى الدستور الوضعي الذي طبق فأصبح من أسباب انهيار وانزلاق الدولة عن مسارها الأول



لتسقط في الحرب العالمية الأولى وهي متخنة بجراحها لتفارق الغزو الفكري  
وانحدارها في هاوية العلمانية .

وإذا كانت أوروبا في يوم من الأيام قد تخلت عن الروح الصليبية والحل  
العسكري واتجهت الى الغزو الفكري فان العالم الاسلامي في أزمائه المعاصرة ينبغي  
أن يركز على غزو فكري اسلامي مضاد ، وفتح عقلي بكل الوسائل التي يتيحها  
التقدم الصناعي والتقني ، وأن تسير الرغبة والمطالبة بتطبيق الشريعة الاسلامية ،  
كحركة داخلية جنبا الى جنب مع الفتوحات الفكرية والغزوات العقلية كجهد  
خارجي مبعثه العقيدة الاسلامية .

•••

ء

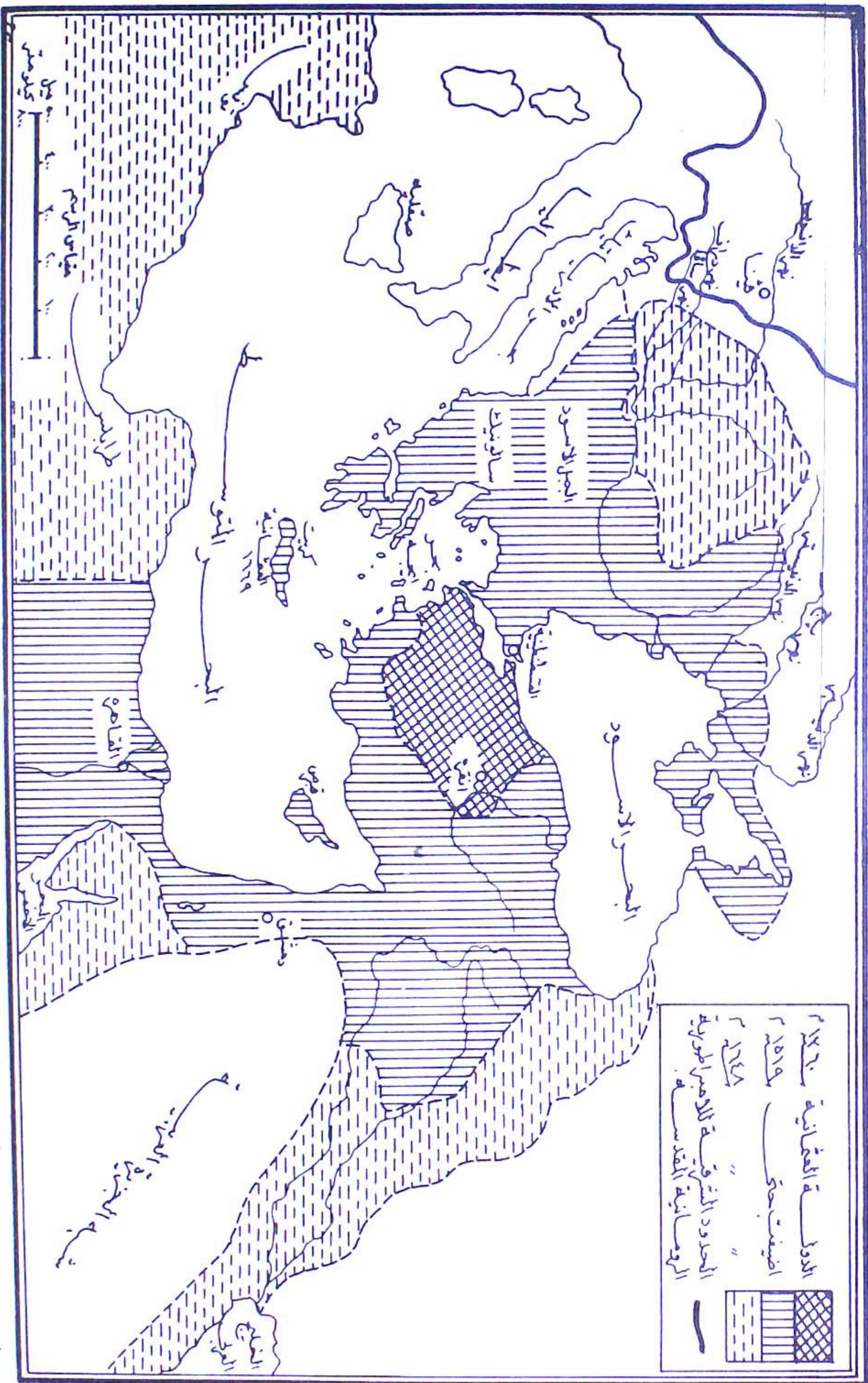
الملاحق



## فهرس الملاحق

<u>رقم الملاحق</u>	<u>بيان الملاحق</u>
١	خريطة تبين مراحل توسع الدولة العثمانية
٢	خريطة تبين فتح القسطنطينية " اسطنبول "
٣	خريطة تبين توسع الدولة العثمانية في آسيا الصغرى وقارة أوربا
٤	توسع الدولة العثمانية في شبه الجزيرة العربية
٥	توسع الدولة في شمال أفريقيا
٦	الدولة العثمانية في أقصى اتساعها
٧	خريطة تبين ضعف الدولة العثمانية
٨	ترجمة وصية ( بطرس الكبير )

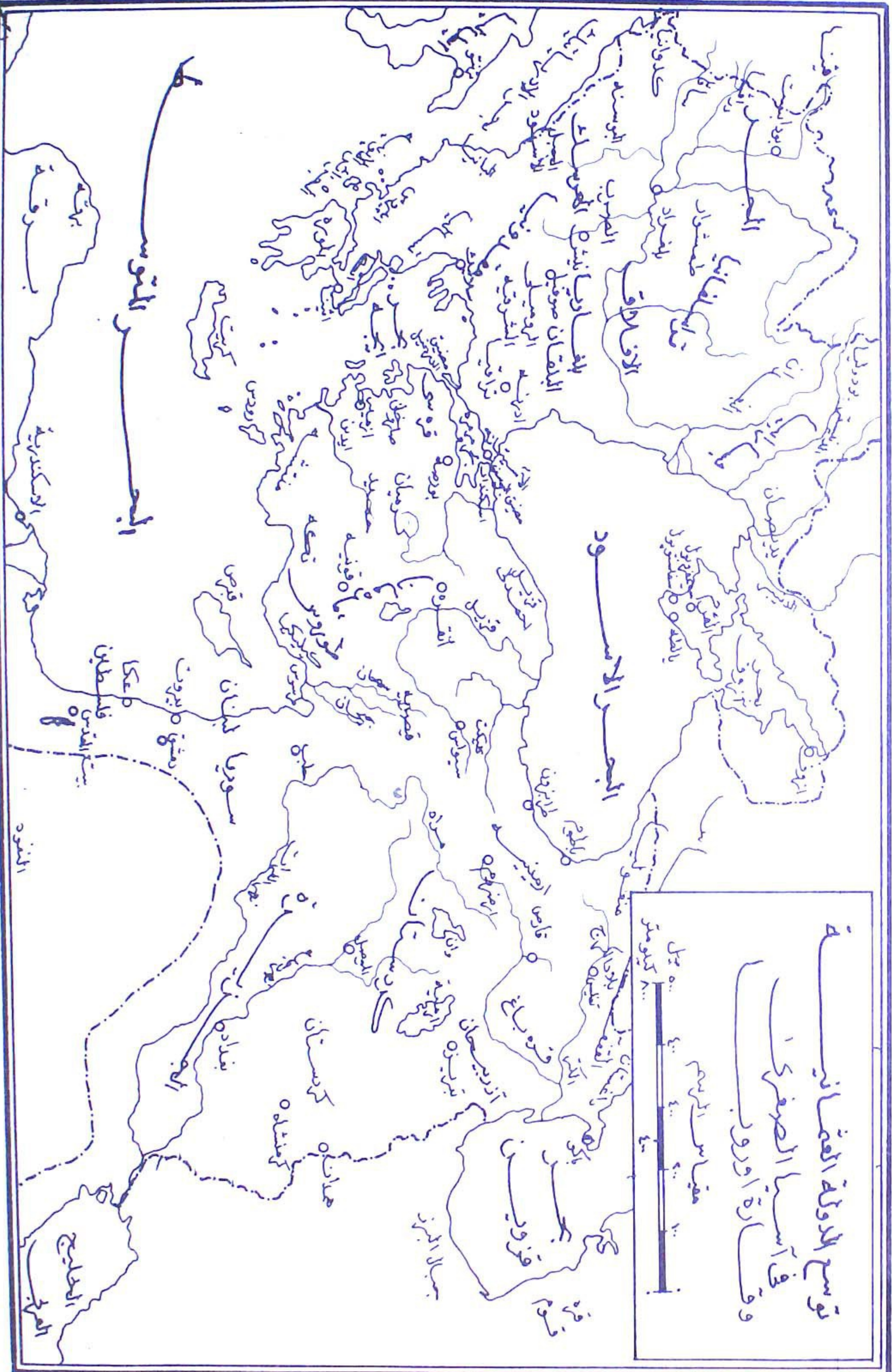
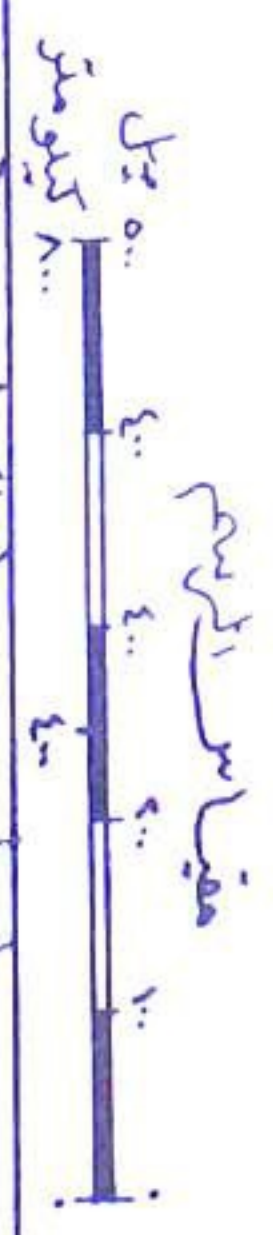
ملحق رقم (١١) : خريطة تبين : مراحل توسع الدولة العثمانية إلى مصر ١٤٥١م



١- إعداد: السيد الرحيم مصطفى - في أصول التاريخ المعاصر - شكل (١١)



توسع الدولة العثمانية  
في آسيا الصغرى  
وقارة أوروبا



١- احمد عبد الرحيم صمغلي - في اصول التاريخ العثماني

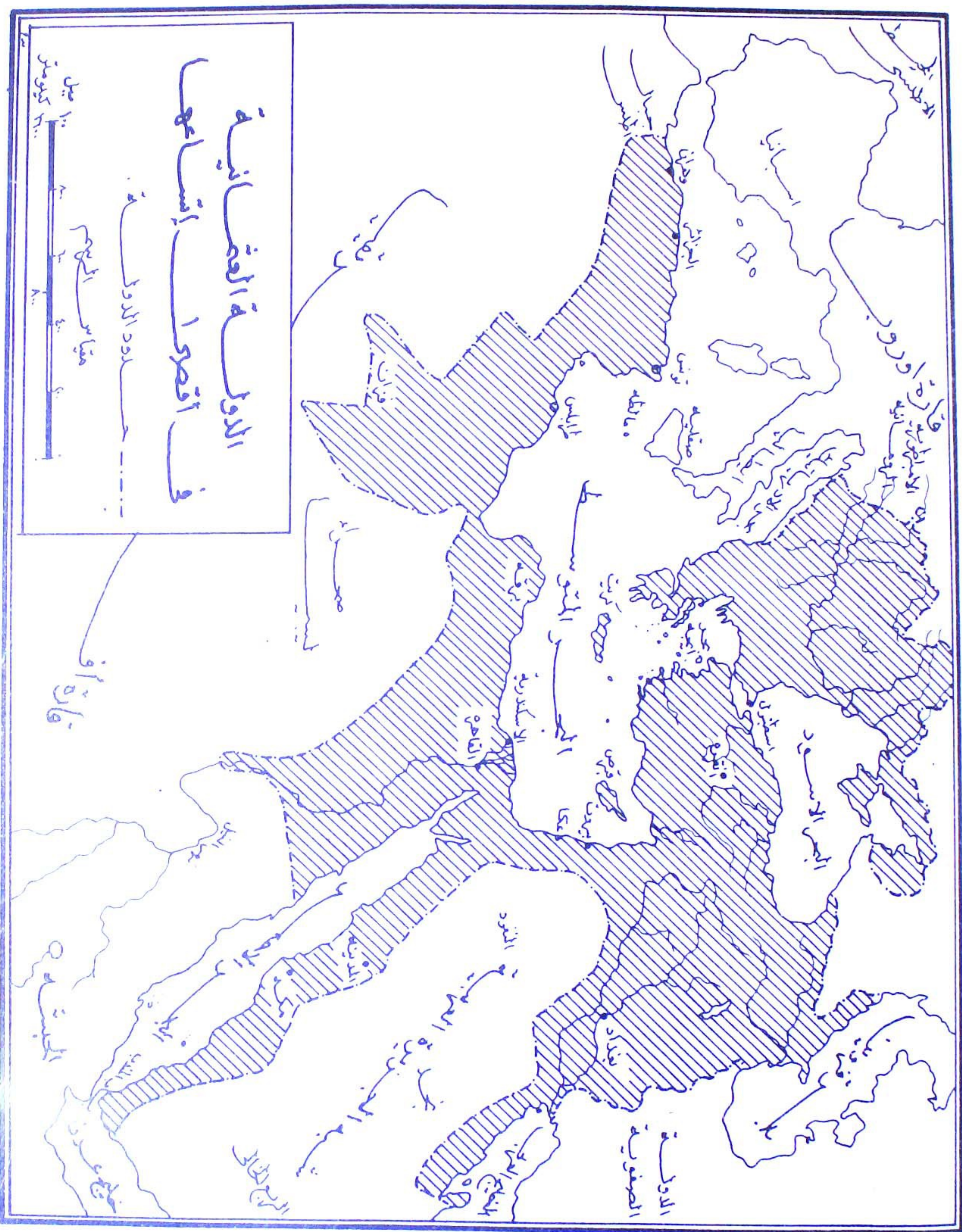


١- هارف و آضون - اطللس التاريخ الاسدي

شكل (٤)

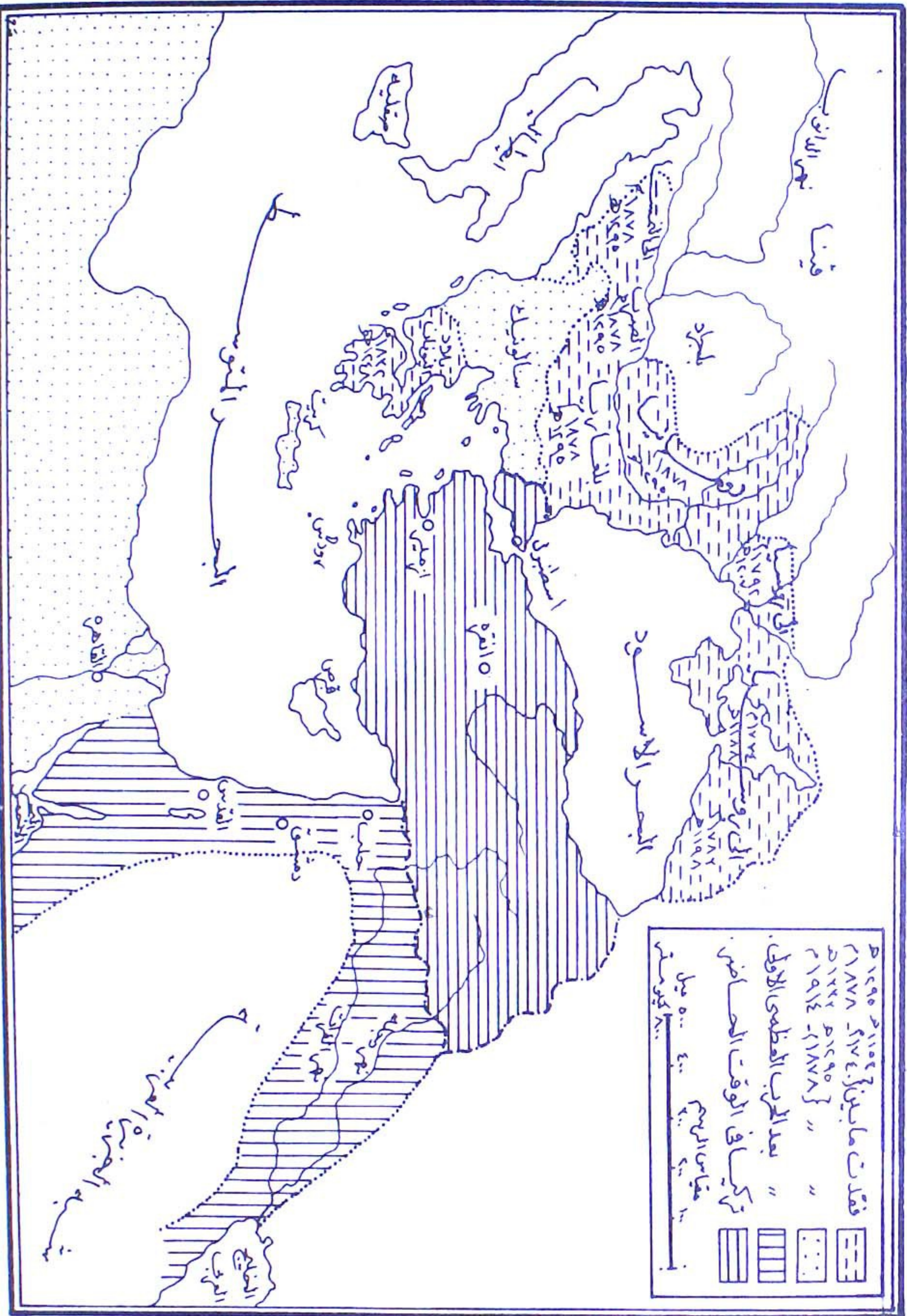






١- قطري وآخرين - نفس المراجع الاستعماري . شكل (٦١)

# ملحق رقم (٧) : خريطة تبيين ضعف المولى محمد العثماني



شكل ١٧

١- احمد عبد الرحيم صهيون - في اصول التاريخ العثماني

ملحق رقم ( ٨ )

---

ترجمة وصية ( بطرس الاكبر )

نقلا من : ابراهيم بك حلیم : التحفة الحليمية  
في تاريخ الدولة العلية . ( من ص ٢٣٩ - ٣٤٣ )

---

( ترجمة وصية بطرس الكبير )

من بطرس الاول الخ الى كل من يخلفني على تحت الروسية النجية فان الله سبحانه  
وتعالى لم يزل منذ بداية الابد في اعانتنا و أسدل فضله علينا بما جعلني على الاعتقاد  
بان الامة المسكوبية تتسلط ( لا قدر الله ) اذا شاء الله على الممالك الاورباوية  
والدليل على ذلك أن الامم الاورباوية قد هزم أكثرهم وأخذ البعض منهم

في الثلاثين فإذ أدركت الروميا تمام قوتها لاشك أنها تنقلب على سائر الممالك لمالها من شوكة الشيبوية وعندى أن هجوم الأمم الشمالية على أوروبا من أحكام القدرة الإلهية التي لا بد من تعونها كما وقع سابقا عند هجوم الأمم المذكورة على مملكة الرومانيين فحينها بعد اضلالها وأما وجدت روسيا جدولا صغيرا فتركها سرا كبيرا وأرجو أنه باعتناء من يخالفي تصير بحرا عظيما ينطق بجباهه أوروبا بأسرها ولا يمرض ليلانه عرصرم فحملني هذا الاعتقاد على أن أقرر هنا الأصول التي لا بد من اتباعها نظرا إلى ادراك هذا المقصد المنير وهي

﴿أولا﴾

على ملوك الروميا ملازمة الحرب لتكون جيوشهم دائما على حال الرابضة والاستعداد لذلك، وعن الحرب الإصلاح شأن المألمة وجبر مائتص من العسكر وترص فرصة الهجوم على الأعداء فأخرب والصلح يتناولان جميعا لتنظيم الحاجة طورا إلى توسيع دائرة شوكتها وفلاح البلاد

﴿ثانيا﴾

عليهم أن يجلبوا من سائر الأقطار الأوروبية العازمين بالفتوح الحربية مدة الحرب أما مدة الصلح عليهم حالت من الشتر من العلماء لتنتفع الروميا بما يلائم الأخرى من سائر ممالكها شبيحة

﴿ثالثا﴾

عليهم التحليل في سائر الأحوال الممالك الأوروبية خصوصا ألمانيا قربها البنا

﴿رابعا﴾

التدخل في أحوال لوتيا وفي انتخاب ملوكها حتى لا تنهب الإنجليز لروسيا وإن حال جيوشها بجانب هؤلاء الملوك إلى أن يتيسر تسلط على البلاد رأسا فإن تعرضت الدول الأخرى نجب الأجابة إلى طلبهم إلى أن تقدر على استرجاع ماسماه

﴿خامسا﴾

ياخذ من مملكة السويد ما يمكن أخذه ويجعل بينهم وبين الغانيرك عدوا دائما

﴿سادسا﴾

لا تزوج أهل بيتنا إلا بنات ملوك ألمانيا لنا كيد المحبة بين روسيا وألمانيا وتكثير وسائل المواصلات بينهما

﴿سابعا﴾

يجب الاعتناء بحالفة انكلترا لما لها من الحاجة إلى أشجارنا لغنها ولما استفيد منها نظرا إلى اصلاح شأن أسطولنا فضلا عن فائدة تبادل ماننا من الخشب وغيره من النتائج يذهب انكلترا أوما ينشأ منه من كثرة المواصلات بين تجارنا وتجارها

﴿ثامنا﴾

عند قدر الامكان من جهة الشمال وعلى شواطئ البالتيك كيجيب السبي بالانداد من جهة المغرب وعلى شواطئ البحر الاسود

﴿ثامنا﴾

تقرب إلى القسطنطينية والهند بقدر الامكان فمن منك القسطنطينية وقد منك الدنيا فيناه على ذلك ينشئ ملازمة الحرب مع الترك ومملكة الفرس وجعل ترسحانه شواطئ البالتيك والبحر الاسود وهذا من اللزوم لنجاح مائتصه وبنشئ أيضا تجسس مملكة الفرس بالاضمحلال وتنشيط التجارة التي كانت بين الشام وجبل قاف فننتقم إلى الهند التي هي مخازن الدنيا وإن تحصلنا على ذلك فلا حاجة لنا بذهب انكلترا

(٣١)

﴿عاشرا﴾

يجب السبي في تكبير المحبة مع دولة النمسا باسماها فظاهرا على مائتصه من السلاط على ألمانيا مع اسما تحرض عليها ملوك ألمانيا سرا

﴿حادي عشر﴾

يتحرك النمسا فيما تصداه من انواح الترك من أوروبا فإن ظفعا بالاستيلاء على القسطنطينية وأظهرت دولة النمسا شيئا من العبرة لاجل ذلك فلنا تحت دولة من دول أوروبا على محاربتها أو اسلم لها سببا مما تحصلنا عليه واسترجعته في أول فرصة

﴿ثاني عشر﴾

تجمع سائر الاعرق في لوتوليا وممالك النمسا ونسوقهم بقدر الامكان بالحماية والدفاع عنهم حتى يكونوا لنا اعداء مابين الأعداء

﴿ثالث عشر﴾

بعد الاستيلاء على مملكة السويد وغلبة الفرس وتولوليا والتسلط على الممالك الشمالية وجمع جيوشنا ودخول أساطيلنا بالبالتيك والبحر الاسود نضرب في اناياضة المربية مع فراسا ودولة النمسا في قبة الدنيا ينشأ فإن ارتضت إحدى الدولين ما تعرضه علينا نستعين بها على قهر الأخرى ثم نجعل عليها وتعلبها ولا يصعب علينا ذلك حيث يكون بيدنا ملك المشرق ومعظم أوروبا

﴿رابع عشر﴾

أما المتبع ككنا الدولتين المذكورتين مما تعرضه علينا وهذا مما يبعد وقوعه يجب السبي تحريض اعدائها على الأخرى فتربص الفرصة ونهجم على ألمانيا بجيش عظيم وتولوليا اسطولين إلى البحر المحيط والبحر الاوسط للاستيلاء على

فرنسا وبعد قهر فرنسا وألمانيا لا يصعب الاستيلاء على باقي أوروبا اه هذه هي تصورات هذا الامبراطور المشهور في عصره أنه من أهم الرجال من سنة طينى سنة تقريبا واقد اهم خلفاؤه اهنا ما زائد حتى تحصلوا على بعض ما كان ينشأ بهن يق مملكة بلوتيا والاتفاق المستمر مع دولة النمسا والاستيلاء على بعض من ممالك ايران ومن ممالك كانت تحت سيادة الدولة العلية كالفرس والداغستان ولكن كل هذه الامور كل شيء بالسبب لهذة الوصية والحمد لله فالدولة العلية التي كان ينظرها بالتأخر الزائد وترب الاضمحلال موجودة وهي أقوى بضعفين عما كانت عليه اذ ذلك ونسأل الله تعالى أن يمن علينا بتأييدها واستمرار تزايد قوتها انه على كل شيء قدير آمين

وحيث قد أنت الاحوال والظروف بما لم يكن في الحسبان حتى وجدت دولة ضحة من أهم ضفاه في نظر بطرس الاكبر وهي دولة ألمانيا فضلا عن قو دولة انكلترا التي ما كان يحسب بطرس الكبير لها حسابا غير أخذ ذهبها فلذا خافا بطرس الكبير فطعوا آمالهم بتقيد هذه الوصية وبسوا منها بالمره





أولاً: الأرشيف العثماني في اسطنبول:

– الوثائق والمعاهدات :

OSMANLI ARSIVI ISTANBUL:

- 1- Osmanli Arsivi, Yildiz Esas, Evrākl, Zarf. No.313.  
( الخطاب السلطاني لاعلان المشروطة الأولى سنة ١٢٩٤هـ ) .
- 2- Osmanli Arsivi, Yildiz, Esas, Evrakl, Zarf, No.314.  
( الخطاب السلطاني في اعادة المشروطة الثانية ١٣٢٦هـ )
- 3- Osmanli Arsivi, Yildiz Tansnifnamesi, Muahede Name, Namarsi, No.19, 1878
- 4- Osmanli Arsivi, Yildiz Tansnifnamesi, Muahede Name, Namarsi, No. 171, 1878.

ثانياً: وثائق باللغة الانجليزية :

GREAT BRITAIN PUBLIC RECORD:

- 5- F.O.: 424/197. No. 91.  
Sir, N. O'coner to the Marquess of Salisbury, 24-12-1898.
- 6- F.O.: 424/198. No. 76.  
Sir N. O'coner to M. Salisbury. 25-4-1899.
- 7- F.O.: 424/199. No. 3/1  
From Consul General Drummond Hay to Sir, N. O'conor.,  
21-6-1899.
- 8- F.O.: 424/199. No. 3/2 .  
From Consul General Durmmond Hay to Sir.,N. O.conor.,  
15-5-1899.
- 9- F.O.: 424/200 No.:33 Consul Richards to Sir N.O'conor , 19-  
2-1900.
- 10- F.O.: 424/200. No. 55. Sir, N.O'conor to Marguess of  
Salisbury, 22-5-1900.
- 11- F.O.: 424/200 No. 55/2. Consul General Drummond Hay to N.  
O'conor, 1900.



- 12- F.O. : 424/200. No. 55/3. Consul General Drummond Hay to No. O'conor, 7-5-1900.
- 13- F.O.: 424/222. No. 2. Mrmarling to Sir. Eduard Grey, 3-1-1910.
- 14- F.O.: 78/374. No. 247. From Campbell to Palmerston, 21-3-1833.
- 15- F.O.: 424/37. No. 210. The Marguis of Salisbary to the Earl of Derdy, 13-1-1877.
- 16- F.O.: 424/39. No. 572. Sir., H., Elliot to the Earl of Derby, 20-11-1875.

ثالثا : الرسائل الجامعية :

- ١٧- رضوان : نبيل عبدالحى : جهود العثمانيين لانقاذ الأندلس واستردادها. رسالة دكتوراه مقدمة لجامعة أم القرى ، تحت الطبع ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
- ١٨- الروقي: عايض خزام : حروب محمد علي في الشام ، وأثرها في الجزيرة العربية ، رسالة ماجستير مقدمة لجامعة أم القرى ، لم تنشر ، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م.
- ١٩- الوديناني : خلف دبلان : الاحساء في القرن الثاني عشر الهجري ، رسالة ماجستير مقدمة لجامعة أم القرى ، لم تنشر ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

رابعاً: المصادر العربية :

- ٢٠ - القرآن الكريم .
- ٢١ - آصاف : يوسف . تاريخ سلاطين آل عثمان ، تحقيق بسام عبدالوهاب الحابي ، الطبعة الثالثة ، دمشق ، دار الطباعة ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .
- ٢٢ - ابن بشر: عثمان بن عبد الله . عنوان المجد في تاريخ نجد ، تحقيق عبدالرحمن عبد الله آل الشيخ ، الطبعة الرابعة ، الرياض ، من مطبوعات دار الملك عبدالعزيز ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م .
- ٢٣ - بك : محمد فريد . تاريخ الدولة العلية العثمانية ، تحقيق احسان حقي ، الطبعة الثانية ، بيروت ، دار النفايس ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .
- ٢٤ - التونسي : خير الدين . أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك ، الطبعة الثانية ، تونس ، الدار التونسية للنشر ، ١٩٨٦م .
- ٢٥ - التونسي : محمد بيرم الخامس ، صفوة الاعتبار بمتسوع الأمصار والأقطار ، بيروت ، دار صادر ، طبع بالمطبعة الاعلامية بمصر ، ١٣٠٣هـ / ١٨٨٥م .
- ٢٦ - الجبرتي : عبدالرحمن : تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، بيروت ، دار الجيل .
- ٢٧ - جوهر : حسن محمد ، عمر دسوقي ، السيد ابراهيم سالم : لجنة البيان العربي ، القاهرة ، ج ٤ .
- ٢٨ - حلیم : ابراهيم بك : التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية ، الطبعة الأولى ، مطبعة عموم الأوقاف ، ١٣٢٣هـ / ١٩٠٥م .
- ٢٩ - خانكي : عزيز بك : ترك و أتاتورك ، القاهرة ، المطبعة المصرية ، الفجالة .
- ٣٠ - ابن حنبل : أحمد : مسند الامام ، بيروت ، المكتب الاسلامي .

- ٣١- سر كيس : سليم : كتاب سر مملكة ، طبع مصر ، ١٨٩٥ م .
- ٣٢- سرهنك : اسماعيل : حقائق الاخبار عن دول البحار ، الطبعة الأولى ، مصر ، طبع بالمطبعة الأميرية ببولاق ، ١٣١٢ هـ .
- ٣٣- صبري : مصطفى : الأسرار الخفية وراء الغاء الخلافة العثمانية ، تقديم مصطفى حلمي ، الطبعة الأولى ، الاسكندرية ، دار الدعوة ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م .
- ٣٤- طوسون : عمر : الجيش المصري ، مصر ، المستقبل ، الاسكندرية ، ١٣٥٥ هـ .
- ٣٥- علي : محمد كرد : خطط الشام ، الطبعة الثانية ، بيروت .
- ٣٦- بن عيسى : ابراهيم بن صالح : تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد ، الرياض ، من منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر .
- ٣٧- بن غنام : حسين : تاريخ نجد ، تحقيق ناصر الدين الأسد ، الطبعة الثانية ، الرياض ، مطابع شركة الصفحات الذهبية ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م .
- ٣٨- الفاخري : محمد بن عمر : الأخبار النجدية ، تحقيق عبد الله يوسف الشبل ، الرياض ، من مطبوعات جامعة الامام محمد بن سعود .
- ٣٩- لبيب : حسين : تاريخ الأتراك العثمانيين ، القاهرة ، مطبعة الواعظ بمصر ، ١٣٣٥ هـ / ١٩١٧ م .
- ٤٠- المناوي : محمد المدعو بعبدرؤوف : فيض القدير شرح الجامع الصغير ، الطبعة الثانية ، لبنان ، دار المعرفة للطباعة ، ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م .

خامسا : المراجع العربية :

- ٤١- أحمد : ابراهيم خليل : تاريخ الوطن العربي في العهد العثماني ، الموصل ، مديرية مطبعة الجامعة .

- ٤٢ - أنيس : محمد : الدولة العثمانية والشرق العربي ، القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٨٥ م.
- ٤٣ - أمين : أحمد : زعماء الاصلاح في العصر الحديث ، بيروت ، الناشر : دار الكتاب العربي .
- ٤٤ - البحراوي : محمد عبداللطيف : فتح العثمانيين عدن ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، دار التراث ، ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م.
- ٤٥ - البحراوي : محمد عبداللطيف : حركة الاصلاح العثماني في عصر محمود الثاني ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، دار التراث ، ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م.
- ٤٦ - البطريق : عبد الحميد : التيارات السياسية المعاصرة ، الطبعة الأولى ، بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٩٧٤ م.
- ٤٧ - آل بوطامي : أحمد بن حجر : الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، الطبعة الثالثة ، الرياض ، شركة مطابع الجزيرة ، ١٣٩٣ هـ.
- ٤٨ - بيهم : محمد جميل : فلسفة التاريخ العثماني ، الكتاب الثاني ، صدر في ١٣٧٣ هـ / ١٩٥٤ م.
- ٤٩ - بيهم : محمد جميل : العرب والترك في الصراع بين الشرق والغرب ، بيروت ، ١٣٧٦ هـ / ١٩٥٧ م.
- ٥٠ - التل : عبدالله : جذور البلاء ، الطبعة الثانية ، بيروت ، المكتب الاسلامي ، ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م.
- ٥١ - التونسي : محمد خليفة : الخطر اليهودي ، بروتوكولات صهيون ، القاهرة ، مكتبة دار التراث ، ١٩٥١ م.
- ٥٢ - جريشة : علي محمد وآخرون : أساليب الغزو الفكري للعالم الاسلامي ، دار الاعتصام .

- ٥٣- جمعه : ابراهيم : الأطلس التاريخي للدولة السعودية ، مطبوعات دار الملك عبدالعزيز ، ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م .
- ٥٤- جمعه : ابراهيم : جداول تحويل السنين الهجرية الى ماياقبلها من التواريخ الميلادية . مطبوعات دار الملك عبدالعزيز ، ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م .
- ٥٥- جمعه : محمد كمال : انتشار دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، الرياض ، من مطبوعات دار الملك عبدالعزيز ، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م .
- ٥٦- الجندي : عبدالحليم : الامام محمد بن عبدالوهاب ، القاهرة ، دار المعارف .
- ٥٧- الاحساني : محمد عبدالله بن عبدالمحسن آل عبدالقادر ، الطبعة الأولى ، الرياض ، مطبعة الرياض ، ١٣٧٩هـ / ١٩٦٩م .
- ٥٨- الحصري : ساطع : البلاد العربية والدولة العثمانية ، مطبعة الرسالة ، ١٩٥٧م .
- ٥٩- حسن : ابراهيم شحاته : أطوار العلاقات المغربية العثمانية ، الاسكندرية ، الناشر : منشأة المعارف بالاسكندرية ، ١٩٨١م .
- ٦٠- حسون : علي : العثمانيون والروس ، الطبعة الأولى ، بيروت ، المكتب الاسلامي ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م .
- ٦١- حسون : علي : تاريخ الدولة العثمانية ، الطبعة الثالثة ، بيروت ، المكتب الاسلامي ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .
- ٦٢- حسون : علي : العثمانيون والبلقان ، الطبعة الثانية ، بيروت ، المكتب الاسلامي ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م .
- ٦٣- حمادة : عابدين : تاريخ الشرق والغرب ، الطبعة الثالثة ، دمشق ، المطبعة الجديدة ، ١٩٥٧م .
- ٦٤- الحوالي : سفر عبدالرحمن : العلمانية ، الطبعة الأولى ، مكة المكرمة ، دار مكة للطباعة والنشر ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٣م .

- ٦٥- حلاق : حسان علي : موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية ، بيروت ، الناشر جامعة بيروت ، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م .
- ٦٦- حلاق : حسان علي : دور اليهود والقوى في خلع السلطان عبدالحميد عن العرش ، بيروت ، الدار الجامعية للطباعة والنشر ، ١٩٨٢م .
- ٦٧- خالدي : مصطفى وفروخ : التبشر والاستعمار ، الطبعة الخامسة ، ١٩٧٣م .
- ٦٨- خزعل : حسين خلف : تاريخ الجزيرة العربية في عصر الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، الطبعة الأولى ، بيروت ، مطابع دار الكتاب ، ١٩٦٨م .
- ٦٩- الخطيب : عبدالكريم : الدعوة الوهابية ، الطبعة الثانية ، جدة ، دار الشروق ، ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م .
- ٧٠- دحلان : أحمد زيني : الفتوحات الاسلامية ، القاهرة ، الناشر مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع ، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٨م .
- ٧١- درويش : مديحه : تاريخ الدولة السعودية حتى الربع الأول من القرن العشرين ، الطبعة الثانية ، جدة ، دار الشروق ١٤٠٢هـ / ١٩٨٣م .
- ٧٢- الدسوقي : محمد كمال : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ، القاهرة ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، ١٩٧٦م .
- ٧٣- الدسوقي : محمد كمال : تاريخ أوربا الحديث ، القاهرة ، مطبعة النهضة الجديدة .
- ٧٤- بن دهيش : عبداللطيف عبدا لله : قيام الدولة العثمانية ، الطبعة الأولى ، مكة المكرمة ، مكتبة ومطبعة النهضة الحديثة ، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٨م .
- ٧٥- الرافعي : عبدالرحمن : عصر محمد علي ، الطبعة الرابعة ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م .

- ٧٦- رجب : عمر الفاروق السيد : دراسات جغرافية المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى ، جدة ، دار الشروق ، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م.
- ٧٧- رمضان : مصطفى محمد : العالم الاسلامي في التاريخ الحديث والمعاصر ، القاهرة ، دار الوفاء للطباعة ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٢م.
- ٧٨- الرومي : عبدالعزيز زيد وآخرون : أسبوع الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، القسم الخاص للرسائل الشخصية ، طبع جامعة الامام محمد بن سعود .
- ٧٩- الريحاني : أمين : تاريخ نجد ، الطبعة الأولى ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٨٠م.
- ٨٠- الرئيس : محمد ضياء الدين : الشرق الأوسط ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، مكتبة الشباب ، ١٩٦٥م.
- ٨١- الرويشد : عبدالله بن سعد : الامام الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، القاهرة ، الناشر مكتبة عيسى البابي الحلبي وشركاه ، ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م.
- ٨٢- الزركلي : خير الدين : شبه الجزيرة العربية في عهد الملك عبدالعزيز ، الطبعة الثانية ، بيروت ، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م.
- ٨٣- أبوزهرة : محمد : محاضرات في النصرانية ، الطبعة الرابعة ، الرياض ، طبع الرئاسة العامة لادارات البحوث العلمية والدعوة والارشاد ، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.
- ٨٤- زيدان : جورجى : تاريخ الماسونية العام ، الطبعة الثانية ، بيروت ، دار الجيل ، ١٩٨٤م.
- ٨٥- زين : زين نورالدين : نشوء القومية العربية ، مع دراسة تاريخية في العلاقات العربية التركية ، الطبعة الثالثة ، بيروت ، ١٩٧٩م.

- ٨٦- زين : زين نور الدين : الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان ، الطبعة الثانية ، بيروت ، دار النهار للنشر ، ١٩٧٧م .
- ٨٧- السبكي : آمال : أوروبا في القرن التاسع عشر ، الطبعة الأولى ، جدة ، عالم المعرفة للنشر والتوزيع ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .
- ٨٨- سعيد : أمين : الثورة العربية الكبرى ، بيروت ، دار الكتاب العربي .
- ٨٩- سعيد : أمين : تاريخ الدولة السعودية ، الرياض ، من مطبوعات دار الملك عبدالعزيز .
- ٩٠- سعيد: عبدالستار فتح الله ، الغزو الفكري ، الطبعة الرابعة ، القاهرة ، دار الوفاء ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م .
- ٩١- السلطان : محمد عبدالله : دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، المطبعة السلفية ومكباتها ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م .
- ٩٢- سنقر : داود عبدالعفو : القوى الخفية لليهودية العالمية الماسونية ، الطبعة الأولى ، عمان ، دار الفرقان ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .
- ٩٣- سليمان : أحمد السعيد : تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة ، القاهرة ، الناشر دار المعارف ، ١٩٧٢م .
- ٩٤- شاعر : محمود : التاريخ الإسلامي ، العهد العثماني ، الطبعة الثانية ، بيروت ، المكتب الإسلامي ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م .
- ٩٥- شاعر : محمود : البحرين ، الطبعة الأولى ، بيروت ، المكتب الإسلامي ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م .
- ٩٦- الشناوي : عبدالعزيز محمد : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، القاهرة ، مطبعة جامعة القاهرة ، ١٩٨٠م .



- ٩٧- آل الشيخ : عبدالرحمن عبداللطيف : مشاهير علماء نجد وغيرهم ، الطبعة الأولى ، الرياض ، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م .
- ٩٨- الصغير : محمدحسين : المستشرقون والدراسات القرآنية ، الطبعة الأولى ، بيروت ، مج . المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .
- ٩٩- صفوت : محمد مصطفى : فتح القسطنطينية ، الرياض ، منشورات الفاخرية .
- ١٠٠- الصولي : أنيس : أسباب النهضة في القرن التاسع عشر ، حققه وقدم له : عبدالله الطباع ، الطبعة الأولى ، بيروت ، دار ابن زيدون ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .
- ١٠١- عباس : ابراهيم فواد ، الماسونية تحت المجهر ، الطبعة الأولى ، جدة ، دار الرشاد ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م .
- ١٠٢- عبدالرحيم : عبدالرحيم عبدالرحمن ، الدولة السعودية الأولى ، الطبعة الرابعة ، القاهرة ، الناشر دار الكتاب الجامعي ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م .
- ١٠٣- العبود : صالح بن عبدالله بن عبدالرحمن : عقيدة الشيخ محمد بن عبدالوهاب السلفية وأثرها في العالم الإسلامي . الطبعة الأولى ، المدينة المنورة ، من مطبوعات الجامعة الإسلامية ، ١٤٠٨هـ .
- ١٠٤- العثيمين : عبدالله الصالح : الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، حياته . وفكره ، الرياض ، الناشر دار العلوم ، مطبعة نهضة مصر .
- ١٠٥- عسه : احمد : معجزة فوق الرمال ، الطبعة الثانية ، لبنان ، المطابع الأهلية اللبنانية ، ١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م .

- ١٠٦- عطار : عبدالغفور : محمد بن عبدالوهاب ، الطبعة الثانية ، بيروت ، منشورات مكتبة العرفان ، ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م .
- ١٠٧- عطا : زييده : بلاد الترك في العصور الوسطى ، الناشر دار الفكر العربي .
- ١٠٨- عفيفي : نجيب : المستشرقون ، الطبعة الرابعة ، القاهرة ، دار المعارف .
- ١٠٩- عنان : محمد : تاريخ الجمعيات السرية والحركات الهدامة في المشرق ، دار البنين للنشر .
- ١١٠- علي : أورخان محمد : السلطان عبدالحميد الثاني ، حياته ، وأحداث عهده ، الطبعة الأولى ، الكويت ، دار الوثائق ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م .
- ١١١- عليان : محمد عبدالفتاح : أضواء على الاستشراق ، الطبعة الأولى ، الكويت ، الناشر دار النشر للطباعة ، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م .
- ١١٢- عمر : عمر عبدالعزيز : تاريخ المشرق العربي ، بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .
- ١١٣- غربال : محمد شفيق : منهاج مفصل لدروس في العوامل التاريخية في بناء الأمة العربية على ماهي عليه اليوم ، القاهرة ، جامعة الدول العربية ، معهد الدراسات العربية ، ١٩٦١م .
- ١١٤- غربال : محمد شفيق : محمد علي الكبير ، القاهرة ، دار الهلال .
- ١١٥- الغنام : سليمان محمد : قراءة جديدة لسياسة محمد علي التوسعية ، الطبعة الأولى ، جدة ، منشورات تهامة ، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م .
- ١١٦- ابوغنيمة : زياد : جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك ، الطبعة الثانية ، عمان ، دار العرفان للنشر والتوزيع ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م .
- ١١٧- أبوغنيمة : زياد : السلطان المجاهد الفاتح ، فاتح القسطنطينية ، الطبعة الثانية ، عمان ، دار الفرقان للنشر والتوزيع ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م .

- ١١٨- الفاتح : زهدي : لورنس العرب ، الطبعة الأولى ، بيروت ، دار النفائس ،  
١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م .
- ١١٩- فرج : السيد أحمد : جذور العلمانية ، الطبعة الثالثة ، دار الوفاء للطباعة  
والنشر ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م .
- ١٢٠- فهمي : عبدالسلام عبدالعزيز : فتح القسطنطينية ، دار الكاتب العربي ،  
الهيئة العامة للتأليف والنشر ، ١٩٦٩م .
- ١٢١- القطان: أحمد وآخرون : امام التوحيد الشيخ محمد بن عبدالوهاب ،  
الطبعة الأولى ، الكويت ، مكتبة السندس ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م .
- ١٢٢- قطب ، سيد : المستقبل لهذا الدين ، الطبعة السابعة ، القاهرة ، دار الشروق  
، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م .
- ١٢٣- قطب : محمد ، واقعا المعاصر ، الطبعة الرابعة ، جدة ، الناشر: مؤسسة  
المدينة للصحافة والطباعة والنشر ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م .
- ١٢٤- قطب : محمد علي : يهود الدوامة ، الطبعة الأولى ، بيروت ، دار القلم ،  
١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م .
- ١٢٥- كشك : محمد جلال : الغزو الفكري ، الطبعة الرابعة ، المختار الاسلامي  
للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م .
- ١٢٦- كشك : محمد جلال : السعوديون والحل الاسلامي ، الطبعة الثانية ،  
١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م .
- ١٢٧- كيلاني : اسماعيل : فصل الدين عن الدولة ، الطبعة الأولى ، بيروت ،  
المكتب الاسلامي ، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م .
- ١٢٨- ماضي : محمد عبدالله : النهضة الحديثة في جزيرة العرب ، الطبعة الثانية  
، القاهرة ، الناشر دار احياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه ،  
١٣٧٢هـ / ١٩٥٢م .

- ١٢٩- محمود : على عبدالحليم : الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام من البحوث المقدمة لمؤتمر الفقه الإسلامي الذي عقدته جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض ، عام ١٣٩٦ هـ . مطابع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م .
- ١٣٠- المختار : صلاح الدين : تاريخ المملكة العربية السعودية ماضيها وحاضرها ، بيروت ، منشورات مكتبة الحياة .
- ١٣١- مداح : أميرة : العثمانيون والإمام القاسم بن محمد بن علي في اليمن ، الطبعة الأولى ، جدة ، من مطبوعات تهامة ، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م .
- ١٣٢- بن المرجه : موفق : صحوة الرجل المريض أو السلطان عبد الحميد الثاني والخلافة الإسلامية ، الكويت ، مؤسسة صقر الخليج ، ١٩٨٤ م .
- ١٣٣- المسلم : محمد سعيد : ساحل الذهب الأسود ، الطبعة الثانية ، بيروت ، من منشورات درا مكتب الحياة ، ١٩٦٠ م .
- ١٣٤- مشهداني : عبد الكريم : العلمانية وآثارها على الأوضاع الإسلامية في تركيا ، الطبعة الأولى ، منشورات المكتبة الدولية ، الرياض ، ومكتبة الخافقين ، دمشق ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م .
- ١٣٥- مصطفى : أحمد عبدالرحيم : في أصول التاريخ العثماني ، الطبعة الأولى ، بيروت ، دار الشروق ، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م .
- ١٣٦- مكاربوس : شاهين : تاريخ الماسونية العلمية ، الطبعة الأولى ، ١٨٩٧ م .
- ١٣٧- منسي : محمود صالح : حركة اليقظة العربية ، الطبعة الثانية ، ملتزم الطبع والنشر ، دار الفكر العربي ، ١٩٧٨ م .
- ١٣٨- المودودي : أبو الأعلى : نحن والحضارة الغربية ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م .

- ١٣٩- مؤنس : حسين : الشرق الاسلامي في العصر الحديث ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، نشر لجنة الجامعيين لنشر العلم .
- ١٤٠- ملا : محمد قربان نياز : السلطان عبدالحميد الثاني : الطبعة الأولى ، مكة . مكتبة المنارة ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م .
- ١٤١- نخله : محمد عرابي : تاريخ الاحساء السياسي ، الكويت ، منشورات ذات السلاسل ، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م .
- ١٤٢- الندوي : ابوالحسن : ماذا خسر العالم باخطا المسلمين ، الطبعة الثالثة، الكويت ، دار القلم ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م .
- ١٤٣- النعيمي : أحمد نوري : أثر الأقلية اليهودية في سياسة الدولة العثمانية تجاه فلسطين ، بغداد ، مطبعة جامعة بغداد ، ١٩٨٢م .
- ١٤٤- نعنعي : عبدالمجيد : أوروبا في بعض الأزمنة الحديثة والمعاصرة ، بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٩٨٣م .
- ١٤٥- نوار: عبدالعزيز سليمان : الشعوب الاسلامية ، بيروت ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، ١٩٧٣م .
- ١٤٦- نوار: عبدالعزيز سليمان ، وعبدالحميد نعنعي : التاريخ المعاصر أوروبا من الثورة الفرنسية الى الحرب العالمية الثانية ، بيروت ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م .
- ١٤٧- هريدي : محمد عبداللطيف : الحروب العثمانية الفارسية ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، دار الصحوة للنشر والتوزيع ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٧م .
- ١٤٨- وحيدة : صبحي : في أصول المسألة المصرية ، القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٥٠م .
- ١٤٩- وجددي : محمد فريد : دائرة المعارف الاسلامية ، مادة " تنظيمات " الناشر جهان .

سادسا : المصادر الأجنبية المترجمة :

- ١٥٠- اتلخان : جواد رفعت : أسرار الماسونية ، ترجمة نورالدين رضا الواعظ وآخرون . القاهرة ، الناشر مجلة الأزهر ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .
- ١٥١- ارنولد : سرتوماس . و . أ . الدعوة الى الاسلام : ترجمة حسن ابراهيم وآخرون . الطبعة الثالثة ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٧٠م .
- ١٥٢- اوزتونا : يلماز : تاريخ الدولة العثمانية ، ترجمة : عدنان محمود سليمان ، تركيا ، استانبول ، منشورات مؤسسة فيصل للتمويل ، ١٩٨٨م .
- ١٥٣- الثاني : السلطان عبدالحميد : مذكراتي السياسية ، الطبعة الثانية ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م .
- ١٥٤- مذكرات السلطان عبدالحميد : ترجمة محمد حرب عبدالحميد ، الطبعة الأولى ، الكويت ، دار الوثائق ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .
- ١٥٥- جودت باشا : أحمد : تاريخ جودت : ترجمة عبدالقادر أفندي الدنا ، بيروت ، طبع مطبعة جريدة بيروت ، ١٣٠٨هـ .
- ١٥٦- ستودارد : لوثر ، و ب : حاضر العالم الاسلامي ، ترجمة عجاج نويهض وتعليق شكيب ارسلان ، الطبعة الرابعة ، بيروت ، دار الفكر للطباعة والنشر ، ١٣٩٤هـ/١٩٧٣م .
- ١٥٧- طوران : مصطفى : أسرار الانقلاب العثماني ، ترجمة كمال خوجه ، الطبعة الرابعة ، القاهرة ، دار السلام ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .
- ١٥٨- المانع : محمد : توحيد المملكة العربية السعودية ، ترجمة الدكتور عبدا لله الصالح العثيمين ، الطبعة الأولى ، الدمام ، طبع في شركة مطابع المطوع ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م .

١٥٩- مذكرات مدحت باشا : تعريب يوسف كمال بك حتاته ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، مطبعة هندية بمصر ، ١٣٢١هـ / ١٩١٢م .

سابعاً: المراجع الأجنبية المترجمة :

١٦٠- انطونيوس : جورج : يقظة العرب ، تعريب علي حيدر ، دمشق ، مطبعة الترقى ، ١٣٦٥هـ / ١٩٤٦م .

١٦١- بروكلمان : كارل : تاريخ الشعوب الاسلامية ، ترجمة نبيه فارس ومنير البعلبكي ، الطبعة السادسة ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٧٤م .

١٦٢- بوكاي موريس : دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة ، الطبعة الرابعة ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٧م .

١٦٣- تونبي : أرنولد : تاريخ البشرية ، نقله الى العربية نقولا زيادة ، بيروت ، الأهلية للنشر والتوزيع ، ١٩٨٢م .

١٦٤- جب : هاملتون : المجتمع الاسلامي والغرب ، ترجمة أحمد عبدالرحيم مصطفى ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٩م .

١٦٥- جرانت : أ.ج : وهارولد تمبرلي : أوروبا في القرنين التاسع عشر والعشرين ، ١٧٨٩م - ١٩٥٠م ، ترجمة بهاء فهمي ، مراجعة الدكتور احمد عزت عبدالكريم . القاهرة ، الناشر مؤسسة العرب ، ١٩٨٥م .

١٦٦- دوفرجه : موريس : دساتير فرنسا : ترجمة أحمد حسيب عباس ، القاهرة ، الناشر : مكتبة الآداب ، المطبعة النموذجية ، الحلمية الجديدة .

١٦٧- رامزور : ارنست . أ. : تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨م ، بيروت ، نيويورك ، نشر مع فرنكلين المساهمة للطباعة والنشر ، ١٩٦٠م .

- ١٦٨- شاتليه : أ.ل. : الغارة على العالم الاسلامي ، ترجمة محب الخطيب ومساعد الباقي ، الطبعة الرابعة ، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م.
- ١٦٩- شيني .ل.ج. : تاريخ العالم العربي ، ترجمة مجد الدين حنفي ناصف ، القاهرة ، الناشر دار النهضة العربية .
- ١٧٠- لوتسكي : تاريخ الأقطار العربية ، ترجمة عفيفه البستاني ، موسكو ، دار التقدم .
- ١٧١- لويس : برنارد : استنبول ، تعريف سيد رضوان على ، الطبعة الثانية ، جدة ، الدار السعودية للنشر والتوزيع ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.
- ١٧٢- لويس : برنارد : الغرب والشرق الأوسط ، تعريف الدكتور نبيل صبحي ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، المختار الاسلامي للطباعة والنشر ، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م.
- ١٧٣- عز الدين : نجلاء : العالم الغربي ، ترجمة محمد عوض ابراهيم وآخرون ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، الناشر دار احياء الكتب العربية ، ١٩٦٢م.
- ١٧٤- وتلن : الما : عبد الحميد ظل الله على الأرض : ترجمة راسم افندي ، القاهرة ، ١٩٥٠م.
- ١٧٥- ولز: ه.ج. : معالم تاريخ الانسانية ، ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٦٧م.
- ١٧٦- هازارد : هاري وآخرون : أطلس التاريخ الاسلامي ، ترجمة ابراهيم زكي خورشيد . القاهرة . مطبعة برنستون ومكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٤م.



ثامنا : المصادر التركية :

أ- باللغة العثمانية :

١٧٧- باشا : كامل : تاريخ سياسي دولت عليه عثمانية ، تأسس دولت عليه دن جنتكمان سلطان عبدالحميد خانك او اخر سلطنته قدر كذران ايدت زمانه عاندر . مطبعة احمد احسان ، ١٣٢٨ هـ .

١٧٨- راسم : أحمد : رسمي وخريطة لي عثمانلي تاريخي . برنجي طبع استانبول ، وناشري اقبال كتبخانسي ، صاحبي حسين ، شمس مطبعة سي ، ١٣٢٨ هـ .

١٧٩- لهاد : أ.د. انكه : تركيا وتنظيمات دولت عثمانية نك تاريخ اصلاحاتي ١٨٢٦-١٨٨٢ مترجمي : على رشاد . طابع وناشري : صاحبي الياس . اسطنبول ١٣٢٨ هـ .

ب - باللغة التركية :

- 180- GEVAT : ALI : Ikinci Mesrutiyetin ilani ve ctuzbir mart Hadisesi Abolu ehamid in son mabeyn Baskatibi Ali cevatt bby'in Fezlekasi Yayina Hazi, Layay: Faikresit Turic Taria Kurumu Basimevi, Ankara, 1985.
- 181- Develliogla : Ferit: Osmanlica Turkce Ansiklopedik Lugat . مادة ( استانة ) .
- 182- SHAW : Stanford . J. Ezolkural Shaw. Osmanli Imparatorlligu ve mobern turkiye Stunkesi: Mehmet Har Mancı e yeyiular, I Baski, Istanbul . 1983.

تاسعا : " المصادر والمراجع باللغة الانجليزية :

- 183- Davison Roderic . H. : Turkey , A Short History , The Eother Press, Walkington , Beverley , England, 1981.
- 184- Davis : Willam Stearns : A Short History of the Near East .
- 185- Inalcin : Halil: The Ottman Empire. Weiben Fel and Nicolsor , Lonson .

- 186- Morely : John : The Life of Willim Ewart Glad Stone. Vol.1. 1809-1859, London , 1903.
- 187- Maxwell : Robert , Pergamon Worldatlas, Oxford, 1968.
- 188- Parry : V.J. A History of The Ottoman Empire , Cambridge University Press, Cambridge , London, New York , Mel Bourne.

عاشرا : الدوريات والمجلات العلمية :

- ١٨٩- البحر اوي : محمد عبداللطيف : التاريخ المعاصر وعلاقته العضوية بالأزمة ، مجلة دارة الملك عبدالعزيز ، العدد الثاني ، السنة الحادية عشرة ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.
- ١٩٠- البحر اوي : محمد عبداللطيف : من خصائص تاريخ العثمانيين وحضارتهم ، مجلة دارة الملك عبدالعزيز ، العدد الرابع ، السنة الثالثة عشر ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
- ١٩١- الحقييل : عبدالله : الدعوة الاصلاحية في مواجهة التحديات ، مقال منشور في الكتاب السنوي الثالث ، طبع الوثائق التاريخية بدولة البحرين ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.
- ١٩٢- الدسوقي: محمد كمال : أهمية الحجاز في مطلع العصور الحديثة ، مجلة كلية الشريعة والدراسات الاسلامية ، العدد الثاني ، السنة الثانية ١٣٩٦هـ/١٣٩٧هـ.
- ١٩٣- الدسوقي : محمد كمال : العثمانيون وقراصنة رودس ، مجلة البحث العلمي ، كلية الشريعة والدراسات الاسلامية بمكة المكرمة ، العدد الثاني ، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

١٩٤- ابن دهبش : عبداللطيف عبدالله : أحوال شبه الجزيرة العربية قبل قيام الدولة السعودية الأولى ، مجلة العرب ، تصدر عن دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، الرياض ، ج ١ ، ٢ ، س ٢٢ ، رجب / شعبان ١٤٠٧هـ .

١٩٥- رئيس التحرير : الوثائق تتكلم ، مجلة دار الملك عبدالعزيز ، العدد الثاني ، السنة الأولى ، ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م .

١٩٦- المقدسي : روجي بك الخالدي : الانقلاب العثماني ، مجلة الهلال ، القاهرة ، الجزء الثاني ، السنة السابعة عشر ، ١٣٢٦هـ / ١٩٠٨م .

١٩٧- نورس : علاء موسى كاظم : مسنولية الانكشارية في تدهور الدولة العثمانية ، المجلة التاريخية المغربية ، السنة التاسعة ، العدد ٢٥ ، ٢٦ ، ١٩٨٢م .

١٩٨- هيئة التحرير : تاريخ الجند العثماني ، مجلة الهلال ، القاهرة ، الجزء الثامن ، السنة السابعة عشرة ، ١٣٢٦هـ / ١٩٠٩م .

١٩٩- هيئة الأخبار : الرجل المريض دعاية يهودية ، مجلة التضامن الاسلامي ، السنة الرابعة والأربعون ، الجزء السادس ، ذي الحجة ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م .

٢٠٠- هيئة التحرير : سليمان الكبير ، مجلة الهلال ، القاهرة الجزء الثاني من السنة الأولى ، ١٣١٠هـ / ١٨٩٢م .

٢٠١- هيئة التحرير : عبدالحميد الثاني في أول شبابه قبل توليه الملك ، القاهرة ، مجلة الهلال ، الجزء التاسع ، السنة السابعة عشر ، ١٣٢٧هـ / ١٩٠٩م .

٢٠٢- هيئة التحرير : مجلة الدعوة السعودية ، العدد ٥٧٠ ، ٢٥ شوال سنة ١٤٩٦هـ / ١٩٧٦م .

## فهرس الموضوعات

<u>الصفحة</u>	<u>الموضوع</u>
٧	تقديم الموضوع .....
١٧	المقدمة : طبيعة الدولة العثمانية : .....
١٩	أ - نشأة الدولة .....
٣٧	ب - الجهاد والفتح ونشر الاسلام .....
٧٩	الفصل الأول : الدولة في عصرها الأول :
	أ - تطبيق النظم الاسلامية ، فضل الاسلام في قوة الدولة وتماسكها
٨١	والحصانة الفكرية .....
٩٠	ب - الانكشارية والتربية الاسلامية .....
	ج - انتشار الاسلام في أوروبا في عصر عظمة الدولة :
٩٨	فتح القسطنطينية وتهديد روما .....
١٢٥	الفصل الثاني : الدولة العثمانية في عصرها الثاني :
١٢٧	أ - اتساع الدولة وكثرة مشكلاتها : .....
	ب - الخلل : السلاطين - العلماء - الانكشارية - التوقف
١٥٢	والركود .....
	ج - الخطة الجديدة للعالم النصراني نحو الدولة : فشل الحلول
١٧٦	العسكرية الغزو الفكري. سياسة الرجل المريض .....

٢٢١	الفصل الثالث : عوامل الغزو الفكري الأوربي للدولة :
٢٢٣	أ - أثر الموقع الجغرافي .....
	ب - تطورات التاريخ الأوربي الحديث : العلمانية والقومية والحركة
٢٢٩	الدستورية .....
٢٣٥	ج - صدى الثورة الفرنسية .....
٢٤٩	د - أطماع الدولة الأوربية في ممتلكات الدولة الاسلامية .....
٢٧٠	هـ - أنشطة الماسونية والصهيونية .....
٢٨٩	الفصل الرابع : مظاهر الغزو الفكري في الدولة العثمانية
٢٩١	أ - الاستغراب : (اتجاه الدولة الى الاصلاح العسكري) .....
٣١٦	ب - عصر التنظيمات العثمانية .....
٣٧٠	ج - التغريب : مدحت باشا وزملاؤه .....
٣٩١	د - المشروطة الأولى والثانية .....
٤٦١	الفصل الخامس : مواجهة الغزو الفكري في الدولة العثمانية
٤٦٣	أ - في تركيا والولايات العثمانية الأخرى .....
٤٨٢	ب - دعوة التوحيد والاصلاح في شبه الجزيرة العربية .....
٤٩٩	١ - اهميتها في مواجهة الغزو .....
٥١٣	٢ - استمرارها في أدوار السعودية الثلاث .....
٥١٦	٣ - تقديم نموذج للدولة العصرية .....
٥٢٠	٤ - صد التدهور عن الجزيرة العربية .....
٥٢٣	ج - تأثير حركات الاصلاح في العالم الاسلامي بها .....
٥٣١	الخاتمة والنتائج .....
٥٦١	الملاحق .....
٥٧٥	المصادر والمراجع .....



سلسلة رسائل علمية لموصى بطبعها  
" ٢ "



المملكة العربية السعودية  
وزارة التعليم العالي  
جامعة أم القرى  
معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي  
مكة المكرمة

## الدولة العثمانية والغزو الفكري

حتى عام ١٣٢٧ هـ / ١٩٠٩ م

دكتور

خلف بن دبلان بن خضر الوديناني

الأستاذ المساعد في التاريخ الحديث والمعاصر

بجامعة أم القرى

مكة المكرمة

١٤١٧ هـ / ١٩٩٦ م